الغنية
طريق الحق في الأخلاق الإسلامية والتصوف والآداب
للشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني
(٤٧٠ - ٥٦١ هـ)
دار الألباب

تراث الإسلام

٣

الغنية

لطالبي طريق الحق

في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية

للشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني

٤٧٠ — ٥٦١ هـ

الجزء الأول

دمشق - حلبوني

ترجمة المؤلف

هو أبو صالح سيدى عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن يحيي الزاهد بن محمد بن داود بن موسى الجون بن عبد الله المحضى بن الحسن المثنى بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم أجمعين . ولد رضى الله تعالى عنه سنة سبعين وأربعمائة، وتوفى سنة إحدى وستين وخمسمائة، ودفن ببغداد رضى الله تعالى عنه ، وقد أفرده الناس بالتأليف ، ونحن نذكر إن شاء الله تعالى نبذة من مناقبه مما به تأديب ونفع للسامع فنقول وبالله التوفيق .

كان رضى الله عنه يقول : عثر الحسين الحلاج فلم يكن فى زمنه من يأخذبيده ، وأنا لكل من عثر مركوبه من أصحابى ومريدىّ ومحبىّ إلى يوم القيامة آخذ بيده ، يا هذا فرسى ملجم ، ورمحى منصوب ، وسيفى شاهر ، وقوسى موتر ، أحفظك وأنت غافل . وحكى عن أمه رضى الله عنها وكان لها قدم فى الطريق أنها قالت : لما وضعت ولدى عبد القادر كان لايرضع ثديه فى نهار رمضان ، ولقد غمّ على الناس هلال رمضان، فأتونى وسألونى عنه، فقلت لهم : إنه لم يلتقم اليوم له ثديا ، ثم اتضح أن ذلك اليوم كان من رمضان ، واشتهر ببلدنا فى ذلك الوقت أنه ولد للأشراف ، ولد لا يرضع فى نهار رمضان، وكان رضى الله عنه يلبس لباس العلماء ويتطيلس ، ويركب البغلة ، وترفع الغاشية بين يديه ، ويتكلم على كرسى عال، وربما خطى فى الهواء خطوات على رءوس الناس ، ثم يرجع إلى الكرسى . وكان رضى الله عنه يقول : بقيت أياما كثيرة لم أستطعم فيها بطعام ، فلقينى إنسان فأعطانى سرّة فيها دراهم ، فأخذت منها خبزا سميذا وخبيصاً ، فجلست آكله ، فإذا برقعة مكتوب فيها : قال الله تعالى فى بعض كتبه المنزلة : إنما جعلت الشهوات لضعفاء خلقى ليستعينوا بها على الطاعات ، أما الأقوياء فما لهم وللشهوات فتركت الأكل وانصرفت . وكان رضى الله عنه يقول : إنه ليرد علىّ الأثقال الكثيرة لو وضعت على الجبال لتفسخت ، فإذا كثرت على الأثقال وضعت جنبى على الأرض وتلوت (فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا) ثم أرفع رأسى ، وقد انفرجت عنى تلك الأثقال . وكان رضى الله عنه يقول : قاسيت الأهوال فى بدايتى ، فما تركت هولا إلا ركبته، وكان لباسى جبة صوف ، وعلى رأسى خريقة ، وكنت أمشى حافيا فى الشوك وغيره ، وكنت أقتات بخرنوب الشوك وقمامة البقل وورق الخسّ من شاطىء النهر ، ولم أزل آخذ نفسى بالمجاهدات حتى طرقنى من الله تعالى الحال ، فإذا طرقنى صرخت وهمت على وجهى ، سواء كنت فى صحراء أو بين الناس وكنت أتظاهر بالتخارس والجنون ، وحملت إلى البيمارستان وطرقتنى مرة الحال حتى متّ ، وجاءوا بالكفن والغاسل ، وجعلونى على المغتسل ليغسلونى ،

ثم سرى عنى وقمت . وقال له رجل مرة : كيف الخلاص من العجب ؟ فقال رضى الله عنه : من رأى الأشياء من الله وأنه هو الذى وفقه لعمل الخير ، وأخرج نفسه من البين فقد سلم من العجب . وقيل له مرة : ما لنا لا نرى الذباب يقع على ثيابك ؟ فقال : أى شىء يعمل الذباب عندى وأنا ما عندى شىء من دبس الدنيا ولا عسل الآخرة . وكان رضى الله عنه يقول : أيما امرئ مسلم عبر على باب مدرستى خفف الله عنه العذاب يوم القيامة . وكان رجل يصرخ فى قبره ويصيح حتى آذى الناس ، فأخبروه به ، فقال : إنه رآنى مرّة ، ولا بد أن الله تعالى يرحمه لأجل ذلك ؛ فمن ذلك الوقت ما سمع له أحد صراخا ، وتوضأ رضى الله عنه يوماً فبال عليه عصفور ، فرفع رأسه إليه وهو طائر ، فوقع ميتا ، فغسل الثوب ثم باعه وتصدّق بثمنه، وقال هذا بهذا . وكان رضى الله عنه يقول : ياربّ كيف أهدى إليك روحى وقد صحّ بالبرهان أن الكلّ لك . وكان رضى الله عنه يتكلم فى ثلاثة عشر علما ، وكانوا يقرءون عليه فى مدرسته درسا من التفسير ، ودرسا من الحديث ، ودرسا من المذهب ، ودرسا من الخلاف ؛ وكانوا يقرءون عليه طرفى النهار التفسير وعلوم الحديث والمذهب والخلاف والأصول والنحو . وكان رضى الله عنه يقرأ القرآن بالقراءات بعد الظهر ، وكان يفتى على مذهب الإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنهما ، وكان فتواه تعرض على العلماء بالعراق فتعجبهم أشدّ الإعجاب فيقولون : سبحان من أنعم عليه .

ورفع إليه سؤال فى رجل حلف بالطلاق الثلاث إنه لابد أن يعبد الله عزّ وجل عبادة ينفرد بها دون جميع الناس فى وقت تلبسه ، فماذا يفعل من العبادات ؟ فأجاب على الفور : يأتى مكة ويخلى له المطاف ويطوف أسبوعا وحده فإنه تنحلّ يمينه ، فأعجب علماء العراق وكانوا قد عجزوا عن الجواب عنها . ورفع له شخص ادعى أنه يرى الله عزّ وجل بعينى رأسه ، فقال : أحقّ ما يقولون عنك ؟ فقال : نعم ، فانتهره ونهاه عن هذا القول ، وأخذ عليه أن لا يعود إليه ، فقيل للشيخ أمحقٌ هذا أم مبطل ؟ فقال : هذا محقّ ملبس عليه ، وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال ، ثم خرق من بصيرته إلى بصره لمعة ؛ فرأى بصره ببصيرته ، وبصيرته يتصل شعاعها بنور شهوده ، فظن أن بصره رأى ما شهده ببصيرته ، وإنما رأى بصره ببصيرته فقط ، وهو لا يدرى ، قال الله تعالى (مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان) ، وكان جمع من المشائخ وأكابر العلماء حاضرين هذه الواقعة فأطربهم سماع هذا الكلام ، ودهشوا من حسن إفصاحه عن حال الرجل ، ومزّق جماعة ثيابهم وخرجوا عرايا إلى الصحراء .

وكان رضى الله عنه يقول : تراءى لى نور عظيم ملأ الأفق ثم تدلى فيه صورة تناديني : يا عبد القادر أنا ربك ، وقد حللت لك المحرّمات ، فقلت : اخسأ يالعين ، فإذا ذلك النور ظلام وتلك الصورة دخان ؛ ثم خاطبنى يا عبد القادر نجوت منى بعلمك بأمر ربك وفقهك فى أحوال منازلاتك ، ولقد أضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق ، فقلت : لله الفضل ، فقيل

له كيف علمت أنه شيطان ؟ قال : بقوله قد حللت لك المحرّمات : وسئل رضى الله عنه عن صفات الموارد الإلهية والطوارق الشيطانية فقال : الوارد الإلهى لايأتى باستدعاء ، ولا يذهب بسبب ، ولا يأتى على نمط واحد ولا فى وقت مخصوص ؛ والطارق الشيطانى بخلاف ذلك غالبا ، وسئل رضى الله عنه عن الهمة فقال : هى أن يتعرّى العبد بنفسه عن حبّ الدنيا ، وبروحه عن التعلق بالعقبى ، وبقلبه عن إرادته مع إرادة المولى ، ويتجرّد بسرّه عن أن يلمح الكون أو يخطر على سره . وسئل رضى الله عنه عن البكاء فقال : ابك له ، وابك منه ، وابك عليه ولا حرج . وسئل رضى الله عنه عن الدنيا فقال : أخرجها من قلبك إلى يدك ، فإنها لا تضرّك . وسئل رضى الله عنه عن الشكر فقال : حقيقة الشكر : الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ، ومشاهدة المنة وحفظ الحرمة على وجه معرفة العجز عن الشكر . وكان يقول : الفقير الصابر مع الله تعالى أفضل من الغنىّ الشاكر له ، والفقير الشاكر أفضل منهما ، والفقير الصابر الشاكر أفضل منهم ، وما خطب البلاء إلا من عرف المبلى . وسئل رضى الله عنه عن البقاء فقال : البقاء لا يكون إلا مع اللقاء ، واللقاء يكون كلمح البصر أو هو أقرب ، ومن علامة أهل اللقاء أن لا يصحبهم فى وصفهم به شىء فإن ، لأنهما ضدّان . وكان يقول : متى ذكرته فأنت محب ، ومتى سمعت ذكره لك فأنت محبوب ، والخلق حجابك عن نفسك ، ونفسك حجابك عن ربك ، وما دمت ترى الخلق لاترى نفسك ، ومادمت ترى نفسك لاترى ربك . ولما اشتهر أمره فى الآفاق اجتمع مائة فقيه من أذكياء بغداد يمتحنونه فى العلم ، فجمع كل واحد له مسائل وجاء إليه ؛ فلما استقرّ بهم المجلس أطرق الشيخ ، فظهرت من صدره بارقة من نور ، فمرّت على صدور المائة فمحت ما فى قلوبهم ، فبهتوا واضطربوا وصاحوا صيحة واحدة ، ومزّقوا ثيابهم ، وكشفوا رءوسهم ؛ ثم صعد الكرسى وأجاب الجميع عما كان عندهم ، فاعترفوا بفضله . وكان من أخلاقه أن يقف مع جلالة قدره مع الصغير والجارية ، ويجالس الفقراء ويفلى لهم ثيابهم ، وكان لا يقوم لأحد قط من العظماء ولا أعيان الدولة ، ولا ألم قط بباب وزير ولا سلطان .

وبالجملة فناقبه لا تحصى ، وهى أكثر من أن تستقصى ، رضى الله عنه وعن جميع الأولياء والصالحين ، ورحمنا بهم وحشرنا فى زمرتهم أجمعين .

فهرست

الجزء الأول من كتاب الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

فهرست

الجزء الثانى من كتاب الغنية لطالبى طريق الحق عز وجل

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ
(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على نعمائه ، والصلاة والسلام على سيد أنبيائه ، وعلى آله وأحبائه :

قال غوثنا الأعظم ، سند العرب والعجم ، نور الثقلين ، قطب الخافقين ، محيي السنة أبو محمد عبد القادر الحسني الحسيني الجيلاني ، قدّس الله سرّه العالي ، وأفاض بركاته على من اقتدى بسرّه السامي :

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب ، وبذكره يصدر كل خطاب ، وبحمده يتنعم أهل النعيم في دار الجزاء والثواب ، وباسمه يشفى كل داء ، وبه يكشف كل غمة وبلاء ؛ إليه ترفع الأيدي بالتضرّع والدعاء ، في الشدة والرخاء ، والسرّاء والضرّاء ، وهو سامع لجميع الأصوات ، بفنون الخطاب على اختلاف اللغات ، والمجيب للمضطر الدعاء ، فله الحمد على ما أولى وأسدى ، وله الشكر على ما أنعم وأعطى ، وأوضح الحجة وهدى ، وصلواته على صفيه ورسوله الذي به من الضلالة هدى ، (محمد) وآله وأصحابه وإخوانه المرسلين ، والملائكة المقرّبين وسلم تسليما .

أما بعد : فقد ألحّ عليّ بعض أصحابي وشدّد في الخطاب ، في تصنيف هذا الكتاب ، لحسن ظنه في الإصابة والصواب ، والله هو العاصم في الأقوال والأفعال والمطلع على الضمائر والنيات ، والمنعم المتفضل بتسهيل ما أراد ، وإليه عزّ وجلّ الالتجاء بتطهير القلوب من الرياء والنفاق ، وإبدال السيئات بالحسنات ، إنه غافر للذنوب والخطيات ، وقابل التوبة من العباد . فلما رأيت صدق رغبته في معرفة الآداب الشرعية من الفرائض والسنن والهيئات ، ومعرفة الصانع عزّ وجلّ بالآيات والعلامات ، ثم الاتعاظ بالقرآن والألفاظ النبوية في مجالس تذكرها ، ومعرفة أخلاق الصالحين سنمرّ بها في أثناء الكتاب ، ليكون عونا له على سلوك طريق الله عزّ وجلّ وامتثال أوامره وانتهاء نواهيه ، ووجدت له نية صادقة قد صدرت من فتوح الغيب فيّ ، فأجبته إلى ذلك فسارعت مشمرا مبتغيا محتسبا للثواب ، راجيا للنجاة في يوم الحساب ، إلى جمع هذا الكتاب ، بتوفيق رب الأرباب ، الملهم للصواب ، وقد سميته :

الغنيــــة

لطالبي طريق الحق عزّ وجلّ

باب

نبدأ فنقول : الذي يجب على من يريد الدخول فى ديننا . أولا : أن يتلفظ بالشهادتين : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . ويتبرأ من كل دين غير دين الإسلام . ويعتقد بقلبه وحدانية الله تعالى على ما سنبينه إن شاء الله تعالى ، إذ كان الإسلام هو الدين عند الله تعالى ، قال الله عز وجل (إن الدين عند الله الإسلام) وقال تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) فإذا أتى بذلك دخل فى الإسلام وحرم قتله وسبي ذراريه واستغنام أمواله ، ويغفر له ما تقدّم من التفريط فى حق الله عزّ وجلّ لقوله تعالى (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف) وقول النبي صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » ولقوله صلى الله عليه وسلم « الإسلام يجبّ ماقبله » ثم يجب عليه الغسل للإسلام ؛ لما روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر ثمامة بن أثال وقيس بن عاصم لما أسلما بالغسل . وفى رواية « ألق عنك شعر الكفر واغتسل » . ثم يجب عليه الصلاة ، لأن الإيمان قول وعمل ، لأن القول دعوى والعمل هو البينة ، والقول صورة والعمل روحها . وللصلاة شرائط تتقدمها ، وهى الطهارة بالماء الطهور ، والتيمم عند عدمه ، والستارة بثوب طاهر ، والوقوف على بقعة طاهرة ، واستقبال القبلة والنية ودخول الوقت . أما الطهارة فلها فرائض وسنن . والفرائض فى ظاهر المذهب عشرة : النية أولا ؛ وهو أن ينوى بطهارته رفع الحدث ، وإن كان تيمما فاستباحة الصلاة ، لأن التيمم لايرفع الحدث ، ومحلها القلب ، فإن ذكر ذلك بلسانه مع اعتقاده بقلبه كان قد أتى بالأفضل ، وإن اقتصر على الاعتقاد أجزأ . ثم التسمية وهو أن يذكر الله تعالى عند إرادته أخذ الماء . ثم المضمضة ، وهو دوران الماء فى الفم ومجه وإخراجه منه . ثم الاستنشاق ، وهو إدخال الماء فى خرمى الأنف . ثم غسل الوجه ، وحدّه من منابت شعر الرأس إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولا ، ومن وتد الأذن إلى وتد الأذن عرضا . ثم غسل اليدين إلى المرفقين . ثم مسح الرأس ؛ وصفته أن يغمس يديه فى الماء ثم يرفعهما فارغتين فيضعهما على مقدم رأسه ويجرّهما إلى قفاه ويعيدهما إلى الموضع الذى بدأ منه ، ويكون الإبهامان فى صماخى الأذنين فيمسح بهما الجلدتين القائمتين مع الصماخين . ثم غسل الرجلين إلى الكعبين وهما الناتئان فى مفصل القدم ، وكل ذلك مرة مرة . وأما التاسع : فهو ترتيب الأعضاء كلها كما نطق به القرآن فى قوله عزّ وجلّ (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) والعاشر : الموالاة ، وهو إتباع العضو الثانى للأول قبل أن ينشف ماء الأول . وأما سننها فعشر أيضا : غسل الكفين قبل إدخالهما الإناء ، والسواك ، والمبالغة فى المضمضة ، والاستنشاق إلا أن يكون صائما ، وتخليل اللحية على اختلاف الروايتين ، وغسل داخل العينين والبداءة باليمين ، وأخذ ماء جديد للأذنين ، ومسح العنق ، وتخليل مابين الأصابع ، والغسلة الثانية والثالثة . وأما التيمم ، فأن يضربه

يديه على تراب طاهر له غبار يعلق باليد ناويا لاستباحة صلاة مفروضة، مسميا ضربة واحدة يفرج بين أصابعه ، فيمسح وجهه بباطن أصابع يديه وظهر كفيه بباطن راحتيه . وأما الطهارة الكبرى فنذكرها فى باب آداب الخلاء إن شاء الله تعالى . وأما الستارة فأن يكون ثوبا طاهرا يستر عورته ومنكبيه من سائر أنواع الثياب إلا الحرير ، فإن الصلاة فيه باطلة وإن كان طاهرا ، وكذلك المغصوب . وأما البقعة ، فأن تكون طاهرة من جميع النجاسات ، فإن كانت النجاسة التى عليها قد نشفتها الرياح أو الشمس فبسط عليها بساطا طاهرا فصلى عليه صحت صلاته على إحدى الروايتين وكذلك إن كانت مغصوبة على رواية ضعيفة . وأما استقبال القبلة ، فأن يتوجه إلى عين الكعبة إن كان بمكة وماقاربها من البقاع ، وإلى جهتها إن كان على بعد منها بالاجتهاد وبذل الطاقة بالاستدلال بالشواهد ، والدلالات بالنجوم والشمس والرياح وغير ذلك . وأما النية فحلها القلب ، وهو أن يعتقد ما افترض الله تعالى عليه من فعل الصلاة بعينها وامتثال أمره الواجب من غير رياء وسمعة ثم يحضر قلبه إلى أن يفرغ منها وقد جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لعائشة رضى الله عنها « ليس لك من صلاتك إلا ما حضر فيه قلبك » . وأما دخول الوقت ، فبعلمه يقينا أو غلبة الظن فى يوم الغيم وهيجان الرياح والموانع . ثم يؤذن فيقول : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حىّ على الصلاة حىّ على الصلاة ، حىّ على الفلاح حىّ على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله . ثم يقيم فيقول : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حىّ على الصلاة حىّ على الفلاح ، قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة ، الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله .

(فصل) فإذا كملت هذه الشروط دخل فى الصلاة بقوله : الله أكبر ، لايجزئه غيره من ألفاظ التعظيم ، ولها أركان وواجبات ومسنونات وهيئات . أما الأركان فخمسة عشر : القيام ، وتكبيرة الإحرام ، وقراءة الفاتحة ، والركوع ، والطمأنينة فيه ، والاعتدال عنه والطمأنينة فيه ، والسجود والطمأنينة فيه ، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه ، والتشهد الأخير والجلوس له ، والصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، والتسليم . وأما الواجبات فتسعة : التكبير غير تكبيرة الإحرام ، والتسميع والتحميد عند الرفع من الركوع ، والتسبيح فى الركوع والسجود مرّة مرّة ، وقوله ربّ اغفرلى فى الجلسة بين السجدتين مرّة مرّة ، والتشهد الأول والجلوس له ، ونية الخروج من الصلاة فى التسليم . وأما المسنونات فأربعة عشر : الاستفتاح ، والتعوّذ ، وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم ، وقوله آمين ، وقراءة سورة ، وقول ملء السموات والأرض بعد التحميد ، وما زاد على التسبيحة الواحدة فى الركوع والسجود ، وقول ربّ اغفرلى ، والسجود على الأنف فى إحدى الروايتين ، وجلسة الاستراحة بعد قضاء السجدتين ، والتعوذ من أربعة أشياء بأن يقول : أعوذ بالله من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المسيح الدجال ، ومن فتنة المحيا والممات ، والدعاء بماذكر فى الأخبار

بعد أن يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم فى التشهد الأخير ، والقنوت فى الوتر ، والتسليمة الثانية على رواية ضعيفة . وأما الهيئات فخمس وعشرون هيئة : رفع اليدين عند الافتتاح ، والركوع ، والرفع منه وهو أن يكون كفاه مع منكبيه وإبهاماه عند شحمتى أذنيه وأطراف أصابعه مع فروع أذنيه ثم إرسالهما بعد الرفع ، ووضع اليمين على الشمال فوق السرّة ، والنظر إلى موضع السجود ، والجهر بالقراءة ، وآمين ، والإسرار بهما ، ووضع اليدين على الركبتين فى الركوع ، ومدّ الظهر ، ومجافاة عضديه عن جنبيه فيه ، والبداءة بوضع الركبة ثم اليد فى السجود ، ومجافاة البطن عن الفخذين والفخذين عن الساقين فيه ، والتفريق بين الركبتين فى السجود ، ووضع اليدين حذاء المنكبين فيه ، والافتراش فى الجلوس بين السجدتين وفى التشهد الأول ، والتورّك فى الثانى ، ووضع اليد اليمنى على الفخذ اليمنى مقبوضة مشيرا بالسبابة محلقا بالإبهام مع الوسطى ، ووضع اليسرى على الفخذ اليسرى مبسوطة ، فإن أخلّ بشرط من الشرائط التى ذكرناها أوّلا بغير عذر لم تنعقد الصلاة ، وإن ترك ركنا عامدا أو ساهيا بطلت ، وإن ترك واجبا ساهيا جبره بسجود السهو ، وإن تركه عامدا بطلت الصلاة ، وإن ترك سنة أو هيئة لم تبطل ولم يسجد .

كتاب الزكاة

ويجب عليه إن كان له مال زكوىّ ، وهو أن يملك عشرين مثقالا من الذهب ، أو مائتى درهم من الورق ، أو قيمة أحدهما من عروض التجارة ، أو خمسا من الإبل ، أو ثلاثين من البقر ، أو أربعين من الغنم سائمة حولا كاملا ، إلا أن يكون عبدا أو مكاتبا ، فإنه لا تجب عليهما الزكاة ؛ فيخرج عن الذهب والفضة ربع العشر ، فيكون عن عشرين دينارا نصف دينار ، لأن عشرها ديناران وربعهما نصف دينار ؛ وعن مائتى درهم خمسة دراهم لأن عشرها عشرون وربعها خمسة ؛ وعن خمس من الإبل شاة ، وهى الجذع من الضأن قد تمت لها ستة أشهر ، والثنى من المعز وهو ماله سنة ؛ وعن عشر شاتان ؛ وعن خمسة عشر ثلاث شياه ؛ وعن عشرين أربع شياه ؛ وعن خمس وعشرين بنت مخاض ، وهى مالها سنة ودخلت فى الثانية ، فإن لم يقدر عليها فابن لبون ذكر ، وهو ماله سنتان ودخل فى الثالثة ؛ وعن ستّ وثلاثين بنت لبون ، وهى فى سن ابن لبون ، وعن ست وأربعين حقة ، وهى ما كمل لها ثلاث سنين ؛ وعن إحدى وستين جذعة ، وهى ما كمل لها أربع سنين ؛ وعن ست وسبعين بنتا لبون ؛ وعن إحدى وتسعين حقتان إلى أن تبلغ عشرين ومائة ؛ فإذا زادت واحدة كان فى كل أربعين بنت لبون ؛ وفى كل خمسين حقة . وأما البقر فيخرج عن ثلاثين تبيعا أو تبيعة ، وهى ما كمل لها سنة ؛ وعن أربعين مسنة ، وهى ما كمل لها سنتان ؛ وعن ستين تبيعين ؛ فإذا بلغت سبعين كان فيها تبيع ومسنة ؛ ثم على هذا الاعتبار يخرج عن كل ثلاثين تبيعا ؛ وعن كل أربعين مسنة . وأما الغنم ففى كل أربعين شاة ، إلى أن تبلغ مائة وعشرين ، فإذا زادت واحدة ففيها شاتان إلى مائتين ؛

فإذا زادت واحدة ففيها ثلاث شياه إلى ثلثمائة ، فإذا زادت ففى كل مائة شاة فيعطى المخرج عن جميع ذلك للثمانية الأصناف المذكورة فى القرآن للفقراء الذين لا يملكون كفايتهم ؛ والمساكين ؛ وهم الذين لهم معظم الكفاية ولا يملكون تمامها ، والعاملين عليها وهم الجباة لها ، والحافظون إياها إلى أن يؤدوها إلى الإمام ، والمؤلفة قلوبهم ، وهم قوم من الكفار يرجى إسلامهم إذا أعطوا المال أو يكفوا شرّهم عن المسلمين ؛ وفى الرقاب ، وهم المكاتبون ، وإن اشترى بزكاته رقبة كاملة فأعتقها جاز أيضا على رواية ، والغارمون ، وهم المديونون الذين لا طاقة لهم على قضاء ديونهم ؛ وفى سبيل الله ، وهم الغزاة الذين لا جزاء لهم فى ديوان الإمام وغيره من السلاطين وإن كانوا أغنياء؛ وابن السبيل ، وهو المسافر المنقطع به دون الذى ينشىء السفر من بلده ، فإذا أدّى ما عليه من زكاة الفرض يستحبّ له صدقة التطوع فى سائر أوقاته ليلا ونهارا ، قليلا وكثيرا ، لاسيما فى الأشهر المباركة كشهر رجب وشعبان وشهر رمضان وأيام العيد وعاشوراء وأيام الجدب والضيق ليحوز بذلك العافية فى الجسم والمال والأهل ، والخلف السريع فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى الآخرة .

(فصل) ويخرج زكاة الفطر إذا فضل عن قوته وقوت عياله يوم العيد وليلته عن نفسه وزوجته ورقيقه وولده وأمه وأبيه وإخوته وأخواته وأعمامه وبنى أعمامه على الترتيب الأقرب فالأقرب ، بشرط أن يكونوا فى مؤنته ونفقته ؛ وقدرها صاع وزنه خمسة أرطال وثلث بالعراق من التمر أو الزبيب أو البرّ أو الشعير أو دقيقهما أو سويقهما ، وكذلك الأقط على الصحيح من المذهب ، فإن عدم هذه الأصناف جميعها فليخرج من قوت البلد من سائر أنواع الحبّ ، كالأرز والذرة والدخن وغيرها .

كتاب الصيام

وإذا دخل شهر رمضان وجب عليه أن يصوم لقوله تعالى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فإذا ثبت عنده دخول الشهر ، إما برؤية نفسه الهلال ، أو شهادة رجل واحد عدل ثبت بذلك ، أو إكمال شعبان ثلاثين يوما ، أو حدوث غيم أو قترة فى ليلة الثلاثين منه ، نوى أىّ وقت من الليل من وقت غروب الشمس إلى قبل أن يطلع الفجر الثانى أنه صائم غدا من شهر رمضان ، وهكذا كل ليلة إلى أن ينتهى الشهر ، وإن نوى فى أول ليلة من الشهر أنه صائم الشهر جميعه كفاه ذلك فى رواية ضعيفة ، والصحيح الأول ؛ فإذا أصبح وجب عليه أن يمسك فى جميع نهاره عن الأكل والشرب والجماع وجميع مايصل إلى جوفه من أىّ موضع كان وعن الحجامة لنفسه ، أو غيره واستدعاء القىء والمنىّ ، فإن خالف فى جميع ذلك بطل صومه ، ووجب عليه الإمساك إلى غروب الشمس والقضاء إلا الجماع فإنه يجب عليه مع ذلك كفارة وهى عتق رقبة مؤمنة سليمة من العيوب المضرّة فى العمل ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا لكل واحد منهم مدّ من طعام وهو رطل وثلث بالعراق ، فيكون مائة وثلاثة وسبعين درهما

وثلث درهم ، أو نصف صاع ، من تمر أو شعير ، فإن لم يجد ذلك فمن قوت بلده كما قلنا في الفطرة ، فان لم يجد شيئا سقطت عنه ، واستغفر الله عزّ وجلّ ، وتاب إليه ، وأحسن العمل في الباقي ، ويجتنب في نهار رمضان الخلوة بامرأة شابة والقبلة لها وإن كانت ممن تحل له أو ذات محرم يعني رحما ، ويجتنب السواك بعد الزوال ومضغ العلك ، وجمع ريقه ثم بلعه ، وذوق الطعام عند الطبخ وغيره ، والغيبة والنميمة والكذب والسبّ وغير ذلك ؛ ويستحبّ له تعجيل الإفطار إلا في يوم الغيم فتأخيره أفضل ، وتأخير السحور إلا أن يكون ممن يخفى عليه ذلك ، أي طلوع الفجر ، والأولى له أن يفطر على التمر أو على الماء ، ويدعو وقت الإفطار لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا صام أحدكم فقدم عشاؤه فليقل : بسم الله اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، سبحانك وبحمدك ، اللهم تقبل منا فإنك أنت السميع العليم » .

كتاب الاعتكاف

ويستحبّ له الاعتكاف ، ولا يكون إلا في مسجد يصلي فيه بالجماعة ، وأولى المساجد الجامع إذا كان أياما يتخللها جمعة ، ويصح بغير صوم ، والأولى أن يكون بالصوم ، لأنه أجمع لهمه وأعون على كسر نفسه وأليق باشتقاق ماهو بصدده ، لأن الاعتكاف هو حبس النفس في مكان مخصوص ولزوم الشيء والمداومة عليه ، قال الله تعالى (ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) وهو من السنن المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم اعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان ، ثم لم يزل على ذلك حتى توفاه الله تعالى ، وندب الصحابة إليه فقال « من أراد أن يعتكف فليعتكف العشر الأواخر » فإذا اعتكف ينبغي له أن يتشاغل بفعل يقرّبه إلى الله تعالى من قراءة القرآن والتسبيح والتهليل والتفكر ، ويجتنب مالا يعنيه من القول والفعل والعمل ، ويلزم الصمت من غير ذكر الله تعالى ، ويجوز له التدريس وإقراء القرآن ، لأن ذلك يتعدّى نفعه إلى غيره ، فهو أكثر ثوابا من اشتغاله بخاصة نفسه ، ويجوز له الخروج من معتكفه لما لا بد له منه ، كالاغتسال من الجنابة ، والأكل ، والشرب ، وقضاء حاجة الإنسان من البول والغائط ، وعند الخوف على نفسه من الفتنة والمرض الشديد وغير ذلك .

كتاب الحج

فإذا كملت في حقه شرائط الحج وجب عليه أداء الحج والعمرة على الفور ، وهو أن يكون بعد إسلامه حرّا عاقلا بالغا مستطيعا بالزاد والراحلة ، وتخلية الطريق من عدوّ يمنعه وإمكان السير إليه وهو اتساع الوقت لأداء الحج ، وصحة البدن للاستمساك على الراحلة والاستطاعة بالزاد والراحلة إنما يكون بعد تحصيل النفقة لعياله إلى أن يعود إليهم والمسكن لهم وقضاء الديون إن

كانت عليه ، وأن يكون له كفاية بعد رجوعه من فضل مال وأجرة عقار أو بضاعة : فإن خالف وقصر بعياله وامتنع من قضاء دينه وخرج إلى الحج كان مأثوما مسخوطا عليه ، لما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوته » فإن سلم من المخالفة حين فرغ من الحج والعمرة سقط عنه الفرض .

(فصل) فإذا بلغ الميقات الشرعى ، وهو ذات عرق إن كان من أهل المشرق ، والجحفة إن كان من أهل المغرب ، وذو الحليفة إن كان من أهل المدينة ، ويلملم إن كان من أهل اليمن ، وقرن إن كان من أهل نجد ، يغتسل ويتنظف أويتيمم إن لم يجد الماء ، ويتزر بإزار ويرتدى برداء ، ويكونان أبيضين نظيفين ، ويتطيب ويصلى ركعتين ، ثم يحرم وينوى الإحرام بقلبه ، ويلبى بالعمرة إن كان متمتعا وهو الأفضل ، أو بالحج المفرد ، أو بالحج والعمرة جميعا ، ويشترط أن يقول : اللهمّ إنى أريد العمرة أو الحج أو إياهما جميعا ، فيسر ذلك لى وتقبل منى ، ومحلى حيث حبستنى ، ويلبى وصفة التلبية : لبيك اللهم لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لك لاشريك لك ، يرفع بذلك صوته ، ويقول ذلك بعد الإحرام ، وعقيب الصلوات الخمس ، وفى إقبال الليل والنهار ، والتقاء الرفاق ، وإذا علا شرفا أو هبط واديا أو سمع ملبيا ، وفى مساجد الحرم وبقاعه ، ويصلى على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويدعو لنفسه بما أحبّ إذا فرغ من التلبية .

(فصل) فإذا أحرم لايغطى رأسه ، ولايلبس المخيط ولا الخفين ؛ فإذا فعل ذلك لزمه ذبح شاة ، إلا أن لا يجد الإزار والنعلين ؛ ولا يتطيب فى بدنه وثيابه من أنواع الطيب ، فإن فعل ذلك متعمدا غسله وذبح شاة ؛ ولا يقلم أظفاره ولا يحلق رأسه ، فإن قلم ثلاثة أظفار أو حلق ثلاث شعرات من رأسه أو بدنه فعليه ذبح شاة ، فإن كان دون ذلك ففى كل ظفر أو شعرة مدّ من طعام ؛ ولا يعقد النكاح لنفسه ولا لغيره ، ويجوز له الارتجاع ؛ ولايباشر الزوجة والأمة فى الفرج ودون الفرج ؛ فإن فعل ذلك بطل حجه إذا كان ذلك قبل رمى جمرة العقبة ؛ ولا يستمنى ، ولا يكرّر النظر ، فإن فعل فأمنى فعليه الكفارة وهى ذبح شاة ، ولايقتل الصيد المأكول وما تولد من مأكول وغير مأكول ؛ ولا يأكل ما صيد لأجله أو أشار إليه أو دلّ عليه أو أعان على ذبحه ، مثل أن يمسكه أو يعيره سكينا ونحو ذلك ، فإن فعل فعليه الجزاء مثله من النعم ، فإن كان الصيد نعامة فعليه بدنة ، وإن كان حمار وحش فعليه بقرة ، وإن كان بقرة الوحش وأنواعها فعليه بقرة ، وإن كان غزالا أو ثعلبا فعليه عنز ، وإن كان ضبعا فكبش ، وإن كان أرنبا فعناق ، وإن كان يربوعا فجفرة ، وفى الضبّ جدى ، وفى الكبير كبير وفى الصغير صغير ، على مثل ما قتل فى جميع الصفات ، وإن كان ذلك حماما ففى كل واحد شاة ، فإن لم يكن له مثل فقيمته يرجع فى معرفة ذلك إلى قول عدلين من المسلمين ؛ ويجوز له ذبح الحيوان الإنسىّ وأكله ؛ ويجوز له قتل كل ما فيه مضرّة كالحية والعقرب والكلب

العقور والسبع والنمر والذئب والفهد والفأرة والغراب الأبقع والحدأة والبزاة وأنواعها والزنبور والبق والبراغيث والقراد والأوزاغ والذباب وجميع حشرات الأرض ؛ ويجوز قتل النملة عند الأذية ، وكذلك القمل والصئبان فى إحدى الروايتين ، والأخرى عليه أن يتصدق بما أمكن ولا يقتل صيد الحرم ، فإن قتله كان حكمه كما ذكرنا فى صيد الإحرام ؛ ولا يقطعَ أشجار الحرم ولا يقلعها ، فإن فعل ذلك ضمن الشجرة الكبيرة ببقرة والصغيرة بشاة ؛ وكذلك صيد المدينة وشجرها يحرمان عليه ، إلا أن جزاءهما سلب ما عليه من الثياب ويكون ذلك حلالا لمن أخذه .

(فصل) فإن كان فى الوقت سعة فأمكنه دخول مكة قبل يوم عرفة بأيام ، فالمستحبّ له أن يغتسل غسلا كاملا ويدخلها من أعلاها ، فإذا بلغ المسجد الحرام دخل من باب بنى شيبة ، ويرفع يديه عند رؤية البيت ويقول : اللهمّ إنك أنت السلام ومنك السلام، حينا ربنا بالسلام، اللهمّ زد هذا البيت تعظيما وتشريفا وتكريما ومهابة وبرّا ، وزد من شرّفه وعظمه ممن حجه أو اعتمره تعظيما وتشريفا وتكريما ومهابة ، والحمد لله كثيرا كما هو أهله وكما ينبغى لكرم وجهه وعزّ جلاله ، الحمد لله الذى بلغنى بيته ورآنى لذلك أهلا ، والحمد لله على كل حال ، اللهم إنك دعوتَ إلى حج بيتك وقد جئناك لذلك ، اللهم تقبل منى واعف عنى وأصلح لى شأنى كله ، لا إله إلا أنت ، يرفع بذلك صوته . ثم يطوف للقدوم ويضطبع بردائه ، فيكشف كتفه الأيمن ويستر الأيسر ، ثم يتقدم إلى الحجر الأسود فيستلمه بيده ويقبله إن أمكنه ، وإلا استلمه وقبل يده ، فإن زوحم أشار بيده إليه ويقول : بسم الله والله أكبر اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك واتباعا لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، ويطوف عن يمينه ، وهو أن يرجع إلى باب البيت فيمضى إلى الحجر الذى عليه ميزاب البيت مسرعا ، وهو السعى الشديد مع تقارب الخطا ، حتى إذا بلغ الركن اليمانى استلمه ولم يقبله ، فإذا بلغ الحجر الأسود عدّ ذلك شوطا واحدا ، ثم يطوف كذلك ثانيا وثالثا قائلا فى جميع ذلك اللهمّ اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا وذنبا مغفورا ، ثم يخفف مشيه ويقارب خطاه فيمشى على هينته فى الأربعة الباقية ويقول فيها : ربّ اغفر وارحم واعف عما تعلم وأنت الأعزّ الأكرم ، اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . ويدعو بما أراد من خير الدنيا والآخرة ، وينبغى أن يكون ناويا لذلك طاهرا من الأحداث والأنجاس وساترا العورة ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال «الطواف بالبيت صلاة ، إلا أن الله تعالى أباح فيه النطق » فإذا فرغ من ذلك صلى ركعتين خفيفتين خلف مقام إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، فيقرأ فى الأولى بعد الفاتحة (قل يا أيها الكافرون) وفى الثانية (قل هو الله أحد) ثم يرجع إلى الحجر الأسود فيستلمه ، ثم يخرج إلى الصفا من بابه ، ويرقى عليه إلى حيث يمكنه رؤية الكعبة ثم يكبر ثلاثا ويقول : الحمد لله على ما هدانا ، لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب

وحده ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . ثم ينزل ويلبي ويدعو ثانيا وثالثا ، ثم ينزل ماشيا حتى يكون بينه وبين الميل الأخضر المنتصب عند المسجد ما قدره ستة أذرع ، ثم يسرع فى المشى حتى يبلغ إلى الميلين الأخضرين ، ثم يخفف مشيه إلى أن يبلغ المروة فيرقى عليها ، فيفعل كما فعل على الصفا ، ثم ينزل ويمشى فى موضع مشيه ويسعى فى موضع سعيه إلى أن يصير إلى الصفا ، ثم كذلك فيعد سبعا يبدأ بالصفا ويختم بالمروة ، وينبغى أن يكون متطهرا كما ذكرنا فى الطواف بالبيت ، فإذا فرغ من ذلك حلق أو قصر إن كان متمتعا ولم يكن قد ساق هديا وفعل ما يفعل الحلال ، فإذا كان يوم التروية وهو الثامن من ذى الحجة أحرم من مكة للحج ، فيأتى منى فيصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء ويبيت بها ، ثم يصلى الصبح ، فإذا طلعت الشمس دفع مع الناس إلى الموقف بعرفة ، فاذا زالت الشمس وخطب الإمام خطبة يعلم الناس فيها ما ينبغى أن يفعلوه من الوقوف وموضعه ووقته ودفعه من عرفات والصلاة بمزدلفة والمبيت بها ، وغير ذلك من رمى الجمار والنحر والحلق والطواف بالبيت ، دنا من الإمام فيعى ما يقول ، ثم يصلى مع الإمام الظهر والعصر يجمع بينهما باقامة لكل صلاة ، ثم يتقدم إلى جبل الرحمة والصخرات بقرب الإمام ، ويستقبل القبلة فيقف هناك ويجتهد فى الدعاء والثناء على الله عزّ وجلّ ، وينبغى أن يكون أكثر ذكره : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو حىّ لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، اللهمّ اجعل فى قلبى نورا وفى بصرى نورا وفى سمعى نورا ، ويسر لى أمرى ، فإن فاته الوقوف مع الإمام نهارا أدركه بعد خروج الإمام من الموقف قبل أن يطلع الفجر الثانى من ليلة النحر ، ومن أدركه كذلك فقد أدرك الوقفة وإلا فقد فاته الحج ؛ فإن دفع مع الإمام إلى طريق مزدلفة يكون على التؤدة والسكون والوقار ، فإذا وصل مزدلفة صلى مع الإمام بها المغرب والعشاء جماعة ، أو منفردا إن فاته مع الإمام ، ثم حطّ رحله فيبيت هناك . ويأخذ منها حصى الجمار أو من حيث تيسر له ذلك ، وعدده سبعون حصاة ، وقدره أن يكون أكبر من الحمص وأصغر من البندق ، ويستحبّ أن يغسله ، ثم يصلى الفجر إذا أصبح ، ويجتهد أن يغلس بها ، ثم يأتى المشعر الحرام فيقف عنده ، فيكثر الحمد والثناء عليه والتهليل والتكبير والدعاء ؛ والأولى أن يقول فى دعائه : اللهم كما أوقفتنا فيه وأريتنا إياه فوفقنا لذكرك كما هديتنا ، واغفر لنا وارحمنا كما وعدتنا بقولك وقولك الحق (فإذا أفضتم من عرفات) إلى قوله تعالى (غفور رحيم) وإذا أضاء النهار واصفرّ دفع إلى منى وأسرع فى وادى محسر ، فإذا وصل إلى وادى منى رمى جمرة العقبة بسبع حصيات مكبرا فى أثر كل حصاة ، رافعا يديه حتى يرى بياض إبطيه ، كما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه رمى كذلك وسكت عن التلبية عند أول حصاة يرميها ، ويكون رميه هذا بعد طلوع الشمس وقبل الزوال ، وفيما بعد من أيام التشريق بعد الزوال ، فإذا رمى نحر هديا إن كان معه ، وحلق أو قصر جميع رأسه ، وإن كانت امرأة تقصر من شعرها بقدر الأنملة ، ثم يمضى إلى مكة ويغتسل ويتوضأ ، فيطوف طواف

الزيارة ويعينه بالنية ، ويصلى ركعتين خلف المقام فإذا فرغ سعى بين الصفا والمروة إن أراد ، لأن السعى قد سقط بفعله فى طواف القدوم ، ثم قد حلّ له كل شىء من محظورات الإحرام وصار حلالا كما كان قبل الإحرام، ثم يتقدم إلى زمزم فيشرب من مائها فيقول عند شربه : بسم الله اللهم اجعله لنا علما نافعا ورزقا واسعا وريا وشبعا وشفاء من كل داء واغسل به قلبى واملأه من خشيتك . ثم يرجع إلى منى فيبيت بها ثلاث ليال ، فيرمى الجمرات الثلاث فى أيام التشريق على ما ذكرنا كل يوم بإحدى وعشرين حصاة ، كل جمرة سبع حصيات ، فليبدأ بالجمرة الأولى وهى أبعد الجمرات من مكة مما يلى مسجد الخيف ، فيجعلها عن يساره ويستقبل القبلة ، فإذا رماها تقدم عنها يسيرا لئلا يصيبه حصى غيره ، فيقف هناك داعيا لله عزّ وجلّ بقدر قراءة سورة البقرة إن أمكنه ثم يرمى الجمرة الوسطى فيجعلها عن يمينه ويستقبل القبلة فيدعو كالأولى ثم يرمى الجمرة الأخيرة وهى جمرة العقبة فيجعلها عن يمينه ، وينزل إلى الوادى ويكون مستقبلا إلى القبلة ولا يقف هناك ، ثم يفعل فى اليوم الثانى والثالث كذلك ؛ وإن أحب أن يتعجل ولا يرمى فى اليوم الثالث دفن ما بقى معه من الحصى هناك ويخرج قاصدا إلى مكة ، فيأتى الأبطح فيصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم ينام يسيرا ثم يدخل مكة فيقيم بها أو غيرها من المواضع كالزاهر والأبطح ؛ وإذا أراد أن يدخل البيت يكون حافيا ، ويصلى فيه نفلا، ويشرب من ماء زمزم ويرتوى منه ، وينوى ما أحبّ من العلم والمغفرة والرضوان لقوله عليه الصلاة والسلام « ماء زمزم لما شرب له » ويكثر الاعتماد والنظر إلى الكعبة لما روى فى بعض الأخبار أن النظر إليها عبادة ؛ ثم لا يخرج حتى يودّع البيت فيطوف به سبعا ، ثم يقف بين الركن والباب ويدعو فيقول : اللهم هذا بيتك وأنا عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، حملتنى على ما سخرت لى من خلقك ، وسيرتنى فى بلادك حتى بلغتنى بنعمتك ، وأعنتنى على قضاء نسكى ؛ فإن كنت رضيت عنى فازدد عنى رضا ، وإلا فمنّ علىّ الآن قبل تباعدى عن بيتك ، هذا أوان انصرافى إن أذنت لى ، غير مستبدل بك ولا ببيتك ولا راغب عنك ولا عن بيتك ؛ اللهم فاصحبنى العافية فى بدنى والصحة فى جسمى والعصمة فى دينى وأحسن منقلبى ، وارزقنى طاعتك ما أبقيتنى ، واجمع لى خير الدنيا والآخرة إنك على كل شىء قدير . وما زاد على ذلك من الدعاء من خير الدنيا والآخرة كان حسنا ، ثم يصلى على النبىّ صلى الله عليه وسلم ولم يقم بعد ذلك بمكة ، فإن أقام أعاد الطواف ، وإلا ذبح شاة .

(فصل) فإن كان فى الوقت ضيق وخاف فوت الوقفة بعرفات ، فإن أحرم من الميقات يبدأ بعرفات فوقف هناك ، ثم دفع بها بعد غروب الشمس فيفعل ما قلنا من البيتوتة بمزدلفة ، ثم الرمى بمنى ، ثم إذا دخل مكة طاف طوافين ، ينوى بالأول القدوم ، وبالثانى الزيارة ، ثم يسعى بين الصفا والمروة ، ثم يحلّ له كل شىء ، ثم يعود إلى منى للرمى فى الأيام الثلاث ، ثم يتمّ الأفعال على ما تقدم ذكره .

(فصل) وصفة العمرة : أن يحرم بها من الميقات الشرعي الذى تقدم ذكره بعد أن يغتسل ويتطيب ويصلى ركعتين ، فيطوف بالبيت سبعا ، ويسعى بين الصفا والمروة ويقصر أو يحلق ، ثم يحلّ منها إن لم يكن ساق هديا ، وإن كان بمكة خرج إلى التنعيم فيحرم منه فيفعل كذلك .

(فصل) ولايبطل الحج إلا بالوطء فى الفرج أو دون الفرج مع الانزال . وأركان الحج أربعة : الإحرام ، والوقوف ، وطواف الزيارة ، والسعى . وعن الشيخ رحمه الله : له ركنان أحدهما الوقوف بعرفة ، والثانى الطواف بالبيت . والصحيح الأول . فإذا ترك واحدا من هذه الأركان كان حجه ناقصا وعليه الإتيان به ، إما فى سنته وإما فى العام المستقبل يأتى به محرما ، ولايجبره دم بحال . وأما واجباته فخمسة : وهى المبيت بمزدلفة إلى ما بعد نصف الليل ، والمبيت بمنى ، والرمى ، والحلاقة ، وطواف الوداع . فإن ترك واحدا منها جبره بدم ، وهو شاة كما قلنا فى ترك الواجبات فى صلاة يجبره بسجود السهو . وأما مسنوناته فخمسة عشر : وهى الإغتسال للإحرام ولدخول مكة وللوقوف بعرفة وللمبيت بمزدلفة ولرمى الجمار أيام منى ولطواف الزيارة ولطواف الوداع ، والثانى طواف القدوم ، والثالث الرمل ، والرابع الاضطباع فى الطواف ، والسعى ، واستلام الركنين ، والتقبيل ، والارتقاء على الصفا والمروة ، والمبيت بمنى ثلاثا ، والوقوف على المشعر الحرام ، والوقوف عند الجمرات الثلاث ، والخطب والأذكار ، وشدّة السعى فى مواضعه ، والمشى فى مواضعه ، وركعتا الطواف . فإن ترك هذه الأشياء أو واحدا منها كان تاركا للأفضل ولا شىء عليه .

(فصل) وأما العمرة فأركانها ثلاثة : الإحرام ، والطواف بالبيت ، والسعى بين الصفا والمروة . وواجباتها : الحلق فحسب . وسننها الغسل عند الإحرام ، والأدعية ، والأذكار المشروعة فى الطواف ، والسعى . وقد بينا الحكم فى تركها فى الحجّ .

(فصل) فإذا منّ الله تعالى بالعافية وقدم المدينة فالمستحبّ له أن يأتى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، فليقل عند دخول المسجد : اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد ، وافتح لى أبواب رحمتك وكفّ عنى أبواب عذابك ، الحمد لله رب العالمين . ثم يأتى القبر وليكن بحذائه بينه وبين القبلة ، ويجعل جدار القبلة خلف ظهره والقبر أمامه تلقاء وجهه والمنبر عن يساره ، وليقم مما يلى المنبر وليقل : السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم آت سيدنا محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود الذى وعدته ، اللهم صلّ على روح محمد فى الأرواح وصلّ على جسده فى الأجساد ، كما بلغ رسالتك وتلا آياتك وصدع بأمرك ، وجاهد فى سبيلك وأمر بطاعتك ونهى عن معصيتك ، وعادى عدوك ووالى وليك وعبدك حتى أتاه اليقين ، اللهم إنك قلت فى كتابك لنبيك (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توّابا رحيم) وإنى أتيت نبيك تائبا من ذنوبى مستغفرا ، فأسألك أن توجب لى

المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه فى حال حياته ، فأقرّ عنده بذنوبه فدعا له نبيه فغفرت له ، اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك عليه سلامك نبىّ الرحمة ، يا رسول الله إنى أتوجه بك إلى ربى ليغفر لى ذنوبى ، اللهم إنى أسألك بحقه أن تغفر لى وترحمنى ، اللهم اجعل محمدا أول الشافعين وأنجح السائلين وأكرم الأولين والآخرين، اللهم كما آمنا به ولم نره، وصدقناه ولم نلقه، فأدخلنا مدخله واحشرنا فى زمرته، وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه مشربا رويا سائغا هنيئا لانظمأ بعده أبدا ، غير خزايا ولاناكثين ، ولا مارقين ولا جاحدين، ولا مرتابين ولامغضوبا عليهم ولاضالين ، واجعلنا من أهل شفاعته . ثم يتقدم عن يمينه ثم ليقل السلام عليكما ياصاحبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورحمة الله وبركاته ، السلام عليك يا أبا بكر الصديق ، السلام عليك يا عمر الفاروق ، اللهم اجزهما عن نبيهما وعن الإسلام خيرا ، واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا إنك رءوف رحيم . ثم يصلى ركعتين ويجلس . ويستحبّ أن يصلى بين القبر والمنبر فى الروضة ، وإن أحبّ أن يتمسح بالمنبر تبركا به ، والصلاة بمسجد قباء ، وأن يأتى قبور الشهداء والزيارة لهم فعل ذلك ، وأكثر الدعاء هناك ، ثم إذا أراد الخروج من المدينة أتى مسجد النبىّ صلى الله علية وسلم وتقدم إلى القبر وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفعل كما فعل أولا ، وودعه وسلم على صاحبيه كذلك ثم قال : اللهم لاتجعل آخر العهد منى بزيارة قبر نبيك ، وإذا توفيتنى فتوفنى على محبته وسنته آمين يا أرحم الراحمين .

كتاب الآداب

(فصل) الابتداء بالسلام سنة وردّه آكد من ابتدائه ، وهو مخير فى صيغته ، إما أن يدخل الألف واللام فيقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أو يحذ فهما فيقول : سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ولايزيد على ذلك . وقد روى فى ذلك حديث ، وهو ماروى عن عمران بن الحصين رضى الله تعالى عنهما أنه قال « جاء رجل أعرابىّ إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليكم ، فردّ عليه ثم جلس ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : عشرا » ؛ ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمته الله وبركاته ، فردّ عليه فجلس ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ثلاثون » أى ثلاثون حسنة . والسنة أن يسلم الماشى على الجالس ، والراكب على الماشى والجالس ، وسلام الواحد من الجماعة على غيرهم يجزئ ، وكذلك ردّ الواحد من الجماعة يجزىء ، ولايجوز البداءة بالسلام على المشرك بحال ، فإن بدأ مشرك ردّ عليه بأن يقول وعليك . وأما ردّه على المسلم بأن يقول : وعليكم السلام كما قال ، وإن زاد إلى قوله وبركاته كان أولى ؛ وإن قال مسلم لمسلم : سلام، لم يجبه ويعرفه أنه ليس بتحية الإسلام، لأنه ليس بكلام تام ويستحبّ للنساء السلام بعضهن على بعض ، وأما سلام الرجل على المرأة الشابة فمكروه ،

وإن كانت برزة فلا حرج : وأما السلام على الصبيان فمستحبّ ، لأن فيه تعليم الأدب لهم ، وكذلك يستحبّ لمن قام من المجلس أن يسلم على أهله ، وكذلك يسلم عليهم إذا عاد إليهم ، وكذلك إن حال بينه وبينهم حائل مثل الباب والحائط ، وكذلك إذا سلم على رجل ثم لقيه ثانيا سلم عليه ؛ ولا يسلم على المتلبسين بالمعاصى كمن اجتاز على قوم يلعبون بالشطرنج والنرد ويشربون الخمر ويلعبون بالجوز والقمار ، وإن سلموا عليه ردّ عليهم ، إلا أن يغلب على ظنه انزجارهم عن معاصيهم بتركه الردّ عليهم فإنه لا يرده ؛ ولا يهجر المسلم أخاه فوق الثلاث إلا أن يكون من أهل البدع والضلال والمعاصى ، فمستحبّ استدامة الهجر لهم ، وبالسلام يتخلص من إثم الهجر للمسلم . ويستحبّ للمسلم المصافحة لأخيه ، ولا ينزع يده حتى ينزع الآخر يده إذا كان هو المبتدئ ، وإن تعانقا وقبل أحدهما رأس الآخر ويده على وجه التبرّك والتدين جاز ، وأما تقبيل الفم فمكروه .

(فصل) ويستحبّ القيام للإمام العادل والوالدين وأهل الدين والورع وأكرم الناس ، وأصل ذلك ما روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إلى سعد رضى الله عنه فى شأن أهل قريظة ، فجاء على حمار أقمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى سيدكم » وقد روت عائشة رضى الله عنها تعالى أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل على فاطمة رضى الله تعالى عنها قامت إليه فأخذت بيده وقبلته وأجلسته فى مجلسها ، وإذا دخلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم قام إليها وأخذ بيدها وقبلها وأجلسها فى موضعه وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه » ولأن ذلك يغرس المحبة والودّ فى القلوب ، فاستحبّ لأهل الخير والصلاح كالمهادة لهم ، ويكره لأهل المعاصى والفجور . ومن الآداب أن يخمر العاطس وجهه ويخفض صوته ويحمد الله عز وجلّ إلى قوله ربّ العالمين رافعا صوته ، لأنه روى فى بعض الأخبار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن العبد إذا قال الحمد لله قال الملك ربّ العالمين ، فإذا قال ربّ العالمين بعد الحمد لله ، قال الملك يرحمك ربك ، ولا يلتفت يمينا ويسارا ، فإذا قال ذلك استحبّ لمن سمعه أن يشمته بأن يقول له يرحمك الله ويرد عليه فيقول يهديكم الله ويصلح بالكم . وإن قال يغفر الله لكم جاز عن الأول فإن زاد العاطس على ثلاث مرات سقط التشميت لأن ذلك ريح وزكام كما جاء فى الأثر وهو ماروى عن سلمة ابن الاكوع رضى الله تعالى عنه أنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم «يشمت العاطس ثلاثا فإن زاد على ذلك فهو مزكوم » وإذا تثاءب غطى فمه بيده أو بكمه ، قال صلى الله عليه وسلم «إذا تثاءب أحدكم فليمسك على فمه فإن الشيطان يدخل مع التثاؤب» وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يحب العطاس ويكره التثاءب فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ولا يقول هاه هاه فإن ذلك من الشيطان يضحك منه» ويجوز للرجل تشميت المرأة البرزة العجوز ويكره للشابة الخفرة . فأما الصبى فتشميته أن يقال له بورك فيك أوجزاك الله تعالى أو خيّرك الله تعالى .

(فصل) فى العشر الخصال التى فى الفطرة : خمس منها فى الرأس ، وخمس فى الجسد . فالتى فى الرأس : المضمضة والاستنشاق والسواك وقص الشارب وإعفاء اللحية . والتى فى الجسد : حلق العانة ونتف الإبط وتقليم الأظفار والاستنجاء بالماء والختان . والأصل فى قص الشارب ماروى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أحفو الشارب واعفوا اللحى » وكلا اللفظين واحد ، ومعناهما : قصه من أصول الشعر بالمقراض واستئصاله به . وأما حلقه بالموسى فمكروه ؛ لما روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من حلق الشارب » ولأن فى ذلك مثلة وذهابا لماء الوجه وجماله ، وفى بقاء أصول الشعر زينة وجمال ، وقد روى عن الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا يجزّون شواربهم . وأما إعفاء اللحية : فهو توفيرها وتكثيرها ، ومنه قوله تعالى (حتى عفوا) أى كثروا وقد روى أن أبا هريرة رضى الله تعالى عنه كان يقبض على لحيته فما فضل عن قبضته جزّه . وكان عمر رضى الله تعالى عنه يقول : خذوا ما تحت القبضة .

(فصل) والأصل فى حلق العانة ونتف الإبط وتقليم الأظافر ما روى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أنه قال : « وقت لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين ليلة لانتجاوزها فى قص الشارب وقص الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة » . قال بعض أصحابنا : هذا فى حق المسافر ، وأما المقيم فلا يستحبّ له أن يزيد ذلك على عشرين يوما . واختلفت الرواية عن الإمام أحمد فى تصحيح هذا الحديث ، فروى عنه إنكاره ، وروى عنه الاحتجاج به فى التوقيت بهذا المقدار ، فإذا ثبت استحباب ذلك فهو مخير بين التنوير بالنورة وبين حلقه بالموسى ؛ فقد روى عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان يتنور . وكذلك روى منصور بن حبيب بن أبى ثابت رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه حلق له أبوبكر رضى الله عنه وتولى عانته بيده . وروى عن أنس رضى الله تعالى عنه بخلافه فقال : لم يتنور رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، وكان إذا كثر عليه الشعر حلقه ، فإذا ثبت هذا فيجوز أن يتولى ذلك غيره إذا لم يحسن هو فيما سوى العانة من الفخذ والساق ، فإذا بلغ العانة تولاها هو بنفسه . والأصل فى ذلك ماروى عن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا بلغ عانته نوّرها بنفسه . وفى بعض الألفاظ : إذا بلغ مراقه . وأخذ أحمد بن حنبل رحمه الله بهذا . قال أبو العباس النسائى : نوّرنا أبا عبد الله فلما بلغ عانته نوّرها بنفسه ؛ فإذا ثبت هذا وأنه يجوز إزالة هذه الشعور من العانة والفخذين والساقين بالنورة ، فيجوز أيضا بالموسى ، لأنه أحدّ مايزال به كالنورة . ويؤيد هذا القياس حديث أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه : « لم يتنوّر رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، وكان إذا كثر عليه الشعر حلقه » . ولا يقال إن الحلق والتنوير إنما وردا فى العانة خاصة لما تقدم من حديث أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت : « إن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا بلغ عانته نوّرها بنفسه » . فدل على أنه كان تولى غير العانة فى إزالة الشعر لغيره ، وليس ذلك إلا الفخذ

والساق ، وإن ذكر فى ذلك حديث فى المنع ، فهو محمول على من أراد بذلك التزين لرغبة الرجال فيه من العلوق والمتشبهين بالنساء من المخانيث وغيرهم ، والله تعالى أعلم بالصواب .

(فصل) ويكره نتف الشيب لما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله تعالى عنهم قال : « إن النبىّ صلى الله عليه وسلم نهى عن نتف الشيب ، وقال : إنه نور الإسلام » وفى لفظ آخر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تنتف الشيب . ما من مسلم ألبس شيبة فى الإسلام إلا كانت له نورا يوم القيامة » وفى حديث يحيى « إلا كتب الله تعالى له بها حسنة وحط عنه خطيئة» فقد روى فى بعض التفاسير فى قوله عز وجل (وجاءكم النذير) أنه هو الشيب ، فكيف يجوز إزالة النذير بالموت والمذكر به ، والناهى عن الشهوات واللذات والكافّ عنها ، الحث على التأهب والتجهيز للآخرة وعمارة دار البقاء ، ومع ذلك يكون مقاوما للقدر كارها لفعل الله تعالى به وغير راض بقضائه عزّ وجلّ ، مؤثرا للشباب والطراوة والبقاء على حداثة السنّ ، زاهدا فى الوقار والحرمة والتقمص بنور الإسلام وخلقة إبراهيم خليل الرحمن ، لأنه روى فى بعض الكتب : إن أوّل من شاب فى الإسلام إبراهيم النبى صلى الله عليه وسلم . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله يستحى من ذى الشيبة » يعنى من عذابه .

(فصل) ويستحب تقليم الأظفار يوم الجمعة ، ويكون مخالفا بينها فى الترتيب ، لما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم « من قصّ أظفاره مخالفا ، لم يُر فى عينيه رمد » وفى حديث أميد بن عبد الرحمن عن أبيه : « من قصّ أظفاره يوم الجمعة دخل فيه شفاء وخرج منه داء » . وقد روى هذه الفضيلة والاستحباب فى ذلك يوم الخميس بعد العصر ؛ ومعنى المخالفة أن يبدأ بالخنصر من اليمنى ثم بالوسطى ثم بالإبهام ثم بالبنصر ثم بالسبابة ، ومن اليسرى أن يبدأ بالإبهام ثم الوسطى ثم الخنصر ثم السبابة ثم البنصر ، هكذا فسره عبد الله بن بطة عن أصحابنا رحمه الله . وروى وكيع عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياعائشة إذا أنت قلمت أظافرك فابدئى بالوسطى ثم بالخنصر ثم بالإبهام ثم بالبنصر ثم بالسبابة ، فإن ذلك يورث الغنى » وينبغى أن يكون التقليم بالمقصّ أو السكين ، ويكره ذلك بالأسنان ، وإذا قلم أظفاره يستحبّ له غسل البراجم ودفن الأظفار فى التراب ، وكذلك الشعور من الرأس والبدن والدم من الحجامة والفصد ، لما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : أنه أمر بدفن الدم والشعر والظفر .

(فصل) وأما حلق الرأس فى غير الحجّ والعمرة والضرورة فمكروه فى إحدى الروايتين عن الإمام أحمد رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم لما روى فى حديث أبى موسى وعبيد بن عمير رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال «ليس منا من حلق» وروى الدارقطنى فى الإفراد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لاتوضع النواصى إلا فى حجّ أو عمرة » ولأن النبى صلى الله عليه وسلم ذمّ الخوارج وجعل سياهم حلق الرءوس ، ولأن عمر رضى الله عنه قال لصبيغ : لو وجدتك محلوقا لضربت

الذى فيه عيناك . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: الذى يحلق فى المصر خليق بالشيطان، ولأن فى ذلك تشبها بالأعاجم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تشبه بقوم فهو منهم » وإن ثبت كراهية ما ذكرنا جعل مكانه أخذ الشعر بالجلم وهو المقص كما كان يفعل أحمد بن حنبل رضى الله عنه، وإن شاء استقصى فى ذلك فيقصه من أصله، وإن شاء أخذ أطراف الشعر . والرواية الأخرى لايكره ذلك لما روى أبو داود بإسناده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال « إن النبىّ صلى الله عليه وسلم أرسل إلى آل جعفر بلالا أن يأتيهم ثم أتاهم فقال : لاتبكوا على أخى بعد اليوم ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : ادعوا إلىّ بنى أخى ، فجىء بنا كأنا أفراخ ، فقال صلى الله عليه وسلم: ادعوا إلىّ الحلاق ، فأمره فحلق رءوسنا» . وقد روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم حلق رأسه فى آخر عمره بعد أن كان شعره يضرب منكبيه . وفى حديث على رضى الله عنه: «كان شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شحمتى أذنيه» . ولأن الناس عصرا بعد عصر يحلقون ولم يظهر عليهم نكير ، ولأن فى ذلك مشقة وحرجا عفى عنه ، كما عفى عن سؤر الهرّة وحشرات الأرض .

(فصل) ويكره القزع ، وهو أن يحلق بعض الشعر ويترك بعضه ، لما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن القزع . وأما حلق القفا فمكروه إلا فى الحجامة خاصة، لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم نهى عن حلق القفا إلا فى الحجامة، لأنه من فعل المجوس . وكان أبو عبد الله أحمد يحلقه فى الحجامة ، ولأن ذلك حال الضرورة . وأما اتخاذ الجمة وفرق الشعر فسنة مأثورة . روى أن النبى صلى الله عليه وسلم فرق وأمر أصحابه رضى الله عنهم بالفرق . وقد روى ذلك عن بضعة وعشرين من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم منهم أبو عبيدة وعمار وابن مسعود رضى الله تعالى عنهم .

(فصل) ويكره التحذيف للرجال ، وهو إرسال الشعر الذى بين العذار والنزعتين الذى هو عادة العلويين ، ولا يكره ذلك للنساء لما روى أبو بكر الخلاد من أصحابنا بإسناده عن علىّ كرّم الله تعالى وجهه أنه كرهه . وعن الوليد بن مسلم أنه قال: أدركت الناس وماهو من زيهم . وأما أخذ الشعر من الوجه بالمنقاش فمكروه للرجال والنساء ، لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم لعن المتنمصات ، وهو أخذ الشعر من الوجه بالمنقاش ، ذكره أبو عبيدة . وأما المرأة فيكره لها حفّ جبينها بالزجاج والموسى والشعر الخارج عن وجهها لما تقدم من النهى عن ذلك . وقيل : يجوز لها ذلك لزوجها خاصة إذا طلب منها ذلك وخافت إن لم تفعله أعرض عنها وتزوّج بغيرها فأدّى إلى الفساد والمضرّة بها ، فيجوز لها ذلك لما فيه من المصلحة ، كما جوّز لها التزين بألوان الثياب والتطيب بأنواع الطيب والتشوق له والملاعبة والممازحة معه ، فعلى هذا يحمل لعن النبىّ صلى الله عليه وسلم المتنمصات على اللواتى أردن بذلك غير أزواجهن للفجور بهن والميل إليهن وترويج أنفسهن للزنا . والله أعلم .

(فصل) ويكره الخضاب بالسواد لما روى الحسن رضى الله عنه «أن النبىّ صلى الله عليه وسلم

قال فى قوم يغيرون البياض بالسواد: يسوّد الله تعالى وجوههم يوم القيامة» . وفى حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فيهم «لايريحون رائحة الجنة» . وأما الأخبار التى رويت فى الخضاب بالسواد من أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « اختضبوا بالسواد فإنه آنس للزوجة ومكيدة للعدو » ، فمحمول لأجل الحرب ، وذكر الزوجة فيه تبعا لاقصدا .

(فصل) فإذا ثبت كراهية السواد فالمستحبّ أن يخصب الرأس بالحناء والكتم ، وقد خضب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله رأسه وله ثلاث وثلاثون سنة ، فقال له عمه : عجلت ، فقال له : هذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى عن أبى ذرّ رضى الله تعالى عنه أنه قال : خير ما غير به الشيب الحناء والكتم . وأما خضاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختلف الناس فى ذلك ، فروى عن أنس رضى الله تعالى عنه أنه قال : « إن النبىّ صلى الله عليه وسلم ماشاب إلا يسيرا ، ولكن أبا بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما خضبا بعده بالحناء والكتم» . وروى أن أمّ سلمة رضى الله تعالى عنها « أخرجت للناس شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم مخضوبا بالحناء والكتم » فدلّ حديثها على إثبات خضابه صلى الله عليه وسلم بذلك . وأما الخضاب بالورس والزعفران فظاهر كلام الإمام أحمد رضى الله تعالى عنه فيه الجواز ، لما روى عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه أنه قال : «كان خضابنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالورس والزعفران» فإذا ثبت هذا فى شعر الرأس ، فمثله فى اللحية لعموم قوله صلى الله عليه وسلم « غيروا الشيب ولاتشبهوا باليهود » وقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى ذرّ رضى الله عنه « خير ما غير به الشيب الحناء والكتم » وهو عام فى شعر الرأس واللحية ، وأيضا إن أبا بكر رضى الله عنه جاء بأبيه أبى قحافة رضى الله عنه يوم فتح مكة إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « لو أقررت الشيخ فى بيته لأتيناه تكرمة لأبى بكر ، فأسلم ورأسه ولحيته كالثغامة البيضاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : غيروهما وجنبوه عن السواد » وهذا نصّ فى كون اللحية كالرأس وفى المنع عن السواد . وقال أبو عبيدة : الثغامة نبت أبيض الزهر والثمر يشبه بياض الشيب به . وقال ابن الأعرابى : هى شجرة تبيض كأنها الثلج .

(فصل) ويستحبّ أن يكتحل وترا لما روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم « أنه كان يكتحل وترا » واختلف الناس فى صفة الوتر فى ذلك ، فروى فى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يكتحل ثلاثا فى اليمنى وميلين فى اليسرى ، وروى فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما فى كل عين ثلاثا .

(فصل) ويدهن غبا ، وهو أن يفعل ذلك يوما ويترك يوما ، لما روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم «نهى عن أن يترجل الرجل إلا غبا» والفضيلة فى ذلك أن يكون بدهن البنفسج على سائر الأدهان لما روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم « إن فضل دهن البنفسج على سائر الأدهان كفضلى على سائر الناس » .

(فصل) ويستحبّ أن لايخلى الإنسان نفسه سفرا وحضرا عن سبعة أشياء بعد تقوى الله

تعالى والثقة به ، وهى التنظيف ، والتزيين ، والمكحلة ، والمشط ، والسواك ، والمقص والمدراء : وهى خشبة مدورة الرأس أدنى من شبر يتخذها العرب والصوفية يدرءون بها عن أنفسهم الأذى كالقمل وغيرها ، ويحكون بها الجسد ، ويقتلون الدبيب حتى لايباشرون كل شيء بأيديهم ، والسابع قارورة الدهن ، لأنه روى فى حديث عائشة رضى الله عنها « أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ما كان يفوته ذلك حضرا وسفرا » :

(فصل فيما يكره من الخصال) يكره الصفير والتصفيق وفرقعة الأصابع فى الصلاة ، ويكره تخريق الثياب فى حقّ المتواجد عند السماع ، ولايعارض فى ذلك الواجد ، ويكره الأكل على الطريق ، ومدّ الرجل بين جلسائه ، والاتكاء الذى يخرج به عن مستوى الجلوس ، لأنه تجبر وهوان بالجلساء إلا من العذر ؛ ويكره إطالة الثياب ويكره مضغ العلك لأنه دناءة ويكره التشدّق بالضحك والقهقهة ورفع الصوت فى غير حاجة ، وينبغى أن يكون مشيه معتدلا لايسارع إلى حدّ يصدم الماشي ويتعب نفسه ، ولا يخطو بحيث يورثه العجب ؛ ويكره فى البكاء النحيب والتعداد إلا أن يكون من خوف تعالى أو الندم على ما فات من أوقاته ببطالاته ، أو انكسار قلبه عند عدم بلوغه إلى درجة لحظها فيبكى حسرة عليها ؛ ويكره إزالة درنه بحضرة الناس ، ويكره الكلام فى المواضع المستقذرة كالحمام والخلاء وما أشبه ذلك ، وكذلك لايسلم ولا يرد على مسلم ، ويكره كشف رأسه بين الناس . وما ليس بعورة مما جرت العادة بستره ويحرم كشف العورة ، ويكره أن يقسم بأبيه أو بغير الله فى الجملة ، فإن حلف حلف بالله وإلا فليصمت ، كذلك جاء فى الأثر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم :

(فصل : فى الاستئذان) ينبغى له إذا قصد باب إنسان أن يسلم فيقول : السلام عليكم أأدخل ؟ لما روى « أن رجلا من بنى عامر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت فقال : أألج ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لخادمه : اخرج إلى هذا وعلمه الاستئذان ، فقال له قل : السلام عليكم أأدخل ؟ فسمعه الرجل ، فقال : السلام عليكم أأدخل؟ فأذن له فدخل ، ولايدير ظهره إلى الباب ولا يبعد ، لأنه يمنعه من سماع الجواب كذلك ثلاثا ، فإن أجيب فبها وإلا انصرف ، إلا أن يغلب على ظنه أنه لم يسمع نداءه لما بينهما من بعد أو شغل ، فإن له أن يزيد على الثلاث . والأصل فى ذلك ما روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « الاستئذان ثلاث ، فإن أذن لك فادخل وإلا فارجع » وسواء فى ذلك الأجانب والأقارب المحرمات كالأم وما شاكلها ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما سأله رجل « هل علىّ أن استأذن على أمى ؟ قال نعم ، قال : إنى معها فى البيت ، قال صلى الله عليه وسلم : استأذن عليها ، قال : إنى خادمها ، قال : استأذن عليها ، أتحبّ أن تراها عريانة ؟ » فأما زوجته وأمته الجائز له وطؤها فليس عليه الاستئذان فى حقهما ، لأن أكثر ما فى ذلك أن تصادف منكشفة منبسطة وقد أبيح له النظر إلى أبدانهن ، ولكن يستحب له أن يحرّك نعله أولا إذا دخل المنزل ليعلم دخوله ، نصّ على ذلك الإمام أحمد فى رواية مهنىء :

وإذا دخل يسلم على أهله ليكثر خير بيته ، كما جاء فى الأثر ، ونستوفى ذلك فى باب دخول المنزل إن شاء الله تعالى ، ولايطرق أهله ليلا لنهى النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يطرق الرجل أهله ليلا ، وقد فعل ذلك رجلان فوجدا عند أهلهما ما يكرهان فإذا أذن له فى دار غيره فدخل جلس حيث يأذن له صاحب الدار ، وإن كان من أهل الذمة ؛ وإن فجأ قوما وهم على طعامهم فلا يأكل إلا أن يكون صاحب الطعام ممن جرت عادته بالسماحة وطيب القلب بذلك .

(فصل : فيما يستحبّ فعله بيمينه وما يستحب فعله بشماله) يستحبّ له تناول الأشياء بيمينه والأكل والشرب والمصافحة والبداءة بها فى الوضوء والانتعال ولبس الثياب ، وكذلك يبدأ فى الدخول إلى المواضع المباركة كالمساجد والمشاهد والمنازل والدور برجله اليمنى ؛ وأما الشمال فلفعل الأشياء المستقذرة وإزالة الدرن كالاستنثار والاستنجاء وتنقية الأنف وغسل النجاسات كلها ، إلا أن يشق عليه ذلك أو يتعذّر ، كالمشلول والمقطوع يساره فيفعله ولايمشى فى نعل واحد إلا أن يكون ذلك يسيرا بمقدار ما يصلح الأخرى إذا انقطع شسعها ، وإذا أراد أن يناول إنسانا توقيعا أو كتابا فليقصد بيمينه ، وإذا مشى مع من هو أعلى منه فى المنزلة والفضل فليمشى عن يمينه يجعله كإمامه فى الصلاة ، وإن كان دونه فى المنزلة يجعله عن يمينه ويمشى عن يساره . وقد قيل : المستحبّ المشى على اليمين فى الجملة لتخلى اليسار للبزاق وغيره .

(فصل : فى آداب الأكل والشرب) ويستحبّ للآكل أن يسمى الله تعالى عند أكله ويحمده عند فراغه ، وكذلك عند الشرب ، لأن ذلك أبرك لطعامه وأبعد لشيطانه ، لما روى أن أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم قالوا « يا رسول الله إنا نأكل ولا نشبع ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلعلكم تفترقون ؟ قالوا : نعم ، قال صلى الله عليه وسلم : فاجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم الله تعالى يبارك لكم فيه » ؛ وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول « إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله عزّ وجلّ عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لأولاده لامبيت لكم ولاعشاء ، وإذا دخل فلم يذكر اسم الله عند دخوله قال الشيطان : أدركتم المبيت ، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء » . وعن حذيفة رضى الله عنه أنه قال « كنا إذا حضرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما لم يضع أحدنا يده حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنا حضرنا معه طعاما فجاء أعرابىّ كأنما يدفع ، فذهب ليضع يده فى الطعام ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، فجاءت جارية كأنما تدفع ، فذهبت لتضع يدها فى الطعام ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها وقال : إن الشيطان يستحل الطعم الذى لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه جاء بهذا الإعرابى يستحلّ به فأخذت بيده ، وجاء بهذه الجارية يستحلّ بها فأخذت بيدها ، فوالذى نفسى بيده إن يده فى يدى مع أيديهما » ، وإن نسى أن يذكر اسم الله تعالى عند أوله فليقل : بسم الله أوله وآخره ، هكذا روى فى حديث عائشة رضى الله عنها عن النبىّ صلى الله عليه وسلم

ويستحب ان يبدأ بالملح ويختم به ، ويتناول اللقمة بيمينه ويصغرها ويجيد مضغها ويطيل بلعها ، ويأكل مما يليه إذا كان نوعا واحدا ، وإن كان أنواعا فلا بأس أن يجيل يده فى القصعة ، وكذلك إذا كان ثمارا أو فاكهة ، ولا يأكل من ذروة الطعام ووسطه بل يأكل من جوانبه ، وإذ كان فريدا أكل بثلاثة أصابع ولعقها ، ولا ينفخ فى الطعام ولا الشراب ولا يتنفس فى إنائه ، وإذا ضاق نفسه نحى القدح عن فيه ، فإذا تنفس أعاده إليه . ويكره الاتكاء فى الأكل والشرب ، ويجوز الأكل والشرب قائما ، وقيل يكره ، والجلوس أحبّ . وإذا دفع الإناء إلى أحد من جلسائه بدأ بمن عن يمينه ، ولايجوز الأكل والشرب فى أوانى الذهب والفضة ولا المضبب إذا كان ذلك كثيرا ، فإذا قدم بين يديه فى شىء من ذلك طعام رفعه من الإناء إلى الخبز أو إناء غير ذلك الجنس ثم أكله ، والإنكار على من أحضره واجب ، وكذلك الحكم فى البخور فى مداخن الذهب والفضة ، كذلك الحكم فى ماء الورد من المراش المتخذة من ذلك ؛ فيحرم عليه الحضور فى تلك البقعة ويتعين عليه الإنكار والقيام من ذلك المجلس ، ويكون إنكاره برفق بأن يقول : تمام سروركم أن تتجملوا بما أباحته الشريعة وجعلته حلالا ، لابما حرّمته وحظرته ، ولا خير فى لذّة تؤول إلى معصية ، اذكروا رحمكم الله قول النبىّ صلى الله عليه وسلم « من شرب فى إناء ذهب أوفضة أو إناء فيه شىء من ذلك فإنما يجرجر فى بطنه نار جهنم » وإذا حصلت القمة فى فيه فلا يخرجها منه إلا أن يضطرّ إلى ذلك لشرقة أو حرارة يستضربها ، وإذا غطس على طعام خمر وجهه واحتاط فى ستره لأجل الطعام ؛ وإذا كان على رأسه إنسان قائم أذن له فى الجلوس ، فإن أبى عليه أوقام مملوكه أو غلامه لقضاء حاجته وسقيه الماء أخذ من أطايب الطعام فلقمه ؛ ويستحبّ مسح الإناء من فضلة الطعام ولقط الفتات من جوانب الإناء والطبق ؛ ويستحبّ أن يباسط الإخوان بالحديث الطيب والحكايات التى تليق بالحال إذا كانوا منقبضين ؛ وينبغى أن يأكل مع أبناء الدنيا بالأدب ومع الفقراء بالإيثار ، ومع الإخوان بالانبساط ، ومع العلماء بالتعلم والاتباع ؛ وإذا أكل مع ضرير أعلمه بما بين يديه فربما فاته أطايب لعماه . ويستحبّ الإجابة إلى وليمة العرس ، فإن أحبّ أن يأكل أكل ، وإلا دعا وانصرف ، لما روى جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دعى فليجب ، فإن شاء طعم وإن شاء ترك » . وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دعى فلم يجب فقد عصى الله تعالى ورسوله ، ومن دخل على غير دعوة فقد دخل سارقا وخرج معيرا » هذا الذى ذكرنا إذا كان ذلك خاليا عن المنكر ، فإن حضره منكر كالطبل والمزمار والعود والناى والشربوق والشبابة والرباب والمغانى والطنابير والجعرات التى يلعب بها الترك لايجلس هناك ، لأن جميع ذلك محرم ، وأما الدف فيجوز استعماله فى النكاح ، وسماع القول بالقصب والرقص مكروه ، كما فسر بعض المفسرين قوله عزّ وجلّ (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) فقال : هو الغناء والشعر . وجاء فى بعض الأحاديث عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت السيل البقل » .
وسئل الشبلى رحمه الله عن الغناء فقيل . أحقّ هو؟ قال : لا ، فقيل : فماذا ؟ قال فماذا بعد الحقّ
إلا الضلال ؟ ثم يكفى فى كراهته ما فى ذلك من ثوران الطبع وهيجان الشهوة والميل إلى النسوان
وأباطيل النفوس ورعوناتها والطراب والسخف والدناءة ، والاشتغال بذكر الله تعالى
أطيب وأسلم لمن آمن بالله واليوم الآخر . ودعوة الختان ليست مستحبة ، ولا على من دعى
إليها أن يجيب ، ويكره التقاط النثار لأنه يشبه النهبة وفيه سخف ودناءة ، ويكره حضور طعام
الولائم ما عدا العرس إذا كان على الصفة التى وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يمنع
منه المحتاج ويحضره المستغنى عنه ؛ ويكره لأهل الفضل والعلم فى الجملة التسرّع إلى إجابة
الطعام والتسامح بذلك لما فيه من الذلة والدناءة والشره لا سيما إذا كان حاكما . وقيل : ماوضع ،
أحد يده فى قصعة أحد إلا ذلّ ، ويحرم التطفل على طعام الناس ، وهو دخوله مع المدعو من
غير أن يدعى ، وهو ضرب من الوقاحة والغصب ففيه إثمان : أحدهما الأكل لما لم يدع إليه ،
والثانى دخوله إلى منزل الغير بغير إذنه ، والنظر إلى أسراره والتضييق على من حضره . ومن
الأدب أن لا يكثر النظر إلى وجوه الآكلين ، لأنه مما يحشمهم ؛ ولايتكلم على الطعام بما
يستقذره الناس من الكلام ، ولابما يضحكهم خوفا عليهم من الشرق ، ولا بما يحزنهم لئلاينغص
على الآكلين أكلهم . ويستحبّ غسل اليد قبل أكل الطعام وبعده ؛ وقيل يكره قبل الطعام
ويستحبّ بعده . ويكره أكل البقلة الخبيثة ، وهى الثومة والبصلة والكراث لكراهة ريحه ،
وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أكل من هذه البقلة الخبيثة فلا يقربن مصلانا »
وكثرة الأكل بحيث يخاف منه التخمة مكروهة . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه
قال « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه » ويكره لغير صاحب الطعام من الضيف أن يلقم من
حضر معه على الطبق إلا بإذن صاحب الطعام ، لأنه يأكل على ملك صاحبه على وجه الإباحة ،
وليس ذلك بتمليك ، ولهذا اختلف الناس فى الوقت الذى يحصل فيه الطعام ملكا للآكل ؛
فقال قوم : إذا حصل فى فيه واستهلك ؛ وقال آخرون : لايملكه بل يأكل على ملكه . وإذا
قدم الطعام فلا يحتاج بعد التقديم إلى إذن إذا كان قد جرت العادة فى تلك البلدة بالأكل ،
كذلك فيكون العرف إذنا ، ويكره إخراج شىء من فيه وردّه إلى القصعة ، ويكره التخلل
على الطعام ، ولا يمسح يده بالخبز ولايستذله ، ولايخلط طعاما بطعام يعنى ألوان الطبائخ ، لأنه
قد يكره ذلك طباع كثير من الناس ، وإن كانت نفسه تميل إليه فيترك ذلك لأجلهم ولايجوز ،
له ذمّ الطعام ، ولا لصاحبه استحسانه ومدحه ولا تقويمه لأنه دناءة ، وقد روى أن النبيّ صلى الله
عليه وسلم ما مدح طعاما ولاذمه ، ولا يرفع يده حتى يرفعوا أيديهم ، إلا أن يعلم منهم الانبساط
إليه فلا يتكلف ذلك . ويستحبّ أن يجعل ماء الأيدى فى طست واحد لما روى فى الخبر « لا
تبدّدوا يبدّد شملكم » وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نهى أن يرفع الطست حتى يطف ،
يعنى يمتلىء ، ولا بغسل يده بما يطعم من دقيق الباقلاء والعدس والهرطمان وغير ذلك ، ويجوز

بالنحالة ، ولا يقرن بين التمرتين لنهيه صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؛ وقيل : لايكره ذلك إن كان وحده أو كان هو صاحب الطعام ، ولا يتخير الأطعمة على صاحب الدار بل يقنع بما قدمه ، لأن ذلك يحمله على التكلف ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « أنا وأتقياء أمتى براء من التكلف » وإن استدعى منه صاحب الدار التشهى عليه كان له أن يذكر شهوته . ويكره له ردّ الهدية وإن قلت إذا كانت من جهة حلال طيبة ، واجتهد فى المكافأة أو الدعاء له . ومن سقط فى طعامه أو شرابه شيء فلا يخلو إما أن يكون له نفس سائلة ، فإن كان من ذوات السموم لم يأكله ماعدا السمك فيكون الطعام نجسا ، ويحرم أكله إذا كان مائعا ، وإن كان جامدا رفعه وما حوله ؛ وإن كان مما لانفس له سائلة ، فإن كان من ذوات السموم لم يأكله . ويحرم الطعام لأجل الضرر به لا لعينه كالحية والعقرب ، وإن كان ذبابا غمسه فى الطعام حتى يغوص جناحاه ثم أخرجه ، وإن مات فإن الطعام طاهر يأكله ، لما روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه فيه ، فإن فى إحدى جناحيه داء وفى الأخرى شفاء وإنه يتقى بالذى فيه الداء » ويستحبّ مصّ الشراب ولا يكرعه كرعا ، ويقطعه ثلاث دفعات للنفس ، ولا يتنفس فى الإناء ، ويسمى على أوله ويحمد الله فى آخره . والاختصار فى هذه الجملة أن نقول : هى اثنتا عشرة خصلة أربع منها فريضة ، وأربع سنة ، وأربع آداب . أما الفريضة : فالمعرفة بما أكله من أين هو ، والتسمية ، والرضا ، والشكر . وأما السنة : فالجلوس على الرجل اليسرى ، والأكل بثلاثة أصابع ، ولعق الأصابع ، والأكل مما يليه . وأما الآداب : فالمضغ الشديد وتصغير اللقم ، وقلة النظر إلى وجوه القوم ، وأن لايفرش المائدة بالخبز ويضع فوقه الأدم ، وأن لا يأكل متكئا ولا منبطحا على بطنه .

(فصل) فإذا أفطر عند غيره قال : أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وتنزّلت عليكم الرحمة ، وصلت عليكم الملائكة ، الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين ، وهدانا من الضلالة وفضلنا على كثير ممن خلقه تفضيلا ، اللهم أشبع جياع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، واكس عاريها ، وعاف مرضاها ، وردّ غائبها ، واجمع شمل أهل الدار ، وأدرّ أرزاقهم ، واجعل دخولنا بركة ، وخروجنا مغفرة ، وآتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار برحمتك يا أرحم الراحمين .

(فصل : فى آداب الحمام) بناء الحمام وبيعه وشراؤه وكراؤه مكروه فى الجملة ، لما فيه من مشاهدة عورات الناس ، وقد روى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : بئس البيت الحمام ، ينزع من أهله الحياء ، ولا يقرأ فيه القرآن . وأما دخوله فالأولى أن لايدخله إلا إذا لم يجد من ذلك بدًّا ، لما ورد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه كان يكره الحمام ، ويعلل بأنه من رقيق العيش . وعن الحسن وابن سيرين أنهما كانا لايدخلان الحمام . وقال عبد الله بن الإمام أحمد رحمهما الله : ما رأيت أبى قط دخل الحمام ، وإن كان به حاجة إلى ذلك ودعت الضرورة جاز له دخوله مستترا بمئزر غاضا بصره عن عورات الناس ، وإن أمكنه أن

يخلى الحمام له فيدخله بالليل أو وقتا يقلّ زبونه بالنهار فلا بأس . وقد سئل الإمام أحمد رحمه الله عن ذلك فقال : إن كنت تعلم أن كل من فى الحمام عليه إزار فادخله وإلا فلاتدخله . وقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبىّ صلى الله علية وسلم أنه قال . « بئس البيت الحمام بيت لايستر ،وماؤه لايطهر » قالت عائشة رضى الله عنها : ما يسرّ عائشة أنها داخلته ولها مثل أُحد ذهبا » ، وقال صلى الله عليه وسلم ، فى حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر » ، وأما النساء فإنما يجوز لهن دخوله بالشرائط التى ذكرناها فى حقّ الرجال ، ووجود العذر والحاجة كالمرض والحيض والنفاس ، لما روى ابن عمر رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « سيفتح عليكم أرض العجم ، وستجدون بيوتا يقال لها الحمام ، فلا يدخلها الرجال إلا بإزار ، وامنعوا منها النساء إلا مريضة أو نفساء » وإذا دخل الحمام فلا يسلم ولايقرأ القرآن ، لما تقدم من حديث على رضى الله عنه .

(فصل : فى النهى عن التعرّى فى الجملة وفى حال الغسل) روى أبو داود بإسناده عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال « قلت يارسول الله عوراتنا ما نأتى منها ومانذر؟ قال صلى الله عليه وسلم : احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ماملكت يمينك ، قال : قلت : يارسول الله إذا كان القوم بعضهم فى بعض مجتمعين ، قال صلى الله عليه وسلم : إن استطعت أن لا تريها أحدا فلا ترينها ، قال : قلت يا رسول الله إذا كان أحدنا خاليا ، قال صلى الله عليه وسلم : الله أحقّ أن يستحى منه من الناس » وروى أبو داود بإسناده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « لاينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولاتنظر المرأة إلى عورة المرأة ، ولا يفضى الرجل إلى الرجل فى ثوب ، ولا تفضى المرأة إلى المرأة فى ثوب » . وأما حالة الغسل فى موضع خال لايراه أحد ، فيكره أن يغتسل بلامئزر ، لما روى أبو داود بإسناده عن عطاء عن يعلى بن أمية رضى الله عنه ، قال يعلى : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يغتسل بلا إزار ، فصعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : إن الله حيى ستير يحب الستر والحياء ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر » . وأما إن دخل الماء للغسل أو لغيره فيكره أيضا بلا مئزر ، لأن للماء سكانا لما روى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم « أنه نهى أن يدخل الماء بلا مئزر » وعن الحسن رحمه الله أنه قال : للماء سكان ، وإن أحقّ من استتر من سكانه لنحن .

(فصل) وقد رخص الإمام أحمد رحمه الله فى ذلك فى رواية أخرى ، وإنه لايكره ذلك ، لأنه سئل عن رجل كان عند نهر ليس يراه أحد ، قال : أرجو ؛ ومعنى ذلك أنه لا يكون به بأس . والأولى والأصحّ ما تقدم من النهى .

(فصل : فى لبس الخاتم واتخاذه) عن أبى داود رحمه الله بإسناده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى بعض الأعاجم قيل : له لايقرءون

كتابا إلا بالخاتم ، فاتخذ خاتما من فضة ونقش فيه : محمد رسول الله . وعن أنس رضى الله عنه قال : كان خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضة كله فصه منه . وفى لفظ عن أنس رضى الله عنه قال : كان خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورق فصه حبشى . وروى أبو داود بإسناده عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتما من ذهب وجعل فصه مما يلى بطن كفه ، ونقش فيه : محمد رسول الله ، فاتخذ الناس خواتيم الذهب ، فلما رآهم اتخذوها رمى به وقال : لا ألبسه أبدا ، ثم اتخذ خاتما من فضة ونقش فيه : محمد رسول الله ، ثم لبس ذلك الخاتم بعده أبو بكر رضى الله عنه ، ثم لبسه بعد أبى بكر عمر رضى الله عنه ، ثم لبسه عثمان رضى الله عنه حتى وقع فى بئر أريس .

(فصل) ويكره اتخاذ الخاتم من الحديد والشبه ، لما روى أبو داود بإسناده عن عبد الله ابن بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال « إن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه خاتم من شبه ، فقال له : مالى أجد منك ريح الأصنام فطرحه ، ثم جاء وعليه خاتم من حديد ، فقال : مالى أرى عليك حلية أهل النار فطرحه ، فقال : يارسول الله من أىّ شىء اتخذه ؟ قال صلى الله عليه وسلم : اتخذه من ورق ولاتتمه مثقالا .

(فصل) ويكره التختم فى الوسطى والسبابة ، لما روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم نهى عليا رضى الله عنه عن ذلك .

(فصل) والاختيار التختم فى اليسرى وفى الخنصر ، لما روى أبو داود رحمه الله بإسناده من نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يتختم فى يساره ، وكان فصه فى باطن كفه . وروى ذلك عن أكثر السلف الصالح ، ولأن خلاف ذلك عادة وشعار المبتدعة ، ولأن المستحبّ أن يكون تناول الأشياء باليمين ليضعها فى الشمال ، وفى ذلك صيانة للخاتم وصيانة للمكتوب عليه من الأسماء والحروف ، وقد روى عن علىّ رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يتختم فى يمينه ، فعلى هذا اليمين واليسار سواء والاختيار الأوّل .

(فصل : فى آداب الخلاء والاستنجاء) إذا أراد دخول الخلاء نحى عنه ماكان فيه ذكر الله عزّ وجلّ كالخاتم والتعويذ وغيرهما ، ويقدّم رجله اليسرى ويؤخر اليمنى ويقول : بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث ، ومن الرجس النجس الشيطان الرجيم ، لما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن هذه الحشوش محتضرة ، فاستعيذوا بالله من الشيطان ، وليقل أحدكم : أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث الشيطان الرجيم » ويكون مغطى الرأس مستترا ، ولا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض ويكون اعتماده على رجله اليسرى ، لأنه أسهل لخروج الخارج ، ولا يتكلم ولا يردّ على من يسلم عليه ، ولا يجيب متكلما ، ويحمد الله فى قلبه عند العطاس ، ولا يرفع رأسه إلى السماء ، ولا يضحك مما يخرج منه ولا من غيره ، ويبعد عن الناس ويهيئ موضعا مستقلا رخوا لبلوله لئلا يترشش عليه ولا يرى عورته أحدا ، فان كان الموضع صلبا أو مهبّ الريح ألصق رأس ذكره بالأرض ، وإن كان فى الصحراء لم يستقبل

القبلة ولم يستدبرها ، بل يشرق أو يغرب كما جاء فى الخبر ، ولايستقبل الشمس والقمر ، ولا يبل فى جحر ولا تحت شجرة مثمرة ولا غير مثمرة لأنه قد يستظل بظلها فتتلوث ثيابهم ، وقد يسقط من ثمرها فيتنجس ، ولا فى طريق ولا فى مشرعة نهره ولا فى فناء حائط ، لأنه بذلك يستحق اللعنة كما ورد فى الخبر ، ولايذكر الله فى موضعه بالقرآن ولا بغيره تنزيها لاسمه عز وجل ، ولايزيد على بسم الله والتعوذ من الشيطان على ما ذكرنا ، فإذا فرغ قال : الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى غفرانك . ثم يقوم عن موضعه إلى موضع طاهر ، ولا يستنجى هناك لئلا تتلوث يده بالنجاسة أو يرش الماء على بدنه وثيابه ، ثم ينظر فإن كان الخارج لم ينتشر عن المخرج إلا بمقدار ما جرت العادة به كان مخيرا بين الاستجمار بجامد وبين الاستنجاء بالماء ، فإن اختار الجامد فالاختيار الحجر ، وعدده ثلاثة أحجار إن كان لم يستجمر بهن أحد من قبل طاهرة ، فيأخذ حجرا منها بيمينه ، فيبدأ بالقبل بعد أن يمسح أصل ذكره إلى رأسه وينثره ثلاثا بيده اليسار متنحنحا ليتحقق استفراغ البول بذلك فهو الاستبراء ، ويأخذ ذكره بشماله ويمده على الحجر الذى فى يمينه ويمسحه حتى يرى موضع المسح جافا ، يفعل كذلك ثلاثا بثلاثة أحجار ، وإن لم يقدر على الأحجار فبثلاث خرق أو خزف أومدر ، أو ثلاث حثيات من تراب ، أو يمسحه على الأرض أوالحائط عند عدم هذه الأشياء حتى يرى الجفافة والنشافة عن أثركل مسحة ، فإذا فعل ذلك فقد سقط عنه حكم القبل . وينبغى أن يحترز عن مد الذكر فى الاستبراء من موضع الحشفة ، لأن قد يبقى البول فى قصبة الإحليل ثم يخرج بعد فراغه من الوضوء فيبطل وضوءه ، ولهذا شرع فى حقه أن يخطو خطوات قبل الاستبراء والتنحنح خوفا من بقاء شيء من البول فى الإحليل . وأما الدبر فيأخذ الحجر بشماله ويمسحه على المسربة من مقدمها إلى أن يبلغ إلى موخرها ثم يرمى به ، فقد حصل بذلك الإجزاء ، ثم يأخذ الحجر الثانى ويبدأ به من مؤخرها فيمسحها إلى أن يبلغ مقدمها ثم يرمى به ، ثم يأخذ الحجر الثالث فيديره حول المسربة فيرمى به ، وقد حصل بذلك الإجزاء ، فإن لم ينق بذلك بأن رأى على الحجر الأخير نداوة زاد إلى خمسة ، وإن لم ينق بذلك زاد إلى سبعة أو تسعة ، ولا يقطعه إلا على وتر ؛ وإن نقى بحجر واحد أو باثنين زاد إلى ثلاثة ، لأن الشرع بذلك ورد . وقد ذكر للاستجمار صفة أخرى ، وهو أن يأخذ الحجر بشماله فيضعه على مقدم صفحته اليمنى ثم يمره إلى مؤخرها ، ثم يديره على اليسرى فيمر عليها إلى مؤخرها حتى يبلغ الموضع الذى بدأ منه ، ويأخذ حجرا آخر فيمره من مقدم صفحته اليسرى كذلك ، ثم يأخذ حجرا آخر فيمسح به الوسط ، والكل جائز فقد جاء فى الأثر أن رجلا قال لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه : لا أحسبك أنك تحسن الخراءة ، فقال : بلى وأبيك إنى بها لحاذق ، قال : فصفها لى ، قال : أبعد الأثر وأعد المدر ، واستقبل نبت الشيح واستدبر الريح ، وأقعى إقعاء الظبى وأجفل إجفال النعام . أما الشيح فهو نبت طيب الريح يكون بالبادية . والإقعاء هاهنا : الاستيفاز على صدور قدميه . والإجفال : ارتفاع عجزه عن الأرض ،

(فصل) والاستنجاء بالماء : أن يمسك قضيبه بيده اليسرى ويطرح الماء باليمنى فيغسله صبعا بعد الاستبراء والتنحنح وفضل إزعاج على ما ذكرناه ، وقدشبه فقهاء المدينة رحمهم الله الذكر بالضرع ، ولا يزال يخرج منه الشيء بعد الشيء ما دام الرجل يمده ، فإذا وقع الماء على الذكر انقطع البول . وأما الدبر فيباشر المحلّ بيده اليسرى ويصبّ الماء باليمنى ، فيتابع صبه ، ويسترخي قليلا ، ويجدذلك الموضع بيده ، حتى يتيقن نظافته وينقى ، ولايلزمه غسل باطن المخرجين لأن ذلك مما يعفى عنه فى الشرع ، ولاعليه الاستنجاء من الريح . والفضيلة فى الجمع بين الاستجمار بالجامد والماء ، فإن اقتصر على الحجر أجزأه ، لكن استعمال الماء أولى فى الجملة ، لأنه قيل : إذا لم يستنج بالماء اعتراه الوسواس ، ولهذا قيل إن قوما من الشعراء لايستنجون بالماء ، لأن كلام الخنا والفحش يجيء بذلك فهو سيئة ، نعوذ بالله من كلام يثمره القذر والنتن .

(فصل) وأما إذا انتشرت النجاسة إلى معظم حشفته فى القبل والصفحتين فى الدبر لم يجزئه غير الماء ، لأنها خرجت من محل الترخيص فصارت كالنجاسة التى على بقية البدن من الفخذ والصدر وغيرهما ولا تزول إلا بالماء .

(فصل) وصفة ما يجوز به الاستجمار أن يكون جامدا طاهرا منقيا غير مطعوم لاحرمة له ، وغير متصل بحيوان ، ولايجوز بالروث والرمة لأنهما من طعام الجن ، ولا بشيء من لزج يلطخ فلا ينقى كالحمة والزجاجة والحصاة الملساء .

(فصل) ويجب ما ذكرنا من الاستنجاء لجميع ما يخرج من السبيلين سوى الريح ، وذلك كالغائط والدودة والحصاة والدم والمدة والبعر . وأما الذكر فالخارج منه خمسة أشياء ، أحدها البول والثانى المذى وهو أبيض رقيق يخرج عند اللذّة وعند الملاعبة والتذكار ، وحكمه حكم البول وزيادة غسل الذكر والأنثيين كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حديث على رضى الله عنه « ذلك ماء الفحل ولكل فحل ماء » فليغسل ذكره وأنثييه وليتوضأ وضوءه للصلاة والثالث الودّى ، وهو ماء أبيض خاثر يخرج بأثر البول ، فحكمه حكم البول فقط . والرابع المنىّ ، وهو الماء الأبيض الدافق عند اللذّة الكبرى بالجماع أو الاحتلام ، وقد يكون أصفر عند قوّة الرجل ، وقد يكون أحمر عند كثرة الجماع ، وقد يكون رقيقا عند ضعف البنية والقوّة ، ويعلم بالرائحة كرائحة الطلع والعجين ، وهو طاهر فى أشهر الروايتين ، وموجبه غسل جميع البدن وماء المرأة رقيق أصفر . والخامس الريح يخرج من القبل نادرا كما يخرج من الدبر .

(فصل : فى كيفية الطهارة الكبرى) وهو على ضربين : كاملة ، ومجزئه . أما الكاملة فهى أن يأتى بالنية ، وهو اعتقاده رفع الحدث الأكبر أو الجنابة ، فإن تلفظ به مع اعتقاده بقلبه كان أفضل ، ويسمى عند أخذ الماء ، ويغسل يديه ثلاثا ، ويغسل ما به من الأذى ، ثم يتوضأ وضوءه كاملا ، ويؤخر غسل قدميه ، ويحثى على رأسه ثلاث حثيات من الماء يروى بها أصول شعره ، ويفيض الماء على سائر جسده ثلاثا ، ويدلك بدنه بيديه ، ويتبع المغابن وغضون البدن ، ويتحقق حصول الماء عليها لقوله صلى الله عليه وسلم « خللوا الشعر وانقوا البشرة ، فإن

تحت كل شعرة جنابة » ويبدأ بشقه الأيمن ، ثم ينتقل من موضع غسله فيغسل قدميه ، فإن سلم فى خلال ذلك من نواقض الطهارة الصغرى جاز له أن يصلى بهذه الطهارة ، لأنا نحكم له برفع الحدثين جميعا ، وإلا أحدث للصلاة وضوءا . والأصل فى جميع ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد الغسل من الجنابة يغسل يديه ثلاثا ، ثم يأخذ بيمينه فيصبّ على شماله ، ثم يتمضمض ويستنشق ثلاثا ، ويغسل وجهه ثلاثا وذراعيه ثلاثا ، ثم يصبّ على رأسه الماء ثلاثا ثم يغتسل ، فإذا خرج غسل قدميه . وأما المجزىء فهو أن يغسل فرجه وينوى ويسمى ويعمّ بدنه بالغسل مع المضمضة والاستنشاق ، لأنهما واجبان فى الكبرى ، وفى الصغرى روايتان ، أصحهما وجوبهما فيها أيضا ، ولايجوز له أن يصلى بهذا الغسل إلا أن ينوى به الغسل والوضوء ، ويتداخل بقية أفعال الوضوء فى الغسل للعذر بالنية وإذا عدمت النية لم يحصل له الوضوء ، فلا تصحّ الصلاة ، وقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « لاصلاة لمن لاوضوء له » بخلاف الأول فإنه قد أتى فيه بالوضوء الكامل . والسرف فى استعمال الماء غير مستحبّ ، والاقتصاد هو المحمود المندوب إليه وقلة الماء مع إحكام الغسل والوضوء أولى من الإسراف ، وقد روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم توضأ بمدّ وهو رطل وثلث ، واغتسل بصاع وهو أربعة أمداد .

(فصل : فى الأذكار المستحبّ ذكرها عند غسل الأعضاء) يقول إذا فرغ من الاستطابة : اللهمّ نقّ قلبى من الشكّ والنفاق ، وحصن فرجى من الفواحش ، ويقول عند التسمية : أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك ربّ أن يحضرون ؛ ويقول عند غسل يديه : اللهم إنى أسألك اليمن والبركة ، وأعوذ بك من الشؤم والهلكة ؛ ويقول عند المضمضة : اللهمّ أعنى على تلاوة القرآن كتابك وكثرة الذكر لك ؛ ويقول عند الاستنشاق : اللهم أوجدنى رائحة الجنة وأنت عنى راض ؛ ويقول عند الاستنثار : اللهم إنى أعوذ بك من روائح النار ، ومن سوء الدار ؛ ويقول عند غسل وجهه : اللهمّ بيض وجهى يوم تبيض وجوه أوليائك ، ولاتسوّد وجهى يوم تسودّ وجوه أعدائك ؛ وعند غسل ذراعه اليمنى : اللهم ائتنى كتابى بيمينى وحاسبنى حسابا يسيرا ؛ وعند غسل ذراعه اليسرى : اللهم إنى أعوذ بك أن تؤتينى كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى ؛ ويقول عند مسح الرأس : اللهم غشنى برحمتك ، وأنزل علىّ من بركاتك ، وأظلنى تحت ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلا ظلك ؛ ويقول عند مسح الأذنين : اللهم اجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، اللهم أسمعنى منادى الجنة مع الأبرار ، ثم يمسح عنقه فيقول : اللهمّ فك رقبتى من النار ، وأعوذ بك من السلاسل والأغلال ؛ ويقول عند غسل قدمه اليمنى : اللهم ثبت قدمى على الصراط مع أقدام المؤمنين ؛ ويقول عند غسل قدمه اليسرى : اللهم إنى أعوذ بك أن تزلّ قدمى عن الصراط يوم تزلّ أقدام المنافقين ، فإذا فرغ من وضوئه رفع رأسه إلى السماء ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى ،

أستغفرك وأسألك التوبة فاغفرلى وتب علىّ إنك أنت التوّاب الرحيم ، اللهم اجعلنى من التوّابين ، واجعلنى من المتطهرين ، واجعلنى صبورا شكورا ، واجعلنى أذكرك وأسبحك بكرة وأصيلا .

(فصل : فى آداب اللباس) وهو على خمسة أضرب : محرّم على كل مكلف ، ومحرّم على شخص دون شخص ، ومكروه ، ومباح ، ومتنزّه عنه ، فأما المحرّم على كل مكلف مكلف فالمغصوب . وأما المحرّم على شخص دون شخص فالحرير مباح للنساء ، حرام على بالغى الذكور ، وهل يباح أن يلبسوه البنين الصغار أم لا ؟ على روايتين ؛ وكذلك فى إباحة لبسه للبالغين فى قتال المشركين وجهادهم روايتان ، فهذا هو الضرب المباح . وأما المكروه فهو إطالة الثوب إلى حدّ يخرج إلى الخيلاء والكبر ، وكذلك مافيه الحرير والقطن لا يعلم ، هل هما نصفان أوأحدهما أكثر ؟ وأما المتنزّه عنه فهو عن كل لبسة يكون بها مشتهرا بين الناس كالخروج عن عادة أهل بلده وعشيرته ، فينبغى أن يلبس ما يلبسون ولايباينهم فيها حتى لايشار إليه بالأصابع ويغتاب ، فيكون ذلك سببا إلى حملهم على غيبته فيشاركهم فى اثم الغيبة له .

(فصل) ولنا قسمان آخران : أحدهما واجب ، والآخر مندوب . فأما الواجب فعلى ضربين : أحدهما يرجع إلى حقّ الله تعالى . والثانى إلى حقّ الإنسان خاصة فأما الذى لحقّ الله تعالى فهو ستر العورة عن أعين الناس على ما بيناه فى فصل التعرى . وأما الذى لحقّ الإنسان فهو الذى يتوقى به من الحرّ والبرد وأنواع المضارّ فيجب عليه ذلك ، ولا يجوز تركه لأن فيه عونا على إتلاف نفسه وذلك حرام . وأما المندوب فكذلك ينقسم على قسمين : أحدهما فى حقّ الله تعالى ، وهو الرداء إذا كان فى جماعة ومجمع الناس فلا يعرّى منكبيه من شىء من الثياب الجميلة كالأعياد والجمع وغير ذلك ؛ والقسم الثانى فى حقّ المخلوقين ، وهو ما يتجملون به بينهم من أنواع الثياب المباحة ، ولا يزدرى بصاحبه ، ولا ينقص مروءته بينهم ، ويكره الاقتعاط وهو التعمم بغير الحنك ، ويستحبّ التلحى وهو إذا كان بالحنك ، ويكره كل ما خالف زىّ العرب وشابه زى الأعاجم ،وتطويل الذيل مكروه لأنه ورد فى الأثر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إزرة المسلم إلى نصف الساق ولاحرج ولا جناح فيما بين الكعبين ، وما كان أسفل من الكعبين فهو فى النار من جرّ إزاروه بطرا لم ينظر الله تعالى إليه » ذكره أبو داود بإسناده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . واشتمال الصماء مكروه فى الصلاة ، وهو أن يلتحف بثوب ويجعل طرفيه على جانب ، فلا يكون ليده موضع تخرج منه ، ولذلك سمى الصماء . وكذلك يكره السدل ، وهو أن يترك وسط ردائه على رأسه ، وباقيه مسدول على ظهره وهى لبسة اليهود . وكذلك يكره الاحتباء ، وهو أن يجلس ويضمّ ركبته إلى نحو صدره ، ويدير ثوبه من وراء ظهره إلى أن يبلغ ركبتيه ويشده ، حتى يكون كالمعتمد عليه ، والمستند إليه إذا لم يكن على ثوب ، لأنه يؤدّى إلى انكشاف عورته ،

ولا بأس بذلك إذا كان تحته ثوب . وكذلك يكره التلثم وتغطية الأنف فى الصلاة . ويكره التشبه بزىّ النساء للرجال ، وكذلك للنساء التشبه بزىّ الرجال ، لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم لعن فاعله وتوعد عليه . ويكره الإقعاء فى الصلاة ، وهو أن يمدّ ظهر قدميه ، ويجلس على عقبيه ، أو يجلس على أليتيه وينصب قدميه ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « هو إقعاء كإقعاء الكلب منهىّ عنه » ويكره لبس ما تشفّ منه الأبدان من الثياب ، وإن شفت منه العورة كان فاسقا كما لو كشفها إذا تعمد لبسه ، ولا تصحّ صلاته فيها ؛ وقد مدح الشرع السراويل بقوله صلى الله عليه وسلم « السراويل نصف الكسوة » وهى فى حقّ الرجال آكد . ويكره توسعة بوائكه وتضييقها أولى وأحبّ ، لأنه أستر للعورة . وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « اللهمّ اغفر للمسرولات » قال ذلك فى حقّ امرأة مرّ بها علت بائكة فسقطت ، فأدار وجهه عنها ، فقيل له : إنها مسرولة . وفى بعض الأحاديث عنه صلى الله عليه وسلم « أنه كره السراويل المخرفجة » وهى الواسعة الطويلة التى تقع على ظهر القدمين ، وأصله السعة ؛ يقال : عيش مخرفج : إذا كان واسعا . وأفضل اللباس ما كان ساترا . وأفضل ألوان الثياب ما كان أبيض لقوله صلى الله عليه وسلم « خير ثيابكم البياض » . وفى لفظ آخر « عليكم بالبياض يلبسها أحياؤكم وكفنوا بها موتاكم » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « البسوا من ثيابكم البياض ، فإنها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم ، وإن خير أكحالكم الإثمد ، يجلو البصر ، وينبت الشعر » .

(فصل : فى آداب النوم) يستحبّ لمن أراد أن ينام ، أن يوكئ سقاءه ، ويطفئ سراجه ، ويغلق بابه ، ويغسل فاه إن كان قد أكل ماله رائحة ، لئلا يقصده الدبيب ، ويسمى بسم الله عزّ وجلّ ، ثم يقول : ماروى أبو داود بإسناده عن سعيد بن عبيدة قال : حدثنى البراء بن عازب رضى الله عنهما ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل : اللهمّ إنى أسلمت وجهى إليك وفوّضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك ، لاملجأ ولا منجأ منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت ، فإن متّ متّ على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تقول » ؛ قال البراء : فقلت أستذكرهن ، فقلت : برسولك الذى أرسلت ، قال : لا وبنبيك الذى أرسلت : ويكون نومه على ماذكر فى الخبر على جنبه الأيمن ، مستقبل القبلة كما يكون فى اللحد ، وإن نام على ظهره متفكرا فى ملكوت السموات والأرض فلا بأس . ويكره نومه على وجهه ، وإذا رأى فى منامه مايزعجه استعاذ بالله تعالى من شرّه ، وتفل عن يساره ثلاثا وقال : اللهم ارزقنى خير رؤياى ، واكفنى شرّها ، ويقرأ آية الكرسى ، وقل هو الله أحد ، والمعوّذتين ، إلا أن يكون جنبا ، ولا يفسرمنامه إلا على من يحسن ، من عالم أو حكيم ، ويكون محبا ، ولا يفسر مارآه من الأحلام ، لأن الشيطان يتمثل له . وقد روى عن أبى قتادة

رضى الله عنه أنه قال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم شيئا يكرهه ، فلينفث عن يساره ثلاث مرّات ، ثم ليتعوّذ من شرّها فإنها لاتضرّه » ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا انصرف من صلاة الغداة يقول : هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا ؟ ويقول : إنه ليس يبقى بعدى من النبوّة إلا الرؤيا الصالحة » . وفى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة » وإذا أراد الخروج من منزله ذكر الكلمات التى وردت فى حديث الشعبى عن أمّ سلمة رضى الله عنها أنها قالت : « ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيتى قطّ إلا رفع طرفه إلى السماء ، فقال : اللهمّ إنى أعوذ بك أن أضلّ أو أضلّ ، أو أزلّ أو أزلّ ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يجهل علىّ » ، ويقرأ قل هو الله أحد مع المعوّذتين إذا أصبح وإذا أمسى ، ويدعو مع ذلك بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم بك نصبح ، وبك نمسى ، وبك نحيا ، وبك نموت » ، ويزيد فى الصباح : وإليك النشور ، وفى المساء وإليك المصير ؛ ويقول مع ذلك : اللهم اجعلنى من أعظم عبادك عندك نصيبا فى كل خير تقسمه فى هذا اليوم وفيما بعده من نور تهدى به ، أو رحمة تنشرها ، أو رزق تبسطه ، أو ضرّ تكشفه ، أو ذنب تغفره ، أو شدّة تدفعها ، أو فتنة تصرفها ، أو معافاة تمنّ بها برحمتك ، إنك على كلّ شىء قدير . وإذا أراد دخول المسجد فليقدم رجله اليمنى ويؤخر رجله اليسرى ، ويقول : بسم الله ، السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، واغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك وليسلم على من كان فى المسجد ، فان لم يكن فيه أحد قال : السلام علينا من ربنا عزّ وجلّ ؛ وإذا دخله لايجلس حتى يأتى بركعتين ، ثم إن شاء تنفل وإلا جلس مشتغلا بذكر الله عزّ وجلّ ، أو صامتا لايذكر شيئا من أمور الدنيا ، ولا يكثر كلامه إلا ما لابد منه ، فان كان قد دخل وقت الصلاة صلى السنة والفرض مع الجماعة ، فاذا فرغ وأراد الخروج ، فليقدم رجله اليسرى ويؤخر اليمنى ، وليقل بسم الله ، السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، واغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب فضلك . ويستحبّ له فى دبر كل صلاة أن يسبح الله ثلاثا وثلاثين ، ويحمد ثلاثا وثلاثين ، ويكبر ثلاثا وثلاثين ويختم المئة بلا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . ويستحبّ المداومة على الطهور ، فانه يروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : « دم على الطهور فى عمرك ، وصلّ بالليل والنهار ما استطعت ، تحبك الحفظة ، وصلّ صلاة الضحى فانها صلاة الأوّابين ، وسلم على أهل بيتك إذا دخلت بيتك يكثر خير بيتك ، ووقر كبير المسلمين ، وارحم صغيرهم ترافقنى فى الجنة » ، فقد جمع هذا الحديث آدابا جمة :

(فصل : فى دخول المنزل ، والكسب من الحلال والوحدة) وإذا أراد دخول منزله فلا يدخل حتى يتنحنح ويقول : السلام علينا من ربنا ، فقد جاء فى بعض الأخبار : إن المؤمن إذا خرج من منزله وكل الله تعالى ببابه ملكين يحفظان ماله وأهله ، ويوكل إبليس سبعين شيطانا مردة ، فإذا دنا المؤمن من بابه قال الملكان : اللهم وفقه ، إن كان انقلب بكسب طيب ، فإذا تنحنح دنا الملكان وتباعدت الشياطين ، وإذا قال : السلام علينا من ربنا توارت الشياطين ، وقام الملكان أحدهما باليمين والآخر عن الشمال ؛ وإذا فتح الباب فقال : بسم الله ذهبت الشياطين ، ودخل معه الملكان وحسنا له كل شىء فى منزله ، وأطابا له معيشه يومه وليلته ؛ فإذا جلس المؤمن قام الملكان على رأسه ، فان أكل أكل طيبا ، وإن شرب شرب طيبا مادام فى منزله يومه وليلته ، وكان طيب النفس فإن لم يفعل من ذلك شيئا ذهب عنه الملكان ودخل معه الشياطين وقبحوا كل ما فى منزله فى عينه وأسمعته من أهله ما يسوءه ، حتى يكون بينه وبين أهله ما يفسد عليه دينه ، وإن كان أعزب ألقوا عليه النعاس والكسل ، وإن نام نام جيفة ، وإن جلس جلس فى تمنى مالا ينفعه خبيث النفس ، ويفسدون عليه طعامه وشرابه ونومه : وأما الكسب فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من طلب الدنيا حلالا استعفافا عن المسئلة ، وسعيا على أهله ، وتعطفا على جاره ، بعثه الله تعالى يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ، ومن طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا مرائيا لقى الله عزّ وجلّ يوم القيامة وهو عليه غضبان » وعن ثابت البنانى رحمه الله أنه قال : بلغنى أن العافية فى عشرة أشياء ، تسعة منها فى طلب المعيشة ، وواحدة فى العبادة ، وروى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لايفتح الرجل على نفسه بابا من المسئلة إلا فتح الله عليه بابا من الفقر ، ومن يستعف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ولأن يأخذ أحدكم حبلا ثم يعمد إلى هذا الوادى فيحتطب منه ثم يأتى سوقكم فيبيعه بمدّ تمر ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » وروى « ما من رجل يفتح على نفسه بابا من المسئلة إلا فتح الله عليه سبعين بابا من الفقر » وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله يحبّ كل مؤمن محترف أبا العيال ، ولا يحب الفارغ الصحيح ، لا فى عمل الدنيا ولا فى عمل الآخرة » وروى أن داود صلى الله عليه وسلم خليفة الله عزّ وجلّ سأل الله تعالى أن يجعل كسبه بيده ، فألان فى يده الحديد ، فصار فى يده كالشمع والعجين ، يتخذ منه الدروع فيبيعها فيعيش هو وعياله بثمنها ، وقال ابنه سليمان عليهما السلام : رب قد أعطيتنى من الملك مالم تعط أحدا قبلى ، وسألتك أن لاتعطيه أحدا بعدى فأعطيتنيه ، فإن قصرت فى شكرك فدلنى على عبد هو أشكر منى ؛ فأوحى الله تعالى إليه : يا سليمان إن عبدا يكتسب بيده ليسدّ جوعه ويستر عورته ويعبدنى هو أشكر لى منك ، فقال : اجعل كسبى بيدى ، فأتاه جبريل عليه السلام فعلمه عمل الخوصّ يتخذ منه القفاف فأول من عمل الخوص سليمان عليه السلام . وقيل عن بعض الحكماء إنه قال : لايقوم

الدين والدنيا إلا بأربعة : العلماء ، والأمراء ، والغزاة ، وأهل الكسب . فالأمراء هم الرعاة ، يرعون الخلق . والعلماء هم ورثة الأنبياء ، يدلون الخلق على الآخرة والناس يقتدون بهم . والغزاة هم جند الله تعالى فى الأرض ، يقلع بهم الكفار . وأما أهل الكسب فهم أمناء الله تعالى ، بهم مصالح الخلق وعمارة الأرض ، فالرعاة إذا صاروا ذئابا فمن يحفظ الغنم ؟ والعلماء إذا تركوا العلم واشتغلوا بالدنيا فبمن يقتدى الخلق؟ والغزاة إذا ركبوا للفخر والخيلاء وخرجوا للطمع فمتى يظفرون على العدوّ ؟ وأهل الكسب إذا خانوا الناس فكيف يأمنهم الناس؟ وإذا لم يكن فى التاجر ثلاث خصال افتقر فى الدنيا والآخرة : أولها لسان نقىّ عن ثلاث : الكذب ، واللغو والحلف ؛ والثانية قلب صاف من الغشّ والحسد بجاره وقرينه . والثالثة نفس محافظة لثلاث خصال : الجمعة ، والجماعات ، وطلب العلم فى بعض ساعات الليل والنهار ، وإيثار مرضاة الله على غيره . وإياك والكسب الحرام فقد قيل : "إذا كسب العبد خبيثا وأراد أن يأكل منه وقال : بسم الله ، قال الشيطان : كل إنى كنت معك حين كسبته ، فلا أفارقك إنما أنا شريكك ، فهو شريك كلّ كاسب حرام . قال الله عزّ وجلّ (وشاركهم فى الأموال والأولاد) فالأموال الحرام والأولاد أولاد الزنا ، كذا ذكر فى التفسير . وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لايكتسب العبد مالا من الحرام ويتصدّق به فيؤجر عليه ، ولا ينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار . وبالجملة إنه لايمتنع من الحرام إلا من هو مشفق على لحمه ودمه ، فدين المرء لحمه ودمه ، فليجتنب الحرام وأهله ، ولا يجالسهم ، ولا يأكل طعام من كسبه حرام ، ولايدل أحدا على حرام فيكون شريكه ، فالورع هو ملاك الدين وقوام العبادة واستكمال أمر الآخرة . وأما الوحدة والعزلة فقد جاء عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « عليكم بالعزلة فإنها عبادة » وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « المؤمن من جلس ببيته » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « أفضل الناس رجل اعتزل يكفّ الناس شرّه » وفى بعض الألفاظ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الغريب هو الذى يفرّ بدينه » وعن بعض السلف أنه قال : هـذا زمان السكوت ولزوم البيوت ، وهو بشر الحافى . وقيل لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه لما تفرّد فى قصر بالعتيق : تركت أسواق الناس ومجالس الإخوان وتخليت ، فقال : رأيت أسواقهم لاغية ومجالسهم لاهية ، فوجدت الاعتزال فيما هنالك عافية . قال وهب بن الورد رحمه الله : خالطت الناس خمسين سنة ، فما وجدت رجلا غفر لى ذلة ولاستر لى عورة ولا أمنته إذا غضب ، وما وجدت منهم إلا من يركب هواه . وعن الشعبىّ رحمه الله أنه قال : تعاشر الناس بالدين زمنا طويلا حتى ذهب الدين ، ثم تعاشروا بالمروءة حتى ذهبت المروءة ، ثم تعاشروا بالحياء حتى ذهب الحياء ، ثم تعاشروا بالرغبة والرهبة ، وأظن أنه سيجىء بعد هذا ما هو أشدّ منه . وقال الحكيم : العبادة عشرة أجزاء : تسعة فى الصمت ، وواحدة فى العزلة ، فراودت نفسى على الصمت فلم أقدر عليه ، فصرت إلى العزلة فجمعت لى التسعة . وكان يقول : لا شىء أوعظ من القبر ، ولا آنس من الكتاب ، ولا

ولا أسلم من الوحدة . وقال بشر بن الحارث رحمه الله : إنما يطلب العلم ليهرب من الدنيا لا لتطلب به الدنيا . وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت « قيل يا رسول الله أىّ جلسائنا خير ؟ قال صلى الله عليه وسلم : من ذكرتكم الله تعالى رؤيته وذكركم الآخرة علمه ، وزاد فى علمكم منطقه » وكان عيسى بن مريم عليه السلام يقول : يا معشر الحواريين تحببوا إلى الله عزّ وجلّ ببغض أهل المعاصى ، وتقرّبوا إلى الله تعالى بالتباعد عنهم ، والتمسوا رضاه بسخطهم ، وإن كان لابد من المخالطة فلتكن للعلماء ، فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « مجالسة العلماء عبادة » وقال صلى الله عليه وسلم « ألزم قلبك التفكر وجسدك التصبر وعينك البكاء ، ولا تهتم لرزق غد فإن ذلك خطيئة تكتب عليك ، والزم المساجد فإن عمار بيت الله تعالى هم أهل الله عز وجل » وقال صلى الله عليه وسلم « من أكثر الاختلاف إلى المساجد أصاب أخا مستغفرا ، ورحمة منتظرة وكلمة تدل على هدى وأخرى تصرف عن الردى ، وعلما مستطرفا ، وترك الذنوب حيا وخشية » ولو اعتزل الإنسان مهما اعتزل لم يكن متسعا فى الشرع اعتزال عن الجمعة والجماعات . فلا يجوز له تركهما فى الجملة ، فإنه يكفر بمداومته على ترك الجمعة لما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر طبع الله تعالى على قلبه » وفى حديث جابر رضى الله عنه « واعلموا أن الله عز وجل قد افترض عليكم الجمعة فى مقامى هذا فى شهرى هذا وفى عامى هذا إلى يوم القيامة ، من تركها وله إمام عادل أو جائر استخفافا بها أو جحودا لها ، فلا جمع الله له شمله ، ولا أتمّ له أمره ، ألا لاصلاة له ، ألا لازكاة له ، ألا لاحجّ له ، ألا لاصوم له إلا أن يتوب ، فمن تاب تاب الله عليه » لأن فى تركها استهانة بمنادى الله عزّ وجل ، وهو قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله) ومن استهان بالله تعالى وبمناديه يكفر ، فعليه التوبة وتجديد الإسلام ويتوب الله على من تاب ، فلا يجوز تركها إلا لعذر يبيحه الشرع ، كما قيل : خذ عن الناس جانبا غير طاعن عليهم ولا تارك لجماعتهم ، فليجتهد المرء فى الاعتزال عن الناس ما استطاع ، إلا ممن يكون عونا له فى أمر دينه ، لأن الكذب إنما يجرى بين اثنين ، والفجور بين اثنين ، وقتل النفس بين اثنين ، وقطع المال بين اثنين ، والسلامة من ذلك فى الاعتزال .

(فصل : فى آداب السفر والصحبة فيه) وإذا أراد سفرا أو حجا أو غزوا أو تحوّلا من دار إلى دار أو طلب حاجة ، فليصلّ ركعتين ثم يطلب حاجته ، أو يتحوّل . وأما فى السفر فليقل على رأس الركعتين : اللهم بلغ بلاغا مبلغ خير ومغفرة منك ورضوانا ، بيدك الخير وأنت على كل شىء قدير ؛ اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل والمال والولد ؛ اللهم هوّن علينا السفر واطو عنا البعد ؛ اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والولد والمال ؛ ويتحرّى أن يكون ذلك بكرة خميس أو سبت أو اثنين ، وإذا استوى على راحلته قال (سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون) وإذا رجع من السفر صلى ركعتين ، وقال : آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون ، لأنه روى

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يفعله ، وإذا خرج فلا يكن قائدا للناس إذا وجد من يقودهم، ولا يشير عليهم بمنازل ينزلونها إذا وجد من يكفيه ذلك ، وعليه بالصمت وحسن الصحبة ، وكثرة المنفعة لإخوانه ، وإياه والقيل والقال ، ولا ينزل على الطريق ، ولا على ماء ، فإنه مأوى الحيات والسباع بل ينتحى عنه ، ولا يعرّس على الطريق فإنه مكروه . وينبغى أن يكون سفره على لسان المعرفة ، ويخرج من أوصافه المذمومة إلى صفاته الحميدة ، فيخرج من هواه إلى طلب رضا مولاه بتصحيح تقواه ؛ فأول ما يجب عليه إذا أراد أن يسافر من بلده ، أن يرضى خصومه ، وأن يرضى والديه ومن يكون فى حكمهما من الأجداد والخالات، ويخلف لعياله من يمونهم فى مدة سفره ، أو يصحبهم ويحملهم معه ، وينبغى أن يكون سفره لطاعة من الطاعات كالحج أو زيارة النبيّ صلى الله عليه وسلم أو زيارة شيخ أو موضع من هذه المواضع الشريفة ، أو المباح كالتجارة ، أو العلم بعد أحكام علوم العبادات الخمس ، لأن علمها فريضة وما وراءها مباح ، وفيه فضل ، وقيل فرض على الكفاية ، وينبغى أن يعاشر أصحابه فى سفره بحسن الخلق وجميل المداراة وترك المخالفة واللجاج فى جميع الأشياء ، ويشتغل بخدمة أصحابه فى السفر ، ولا يستخدم أحدا إلا عند الضرورة ، ويجتهد أبدا أن يكون فى سفره على الطهارة . ومن آداب الصحبة أن يقف مع صاحبه إذا عيى ، ويسقيه الماء إذا عطش ، ويرفق به إذا ضجر ، ويداريه إذا غضب ، ويحفظه ورحله إذا نام ، ويؤثره إذا قلّ الزاد ، ويواسيه بما يفتح له ، ولا ينفرد به دونه ، ولا يكتمه سرّا ، ولا يفشى له سرّا ، ولا يستظهره إلا بجميل ، ويردّ غيبته ، ويحسن ذكره عند الرفقة ولايعيبه عندهم ، ولا يشكو منه إليهم ، ويتحمل منه أذاه ، وينصحه إذا شاوره ، ويسأل عن اسمه وبلده ونسبه ، وإن كان أرفع منه منزلة ، ويظهر للرفقة أنه تابع له ، وإن كان هو المتبوع ، وأوضح لتابعه عيوب نفسه على طريق النصح له لا على طريق التوبيخ والتعنيف . وينبغى أن يتعوّذ من كل شيء يخافه ، وعند مايحلّ بموضع أو ينزل بمنزل أو يجلس فى مكان أوينام فيه بأن يقول : أعوذ بالله وبكلماته التامات التى لايجاوزهن برّ ولا فاجر ، وبأسماء الله الحسنى كلها ، ما علمت منها وما لم أعلم ، من شرّ ماخلق وذرأ وبرأ ، ومن شرّ ماينزل من السماء ومايعرج فيها ، ومن شرّ ماذرأ فى الأرض ومن شرّ ما يخرج منها ، ومن فتنة الليل والنهار ، ومن طارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق منك بخير يا أرحم الراحمين ، ومن كلّ دابة ربى آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم ، ولايتخذ فى الركاب الأجراس ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « إنه مع كل جرس شيطان » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة لاتصحب رفقة فيها جرس » ويستحبّ أن يصحب فى سفره عصا ، ويجتهد أن لا يخلو منها ، لما روى ميمون بن مهران ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إمساك العصا سنة الأنبياء وعلامة المؤمنين . وقال الحسن البصرى رحمه الله : فى العصا ست خصال : سنة الأنبياء ، وزىّ الصالحين ، وسلاح على الأعداء يعنى الحية والكلب وغير ذلك ، وعون الضعفاء ، ورغم المنافقين ، وزيادة فى الحسنات . ويقال إذا كان مع المؤمن

العصا هرب الشيطان منه ، وخشع منه المنافق والفاجر ، وتكون قبلته إذا صلى وقوته إذا أعيى ، وفيها منافع كثيرة كما قال الله في قصة موسى عليه السلام (هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى) .

(فصل) ولا يجوز خصاء شيء من الحيوان والعبيد، نص عليه الإمام أحمد في رواية حرب وأبي طالب ، وكذلك السمة في الوجه على ما نقل أبو طالب عنه ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم « نهى أن يخصى كل ذي نسل من البهائم » في حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وفي حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم « نهى عن الوسم في الوجه، ورخص فيه في الأذن » وإن كان لابد من الوسم لأجل العلامة ليعرفوا البهائم حين الاختلاط جاز في غير الوجه كالأفخاذ والأسنمة .

(فصل) ولا يجوز فعل شيء من المستقذرات في المساجد ، ويكره العمل فيها كالخياطة والخرازة والبيع والشراء وما أشبه ذلك ؛ ويكره رفع الأصوات ، إلا بذكر الله تعالى . والنخامة في المسجد خطيئة ، وكفارتها دفنها . ويكره زخرفة المساجد بالتزويق والخلوق ، ولا بأس بتجصيصها وتطيينها ؛ ويكره اتخاذها بيتا ومقاما إلا للغريب أو المعتكف ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أنزل وفد بني عبد قيس وروى ثقيف في المسجد ، ولا بأس بإنشاد الشعر والقصائد فيها الخالية من السخف والهجاء للمسلمين والأولى صيانتها إلا أن تكون من الزهديات المرققات المشوقات المبكيات ، فيجوز الإكثار منها ، والأولى من ذلك القرآن والتسبيح لأن المساجد وضعت لذكر الله تعالى والصلاة ، فينبغي أن لا يحل سوى ذلك ؛ ويكره نقل تراب المسجد . وأما ما حصل فيه من المزابل والكناسة فيستحب إخراج ذلك وفيه فضل كثير ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن ذلك مهر الحور العين ؛ ويكره تمكين الصبيان والمجانين من دخوله ، ولا بأس بعبور الجنب فيه وتمنع الحائض لأنه لا يؤمن من تلويث المسجد ، وإذا دعت الضرورة للجنب جاز له أن يتوضأ ويلبث في المسجد إلى حين يقدر على الغسل ، والأولى أن يتيمم للجناية مع ذلك أيضا ، وكذلك إذا لم يجد الماء إلا في بئر المسجد تيمم لجوازه إلى البئر ، ثم يغتسل إذا وصل إليها .

(فصل : في الأصوات) فما كان منها من إنشاد الأشعار المتعرية من الملاهي على ضربين : مباح ، ومحظور . فالمباح : ما لا سخف فيه . والمحظور : ما كان فيه سخف . فأما ما ينضم إلى الملاهي فمحظور ، سواء خلا عن السخف أو قارن السخف ، إلا أنه إذا قارنه سخف حصل الحظر لعلتين . وتكره قراءة القرآن بالألحان المشبهة بصوت الأغاني المطربة إعظاما لها وتنزيها ، لأن الغالب من ذلك إخراج الكلام عن سننه وإسقاط الإطالة والهمز في موضعه وإطالة المقصور وقصر الممدود وإدغام الحروف ، ولأن ثمرة القرآن خشية الله عز وجل ، والتحذير عند سماع مواعظه والاعتبار ببراهينه وقصصه وأمثاله والتشوق إلى وعده ، وذلك يزول بطيب سماعه ، قال الله عز وجل (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته

زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون) وقال تعالى (أفلا يتدبرون القرآن) وقوله جلّ وعلا (ليدبروا آياته) وقوله تعالى (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) والألحان المطربة تحول بين ذلك ، فكره لأجل ذلك ، ولايسافر بالمصحف إلى أهل الحرب حتى لاينالوا منه ويستخفوا بحرمته ولايستمع إلى أصوات الأجنبيات من شوابّ النساء، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « التسبيح للرجال والتصفيق للنساء » هذا إذا ناب المصلى نائب فى صلاته فكيف بالشعر والغزل والأمور المهيجة لطباع الناس من ذكر صفات العشاق والمعشوقين ودقائق صفات المحبة والميل والصفات المشتهيات التى تشوق النفس إلى سماعها ، فتهيج دواعى السامع وتثير طبعه إلى المحارم ، فلا يجوز لأحد سماع ذلك ؛ وإن قال قائل : إنى أسمعها على معانٍ أسلم فيها عند الله تعالى كذّبناه ، لأن الشرع لم يفرق بين ذلك ، ولو جاز لأحد جاز للأنبياء عليهم السلام، ولو كان ذلك عذرا لأجزنا سماع القيان لمن يدعى أنه لايطربه، وشرب المسكر لمن ادّعى أنه لايسكره ، فإن قال : عادتى أنى متى شربت الخمر كففت عن الحرام لم يبح له ، ولو قال : عادتى إذا شهدت المردان والأجنبيات وخلوت بهم اعتبرت فى حسنهم لم يجزله ذلك ، بل نقول : ترك ذلك واجب ، والاعتبار بغير المحرمات أكثر من ذلك ، وإنما هذه طريقة من أراد الحرام بطريق الله عزّ وجلّ فيركب هواه ، فلا نسلم لأصحابها ولانلتفت إليهم ، قال الله عز وجل (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم) فمن قال النظر أزكى كان مكذبا للقرآن ؛ ويكره الندب والنياحة ، فأما البكاء على الميت فغير مكروه .

(فصل : فى الإذن فى قتل الحيوان ، ما يباح منه وما لايباح) فمن رأى شيئا من الحيات فى منزله فليؤذنه ثلاثا ، فإن بدا له فليقتله . وأما فى الصحارى فيجوز قتله من غير إيذان، وكذلك الأبتر وهو قصير الذنب ، وذو الطفيتين الذى فى ظهره خط أسود ، وقيل له شعرتان سودوان بين عينيه فإنه يقتله بلا إيذان . وصفة الإيذان أن يقول : امض بسلام لاتؤذنا ، قد جاء فى ذلك « أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن حيات البيوت فقال : إذا رأيتم منهن شيئا فى مساكنكم فقولوا : أنشدكم العهد الذى أخذه عليكم نوح ، أنشدكم العهد الذى أخذه عليكم سليمان أن لا تؤذونا ، فإن عدن فاقتلوهن » وما روى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقتلوا الحيات كلهن ، فمن خاف ثأرهن فليس منى » وفى حديث سالم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اقتلوا الحيات وذا الطفيتين والأبتر ، فإنهما يطمسان البصر ويسقطان الحبل » قال : وكان عبد الله رضى الله عنه يقتل كل حية وجدها ، فأبصره أبو لبابة رضى الله عنه وهو يطارد حية فقال : إنه قد نهى عن ذوات البيوت . والأصل فى النهى عن ذوات البيوت ما روى عن أبى السائب قال : أتيت أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه ، فبينا أنا جالس عنده سمعت تحت سريره تحريك شىء ، فنظرت فإذا حية ، فقمت ، فقال أبو سعيد : ما بالك ؟ قلت : حية هاهنا ، قال :

ما ذا تريد ؟ قلت : أقتلها ، فأشار إلى بيت فى داره تلقاء بيته ، فقال : إن ابن عم لى كان فى هذا البيت ، فلما كان يوم الأحزاب استأذن إلى أهله ، وكان حديث عهد بعرس ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يذهب بسلاح ، فأتى داره فوجد امرأته قائمة على باب البيت ، فأشار إليها بالرمح ، فقالت : لا تعجل حتى تنظر ما أخرجنى ، فدخل البيت ، فإذا حية منكرة ، فطعنها بالرمح ثم خرج بها فى الرمح تضطرب ، قال : فلا أدرى أيهما كان أسرع موتا الرجل أو الحية ، فأتى قومه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ادع الله تعالى أن يردّ صاحبنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : استغفروا لصاحبكم ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « إن نفرا من الجن أسلموا بالمدينة ، فإذا رأيتم أحدا منهن فحذروه ثلاث مرات ، ثم إن بدا لكم بعد أن تحذروه فاقتلوه بعد الثلاث » وروى فى بعض الألفاظ « فليؤذنه ثلاثا ، فإن بدا له فليقتله فإنما هو شيطان » . ويجوز قتل الأوزاغ لما روى عامر بن سعيد عن أبيه رضى الله عنه قال « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الوزغ ، وسماه فويسقا » وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « إن فى أول ضربة سبعين حسنة » يعنى من قتلها بأول ضربة كان له ذلك . ويكره قتل النملة إلا من أذية شديدة ، لما روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم « أن نملة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله تعالى إليه : أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح » . ويكره قتل الضفدع ، لما روى عن عبد الرحمن بن عثمان « أنه سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم عن ضفدع يجعلها فى دواء فنهاه النبىّ صلى الله عليه وسلم عن قتلها » ويكره قتل جميع ما يباح قتله بالنار من القمل والبق والبراغيث والنمل ، لقوله صلى الله عليه وسلم «لايعذّب بالنار إلا ربّ النار» ويجوز قتل كل شىء يؤذى من الحيوانات ، وإن لم توجد منه الأذية بعد ما كان مخلوقا على صفة تؤذى ، لأن من طبعه الأذية ، وذلك كالحية التى ذكرنا صفتها والعقرب والكلب العقور والفأرة وغير ذلك ، وكذلك الكلب الأسود البهيم لأنه شيطان ، وكل حيوان يجده إنسان عطشانا أثيب على إسقائه الماء ، لقوله صلى الله عليه وسلم : «فى كلّ كبد حراء أجر» ، هذا إذا لم يكن مؤذيا . وأما المؤذى فلا يسقيه ، فإن ذلك تنمية وتكثير للأذية ، وذلك لايجوز . ولايجوز اتخاذ الكلب وتربيته فى داره إلا للحرس أو الصيد أو الماشية وإن كان عقورا فيتركه ، قولا واحدا ، ووجب قتله ليدفع شرّه عن الناس . وقد ورد فى بعض الأحاديث «من اقتنى كلبا لغير صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان» ولايجوز تكليف الحيوان البهيمة فوق طاقته فى الحمل والحرث والسير ، ومنعه ما يكفيه من العلف ، فإن فعل ذلك أثم . ويكره له إطعامه فوق طاقته ، وإكراهه على أكل ما اتخذه الناس عادة لأجل التسمين ويكره : الأكل من كسب الحجام ، لأن فى ذلك دناءة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « كسب الحجام خبيث » وقد حرّم ذلك بعض أصحابنا ، لأن ذلك مروىّ عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى :

(فصل) وبرّ الوالدين واجب ، قال الله عز وجل (إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أوكلاهما فلا تقل لهما أفّ ولاتنهرهما وقل لهما قولا كريما) وقال تعالى (وصاحبهما فى الدنيا معروفا)

وقال جل وعلا (أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير) وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال « من أصبح مسخطا لوالديه أصبح وله بابان مفتوحان إلى النار ، ومن أمسى مسخطا لوالديه أمسى وله بابان مفتوحان إلى النار ، وإن كان واحدا فواحدا ، وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه » وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رضا الربّ فى رضا الوالدين ، وسخطه فى سخط الوالدين » وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال « جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إنى أريد الجهاد ، فقال : ألك أبوان ؟ قال : نعم ، قال ، صلى الله عليه وسلم : ففيهما فجاهد » وصفة البرّ أن تكفيهما مايحتاجان إليه وتكفّ عنهما الأذى وتداريهما مداراة الصغير ، ولا تتضجر منهما ولا من حوائجهما وتجعل خدمتهما بدلا من كثير نوافلك من الصلاة ، والصيام وتستغفر لهما عقيب صلواتك ، ولاتحوجهما إلى التعب وتتحمل أذاهما ، ولا تعل صوتك على أصواتهما ، ولا تخالفهما فيما لايكون فيه خرق للشرع ، معناه : لايكون فى ذلك ترك الفرائض كحجة الإسلام ، والصلوات الخمس والزكاة والكفارة والنذر ، وأن لايكون فى ذلك ارتكاب المحرّم من أنواع المناهى من الزنا وشرب الخمر والقتل والقذف وأخذ المال كالغصب والسرقة ، لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم « لاطاعة لمخلوق فى معصية الله تعالى » وقد قال تعالى (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا) فهذا الحديث والآية عام فى ترك طاعة كل من أمر بمعصية الله أو ترك طاعته ، ومذكور ذلك عن الإمام أحمد فى رواية أبى طالب فى الرجل الذى نهاه أبواه عن الصلاة فى الجماعة ، فقال ليس لهما طاعة فى ترك الفرض . وأما النوافل فيجوز تركها لطاعتهما ، بل الأفضل طاعتهما ؛ ومن البرّ لهما أن تصل من وصلهما ، وتهجر من هجرهما ، وتغضب لهما كما تغضب لنفسك فى الموت و الحياة ، وإذا ثار طبعك فى الغضب عليهما فاذكر تربيتهما وسهرهما وإشفاقهما وتعبهما ، وقول الله تعالى (وقل لهما قولا كريما) فإن لم تردعك الرحمة لهما ، فاعلم أنك محروم مسخوط عليك ، فتب إلى الله تعالى إذا سكن غضبك إن كنت خالفت أمره فيهما ، ولا تسافر سفرا ليس بواجب عليك إلا بأمرهما ، ولا تغز إلا أن يتعين عليك إلا بإذنهما ، ولاتفجعهما بنفسك ، وقد نهى غيرك أن يفجعهما بك ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم « لعن الله المفرّق بين الوالدة وولدها » وإن ظفرت بطعام أو شراب فعليك بإيثارهما بأطيبه ، فطالما آثراك ، وجاعا وأشبعاك ، وسهرا ونوّماك ، ترشد بذلك إن شاء الله تعالى .

(فصل : فيما يستحبّ من الكنى والأسماء وما يكره منها) يمنع الإنسان أن يسمى ولده ويكنه باسم النبيّ صلى الله عليه وسلم دون كنيته ، ويجوز إفراد أحدهما عن الآخر . وقد روى عن الإمام أحمد رحمه الله رواية أخرى كراهة فى الجملة ، يعنى الجمع والإفراد ، وروى عنه الجواز فى الجملة . والدليل على جواز التسمية باسم النبيّ صلى الله عليه وسلم دون كنيته ، ما روى أنس بن مالك وأبو هريرة رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « سموا باسمى ولاتكنوا بكنيتى » . والدليل على جواز الجمع بينهما ، ماروى عن عائشة رضى الله عنها أنها

قالت « جاءت امرأة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إني ولدت غلاما فسميته محمدا وكنيته بأبي القاسم ، فذكر لي أنك تكره ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما الذى أحلّ اسمي وحرّم كنيتي ، أوما الذى حرم كنيتي وأحلّ اسمي ! » . ويكره من الكنى أبو يحيي وأبو عيسى ويكره أن يسمي عبيده بأفلح ونجاح ويسار ونافع ورباح وبركة وبرة وحزن وعاصية لما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لئن عشت لأنهينّ أن تسمى العبيد يسارا أو بركة أو رباحا أو نجاحا أو أفلح » . ويكره من الألقاب والأسماء ما يوازى أسماء الله تعالى ، كمالك الملوك وشاهنشاه وما شاكل ذلك ، لأن ذلك عادة الفرس ويكره التسمى بالأسماء التى لاتليق إلا بالله سبحانه وتعالى ، كقدوس وإله وخالق ومهيمن ، قال الله تعالى (وجعلوا لله شركاء قل سموهم) قال بعض المفسرين : قل سموهم بأسمائى ، فانظروا ذلك هل تليق بهم ؟ ويحرم على كل واحد أن يلقب أخاه أوعبده بلقب يكره ، لأن الله تعالى نهى عن ذلك ، فقال عزّ وجلّ (ولا تنابزوا بالألقاب) وسماه فسوقا ، ويستحبّ أن تدعو أخاك بأحبّ أسمائه إليه .

(فصل) ويستحبّ لمن غضب إن كان قائما أن يجلس ، وإن كان جالسا أن يضطجع وإن مسّ الماء البارد سكن غضبه ، لما روى الحسن رضي الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : «إن الغضب جمرة تتوقد فى قلب ابن آدم ، فإذا وجد أحدكم ذلك فإن كان قائما فليقعد ، وإن كان قاعدا فليتكيء » . ويكره أن يجلس الرجل بين قوم وهم فى سرّ بغير إذنهم ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك . ويكره الجلوس بين الظلّ والشمس . ويكره أن يتكئ على يده اليسرى ، والاضطجاع بين الجلوس ، وإذا قام من مجلسه يستحبّ له أن يقول كفارة المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . ويكره المشي بالنعل فى المقابر ، ويستحبّ لمن دخلها أن يقول : اللهم ربّ هذه الأجساد البالية والعظام النخرة ، التى خرجت من دار الدنيا وهى بك مؤمنة ، صلّ على محمد وعلى آل محمد ، وأنزل عليهم روحا منك وسلاما منى ؛ ويقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . لأنه مرويّ أيضا ، وإذا زار قبرا لايضع يده عليه ولايقبله فإنه عادة اليهود ولا يقعد عليه ولا يتكيء إليه ولا يدوسه إلا أن يضطر إلى ذلك كله ، بل يقف عند موضع وقوفه أن لو كان حيا ، ويحترمه كما لو كان حيا ، ويقرأ إحدى عشرة مرّة : قل هو الله أحد وغيرها من القرآن ، ويهدى ثواب ذلك لصاحب القبر ، وهو أن يقول : اللهم إن كنت قد أثبتنى على قراءة هذه السورة فإنى قد أهديت ثوابها لصاحب هذا القبر ، ثم يسأل الله حاجته ، ولا يكسر عظما ولا يدوسه ، فإن كان ألجيء إلى ذلك واضطرّ فليستغفر لصاحب القبر : وتكره الطيرة ، ولا بأس بالتفاؤل ، ويستحبّ التواضع لكل واحد من المسلمين ، ويستحبّ توقير الشيوخ ورحمة الأطفال والعفو عنهم ، ولا يترك تأديبهم .

(فصل) ويجوز أن يقول الرجل لغيره : صلى الله عليك وصلى الله على فلان بن فلان ،

غصہ کا علاج

زیارت قبور

لأن عليا رضى الله عنه قال لعمر رضى الله عنه : صلى الله عليك ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم قال « اللهمّ صلّ على آل أبى أوفى » .

(فصل) وتكره مصافحة أهل الذمة ، لما روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تصافحوا أهل الذمة » .

(فصل) والأدب فى الدعاء أن يمدّ يديه ، ويحمد الله تعالى ، ويصلى على النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم يسأل حاجته ، ولا ينظر إلى السماء فى حال دعائه ، وإذا فرغ مسح يديه على وجهه ، لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « سلوا الله ببطون أكفكم » .

(فصل) والتعوّذ بالقرآن جائز لقوله عز وجل (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) وقوله تعالى (قل أعوذ بربّ الفلق) ، (قل أعوذ بربّ الناس) وما روى « أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى شيئا قرأ على نفسه المعوّذتين ونفث » وكان صلى الله عليه وسلم يقول « أعوذ بوجه الله الكريم وكلماته التامات من شرّ ماخلق وذرأ وبرأ ، ومن شرّ كل دابة ، ربى آخذ بناصيتها » . وكذلك الرقية بالقرآن وبأسمائه الحسنى جائزة لقوله عزّ وجلّ (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقال تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) قال النبيّ صلى الله عليه وسلم « استرقوا لها فإنه لو سبق القدر شىء لسبقته العين » ويريد به صلى الله عليه وسلم فى حق الحسن والحسين رضى الله عنهما .

(فصل) ويكتب للمحموم ويعلق عليه ما روى عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال : حممت فكتب لى من الحمى : بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله وبالله ، محمد رسول الله ، يانار كونى بردًا وسلاما على إبراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ، اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل اشف صاحب هذا الكتاب بحولك وقوتك وجبروتك يا أرحم الراحمين .

(فصل) وقد قال بعض أصحابنا : يكتب للمعسرة إذا عسرت عليها الولادة فى جام أو آنية نظيفة : بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله ربّ العرش العظيم ، الحمد لله ربّ العالمين ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ؟ ثم يغسل وتسقى منه وينضح ما بقى على صدرها . وكذلك تجوز الرقية من النملة وغيرها كالعقارب والحيات والبراغيث والبق لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم رخص فى الرقية من كل ذى حمة ، وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يمسى ثلاث مرات : صلى الله على نوح وعلى نوح السلام ، لم تلدغه عقرب تلك الليلة » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يمسى ثلاث مرات : أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شرّ ما خلق ، لم تضرّه حمة تلك الليلة » ويجوز النفخ فى الرقيات ، ويكره التفل .

(فصل) ويغسل العائن وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره

فى إناء ، ثم يصبّ الماء على المريض ، لما روى أبو أمامة بن سهل بن حنيف رضى الله عنه : أنه كان يغتسل فرآه عامر بن ربيعة رضى الله عنه فعجب منه ، فقال : بالله ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة فى خدرها ، أو قال : جلد فتاة ، ففلج به حتى ما كان يرفع رأسه ، قال : فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل تتهمون أحدا ؟ قالوا : لا يا رسول الله إلا أن عامر بن ربيعة قال له كذا وكذا ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا عامرا وقال : سبحان الله بم يقتل أحدكم أخاه إذا رأى شيئا يعجبه فليدع له بالبركة ، قال : ثم أمره صلى الله عليه وسلم أن يغتسل ، فغسل وجهه وظهر كفيه ومرفقيه ، وغسل صدره وداخل إزاره وركبتيه وقدميه فى الإناء ظاهرهما وباطنهما ، ثم أمر به فصبّ على رأسه ، فكفئ الإناء من خلفه حسبته قال : فأمره فحسا منه حسوات ، فراح مع الركب . وإن اغتسل غسلا كاملا ثم صب الماء على المعين كان أكمل .

(فصل) والتعالج فى الأمراض جائز بالحجامة والفصد والكيّ وشرب الأدوية والأشربة وقطع العروق والبط ، وقطع العضو عند وقوع الأكلة فيه وخوف التعدى إلى بقية البدن ، وقطع البواسير وكل ما فيه صلاح للجسد ، لما روى « أن النبيّ صلى الله عليه وسلم احتجم وشاور الطبيب ، فقال للطبيين : إنما رأيكم طبّ ، فقالوا : يا رسول الله هل فى الطبّ خير ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إن الذى أنزل الداء أنزل الدواء » . وسئل الإمام أحمد عن الكيّ فقال : الأعراب قد تفعله ، وقد كوى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقد فعله الصحابة رضى الله عنهم . وقال فى موضع آخر : قطع عمران بن حصين رضى الله عنهما عرق النساء . وعن الإمام أحمد رحمه الله رواية أخرى : كراهية ذلك . وأما التداوى بمحرّم كالخمر والسمّ والميتة وشىء نجس فغير جائز ، وكذلك بلبن الأتان الأهلية ، لما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما جعل شفاء أمتى فيما حرّم عليها » والحقنة مكروهة إلا عند الضرورة ، ولا يجوز الفرار من الطاعون ، وإن كان خارجا من البلد لا يقدم عليه لئلا يكون عونا على هلاك نفسه .

(فصل) ولا يخلو بامرأة ليست منه بمحرم ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك وقال : إن الشيطان ثالثهما ، لأن الشيطان يزين لهما المعصية . ولا ينظر إلى امرأة شابة إلا بعذر من شهادة أو علاج فى المرض ، ويجوز النظر إلى المرأة البرزة العجوز لعدم الافتتان بها : ولا يجتمع رجلان ولا امرأتان عريانين فى لحاف واحد أو إزار ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك ، ولأن ذلك يؤدى إلى أن ينظر أحدهما عورة الآخر وذلك منهىّ عنه ، ولأنه لا يؤمن من ارتكاب معصية بتزيين الشيطان بذلك .

(فصل) فإن كان له مملوك من ذكر أو أنثى ، وجب عليه الرفق به ، ولا يكلفه من العمل مالا يطيق ، ويكسوه ويطعمه ويزوّجه إن شاء ، ولا يكرهه على ذلك ، فإن قصر فى ذلك عصى

وأمر ببيعه أو عتقه إن شاء أو يكاتبه إن طلب العبد ذلك ، وقد جاء فى الحديث أن آخر وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

(فصل) وتكره المسافرة بالمصحف إلى أرض العدوّ لئلا تتناوله أيدى المشركين ، إلا أن يكون للمسلمين قوّة ظاهرة والشوكة والغلبة ، فيجوز استصحابه ليقرأ فيه لئلا ينسى القرآن .

(فصل) ويستحبّ إذا نظر فى المرآة أن يقول : الحمد لله الذى سوّى خلقى وأحسن صورتى وزان منى ما شان من غيرى ، لأن ذلك مروىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

(فصل) وإذا طنت أذنه يصلى على النبىّ صلى الله عليه وسلم ويقول « ذكر الله من ذكرنى بخير » لأنه مروىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

(فصل) ويقول إذا اشتكى بدنه أو أعضاءه ما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من اشتكى منكم شيئا أو اشتكى أخ له فليقل : ربنا الله الذى فى السماء ، تقدّس اسمك ، أمرك فى السماء والأرض ، كما رحمتك فى السماء والأرض ، اغفر لنا حوبنا وخطايانا يارب العالمين ، انزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على الوجع الذى به ، فإنه يبرأ بإذن الله تعالى » .

(فصل) وإذا رأى شيئا يتطير منه قال : « اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » لأنه مروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

(فصل) ويستحبّ إذا رأى بيعة أو كنيسة أو سمع صوت شبور أو صوت ناقوس أو رأى جمعا من المشركين واليهود والنصارى أن يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له إلها واحدا لا نعبد إلا إياه ، فإن ذلك مروىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وقال : « غفر الله له بعدد أهل الشرك » ويقول إذا سمع صوت الرعد والصواعق : « اللهم لاتقتلنا بغضبك ، ولاتهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » ويقول إذا رأى الريح : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرّها ومن شرّ ما أرسلت به . »

(فصل) وإذا دخل السوق قال ما كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم إنى أسألك خير هذا السوق وخير ما فيه ، وأعوذ بك من شرّه وشرّ ما فيه ، اللهم إنى أعوذ بك أن أصيب فيها يمينا فاجرة أو صفقة خاسرة ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو حى لايموت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير » ؛ وإذا رأى الهلال قال : « اللهم أهلّه علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام ، ربى وربك الله عزّ وجلّ » .

(فصل) وإذا رأى مبتلى قال : « الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به ، وفضلنى عليك وعلى كثير ممن خلق تفضيلا » فإن الله عزّ وجلّ يعافيه من ذلك كائنا ما كان أبدا ما عاش .

(فصل) يقول للحاج إذا قدم من سفره : « تقبل الله نسكك وأعظم الله أجرك وأخلف نفقتك » لما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول ذلك .

(فصل) وإذا عاد مريضا مسلما ورآه منزولا به موت فقال ما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « الموت فزع ، فإذا بلغ أحدكم وفاة صاحبه فليقل : إنا لله وإنا إليه راجعون

وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، اللهم اكتبه عندك فى المحسنين ، واجعل كتابه فى عليين ، واخلف على عقبه فى الآخرين ، ولا تحرمنا أجره ، ولا تفتنا بعده » ويستحبّ أيضا أن يشير عليه بالتوبة من الذنوب ، والخروج من المظالم ، والوصية بثلث ماله للأقارب والفقراء منهم : الذين لا يرثونه ، وإن لم يكونوا فللفقراء والمساكين والمساجد والقناطر ووجوه البرّ والخير .

(فصل) ويقول حين يضع الميت فى قبره ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا وضعتم موتاكم فى القبر فقولوا : بسم الله وعلى ملة رسول الله » ويقول إذا حثا التراب على الميت : « إيمانا بك وتصديقا برسولك وإيمانا ببعثك ، هذا ما وعد الله ورسوله وصدق الله ورسوله » لأن ذلك مرويّ عن عليّ رضى الله عنه ؛ وقال : « من فعل ذلك كان له بكل ذرّة من تراب حسنة » .

(فصل : فى آداب النكاح) من آداب النكاح أن يكون فيه نية المتزوج امتثال أمر الله فى قوله تعالى (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم) وقوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) وقوله صلى الله عليه وسلم « تناكحوا تناسلوا فإنى مكاثر بكم الأمم ولو بالسقط » فيعتقد وجوب النكاح بهاتين الآيتين والخبر عند عدم خوف الزنا وعند وجوده ، ليخرج من الخلاف فى الجملة ؛ لأن النكاح عند أبى داود فى رواية الإمام أحمد واجب على الإطلاق ، فيكون له ثواب الممتثل لأمر الله عز وجل ، ويعتقد مع ذلك إحراز دينه وتكميله لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم « من تزوج فقد أحرز نصف دينه » وقوله صلى الله عليه وسلم « إذا تزوّج العبد فقد استكمل نصف دينه » ويتخير الحسيبة الأجنبية البكر ، وأن تكون من نساء يعرفن بكثرة الولادة ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لجابر ابن عبد الله رضى الله عنهما لما أخبره أنه تزوّج بالثيب ، فقال له : « أفلا بكرا تلاعبها وتلاعبك؟ » وإنما شرطنا كثرة الولادة لما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم « تناكحوا تناسلوا فإنى مكاثر بكم الأمم ولو بالسقط » وفى بعض الأحاديث قال صلى الله عليه وسلم « تزوّجوا الولود الودود فإنى مكاثر بكم » وإنما شرطت الأجنبية ولا تكون من أقاربه لئلا يقع بينهم منافرة وعداوة ، فتؤدى إلى قطع الأرحام المأمور بإيصالها ، ولهذا منع الشرع الجمع بين الأختين فى عقد النكاح . ولا ينبغى أن يتزوّج سليطة اللسان ولا مختلعة ولا متواشمة ، فإذا تزوّج فليحسن خلقه معها ولا يؤذيها ، ولا يكرهها على مهرها فتختلع منه ، ولا يشتم لها أبا ولا أما ، فإن فعل ذلك كان الله ورسوله بريئين منه قال النبيّ صلى الله عليه وسلم « استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوان عندكم » يعنى أسراء . وقد جاء فى بعض الآثار : « من تزوج امرأة بصداق ولا يريد أن يؤديه إليها جاء يوم القيامة زانيا » فإن آذته امرأة بلسانها وكان فى ذلك فساد دينه فليشترّ هو نفسه منها ، أو يلجأ إلى الله عز وجل ويبتهل إليه بالدعاء فإنه يكفى ، وإن صبر على ذلك كان كالمجاهد فى سبيل الله ، وإن طابت هى له بشىء من مالها من غير إكراه فليأكله هنيئا مريئا . وينبغى أن يجتهد فينظر إلى وجهها ويديها من غير أن يخلو بها قبل العقد ، لئلا يقع بقلبه شىء

فيكرهها فيؤدى إلى طلاقها ومفارقتها من قريب ، وفى ذلك وقوع فى المكروه عند الله عز وجل لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ما من مباح أبغض إلى الله تعالى من الطلاق » والأصل فى ذلك ماروى عن النبي صل الله عليه وسلم أنه قال « إذا قذف الله تعالى فى قلب أحدكم خطبة امرأة فلينظر إلى وجهها وكفيها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينهما » وما روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل » فخطبته جارية فكنت أتخبأ لها حتى رأيت منها ما دعانى إلى نكاحها وتزويجها ذكره أبو داود فى سننه . وينبغى أيضا أن تكون من ذوات الدين والعقل ، لما روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ، ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » وإنما نص النبيّ صلى الله عليه وسلم على ذات الدين لأنها تعين الزوج على معيشته وتقنع باليسير ، والباقيات يوقعنه فى الوزر والوبال ، إلا أن يسلم الله تعالى من ذلك ، وقد فسر أكثر المفسرين قوله عز وجل (فالآن باشروهن وابتغوا ماكتب الله لكم) المباشرة بالجماع ، والابتغاء بالولد أى اطلبوا الولد بالمباشرة ، وكذلك ينبغى للمرأة أن تنوى بذلك تحصين فرجها والولد والثواب الجزيل عند الله بالصبر عند الزوج وعلى الحبل والولادة وتربية الولد ، لما روى زياد بن ميمون عن أنس رضى الله عنه قال : إن امرأة كان يقال لها الحولاء عطارة من أهل المدينة ، دخلت على عائشة رضى الله عنها فقالت : يا أمّ المؤمنين زوجى فلان أتزين له كل ليلة وأتطيب كأنى عروس زفت إليه ، فإذا آوى إلى فراشه دخلت عليه فى لحافه وألتمس بذلك رضا الله تعالى حول وجهه عنى أراه أبغضنى فقالت : اجلسى حتى يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت فبينما أنا كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذه الريح التى أجدها أتتكم الحولاء ، هل ابتعتم منها شيئا ؟ قالت عائشة رضى الله عنها : لا والله يا رسول الله ، فقصت الحولاء قصتها ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهبى واسمعى وأطيعى له ، قالت : أفعل يا رسول الله فما لى من الأجر ، قال صلى الله عليه وسلم : ما من امرأة رفعت من بيت زوجها شيئا فوضعته تريد به الإصلاح إلا كتب الله تعالى لها حسنة ومحا عنها سيئة ورفع لها درجة ، وما من امرأة حملت من زوجها حين تحمل إلا كان لها من الأجر مثل القائم ليله والصائم نهاره والغازى فى سبيل الله تعالى ، وما من امرأة يأتيها طلق إلا كان لها بكل طلقة عتق نسمة وبكل رضعة عتق رقبة ، فإذا فطمت ولدها ناداها مناد من السماء : أيتها المرأة قد كفيت العمل فيما مضى فاستأنفى العمل فيما بقى ، قالت عائشة رضى الله عنها : قد أعطى النساء كثيرا فما بالكم يامعشر الرجال ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : ما من رجل أخذ بيد امرأته يراودها إلا كتب الله تعالى له حسنة ، فإن عانقها فعشر حسنات ، فإذا أتاها كان خيرا من الدنيا وما فيها ، فإذا قام ليغتسل لم يمرّ الماء على شعرة من جسده إلا تكتب له حسنة وتمحى عنه سيئة وترفع له درجة

وما يعطى بغسله خير من الدنيا وما فيها ، وإن الله عزّ وجل يباهى به الملائكة يقول : انظروا إلى عبدى قام فى ليلة قرّة يغتسل من الجنابة يتيقن بأنى ربه ، اشهدوا بأنى قد غفرت له » . وعن المبارك بن فضالة عن الحسن رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوان عندكم » يعنى مأسورات « لايملكن لأنفسهن شيئا وإنما أخذتموهن بأمانة الله تبارك وتعالى ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله عزوجل » . وعن عبادة ابن كثير عن عبد الله الجريرى عن ميمونة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيار الرجال من أمتى خيارهم لنسائهم ، وخير النساء من أمتى خيرهن لأزواجهن ، يرفع لكل امرأة منهن كل يوم وليلة أجر ألف شهيد قتلوا فى سبيل الله صابرين محتسبين ، وتفضل إحداهن على الحور العين كفضل محمد صلى الله عليه وسلم على أدنى رجل منكم ؛ وخير النساء من أمتى من تأتى مسرّة زوجها فى كل شىء يهواه ماخلا معصية الله تعالى ؛ وخير الرجال من أمتى من تلطف بأهله لطف الوالدة بولدها ، يكتب لكل رجل منهم كل يوم وليلة أجر مائة شهيد قتلوا فى سبيل الله صابرين محتسبين ؛ فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله وكيف يكون للمرأة أجر ألف شهيد وللرجل مائة شهيد ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أو ما علمت أن المرأة أعظم أجرا من الرجل وأفضل ثوابا ، فإن الله عزّ وجل يرفع للرجل فى الجنة درجات فوق درجاته برضا زوجته عنه ودعائها له ، أو ماعلمت أن أعظم وزر بعد الشرك بالله المرأة إذا عصت زوجها ، ألا فاتقوا الله فى الضعيفين ، فإن الله سائلكم عنهما اليتيم والمرأة ، فمن أحسن إليهما فقد بلغ إلى الله عزّ وجل رضوانه ، ومن أساء إليهما فقد استوجب من الله سخطه ؛ وحق الزوجة على الزوج كحقى عليكم ، فمن ضيع حقى فقد ضيع حق الله ، ومن ضيع حق الله فقد باء بسخط من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير » . وعن أبى جعفر محمد بن علىّ عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى نفر من أصحابه ، إذ أقبلت امرأة حتى قامت على رأسه ثم قالت : السلام عليك يا رسول الله ، أنا وافدة النساء إليك ، ليست امرأة يبلغها مسيرى إليك إلا أعجبها ذلك يا رسول الله ، إن الله تعالى ربّ الرجال وربّ النساء وآدم وأبو الرجال وأبو النساء ، وحوّاء أم الرجال وأم النساء ، فالرجال إذا خرجوا فى سبيل الله فقتلوا فأحياء عند ربهم يرزقون ، وإذا جرحوا فلهم من الأجر مثل ما علمت ، ونحن نجلس عليهم ونخدمهم فهل لنا من الأجر شىء ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أقرئى عنى النساء السلام وقولى لهن : إن طاعة للزوج واعترافا بحقه تعدل ما هنالك ، وقليل منكن يفعله » . وعن ثابت عن أنس رضى الله عنه قال « حين بعثتنى النساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلن : يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل وبالجهاد فى سبيل الله ، فما لنا من عمل ندرك به عمل المجاهدين فى سبيل الله ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهنة إحداهن فى بيتها تدرك عمل المجاهدين فى سبيل الله » .

وعن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل على النساء جهاد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : نعم جهادهن الغيرة يجاهدن أنفسهن ، فإن صبرن فهن مجاهدات ، فإن رضين فهن مرابطات ، ولهن أجران اثنان » فينبغى للزوجين أن يعتقدا هذا الثواب المذكور فى هذا الحديث وما قبله عند العقد والجماع جميعا ، وأداء الحق الواجب على كل واحد منهما للآخر بقوله عزّ وجل (ولهن مثل الذى عليهنّ) ليكونا مطيعين لله تعالى ممتثلين أمره ، وتعتقد المرأة أن ذلك خير لها من الجهاد والغزو ، لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ليس شىء خيرا لامرأة من زوجا أو قبر » وقال صلى الله عليه وسلم « مسكين مسكين مسكين رجل ليست له امرأة ، قيل : يا رسول الله وإن كان غنيا من المال ؟ قال : وإن كان غنيا من المال » وقال أيضا « مسكينة مسكينة مسكينة امرأة ليس لها زوج ، قيل : يا رسول الله وإن كانت غنية من المال ؟ قال صلى الله عليه وسلم : وإن كانت غنية من المال » . ويستحبّ أن يكون العقد يوم الجمعة أو الخميس ، والمساء أولى من التبكير . ويسنّ أن تكون الخطبة قبل التواجب ، فإن أخرت جاز ، وهو مخير بين أن يعقد النكاح بنفسه أو يوكل فيه غيره ، فإذا انعقد العقد يستحبّ للحاضرين أن يقولوا : بارك الله لك وبارك عليك ، وجمع بينكما فى خير وعافية . ثم إن طلبت المرأة وأهلها الإمهال يستحبّ له إجابتهم إلى ذلك قدر ما يعلم التهيؤ لأمورها فيه وقضاء حوائجها ، من شراء الجهاز والتزيين لها ، فإذا زفت إليه اتبع ما روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، وذلك أنه جاء رجل فقال : إنى تزوّجت بجارية بكر وقد خشيت أن تكرهنى أو تفركنى ، فقال له : إن الإلف من الله والفرك من الشيطان ، وإذا دخلت إليك فمرها لتصلى خلفك ركعتين وقل : اللهم بارك لى فى أهلى وبارك لأهلى فى ، اللهم ارزقنى منهم وارزقهم منى ، اللهم اجمع بيننا إذا جمعت فى خير ، وفرّق بيننا إذا فرقت إلى الخير ؛ فإذا أراد الجماع فليقل : بسم الله العلىّ العظيم ، اللهم اجعل ذرية طيبة إن قدرت أن تخرج من صلبى ، اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنى وإذا قضى حاجته فليقل : بسم الله الحمد لله الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ، يقول ذلك فى نفسه ، ولا يحرّك به شفتيه . والأصل فى ذلك ما روى كريب عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، ثم إن قدّر أن يكون بينهما ولد فى ذلك لم يضرّه شيطان أبدا » وإذا ظهرت أمارة حبل المرأة فليصف غذاءها من الحرام والشبهة ليتخلق الولد على أساس لا يكون للشيطان عليه سبيل ، والأولى أن يكون من حين الزفاف ويدوم على ذلك ليتخلص هو وأهله وولده من الشيطان فى الدنيا ومن النار فى العقبى قال الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا) ومع ذلك يخرج الولد صالحا ، بارّا بوالديه طائعا لربه ، كل ذلك ببركة تصفية الغذاء ؛ فإذا فرغ من الجماع تنحى عنها وغسل ما به من الأذى ، وتوضأ إن أراد العود إليها وإلا اغتسل ، ولا ينام جنبا فإنه مكروه : وكذلك

روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم « إلا أن يشق ذلك عليه » لبرد أو بعد حمام وماء أو خوف ونحو ذلك ، فينام إلى حين زوال ذلك ؛ ولايستقبل القبلة عند المجامعة ، ويغطى رأسه ويستتر عن العيون وإن كان عن صبيّ طفل ، لأنه روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أتى أحدكم أهله فليستتر ، فإنه إذا لم يستتر استحيت الملائكة وخرجت ويحضره الشيطان ، وإذا كان بينهما ولد كان الشيطان فيه شريكا » وكذلك يروى عن السلف أنه لم إذا يسمّ عند الجماع التفّ الشيطان على إحليله يطأ كما يطأ . ويستحبّ له الملاعبة لها قبل الجماع ، والانتظار لها بعد قضاء حاجته حتى تقضي حاجتها ، فإن ترك ذلك مضرّة عليها ، ربما أفضى إلى البغضاء والمفارقة وإن أراد العزل عنها فلا يفعل إلا بإذنها إن كانت حرّة ، وبإذن سيدها إن كانت أمة ، وإن كانت أمته جاز بغير إذنها لأن الحقّ له دونها « وقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن لى جارية هى خادمتنا أطوف عليها وأنا أكره أن تحمل ، قال صلى الله عليه وسلم : اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها » ويجتنب وطأها فى حال الحيض والنفاس ، وكذلك بعد انقطاع الدم حتى تغتسل من الحيض قولا واحدا ، وفى النفاس قبل الأربعين استحبابا ، فإن لم تجد الماء فبعد التيمم ، فإن خالف فوطىء فيه تصدّق بدينار أو نصف دينار على إحدى الروايتين ، والأخرى يستغفر الله تعالى ويتوب أن يرجع إلى مثله ، ولا يكفر . ويجتنب وطأها فى الموضع المكروه ، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم « ملعون من أتى امرأة فى دبرها » فإن لم تتق نفسه إلى الجماع لا يجوز له تركه لأن لها حقا فى ذلك ، وعليها مضرّة فى تركه لأن شهوتها أعظم من شهوته . وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « فضلت شهوة النساء على الرجال بتسعة وتسعين ، إلا أن الله تعالى ألقى عليهن الحياء » وقيل : الشهوة عشرة أجزاء ، وتسعة منها للنساء ، وواحدة للرجال . والقدر الذى لا يجوز أن يؤخر الوطأ عنه أربعة أشهر إلا أن يكون له عذر ، فإن جاوز الأربعة الأشهر كان لها فراقه ، وإن سافر عنها مدة أكثر من ستة أشهر فطلبت منه القدوم فأبى أن يقدم مع القدرة ، كان للحاكم أن يفرّق بينهما إذا طلبت الزوجة ذلك ؛ وهذا هو التأقيت الذى وقته عمر بن الخطاب رضى الله عنه للناس فى مغازيهم يسيرون شهرا ويقيمون أربعة أشهر ، ويسيرون راجعين إلى أهلهم شهرا ، وإذا رأى امرأة غيره فأعجبته جامع امرأته ليسكن مابه من التوقان ، لما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا رأى أحدكم امرأة تعجبه فليأت أهله ، فإن الشيطان يقبل فى صورة امرأة ويدبر فى صورة امرأة » فمن لم تكن له امرأة يلتجىء إلى الله عز وجل ، ويسأله السلامة من المعاصى ، ويستعيذ به من الشيطان الرجيم ؛ ولا يجوز له أن يحدث غيره بما جرى بينه وبين أهله من أمر الجماع ، ولا للمرأة أن تحدث بذلك النساء ، لأن ذلك سخف ودناءة وقبيح فى الشرع والعقل ، لما روى أبو هريرة رضى الله عنه فى حديث فيه طول عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى أن قال « ثم أقبل على الرجال فقال : هل منكم رجل إذا أتى أهله فأغلق عليه بابه وألقى

عليه ستره واستتر بستر الله ؟ قالوا : نعم ، قال : ثم يجلس بعد ذلك فيقول : فعلت كذا فعلت كذا ، قال : فسكتوا ، قال : فأقبل على النساء ، فقال : هل منكنّ من تحدث ؟ فسكتن ، فجثت فتاة على إحدى ركبتيها وتطاولت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليراها ويسمع كلامها ، فقالت : يا رسول الله إنهم ليتحدثون وإنهنّ ليتحدثن ، فقال : هل تدرون ما مثل ذلك ، إنما مثل ذلك مثل شيطانة لقيت شيطانا فى السكة فقضى منها حاجته والناس ينظرون إليه ، ألا إن طيب الرجال ما ظهر ريحه ولم يظهر لونه ، ألا إن طيب النساء ما ظهر لونه ولم يظهر ريحه » .

(فصل) وإذا دعا امرأته للجماع فأبت عليه كانت عاصية لله تعالى وعليها وزر ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه «أيما امرأة منعت زوجها حاجته عليها كان عليها قيراطان من الإصر ، وأيما رجل منع زوجته حاجتها كان عليه من الإصر قيراط » يعنى الإثم وفى بعض الأحاديث قال صلى الله عليه وسلم « إذا دعا أحدكم امرأته إلى فراشه فلتأته وإن كانت على التنور » وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا دعا أحدكم امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح » . وعن قيس ابن سعد رضى الله عنه قال « أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم ، فأتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله أنت أحقّ أن يسجد لك ، فقال صلى الله عليه وسلم : أرأيت لو مررت بقبرى أكنت تسجد له ؟ قال : قلت لا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : فلا تفعلوا ذلك إذا » وقال صلى الله عليه وسلم « لوكنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن » لما جعل الله تعالى لهم عليهن من الحقوق ، والمرزبان هو ملك لهم وعن حكيم بن معاوية القشيرى عن أبيه رضى الله عنه قال « قلت : يا رسول الله ما حقّ زوجة أحدنا عليه ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ، ولاتضرب الوجه ولا تقبح الوجه ولا تهجر إلا فى البيت » فإن أصرّت المرأة على النشوز وهو الامتناع عن الإجابة لهذا الشأن ، أو تجيبه متكرّهة متبرّمة فليبدأ الزوج بوعظها وتخويفها بالله عزّ وجلّ ، فإن أقامت على ذلك هجرها فى المضجع والكلام فيما دون ثلاثة أيام ، فإن ارتدعت وإلا كان له ضربها بما لايكون مبرحا كالدرّة أو مخراق ، لأن المقصود ارتداعها وطاعتها له لا إهلاكها ، فإن لم ينصلح الحال بينهما بعث الحاكم حكمين حرّين مسلمين عدلين من أهلهما ويوكلهما الزوجان فينظران بينهما ما فيه من المصلحة من إصلاح أو فراق بمال وغيره ، فما يفعلان يلزمهما حكمه .

(فصل) ويستحبّ وليمة العرس والسنة أن لاينقص فيها عن شاة ، وبأىّ شىء أولم من الطعام جاز ، وتجب إجابته إذا كان مسلما فى اليوم الأول ، ويستحبّ فى اليوم الثانى ، ويباح فى اليوم الثالث ، بل هى دناءة . والأصل فى ذلك ما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم « أنه قال لعبد الرحمن رضى الله عنه : أولم ولو بشاة » وقال صلى الله عليه وسلم : الوليمة فى أول يوم

حق ، والثانى معروف ، وبعد ذلك دناءة» وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عمر رضى الله عنهما « إذا دعى أحدكم إلى وليمة عرس فليجب ، فإن كان مضطرا أكل ، وإن كان صائما ترك وانصرف » . وهل يكره النثار والتقاطه أم لا ؟ على روايتين : على إحداهما يكره لما فيه من السخف والدناءة للنفس والنهبة والشراهة ، فكانت الصيانة عن ذلك أولى ، وتركه فى باب الورع أحرى . وعلى الرواية الثانية لايكره ، لما روى « أن النبىّ صلى الله عليه وسلم نحر بدنة وخلى بينها وبين المساكين وقال : من شاء اقتطع » ولافرق بين النثار وبين ذلك ، وأولى من ذلك القسمة بين الحاضرين ، فإنه أطيب وأحلّ وأدخل فى باب الورع .

(فصل) فإذا كملت شرائط النكاح : وهو حصول الولىّ العدل والشهود العدل والكفاءة والخلوّ من الموانع من الردّة والعدة وغيرهما استأذنها العاقد للنكاح إذا لم تكن مجبرة وهو إذا كانت ثيبا أو بكرا لا أب لها ، وعرّفها الزوج مقدار الصداق وصفته ، ثم يخطب ويستغفر الله عزّ وجلّ ، ويأمر بذلك الولىّ على وجه الاستحباب والأولى ؛ ثم يستنطقه فيقول له : قد زوّجتك بنتى أو أختى فلانة ، فيسميها على ما اتفقا عليه من الصداق ويقول الزوج : قد قبلت هذا النكاح ؛ ولا ينعقد النكاح إلا بالعربية لمن يحسنها ، فإن لم يحسنها فبلسانه ولغته . وهل يلزمه تعلم العربية إذا لم يحسنها لعقد النكاح أم لا ؟ على الوجهين . ويستحبّ أن يخطب بخطبة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، لأنه روى أن الإمام أحمد بن حنبل كان إذا شهد إملاكا ولم يسمع خطبة عبد الله بن مسعود ترك الإملاك وانصرف ، وهو ما أخبرنا به الشيخ الإمام هبة الله بن المبارك بن موسى السقطى ببغداد ، عن القاضى أبى المظفر هناد بن إبراهيم ، عن محمد ابن نصر النسفى ، عن القاضى أبى عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمى البصرى عن محمد ابن أحمد اللؤلؤى ، عن أبى داود ؛ وقال : حدثنا محمد بن سليمان الأنبارى المعنى ، قال : حدثنا وكيع عن إسرافيل عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة النكاح : الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضلّ له ، ومن يضلله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبثّ منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » . ويستحبّ أن يضيف إليها قوله عز وجل (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم - يرزق من يشاء بغير حساب) وإن قرأ غير هذه الخطبة جاز مثل أن يقول : الحمد لله المنفرد بآلائه الجواد بإعطائه الذى تجلى بأسمائه المتوحد بكبريائه ، لا يصفه الواصفون حق صفته ، ولاينعته الناعتون حقّ نعته ، لا إله إلا الله الواحد الصمد المعبود ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، تبارك

الله العزيز الغفار ، بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق نبيا صفيا بريا من العاهات كلها ، فبلغ ما أرسل به ، سراجا زاهرا ونورا ساطعا وبرهانا لامعا ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين . ثم إن هذه الأمور كلها بيد الله يصرّفها فى طرائقها ويمضيها فى حقائقها ، لامقدم لما أخر ولا مؤخر لما قدم ، ولايجتمع اثنان إلا بقضائه وقدره ، ولكل قضاء قدر ، ولكل قدر أجل ، ولكل أجل كتاب (يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) . وكان من قضاء الله وقدره أن فلان بن فلان يخطب كريمتكم فلانة بنت فلان ، وقد أتاكم راغبا فيكم خاطبا كريمتكم ، وقد بذل لها من الصداق ما وقع عليه الاتفاق ، فزوّجوا خاطبكم وأنكحوا راغبكم ، قال الله تعالى (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم) فإذا فرغ من الخطبة عقد النكاح على ما قدمنا ذكره .

باب فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وقد ذكر الله عز وجل الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ومدحهم فى كتابه قال الله عز وجل (الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله) وقال الله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وقال تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ، أوليسلطنّ الله تعالى شراركم على خياركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » وروى سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم ، وقبل أن تستغفروا فلا يغفر لكم ، ألا إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لايدفع رزقا ولا يقرّب أجلا ، ألا إن الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى لما تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لعنهم الله على لسان أنبيائهم ، ثم عمُّوا بالبلاء » والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان على كل مسلم حرّ مكلف عالم بذلك ، بشرط القدرة على وجه لايؤدى إلى فساد عظيم وضرر فى نفسه وماله وأهله ؛ ولا فرق بين أن يكون إماما أو عالما أو قاضيا أو واحدا من الرعية ؛ وإنما شرطنا العلم بالمنكر والقطع به لما فى ذلك من خوف الوقوع فى الإثم ، لأنه لا يأمن المنكر أن يكون الأمر بخلاف ما ظنّ وقد قال الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظنّ إثم) . ولايجب عليه كشف ما ستر عنه ؛ لأن الله تعالى نهى عن ذلك فقال (ولاتجسسوا) إنما الواجب عليه إنكار ما ظهر ، وفى بحث ما ستر كشف الستر ، وذلك ممنوع منه فى الشرع .

(فصل) وإنما شرطنا القدرة على ذلك ؛ لما روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « ما من قوم يكون فيهم رجل يعمل المعاصى ويقدرون أن يغيروا عليه فلا يغيروا عليه إلا عمهم الله بعذاب قبل أن يتوبوا » فقد شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وهو إذا كانت الغلبة

لأهل الصلاح وعدل السلطان وأعانه أهل الخير . وأما إذا كان الإنكار تغريرا بالنفس مع لحوق ضرر به وبماله فلا يجب عليه ذلك لقوله عز وجل (ولا تلقوا بأيديكم إلى التّهلكة) وقوله تعالى (ولاتقتلوا أنفسكم) وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم « لاينبغى للمؤمن أن يذلّ نفسه ، قيل يا رسول الله كيف يذل نفسه ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لايتعرّض لما لايمكنه » وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم « إذا ريتم أمرا لاتستطيعون تغييره فاصبروا حتّى يكون الله تعالى هو الذى يغير » فإذا ثبت أنه لايجب عليه الإنكار فهل يجوز إنكاره إذا غلب على ظنه الخوف على نفسه؛ فعندنا يجوز ذلك وهو الأفضل إذا كان من أهل العزيمة والصبر فهو كالجهاد فى سبيل الله مع الكفار ، وقد قال الله تعالى فى قصة لقمان (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك) وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة رضى الله عنه « يا أبا هريرة مر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك » ولاسيما إذا كان ذلك عند سلطان جائر أو لإظهار كلمة الإيمان عند ظهور كلمة الكفر ، لأن الفقهاء اتفقوا على ذلك وإنما الخلاف بيننا وبينهم فى غير هذين الموضوعين .

(فصل) فإذا ثبت وجوب الإنكار ، فالمنكرون ثلاثة أقسام : قسم يكون إنكارهم باليد ، وهم الأئمة والسلاطين . والقسم الثانى إنكارهم باللسان دون اليد ، وهم العلماء . والقسم الثالث إنكارهم بالقلب ، وهم العامة . وقد جاء فى هذا المعنى حديث ، وهو ما روى أبوسعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا رأى أحد منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » يعنى أضعف فعل الإيمان . وقد روى عن بعض الصحابة رضى الله عنهم أنه قال : إذا رأى أحد منكم منكرا لايستطيع النكير عليه فليقل ثلاث مرات : اللهم إن هذا منكر ، فإذا قال ذلك كان له ثواب من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

(فصل) وإذا غلب على ظنه عدم زوال المنكر وبقاؤه على ذلك فهل يجب عليه الإنكار أم لا ؟ روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله : إحداهما يجب لجواز أن يرتدع وينزجر ويرقّ قلبه ويلحقه التوفيق والهداية ببركة صدقه فيرجع عما هو عليه ، والظن لايمنع من جواز إنكاره ؛ والرواية الأخرى لايجب عليه إنكاره حتّى يغلب على ظنه زواله ، لأن القصد بالإنكار زوال المنكر ، فإذا قوى فى الظن بقاؤه كان تركه أولى .

(فصل) ويشترط فى الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر خمس شرائط : أولها أن يكون عالما بما يأمر وينهى : والثانى أن يكون قصده وجه الله وإعزاز دين الله وإعلاء كلمة الله وأمره دون الرياء والسمعة والحميّة لنفسه ، وإنما ينصر ويوفق ويزول به المنكر إذا كان صادقا مخلصا ، قال الله تعالى (إن تنصرُوا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وقال الله تعالى (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) فإذا اتّقى الشرك وترك نظر الخلق فى إنكاره وأحسن العمل بإخلاصه فى ذلك كان الظفر له ، وإن كان غير ذلك كان له الخذلان والصغار والذلة والمهانة . وبقاء المنكر

على حاله ، بل زيدته ونفاقه وضراوة أهل المعاصى واتفاق شياطين الإنس والجن على مخالفة الله تعالى ، وترك طاعته وارتكاب المحرمات . والثالث أن يكون أمره ونهيه باللين والتودد لابالفظاظة والغلظة ، بل بالرفق والنصح ، والشفقة على أخيه كيف وافق عدوّه الشيطان اللعين الذى قد استولى على عقله وزين له معصية ربه ومخالفة أمره ، يريد بذلك إهلاكه وإدخاله النار ، كما قال الله تعالى (إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) وقال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حديث أسامة « لا ينبغى لأحد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يكون فيه ثلاث خصال : عالما بما يأمر ، عالما بما ينهى ، رفيقا فيما يأمر ، رفيقا فيما ينهى » . الرابع أن يكون صبورا حليما حمولا متواضعا زائل الهوى قوىّ القلب لين الجانب ، طبيبا يداوى مريضا ، حكيما يداوى مجنونا ، إماما هاديا ، قال الله تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) على احتمال الأذى من قومهم على نصرة دين الله وإعزازه والقيام معه ، فجعلهم أئمة هداة أطباء الدين قادة المؤمنين ، وقال الله تعالى فى قصة لقمان (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) . والخامس أن يكون عاملا بما يأمر متنزّها عما ينهى عنه وغير متلطخ به ، لئلا يكون لهم تسلط عليه فيكون عند الله مذموما ملوما ، قال الله تعالى (أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه « رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بالمقاريض ، فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب » قال الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا أتيت عظيم

وقال قتادة رحمه الله : ذكر لنا أن فى التوراة مكتوبا أن ابن آدم يذكرنى وينسانى ، ويدعو إلىّ ويفرّ منى ، باطل ما تذهبون ، وأراد بذلك عزّ وجل من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويترك نفسه ، وهو تعالى أعلم بذلك .

(فصل) والأولى له إن استطاع أن يأمره وينهاه فى خلوة ليكون ذلك أبلغ وأمكن فى الموعظة والزجر والنصيحة له وأقرب إلى القبول والإقلاع . وقد قال أبو الدرداء رضى الله عنه : من وعظ أخاه بالعلانية فقد شانه ومن وعظه سرا فقد زانه . فإن فعل ذلك ولم ينفعه أظهر حينئذ ذلك ، واستعان عليه بأهل الخير ، وإن لم يفعل فبأصحاب السلطان . وينبغى أن لايترك إنكار المنكر أبدا ، لأن الله تعالى ذمّ قوما تركوا ذلك وتغافلوا عنه ، قال عزّ وجل (كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون) وقال تعالى (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) يعنى هلاّ نهاهم علماؤهم وفقهاؤهم وقرّاؤهم عن القول الفاحش وأكل الحرام وفعل المعاصى؟ وقيل إن الله تعالى أوحى إلى يوشع بن نون عليه السلام : إنى مهلك

من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم ، قال يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار ؟ قال تعالى : إنهم لم يغضبوا بغضبي وآكلوهم وشاربوهم .

(فصل) وقد ذكرنا أن الشرط الخامس أن يكون عالما بما يأمر متنزّها عما ينهى عنه ، إلا أن شيوخنا ذكروا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على الفاسق كوجوبه على العدل ، فأشرنا إلى ذلك بما تقدّم من عموم الآيات والأخبار من غير فرق . وقد حمل بعض السلف قوله تعالى (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله) على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع إنسانا يقرأ هذه الآية فقال : (إنا لله وإنا إليه راجعون) قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقتل . وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل الشهداء يوم القيامة حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » . وقد ذكر الله تعالى الذى يُنهى عن المنكر وتأخذه العزة فلا يمتنع فقال تعالى (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) الآية . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إن من أكبر الذنوب عند الله تعالى أن يقال للعبد اتق الله ، فيقول : عليك بنفسك . وجميع ذلك عامّ فى حقّ صالح وطالح . وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به ، وانهوا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه » إنه لا يخلو أحد من معصية إما ظاهرا وإما باطنا . فإن قلنا لاينكر إلا المتنزّه عنه تعذر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيندرس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويضمحلّ .

(فصل) والذى يؤمر به وينكر على ضربين ، فكل ما وافق الكتاب والسنة والعقل فهو معروف ، وكل ما خالف فهو منكر . ثم ذلك ينقسم قسمين : أحدهما ظاهر يعرفه العوّام والخواصّ ، وهو كوجوب الصلوات الخمس وصوم رمضان والزكاة والحج ، وغير ذلك : ومن المنكر كتحريم الزنا وشرب الخمر والسرقة وقطع الطريق والربا والغصب وغير ذلك ؛ فهذا القسم يجب إنكاره على العوامّ كما يجب على الخواصّ من العلماء . والقسم الثانى ما لايعرفه إلا الخواصّ مثل اعتقاده ما يجوز على البارى تعالى وما لايجوز عليه ، فهذا يختص إنكاره بالعلماء ؛ فإن أخبر أحد من العلماء بذلك واحدا من العوام جاز له ذلك ، ووجب على العامى الإنكار عند القدرة على ما بينا ، ولا يجوز قبل ذلك . وأما إذا كان الشيء مما اختلف الفقهاء فيه وساغ فيه الاجتهاد كشرب عامىّ النبيذ مقلدا لأبى حنيفة رحمه الله ، وتزوّج امرأة بلا ولىّ على ما عرف من مذهبه لم يكن لأحد ممن هو على مذهب الإمام أحمد والشافعى رحمهما الله الإنكار عليه ، لأن الإمام أحمد قال فى رواية المروزى : لا ينبغى للفقيه أن يحمل الناس على مذهبه ، ولايشدّد عليهم ، وإذا ثبت هذا فالإنكار إنما يتعين فى خرق الإجماع دون المختلف فيه : وقد نقل عن الإمام أحمد رحمه الله ما يدلّ على جواز الإنكار فى المختلف فيه ، وهو

ما قال فى رواية الميمونى فى رجل يمرّ بالقوم وهم يلعبون بالشطرنج ينهاهم ويعظهم ، ومعلوم أن هذا جائز عند أصحاب الشافعى رحمهم الله .

(فصل) وينبغى لكل مؤمن أن يعمل بهذه الآداب فى سائر أحواله ، ولا يترك العمل بها. وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : تأدّبوا ثم تعلموا . وقال أبو عبد الله البلخى رحمه الله: أدب العلم أكثر من العلم . وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : إذا وصف لى رجل له علم الأوّلين والآخرين لا أتأسف على فوت لقائه ، وإذا سمعت رجلا له أدب النفس أتمنى لقاءه وأتأسف على فوت لقائه ، ويقال: مثل الإيمان كمثل بلدة لها خمسة من الحصون : الأول من ذهب ، والثانى من فضة ، والثالث من حديد ، والرابع من آجرّ ، والخامس من لبن ، فما دام أهل الحصن متعاهدين الذى هو من لبن لايطمع العدو فى الثانى ، فإذا أهملوا ذلك طمعوا فى الحصن الثانى ، ثم فى الثالث حتى تخرب الحصون كلها ؛ فكذلك الإيمان فى خمسة من الحصون : أولها اليقين ، ثم الإخلاص ، ثم أداء الفرائض ، ثم إتمام السنن ، ثم حفظ الآداب ؛ فما دام العبد يحفظ الآداب ويتعاهدها ، فالشيطان لايطمع فيه ؛ فإذا ترك الأدب طمع الشيطان فى السنن ، ثم فى الفرائض ، ثم فى الإخلاص ، ثم فى اليقين . فينبغى للإنسان أن يحفظ الآداب فى جميع أموره من الوضوء والصلاة والبيع والشراء وغير ذلك، هذا آخر ما اخترنا وأردنا ولخصنا من آداب الشريعة ؛ فبامتثال الأمر فى العبادات الخمس المقدم ذكرها يصير مسلما ، وبالتأدب بهذه الآداب يكون تابعا للسنة ومقتفيا للأثر ، ويحصل له بذلك معرفة مّا ، ويبقى عليه حقيقة معرفة الصانع وهى من أعمال القلب ، فأخرناها ليسهل عليه الدخول فى ديننا ، فإذا تقمص بنور الإسلام ظاهرا قلنا له تقمص بنور الإيمان باطنا .

باب فى معرفة الصانع عز وجل

نقول : أما معرفة الصانع عزّ وجل بالآيات والدلالات على وجه الاختصار ، فهى أن يعرف ويتيقن أنه واحد فرد صمد : لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) لاشبيه له ولا نظير ، ولاعون ولا شريك ، ولا ظهير ولا وزير ، ولانِدّ ولا مشير له ، ليس بجسم فيمسّ ولا بجوهر فيحسّ ، ولا عرض فيقضى ، ولا ذى تركيب أو آلة وتأليف ، وماهية وتحديد ، وهو الله للسماء رافع وللأرض واضع ، لا طبيعة من الطبائع ولا طالع من الطوالع ، ولا ظلمة تظهر ولانور يزهر ، حاضر الأشياء علما شاهد لها من غير مماسة ، عزيز قاهر حاكم قادر ، راحم غافر ، ساتر معزّ ناصر ، رءوف خالق فاطر ، أول آخر ، ظاهر باطن ، فرد معبود ، حىّ لا يموت ، أزلى لايفوت ، أبدىّ الملكوت سرمدىّ الجبروت ، قيوم لاينام ، عزيز لايضام ، منيع لايرام ، فله الأسماء العظام والمواهب الكرام ، قضى بالفناء على جميع الأنام فقال (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وهو بجهة العلوّ مستو ، على العرش محتو ، على الملك محيط علمه بالأشياء (إليه يصعد الكلم

الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ـ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) خلق الخلائق وأفعالهم وقدّر أرزاقهم وآجالهم ، لامقدم لما أخر ، ولا مؤخر لما قدّم ، أراد العالم وماهم فاعلوه ولو عصمهم لما خالفوه ، ولوشاء أن يطيعوه جميعا لأطاعوه ، يعلم السرّ وأخفى ، عليم بذات الصدور (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) هو المحرّك هو المسكّن ، لم تتصوّره الأوهام ولا تقدّره الأذهان . ولايقاس بالناس ، جلّ أن يشبَّه بما صنعه ، أو يضاف إلى ما اخترعه وابتدعه ، محصى الأنفاس ، القائم على كل نفس بما كسبت (لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ـ لتجزى كل نفس بما تسعى ـ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) غنىّ عن خلقه ، رازق لبريته ، يُطعِم ولايُطعَم ، يَرزق ولايُرزق ، يجير ولايجار عليه ، الخليقة مفتقرة إليه ، لم يخلقهم لاجتلاب نفع ولا دفع ضرر ، ولا لداع دعاه إليه ، ولا لخاطر له وفكر حدث ، بل إرادة مجرّدة كما قال وهو أصدق القائلين (ذو العرش المجيد فعال لما يريد) متفرّد بالقدرة على اختراع الأعيان ، وكشف الضرّ والبلوى وتقليب الأعيان وتغيير الأحوال (كل يوم هو فى شأن) يسوق ما قدّر إلى ما وقّت ، وأنه تعالى حىّ بحياة ، وعالم بعلم ، وقادر بقدرة ، ومريد بإرادة ، وسميع بسمع ، وبصير ببصر ، ومدرك بإدراك ، ومتكلم بكلام ، وآمر بأمر ، وناه بنهى ، ومخبر بخبر ، وأنه تعالى عادل فى حكمه وقضائه ، ومحسن متفضل فى عطائه وإنعامه ، مبدئ ومعيد محيى ومميت ، محدث وموجد ، مثيب ومعاقب جواد لايبخل ، حليم لايعجل ، حفيظ لاينسى يقظان لايسهو ، أرق[1] لايغفل ، يقبض ويبسط ، يُضحك ويفرح ، يحبّ ويكره ، ويبغض ويرضى ، ويغضب ويسخط ، يرحم ويغفر ، يعطى ويمنع ، له يدان وكلتا يديه يمين ، قال جل وعلا (والسموات مطويات بيمينه) . روى عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر (والسموات مطويات بيمينه) وقال : تكون فى يمينه يرمى بها كما يرمى الغلام بالكرة ، ثم يقول : أنا العزيز ، قال : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرّك على المنبر حتى كاد يسقط » . قال ابن عباس رضى الله عنهما . يقبض الأرضين والسموات جميعا فلا يرى طرفهما من قبضته . وعن أنس بن مالك عن ابن عباس رضى الله عنهم عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « المقسطون يوم القيامة على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين » وخلق آدم عليه السلام بيده على صورته ، وغرس جنة عدن بيده ، وغرس شجرة طوبى بيده ، وكتب التوراة بيده ، وناولها موسى من يده إلى يده ، وكلمه تكليما من غير واسطة ولا ترجمان ، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ويوعيها ما أراد ، والسموات والأرض يوم القيامة فى كفه ، كما جاء فى الحديث ويضع قدمه فى جهنم فينزوى بعضها إلى بعض وتقول : قط قط ، ويخرج قوم من الناس بعده وينظر أهل الجنة فى وجهه ويرونه لا يضامون فى رؤيته ولا يضارّون ، كما جاء فى الحديث « يتجلى لهم ويعطيهم ما يتمنون » وقال عز من قائل (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قيل :

(١) يريد المؤلف أنه لايعتريه نوم اه مصححه .

الحسنى هى الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجهه الكريم ، وقال تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) ويعرض عليه العباد يوم الفصل والدين ، يتولى حسابهم بنفسه ولا يتولى ذلك غيره ، وإن الله تعالى خلق سبع سموات بعضها فوق بعض ، وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض ومن الأرض العليا إلى السماء الدنيا خمسمائة عام ، وبين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام ، والماء فوق السماء السابعة ، وعرش الرحمن فوق الماء ، والله تعالى على العرش ، ودونه سبعون ألف حجاب من نور وظلمة ، وما هو أعلم به ، وللعرش حملة يحملونه ، قال الله عزّ وجل (الذين يحملون العرش ومن حوله) الآية . وللعرش حدّ يعلمه الله (وترى الملائكة حافين من حول العرش) وهو من ياقوتة حمراء ، وسعته كسعة السموات والأرضين ، والكرسى عند العرش كحلقة ملقاة فى أرض فلاة ، وهو جلّ وعلا يعلم ما فى السموات السبع وما بينهن وما تحتهن ، وما فى الأرضين وما تحتهن وما بينهن ، وما تحت الثرى ، وما فى قعر البحار ، ومنبت كل شعرة وكل شجرة وكل زرع ينبت ، ومسقط كل ورقة ، وعدد ذلك كله ، وعدد الحصى والرمل والتراب ومثاقيل الجبال ومكاييل البحار وأعمال العباد وأسرارهم وأنفاسهم وكلامهم ، ويعلم كل شىء ، لايخفى عليه شىء من ذلك ، ، وهو منزّه عن مشابهة خلقه ، ولايخلو من علمه مكان ، ولا يجوز وصفه بأنه فى كل مكان ، بل يقال : إنه فى السماء على العرش ، كما قال جل ثناؤه (الرحمن على العرش استوى) وقوله (ثم استوى على العرش الرحمن) وقال تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) والنبىّ صلى الله عليه وسلم حكم بإسلام الأمة لما قال لها «أين الله ؟ فأشارت إلى السماء » . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه « لما خلق الله الخلق كتب كتابا على نفسه وهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى » وفى لفظ آخر « لما قضى الله سبحانه الخلق كتب على نفسه فى كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى » . وينبغى إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل ، وأنه استواء الذات على العرش لا على معنى القعود والمماسة كما قالت المجسمة والكرامية ، ولا على معنى العلوّ والرفعة كما قالت الأشعرية ، ولا على معنى الاستيلاء والغلبة كما قالت المعتزلة ، لأن الشرع لم يرد بذلك ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث ذلك ، بل المنقول عنهم حمله على الإطلاق . وقد روى عن أم سلمة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله عزّ وجل (الرحمن على العرش استوى) قالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به واجب ، والجحود به كفر . وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم فى صحيحه ، وكذلك فى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وقال أحمد بن حنبل رحمه الله قبل موته بقريب : أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل . وقال أيضا فى رواية بعضهم لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام فى شىء من هذه إلا ما كان فى كتاب الله عزّ وجل ، أو حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه رضى الله عنهم ، أو عن التابعين : فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود ، فلا يقال فى صفات الربّ عز وجل كيف ، ولم

لايقول ذلك الإشكالك . وقال أحمد رحمه الله فى رواية عنه فى موضع آخر : نحن نؤمن بأن الله عزّ وجل على العرش كيف شاء وكما شاء ، بلا حدّ ولاصفة يبلغها واصف أو يحدّه حاد ، لما روى عن سعيد بن المسيب عن كعب الأحبار قال : قال الله تعالى فى التوراة : أنا الله فوق عبادى ، وعرشى فوق جميع خلقى ، وأنا على عرشى عليه أدبر عبادى ، ولا يخفى على شىء من عبادى . وكونه عزّ وجل على العرش مذكور فى كل كتاب أنزل على كل نبىّ أرسل بلا كيف ، ولأن الله تعالى فيما لم يزل موصوف بالعلوّ والقدرة ، والاستيلاء والغلبة على جميع خلقه من العرش وغيره ، فلا يحمل الاستواء على ذلك ؛ فالاستواء من صفات الذات بعد ما أخبرنا به ونصّ عليه وأكده فى سبع آيات من كتابه ، والسنة المأثورة به وهو صفة لازمة له ولائقة به ، كاليد والوجه والعين والسمع والبصر والحياة والقدرة ، وكونه خالقا ورازقا ومحيا ومميتا موصوف بها ، ولا نخرج من الكتاب والسنة نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ، ونكل الكيفية فى الصفات إلى علم الله عزّ وجل ، كما قال سفيان بن عيينة رحمه الله كما وصف الله تعالى نفسه فى كتابه ، فتفسير قراءته لا تفسير له غيرها ؛ ولم نتكلف غير ذلك ، فإنه غيب لامجال للعقل فى إدراكه ؛ ونسأل الله تعالى العفو والعافية ، ونعوذ به من أن نقول فيه وفى صفاته مالم يخبرنا به هو أو رسوله عليه الصلاة والسلام ، وأنه تعالى ينزل فى كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء وكما شاء ، فيغفر لمن أذنب وأخطأ وأجرم وعصى لمن يختار من عباده ويشاء ، تبارك وتعالى العلىّ الأعلى ، لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ، لابمعنى نزول الرحمة وثوابه على ما ادعته المعتزلة والأشعرية ، لما روى عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينزل الله تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : هل من سائل فيعطى سؤله ، هل من مستغفر فيغفر له ، هل من عان فيفك عانيته ؟ حتى يصلى الصبح ؛ ثم يعلو ربنا تبارك وتعالى » وفى رواية أخرى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « ينزل الله تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : ألا عبد من عبادى يدعونى فأستجيب له ، ألا ظالم لنفسه يدعونى فأغفر له ، ألا مقتّر عليه رزقه يدعونى فأستجلب له رزقه ، ألا مظلوم يذكرنى فأنصره ، ألا عان يدعونى فأفكه ؟ قال : فيكون كذلك إلى أن يطلع الصبح ويعلو على كرسيه » وقد روى هذا الحديث بألفاظ مختلفة عن أبى هريرة وجابر وعلىّ رضى الله عنهم . وعن عبد الله بن مسعود وأبى الدرداء وابن عباس وعائشة رضوان الله عليهم كلهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا كانوا يفضلون صلاة آخر الليل على أوله . وروى أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ينزل الله عز وجل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا ، فيغفر لكل نفس ، إلا لإنسان فى قلبه شحناء أو شرك بالله عزّ وجل » . وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله عزّ وجل إذا ذهب شطر الليل الأول ينزل إلى سماء الدنيا فيقول : هل

من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟ حتى ينشق الفجر» .
وقيل لإسحاق بن راهويه : ما هذه الأحاديث التي تحدث بها أن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا ، والله يصعد ويتحرك ، قال للسائل تقول إن الله تعالى يقدر على أن الله ينزل ويصعد ولايتحرك ؟ قال نعم ، قال : فلم تنكره ؟ وقال يحيى بن معين : إذا قال لك الجهمي كيف ينزل ؟ فقل له : كيف صعد ؟ وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : إذا قال لك الجهمي : أنا كافر برب ينزل ، فقل له أنا مؤمن برب يفعل ما يشاء . وعن شريك بن عبد الله رحمه الله لما قيل له : عندنا قوم ينكرون هذه الأحاديث من جاءنا بأسماء ليست عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وإنما عرفنا الله عز وجل بهذه الأحاديث .

(فصل) ونعتقد أن القرآن كلام الله وكتابه وخطابه ووحيه الذى نزل به جبريل على رسول الله صلى الله عليهما وسلم كما قال عز وجل (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ؟) هو الذى بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته امتثالا لأمر رب العالمين بقوله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) . وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه قال « كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول : هل من رجل يحملنى إلى قومه ، فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى» وقال عز وجل (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) وكلام الله تعالى هو القرآن الشريف غير مخلوق كيفما قرئ وتلى وكتب ، وكيفما تفرقت به قراءة قارئ ولفظ لافظ وحفظ حافظ ، هو كلام الله وصفة من صفات ذاته ، غير محدث ولامبدل ولامغير ولامؤلف ولامنقوص ولامصنوع ولامزاد فيه ، منه بدأ تنزيله وإليه يعود حكمه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه « إن فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه » وذلك أن القرآن الشريف منه تبارك وتعالى خرج وإليه يعود حكمه ، فمعناه أن تنزيله وظهوره منه عز وجل وإليه يعود حكمه ، الذى هو العبادات من أداء الأوامر وانتهاء النواهى ، لأجله تفعل وتترك ، فالأحكام عائدة إليه عز وجل . وقيل : منه بدئ حكما وإليه يعود علما ، وهو كلام الله فى صدور الحافظين ، وألسن الناطقين ، وفى أكف الكاتبين ، وملاحظة الناظرين ، ومصاحف أهل الإسلام ، وألواح الصبيان حيثما رؤى ووجد ؛ فمن زعم أنه مخلوق أو عبارته أوالتلاوة غير المتلو ، أو قال لفظى بالقرآن مخلوق فهو كافر بالله العظيم ، ولا يخالط ولا يؤاكل ولاينا كح ولا يجاور ، بل يهجر ويهان ، ولايصلى خلفه ، ولا تقبل شهادته ، ولاتصح ولايته فى نكاح وليه ، ولا يصلى عليه إذا مات ، فإن ظفر به استتيب ثلاثا كالمرتد ، فإن تاب وإلا قتل . سئل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عمن قال : لفظى بالقرآن مخلوق ، فقال : كفر . وقال رحمه الله : فمن قال القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، والتلاوة مخلوقة كفر . وروى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن القرآن ، فقال كلام الله غير مخلوق . وروى عن عبد الله بن عبد الغفار ، وكان مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، عتاقة عن النبي

صلى الله عليه وسلم قال « إذا ذكر الله فقولوا كلام الله غير مخلوق ، فمن قال مخلوق فهو كافر»
وقال الله عز وجل (ألا له الخلق والأمر) ففصل بين الخلق والأمر ، فلو كان أمره الذى هو
كُنْ الذى به يَخلق الخلقَ مخلوقا له كان ذلك تكرارا وعيبا لافائدة فيه ، كأنه قال : ألا له
الخلق والخلق ، والله تعالى منزّه عن ذلك . وعن ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم أنهما
فسرا قوله عز وجل (قرآنا عربيا غير ذى عوج) أنه غير مخلوق ، وقد هدّد الله تعالى الوليد
ابن المغيرة المخزومى حين سمى القرآن قول البشر بسقر ، فقال (إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا
إلا قول البشر ، سأصليه سقر) فكل من قال القرآن عبارة أو مخلوق ، أو لفظى بالقرآن مخلوق
فله سقر ، كما قال للوليد إلا أن يتوب . وقال تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره
حتى يسمع كلام الله) ولم يقل حتى يسمع كلامك يا محمد ، وقال تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة
القدر) يعنى القرآن الذى هو فى الصدور والمصاحف ، وقال عز وجل (وإذا قرئ القرآن
فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) وقال تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث)
والناس إنما سمعوا قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم ولفظه ، فلفظه بالقرآن هو القرآن ، ومدح الله
سبحانه وتعالى الجن الذين سمعوا قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم (قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا
يهدى إلى الرشد) الآية ، وقال تعالى (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) وسمى
الله قراءة جبريل عليه السلام للقرآن قرآنا ، فقال جلّ وعلا (لا تحرّك به لسانك لتعجل به إن
علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرآناه فاتبع قرآنه) وقال تعالى (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) وأجمع
المسلمون على أن من قرأ فاتحة الكتاب فى صلاة أنه قارئ كتاب الله ، وأن من حلف أنه
لايتكلم فقرأ القرآن لم يحنث ، فدلّ على أنه ليس بعبارة وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث
معاوية بن الحكم رضى الله عنه « إن صلاتنا هذه لايصلح فيها شيء من كلام الآدميين ، إنما
هى القراءة والتسبيح والتهليل وتلاوة القرآن » فأخبر أن تلاوة القرآن هى القرآن ، فعلم بذلك أن
التلاوة هى المتلوّ ، والله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أمرا المؤمنين بالقراءة فى الصلاة ونهيا
عن الكلام ، فلو كانت قراءتنا كلامنا لا كلام الله لكنا مرتكبين للنهى فى الصلاة .

(فصل) ونعتقد أن القرآن حروف مفهومة وأصوات مسموعة ، لأن بها يصير الأخرس
والساكت متكلما ناطقا وكلام الله عز وجل لاينفك عن ذلك ، فمن جحد ذلك فقد كابر حسه
وعميت بصيرته ، قال الله عزّ وجل (الٓمٓ ذلك — حمٓ — طسمٓ تلك آيات الكتاب) فقد ذكر
حروفا وكنى عنها بالكتاب ، (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده
سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) فأثبت لنفسه كلمات متعددة غير متناهية الأعداد ، وكذلك
(قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى) وقال النبيّ صلى الله
عليه وسلم « اقرءوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه ، بكل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول
الٓمٓ حرف ولكن الألف عشر واللام عشر والميم عشر فذلك ثلاثون » وقال النبيّ صلى الله عليه
وسلم « أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف » وقال تعالى فى حقّ موسى عليه السلام (وإذ

نادى ربك موسى ـ وناديناه من جانب الطور الأيمن وقرّبناه نجيا) وقال تعالى لموسى عليه السلام (إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى) كل هذا لا يكون إلا صوتا ، ولا يجوز أن يكون هذا النداء وهذا الاسم والصفة إلا لله عزّ وجلّ دون غيره من الملائكة وسائر المخلوقات . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة يأتى الله عزّ وجلّ فى ظلل من الغمام ، فيتكلم بكلام طلق ذلق فيقول : وهو أصدق القائلين : انصتوا فطالما أنصتُّ لكم ، منذ خلقتكم أرى أعمالكم وأسمع أقوالكم ، فإنما هى صحائفكم تقرأ عليكم ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه » وروى البخارى فى صحيحه بإسناده عن عبد الله بن أنس رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله سبحانه العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان » وروى عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن الأعمش عن مسلم بن مسروق عن عبد الله رضى الله عنه قال : «إذا تكلم الله بالوحى سمع صوته أهل السماء فيخرّون سجدا حتى إذا فزّع عن قلوبهم ، قال : سكن عن قلوبهم ، نادى أهل السماء : ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق قال: كذا وكذا ، يعنى ذكر الوحى» . وعن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: إن الله تبارك وتعالى إذا تكلم بالوحى سمع أهل السموات صوتا كصوت الحديد إذا وقع على الصفا ، فيخرّون له سجدا ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق ، وهو العلىّ الكبير : قال محمد بن كعب قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : بم شبهت صوت ربك حين كلمك من هذا الخلق ؟ قال : شبهت صوت ربى بصوت الرعد حين لا يرتجع . وهذه الآيات والأخبار تدلّ على أن كلام الله صوت لا كصوت الآدميين ، كما أن علمه وقدرته وبقية صفاته لا تشبه صفات الآدميين ، كذلك صوته . وقد نصّ الإمام أحمد رحمه الله على إثبات الصوت فى رواية جماعة من الأصحاب رضوان الله عليهم أجمعين ، خلاف ما قالت الأشعرية من أن كلام الله معنى قائم بنفسه ، والله حسيب كل مبتدع ضالّ مضلّ ، فالله سبحانه لم يزل متكلما وقد أحاط كلامه بجميع معانى الأمر والنهى والاستخبار، وقال ابن خزيمة رحمه الله : كلام الله تعالى متواصل لا سكوت فيه ولا صوت . وقيل لأحمد بن حنبل رحمه الله : هل يجوز أن تقول إن الله تعالى متكلم ويجوز عليه السكوت ؟ فقال رحمه الله : نقول فى الجملة إن الله تعالى لم يزل متكلما ، ولو ورد الخبر بأنه سكت لقلنا به ، ولكنا نقول إنه متكلم كيف شاء بلا كيف ولا تشبيه .

(فصل) وكذلك حروف المعجم غير مخلوقة وسواء كان ذلك فى كلام الله تعالى أوفى كلام الآدميين ، وقد ادعى قوم من أهل السنة أنها قديمة فى القرآن الشريف محدثة فى غيره وهذا خطأ منهم بل القول السديد هو الأول من مذهب أهل السنة بلا فرق لقوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وهى حرفان ، فلو كانت كن مخلوقة لاحتاجت إلى كن أخرى تخلق بها إلى مالا نهاية له وقد تقدمت أدلة كثيرة من الآيات فلا نعيدها : وأما من السنة ف

روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لعثمان بن عفان «لما سئل عن ا ب ت ث إلى آخر الحروف فقال : الألف من اسم الله الذى هو الله ، والباء من اسم الله الذى هو البارئ ، والتاء من اسم الله الذى هو المتكبر ، والثاء من اسم الله الذى هو الباعث والوارث حتى أتى إلى آخرها ، فذكر أنها كلها من أسماء الله وصفاته » وأسماؤه عزّ وجلّ غير مخلوقة . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث علىّ كرّم الله وجهه لما سأله عن معنى أبجد هوز حطى إلى آخرها « ياعلىّ ألا تعرف تفسير أبى جاد ؟ الألف من اسم الله عز وجل الذى هو الله ، والباء من اسم الله الذى هو البارئ ، والجيم من اسم الله الذى هو الجليل » إلى آخرها ، فذكر النبى صلى الله عليه وسلم أنها من أسماء الله وهى فى كلام الآدميين . وقد نصّ أحمد بن حنبل رحمه الله على قدم حروف الهجاء فقال فى رسالته إلى أهل نيسابور وجرجان : ومن قال إن حروف التهجى محدثة فهو كافر بالله ، ومتى حكم أن ذلك مخلوق فقد جعل القرآن مخلوقا ، ولما قيل له رحمه الله إن فلانا يقول : إن الله تعالى لما خلق الحروف انضجعت اللام وانتصبت الألف فقالت لاأسجد حتى أومر ، فقال أحمد هذا كفر من قائله . وقال الشافعى رحمه الله . لا تقولوا بحدوث الحروف فإن اليهود أوّل ماهلكت بهذا . ومن قال بحدوث حرف من الحروف فقد قال بحدوث القرآن ، ولأنه لايخلو إما أن يقال هى قديمة فى القرآن فوجب أن تكون قديمة فى غيره ، لأنه لايجوز أن يكون الشيء الواحد قديما وهو بعينه محدث ، فإن قال هى محدثة فى القرآن فقد تقدمت الأدلة على قدمها فى القرآن ، فإذا ثبت ذلك فى القرآن فكذلك فى غيره ، فإن قالوا فهذا يفضى إلى جميع الكلام أن يكون قديما ، قيل يلزم القرآن لما لم يقل ذلك فيه ، كذلك فى حروف الهجاء .

(فصل) ونعتقد أن الله عزّ وجلّ له تسعة وتسعون اسما ، من أحصاها دخل الجنة ، وذلك مرويّ عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، مئة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة » وجميعها فى سور متفرّقة . منها خمسة أسماء فى الفاتحة وهى : ياالله يارب ، يارحيم ، يا رحمن ، يامالك . وفى سورة البقرة ستة وعشرون اسما : يامحيط ، ياقدير ، ياعليم ، ياحليم ، ياتوّاب ، يابصير ، يا واسع ، يابديع ، يارءوف ، ياشاكر ، يا ألله ، ياواحد ، ياغفور ، ياحكيم ، ياقابض ، ياباسط ، لاإله إلا هو ، ياحيّ ، ياقيوم ، ياعلىّ ، ياعظيم ، ياولىّ ، ياغنىّ ، ياحميد . وفى آل عمران أربعة أسماء : يا قائم ، ياوهاب ، ياسريع ، ياخبير . وفى سورة النساء ستة أسماء : يارقيب ، ياحسيب ، ياشهيد ، ياغفور ، يامقيت ، ياوكيل . وفى الأنعام خمسة أسماء : يافاطر ، ياقاهر ، ياقادر ، يالطيف ، ياخبير . وفى الأعراف اسمان : يامحيى ، يامميت . وفى الأنفال اسمان : يانعم المولى ، ويانعم النصير . وفى هود سبعة أسماء : ياحفيظ ، يارقيب ، يامجيد ، ياقوىّ ، يامجيب ، ياودود ، يافعال . وفى الرعد اسمان : يا كبير ، يا متعال . وفى إبراهيم اسم واحد : وهو يامنان . وفى الحجر اسم واحد وهو : ياخلاق . وفى النحل اسم : يا باعث . وفى مريم اسمان : ياصادق ،

ياوارث . وفى المؤمنين اسم : يا كريم : وفى النور ثلاثة أسماء : ياحق ، يامتين ، يانور . وفى الفرقان : ياهادى . وفى سبأ : يافتاح . وفى المؤمن أربعة أسماء : ياغافر ، ياقابل ، ياشديد ، ياذا الطول . وفى الذاريات ثلاثة أسماء : يارزاق ، ياذا القوة ، يامتين . وفى الطور : يامنان . وفى اقتربت الساعة : يامقتدر . وفى الرحمن : يا باقى ، ياذا الجلال ياذا الإكرام . وفى الحديد أربعة : يا أول ، يا آخر ، ياظاهر ، ياباطن . وفى الحشر عشرة أسماء : ياقدوس ، ياسلام ، يامؤمن ، يامهيمن ، ياعزيز ، ياجبار ، يامتكبر ، ياخالق ، ياباري ، يامصور . وفى البروج : يا مبدئ يا معيد . وفى قل هو الله أحد : يا أحد ، ياصمد . هكذا ذكر سفيان بن عيينة . وذكر عبد الله بن أحمد أسماء زوائد على هذه وهى : ياقاهر ، يافاصل ، يافالق ، يارقيب ، ياماجد ، ياجواد ، يا أحكم الحاكمين . وذكر أبو بكر النقاش فى كتاب تفسير الأسماء والصفات ، عن جعفر بن محمدا يعنى الصادق رحمه الله ، أنه قال : إن لله ثلاث مئة وستين اسما . وروى أيضا عن غيره مئة وأربعة عشر اسما . وكل ذلك محمول على أنهم وجدوا فى القرآن أسماء مكررة فعدوها اسما . والصحيح ماذكر عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

(فصل) ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ، ومعرفة بالجنان ، وعمل بالأركان ، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان ، ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل ، وبالتوفيق يقع ، كما قال الله عز وجل (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون) وما جاز عليه الزيادة جاز عليه النقصان وقال الله تعالى (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) وقوله عز وجل (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا) . وما روى عن ابن عباس وأبى هريرة وأبى الدرداء رضى الله عنهم أنهم قالوا : الإيمان يزيد وينقص ، وغير ذلك مما يطول شرحه . وقد أنكرت الأشعرية زيادة الإيمان ونقصانه . وهو فى اللغة : تصديق القلب ، المتضمن للعلم بالمصدق به . وهو فى الشريعة : التصديق ، وهو العلم بالله وصفاته مع جميع الطاعات الواجبات منها والنوافل واجتناب الزلات والمعاصى . ويجوز أن يقال : الإيمان هو الدين والشريعة والملة ، لأن الدين هو ما يدان به من الطاعات مع اجتناب المحظورات والمحرمات ، وذلك هو صفة الإيمان . وأما الإسلام فهو من جملة الإيمان ، وكل إيمان إسلام ، وليس كل إسلام إيمانا ، لأن الإسلام هو بمعنى الاستسلام والانقياد ، وكل مؤمن مستسلم منقاد لله تعالى ، وليس كل مسلم مؤمنا بالله ، لأنه قد يسلم مخافة السيف ، فالإيمان اسم يتناول مسميات كثيرة ، أفعالا وأقوالا ، فيعم جميع الطاعات . والإسلام عبارة عن الشهادتين مع طمأنينة القلب والعبادات الخمس . وقد أطلق الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أن الإيمان غير الإسلام ، فذهب إلى الحديث المروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « بينما أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، ثم قال : يا محمد أخبرنى عن

الإسلام ، فقال صلى الله عليه وسلم : أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال : صدقت ، قال : فتعجبنا منه يسأله ويصدّقه ، ثم قال : أخبرنى عن الإيمان ، قال صلى الله عليه وسلم : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشرّه ، قال : صدقت ؛ قال : فأخبرنى عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه ، فانه يراك ؛ قال : فأخبرنى عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ؟ قال : فأخبرنى عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ؛ قال عمر رضى الله عنه : فلبثت هنيهة ، ثم قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تدرى من السائل ؟ قال : قلت الله ورسوله أعلم ، قال صلى الله عليه وسلم : فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » ، وفى لفظ آخر قال : « ذلك جبريل أتاكم ليعلمكم أمر دينكم ، وما أتانى قطّ فى صورة إلا عرفته ، إلا فى صورته هذه » ، فقد فرق جبريل عليه السلام بين الإسلام والإيمان بسؤالين ، فأجاب النبىّ صلى الله عليه وسلم بجوابين مختلفين ، فذهب الإمام أحمد رضى الله عنه إلى حديث الأعرابى حيث قال « يا رسول الله أعطيت فلانا ومنعتنى ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : ذلك مؤمن ، فقال الأعرابى : وأنا مؤمن ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : أو مسلم أنت ؟ » ، وذهب أيضا إلى قول الله تعالى (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) .

واعلم أن زيادة الإيمان إنما تكون بعد التحقق بأداء الأوامر ، وانتهاء النواهى بالتسليم فى القدر وترك الاعتراض على الله عزّ وجلّ فى فعله فى جميع خلقه ، وترك الشكّ فى وعده فى الأقسام والرزق ، وفى الثقة والتوكل عليه ، والخروج من الحول والقوّة والصبر على البلاء والشكر على النعماء ، والتنزيه للحقّ ، وترك التهمة له فى سائر الأحوال ، وأما بمجرّد الصلاة والصيام فلا . وسئل الإمام أحمد رحمه الله عن الإيمان أمخلوق هو ، أم غير مخلوق ؟ فقال : من قال إن الإيمان مخلوق فقد كفر ، لأن فى ذلك إيهاما وتعريضا بالقرآن ؛ ومن قال غير مخلوق فقد ابتدع ، لأن فى ذلك إيهام أن إماطة الأذى عن الطريق ، وأفعال الأركان غير مخلوقة ، فقد أنكر على الطائفتين وذكر فى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال «الإيمان بضع وسبعون خصلة ، أفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق وإنما كفر القائل بخلق القرآن ، وبدع الآخر لأن مذهبه رحمه الله مبنىّ على أن القرآن إذا لم ينطق بشىء ولم يرو فى السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء ، فانقرض عصر الصحابة ، ولم ينقل أحد منهم قولا ، فالكلام فيه بدعة وحدث ، ولا يجوز للمؤمن أن يقول : أنا مؤمن حقا ، بل يجب أن يقول : أنا مؤمن إن شاء الله ، خلاف ماقالت المعتزلة إنه يجوز أن يقول أنا مؤمن حقا . وإنما قلنا ذلك لما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : من زعم أنه مومن فهو كافر . وعن الحسن رضى الله عنه أن رجلا قال عند عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إنى مؤمن ، فقيل لابن مسعود :

إن هذا يزعم أنه مؤمن ، قال : فاسألوه أفي الجنة هو أم هو في النار ؟ فسألوه ، فقال : الله أعلم ، فقال عبد الله : فهلا وكلت الأخرى كما وكلت الأولى ، ولأن المؤمن حقا من هو عند الله تعالى مؤمن ، وهو الذى يكون من أهل الجنة ، ولا يكون كذلك إلا بعد موافاته بالإيمان ، ويختم له بذلك ، ولا يعلم أحد بما يختم له ، فينبغى أن يكون خائفا راجيا مصلحا حذرا مترقبا حتى يأتيه الموت وهو على خير عمل ، وإن الناس يموتون على ماعاشوا عليه ، ويحشرون على ما ماتوا عليه ، كما جاء فى الحديث ، قال عليه الصلاة والسلام «كما تعيشون تموتون ، وكما تموتون تبعثون». ونعتقد أن أفعال العباد خلق الله ، وكسب لهم خيرها وشرّها ، حسنها وقبيحها ، ماكان منها طاعة ومعصية ، لاعلى معنى أنه أمر بالمعصية ، لكن قضى بها وقدّرها ، وجعلها على حسب قصده ، وأنه قسم الأرزاق وقدرها ، فلا يصدّها صادّ ولا يمنعها مانع ، لا زائدها ينقص ولا ناقصها يزيد ، ولا ناعمها يخشن ولا خشنها ينعم ، ورزق غد لايؤكل اليوم ، وقسم زيد لاينقل إلى عمرو ، وأنه تعالى يرزق الحرام كما يرزق الحلال ، على معنى أنه يجعله غذاء للأبدان وقواما للأجساد ، لاعلى معنى أنه أباحه الحرام ، وكذلك القاتل لم يقطع أجل المقتول المقدر له ، بل يموت بأجله . وكذلك الغريق ومن هدم عليه الحائط وألقى من شاهق ، ومن أكله سبع ، وكذلك هداية المسلمين والمؤمنين ، وضلالة الكافرين إليه عزّ وجلّ ، جميع ذلك فعل له وصنعه ، لاشريك له فى ملكه . وإنما أثبتنا للعباد كسبا لموضع توجه الأمر والنهى والخطاب إليهم ، ثم استحقاق الثواب والعقاب لديهم ، كما وعد وضمن ، قال الله تعالى (جزاء بما كانوا يعملون) وقال عزّ وجلّ (بما صبرتم) وقال جلّ وعلا (ما سلككم فى سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين) وقال تبارك وتعالى (هذه النار التى كنتم بها تكذّبون) وقال تعالى (ذلك بما قدّمت يداك) وغير ذلك من الآيات ، فعلق سبحانه الجزاء على أفعالهم ، فاثبت لهم كسبا خلاف ماقالت الجهمية من أنه لاكسب للعباد ، وأنهم كالباب يردّ ويفتح ، والشجرة تحرّك وتهزّ ، وهم الجاحدون للحقّ ، الرادّون للكتاب والسنة . والدليل على أن ذلك خلق الله عزّ وجلّ وكسب للعباد خلافا للقدرية فى قولهم : إن جميع ذلك خلق للعباد دون الله عزّ وجلّ ، تبا لهم وهم مجوس هذه الأمة ، جعلوا لله شركاء ، ونسبوه إلى العجز ، وأن يجرى فى ملكه ما لايدخل فى قدرته وإرادته ، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا ، قوله عزّ وجلّ (والله خلقكم وما تعملون) وكما قال تعالى (جزاءا بما كنتم تعملون) فلما كان الجزاء واقعا على أعمالهم كان الخلق واقعا على أعمالهم ، ولا جائز أن يقال المراد بذلك ما يعملونه من الحجارة من الأصنام ، لأن الحجارة أجسام ، والعباد لايعملونها ، وإنما الأعمال التى يقع فيها ما يعملها العباد فوجب أن يرجع الخلق إلى أعمالهم من الحركات والسكنات. وقال تعالى (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) . والمعنى : للخلاف خلقهم ، وقال تعالى (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شىء) وقال جلّ وعلا (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟) وقال تعالى إخبارا عن المشركين (إن تصبهم

حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كلٌ من عند الله فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا ؟) وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث حذيفة رضى الله عنه « إن الله تعالى خلق كل صانع وصنعته ، حتى خلق الجزار وجزوره » وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله قال : أنا خلقت الخير والشرّ ، فطوبى لمن قدرت على يديه الخير ، وويل لمن قدرت على يديه الشرّ » وسئل الإمام أحمد رضى الله عنه عن أعمال العباد التى يستوجبون بها من الله السخط والرضا ، أشىء من الله أم شىء من العباد ، فقال : هى لله خلقا ومن العباد عملا ، ونعتقد أن المؤمن وإن أذنب ذنوبا كثيرة من الكبائر والصغائر لايكفر بها ، وإن خرج من الدنيا بغير توبة إذا مات على التوحيد والإخلاص ، بل يردّ أمره إلى الله عزّ وجلّ ، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة ، وإن شاء عذّبه وأدخله النار ، فلا ندخل بين الله تعالى وبين خلقه ، ما لم يخبرنا الله بمصيره .

(فصل) ونعتقد أن من أدخله الله النار بكبيرته مع الإيمان ، فانه لايخلد فيها ، بل يخرجه منها ، لأن النار فى حقه كالسجن فى الدنيا ، يستوفى منه بقدر كبيرته وجريمته ، ثم يخرج برحمة الله تعالى ولا يخلد فيها ، ولا تلفح وجهه النار ، ولا تحرق أعضاء السجود منه ، لأن ذلك محرّم على النار ، ولا ينقطع طمعه من الله عزّ وجلّ فى كل حال ما دام فى النار حتى يخرج منها فيدخل الجنة ، ويعطى من الدرجات على قدر طاعته التى كانت له فى الدنيا ، خلاف ماقالته القدرية أن الكبيرة تحبط الطاعات ، فلا يثاب عليها ، وكذلك قول الخوارج تبًّا لهم .

(فصل) وينبغى أن يؤمن بخير القدر وشرّه ، وحلو القضاء ومرّه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه بالحذر ، وما أخطأه من الأسباب لم يكن ليصيبه بالطلب . وأن جميع ما كان فى سالف الدهور والأزمان ، وما يكون إلى يوم البعث والنشور بقضاء الله وقدره المقدور ، وأنه لامحيص لمخلوق من القدر المقدور ، الذى خطّ فى اللوح المسطور ، وأن الخلائق لو جهدوا أن ينفعوا المرء بما لم يقضه الله تعالى لم يقدروا عليه ، ولو جهدوا أن يضرّوه بما لم يقضه الله لم يستطيعوا ، كما ورد فى خبر ابن عباس رضى الله عنهما ، وقال تعالى (وإن يمسسك الله بضرّ فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده) وروى عن زيد بن وهب ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الصادق المصدوق « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة » ، وفى لفظ « أربعين ليلة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات خلقه ورزقه وعمله ، وشقىّ أم سعيد ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى لايكون بينه وبينها إلا باع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لايكون بينه وبينها إلا باع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخلها » وعن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة ، وإنه لمكتوب فى الكتاب إنه

من أهل النار ، فاذا كان عند موته تحوّل فيعمل عمل أهل النار ، فمات فدخل النار ؛ وإنّ الرجل ليعمل بعمل أهل النار ، وإنه لمكتوب فى الكتاب أنه من أهل الجنة ، فاذا كان قبل موته عمل بعمل أهل الجنة، فمات فدخل الجنة » وعن عبد الرحمن السلمى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ينكت فى الأرض ، إذ رفع رأسه فقال : مامن أحد إلا وقد علم مقعده فى النار ، أو مقعده فى الجنة ، فقالوا : أفلا نتكل ؟ قال صلى الله عليه وسلم : اعملوا فكلّ ميسر لما خلق له » . وعن سالم بن عبد الله عن أبيه رضى الله عنه قال : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « يا رسول الله ، أرأيت مانعمل فيه ، أشىء قد فرغ منه ، أو شىء مبتدع أو مبتدأ ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فرغ منه ، قال : أفلا نتكل ؟ قال عليه الصلاة والسلام : اعمل ياابن الخطاب ، فكل ميسر لما خلق له ، فمن كان من أهل السعادة فيعمل للسعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة ، فيعمل للشقاوة » .

(فصل) ونؤمن بأن النبىّ صلى الله عليه وسلم رأى ربه عزّ وجلّ ليلة الإسراء بعينى رأسه لابفؤاده ولافى المنام ، لما روى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فى قوله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى) رأيت ربى جلّ اسمه مشافهة لاشكّ فيه . وفى قوله تعالى (عند سدرة المنتهى) قال : رأيته عند سدرة المنتهى حتى تبين لى نور وجهه » قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) هى رؤيا عين أريها النبىّ صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء به . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : كانت الخلة لإبراهيم عليه السلام ، والكلام لموسى عليه السلام ، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه بعينيه مرتين . ولا يعارض هذا ما روى عن عائشة رضى الله عنها من إنكار ذلك ، لأنه نفى ، وهذا البيان إثبات ، فقدم عند الاجتماع ، لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم أثبت لنفسه الرؤية . وقال أبو بكر ابن سليمان : رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه إحدى عشرة مرّة ، منها بالسنة تسع مرات فى ليلة المعراج حين كان يتردّد بين موسى عليه السلام وربه عزّ وجلّ ، يسأله أن يخفف عن أمته الصلاة ، فنقص خمسا وأربعين صلاة فى تسع مقامات ، ومرّتين بالكتاب ، ونؤمن بأنّ منكرا ونكيرا إلى كل أحد ينزلان سوى النبيين ، فيسألانه ويمتحنانه عما يعتقده من الأديان ، وهما يأتيان القبر ، فيرسل فى ذلك الميت الروح ، ثم يقعد ، فاذا سئل سئلت روحه بلا ألم ، ونؤمن بأن الميت يعرف من يزوره إذا أتاه وآكده يوم الجمعة بعد طلوع الفجر قبل طلوع الشمس ، والإيمان بعذاب القبر وضغطته واجب لأهل المعاصى والكفر ، وكذلك النعيم فيه لأهل الطاعة والإيمان بخلاف ماقالت المعتزلة من إنكارهم ذلك، وإنكارهم مسألة منكر ونكير . ودليل أهل السنة على إثبات ذلك قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) قيل فى التفسير : فى الحياة الدنيا عند خروج الروح ، وفى الآخرة عند

ديدار الٰہی

سوالِ قبر

مسألة نكير ومنكر وما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا قبر أحدكم أو الإنسان ، أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما النكير ، وللآخر المنكر ، فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ يعنى محمدا رسول الله ، فهو قائل ما كان يقول ، فان كان مؤمنا قال لهما : عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، فيقولان : إنا كنا لنعلم أنك تقول مثل ذلك ، ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا فى سبعين ذراعا ، وينوّر له فى قبره ، ثم يقال : نم ، فيقول : دعونى أرجع إلى أهلى فأخبرهم ، فيقال : نم كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحبّ أهله حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وإن كان منافقا قال : لاأدرى كنت أسمع الناس يقولون شيئا وكنت أقوله ، فيقولان : إنا كنا لنعلم أنك تقول ذلك ، ثم يقال للأرض التئمى عليه ، فتلتئم حتى تختلف فيها أضلاعه ، فلا يزال فيها معذّبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » . وتعلقوا أيضا بما روى عطاء بن يسار رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه « يا عمر كيف أنت إذا اتخذ لك من الأرض ثلاثة أذرع وشبر فى عرض ذراع وشبر ، ثم مال إليك أهلك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ، ثم حملوك حتى يغيبوك فيه ، ثم يهيلوا عليك التراب ، ثم انصرفوا عنك ، وأتاك سائلا القبر منكر ونكير ، أصواتهما مثل الرعد القاصف ، وأبصارهما مثل البرق الخاطف ، قد سدلا شعورهما ، وتلتلاك وتوهلاك ، وقالا : من ربك ، وما دينك ؟ قال : يانبىّ الله يكون معى قلبى الذى هو معى اليوم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم ، قال : إذن أكفيهما » وهذا دليل ونصّ على أن ذلك بعد إعادة الروح ، لأن عمر رضى الله عنه قال : ومعى قلبى ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم نعم . وعن المنهال بن عمرو عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قالا « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار ، وانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس النبىّ صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله ، فكأنّ على رؤوسنا الطير من هيبته ، وفى يده عود ينكت به الأرض ، فرفع رأسه وقال : أستعيذ بالله من عذاب القبر ، مرتين أو ثلاثا ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : إن العبد المؤمن إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا ، نزلت عليه ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، ومعهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة ، فيجلسون منه مدّ البصر ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس المطمئنة الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوانه ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من الإناء ، فيأخذونها ولا يدعونها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها . فيجعلوها فى ذلك الكفن والحنوط ، فيخرج منها نفحة أطيب من ريح المسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الريح الطيبة ؟ فيقولون هذا فلان ابن فلان بأحسن أسمائه ، ثم ينتهون بها إلى سماء الدنيا فيستفتحون لها فيفتح لهم ، فيستقبلوها ويشيعوها من كل سماء إلى السماء التى تليها حتى ينتهوا إلى السماء السابعة ، فيقول الله عزّ وجلّ : اكتبوا

كتابه فى عليين ، واعيدوه إلى الأرض (منها خلقناهم وفيها نعيدهم ومنها نخرجهم تارة أخرى) فيعاد الروح إلى جسده ، ويأتيه ملكان فيقولان له : من ربك وما دينك ؟ فيقول : ربى الله ودينى الإسلام ، فيقولان له : ماتقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاءنا بالحق ، فيقولان له : ما علمك بذلك ؟ فيقول : قرأت القرآن كتاب الله تعالى ، وآمنت به وصدقته ؛ فينادى مناد من السماء : صدق عبدى ، فافرشوا له من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة ، فيأتيه ريحها وطيبها ويفسح له فى قبره مدّ بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح فيقول له : أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : من أنت ؟ يقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : ربّ أقم الساعة ، قال صلى الله عليه وسلم : وإن العبد الكافر إذا كان فى إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة ، أنزل الله عليه ملائكة سود الوجوه معهم المسوح ، فيجلسون منه مدّ البصر ، ثم يجىء ملك الموت يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط الله وغضبه ، فتتفرّق فى أعضائه كلها ، فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول ، فتنقطع منه العروق والعصب فيأخذونها فيجعلونها فى تلك المسوح ، وتخرج منها ريح أنتن من جيفة ، فيصعدون بها فلا يمرّون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا : ماهذه الريح الخبيثة ؟ فيقولون : هذا فلان ابن فلان بأقبح أسمائه حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون فلا يفتح لهم ؛ ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (لاتفتح لهم أبواب السماء) فيقول الله سبحانه : اكتبوا كتابه فى سجين ثم تطرح روحه طرحا ، ؛ ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أوتهوى به الريح فى مكان سحيق) يعنى تردّ فتعاد إليه روحه فى جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى ، فيقولان له : ما دينك : فيقول : هاه هاه لا أدرى ، فيقولون له : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول ؟ هاه هاه لا أدرى ، فينادى المنادى : كذب عبدى ، فافرشوا له فرشا من النار وألبسوه من النار وافتحوا له بابا من النار ، فيدخل عليه من حرّها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الثياب قبيح الوجه نتن الريح فيقول : أبشر بالذى يسوءك ، هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك السوء ، فيقول : ربّ لاتقم الساعة » . وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : إن المؤمن إذا وضع فى قبره يوسع عليه فى قبره سبعون ذراعا عرضه وسبعون ذراعا طوله ، وتنثر عليه الرياحين ، ويستتر بالحرير من الجنة ، فإن كان معه شىء من القرآن كفاه نوره ، فإن لم يكن معه شىء من القرآن جعل له نور مثل نور الشمس فى قبره ، ويكون مثله كمثل العروس تنام ولايوقظها إلا أحبّ أهلها ، فتقوم من النوم كأنها لم تشبع منه . وإن الكافر إذا وضع فى قبره يضيق عليه حتى تدخل أضلاعه فى جوفه ، وترسل عليه حيات كأمثال البخت ، فيأكلن لحمه حتى لايذرن على عظمه لحما ، ويرسل عليه شياطين صمّ بكم عمى ، ويقال : وهو الشيطان الرجيم ، ومعهم فطاطيس من

حديد ، فيضربونه بها حتّى لايسمعون صوته ، ولاينظرون فلا يرحمونه ، وتعرض عليه النار بكرة وعشيا » .

فهذه الأخبار دالة على إثبات عذاب القبر ونعيمه ، فإن اعترضوا عليه فقالوا : كيف القول فى المصلوب والمحترق والغريق ومن أكلته السباع فتفرّقت بلحمه والطير معها فحصل أجزاء متعددة ؟ فيقال لهم : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكر عذاب القبر والمسألة على ما هو معهود وعادة فى الخلق أنهم يدفنون فى القبور ، وإن وجد ميت على هذه الصفة البعيدة النادرة لايمتنع أن يقال : إن الله يصير روحه إلى الأرض ، ثم يضغط ويسئل ويعذّب أوينعم ، كما أن أرواح الكفار تعذّب كلّ يوم مرّتين ، غدوة وعشية ، حتى تقوم الساعة ، ثم تدخل النار مع الأجساد حينئذ ، كما قال الله تعالى (النار يعرضون عليها غدوّا وعشيا — ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب) ، وأن أرواح الشهداء والمؤمنين فى حواصل طيور خضر ، تسرح فى الجنة ، وتأوى إلى قناديل من نور تحت العرش ، ثم تأتى الأجساد عند النفخة الثانية إلى الأرض ، للعرض والحساب يوم القيامة ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر تسرح فى الجنة ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظلّ العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم وشرابهم ومقيلهم ، قالوا : من يبلغ إخواننا أنا أحياء فى الجنة ترزق ، فلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ؟ فقال الله عزّ وجلّ وهو أصدق القائلين : أنا أبلغهم ، فأنزل الله (ولا تحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله) فيجوز أن تقع المسألة والعذاب والنعيم ببعض جسد المؤمن والكافر دون بقية أجزائه ، ويكون ما فعل بالبعض فعل بالكلّ ، وقد قيل : إن الله يجمع تلك الأجزاء المتفرّقة للضغطة والمسألة كما يفعل ذلك للحشر والمحاسبة . ثم الإيمان بالبعث من القبور والنشر عنها واجب ، كما قال الله عزّ وجلّ (وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) وكما قال الله عزوجل (كما بدأكم تعودون) وقال جل وعلا (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) يحشرهم ويجمعهم جميعا جلّ وعلا لتجزى كل نفس بما تسعى ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ؛ وقال جلّ جلاله (الذى خلقكم ثم يميتكم ثم يحييكم) . والذى قدر على إنشاء الخلق قادر على إعادتهم ، فقد أنكرت المعطلة ذلك تبا لهم ، والإيمان بأن الله يقبل شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم فى أهل الكبائر والأوزار واجب قبل دخول النار عاما للحساب لجميع أمم المؤمنين ، وبعد دخولها لأمته خاصة ، فيخرجون منها بشفاعته صلى الله عليه وسلم وغيره من المؤمنين حتى لايبقى فى النار من كان فى قلبه مثقال ذرّة من الإيمان ومن قال : لا إله إلا الله مرّة واحدة فى عمره مخلصا لله عزّ وجلّ خلاف ما زعمت القدرية من إنكار ذلك ، وفى كتاب الله تكذيبهم قال الله عزّ وجلّ (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) وقوله عز وجل (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) وقال الله جل جلاله (فما تنفعهم شفاعة

الشافعين) . فقد أثبت الله تعالى فى الآخرة شفاعة وكذلك فى السنة ، وهو ماروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال «إن أوّل ماتنشق الأرض عنه يوم القيامة أنا ولافخر أنا سيد ولد آدم ولافخر ، وأنا صاحب لواء الحمد ولافخر ، وأنا أول من يدخل الجنة ولافخر ، وأنا آخذ بحلقة باب الجنة ، فيؤذن لى فيستقبلنى وجه الجبار فأخرّ له ساجدا ، فيقول تعالى : يا محمد ارفع رأسك واشفع تشفع وسل تعط ، فأرفع رأسى فأقول : يارب أمتى أمتى ، فلا أزال أرجع إلى ربى فيقول : اذهب فانظر ، فمن وجدت فى قلبه مثقال حبة من الإيمان فأخرجه من النار ، قال صلى الله عليه وسلم : فأخرج من أمتى أمثال الجبال ، ثم يقول لى النبيون : ارجع إلى ربك فاسأله ، فأقول : قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه » وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل نبىّ دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبىّ دعوته ، وأنا اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة ، فهى نائلة إن شاء الله تعالى من أمتى لمن مات لايشرك بالله شيئا » وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث أنس الأنصارى رضى الله عنه « إنى لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر » . وله صلى الله عليه وسلم شفاعة فى القيامة عند الميزان وعند الصراط ، وكذلك مامن نبىّ إلا وله شفاعة . وعن حذيفة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « يقول إبراهيم عليه السلام يوم القيامة : ياربّاه فيقول الله عزّ وجلّ : يالبيكاه ، فيقول : يارب أحرقت بنى آدم ، فيقول جلّ وعلا : أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال برّة أو شعير من الإيمان » وكذلك للصديقين والصالحين من كل أمة شفاعة ، قال صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه « لكل نبىّ عطية ، وإنى اختبأت عطيتى شفاعة لأمتى ، وإن الرجل من أمتى يشفع للقبيلة فيدخلهم الله تعالى الجنة بشفاعته وإن الرجل يشفع لفئام من الناس فيدخلهم الله الجنة بشفاعته ، وإن الرجل يشفع لثلاثة نفر ، وإن الرجل يشفع للاثنين ، وإن الرجل يشفع للرجل » قال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن مسعود رضى الله عنه « ليدخل الجنة قوم من المسلمين قد عذّبوا بالنار برحمة الله تعالى وشفاعة الشافعين » وأيضا فى حديث أويس القرنى رحمه الله ورضى عنه المعروف « ولله تفضل وتكرم ورحمة ومنة على من يشاء من أهل النار فى خروجهم منها بعد ما احترقوا وصاروا فحما » وعن الحسن عن أنس رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما زلت أشفع إلى ربى فيشفعنى حتى أقول : يارب شفعنى فيمن قال لا إله إلا الله ، فيقول جلّ وعلا : هذه ليست لك يا محمد ولا لأحد هذه لى وعزّتى وجلالى ورحمتى لا أدع فى النار أحدا قال : لا إله إلا الله » .

والإيمان بالصراط على جهنم واجب وهو جسر ممدود على متن جهنم يأخذ من يشاء الله إلى النار ويجوز من يشاء ويسقط فى جهنم من يشاء ، ولهم فى تلك الأحوال نور بحسب أعمالهم ، فهم بين ماش وساع وراكب وزحف وسحب ، وقد وصفه النبىّ صلى الله عليه وسلم بأنه

ذو كلاليب فى خبر فيه طول إلى أن قال صلى الله عليه وسلم « ذو كلاليب مثل شوك السعدان ، هل تعرفون شوك السعدان ؟ قالوا : نعم يارسول الله قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى ، فتخطف الناس ، فمنهم موبق بعمله ومنهم المخردل » والمخردل : المرمى المصروع ، ومنهم من يخردل ثم ينجو . وقيل ذلك للقطع أيضا ؛ وقال صلى الله عليه وسلم ، « استجيدوا ضحاياكم فانها مطاياكم على الصراط » وجاء فى وصف الصراط عنه صلى الله عليه وسلم أنه أدقّ من الشعرة وأحرّ من الجمرة وأحدّ من السيف ، طوله ثلاثمائة سنة من سنى الآخرة ، يجوزه الأبرار وتزل عنه الفجار . وقيل ثلاثة آلاف سنة من سنى الآخرة .

وأهل السنة يعتقدون أن لنبيا صلى الله عليه وسلم حوضا فى القيامة يسقى منه المؤمنين دون الكافرين ، ويكون ذلك بعد جواز الصراط قبل دخول الجنة ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ، عرضه مسيرة شهر ، ماؤه أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، حوله أباريق على عدد نجوم السماء ، فيه ميزابان يصبان من الكوثر ، أصله فى الجنة وفرعه فى الموقف وقد ذكره النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حديث ثوبان رضى الله عنه « أنا عند حوضى يوم القيامة » فسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن سعة الحوض ، فقال صلى الله عليه وسلم « ما بين مقامى هذا إلى عمان ، شرابه أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، فيه ميزابان من الجنة أحدهما من ورق والآخر من ذهب ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا » وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما « موعدكم حوضى عرضه مثل طوله ، وهو أبعد ما بين إيلياء إلى مكة ، وذلك مسيرة شهر ، فيه أباريق أمثال الكواكب ، ماؤه أشدّ بياضا من الفضة ، من ورده فشرب منه لم يظمأ بعدها أبدا ، وكذلك لكلّ نبىّ من الأنبياء حوض إلا صالحا النبىّ ، فإن حوضه ضرع ناقته يسقى من ذلك مؤمنو كل أمة منهم دون الكافرين » وفى حديث آخر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « حوضى ما بين عدن وعمان ، حافتاه خيام الدرّ المجوف وآنيته عدد نجوم السماء طينه المسك الأذفر وماؤه أبيض من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من العسل ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ، فيذاد عنى يوم القيامة رجال كما تذاد الغريبة من الإبل فأقول : ألا هلم ألاهلم ، فيقال : إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك ، فأقول : ما أحدثوا ؟ فيقال : إنهم غيروا وبدلوا ، فأقول ألا سحقا وبعدا » وقد أنكرت ذلك المعتزلة فلا يسقون منه ويدخلون النار وردا عطشا إن لم يتوبوا عن مقالتهم وجحودهم الحقّ وردّ الآيات والأخبار والآثار . وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من كذّب بالشفاعة لم يكن له فيها نصيب ومن كذّب بالحوض لم يكن له فيه نصيب »

وأهل السنة يعتقدون أن الله يجلس رسوله ونبيه المختار على سائر أنبيائه ورسله معه على العرش يوم القيامة ، لما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله عزّ وجلّ (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) قال : يجلسه معه على السرير وعن هشام بن عروة عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن المقام المحمود ، فقال صلى الله عليه وسلم : وعدنى ربى القعود على العرش » وكذلك عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وعن عبدالله بن سلام رضى الله عنه قال : «إذا كان يوم القيامة جيء بنبيكم ، فأقعد بين يدى الله على كرسيه ، فقيل له : يا أبا مسعود إذا كان على كرسى الحق أليس هو معه قال : ويلكم هذا أقرّ حديث فى الدنيا لعينى ، فقال الحجاج فى حديثه : إذا كان يوم القيامة نزل الجبار على عرشه وقدماه على الكرسى ويؤتى بنبيكم صلى الله عليه وسلم فيقعد بين يديه على الكرسى ، فقالوا للحميدى : إذا كان على الكرسى فهو معه ، قال : نعم ، ويلكم هو معه . ويعتقد أهل السنة أن الله تعالى يحاسب عبده المؤمن يوم القيامة ويدنيه منه ، فيضع كنفه عليه حتى يستره من الناس ، لما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول« يؤتى بالمؤمن يوم القيامة فيدنيه الله تعالى منه فيضع كنفه عليه حتى يستره من الناس ، فيقول : عبدى أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ؟ مرتين ، فيقول : نعم ربّ حتى إذا قرّره بذنوبه كلها فرأى نفسه أنه قد هلك، فيقول له الحقّ عزّ وجل : عبدى ذنوبك هذه فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ومعنى المحاسبة : تعريف الله عبده بمقادير ثواب الأعمال وعذابه بقراءة سيآته أوحسناته وماله وما عليه ، وقد أنكرت المعطلة المحاسبة ، وقد كذّبهم الله تعالى بقوله (إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم) ويعتقد أهل السنة أن لله تعالى ميزانا يزن فيه الحسنات والسيئآت يوم القيامة له كفتان ولسان ، وقد أنكرت المعتزلة مع المرجئة والخوارج ذلك فقالت : إن معنى الميزان : العدل دون موازنة الأعمال ، وفى كتاب الله وسنة رسوله تكذيبهم ، قال الله تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وقال تعالى (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) الآية والعدل لايوصف بالخفة والثقل ، وإنما هو بيد الرحمن جل جلاله ،لأنه هو الذى يتولى حسابهم ، لما روى النوّاس بن سمعان الكلابى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الميزان بيد الرحمن عزّ وجلّ ، يرفع أقواما ويضع آخرين يوم القيامة » . وقيل إنه بيد جبرائيل عليه السلام ، لما روى عن حذيفة بن اليمانى رضى الله عنهما قال : إن جبرائيل عليه السلام صاحب الميزان ، فيقول له ربه : زن ياجبريل بينهم ، فيرجع بعضهم على بعض . وروى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوضع الميزان يوم القيامة ، فيؤتى بالرجل فيوضع فى كفة الميزان ويوضع ما أحصى من عمله فى كفة ، فيميل به الميزان ، فيبعث الله به إلى النار فإذا أدبر إذا صائح يصيح من عند الرحمن : لا تعجلوا لاتعجلوا ، فإنه قد بقى له ، فيؤتى بشيء فيه لا إله إلا الله فيوضع موضع الرجل فى كفة حسناته حتى يميل به الميزان ، فيؤمر به إلى الجنة » . وفى حديث آخر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنه يؤتى بالرجل يوم القيامة إلى الميزان ثم يؤتى بتسعة وتسعين سجلا كل سجل مدّ البصر فيها كلها سيئاته وخطيئاته فترجح سيئاته على حسناته فيؤمر به إلى النار ، فإذا أدبر به إذا صائح يصيح من عند الرحمن : لاتعجلوا

لاتعجلوا فقد بقى له ، فيؤتى بمثل رأس الإبهام وأمسك على النصف منها ، فيه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فيوضع فى كفة حسناته فتثقل حسناته على سيئاته ، فيؤمر به إلى الجنة » . وفى لفظ آخر « فيخرج له بقرطاس مثل هذا ، وأمسك على إبهامه فيه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » إلى آخر الحديث . وقيل : إن الصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل ، تكون الحسنات فى صورة حسنة تطرح فى كفة النور فيثقل الميزان برحمة الله وتكون السيئات فى صورة سيئة تطرح فى كفة الظلمة فيخفّ بها الميزان بعدل الله تعالى ، وعلامة تثقيل الميزان ارتفاعها ، وعلامة انحطاطها خفتها ؛ بخلاف موازين الدنيا وسبب تثقيلها الإيمان وقول الشهادتين ، وسبب خفتها الشرك بالله عزّ وجلّ ، وإذا ارتفعت أدخل صاحبها الجنة لأنها عالية ، وإذا خفت أدخل صاحبها النار الهاوية لأنها فى التخوم أسفل السافلين ، كما قال الله عزّ وجل (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية) أى فى جنة عالية (وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) أى أصله ومأواه ومرجعه نار حامية وهى هاوية .

والناس فى موازنة الأعمال على ثلاثة أضرب : منهم من ترجح حسناته على سيئاته ، فيؤمر به إلى الجنة . ومنهم من ترجح سيئاته على حسناته ، فيؤمر به إلى النار . ومنهم من لا ترجح إحداهما على الأخرى ، فهم أصحاب الأعراف ، ثم ينالهم الله برحمته إذا شاء فيدخلهم الجنة . فهو قوله عزّ وجل (وعلى الأعراف رجال) الآية . والذى يوزن صحائف أعمالهم على ماذكرنا من تسعة وتسعين سجلا وطريق ذلك النقل والسمع .

وأما المقربون فيدخلون الجنة بغير حساب ، كما جاء فى الحديث « إنه يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب ، ومع كل واحد منهم سبعون ألفا » على نص الحديث المشهور .

وأما الكافرون فيدخلون النار بغير حساب ، ومن المؤمنين من يحاسب حسابا يسيرا ثم يؤمر به إلى الجنة على ما تقدم . ومنهم من يناقش ثم أمره إلى الله ، إن شاء أمر به إلى الجنة أو إلى النار ، قال عزّ وجل (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا) الآية وقال جلّ وعلا (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث علىّ رضى الله عنه « إن الله يحاسب كل الخلق إلا من أشرك بالله ، فإنه لا يحاسب ويؤمر به إلى النار » .

(فصل) ويعتقد أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان ، وهما داران أعدّهما الله تعالى : إحداهما للنعيم والثواب لأهل الطاعة والإيمان ، والأخرى للعقاب والنكال لأهل المعاصى والطغيان ، هما منذ خلقهما الله تعالى باقيتان لاتفنيان أبدا ، وهى الجنة التى كان فيها آدم وحوّاء عليهما السلام وإبليس اللعين ثم أخرجهما منها ، القصة المشهورة . وقد أنكرت المعتزلة ذلك ، فأما الجنة فلا يدخلونها ، وأما النار فلعمرى هم فيها خالدون مخلدون لإنكارهم ولحكمهم بذلك للمؤمن الموحد المطيع لله عزّ وجلّ سبعين سنة بكبيرة واحدة ، وفى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تكذيبهم ؛ قال الله عزّ وجل (وجنة عرضها السموات والأرض أعدت

للمتقين) وقال عزّ وجل (اتقوا النار التى أعدت للكافرين) ، وما كان معدا كان موجودا يعلمه كل عاقل فعلم أنهما مخلوقتان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث أنس ابن مالك رضى الله عنه « أدخلت الجنة فإذا أنا بنهر يجرى ، حافتاه خيام اللؤلؤ ، فضربت بيدى إلى ماء يجرى فإذا مسك أذفر ، قلت ياجبريل ما هذا ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاك الله تعالى » وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه حين قيل له « يا رسول الله أخبرنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال عليه الصلاة والسلام : لبنة من ذهب ولبنة من فضة وبلاطها مسك أذفر ، وحصاها الياقوت واللؤلؤ ، وترابها الورس والزعفران ، من دخلها يخلد ولايموت وينعم ولاييأس ، ولاتحرق ثيابهم ولا يبلى شبابهم » فهذا دليل على كونهما مخلوقين ، وأن نعيم الجنة دائم لايفنى كما قال الله تعالى (أكلها دائم وظلها) وقال عز وجل (لا مقطوعة ولا ممنوعة) ومن نعيمها الحور العين خلقهنّ الله تعالى فى الجنة للبقاء ، لايفنين ولايمتن كما قال الله عزّ وجل (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولاجان) وقوله تبارك وتعالى (حور مقصورات فى الخيام) . وروت أم سلمة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت « قلت : يارسول الله ، أخبرنى عن قول الله عز وجل (كأمثال اللؤلؤ المكنون) قال : صفاؤهن كصفاء الدرّ فى الأصداف إلى أن قال : يقلن نحن الخالدات فلا نموت أبدا ، ونحن الناعمات فلا نبأس أبدا ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ، ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا ، وهن فى دار حق فلا يقلن إلا حقا ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم لايقول إلاحقا » فأخبر أنهن خالدات لايمتن . وروى معاذ بن جبل رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « لاتؤذى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين : لاتؤذيه قاتلك الله ، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا » فإذا ثبت أنهما لاتفنيان وما فيهما أبدا فلا يخرج الله تعالى من الجنة أحدا ، ولايسلط على أهلها الموت فيها ، ولايزول عنهم نعيمها ، فهم فى كل يوم فى مزيد نعيم أبد الآباد . وتمام نعيمهم أن الله يأمر بالموت فيذبح على سور بين الجنة والنار ، وينادى المنادى : يا أهل الجنة خلود لا موت ، ويا أهل النار خلود لا موت ، على ما ورد به الخبر الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(فصل) ويعتقد أهل الإسلام قاطبة أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم رسول الله وسيد المرسلين وخاتم النبيين ، وأنه مبعوث إلى الناس كافة وإلى الجنّ عامة ، كما قال الله عز وجل (وما أرسلناك إلا كافة للناس ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى أمامة رضى الله عنه « إن الله فضلنى على الأنبياء بأربع : أرسلنى إلى الناس كافة » وذكر الحديث ، وأنه صلى الله عليه وسلم أعطى من المعجزات ما أعطى غيره من الأنبياء وزيادة ، وقد عدّها بعض أهل العلم ألف معجزة ، منها القرآن المنظوم على وجه مخصوص مفارق لجميع أوزان كلام العرب ونظمه وترتيبه وبلاغته وفصاحته على وجه جاوز فصاحة كل فصيح وبلاغة كل بليغ ، وعجزت العرب أن تأتى بمثله ولابسورة منه ،

كما قال الله تعالى (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) فلم يأتوا ثم قال تعالى (فأتوا بسورة من مثله) فعجزوا عن ذلك مع زيادة بلاغتهم وفصاحتهم على أهل زمانهم وانقطعوا فظهر فضله عليهم ، فلذلك صار القرآن معجزة له صلى الله عليه وسلم ، كالعصا فى حق موسى عليه السلام لأن موسى بعث فى زمن السحرة والحذاق فى صنعتهم ، فتلقفت عصا موسى عليه السلام ما سحروا به أعين الناس وخيلوه إليهم ، (فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين) ، وكإحياء عيسى عليه السلام الموتى ، وإبرائه الأكمه والأبرص ، لأنه عليه السلام بعث فى زمن الناس فيه أطباء حذاق ، يوقفون الأعلال والأسقام التى لاتبرأ ببراعتهم فى حذق الصنعة ، فانقادوا إليه وآمنوا به لمجاوزته فى الصنعة عليهم وبراعته فى المعجزة فيما تواطئوه منه. ففصاحة القرآن وإعجازه معجزة للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، كالعصا وإحياء الموتى فى حقّ موسى وعيسى عليهما السلام :

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام نبع الماء من بين أصابعه ، وإطعام الزاد القليل للخلق الكثير ، وكلام الذراع المسموم . وقوله : لا تأكل منى فإنى مسموم ، وانشقاق القمر ، وحنين الجذع ، وكلام البعير ، ومجيء الشجر إليه ، وغير ذلك مما يبلغ ألف معجزة على ما ذكروا . وإنما لم يأت النبىّ صلى الله عليه وسلم بمثل عصا موسى ويده البيضاء ، وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، ومثل ناقة صالح ، والمعجزات التى كانت للأنبياء لأمرين : أحدهما لئلا يكذب بها أمته فيهلكون كما هلكت الأمم قبلهم ، كما قال الله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون) . والثانى لو جاء بمثل ما جاء به الأوّلون لقالوا له : ما جئت بغريب وقد نقلت من موسى وعيسى ، فأنت من أتباعهم لا نؤمن لك حتى تأتينا بما لم يأت به الأوّلون ؛ ولهذا لم يؤت الله سبحانه نبيا من أنبيائه معجزة غيره ، بل خصّ كل نبىّ بمعجزة غير معجزة من كان قبله .

(فصل) ويعتقد أهل السنة أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير الأمم أجمعين ، وأفضلهم أهل القرن الذين شاهدوه وآمنوا به وصدّقوه وبايعوه وتابعوه وقاتلوا بين يديه وفدوه بأنفسهم وأموالهم وعزّروه ونصروه ، وأفضل أهل القرون أهل الحديبية الذين بايعوه بيعة الرضوان ، فهم ألف وأربعمائة رجل ، وأفضلهم أهل بدر وهم ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلا عدد أصحاب طالوت ، وأفضلهم الأربعون أهل دار الخيزران الذين كملوا بعمر بن الخطاب ، وأفضلهم العشرة الذين شهد لهم النبىّ صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وأبو عبيدة بن الجراح ، وأفضل هؤلاء العشرة الأبرار الخلفاء الراشدون الأربعة الأخيار ، وأفضل الأربعة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علىّ رضى الله تعالى عنهم ؛ ولهؤلاء الأربعة الخلافة بعد النبىّ صلى الله عليه وسلم ثلاثون سنة ، ولى منهم أبو بكر رضى الله عنه سنتين وشيئا ، وعمر رضى الله عنه عشرا ، وعثمان رضى الله عنه اثنتى عشرة وعلىّ رضى الله عنه ستا . ثم وليها معاوية تسع عشرة سنة ، وكان قبل ذلك ولاه عمر الإمارة على أهل الشام عشرين سنة . وخلافة الأئمة الأربعة كانت باختيار الصحابة ،

واتفاقهم ورضاهم ، ولفضل كل واحد منهم فى عصره وزمانه على من سواه من الصحابة ؛
ولم تكن بالسيف والقهر والغلبة والأخذ ممن هو أفضل منه . وأما خلافة أبى بكر الصديق رضى
الله عنه فباتفاق المهاجرين والأنصار كانت ،وذلك لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم
قامت خطباء الأنصار فقالوا : منا أمير ومنكم أمير ،فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال :
يامعشر الأنصار ألستم تعلمون أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر أن يؤمّ بالناس ؟ قالوا
بلى ، قال : فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟ قالوا معاذ الله أن نتقدم أبا بكر . وفى لفظ :
قال عمر رضى الله تعالى عنه : فأيكم تطيب نفسه أن يزيله عن مقام أقامه فيه رسول الله صلى الله
عليه وسلم ؟ فقالوا كلهم : كلنا لاتطيب أنفسنا ، نستغفر الله ، فاتفقوا مع المهاجرين فبايعوه
بأجمعهم وفيهم علىّ والزبير . ولهذا قيل فى النقل الصحيح : لما بويع أبو بكر الصديق رضى
الله عنه قام ثلاثا يقبل على الناس يقول : يا أيها الناس أقلتكم بيعتى هل من كاره ؟ فيقوم على
رضى الله عنه فى أوائل الناس فيقول : لا نقيلك ولانستقيلك أبدا ، قدمك رسول الله صلى الله
عليه وسلم فمن يؤخرك ؟ وبلغنا عن الثقات أن عليا رضى الله عنه كان أشدّ الصحابة قولا فى إمامة
أبى بكر رضى الله عنه . وروى أن عبد الله بن الكوّاء دخل على علىّ بعد قتال الجمل وسأله :
هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر شيئا ؟ فقال : نظرنا فى أمرنا فإذا
الصلاة عضد الإسلام فرضينا لدنيانا بما رضى الله ورسوله لديننا ، فولينا الأمر أبا بكر ؛
وذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم استخلف أبابكر الصديق رضى الله عنه فى إقامة الصلاة
المفروضة أيام مرضه ، فكان يأتيه بلال وقت كل صلاة فيؤذنه بالصلاة ، فيقول عليه الصلاة
والسلام : مروا أبا بكر فليصلّ بالناس . وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يتكلم فى شأن أبى بكر
رضى الله عنه فى حال حياته بما يتبين للصحابة أنه أحقّ الناس بالخلافة بعده ، وكذلك فى حق
عمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم أن كل واحد منهم أحقّ بالأمر فى عصره وزمانه . من ذلك
ما روى ابن بطة بإسناده عن على رضى الله عنه أنه قال « قيل يارسول الله من نؤمر بعدك ؟
قال صلى الله عليه وسلم : إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أمينا زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة ،
وإن تؤمروا عمر تجدوه قويا أمينا لايخاف فى الله لومة لائم ، وإن تولوا عليا تجدوه هاديا مهديا ،
فلذلك أجمعوا على خلافة أبى بكر» . وقد روى عن إمامنا أبى عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله
رواية أخرى : أن خلافة أبى بكر رضى الله عنه ثبتت بالنصّ الجلىّ والإشارة ، وهو مذهب
الحسن البصرى وجماعة من أصحاب الحديث رحمهم الله ، وجه هذه الرواية ما روى أبو هريرة
رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « لما عرج بى إلى السماء سألت ربى عزّ وجل
أن يجعل الخليفة من بعدى علىّ بن أبى طالب ، فقالت الملائكة : يا محمد إن الله يفعل ما يشاء ،
الخليفة من بعدك أبو بكر » وقال عليه الصلاة والسلام فى حديث ابن عمر رضى الله عنهما « الذى
بعدى أبو بكر لايلبث بعدى إلا قليلا » وعن مجاهد رحمه الله قال : قال لى علىّ بن أبى طالب

رضى الله عنه ما خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من دار الدنيا حتى عهد إلىّ أنأبا بكر يلى من بعدى ، ثم عمر ، ثم عثمان من بعده ثم علىّ من بعده .

فأما خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فإنها كانت باستخلاف أبى بكر رضى الله عنه ، فانقادت الصحابة إلى بيعته وسموه أمير المؤمنين ، فقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : قالوا لأبى بكر رضى الله عنه ما تقول لربك غدا إذا لقيته وقد استخلفت علينا عمر وقد عرفت فظاظته ؟ قال : أقول استخلفت عليهم خير أهلك .

وأما خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فكانت أيضا عن اتفاق الصحابة رضى الله عنهم ، وذلك أن عمر رضى الله عنه أخرج أولاده عن الخلافة ، وجعلها شورى بين ستة نفر ، وهم طلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف ، فقال عبد الرحمن لعلىّ وعثمان أنا أختار أحد كما لله ورسوله وللمؤمنين ، فأخذ بيد علىّ رضى الله عنه فقال : ياعلىّ عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله إذا أنا بايعتك لتنصحنّ لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولتسيرنّ بسيرة رسوله وأبى بكر وعمر ، فخاف علىّ أن لايقوى على ما قالوا عليه فلم يجبه ، ثم أخذ بيد عثمان فقال له مثل ما قال لعلىّ ، فأجابه عثمان على ذلك ، فمسح يد عثمان فبايعه ، وبايع علىّ رضى الله عنه ، ثم بايع الناس أجمع ، فصار عثمان بن عفان خليفة بين الناس باتفاق الكلّ ، فكان إماما حقا إلى أن مات ، ولم يوجد فيه أمر يوجب الطعن فيه ولا فسقه ولا قتله ، خلاف ما قالت الروافض تبا لهم .

وأما خلافة علىّ رضى الله عنه ، فكانت عن اتفاق الجماعة وإجماع الصحابة ، لما روى أبو عبد الله بن بطة عن محمد بن الحنفية قال : كنت مع علىّ بن أبى طالب وعثمان بن عفان محصورا ، فأتاه رجل فقال : إن أمير المؤمنين مقتول الساعة . قال فقام علىّ رضى الله عنه ، فأخذت بوسطه تخوّفا عليه ، فقال : خلّ لا أم لك ؛ قال : فأتى علىّ الدار وقد قتل عثمان رضى الله عنه ، فأتى داره ودخلها فأغلق بابه ، فأتاه الناس فضربوا عليه الباب ، فدخلوا عليه فقالوا : إن عثمان قد قتل ولابد للناس من خليفة ، ولانعلم أحدا أحق بها منك ، فقال لهم علىّ : لاتريدونى فإنى لكم وزير خير من أمير ، قالوا : والله لانعلم أحدا أحقّ بها منك ، قال رضى الله عنه : فإن أبيتم علىّ فإن بيعتى لاتكون سرّا ، ولكن أخرج إلى المسجد ، فمن شاء أن يبايعنى بايعنى ؛ قال : فخرج رضى الله عنه إلى المسجد ، فبايعه الناس ، فكان إماما حقا إلى أن قتل ، خلاف ما قالت الخوارج أنه لم يكن إماما قط ، تبا لهم .

وأما قتاله رضى الله عنه لطلحة والزبير وعائشة ومعاوية فقد نص الإمام أحمد رحمه الله على الإمساك عن ذلك ، وجميع ما شجر بينهم من منازعة ومنافرة وخصومة ، لأن الله تعالى يزيل ذلك من بينهم يوم القيامة ، كما قال عزّ وجل (ونزعنا ما فى صدورهم من غلّ إخوانا على سرر متقابلين) ، ولأن عليا رضى الله عنه كان على الحق فى قتالهم ، لأنه كان يعتقد صحة إمامته على ما بينا من اتفاق أهل الحلّ والعقد من الصحابة على إمامته وخلافته ، فمن خرج عن ذلك بعد

وناصبه حربا كان باغيا خارجا على الإمام فجاز قتاله ، ومن قاتله من معاوية وطلحة والزبير طلبوا ثأر عثمان خليفة الحق المقتول ظلما ، والذين قتلوه كانوا فى عسكر على رضى الله عنه ؛ فكل ذهب إلى تأويل صحيح ، فأحسن أحوالنا الإمساك فى ذلك ، وردهم إلى الله عز وجل وهو أحكم الحاكمين وخير الفاصلين ، والاشتغال بعيوب أنفسنا وتطهير قلوبنا من أمهات الذنوب وظواهرنا من موبقات الأمور .

وأما خلافة معاوية بن أبى سفيان ، فثابتة صحيحة بعد موت على رضى الله عنه وبعد خلع الحسن بن على رضى الله عنهما نفسه عن الخلافة وتسليمها إلى معاوية لرأى رآه الحسن ومصلحة عامة تحققت له ، وهى حقن دماء المسلمين وتحقيق قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحسن رضى الله عنه : « ابنى هذا سيد يصلح الله تعالى به بين فئتين عظيمتين » فوجبت إمامته بعقد الحسن له ، فسمى عامه عام الجماعة ، لارتفاع الخلاف بين الجميع واتباع الكل لمعاوية رضى الله عنه ، لأنه لم يكن هناك منازع ثالث فى الخلافة ، وخلافته مذكورة فى قول النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « تدور رحى الإسلام خمسا وثلاثين سنة أو ستا وثلاثين أو سبعا وثلاثين » والمراد بالرحى فى هذا الحديث القوة فى الدين والخمس السنين الفاصلة من الثلاثين ، فهى من جملة خلافة معاوية إلى تمام تسع عشرة سنة وشهور ، لأن الثلاثين كملت بعلى رضى الله عنه كما بينا ، ونحسن الظن بنساء النبى صلى الله عليه وسلم أجمعين ، ونعتقد أنهن أمهات المؤمنين ، وأن عائشة رضى الله عنها أفضل نساء العالمين ، وبرأها الله تعالى من قول الملحدين فيها بما نقرؤه ويتلى إلى يوم الدين ، وكذلك فاطمة بنت نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ورضى الله تعالى عنها وعن بعلها وأولادها أفضل نساء العالمين ، ويجب موالاتها ومحبتها كما يجب ذلك فى حق أبيها صلى الله عليه وسلم ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « فاطمة بضعة منى ، يريبنى ما يريبها » فهؤلاء أهل القرآن ، وهم الذين ذكرهم الله فى كتابه وأثنى عليهم ، فهم المهاجرون الأولون والأنصار الذين صلوا إلى القبلتين ، قال الله تعالى فيهم (لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى) وقال جل وعلا (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) وقال تعالى (والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا) إلى قوله (يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) . روى جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله عز وجل (محمد رسول الله والذين آمنوا معه) فى العسر واليسر والغار والعريش أبو بكر (أشداء على الكفار) عمر بن الخطاب (رحماء بينهم) عثمان بن عفان (تراهم ركعا سجدا) على بن أبى طالب (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) طلحة والزبير حواريا رسول الله صلى الله عليه وسلم (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) سعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح هؤلاء العشرة (ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج

شطأه) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم (فآزره) بأبي بكر (فاستغلظ) بعمر (فاستوى على سوقه) بعثمان (يعجب الزرّاع) بعليّ بن أبي طالب (ليغيظ بهم) بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكفار (واتفق أهل السنة على وجوب الكفّ عما شجر بينهم ، والإمساك عن مساويهم ، وإظهار فضائلهم ومحاسنهم ، وتسليم أمرهم إلى الله عزّ وجل على ما كان وجرى من اختلاف عليّ وطلحة والزبير وعائشة ومعاوية رضى الله عنهم على ما قدمنا بيانه ، وإعطائه كلّ ذى فضل فضله ، كما قال الله عزّ وجل (والذى جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم) وقال تعالى (تلك أمة قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ، ولاتسئلون عما كانوا يعملون) وقال صلى الله عليه وسلم « إذا ذكر أصحابى فأمسكوا » وفى لفظ « وإياكم وما شجر بين أصحابى ، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم ولانصيفه » . وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن رآنى ، ومن رأى من رآنى » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لاتسبوا أصحابى ، ومن سبهم فعليه لعنة الله » وقال صلى الله عليه وسلم فى رواية أنس رضى الله عنه « إن الله عزّ وجل اختارنى واختار لى أصحابى ، فجعلهم أنصارى وجعلهم أصهارى ؛ وأنه سيجيء فى آخر الزمان قوم ينقصونهم ، ألا فلا تؤاكلوهم ، ألا فلا تشاربوهم ، ألا فلا تناكحوهم ، ألا فلا تصلوا معهم ، ألا فلا تصلوا عليهم ، عليهم حلت اللعنة » . وروى جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » . وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلع الله على أهل بدر فقال : يا أهل بدر اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . وروى ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما أصحابى مثل النجوم ، فأيهم أخذتم بقوله اهتديتم » . وعن ابن بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « من مات من أصحابى بأرض جعل شفيعا لأهل تلك الأرض » . وقال سفيان بن عيينة رحمه الله : من نطق فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلمة فهو صاحب هوى . وأهل السنة أجمعوا على السمع والطاعة لأئمة المسلمين واتباعهم ، والصلاة خلف كلّ برّ منهم وفاجر ، والعادل منهم والجائر ، ومن ولوه ونصبوه واستنابوه ، وأن لايقطعوا لأحد من أهل القبلة بجنة ولا نار ، مطيعا كان أو عاصيا ، رشيدا كان أو غاويا أو عاتيا ، إلا أن يطلع منه على بدعة وضلالة ، وأجمعوا على تسليم المعجزات للأنبياء ، والكرامات للأولياء ، وأن الغلاء والرخص من قبل الله ، لا من أحد من خلقه من السلاطين والملوك ، ولامن الكواكب كما زعمت القدرية والمنجمون ، لما روى أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الغلاء والرخص جندان من جنود الله ، اسم أحدهما الرغبة ، والآخر الرهبة ، فإذا أراد الله أن يغليه قذف الرغبة فى قلوب التجار فحبسوه ، وإذا أراد أن يرخص قذف الرهبة فى صدور التجار فأخرجوه من أيديهم » . والأولى للعاقل المؤمن الكيس أن يتبع ولايبتدع ، ولايغالى ويعمق ويتكلف ،

لئلا يضلّ ويزل فيهلك ، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : اتبعوا ولاتبتدعوا فقد كفيتم . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : إياك ومغمضات الأمور ، وأن تقول للشيء ما هذا ؛ فقال مجاهد رحمه الله حين بلغه هذا من معاذ : قد كنا نقول للشيء ما هذا ؟ فأما الآن فلا ، فعلى المؤمن اتباع السنة والجماعة ، فالسنة ماسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والجماعة ما اتفق عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خلافة الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين المهديين رحمة الله عليهم أجمعين ؛ وأن لايكاثر أهل البدع ولايدانيهم . ولايسلم عليهم ، لأن إمامنا أحمد بن حنبل رحمه الله قال : من سلم على صاحب بدعة فقد أحبه ، لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم « أفشوا السلام بينكم تحابوا » ولايجالسهم ولا يقرب منهم ولا يهنيهم فى الأعياد وأوقات السرور ، ولايصلى إذا ماتوا ، ولايترحم عليهم إذا ذكروا ، بل يباينهم ويعاديهم فى الله عزّ وجل ، معتقدا بطلان مذهب أهل بدعة ، محتسبا بذلك الثواب الجزيل والأجر الكثير . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من نظر إلى صاحب بدعة بغضا له فى الله ملأ الله قلبا أمنا وإيمانا ، ومن انتهر صاحب بدعة بغضا له فى الله أمنه الله يوم القيامة ، ومن استحقر بصاحب بدعة رفعه الله تعالى فى الجنة مئة درجة ، ومن لقيه بالبشر أو بما يسره فقد استخفّ بما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم » وعن أبي المغيرة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبى الله عزّ وجلّ أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته » وقال فضيل بن عياض : من أحبّ صاحب بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإيمان من قلبه ، وإذا علم الله عزّ وجلّ من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رجوت الله تعالى أن يغفر ذنوبه وإن قلّ عمله ، وإذا رأيت مبتدعا فى طريق فخذ طريقا آخر . وقال فضيل بن عياض رحمه الله : سمعت سفيان بن عيينة رحمه الله يقول : من تبع جنازة مبتدع لم يزل فى سخط الله تعالى حتى يرجع . وقد لعن النبيّ صلى الله عليه وسلم المبتدع ، فقال صلى الله عليه وسلم « من أحدث حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ولا يقبل الله منه الصرف والعدل » يعنى بالصرف : الفريضة ، وبالعدل : النافلة . وعن أبي أيوب السجستانى رحمه الله أنه قال : إذا حدثت الرجل بالسنة فقال : دعنا من هذا وحدثنا بما فى القرآن ، فاعلم أنه ضالّ .

(فصل) واعلم أن لأهل البدع علامات يعرفون بها ، فعلامة أهل البدعة الوقيعة فى أهل الأثر ، وعلامة الزنادقة تسميتهم أهل الأثر بالحشوية ، ويريدون إبطال الآثار . وعلامة القدرية تسميتهم أهل الأثر مجبرة . وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة . وعلامة الرافضة تسميتهم أهل الأثر ناصبة ، وكل ذلك عصبية وغياظ لأهل السنة ، ولا اسم لهم الا اسم واحد وهو أصحاب الحديث ، ولاتلتصق بهم ما لقبهم به أهل البدع ، كما لم تلتصق بالنبي صلى الله عليه وسلم تسمية كفار مكة ساحرا وشاعرا ومجنونا ومفتونا وكاهنا ، ولم يكن اسمه عند الله وعند ملائكته وعند إنسه وجنه وسائر خلقه إلا رسولا نبيا بريا من العاهات كلها ، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » . هذا آخر ما ألفنا فى باب معرفة الصانع والاعتقاد

بل السنة والجماعة

على مذهب أهل السنة والجماعة على الاختصار والقـدرة ، ثم نردف هذه الجملة بفصلين آخرين ، لايسع العاقل المؤمن جهلها إذا أراد سلوك الحجة ، أحد الفصلين فيما لايجوز إطلاقه على البارى من الصفات وأخلاق العباد والنقائص ، وما يجـوز من ذلك ؛ والفصل الثانى فى بيان مقالة الفـرق الضالة من طريق الهدى الداحضة الحجة فى يوم الدين والمحاسبة .

(أما الفصل الأول) فيما لايجوز إطلاقه على البارى عزّ وجل من الصفات ويستحيل إضافته إليه من الأخلاق وما يجوز من ذلك ، لايجوز أن يوصف البارى تعالى بالجهل والشك والظن وغلبة الظنّ والسهو والنسيان والسِّنة والنوم والغلبة والغفلة والعجز والموت والخرس والصمم والعمى والشهوة والنفور والميل والحرد والغيظ والحزن والتأسف والكمد والحسرة والتلهف والألم واللذة والنفع والمضرة والتمنى والعزم والكذب . ولا يجوز أن يسمى إيمانا خلاف ماقالت السالمية ، وتعلقهم بقوله عزّ وجل (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله) محمول على أنه من يكفر بوجوب الإيمان ، كان كمن كفر بالرسول ، وما جاء به صلى الله عليه وسلم من الله عزّ وجلّ من الأوامر والنواهى . ولا يجوز أن يوصف عزّ وجل بأنه مطيع ولا محبل لنساء العالم . ولا يجوز عليه الحدود ولا النهاية ، ولا القبل ولا البعد ، ولا تحت ولا قدام ، ولاخلف ولا كيف ، لأن جميع ذلك ما ورد به الشرع إلا ماذكرناه من أنه على العرش استوى ، على ما ورد به القرآن والأخبار ، بل هو عزّ وجلّ خالق لجميع الجهات ، ولا يجوز عليه الكمية . واختلف فى جواز تسميته بالشخص؛ فمن جوّز ذلك فلقول النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حديث المغيرة بن شعبة رضى الله عنه « لا شخص أغير من الله ، ولا شخص أحبّ إليه المعاذير من الله » ومن منع ذلك فلأن لفظ الخبر ليس بصريح فى الشخص لاحتماله أن يكون معناه : لا أحد أغير من الله . وقد ورد فى بعض ألفاظ « لاأحد أغير من الله » ولايجوز أن يسمى فاضلا وعتيقا وفقيها ولا فهيما ولافطنا ولا محققا وعاقلا وموقرا ولا طبيا ، وقيل يجوز ، ولا عاديا ، لأن ذلك منسوب إلى زمن عاد وهو محدث ولا مطيقا ، لأنه خالق كل طاقة وهى متناهية ؛ ولامحفوظا لأنه هو الحافظ ؛ ولا يجوز وصفه بالمباشرة ؛ ولا يجوز وصفه بأنه مكتسب ، لأن ذلك محدَث بقدرة محدثة ، والله تعالى منزّه عن ذلك ؛ ولا يجوز عليه العدم وهو قديم لابقدم ، ولا أوّل لوجوده ، خلاف ما قال ابن كلاب من أنه قديم بقدم ، وهو باق لا ببقاء ؛ وهو عزّ وجل عالم بمعلومات غير متناهية ، قادر بمقدورات غير متناهية ، خلاف ما أذاعت المعتزلة من أن كلّ ذلك متناه . وأما الصفات التى يجوز وصفه عزّ وجلّ بها : فالفرح والضحك والغضب والسخط والرضا ، وقد قدّمنا ذلك فى أوّل الباب . ويجوز وصفه بأنه موجود لقوله (ووجد الله عنده) ويجوز وصفه بأنه شىء لقوله تعالى (قل أىّ شىء أكبر شهادة قل الله) ويجوز أن يوصف بأنه نفس وذات وعين من غير تشبيه بجارحة الإنسان على ما تقدم بيانه ؛ ويجوز وصفه بأنه كائن من غير حدّ لقوله تعالى (وكان الله بكلّ شىء عليما ـ وكان الله على كل شىء رقيبا) ويجوز وصفه بأنه قديم وباق ، وبأنه مستطيع ، لأن معنى الاستطاعة القدرة ، وهو

موصوف بالقدرة : ويجوز وصفه بأنه عارف ومتين وواثق ودار ، لأن جميع ذلك راجع إلى معنى العالم ، ولم يرد الشرع بمنع ذلك ولا اللغة ، بل قال الشاعر :

اللهم لا أدرى وأنت الدارى

ويجوز وصفه بأنه راء ويرجع إلى معنى العالم ؛ ويجوز وصفه بأنه مطلع على خلقه وعباده بمعنى عالم بهم ، وكذلك واحد بمعنى عالم ؛ ويجوز وصفه بأنه جميل ومجمل ، يعنى فى الصنع إلى خلقه ؛ ويجوز وصفه بأنه ديان ، على معنى أنه مجاز لعباده على أفعالهم. الدين الحساب « كما تدين تدان » (مالك يوم الدين) : أى يوم الحساب ، أو على معنى الشارع لعباده عبادة وشريعة دعاهم إليها ، وفرض ذلك عليهم ، ثم هو يجازيهم على ما فعلوه فيها ؛ ويجوز وصفه بأنه مقدّر على معنى التقدير : (إنا كل شيء خلقناه بقدر — الذى قدر فهدى) وعلى معنى الخبر قال : (إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين) : أى أخبرنا لوطا عليه السلام أن امرأته من الباقين فى العذاب من دون أهله ؛ ولا يجوز أن يكون معناه الظنّ والشكّ ، تعالى الله عن ذلك ؛ ويجوز وصفه بأنه ناظر على معنى أنه راء مدرك للأشياء ، لا على معنى أنه مترو مفكر ، تعالى عن ذلك ؛ ويجوز وصفه أنه شفيق على معنى الرحمة بخلقه والرأفة ، لا على معنى الخوف والحزن ، وكذلك يجوز وصفه بأنه رفيق على معنى الرحمة والتعطف لخلقه ، لا على معنى التثبيت فى الأمور والإجمال فى إصلاحها والسلامة من عواقبها ؛ ويجوز وصفه بأنه سخى كما يجوز وصفه بأنه كريم وجواد لأن معنى الكل التفضل والإحسان إلى خلقه ولا يقصد بذلك الرخاوة واللين على ما هو فى اللغة مستعمل أرض سخية وقرطاس سخيّ إذا كانا لينين ؛ ويجوز وصفه بأنه آمر وناه ومبيح وحاظر ، ومحلل ومحرم وفارض وملزم ، وموجب ونادب ، ومرشد وقاض ، وحاكم على ما ذكرناه ؛ وكذلك يجوز وصفه بأنه واعد ومتوعد ، ومخوف ومحذر ، وذامّ ومادح ، ومخاطب ومتكلم ، وقائل كل ذلك ، راجع إلى معنى أنه موصوف بالكلام ؛ ويجوز وصفه بأنه معدم على معنى أنه لم يوجد ولم يفعل ، وعلى معنى أنه معدم لما أوجده بعد إيجاده بقطع البقاء عنه ، فينعدم بذلك ؛ ويجوز وصفه بأنه فاعل بمعنى أنه مخترع لذات ما فعله ، وخالق له ، وجاعل بقدرته ؛ فاستحقّ لذلك هذا الوصف ، لا على معنى المباشرة للأشياء لأن حقيقة ذلك تلاقى الأجسام ومماستها ، والله سبحانه متعال عن ذلك ؛ وكذلك يجوز وصفه بأنه جاعل على معنى أنه فاعل وفعله مفعول ، كقوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين) ؛ ويجوز أن يكون الجعل بمعنى الحكم ، قال عزّ وجل (جعلناه قرآنا عربيا) ؛ ويجوز وصفه بأنه تارك فى الحقيقة كما وصف بأنه فاعل ، على معنى أنه فاعل ضدّ فعله الآخر بدلا من الأول بقدرته العامة الشاملة ، لا على معنى كفّ النفس ومنعها عما يدعو إلى فعله ؛ ويجوز وصفه بأنه يوجد على معنى أنه يخلق ؟ وكذلك يجوز وصفه بأنه مكون على معنى أنه موجد ؛ ويجوز وصفه بأنه مثبت على معنى أنه يوجد فى الشيء البقاء والثبات ، كما قال عزّ وجل يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت (وقوله تعالى (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب) ؛ ويجوز وصفه بأنه عامل وصانع بمعنى خالق ؛

ويجوز وصفه بأنه مصيب ، على معنى أن أفعاله واقعة على ما قصده وأراده من غير تفاوت وتزايد وتناقص ، لأنه تعالى عالم بها وبحقائقها وكيفياتها ، لا على معنى أن ذلك موافق لأمر آمر أمره بفعلها ، تعالى عن ذلك ويجوز إطلاق هذه الصفة على عبد من عبيده ، فيقال إنه مصيب ، بمعنى أنه مطيع لربه ، متبع لأمره ، منته لنهيه ؛ وكذلك إذا كان مطيعا لمن هو فوقه ورئيسه ؛ ويجوز وصف أفعاله عز وجل بأنها صواب على معنى أنها حق وثابت ؛ ويجوز وصفه بأنه مثيب ومنعم ، على معنى أنه يجعل المثاب منعما معظما ؛ وكذلك يجوز وصفه بأنه معاقب ومجاز ، على معنى أنه يهين العاصي ويؤلمه على معصيته ؛ ويجوز وصفه بأنه قديم الإحسان على معنى أنه موصوف بالخلق والرزق فى القدم ، قال عزّ وجل (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) ويجوز وصفه بأنه دليل ، وقد نصّ الإمام أحمد عليه فى حقّ رجل قال له : زودّنى دعوة فإنى أريد الخروج إلى طرطوس ، فقال له : قل يا دليل الحائرين ، دلّنى على طريق الصادقين ، واجعلنى من عبادك الصالحين ؛ ويجوز وصفه بأنه طبيب لما روى عن أبى رمثة التميمى أنه قال « كنت مع أبى عند النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فرأيت على كتف النبىّ صلى الله عليه وسلم مثل التفاحة ، فقال أبى : يارسول الله إنى طبيب أفأطبها لك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : طبيبها الذى خلقها » . وروى عن أبى السفر أنه قال : مرض أبو بكر رضى الله عنه فعاده جماعة ، فقالوا له : ألا ندعوا لك الطبيب ؟ فقال : قد رآنى ، قالوا : فأىّ شىء قال لك : فقال : قال لى : إنى فعال لما أريد . وكذلك يروى أن أبا الدرداء رضى الله عنه مرض ، فعادوه ، فقالوا له : أىّ شىء تشتكى ؟ قال : ذنوبى ، فقالوا : أىّ شىء تشتهى ؟ فقال : الجنة ، فقالوا : ألا ندعوا لك الطبيب ؟ فقال : هو أمرضنى ، فإذا ثبت هذا على ما ذكرنا فى أوّل الفصل ، وأنه إنما يجوز أن يدعى بما يسمى به من الأسماء التى يجوز وصفه بها ، وقد ذكرنا تسعة وتسعين اسما فيما تقدم ، فهى آكد فى الدعاء ، وإذا أراد أن يصفه ويدعوه بما ذكرنا فى هذا الفصل جاز ذلك ، إلا أنه يجتنب فى دعائه من أن يدعوه عزّ وجل بقوله : ياساخر يامستهزئ ، ياماكر ياخادع ، ومبغض وغضبان ، ومنتقم ومعاد ومعدم ، ومهلك ، فلا يدعو بها وإن كان مما يجوز وصفه بها على وجه الجزاء والمقابلة لأهل الإجرام على وجه الاستخفاف .

(الفصل الثانى : فى بيان الفرق الضالة عن طريق الهدى) والأصل فى ذلك ما روى عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم « لتسلكنّ سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل ، ولتأخذوا مثل أخذهم إن شبرا فشبرا وإن ذراعا فذراعا وإن باعا فباعا ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتم فيه ، ألا إن بنى إسرائيل افترقت على موسى بإحدى وسبعين فرقة كلها ضالة ، إلا فرقة واحدة الإسلام وجماعتهم ، ثم إنها افترقت على عيسى بن مريم باثنين وسبعين فرقة كلها ضالة إلا واحدة الإسلام وجماعتهم ، ثم إنكم تكونون على ثلاث وسبعين فرقة كلهم ضالة إلا فرقة واحدة الإسلام وجماعتهم » . وعن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن عوف بن مالك

الأشجعى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تفترق امتى على ثلاثة وسبعين ، فرقة أعظمها فتنة على أمتى الذين يقيسون الأمور برأيهم يحرمون الحلال ويحللون الحرام » وعن عبد الله بن زيد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن بنى إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة ، وستفترق أمتى على ثلاثة وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة ، قالوا : وما تلك الواحدة ؟ قال صلى الله عليه وسلم : من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابى » . وهذا الافتراق الذى ذكره النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يكن فى زمانه ولا فى زمن أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم ، وإنما كان ذلك بعد تقادم السنين والأعوام ، وفوت الصحابة والتابعين والفقهاء السبعة فقهاء المدينة ، وعلماء الأمصار وفقهائها قرنا بعد قرن ، وقبض العلم بموتهم إلا شرذمة قليلة ، وهم الفرقة الناجية فحفظ الله الدين بهم كما روى عن عروة عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لاينزع العلم من صدور الرجال بعد أن يعطيهم ، ولكن يذهب بالعلماء ، فكلما ذهب بعالم ذهب بما معه من العلم حتى يبقى من لايعلم ، فيَضلون ويُضلون » . وفى لفظ آخر عن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله لايقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » وعن كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جده رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها ، وليعقلنّ الدين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل ، إن الدين بدا غريبا وسيعود غريبا ، فطوبى للغرباء ، قيل : ومن الغرباء ؟ قال صلى الله عليه وسلم : الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتى من بعدى » . وعن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لا يأتى على الناس زمان إلا أماتوا فيه سنة وأحيوا بدعة » وعن الحارث عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتن فقلنا : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كتاب الله هو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لاتلتبس به الألسن ، هو الذى لم تنته الجن إذا سمعته أن قالوا (إنا سمعنا قرآنا عجبا) من قال به صدق ، ومن حكم به عدل » وعن عبد الرحمن بن عمرو عن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح ، فوعظنا موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ورمضت منها الجلود ، فقلنا : يارسول الله كأنها موعظة مودع ، فقال صلى الله عليه وسلم . أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبدا حبشيا ، فإنه من يعش من بعدى يرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدث بدعة ، وكل بدعة ضلالة » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم « أيما داع دعا إلى الهدى فاتبع فله مثل أجر من اتبعه ، لاينقص من اجورهم شيء ، وأيما داع دعا إلى الضلالة فاتبع فعليه مثل أوزار من اتبعه ، لا ينقص من أوزارهم شيء » .

(فصل) فأصل ثلاث وسبعين فرقة عشرة : أهل السنة والخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة والمشبهة والجهمية والضرارية والنجارية والكلابية . فأهل السنة طائفة واحدة ، والخوارج خمس عشرة فرقة ، والمعتزلة ست فرق ، والمرجئة اثنتا عشرة فرقة ، والشيعة اثنتان وثلاثون فرقة ، والجهمية والنجارية والضرارية والكلابية كل واحدة فرقة واحدة والمشبهة ثلاث فرق ، فجميع ذلك ثلاث وسبعون فرقة على ما أخبر به النبيّ صلى الله عليه وسلم . وأما الفرقة الناجية فهى أهل السنة والجماعة ، وقد بينا مذهبهم واعتقادهم على ماقدمنا ذكره . وتسمى هذه الفرقة الناجية . القدرية والمعتزلة مجبرة لقولها إن جميع المخلوقات بمشيئة الله تعالى وقدرته وإرادته وخلقه ، وتسميها المرجئة شكاكية لاستثنائها فى الإيمان ، يقول أحدهم : أنامؤمن إن شاء الله تعالى على ماقدمنا بيانه . وتسميها الرافضة ناصبية ، لقولها باختيار الإمام ونصبه بالعقد . وتسميها الجهمية والنجارية مشبهة ، لإثباتها صفات البارى عزّ وجل من العلم والقدرة والحياة وغيرها من الصفات . وتسميها الباطنية حشوية ، لقولها بالأخبار وتعلقها بالآثار ، وما اسمهم إلا أصحاب الحديث وأهل السنة على ما بينا . وأما الخوارج فلهم أسام وألقاب ؛ سموا الخوارج لخروجهم على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وسموا حكمية لإنكارهم الحكمين أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص رضى الله عنهما ، ونقولهم : لاحكم إلا لله لاحكم الحكمين ؛ وسموا أيضا حرورية ، لأنهم نزلوا بحروراء ، وهو موضع ؛ وسموا شراة ، لقولهم : شرينا أنفسنا فى الله : أى بعناها بثواب الله و رضاه ؛ وسموا مارقة ، لمروقهم من الدين ، وقد وصفهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، بأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ثم لا يعودون فيهم ، فهم الذين مرقوا من الدين والإسلام ، وفارقوا الملة وشردوا عنها وعن الجماعة ، وضلوا عن سواء الهدى والسبيل ، وخرجوا عن السلطان ، وسلوا السيف على الأئمة ، واستحلوا دماءهم وأموالهم ، وكفّروا من خالفهم ، ويشتمون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنصاره ، ويتبرءون منهم ويرمونهم بالكفر والعظائم ، ويرون خلافهم ، ولا يؤمنون بعذاب القبر ولا الحوض ولا الشفاعة ، ولا يخرجون أحدا من النار ، ويقولون : من كذب كذبة أو أتى صغيرة أو كبيرة من الذنوب فمات من غير توبة فهو كافر ، وفى النار مخلد ؛ ولا يرون الجماعة إلا خلف إمامهم ، ويرون تأخير الصلاة عن وقتها والصوم قبل رؤية الهلال ، والفطر مثل ذلك ، والنكاح بغير ولىّ ، ويرون المتعة والدرهم بالدرهمين يدا بيد حلالا ، ولا يرون الصلاة فى الخفاف ولا المسح عليها ولاطاعة السلطان ولاخلافة قريش وأكثر ما يكون الخوارج بالجزيرة وعمان والموصل وحضرموت . ونواحى العرب ، والذى وضع لهم الكتب عبد بن زيد ومحمد بن حرب ويحيى بن كامل وسعيد بن هارون ، فهم خمس عشرة فرقة ؛ منهم النجدات ، نسبوا إلى نجدة بن عامر الحنفى من اليمامة ، وهم أصحاب عبد الله ابن ناصر ، ذهبوا إلى أن من كذب كذبة أو أتى صغيرة وأصرّ عليها فهو مشرك ، وإن زنى وسرق وشرب الخمر من غير أن يصرّ عليها فهو مسلم ، وأنه لا يحتاج إلى إمام ، إنما الواجب

العلم بكتاب الله فحسب . ومنهم الأزارقة وهم أصحاب نافع بن الأزرق ذهبوا إلى أن كل كبيرة كفر ، وأن الدار دار كفر ، وأن أبا موسى وعمرو بن العاص رضى الله عنهما كفرا بالله حين حكمهما علىّ رضى الله عنه بينه وبين معاوية رضى الله عنه فى النظر فى الأصلح للرعية ، ويرون أيضا قتل الأطفال ، يعنى أولاد المشركين ، ويحرّمون الرجم ، ولا يحدّون قاذف المحصن ؛ ويحدّون قاذف المحصنات . ومنهم الفدكية منسوبة إلى ابن فديك . ومنهم العطوية منسوبون إلى عطية بن الأسود . ومنهم العجاردة منسوبة إلى عبد الرحمن بن عجرد وهم فرق كثيرة ، وهم ، الميمونية جميعا ، يجيزون بنات البنين وبنات البنات وبنات الإخوة وبنات الأخوات ، ويقولون إن سورة يوسف ليست من القرآن . ومنهم الحازمية تفرّدت بأن الولاية والعداوة صفتان فى ذاته تعالى ، وتشعبت الحازمية من المعلومية ، فذهبوا إلى أن من لم يعلم الله بأسمائه فهو جاهل ، ونفوا أن تكون الأفعال خلقا لله تعالى ، وأن تكون الاستطاعة مع الفعل ؛ ومن أصل الخمس عشرة : المجهولية ، وهى تقول : إن من علم الله ببعض أسمائه فهو عالم به غير جاهل . ومنهم الصلتية ، وهى منسوبة إلى عثمان بن الصلت ، وادّعت أن من استجاب لنا وأسلم وله طفل فليس له إسلام حتى يدرك ، وتدعوه إلى الإسلام فيقبله . ومنهم الأخنسية ، منسوبة إلى رجل يقال له الأخنس ، ذهبوا إلى أن السيد يأخذ من زكاة عبده ويعطيه من زكاته إذا احتاج ، وافتقر . ومنهم الظفرية والحفصية طائفة متشعبة منها يزعمون أن من عرف الله وكفر بما سواه من رسول وجنة ونار ، وفعل سائر الجنايات من قتل النفس ، واستحلال الزنا فهو برىء من الشرك ، وإنما يشرك من جهل الله وأنكره فحسب ، ويزعمون أن الحيران الذى ذكره الله تعالى فى القرآن هو علىّ وحزبه وأصحابه ، يدعونه إلى الهدى ائتنا ، وهم أهل النهروان . ومنهم الأباضية زعموا أن جميع ما افترضه الله تعالى على خلقه إيمان ، وأن كل كبيرة فهو كفر نعمة لا كفر شرك . ومنهم البهنسية منسوبة إلى أبى بهنس ، تفرّدوا فزعموا أن الرجل لا يكون مسلما حتى يعلم جميع ما أحلّ الله عليه ، وحرّم عليه بعينه ونفسه . ومن البهنسية من يقول : كل من واقع ذنبا حراما عليه ليس يكفر ، حتى يرفع إلى السلطان فيحدّه عليه ، فحينئذ يحكم بالكفر . ومنهم الشمراخية منسوبة إلى عبد الله بن الشمراخ ، زعم أن قتل الأبوين حلال ، وكان حين ادّعى ذلك فى دار التقية ، فتبرأت منه الخوارج بذلك . ومنهم البدعية قولها كقول الأزارقة ، وتفرّدت بأن الصلاة ركعتان بالغداة وركعتان بالعشى لقول الله عزّ وجل (أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات) . واتفقت مع الأزارقة على جواز سبى النساء وقتل الأطفال من الكفار مغتالا لقوله تعالى (لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) واتفقت جميع الخوارج على كفر علىّ رضى الله عنه لأجل التحكيم ، وعلى كفر مرتكب الكبيرة ، إلا النجدات فإنها لم توافقهم على ذلك .

(فصل) وأما الشيعة فلهم أسام منها الشيعة والرافضة والغالية والطيارة ، وإنما قيل لها الشيعة ، لأنها شيعت عليا رضى الله عنه وفضلوه على سائر الصحابة ؛ وقيل لها الرافضة لرفضهم أكثر الصحابة

وإمامة أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ؛ وقيل سموا الروافض لرفضهم زيد بن على لما تولى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما وقال بإمامتهما ، وقال زيد : رفضونى ، فسموا رافضة ، وقيل : إن الشيعى من لايفضل عثمان على على رضى الله عنهما ؛ والروافض : من فضل عليا على عثمان رضى الله عنهما . ومنهم القطعية لقطعهم على موت موسى بن جعفر . ومنهم الغالية لغلوهم فى على رضى الله عنه ، وقولهم فيه بما لايليق من صفات الربوبية والنبوة ، والذين صنفوا كتبهم هشام بن الحكم وعلى بن منصور وأبوالأحوص والحسين بن سعيد والفضل ابن شاذان وأبو عيسى الوراق وابن الراوندى والمنبجى ، وأكثر ما يكونون فى بلاد قم وقاشان وبلاد إدريس والكوفة ؛

(فصل) وأما الرافضة ، فهم ثلاثة أصناف : الغالية ، والزيدية ، والرافضة[١] : أما الغالية فيتفرق منها اثنتا عشرة فرقة ، منها البنانية والطيارية والمنصورية والمغيرية والخطابية والمعمرية والبزيعية والمفضلية والمتناسخة والشريعية والسبئية والمفوضة . وأما الزيدية فتشعبت ست شعب. منها الجارودية ، والسليمانية ، والبترية ، والنعيمية ، واليعقوبية ، والسادسة لاتنكر الرجعة ويتبرءون من أبي بكر وعمر رضى الله عنهما . وأما الرافضة فتفرقت أربع عشرة فرقة : القطعية والكيسانية والكريبية والعميرية والمحمدية والحسينية والناوسية والإسماعيلية والقرامضية والمباركية والشميطية والعمارية والمطمورية والموسوية والإمامية . والذى اتفقت عليه طوائف الرافضة وفرقها إثبات الإمامة . عقلا ، وأن الإمامة نص ، وأن الأئمة معصومون من الآفات من الغلط والسهو والخطأ . ومن ذلك نكارهم إمامة المفضول والاختيار الذى قدمناه فى ذكر الأئمة . ومن ذلك تفضيلهم عليا على جميع الصحابة ، وتنصيصهم على إمامته بعد النبى صلى الله عليه وسلم وتبرؤهم من أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة ، إلا نفرا منهم سوى ما حكى عن الزيدية ، فإنهم خالفوهم فى ذلك ، ومن ذلك أيضا ادعاؤهم أن الأمة ارتدت بتركهم إمامة على رضى الله عنه إلا ستة نفر ، وهم على وعمار والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسى ورجلان آخرن . ومن ذلك قولهم : إن للإمام أن يقول لست بإمام فى حال التقية ، وإن الله لا يعلم مايكون قبل أن يكون ، وإن الأموات يرجعون إلى الدنيا قبل يوم الحساب ، إلا الغالية منهم ، فإنها زعمت بأن لاحساب ولاحشر ؛ ومن ذلك أن الإمام يعلم كل شيء ما كان وما يكون من أمر الدنيا والدين حتى عددا لحصى وقطر الأمطار وورق الأشجار ، وأن الأئمة تظهر على أيديهم المعجزات كالأنبياء عليهم السلام . وقال الأكثرون منهم : إن من حارب عليا رضى الله عنه فهو كافر بالله عز وجل ، وأشياء ذكروها غير ذلك . وأما الذى انفردت به كل فرقة : فمنهم الغالية وقد ادعت أن عليا رضى الله عنه أفضل الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وادعت أنه ليس بمدفون فى التراب كبقية الصحابة رضى الله عنهم ، بل هو فى السحاب يقاتل أعداءه تعالى من فوق السحاب ، وأنه كرم

(١) قوله « والرافضة » كذا فى الأصل وحرر التقسيم .

الله وجهه يرجع فى آخر الزمان يقتل مبغضه وأعداءه ، وأن عليا وسائر الأئمة لم يموتوا ، بل هم باقون إلى أن تقوم الساعة ، ولا يتطرق عليهم الموت ؛ وادعت أيضا أن عليا رضى الله عنه نبى ، وأن جبريل عليه السلام غلط فى نزول الوحى عليه ؛ وادعت أيضا أن عليا كان إلها عليهم لعنة الله وملائكته وسائر خلقه إلى يوم الدين ، وقلع آثارهم وأباد خضراءهم ، ولاجعل منهم فى الأرض ديارا لأنهم بالغوا فى غلوهم وسردوا على الكفر ، وتركوا الإسلام وفارقوا الإيمان ، وجحدوا الإله والرسل والتنزيل ، فنعوذ بالله ممن ذهب إلى هذه المقالة . ويتفرع عن الغالية البنانية وهم ينسبون إلى بنان بن سمعان ، ومن جملة فريتهم وأباطيلهم أن الله تعالى على صورة الإنسان ، كذبوا على الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا قال عز وجل (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) . وأما الطيارية من الغالية ، وهى منسوبة إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار يقولون بالتناسخ ، وأن روح آدم عليه السلام روح الله فنسخت فيه ؛ والمتعمقون من الغالية القائلون بالتناسخ ، يزعمون أن الروح المنقولة إلى هذه الديار بعد أن خرجت من الدنيا بالموت أول ماتنسخ فى جمل ، ثم تنتقل إلى ما دون هيكله أبدا حالا بعد حال ، إلى أن تنتقل دود العذرة وما شاكل ذلك ، وهو آخر ما تنسخ فيه ، حتى قال بعضهم : إن أرواح العصاة تنسخ فى الحديد والطين والفخار ، وتكون معذبة بالنار والطبخ والضرب والسبك والابتذال والامتهان عقابا على إجرامهم ؛ وأما المغيرية ، فمنسوبة إلى مغيرة بن سعد ادعى النبوة ، وزعم أن الله نور على صورة رجل وادعى إحياء الموتى وغير ذلك . وأما المنصورية ، فمنسوبة إلى أبى منصور ، كان يزعم أنه صعد إلى السماء ومسح الرب رأسه وزعم أن عيسى عليه السلام أول خلق الله ، ثم على رضى الله عنه ، ورسل الله لاتنقطع ، وأن لاجنة ولانار ، وتزعم هذه الطائفة أن من قتل أربعين نفسا ممن خالفهم دخل الجنة ، ويستحلون أموال الناس ، وأن جبريل عليه السلام أخطأ بالرسالة ، وهو الكفر الذى لايشوبه شىء . وأما الخطابية ، فمنسوبة إلى أبى الخطاب يزعمون أن الأئمة أنبياء أمناء ، وفى كل وقت رسول ناطق وصامت ، فمحمد صلى الله عليه وسلم ناطق ، وعلى رضى الله عنه صامت . وأما المعمرية فكذلك تقول ، وانفردت عن الخطابية بالزيادة فى ترك الصلاة . وأما البزيعية المنسوبة إلى بزيع ، فزعموا أن جعفرا هو الله فلا يرى ولكنه يشبه هذه الصورة ، تبا لهم ، وأنهم يأتيهم الوحى ويرفعون إلى الملكوت ، تبا لهم ما أعظم فريتهم وكذبهم وأباطيلهم ، بل يحطون إلى أسفل السافلين إلى الهاوية والدرك الأسفل من النار بمقالتهم السوء ودعواهم الزور . وأما المفضلية ، فمنسوبة إلى المفضل الصيرفى ، ينتحلون الرسالة والنبوة ، وقولهم فى الأئمة كقول النصارى فى المسيح . وأما الشريعية ، فمنسوبة إلى شريع زعموا أن الله تعالى فى خمسة أشخاص النبى وآله ، يعنى فى النبى وآله ، وهم العباس وعلى وجعفر وعقيل . وأما السبئية ، فمنسوبة إلى عبد الله بن سبأ ، من دعواهم أن عليا لم يمت ، وأنه يرجع قبل يوم القيامة ، والسيد الحميرى منهم . وأما المفوضية ، فهم القائلون إن الله فوض تدبير الخلق إلى الأئمة وإن الله تعالى قد أقدر النبى صلى الله عليه وسلم على الخلق للعالم وتدبيره ، وإن كان ما خلق الله من ذلك

شيئا ، وكذلك قالوا فى حق علىّ رضى الله عنه ؛ ومنهم من إذا رأى السحاب سلم عليه ؛ يزعم أن عليا رضى الله عنه فيه على ما بينا من قبل . وأما الزيدية ، فإنما سموا بذلك لميلهم إلى قول زيد بن علىّ فى تولية أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . وأما الجارودية ، فمنسوبة إلى أبى الجارود، زعموا أن عليا رضى الله عنه وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الإمام ، وقالوا إن النبىّ صلى الله عليه وسلم نصّ على علىّ بصفته لا باسمه ، ويسوقون الإمامة إلى الحسين ، ثم هى شورى بينهم فيمن خرج منهم . وأما السليمانية فمنسوبة إلى سليمان بن كثير ، قال زرقان : زعموا أن عليا كرم الله وجهه كان الإمام ، وأن بيعة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما خطأ ، لا يستحقان اسم السبق ، وأن الأمة تركت الأصلح . وأما البترية ، فمنسوبة إلى الأبتر وهو النواء ، وكان يلقب به ، وزعموا أن بيعة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ليست بخطأ ، لأن عليا رضى الله عنه ترك الإمارة وهم واقفون فى عثمان ويقولون علىّ إمام حين بويع . وأما النعيمية ، فمنسوبة إلى نعيم بن اليمان ، وهى تقول بقول الأبترية ، إلا أنها تبرأت من عثمان بن عفان رضى الله عنه وكفرت به . وأما اليعقوبية ، فيقولون بإمامة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، إلا أنهم يقولون بتفضيل علىّ عليهما ، وينكرون الرجعة ، فهى تنسب إلى رجل يقال له يعقوب ، ومنهم من تبرأ من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ويقولون بالرجعة

(فصل) وأما الرافضة ، فالأربع عشرة فرقة التى تفرّعت عنها : أولها القطعية : سموا بذلك لقطعهم على موت موسى بن جعفر ساقوا الإمامة إلى محمد بن الحنفية ، وهو القائم المنتظر . والثانية الكيسانية وهى منسوبة إلى كيسان يقولون بإمامة محمد بن الحنفية ، لأنه دفع إليه الراية بالبصرة . والثالثة الكريبية ، وهم أصحاب ابن كريب الضرير . والرابعة العميرية . وهم أصحاب عمير ، وهو إمامهم إلى خروج المهدى . والخامسة المحمدية ، وقد زعمت أن القائم محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين ، وأنه أوصى إلى أبى منصور دون بنى هاشم ، كما أوصى موسى عليه السلام إلى يوشع بن نون دون ولده وولد هارون . وأما السادسة ، فالحسينية ، زعمت أن أبا منصور أوصى إلى ولده الحسين بن أبى منصور وهو الإمام بعده . وأما الناوسية فلقبوا به لأنهم نسبوا إلى ناوس البصرى الذى هو رئيسهم ؛ ويقولون بإمامة جعفر وأنه حىّ لم يمت بعد ، وأنه قائم وهو المهدى . وأما الإسماعيلية ، فقد قالوا إن جعفرا الميت والإمام بعده إسماعيل ، وقالوا إنه يملك وهو المنتظر . وأما القرامضية ، فهم يسوقون الإمامة إلى جعفر ، وأن جعفرا نصّ على وراثة محمد بن إسماعيل ، ومحمد لم يمت وهو حىّ ، وهو المهدى . وأما المباركية ، فمنسوبة إلى رئيس المبارك ، زعموا أن محمد بن إسماعيل مات ، وأن الإمامة فى ولده . وأما الشمطية ، فمنسوبة إلى رئيس يقال له يحيى بن شميط ، زعموا أن الإمام جعفر ثم محمد بن جعفر ثم فى ولده وأما المعمرية ويقال لهم الأفطحية ، لأن عبد الله بن جعفر كان أفطح الرجلين يقولون إن الإمام بعد جعفر ابنه عبد الله وهم عدد كثير . وأما المطمورية ، فسموا بذلك لأنهم ناظروا يونس بن عبد الرحمن ، وهو من القطعية الذين يقطعون على موت

موسى بن جعفر ، فقال لهم يونس : أنتم أهون من الكلاب المطمورية ، فلزمهم هذا اللقب ؛ ويسمون الواقفة لوقوفهم على موسى بن جعفر وقولهم هو حيّ لم يمت ، ولا يموت ، وهو المهدي عندهم . وأما الموسوية ، فسمعوا لذلك لوقوفهم في موسى وقولهم لاندرى أميت هو أم حيّ ؟ وقالوا إن صحت إمامة غيره أنفذوها . وأما الإمامية ، فيسوقون الإمامة إلى محمد ابن الحسين ، وأنه القائم المنتظر الذى يظهر فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا . وأما الزرارية ، فهم أصحاب زرارة ، ادعىّ ما ادعت المعمرية ، وقيل إنه ترك مقالتها وأنه سأل عبد الله بن جعفر عن مسائل ولم يعلمها ، فصار إلى موسى بن جعفر ، فقد شبهت مذاهب الروافض باليهودية ؛ قال الشعبي : محبة الروافض محبة اليهود ، قالت اليهود : لاتصلح الإمامة إلا لرجل من آل داود ؛ وقالت الرافضة : لاتصلح الإمامة إلا لرجل من ولد على بن أبى طالب ؛ وقالت اليهود : لاجهاد فى سبيل الله حتى يخرج المسيح الدجال ، وينزل بسبب من السماء ؛ وقالت الروافض : لاجهاد فى سبيل الله حتى يخرج المهدى وينادى مناد من السماء ؛ وتؤخر اليهود صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم ، وكذلك الروافض يؤخرونها ، واليهود تزول عن القبلة شيئا ، وكذلك الرافضة ؛ واليهود تنوّر فى الصلاة ، وكذلك الرافضة ؛ واليهود تسدل أبوابها فى الصلاة ، وكذلك الروافض ؛ واليهود تستحلّ دم مسلم ، وكذلك الروافض ؛ واليهود لاترى على النساء عدة ، وكذلك الرافضة ، واليهود لاترى فى الطلاق الثلاث شيئا ، وكذلك الروافض ؛ واليهود حرّفت التوراة ، وكذلك الرافضة حرّفوا القرآن ، لأنهم قالوا القرآن غيّر وبدل ، وخولف بين نظمه وترتيبه ، وأحيل عما أنزل عليه ، وقرئ على وجوه غير ثابتة عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه قد نقص منه وزيد فيه ؛ واليهود يبغضون جبريل عليه السلام ويقولون هو عدوّنا من الملائكة ، وكذلك صنف من الروافض يقولون غلط جبريل عليه السلام بالوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما بعث إلى علىّ رضى الله عنه ، كذبوا تبا لهم إلى آخر الدهر .

(فصل) وأما المرجئة ففرقها اثنتا عشرة فرقة : الجهمية والصالحية والشمرية واليونسية واليونانية والنجارية والغيلانية والشبيبية والحنفية والمعاذية والمريسية والكرامية . وإنما سموا المرجئة لأنها زعمت أن الواحد من المكلفين إذا قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وفعل بعد ذلك سائر المعاصى لم يدخل النار أصلا ، وأن الإيمان قول بلا عمل ، والأعمال الشرائع ، والإيمان قول مجرّد ، والناس لايتفاضلون فى الإيمان ، وأن إيمانهم وإيمان الملائكة والأنبياء واحد لايزيد ولاينقص ولايستثنى فيه ، فمن أقرّ بلسانه ولم يعمل فهو مؤمن .

(فصل) وأما الجهمية ، فمنسوبة إلى جهم بن صفوان وكان يقول : الإيمان هو المعرفة بالله ورسوله وجميع ما جاء من عنده فقط ، ويزعمون أن القرآن مخلوق ، وأن الله تعالى لم يكلم موسى ، وأنه تعالى لم يتكلم ولا يرى ولايعرف له مكان وليس له عرش ولا كرسى ، ولا هو على العرش ، وأنكروا الموازين وعذاب القبر ، وكون الجنة والنار مخلوقتين ، وادّعوا أنهما إذا خلقتا تفنيان ، والله عزّ وجل لايكلم خلقه ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا ينظر أهل

الجنة إلى الله تعالى ولا يرونه فيها ، وأن الإيمان معرفة القلب دون إقرار اللسان وأنكروا جميع صفات الحق عزّ وجل ، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا . وأما الصالحية ، فإنما سميت بذلك لقولها بمذهب أبي الحسين الصالحي ، وكان يقول : الإيمان هو المعرفة ، والكفر هو الجهل ، وأن قول من قال ذلك ثلاثة ليس بكفر وإن كان لايظهر إلا ممن كان كافرا ، وأن لاعبادة إلا الإيمان . وأما اليونسية ، فمنسوبة إلى يونس البرى ، زعم أن الإيمان هو المعرفة والخضوع والمحبة لله عزّ وجل ، وأن من ترك خصلة منها فهو كافر . وأما الشمرية ، فمنسوبة إلى أبي شمر ، زعم أن الإيمان هو المعرفة والخضوع والمحبة والإقرار بأنه واحد ليس كمثله شيء ، وذلك باجتماعه إيمان . وقال أبو شمر : لا أسمى من ركب الكبيرة فاسقا على الإطلاق دون أن أقول فاسق فى كذا وكذا . وأما اليونانية ، فمنسوبة إلى يونان ، زعموا أن الإيمان هو المعرفة والإقرار بالله ورسله ، وما لايجوز فى العقل لايفعله . وأما النجارية ، فمنسوبة إلى حسن بن محمد ابن عبد الله النجار يقولون : إن الإيمان والمعرفة بالله وبرسله ، وفرائضه المجتمع عليها ، والخضوع له والإقرار باللسان ، فمتى جهل منه شيئا وقامت عليه الحجة ولم يقرّبه كان كافرا . وأما الغيلانية ، فمنسوبة إلى غيلان ، وافقوا الشمرية وزعموا أن العلم بحدوث الأشياء ضرورى ، والعلم بالتوحيد هو العلم باللسان . وفى حكاية زرقان أن غيلان كان يقول بأن الإيمان هو الإقرار باللسان وهو التصديق . وأما الشبيبية فهم أصحاب محمد بن شبيب ، زعموا أن الإيمان هو الإقرار بالله والمعرفة بواحدنيته ، ونفى التشبيه عنه .

وزعم محمد أن الإيمان كان فى إبليس ، وإنما كفر لاستكباره . وأما الحنفية ، فهم بعض أصحاب أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، زعموا أن الإيمان هو المعرفة والإقرار بالله ورسوله ، وبما جاء من عنده جملة على ما ذكره البرهوتى فى كتاب الشجرة . وأما المعاذية ، فمنسوبة إلى معاذ الموصى كان يقول : من ترك طاعة الله يقال له إنه فسق ، ولا يقال فاسق ، والفاسق ليس بعدوّ الله ولا ولىّ الله . وأما المريسية ، فمنسوبة إلى بشر المريسى ، يزعمون أن الإيمان هو التصديق ، وأن التصديق يكون بالقلب واللسان وإلى هذا كان يذهب ابن الراوندى ، وزعم أيضا أن السجود للشمس ليس بكفر ولكنه أمارة الكفر .

(فصل) وأما الكرامية ، فمنسوبة إلى أبي عبد الله بن كرام ، زعموا أن الإيمان هو الإقرار باللسان دون القلب ، وأن المنافقين كانوا مؤمنين فى الحقيقة ، ومن قولهم إن الاستطاعة تتقدم الفعل مع وجود كونها مقارنة له ، بخلاف ماقال أهل السنة من أنها مع الفعل ، ولا يجوز أن تتقدمه من غير شرط ، ومؤلفو كتبهم أبو الحسين الصالحى وابن الراوندى ومحمد بن شبيب والحسين بن محمد النجار ، وأكثر ما يكون مذهبهم بالمشرق ونواحى خراسان .

(فصل) فى ذكر مقالة المعتزلة والقدرية ؛ وإنما سموا المعتزلة لاعتزالهم الحق ، وقيل لاعتزالهم أقاويل المسلمين ، لأن الناس كانوا مختلفين فى مرتكب الكبيرة ، فقال بعضهم : هم مؤمنون بما معهم من الإيمان . وقال بعضهم : هم كافرون ، فأحدث واصل بن عطاء قولا ثالثا ،

وفارق المسلمين واعتزل المؤمنين فقال: ماهم بمؤمنين ولا كافرين فسموا بذلك المعتزلة. وقيل: إنما سموا بذلك، لاعتزالهم مجلس الحسن البصرى رحمه الله، فمر الحسن بهم وقال: هؤلاء معتزلة، فلقبوا بذلك، وهم يقتدون بعمرو بن عبيد. ولما غضب الحسن البصرى على عمرو بن عبيد عوتب فى ذلك، فقال: أتعاتبوننى فى رجل رأيته يسجد للشمس من دون الله فى المنام؟ وسموا قدرية لردّهم قضاء الله عزّ وجل وقدره فى معاصى العباد، وإثباتهم لها بأنفسهم، ومذهب المعتزلة والجهمية والقدرية فى نفى الصفات واحد. وقد ذكرنا بعض مذاهبهم فى الاعتقاد؛ ومؤلفو كتبهم أبو الهذيل وجعفر بن حرب الخياط والكعبى وأبو هاشم وأبو عبد الله البصرى وعبد الجبار بن أحمد الهمدانى، وأكثر ما يكون مذهبهم بالعسكر والأهواز وجهزم، وهم ست فرق: الهذلية والنظامية والمعمرية والجبائية والكعبية والبهشمية. والذى اجتمعت عليه فرق المعتزلة نفى الصفات بأجمعها، فنفت أن يكون له عزّ وجل علم وقدرة وحياة وسمع وبصر، وكذلك نفى الصفات المثبتة بالسمع، من الاستواء والنزول وغير ذلك؛ واجتمعت أيضا على أن كلام الله محدث، وإرادته محدثة، وأنه تكلم بكلام خلقه فى غيره، ويريد بإرادة محدثة لافى محلّ، وأنه تعالى يريد خلاف معلومه، ويريد من عباده مالايكون، ويكون مالا يريد، وأنه تعالى لايقدر على مقدورات غيره، بل يستحيل ذلك وأنه لم يخلق أفعال عبيده، بل هم الخالقون لها دون ربهم؛ وإن كثيرا مما يتغذّاه الإنسان لم يرزقه الله إذا كان حراما، وإنما الذى يرزق الله الحلال دون الحرام، وأن الإنسان قد يقتل دون أجله، والقاتل يقطع أجله قبل حينه، وأن من ارتكب كبيرة من الموحدين وإن لم يكن كفرا فإنه يخرج بها من إيمانه، ويخلد فى النار أبدا الآبدين، وتبطل جميع حسناته، وأبطلوا شفاعة النبىّ صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر، وأكثرهم نفوا عذاب القبر والميزان ورأوا الخروج على السلطان وترك طاعته، وأنكروا انتفاع الميت بدعاء الحىّ له والصدقة عنه وصول ثوابها إليه. وزعمت أيضا أن الله سبحانه لم يكلم آدم ونوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا صلوات الله عليهم أجمعين، ولا جبريل ولا ميكائيل ولا إسرافيل ولا حملة العرش ولا ينظر إليهم، مثل مالا يكلم إبليس واليهود والنصارى.

وأما الذى انفردت به كل فرقة منها: أما الهذلية، فقد انفرد شيخهم أبو الهذيل بأن لله علما وقدرة وسمعا وبصرا، وأن كلام الله بعضه مخلوق وبعضه غير مخلوق، وهو قوله تعالى (كن) وقال: إن الله تعالى ليس بخلاف خلقه، وأن مقدور الله متناه، فيبقى أهل الجنة لاحركة لهم، والله تعالى لايقدر على تحريكهم ولاهم يقدرون على ذلك ويجوز أن يكون الميت والمعدوم والعاجز يفعل الأفعال، وأبى أن يكون الله تعالى لم يزل سميعا. وأما النظامية، فكان شيخهم النظام يقول: إن الجمادات تفعل بإيجاب الخلقة، وكان ينفى الأعراض إلا الحركة الاعتمادية ويقول: إن الإنسان هو الروح، وإن أحدا لم ير النبىّ صلى الله عليه وسلم، وإنما رأى ظرفه يعنى جسمه وخرق الإجماع فقال: من ترك الصلاة عامدا إذا ذكر فلا إعادة عليه، وكان ينفى إجماع الأمة، ويجوّز إجتماعها على باطل، ويقول: إن الإيمان مثل الكفر، والطاعة كالمعصية،

وفعل النبيّ صلى الله عليه وسلم كفعل إبليس اللعين ، وأن سيرة عمر وعليّ رضى الله عنهما كسيرة الحجاج ، وإنما التزم ذلك وركبه لأنه كان يقول : الحيوان كله جنس واحد ، وزعم أن القرآن ليس بمعجز فى نظمه ، وأن الله تعالى ليس بقادر على تحريق الطفل ، ولو كان على شفير جهنم ولا على طرحه فيها ، وهو أول من قال بالكفر من أهل القبلة ، وكان يقول : إن الجسم يتجزأ إلى ما لا غاية له ، وكان يقول : إن الحيات والعقارب والخنافس فى الجنة ، وكذلك الكلاب والخنازير فى الجنة . وأما المعمارية فكان شيخهم المعمر يقول بقول أهل الطبائع ، ويتجاوز ويزعم أن الله تعالى لم يخلق لونا ولا طعما ولا رائحة ولا موتا ولا حياة ، وأن ذلك كله فعل الجسم بطبعه ، وكان يقول : إن القرآن فعل الأجسام ، وليس هو بفعل الله ، وأنكر أن يكون الله تعالى قديما ، تبا له وأبعده الله تعالى من هذه الأمة . وأما الجبائية فكان شيخهم الجبائى خرق الإجماع وشذّ عنه فى أشياء : منها أنه كان يقول : إن العباد خالقون لأفعالهم ولم يسبقه إلى هذه أحد . وكان يقول : إن الله تعالى أحبل نساء العالمين بخلقه الحبل فيهن ، وكان يقول : إن الله تعالى مطيع لعباده إذا فعل ما أراده وقال من حلف أن يعطى غريمه حقه غدا واستثنى فى ذلك بقول إن شاء الله لم ينفعه الاستثناء ، فإذا لم يعط حنث ، وكان يقول : إن من سرق خمسة دراهم كان فاسقا وإن نقصت منه حبة لم يفسق . وأما البهشمية ، فمنسوبة إلى أبى هاشم بن الجبائى ، وكان أبو هاشم يجوّز أن يكون المكلف قادرا ، وهو لا يكون فاعلا ولا تاركا ، فيعاقبه الله تعالى على فعله ؛ وكان يقول : من تاب من سائر الذنوب إلا ذنبا واحدا لم تصحّ توبته فيما تاب منه . وأما الكعبية ، فمنسوبة إلى أبى القاسم الكعبى وكان بغداديا ، فأنكر أن يكون الله سميعا بصيرا ، وأن يكون مريدا بالحقيقة ، وأن إرادة الله تعالى من فعل عباده هو الأمر به ، وإرادته من فعل نفسه هو علمه وعدم الإكراه ، وزعم أن العالم كله ملأ ، وأن المتحرّك إنما هو الصفحة الأولى من الأجسام ، وأن الإنسان لو تدهن بدهن ومشي لم يكن هو المتحرّك ، وإنما الدهن هو المتحرّك ؛ وكان يقول : إن القرآن محدث ولا يقول مخلوق .

(فصل) وأما ذكر مقالة المشبهة فهم ثلاث فرق : الهشامية ، والمقاتلية ، والواسمية[1] . والذى اتفقت عليه الفرق الثلاث ، أن الله تعالى جسم ، وأنه لا يجوز أن يعقل الموجود إلا جسما ؛ والذى غلب عليهم التشبيه فرق الروافض والكرامية الذين ألف كتبهم هشام بن الحكم ، وله كتاب فى إثبات الجسم . أما الهشامية ، فمنسوبة إلى هشام بن الحكم زعم أن الله تعالى جسم طويل عريض عميق نور ساطع له قدر من الأقدار كالسبيكة الصافية يتحرّك ويسكن ويقوم ويقعد . وحكى عنه أنه قال : أحسن الأقدار أن يكون سبعة أشبار ؛ وقيل له : ربك أعظم أم أحد ؟ فقال : ربى أعظم : وأما المقاتلية ، فمنسوبة إلى مقاتل بن سليمان . حكى عنه أنه قال : إن الله تعالى جسم وأنه جثة على صورة الإنسان لحم ودم وله جوارح وأعضاء من رأس ولسان وعنق وأنه فى جميع ذلك لا يشبه الأشياء ولا تشبهه .

(١) قوله « والوسمية » كذا بالأصل الذى بأيدينا ولم يتعرض لبيانها كالهشامية والمقاتلية . اهـ .

(فصل) فى ذكر مقالة الجهمية : تفرّد جهم بن صفوان بأن الإنسان إنما ينسب إليه مايظهر منه على المجاز لاعلى الحقيقة ، كما يقال : طالت النخلة وأدركت الثمرة ، وكان يأبى أن يقول : إن الله كان عالما بالأشياء قبل كونها ، ويقول : إن الجنة والنار تفنيان، وينفى الصفات ، كان مذهب جهم بترمذ وهو بلد ، وقيل بمرو ، وله تأليف فى نفى الصفات ، قتله مسلم ابن أحوذ المروانى . وأما الضرارية ، فمنسوبة إلى ضرار بن عمرو ، وكان يقول ضرار : إن الأجسام أعراض مجتمعة ، وجوّز أن تنقلب الأعراض أجساما ، وأن الاستطاعة بعض المستطيع وهى قبل الفعل . وأنكر قراءة ابن مسعود وأبىّ بن كعب رضى الله عنهما . وأماالنجارية، فهى منسوبة إلى الحسين بن محمد النجار ، كان يثبت فعل الفاعلين بالحقيقة لله تعالى وللعبد ، وكان يقول بنفى الصفات ، وقال بقول المعتزلة فى نفى الصفات ، إلا فى نفى الإرادة ، فإنهأثبت أن القديم مريد لنفسه . وكان يقول : بخلق القرآن ، ويقول : إن الله مريدعلى معنى أنه ليس بمقهور ولامغلوب ، وأن الله متكلم بمعنى أنه ليس بعاجز عن الكلام ، وأنه لم يزل جوادا بمعنى نفى البخل عنه ، ومذهبه موافق لمذهب ابن عون وأبى يوسف الرازى ، وأكثر ما يكون مذهبه بقاشان . وأما الكلابية ، فمنسوبة إلى أبى عبد الله بن كلاب ، وكان يقول : صفات الله ليست بقديمة ولا محدثة ، وكان يقول : لا أقول صفاته هى هو ، ولا هى غيره ، وأن معنى الاستواء نفى الاعوجاج فى قوله (الرحمن على العرش استوى) وأن الله لم يزل على ما كان عليه من قبل وأن لامكان ، ونفى أن يكون القرآن حروفا :

(فصل) : فى ذكر مقالة السالمية ؛ وهى منسوبة إلى ابن سالم من قولهم إن الله سبحانه يرى يوم القيامة فى صورة آدمىّ محمدىّ ، وأنه عزّ وجل يتجلى لسائر الخلق يوم القيامة من الجنّ والإنس والملائكة والحيوان أجمع لكل واحد فى معناه ، وفى كتاب الله تعالى تكذيبهم ، وهو فى قوله عزّ وجل (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ومن قولهم إن لله تعالى سرّا لوأظهره لبطل التدبير ، وللأنبياء سرّا لو أظهروه لبطلت النبوّة ، وللعلماء سرّا لوأظهروه لبطل العلم ، وهذا فاسد ، لأن الله تعالى حكيم وتدبيره محكم لايتطرّق نحوه البطلان والفساد ، وما ذكروه يؤدى إلى إبطال حكمته تعالى ، وهذا كفر . ومن قولهم إن الكفار يرون الله تعالى فى الآخرة ويحاسبهم ، ومن قولهم إن إبليس سجد لآدم فى الثانية ، وفى القرآن تكذيبهم ، وهو قول الله عزّ وجل (إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) وقوله تعالى (إلا إبليس لم يكن من الساجدين) ومن قولهم : إن إبليس ما دخل الجنة ، وفى القرآن تكذيبهم ، وهو قوله تعالى (اخرج منها فإنك رجيم) ومن قولهم : إن جبريل كان يجيء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم لايبرح من مكانه ، ومن قولهم : إن الله تعالى لما كلم موسى عليه السلام أعجب موسى بنفسه ، فأوحى الله إليه يا موسى أتعجبك نفسك ، مدّ عينيك ، فمدّ موسى عينيه ، فنظر إذا قدامه مائة طور ، على كل طور موسى . وهذا منكر عند أهل النقل وأصحاب الحديث ، فهو حديث باطل ، وقد أوعد النبىّ صلى الله عليه وسلم من كذب عليه فقال : «من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»

ومن قولهم إن الله تعالى يريد من العباد الطاعات ولايريد منهم المعاصي ، وأنه عزّ وجل أرادها بهم لامنهم وهذا باطل ، لأن الله تعالى قال (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا) يعنى كفره ، وقال الله تعالى (ولو شاء ربك ما فعلوه) وقال تعالى (ولو شاء الله ما اقتتلوا) . ومن قولهم إن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يحفظ القرآن قبل النبوّة ، وقبل أن يأتيه جبريل عليه السلام ، وفى القرآن تكذيبهم ، وهو قوله تعالى (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) وقوله تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) . ومن قولهم : إن الله تعالى يقرأ على لسان كل قارئ ، وأنهم إذا سمعوا القرن من قارئ فإنما يسمعونه من الله وهذا القول يفضى إلى الحلول ، نعوذ بالله من ذلك ، ويؤدى إلى أن الله تعالى يلحن ويلفظ وهذا كفر . ومن قولهم : إن الله تعالى فى كل مكان ، ولا فرق بين العرش وغيره من الأمكنة ، وفى القرآن تكذيبهم ، قال الله عز وجل (الرحمن على العرش استوى) ولا يقال على الأرض استوى ، ولا على بطون الجبال وغير ذلك من الأمكنة ، وهذا آخر ما يتعلق بالاعتقاد والأصول على وجه الإشارة والاختصار . وإنما لم نشر إلى إبطال كل مذهب من مذاهب هذه الفرق الضالة خوفا من إطالة الكتاب ، وإنما أوردنا ذكر مقالاتهم مجردة للتحذير منها ، أعاذنا الله وإياكم من شرّ هذه المذاهب وأهلها ، وأماتنا على الإسلام والسنة فى الفرقة الناجية برحمته :

باب

وأما الاتعاظ بمواعظ القرآن والألفاظ النبوية ففى مجالس نذكرها

الأول من ذلك مجلس فى قوله عز وجل

(فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم)

اعلم أن هذه الآية فىسورة النحل وهى مكية ، إلا ثلاث آيات من آخرها أنزلت بالمدينة ، وعدد آياتها مائة وعشرون آية وثمان آيات ، وعدد كلماتها ألف وثمانمائة وإحدى وأربعون كلمة وحروفها سبعة آلاف وسبعمائة وتسعة أحرف . قال أهل التفسير : كان سبب نزول هذه الآية ، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم ، وقرأ (والليل إذا يغشى) فى صلاة الفجر بمكة فأعلن قراءتهما ، فلما بلغ إلى قوله (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى؟) نعس النبيّ صلى الله عليه وسلم فألقى الشيطان فى قراءته : تلك الغرانيق العلا عندها الشفاعة ترتجى ، يعنى الأصنام ، قال : ففرح المشركون بذلك ، لأنهم أثبتوا لها الشفاعة ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، كما قال الله عز وجل (ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى) وكانوا يقولون إنها أجسام طاهرة ليس لها ذنوب ، فهى أولى بالعبادة لها من غيرها من الملوك والملائكة ، لأن لهم ذنوبا وهم ذوو أرواح ، فشبهوا الأصنام بالغرانيق ، وهى الذكور من الطيور ، واحدها غرنوق وغرنيق ، لكونها تعلو وترتفع فى السماء . وقيل : هو طائر أبيض من طير الماء

وقيل : هو الكركى ، ويسمى أيضا الشاب الناعم غرنوقا . ومنه حديث على رضى الله عنه : فكأنى أنظر إلى غرنوق من قريش يتشحط فى دمه : أى شاب . وقال مقاتل . يعنى الملائكة رجوا أن تكون للملائكة شفاعة ، لأن طائفة من الكفار كانت تعبد الملائكة ؛ فلما بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم خاتمة النجم سجد وسجد كل من حضر من مسلم ومشرك ، غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلا شيخا كبيرا ، فرفع ملء كفه من التراب إلى جبهته فسجد عليه ، فقال : نحنى كما تحنى أم أيمن وصواحباتها ، وكان أيمن خادم النبى صلى الله عليه وسلم فقتل يوم حنين ، فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك ، وهما من سجع الشيطان وفتنته ألقاهما فى قراءة النبى صلى الله عله وسلم عند آخر ذكر الطواغيت والأصنام ، فعجب الفريقان كلاهما من سجود هم أجمعين ، واتباعهم للنبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك . فأما المسلمون فعجبوا من سجود المشركين على غير إيمان ويقين ، وأما المشركون فطابت أنفسهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، لما سمعوا منه ما ألقى الشيطان فى أمنيته واستبشروا وقالوا : إن محمدا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه ، فسجدوا تعظيما لآلهتهم ، ففشت الكلمتان فى الناس بإظهار الشيطان حتى بلغتا الحبشة ، فكبر ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام وقال : معاذ الله من هاتين الكلمتين ما أنزلهما ربى عز وجل ولا أمرنى بهما ؛ فلما رأى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم شق عليه وقال : أطعت الشيطان وتكلمت بكلامه ، وأشركته فى أمر الله عز وجل ، فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأنزل عليه (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) يعنى فى تلاوته وقراءته (فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) فلما برأ الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم من سجع الشيطان وفتنته انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة ، فأنزل الله عز وجل (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) قال عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما : معناه إذا أردت أن تقرأ القرآن فقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ يعنى احترز بالله من الشيطان الرجيم ؛ أى إبليس اللعين ، يعنى المرجوم باللعنة ، فقال : ليس شىء قط أغلظ على إبليس اللعين من التعوذ بالله منه (إنه ليس له سلطان) يعنى ملك (على الذين آمنوا) فى علم الله فى الشرك فيضلهم عن الهدى (وعلى ربهم يتوكلون) يعنى بالله يثقون (إنما سلطانه) يعنى ملكه (على الذين يتولونه) يعنى إبليس اللعين أن يتبعونه على أمره (فيضلهم عن دينهم) الإسلام (والذين هم به) يعنى بالله (مشركون) أى من أجله مشركون .

(فصل) ومعنى أعوذ : الاستعاذة والاستجارة والالتجاء ، والمعاذ : الملجأ ، يقال : عاذ به يعوذ عياذا وعوذا ، ومعنى معاذ الله : أى ألجأ إليه وأعوذ به ، يقال : هذا عوذ لى مما أخاف ، أى مجيرى والدافع عنى ، فكأن العبد يعوذ بالله ليقيه من شر الشيطان ، والتعوذ بالقرآن هو التشفى به . وقيل : معنى الاستعاذة الاحتراز بالله عز وجل ، قال الله تعالى حاكيا عن أم مريم (وإنى أعيذها بك وذريتها) يعنى مريم وعيسى (من الشيطان الرجيم) يعنى احترز بالله فى حقهما من

الشيطان الرجيم ، واشتقاق الشيطان مأخوذ من الشطن وهو الحبل الطويل المضطرب ، والشطن البعد ، فكأنه تباعد من الخير وطال فى الشرّ واضطرب فيه ، ثم قيل للإنسان شيطان : أى كالشيطان فى فعله ، وكل شىء مستقبح فهو مشبه بالشيطان ، فيقال : كأنّ وجهه وجه الشيطان ، وكان رأسه رأس الشيطان ، ومنه قوله عزّ وجل (طلعها كأنه رءوس الشياطين) فهو رأس الشيطان المعروف ؛ وقد قيل : هو حيات لها رءوس منكرة وأعراف ؛ وقيل : رءوس الشياطين نبت معروف ، وأما الرجيم : فهو المرجوم باللعن : أى رماه باللعن وأبعده من الحضرة بعصيانه فى ترك السجود لآدم عليه السلام ، ورجمته الملائكة بالرجام ، وطردته بها حينئذ من السماء إلى الأرض ؛ ثم جعلت له الكواكب رجوما ، فيرجم هو وذريته إلى أن تقوم الساعة بالكواكب وباللعن ، كما قال الله عزّ وجل (وجعلناها رجوما للشياطين) .

(فصل) الشيطان بعيد من الله ، وبعيد من كل خير ، وبعيد من الجنة ، وقريب إلى النار . فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمته الكرام بالتعوّذ من الشيطان الرجيم البعيد من الرحمن ليبعدوا من النيران ، ويتقرّبوا إلى الجنان ، وينظروا إلى وجه الملك الديان ، فكأن الله عز وجل يقول : يا عبدى الشيطان منى بعيد ، وأنت منى قريب ، فأحسن الأدب فى حفظ الحال حتى لا يكون للشيطان عليك سبيل بسبب من الأسباب ، وحسن الآداب فى أداء الأوامر وانتهاء النهى والرضا بجريان المقدور فى النفس والمال والأهل والولد والخلائق أجمعين ، فإذا دام العبد على ذلك ولازمه وواظب عليه وعانقه ، كانت له النجاة من فتن الشيطان ووساوسه ، وهواجس النفس وغوائلها ، وعذاب القبر وضغطته ، وهول القيامة وشدتها ، وألم النار وزفرتها ، وكان فى جوار الله فى جنة المأوى ، مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، متقلبا فى نعم الله فى كل حال ، دائما أبدا ، قال الله عزّ وجل (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) فإذا كان على العبد سمة العبودية للملك الأعلى ، لم يكن للشيطان الضعيف الخسيس الأدنى عليه تسلق وابتلاء لا فى الجلوة ولا إذا خلا لا على القلب بالمعصية إذا نوى ولا على الجوارح ، إذا كادت بها أن تهوى وتردى ، فحينئذ يسمع النداء هكذا فعلنا بمن ترك الهوى ، واتبع الحق وبه اهتدى ، وفيه يختصم الملأ الأعلى ، وبالعظم يدعى فى الملكوت الأعلى ، وبه يباهى الملك الأعلى على العرش إذ هو عليه استوى ، بكلامه القديم ، المصون من سجع الشيطان والباطل عند قراءة القارئ إذا قرأ (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) إذ هو فى السرّ والعلانية أتقى ، فالفرار من الشيطان الرجيم ودعائه أحرى وأولى ، إذ الحذر واقع من العلىّ الأعلى حيث قال « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ـ ولقد أضلّ منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون) فاتباع الشيطان أصل كل شقاوة وعناء ، وفى المخالفة سعادة ونعماء وراحة وهدى ، والخلود فى دار البقاء .

(فصل) ويستفيد العبد بالاستعاذة خمسة أشياء : أحدها : الثبات على الدين والهدى . والثانى : السلامة من شر اللعين والعناء . والثالث : الدخول فى الحصن الحصين والزلفى .

والرابع : الوصول إلى المقام الأمين مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين . والخامس : نيل معونة ربّ الأرض والسماء ، كما ذكر فى بعض الكتب المتقدمة لما قال إبليس اللعين فى مخاطبته لله عز وجل (لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) قال الله تعالى وعزّتى وجلالى لآمرنّهم بالاستعاذة فإذا استعاذوا بى حفظتّهم عن اليمين بالهداية ، وعن الشمال بالعناية ، وعن الخلف بالعصمة ، وعن القدّام بالنصرة ، حتى لاتضرّهم وسوستك ياملعون . ورد فى بعض الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من استعاذ بالله مرّة حفظه الله تعالى فى يومه ذلك » . وقال أيضا عليه الصلاة والسلام « أغلقوا أبواب المعاصى بالاستعاذة ، وافتحوا أبواب الطاعة بالتسمية » قيل : إن إبليس يبعث كل يوم ثلثمائة وستين عسكرا لإضلال المؤمن ، فإذا استعاذ بالله نظر الله إلى قلبه ثلثمائة وستين نظرة ، فى كل نظرة من نظراته تهلك عسكر من عساكر الشيطان لعنه الله .

(فصل) والذى يخاف الشيطان منه ويحذره الاستعاذة ، وشعاع نور معرفة قلوب العارفين ، فإن لم تكن من العارفين فعليك باستعاذة المتقين إلى أن ترقى إلى درجة العارفين ، فحينئذ شعاع نور قلبك يكسر شوكته ، ويهزم جنده ويبيد خضراءه ، ويقلع شأفته فى خاصتك ، وربما جعلت سجنه لإخوانك وأتباعك ، كما ورد عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حق عمر بن الخطاب رضى الله عنه « إن الشيطان يفرّ من ظلك ياعمر » وقوله صلى الله عليه وسلم « ما سلك عمر واديا إلا والشيطان سلك غير ذلك الوادى » وقيل : إن الشيطان كان يصرع إذا رأى عمر رضى الله عنه . فإذا علم الشيطان من العبد الصدق فى عداوته ومخالفته لدعوته أيس منه وتركه واشتغل بغيره ، وإنما يأتيه لمماأحيانا على وجه الاختفاء والتلصص؛ فليكن العبد ملازما للصدق مستيقظا مرتقبا لمجىء الشيطان وكيده ، فإن متقبه دقيق ، وعداوته قديمة أصلية ، وإنه يجرى فى الجلود واللحوم كجرى الدم فى العروق ، وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول بعد كبره : اللهم إنى أعوذ بك من أن أزنى أو أقتل ، فقيل له أتخاف من ذلك ؟ فقال : كيف لأخاف وإبليس حىّ .

(فصل) وأولى ما يستعان به على محاربة الشيطان ودفعه كلمة الإخلاص ، وذكر المرء ربه عزّ وجل ، كما قال النبى ، صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه عز وجل أنه قال « لاإله إلا الله حصنى ، فمن قالها دخل حصنى ، ومن دخل حصنى فقد أمن من عذابى » وقوله عليه الصلاة والسلام « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » فالشيطان سبب العذاب ، فإذا قال العبد الكلمة وتقمص بموجباتها من أداء الأوامر وترك النواهى ، فرآه الشيطان ملتبسا بذلك ، تباعد منه ولم يقدم عليه ، فنجا العبد من فتنته ، كما ينجو بجنة القتال من سلاح عدوّه ، وكذلك التسمية يكثر ذكرها ، فإنه روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم « أنه سمع رجلا يقول تعس الشيطان ، فقال له عليه الصلاة والسلام : لاتقل هكذا فإنه يتعاظم الشيطان اللعين ويقول بعزّتى غلبتك ، ولكن قل : بسم الله ، فإنه يتصاغر الشيطان حتى يصير مثل الذرة » وكذلك يستعان عليه بترك

الطمع فيما سوى فضل الله عز وجل من أبناء الدنيا وأموالهم وحمدهم وثنائهم وجمعهم والتكثر بهم وهداياهم ، فإن الدنيا وأبناءها مال الشيطان وجنوده وحزبه ، والمرء مع مثاله والملك مع جنده ، فعلى العبد اليأس من ذلك كله ، والاستغناء بالله عزّ وجل والثقة به ، والتوكل عليه ، والرجوع إليه فى جميع أموره وأحواله واستعمال الورع من الحرام والشبهة ، وترك منة الخلق والتقليل من مباح الدنيا وحلالها ، والأكل بشهوة وشره كحاطب الليل من غير تفتيش وتنقير ، ومن لم يبال من أين مطعمه ومشربه لم يبال الله تعالى من أىّ أبواب النار يدخله . فيلزم العبد ذلك حتى ييأس الشيطان منه ، فيسلم برحمة الله وعونه ، فإن لم يفعل ذلك ، فالشيطان قرينه ، فى قلبه وصدره ؛ قال الله عزّ وجلّ (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) فتارة يوسوسه فى الصلاة ، وأخرى يمنيه الأمانى الباطلة من شهوات النفس المحرّمة منها والمباحة ، وتارة يثبطه عن المسارعة فى الخيرات ، والإتيان بالسنن والواجبات ، والعباذات والقربات ، فيخسر الدنيا والآخرة ، فيحشر معه ، وربما سلب الإيمان فى آخر عمره فيخلد معه فى النار يوم القيامة ، مع فرعون وهامان وقارون ، نعوذ بالله من سلب الإيمان ، ومتابعة الشيطان فى السرّ والإعلان .

(فصل) وروى مقاتل عن الزهرىّ عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت « راح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية يريدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ وسلمان وعمار بن ياسر رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذته الرحضاء ، يعنى عرق الحمى ، يتحدر منه مثل الجمان ، يعنى اللؤلؤ ، ثم مسح الجبهة وقال : لعن الله الملعون ثلاثا ، ثم أطرق ، فقال له علىّ رضى الله عنه : بأبى أنت وأمى من لعنت آنفا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إبليس الخبيث ، عدوّ الله أدخل ذنبه فى دبره ، فباض سبع بيضات ، فهم أولاده الموكلون ببنى آدم : أحدهم اسمه المدحش وكل بالعلماء ، يردهم إلى الأهواء المختلفة . والثانى : اسمه حديث ، وهو صاحب الصلاة ، فينسيهم الذكر ، ويعبثهم باللحظ ، ويطرح عليهم التثاؤب والنعاس حتى ينام أحدهم فيقال له : قد نمت ، فيقول : لم أنم ، فيدخل فى الصلاة بغير وضوء ، والذى نفس محمد بيده ليخرجنّ أحدهم من صلاته ما له شطرها ولا ربعها ولا عشرها ، ووزرها أكثر من أجرها ؛ والثالث : اسمه الزلبنون ، وهو صاحب الأسواق ، يأمرهم بالتطفيف والكذب فى الشراء والبيع والتحلية لسلعه ، والمدح لها إذا باعها حتى ينفقها عن نفسه . والرابع : اسمه بتر ، وهو صاحب قدّ الجيوب وخمش الوجوه ، والدعاء بالويل والثبور عند نزول المصيبة ، حتى يحبط أجر صاحبها . والخامس : اسمه منشوط ، وهو صاحب أخبار الكذب والنميمة والهمز والغمز حتى يؤثم العباد . والسادس : اسمه واسم ، وهو صاحب الدبر الذى ينفخ فى الإحليل وعجز المرأة حتى يزنى كل واحد منهما بصاحبه . والسابع : اسمه الأعور ، وهو صاحب السرقة ، يقول للسارق : تسدّ بها فاقتك ، وتقضى بها دينك ، وتستّر بها عورتك ثم تتوب » . فينبغى لكل

مؤمن أن لا يغفل عن الشيطان فى سائر أحواله ، ولا يأمنه فى جميع أموره . وقد جاء فى الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان ، فاستعيذوا بالله منه » وجاء فى الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « تراصوا فى الصفوف لئلا يتخللكم الشياطين كأنها بنات جذف » قالوا : وما بنات جذف ؟ قال أبو حذيفة : قال أبو عبيدة : هى هذه الغنم الصغار الحجازية ، واحدتها جذفة ، ويقال نقد أيضا ، ويقال ليس لها أذناب ولا آذان يجاء بها من جرش ، بلدة باليمن . وقد روى عن عثمان بن العاصى رضى الله عنه أنه قال : « قلت : يا رسول الله كيف حال الشيطان بينى وبين صلاتى وقراءتى ، فقال صلى الله عليه وسلم : ذاك شيطان يقال له خنزب ، إذا أحسسته فتعوّذ بالله منه ، واتفل عن يسارك ثلاثا ، قال : ففعلت ذلك ، فأذهبه الله عنى » . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الحديث المشهور « مامنكم من أحد إلا وله شيطان ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ولا أنا إلا أن الله تبارك وتعالى قد أعاننى عليه فأسلم » . وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجنّ ، قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ولا أنا ، إلا أن الله قد أعاننى عليه فأسلم ، فلا يأمرنى إلا بخير » . وقيل : إن الله لما لعن إبليس ، خلق منه زوجته الشيطانة من ضلعه الأيسر ، كما خلقت حوّاء من آدم عليه السلام ، فغشيها فحملت منه إحدى وثلاثين بيضة ، فصارت أصلا لذرّيته ، فتفرّعت الذرية عنها ، فطبقت البرّ والبحر حتى قيل : فقصت كل بيضة عشرة آلاف ذكر وأنثى ، يعنى تفرّعت منها ، فسكنوا الجبال والجزائر والخرابات والفلوات والبحار والرمال والأدغال والآجام والعيون ومجامع الطرق والحمامات والكنف والمزابل والهواء ومعارك الحروب والنواقيس والقبور والدور والقصور وخيام الأعراب وجميع البقاع . وقال الله تعالى (أفتتخذونه وذرّيته أولياء من دونى وهم لكم عدوّ ، بئس للظالمين بدلا) فويل لمن استبدل بعبادة الله عزّ وجلّ طاعة الشيطان وذرّيته ، لاجرم أنه معهم فى النار خالدا فيها إن لم يتب ولم يتذكر ، فينتبه لنفسه ويسعى فى فكاكها وخلاصها ، فيفارق قرناء السوء والأعمال الخبيثة ، ودعاة الضلال وجنود الشيطان ، فيرجع إلى الله ، ويلزم طاعته ، ويجالس العلماء من عباده ، والعارفين به العاملين له الداعين إليه الراغبين فيه ، والراجين لفضله الخائفين لسطوته ، الراهبين من أخذه ، الزاهدين فى الدنيا ، الراغبين فى العقبى ، القائمين فى الليل ، والصائمين فى النهار ، الباكين على ما فات من أيام البطالات ، العازمين على الخيرات فيما يأتى من الساعات ، التائبين من جميع الذنوب والخطيئات ، المتوكلين على خالق الأرض والسموات ، الواثقين بربّ الخليقة والبريات فى اللحظات والساعات ، القانتين فى آناء الليل والنهار ، أولئك آمنون من السلاسل والأغلال وآفات الدنيا وأهوال النيران ، لأنهم خالفوا طاعة الشيطان ، وأطاعوا الرحمن فى السر والإعلان ، فقابلهم الديان ، وجازاهم المنان بما أخبر فى قوله البيان (فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) ، وقوله تعالى (إنّ المتقين فى جنات

ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) وقال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقد ذكر الله عزّ وجلّ فى كتابه هذا العبد المفتون بعد تقواه بقوله تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) فأخبر عزّ وجلّ أن جلاء القلوب بذكر الله وبه يزول عنها الغطاء والظلمة والرين والغفلة ، وبه تنكشف الكروب ، والذكر مفتاح التقوى والورع ، والتقوى باب الآخرة ، كما أن الهوى باب الدنيا ، قال الله تعالى (واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) فأخبر تبارك وتعالى أنّ الإنسان بالذكر يتقى .

(فصل) وفى القلب لمتان : لمة من الملك ، وهى إيعاد بالخير ، وتصديق بالحقّ ، ولمة من العدوّ ، وهى إيعاد بالشرّ ، وتكذيب بالحقّ ، ونهى عن الخير ، وهو مرويّ عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه . وقال الحسن البصرى رحمه الله : وإنما هما همان يجولان فى القلب : همّ من الله ، وهمّ من العدوّ ، فرحم الله عبدا ، وقف عند همه ، فما كان من الله أمضاه ، وما كان من عدوه جاهده . وقال مجاهد رحمه الله فى قوله تعالى (من شرّ الوسواس الخناس) قال هو ينبسط على قلب الإنسان ، فاذا ذكر الله خنس وانقبض ، وإذا غفل انبسط على قلبه . وقال مقاتل رحمه الله : هو الشيطان فى صورة الخنزير معلق فى القلب فى جسد ابن آدم ، يجرى منه مجرى الدم ، سلطه الله عزّ وجلّ على ذلك من الإنسان ، فذلك قوله (الذى يوسوس فى صدور الناس) فاذا سها ابن آدم وسوس فى قلبه حتى يبتلع قلبه الخناس ، الذى إذا ذكر الله عزّ وجلّ ابن آدم خنس عن قلبه ، فذهب عنه وخرج من جسده . وقال عكرمة رحمه الله : الوسواس محله من الرجل فى فؤاده وعينيه ، ومحله فى المرأة فى عينيها إذا أقبلت ، وفى عجيزتها إذا أدبرت .

(فصل) وفى القلب خواطر ستة : أحدها : خاطر النفس . والثانى : خاطر الشيطان . والثالث : خاطر الروح . والرابع : خاطر الملك . والخامس : خاطر العقل . والسادس : خاطر اليقين . فخاطر النفس يأمر بتناول الشهوات ومتابعة الهوى المباح منه والحرج : وخاطر الشيطان يأمر فى الأصل بالكفر والشرك والشكوى والتهمة لله عزّ وجلّ فى وعده ، وفى الفرع بالمعاصى والتسويف بالتوبة ، وما فيه هلاك النفس فى الدنيا والآخرة ؛ فالخاطران مذمومان محكوم لهما بالسوء ، وهما لعموم المؤمنين . وخاطر الروح ، وخاطر الملك : يردّان بالحقّ والطاعة لله عزّ وجلّ ، وما يكون عاقبته سلامة الدنيا والآخرة ، وما يوافق العلم ، فهما محمودان لايعدمهما خواص الناس . وأما خاطر العقل ، فتارة يأمر بما تأمر به النفس والشيطان ، وتارة بما يأمر به الروح والملك ، وذلك حكمة من الله وإتقان لصنعه ، ليدخل العبد فى الخير والشرّ بوجود معقول ، وصحة شهود وتميز ، فيكون عاقبة ذلك من الجزاء والعقاب عائدا له وعليه - لأن الله تعالى جعل الجسم مكانا لجريان أحكامه ، ومحلا لنفاذ مشيئته فى مبانى حكمته ؛ كذلك جعل العقل مطية الخير والشرّ ، يجرى معهما فى خزانة الجسم إذا كانا مكانا للتكليف وموضعا للتصريف ، وسببا للتعريف العائد إلى لذّة النعيم أو عذاب أليم . وأما خاطر اليقين ، وهو روح الإيمان ومورد العلم ، فيرد من الله تعالى ، ويصدر عنه ، وهو مخصوص بخواصّ من الأولياء

الموقنين الصدّيقين ، والشهداء والأبدال ، لايرد إلا بحقّ ، وإن خفى وروده ودقّ مجيئه ؛ ولا يتقدح إلا بعلم لدنى وأخبار الغيوب وأسرار الأمور ، فهو للمحبوبين والمرادين والمختارين الفانين بالله فيه عنهم ، الغائبين عن ظواهرهم ، الذين انقلبت عبادتهم الظاهرة إلى الباطنة ، ما خلا الفرائض والسنن المؤكدات ، فهؤلاء أبدا فى مراقبة بواطنهم ، والله تعالى يتولى تربية ظواهرهم ، كما قال عزّ وجلّ فى كتابه العزيز (إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) تولاهم وكفاهم ، وشغل قلوبهم بمطالعة أسرار الغيوب ، ونورّها بالتجلى فى كلّ قريب ، فاصطفاهم لمحادثته ، واختصهم بالأنس به ، والسكون إليه ، والطمأنينة لديه ، فهم فى كل يوم فى مزيد علم ونموّ معرفة ، وتوفير نور ، وقرب من محبوبهم ومعبودهم ، وهم فى نعيم لانفاد له ، وآلاء لاانقطاع لها ، وسرور لاغاية له ولا منتهى ، فإذا بلغ الكتاب أجله ؛ وانتهى ما قدّر لهم من البقاء فى دار الفناء ، نقلهم منها بأحسن الانتقال ، كما ينقل العروس من حجرة إلى دار ، من الأدنى إلى الأعلى ، فالدنيا فى حقهم جنة ، وفى الآخرة لأعينهم قرّة ، وهو النظر إلى وجهه الكريم من غير حجاب ولا باب ولا حاجب ولا بوّاب ، ولامانع ولا حدّاد ، ولا منّ ولا امتنان ، ولا ضيم ولا ضرار ، ولا انقطاع ولا نفاد ، كما قال عزّ من قائل (إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) وكما قال (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) أحسنوا فى الدنيا له بالطاعة ، فجازاهم فى العقبى بالجنة والكرامة ، وأعطاهم النعمة والسلامة ، وزادوا له بتطهير القلوب وترك العمل لما سواه ، فجازاهم سبحانه وتعالى بالزيادة فى دار البقاء والمنة ، وهو دوام النظر إلى وجهه الكريم ، كما أخبر فى كتابه المبين لعباده أولى الألباب والعقول .

(فصل) والنفس والروح مكانان لإلقاء الملك والشيطان ؛ فالملك يلقى التقوى إلى القلب ، والشيطان يلقى الفجور إلى النفس ، فتطالب النفس القلب باستعمال الجوارح بالفجور ؛ وفى البنية مكانان : العقل والهوى ، يتصرفان بمشيئة حاكم ، وهو التوفيق والإغواء . وفى القلب نوران ساطعان : وهما العلم ، والإيمان . فجميع ذلك أدوات القلب وحواسه وآلاته ، والقلب فى وسط هذه الآلات كالملك وهذه جنوده يردون إليه ، أو كالمرأة المجلوّة ، وهذه الآلات حولها تظهر فيراها ويقدح فيها فيجهدها .

(فصل) أعوذ بربّ العرش والكرسى من الشيطان الغوىّ ، وخواطر السوء وهواجس النفس ، ومن فتنة كل جنى وإنسىّ ، ومن رياء ونفاق وعجب وكبر وشرك وخلال السوء الناشئة فى القلب ، ومن كل شهوة ولذّة مؤدية إلى المهالك للنفس ، ومن البدع والضلال والأهوية المسلطة للنيران على الجسم ، ومن كل قول وفعل وهمة تحجب من الغيوب العرشية ؛ ومن اتباع الأهوية المضلة والطبائع النفسية والأخلاق الردية وأعوذ بالملك الحميد المجيد من الشيطان الخبيث المريد ، أعوذ بالربّ الودود ونقمته إذا غفلت عن طاعته إذ هو أقرب إلىّ من حبل الوريد : أعوذ بالله من سطوته إذا غضب على أهل المعصية ، أعوذ به من هيبته عند شدة بطشه

فى يوم القيامة للطاغين من بريته ، وأعوذ به من كشف الغطا والستر والتيهان فى معصيته فى البرّ والبحر ، ونسيان الأصل والفرع ، والميل إلى الزيغ والرعونة والخيلاء والكبر ، وترك الطاعة والقربة والبرّ والتألى عليه ، والأيمان الكاذبة ، والحنث دون البرّ ، وخاتمة السوء والإفلاس من كل خير ؛ والموافاة عند حضور المنية بالشرّ .

(فصل) ومجاهدة الشيطان باطنه وهى بالقلب والجنان والإيمان ، فإذا جاهدته كان مددك الرحمن ، ومعتمدك الملك الديان ، ورجاؤك رؤية وجه الجليل المنان ، وجهاد الكفار جهاد الظاهر بالسيف والرماح ، ومددك فيه الملك والأعوان ، ورجاؤك فيه دخول الجنان . فإن قتلت فى مجاهدة الكفار كان جزاؤك الخلود فى دار البقاء ، وإن قتلت فى مجاهدة الشيطان ومخالفتك إياه بفناء أجلك واخترام منيتك كان جزاؤك رؤية وجه ربّ العالمين عند اللقاء ؛ فإن قتلك الكافر كنت شهيدا ، وإن قتلك الشيطان بمتابعتك إياه ، والانقياد لأمره كنت من قرب الملك الجبار طريدا ؛ فجهاد الكفار له نهاية وفناء ، وجهاد الشيطان والنفس لاغاية له ولا منتهى ، قال الله جلّ وعلا (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) يعنى الموت واللقاء؛ فالعبادة بمخالفة الشيطان والهوى ، قال الله عز وجل (فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون) وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم حين رجع من غزوة تبوك « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » عنى به صلى الله عليه وسلم مجاهدة الشيطان والنفس والهوى لمداومتها وطول ممارستها وخطرها والخوف من سوء خاتمتها .

مجلس آخر فى قوله عزّ وجل (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم)

اعلم أن هذه الآية الشريفة فى سورة النمل ، وهى مكية ، وعدد آياتها ثلاث وتسعون آية ، وكلماتها ألف ومائة وتسع وأربعون كلمة ، وحروفها أربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون حرفا . وذلك أن سليمان بن داود النبىّ عليه السلام وعلى نبينا المصطفى وعلى سائر الأنبياء والمؤمنين وسائر عباد الله الصالحين وملائكته المقرّبين ، لما خرج من وادى النمل فى مسيره من بيت المقدس إلى اليمن ، أخذ بالناس فى مفازة ، فعطش الناس ، فسألوا الماء ، فتفقد الهدهد عند ذلك فسأل عنه ، ودعا أمير الطيور وهو الكركى ، فسأله عنه ، ولم يكن معه إلا هدهد واحد ، فقال الكركى لاأدرى أين ذهب ولااستأمرنى ، وكان عليه السلام يريد الهدهد ليضع منقاره فى الأرض فيخبره كم بُعْدُ الماء وقربه ، وكم بينه وبين الماء من قامة أوفرسخ ، وكان الهدهد مخصوصا بذلك من دون بقية الطيور ، وكان إذا أريد منه ذلك ارتفع فى طيرانه إلى الجو فينظر ، ثم ينقضّ إلى تلك البقعة التى فيها الماء ، فيضع منقاره فيها فيعرف ذلك ، فتبادر الشياطين فتحفر تلك البقعة فيخرج الماء ، ويتخذون الأحواض والبرك والركايا ، وتملأ الروايا والقرب والظروف ، وتشرب الدوابّ والناس والجانّ ، ثم يرتحلون ؛ فلما فقد الهدهد فى تلك الساعة ، غضب سليمان عند ذلك غضبا شديدا وجعل يقول (لأعذبنه عذابا شديدا) يعنى لأنتفنّ ريشه فلا يطير مع الطيور حولا كاملا (أو لأذبحنه) ثم استثنى (أو ليأتينى بسلطان مبين) يقول : أو ليأتينى بعذر ، وحجة

بينة ، وكان أشدّ عذابه الذى يعذّب به الطير لما يريد عذابه أن ينتف ريشه حتى يتركه أقرع ليس عليه ريش ، قال (فمكث غير بعيد) أى لبث غير طويل ، ثم أقبل الهدهد فقيل له : إن سليمان قد أوعدك فقال هل استثنى ؟ قيل نعم ، قال : فأقبل حتى قام بين يديه ثم سجد ، فقال : دام ملكك طويل الدهر وعشت إلى الأبد ، وجعل ينكت بمنقاره ويومئ برأسه إلى سليمان (فقال) له (أحطت بما لم تحط به) يقول : بلغت وعلمت بما لم تبلغ ولم تعلم ، يعنى جئتك بأمر لم يخبرك به الجنّ ، ولم ينصحوك فيه ، ولم تعلم به الإنس (وجئتك من سبأ) يعنى من أرض سبأ (بنبأ يقين) يعنى بخبر عجيب لاشك فيه ، فقال له سليمان : ماهو؟ فقال (إنى وجدت امرأة تملكهم) يقال لها بلقيس بنت أبى السرح الحميرية (وأوتيت من كل شيء) يعنى أعطيت من كل شيء فى بلادها اليمن وما والاها من العلم والسلطان والمال والجنود وأنواع الخيل (ولها عرش عظيم) يعنى سرير حسن ، وكان طول عرشها فى السماء ثلاثين ذراعا وقيل ثمانين ذراعا ، وفى العرض ثمانون ذراعا مكللا بأنواع الجواهر والدرر واللؤلؤ (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) وذلك دين المجوس (وزين لهم الشيطان أعمالهم) يعنى حسّنها لهم (فصدّهم عن السبيل) يعنى أن الشيطان صدّها وجنودها عن طريق الإسلام والهدى (فهم لايهتدون) يعنى لايعرفون الإسلام (ألا يسجدوا لله) يعنى هلا يسجدوا لله (الذى يخرج الخبء) يعنى الغيب والسرّ (فى السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون) بألسنتهم (الله لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم) يعنى بالعظيم العرش فـ (قال) سليمان للهدهد دلنا على الماء (سننظر) فيما تقول (أصدقت) فى مقالتك (أم كنت من الكاذبين) فلما دلهم على الماء وشربوا واستكفوا ، دعا سليمان الهدهد وكتب معه كتابا وختمه بخاتمه ودفعه إليه ، ثم قال (اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم) يعنى أهل سبأ (ثم تولّ عنهم) يعنى ارجع (فانظر ماذا يرجعون) يعنى ماذا يردّون عليك من الجواب ، والذى كتب فى الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم إنه من سليمان) بن داود (أن لاتعلوا علىّ) يعنى أن لاتعظموا على طاعتى (وائتونى مسلمين) يعنى مصالحين ، فإن كنتم من الجنّ فقد عبدتم لى ، وإن كنتم من الإنس فعليكم السمع والطاعة ؛ قال : فانطلق الهدهد بالكتاب حتى انتهى إليها ظهيرة وهى قائلة فى قصرها قد غلقت عليها الأبواب ، فلا يصل إليها شيء والحرس حول قصرها ، وكان لها من قومها اثنا عشر ألف مقاتل ، كل واحد منهم أمير على مائة ألف مقاتل ، سوى نسائهم وذراريهم ، وكانت تخرج إلى قومها تقضى بينهم فى أمورهم وحوائجهم فى كل جمعة يوما ، قد جعلت عرشها على أربع أعمدة من ذهب ، ثم تجلس هى فيه وهى تراهم ولايرونها فإذا أراد الرجل منها الحاجة والأمر سألها ، فقام بين يديها فينكس رأسه ولاينظر نحوها ، ثم يسجد فلا يرفع رأسه ، حتى تأذن له إعظاما لها ، فإذا قضت حوائجهم وأمرت بأمرها دخلت قصرها ولم يروها إلى مثل ذلك اليوم ، ملكها ملك عظيم . فلما أتى الهدهد بالكتاب وجد الأبواب قد غلقت دونها ، والحرس حول القصر دائر حوله ، فطلب السبيل إليها حتى وصل إليها من كوّة فى القصر ، فدخل منها من بيت إلى بيت حتى انتهى إلى أقصى

سبعة أبيات علا عرشها في السماء ثلاثين ذراعا، فرآها مستلقية على عرشها نائمة، ليس عليها إلا خرقة على عورتها ، وكذلك كانت تصنع إذا نامت . قال : فوضع الكتاب إلى جنبها على السرير ، ثم طار فوقف في كوّة ينتظرها حتى تستيقظ من غفلتها وتقرأ الكتاب ، فكث طويلا وهي لاتستيقظ ؛ فلما أبطأ عليه ذلك انحط فنقرها فاستيقظت، فنظرت فإذا هي بالكتاب إلى جنبها على السرير ، فأخذته وفركت عينيها فجعلت تنظر ما حالُ الكتاب وكيف وصل الكتاب إليها والأبواب مغلقة ، فخرجت فإذا الحرس حول القصر ، فقالت : هل رأيتم أحدا دخل على وفتح بابا ؟ قالوا لا ، مازالت الأبواب مغلقة كما هي ونحن حول القصر نحرس ، ففتحت الكتاب وقرأته وكانت كاتبة وقارئة ، فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم » فلما قرأته أرسلت إلى قومها فاجتمعوا إليها و (قالت) لهم (يا أيها الملأ إنى ألقى إلىّ كتاب كريم) يعني مختوما حسنا (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على وائتونى مسلمين) يعنى مصالحين (فقالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى) يعنى أخبرونى بما أريد أن أصنع فى أمرى (ما كنت قاطعة أمرا) يعنى عاملة (حتى تشهدون) يعنى تسمعون وتحضرون المشورة (فقالوا نحن أولو قوة) يعنى منعة (وأولو بأس شديد) لم يغلبنا عدوّ قط بالقتال والمنعة والكثرة ، ولم نعط أحدا المقادة ، وأنتِ أعلم بأمركِ ، فأمرينا بأمر نتبعه ، فأبوا إلا تعظيما لحقها، فهو قوله عز وجل (والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين) به نتبع أمرك ، فنطقت بعلم وحكم (وقالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) يعنى خرّبوها (وجعلوا أعزّة أهلها أذلة) يعنى منعة أهلها أذلة صغيرة (وكذلك يفعلون) الملوك المحاربون ، يأخذون أموالهم ويقتلون مقاتلتهم ويسبون ذراريهم ، ثم قالت (وإنى مرسلة إليهم بهدية) يعنى إلى سليمان (فناظرة بم يرجع المرسلون) يعنى فأنظر ماذا يردون علىّ رسلى وماذا يخبرونى عنه ؛ قال : فأهدت إليه اثنى عشر غلاما فيهم تأنيث ، مخضبة أيديهم ، قد مشطتهم وألبستهم لباس الجوارى ، وتقدمت إليهم وأوصتهم إذا سئلوا عند سليمان وكلمهم فليردوا جوابا بكلام فيه تأنيث ، وأهدت إليه اثنتى عشرة جارية فيهن غلظ ، فأستأصلت رءوسهن وأزرتهن وألبستهن النعال ، وقالت لهن : إذا كلمكن سليمان فارددن له جوابا صحيحا ، وأرسلت إليه بعود يلنجوج وبالمسك والعنبر والحرير فى الأطباق على أيدى الوصائف ، وأرسلت بثنتى عشرة بختية تحلب كذا وكذا من اللبن ؛ وأرسلت إليه بخرزتين إحداهما مثقوبة وثقبها ملتوية ، والثانية غير مثقوبة ؛ وأرسلت إليه بقدح فارغ ، وأرسلت مع هـذه الهدية امرأة ، وأوصتها بأن تحفظ جميع ما يكون من أمر سليمان وكلامه حتى تخبرها به ، وقالت لهم : قوموا بين يديه قياما ولا تجلسوا حتى يأمركم ، فإنه إن كان جبارا لم يأمركم بالجلوس فأرضيه بالمال فيسكت عنا ، وإن كان حليما عليما عالما أمركم بالجلوس ؛ وأمرت المرأة أن تقول له بأن يدخل فى الخرزة المثقوبة خيطا بغير علاج إنس ولا جان ، وأمرتها أن تقول له أن يثقب الأخرى بغير حديد ولا علاج إنس ولا جان ، وأن يميز بين الغلمان والجوارى ، وأمرتها أن تقول له أن يملأ القدح ماء مزيدا رويا ، ليس من الأرض ولا من السماء ، وكتبت

إليه تسأله عن ألف باب من العلم فانطلق رسلها بهديتها حتى أتوا بها إلى سليمان ، فوضعوا الهدية بين يديه وقاموا على أرجلهم ولم يجلسوا ، فنظر إليهم سليمان ولم يحرك لحظة يدا ولارجلا ولاتهشهش لها ولم يفرح ،ولم يعرف الرسل ذلك فيه ولا من مقابله ،ثم رفع رأسه ونظر إلى رسلها وقال : إن الأرض لله والسماء لله ، رفعها ووضع الأرض ، فمن شاء وقف ومن شاء جلس ، فأذن لهم بالجلوس . قال : فتقدمت المرسلة إلى سليمان وقدمت إليه الخرزتين وقالت له : إن بلقيس تقول لك بأن تدخل فى هذه الخرزة المثقوبة خيطا ينفذ إلى الجانب الآخر من غير علاج إنس ولاجان ، وأن تثقب الخرزة الثانية ثقبا ينفذ إلى الجانب الآخر بغير حديد ولاعلاج إنس ولاجان ،ثم قربت إليه القدح وقالت له إنها تقول لك بأن تملأ هذا القدح ماء مزبدا رويا ليس من الأرض ولا من السماء ، ثم قدمت الوصُفَ والوصائف وقالت : إن بلقيس تقول لك إنك تميز بين الغلمان والجوارى؛ فعند ذلك جمع سليمان أهل مملكته ،فاجتمعوا عليه ،ثم أخرج الخرزتين فقال : من لى بهذه الخرزة يدخل فيها خيطا يخرج من الجانب الآخر : فتكلمت دودة تكون فى الفصفصة يعنى فى الرطبة وهى دودة حمراء وقالت : أيها الملك أنا لك بها على أن تجعل رزقى فى الرطبة ، فقال : نعم، فعلق فى رأس الدودة خيطا فدخلت فى الخرزة تحكها حتى خرجت من الجانب الآخر ، فجعل رزقها فى الرطبة ثم قرّب الخرزة الثانية وقال : من لى بثقب هذه الخرزة بغير حديد فتكلمت دودة أخرى بين يديه وهى الأرضة ، فقالت : أيها الملك أنا لك بهذه ، على أن تجعل رزقى فى الخشب ، فقال : ذلك لك ، ، فوقفت على الخرزة فثقبتها إلى الجانب الآخر ، فجعل رزقها فى الخشب ؛ ثم قدم القدح وأمر بإحضار الخيل العراب فحضروا ، فأجريت حتى إذا جهدت وأتعبت وسال عرقها فحينئذ ملأ القدح من العرق ، وهو الماء المزبد الروى ليس هو من الأرض ولا من السماء ؛ ثم أمر بماء فوضع بين يديه فقال للوصفاء : توضئوا ليتميز الغلمان من الجوارى ، قال : فجعلت الجوارى يصببن الماء على أكفهن ، فجعلت إحداهن تأخذ الماء بكفها اليسرى وتفرغه على ذراعها الأيسر ، ثم تتبعها كفها اليمنى فتغسلها ، فتعرف عند ذلك أنها جارية ، فيعزلها حتى عزل اثنى عشرة جارية وصيفة . وأما الغلمان فجعل الوصيف يأخذ الماء بكفه اليمنى فيغسل به ذراعه اليمنى ، ثم يتبع به اليسار فيعرف أنه غلام ، حتى عزل اثنى عشر غلاما ؛ ثم نظر إلى المسائل فأجاب عنها بألف جواب مع رسولها ،ثم ردّ عليها هديتها و (قال) لمرسلتها (أتمدوننى بمال فما آتانى الله) من النبوّة والملك (خير مما آتاكم) من المال (بل أنتم بهديتكم تفرحون) يعنى تعجبون : ثم كتب إليها كتابا ودفعه إلى الهدهد وقال (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها) يعنى بجموع لاقبل لهم بها (ولنخرجنّهم منها أذلة) يعنى من قرية سبأ أذلة صغيرة (وهم صاغرون) أذلاء . فلما أتى الهدهد بالكتاب مرّة أخرى فقرأته ورجعت رسلها ، فقصت عليها قصة سليمان وما فعل فى جميع ما أرسلت به إليه وما ردّ إليها من الجواب ، فقالت لقومها : هذا أمر نزل علينا من السماء لاينبغى منا بذته ولا نطيقه ، ثم عمدت إلى عرشها فجعلته فى آخر سبعة أبيات ، ثم أقامت عليه الحرس ، ثم أقبلت إلى سليمان ،

قال : فرجع الهدهد إلى سليمان فأخبره أنها قد أقبلت إليه ، فجمع أهل مملكته إليه ثم (قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها) يعني سريرها (قبل أن يأتوني مسلمين) يعني مصالحين ، فلا يحل لنا بعد الصلح أخذه (قال) له (عفريت من الجنّ) يقال له عمرد وهو العفريت الشديد الغليظ من الجنّ (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) يعني من مجلسك للقضاء وهو إلى نصف النهار (وإني عليه لقويّ) أي على حمله (أمين) على ما فيه من اللؤلؤ والجواهر والزبرجد والذهب والفضة ، وكانت قوّة العفريت أنه يضع قدمه حيث ينال طرفه يعني ينتهي بصره ، فقال لسليمان : أنا أضع قدمي حيث يبلغ بصري فآتيك به ، فقال سليمان : أريد أعجل من ذلك ف (قال الذي عنده علم من الكتاب) يعني اسم الله الأعظم وهو : ياحيّ ياقيوم (أنا) أدعو ربي فأرجع همي وأنظر في كتاب ربي و (آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك)وهو آصف بن برخيا بن شعياء واسم أمه باطورا ، وهو من بني إسرائيل ، وكان يعلم اسم الله الأعظم : أنا آتيك به أن يرتدّ إليك طرفك ، يعني قبل أن يجيء إليك الشيء الذي يبلغه طرفك : أي نظرك ، فقال له سليمان : غلبتُ إن فعلتَ ، وإن لم تفعل فضحتني بين الجنّ وأنا سيد الإنس والجنّ . وقام آصف فتوضأ ثم سجد لله عزّ وجل يدعو الله باسمه الأعظم وهو يقول : ياحيّ يا قيوم ; وروى عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : هو الاسم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، وهو : ياذا الجلال والإكرام . قال : فغاب عرشها تحت الأرض حتى نبع عند كرسي سليمان . وقيل : إنه نبع تحت كرسي كان يضع سليمان قدميه عليه إذا جلس على كرسيه الكبير . فلما رأى العرش قد نبع قالت الجنّ لسليمان : يقدر آصف أن يجيء بالسرير ولا يجيء ببلقيس ، فقال آصف لسليمان : أنا آتيك بها ، قال فأمر سليمان فبني له صرح أملس من قوارير ، ثم أجرى تحته الماء وألقى فيه السمك ، يرى من فوق الصرح من صفائه ، ثم أمر سليمان بكرسيه فوضع في وسط الصرح ، وأمر بكراسي لأصحابه ، فوضعت فجلس عليه وجلس أصحابه ، وكان الذين يلونه عليه السلام من أهل الكراسي الإنس ثم الجنّ ثم الشياطين ، وكان هذا دأبه عليه عليه السلام حتى إذا أراد أن يسير في البلاد يجلس هو على كرسيه وأولئك على كراسيهم ، ثم يأمر الريح فتحملهم بين السماء والأرض ، وإذا أراد أن يسر على الأرض أمر الريح فتسكن فيسير على وجه الأرض .وكان لسليمان عليه السلام مجلس كما هو للملوك اليوم ، فلما استقرّ بهم المجلس أمر آصف فعاد وسجد ودعا الله عزّ وجل باسمه الأعظم وهو : ياحيّ يا قيوم ، فإذا هو ببلقيس مستقرة عنده . وقيل : إن الذي عنده علم من الكتاب هوصبة بن أدّ . وكان هو على خيل سليمان . وقيل : إن الذي عنده علم من الكتاب هو الخضر عليه السلام (فلما رآه مستقرًّا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني) يعني ليختبرني (أأشكر) على ما أعطيت من الملك (أم أكفر) بالنعمة إذا رأيت من هو دوني أفضل مني علما ، فعزم لله عزّ وجل على الشكر (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر) بنعمته (فإن ربي غنيّ كريم) لايعجل بالعقوبة . فلما سمعت الجن بذلك وقعوا في بلقيس عند سليمان ليكرهوها إليه ، خافوا أن يتزوّجها فتظهره على أمورهم ، وكانت

تعلم بذلك ، لأن أمها كانت جنية ، وكان اسمها عميرة بنت عمرو ؛ وقيل : إن اسمها رواحة بنت السكن ملك الجن ، فقالوا : أصلح الله الملك إن فى عقلها شيئا ورجلاها كحافر الحمار ، وكانت بلقيس هلباء شعراء ، فلما قيل له ذلك أراد أن يروز عقلها ويرى قدميها ، فلذلك أجرى الماء وجعل فيه الضفادع والسمك ، وأمر بعرشها أن يغير فيزاد فيه ، وينقص منه ليروز عقلها فذلك قوله تعالى (قال نكروا لها عرشها) يعنى غيروا لها سريرها (ننظر أتهتدى) يعنى أتعرفه (أم تكون من الذين لايهتدون) يعنى الذين لايعرفون ، فأقبلت حتى انتهت إلى الصرح (فقيل لها ادخلى الصرح) يعنى القصر ؛ وقيل : الصرح : هو البيت بلغة حمير (فلما رأته حسبته لجة) يعنى ماء غمرا ، فقالت فى نفسها إنما أراد أن يغرقنى كان غير هذا أحسن من ذا ؟ (فكشفت عن ساقيها) فإذا ساقان شعراوان ، وإنما هى من أحسن الناس وأبعد مما قيل له فيها ، فقيل لها (إنه صرح ممرّد) يعنى قصرا أملس لاشعث فيه كالأمرد الذى لاشعر فى وجهه ، كأنه ملزق بعضه ببعض اتخذ بلاطه من القوارير ، قال : فمضت نحو سليمان وقد أبصر قدميها وأبصر الشعر الذى على ساقيها مهدبا ، قال : فأعجبه ذلك عجبا شديدا (فلما جاءت) إلى سليمان ف(قيل) لها (أهكذا عرشك) فنظرت إليه فجعلت تعرف وتنكر فقالت فى نفسها من أين يصل إلى ذلك السرير الذى هو داخل سبعة أبيات والحرس حوله ، فلم تعرف ولم تنكر ف(قالت كأنه هو) فقال سليمان (وأوتينا العلم من قبلها) يعنى من قبل بلقيس ، وكانت مجوسية (وكنا مسلمين) من قبلها (فقالت رب إنى ظلمت نفسى) يعنى فى الظنّ الذى ظننت بسليمان أنه أراد أن يغرقنى ؛ وقيل : ظلمت نفسى يعنى ضررت نفسى بعبادة الشمس (وأسلمت مع سليمان) يعنى وأطعت الله مع سليمان ، ويقال : (أخلصت مع سليمان لله ربّ العالمين) فى العبادة فأسلمت (وصدّها) يعنى أن سليمان صدها ع (ما كانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين) فتزوّج بها سليمان ، فأمر بالنورة فاتخذت فتنوّر سليمان وبلقيس ، وهو أول من اتخذ النورة : قال : فسألها سليمان عن أشياء وهى سألته ، ودخل بها سليمان ، فولدت له غلاما فسماه داود ، ومات فى حياته ، ثم مات سليمان وماتت بلقيس بعده بشهر ؛ وقيل : إن سليمان أعطاها قرية بالشام ، فكانت تأخذ خراجها حتى ماتت ؛ وقيل : إن سليمان لما دخل بها سرحها فى جنوده وردّها إلى ملكها ، وكان يأتيها فى كل شهر مرة ، فيركب من بيت المقدس إلى اليمن على ماتقدم ذكره .

(فصل) وإنما استوفيت هذه القصة فى هذا المجلس لما فيها ، من العبرة لكل مؤمن عاقل ناظر فى العواقب معتبر فى سير السلف الصالح والطالح ، وقدرة الله عزّ وجل النافذة فى الأمم الماضية الخالية ، وكرامته لأهل الطاعة وتسخيره أهل معصيته لهم وإعطائه مقادتهم وإذلالهم ، وتمليكه الخلق لأهل ولايته ومحبته ، لما أطاع سليمان ربه عزّ وجل كيف ملكه بلقيس وملكها ، وقد كان فى أهل مملكتها اثنا عشر ألف مقاتل ، كل واحد منهم أمير على مائة ألف منهم ، وجند سليمان يحتوى على أربعمائة ألف ، مائتا ألف من إنس ومائتا ألف من الجنّ ، والتفاوت ما بين الجندين ظاهر ، فهذا ملك لطاعته ، وهذه ملكت لكفرها ومعصيتها ؟

فاعلم أيها الإنسان أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) وكذلك أنت ياموفق إذا آمنت أمنت من أعدائك فى الدنيا ، ومن نار الله الموقدة التى فى العقبى ، تخدمك النار وتطرق بين يديك ، وترشدك الطريق مكرمة لك ومعظمة وطائعة لأمر مولاها وممتثلة له ، فتقول لك : جز يامؤمن فقد اطفأ نورك لهبى .

(عبارة لطيفة) أى أنك مكرّم منور ،خلعة الملك عليك،علامته الوقار عليك ؛ فعلى الحواشى والعبيد تعظيمك وتوقيرك وخدمتك . وأما الكافر والعاصى ، فتتغيظ النار عليه وتنتقم منه انتقام الجبار من عدوّه عند ظفره به ، كما قال الله عز وجل (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا) فإن أردت العزّة فى الدنيا والآخرة ، فعليك بطاعة الله والصبر عن معصية الله ، تجدها برحمة الله تعالى ، قال الله عزّ وجل (من كان يريد العزة فلله العزّة جميعا) وقال تعالى (ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون) فنفاقك يامدّعى الإيمان ، وشركك يامدّعى الإخلاص حجباك عن رؤية عزّة الجبار ونبيه المختار والمؤمنين الأخيار ، فلو كنت عاملا بموجب الإيمان موقنا بشرائط الإخلاص ، لأمنت فى الدنيا من كل مؤذ وكل شيطان من الإنس والجان ، وفى الآخرة من عذاب النيران ، وكانت النصرة لك ولأعدائك الهوان ، قال الله عزّ وجل (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وقال تعالى (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم) ولكن الغفلة قد تكاثفت على قلبك وتراكم الرين عليه ، وترادف السواد والظلمة لديه ، فيالها من حسرة وندامة ، (يوم تبلى السرائر) فى يوم القيامة يوم الحاقة يوم الطامة الكبرى يوم القارعة يوم الصاخة (يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية) (يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا يره) قيل : إن الذرة هى قشر الهباء الذى يظهر فى شعاع الشمس مثل رءوس الإبر ، وقيل : أربع ذرّات مثقال خردلة ، وقيل هى النملة الحمراء الصغيرة التى لاتكاد ترى إذا دبّت ؛ وقيل : إن الذرّة جزء من ألف جزء من شعيرة . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : إذا وضعت كفك على التراب ثم رفعتها ، فكل شىء يعلق بها من التراب فهو ذرّة فأين أنت من يوم توزن فيه الأعمال بهذه الزنة تثقل وتخفّ بهذه الخفة ، ويوم يقول الله تعالى فيه (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ، ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) أى عطاشا وحينئذ ، ينكشف الغطاء ويظهر المخبأ ، ويمتاز المؤمن من الكافر ، والصديق من المنافق ، والموحد من المشرك ، والولىّ من العدوّ ، والمحقّ من المدعى . فاحذر يامسكين من هول ذلك اليوم ، وانظر من أىّ الحزبين تكون ؟ فإن عملت لله العظيم واتقيت فى عملك الخبير وصفيته عما يسوء للناقد البصير ، فأنت فى حزب المتقين الوافدين على الرحمن فى يوم النشور ، فلك الكرامة ياكريم ، ولك السلامة والبشرى ياحكيم ، وإن كان غير ذلك فاعلم أنك بالحزب الآخر لاحق وهالك ، مع من هو هالك فى النار مع فرعون وهامان وقارون متلاحق ، قال الله عزّ وجل (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) فلا ينجيك فى ذلك اليوم غير العمل الصالح ؛

(فصل : فى فضل بسم الله الرحمن الرحيم) عن عطاء عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : « لما نزل بسم الله الرحمن الرحيم ، هرب الغيم إلى الشرق ، وسكنت الرياح ، وهاج البحر ، وأصغت البهائم بآذانها ، ورجمت الشياطين من السماء ، وحلف الله عزّ وجل بعزّته لايسمى اسمه على سقم إلا شفاه ، ولايسمى اسمه على شيء إلا بارك فيه ؛ ومن قرأ بسم الله الرحمن الرحيم دخل الجنة » . وعن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسع عشرة فليقل : بسم الله الرحمن الرحيم ، فإنها تسعة عشر حرفا ليجعل الله تعالى لكل حرف منها جنة من واحد منهم » . وعن طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عثمان ابن عفان رضى الله عنه « سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن بسم الله الرحمن الرحيم قال ، فقال : هو اسم من أسماء الله عزّ وجل ، ومابينه وبين اسم الله الأعظم إلا كما بين سواد العين وبياضها من القرب » . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رفع قرطاسا من الأرض فيه بسم الله الرحمن الرحيم إجلالا لله أن يداس ، كتب عنده من الصديقين ، وخفف عن والديه وإن كانا مشركين » يعنى العذاب . وقيل : لم يرنّ إبليس اللعين مثل ثلاث رنات قط : رنة حين لعن وأخرج من ملكوت السماء ، ورنة حين ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ورنة حين أنزلت فاتحة الكتاب لكون بسم الله الرحمن الرحيم فيها . وعن سالم ابن الجعد أن عليا رضى الله عنه قال : « لما أنزلت بسم الله الرحمن الرحيم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوّل ما أنزلت هذه الآية على آدم ، فقال أمن ذريتى من العذاب ماداموا على قراءتها ؛ ثم رفعت فأنزلت على إبراهيم الخليل فتلاها وهو فى كفة المنجنيق ، فجعل الله عليه النار بردا وسلاما ؛ ثم رفعت بعده ، فما أنزلت إلا على سليمان ، وعندها قالت الملائكة : الآن تم والله ملكك ؛ ثم رفعت فأنزلها الله عزّ وجل عليّ ثم تأتى أمتى يوم القيامة وهم يقولون : بسم الله الرحمن الرحيم ، فإذا وضعت أعمالهم فى الميزان رجحت حسناتهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتبوها فى كتبكم فإذا كتبتموها فتكلموا بها » :

(فصل آخر : فى فضل بسم الله الرحمن الرحيم) عن عكرمة رحمه الله أنه قال : أول ما خلق الله اللوح والقلم ، أمر الله القلم فجرى على اللوح بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فأوّل ما كتب على اللوح : بسم الله الرحمن الرحيم ، فجعل الله هذه الآية أمانا لخلقه ما داموا على قراءتها ، وهى قراءة أهل سبع سموات ، وأهل الصفح الأعلى وأهل سرادقات المجد والكروبيين والصافين ، والمسبحين ؛ فأول ما أنزلت على آدم عليه السلام ، فقال : قد أمن ذرّيتى من العذاب ما داموا على قراءتها ، ثم رفعت فأنزلت على إبراهيم الخليل عليه السلام فى سورة الحمد فتلاها وهو فى كفة المنجنيق ، فجعل الله النار عليه بردا وسلاما ؛ ثم رفعت بعده فأنزلت على موسى عليه السلام فى الصحف ، فيها قهر فرعون وسحرته وهامان وجنوده وقارون وأتباعه ؛ ثم رفعت بعده فأنزلت على سليمان بن داود عليهما السلام ، فعندها قالت الملائكة : اليوم والله تمّ ملكك ياابن داود ، فلم يقرأها سليمان على شيء إلا خضع له ، وأمره الله يوم أنزلها عليه أن

ينادى فى أسباط بنى إسرائيل : ألا من أحبّ منكم أن يسمع آية أمان الله فليحضر إلى سليمان فى محراب داود ، فإنه يريد أن يقوم خطيبا ، فلم يبق محبوس نفسه فى العبادة ولاسائح إلا هرول إليه ، حتى اجتمعت الأحبار والعباد والزهاد والأسباط كلها عنده ، فقام فرقى منبر الخليل إبراهيم وتلا عليهم آية الأمان : بسم الله الرحمن الرحيم ، فلم يسمعها أحد إلا امتلأ فرحا ، وقالوا نشهد أنك لرسول الله حقا ، فبها قهر سليمان ملوك الأرض ، وبها افتتح الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مكة ؛ ثم رفعت بعد سليمان فأنزلت على المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، ففرح بها واستبشر بها الحواريون ، فأوحى الله تعالى إليه : يا ابن العذراء أتدرى أىّ آية أنزلت عليك ؟ إنها آية الأمان ، قوله بسم الله الرحمن الرحيم ، فأكثر تلاوتها فى قيامك وقعودك ومضجعك ومجيئك وذهابك وصعودك وهبوطك ، فإنه من وافى يوم القيامة وفى صحيفته بسم الله الرحمن الرحيم ثمانمائة مرة وكان مؤمنا بى وبربوبيتى أعتقته من النار ، وأدخلته الجنة ، فلتكن افتتاح قراءتك وصلاتك ، فإن من جعلها فى افتتاح قراءته وصلاته إذا مات على ذلك لم يرعه منكر ونكير ، وهوّن عليه سكرات الموت وضغطة القبر ، وكانت رحمتى عليه ، وأفسح له فى قبره ، وأنور له فى قبره ، وأنور له فيه مدّ بصره ، وأخرجه من قبره أبيض الجسم وأنور الوجه ، يتلألأ نوره ، وأحاسبه حسابا يسيرا ، وأثقل موازينه ، وأعطيه النور التامّ على الصراط حتى يدخل الجنة ، وآمر المنادى أن ينادى به فى عرصات القيامة بالسعادة والمغفرة » قال عيسى عليه السلام : اللهم يارب فهذا لى خاصة ؟ فقال : لك خاصة ولمن تبعك وأخذ أخذك وقال بقولك ، وهو لأحمد وأمته من بعدك ؛ وأخبر عيسى عليه السلام بذلك أتباعه فقال (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) من صفته ونعته وفضله كيت وكيت ، وأخذ ميثاقهم بالإيمان به ، وجدّد شأنه عند ما رفعه الله تعالى إلى السماء لأصحابه ؛ فلما انقرض الحواريون ومن اتبعه وجاء الآخرون ، فضلوا وأضلوا ، وبدّلوا واستبدلوا بالدين دنياهم ، فرفعت عندها آية الأمان من صدور النصارى ، وبقيت فى صدور مسلمى أهل الإنجيل مثل بحيرا الراهب وأمثاله ، حتى بعث الله النبىّ صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه فى سورة الحمد بمكة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتبت تلك على رءوس السور وصدور الرسائل والدفاتر ، فكان نزول هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحا عظيما ، وحلف ربّ العزة بعزّته أن لايسمى مؤمن موقن على شىء إلا باركت له فيه ، ولايقرؤها مؤمن إلا قالت الجنة له : لبيك وسعديك اللهمّ أدخل عبدك هذا فىّ ببسم الله الرحمن الرحيم ، فإذا دعت الجنة لعبد فقد استوجب له دخولها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « لايردّ دعاء أوله بسم الله الرحمن الرحيم » قال « وإن أمتى يأتون يوم القيامة وهم يقولون بسم الله الرحمن الرحيم ، فتثقل حسناتهم فى الميزان ، فتقول الأمم : ما أرجح موازين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فتقول الأنبياء لهم : كان أمة محمد صلى الله عليه وسلم مبتدأ كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى الكرام ، لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت سيئات الخلق جميعا فى الكفة الأخرى لرجحت حسناتهم » قال : وجعل الله تعالى هذه الآية شفاء من

كل داء ، وعونا لكل دواء ، وغنى من كل فقر ، وسترا من النار ، وأمانا من الخسف والمسخ والقذف ما داموا على قراءتها .

(فصل : فى تفسير قوله : بسم الله الرحمن الرحيم) قوله عزّ وجل (بسم الله) روى عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن عيسى عليه السلام أرسلته أمه رضى الله عنها إلى الكتاب ليتعلم ، فقال له المعلم : قل بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال عيسى عليه السلام : ومابسم الله ؟ قال لاأدرى ، قال : الباء : بهاء الله ، والسين : سناء الله ، والميم : مملكته » وقال أبو بكر الورّاق : بسم الله : روضة من رياض الجنة ، لكل حرف منها تفسير على حدة ، فالباء : على ستة أوجه بارئ خلقه من العرش إلى الثرى ، بيانه (هو الله الخالق البارىء) ، من العرش إلى الثرى ، بصير بخلقه من العرش إلى الثرى ، بيانه (والله بصير بما تعملون) باسط رزق خلقه من العرش إلى الثرى ، بيانه (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) باق بعد فناء خلقه من العرش إلى الثرى ، بيانه (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ، باعث الخلق بعد الموت من العرش إلى الثرى للثواب والعقاب ، بيانه (وأن الله يبعث من فى القبور) ، بارّ بالمؤمنين من العرش إلى الثرى ، بيانه (هو البر الرحيم) . والسين على خمسة أوجه : سميع لأصوات خلقه من العرش إلى الثرى بيانه (أم يحسبون أنا لانسمع سرّهم ونجواهم) سيد قد انتهى سودده من العرش إلى الثرى ، بيانه (الله الصمد) ، سريع الحساب مع خلقه من العرش إلى الثرى بيانه (والله سريع الحساب) سلام سلم خلقه من الظلمة من العرش إلى الثرى ، بيانه (السلام المؤمن) ساتر ذنوب عباده من العرش إلى الثرى بيانه ، (غافر الذنب وقابل التوب) . والميم : على اثنى عشر وجها : ملك الخلق من العرش إلى الثرى ، بيانه (الملك القدوس) مالك خلقه من العرش إلى الثرى ، بيانه (قل اللهمّ مالك الملك) منان على خلقه من العرش إلى الثرى ، بيانه (بل الله يمنّ عليكم) مجيد على خلقه من العرش إلى الثرى ، بيانه (ذو العرش المجيد) مؤمن آمن خلقه من العرش إلى الثرى ، بيانه (وآمنهم من خوف) مهيمن اطلع على خلقه من العرش إلى الثرى ، بيانه (المؤمن المهيمن) مقتدر على خلقه من العرش إلى الثرى ، بيانه فى (مقعد صدق عند مليك مقتدر) مقيت على خلقه من العرش إلى الثرى ، بيانه (وكان الله على كل شىء مقيتا) مكرّم أولياءه من العرش إلى الثرى ، بيانه (ولقد كرّمنا بنى آدم) منعم على خلقه من العرش إلى الثرى ، بيانه (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) مفضل على خلقه من العرش إلى الثرى ، بيانه (إن الله لذو فضل على الناس) مصوّر خلقه من العرش إلى الثرى ، بيانه (الخالق البارئ المصوّر) . وقال أهل الحقائق : وإنما المعنى فى بسم الله الرحمن الرحيم : التيمن والتبرّك وحثّ الناس على الابتداء فى أقوالهم وأفعالهم ببسم الله كما افتتح الله سبحانه وتعالى كتابه العزيز .

(فصل) اعلم أن الناس اختلفوا فى هذا الاسم ، فقال خليل بن أحمد وجماعة من أهل العربية : إنه اسم موضوع لله عزّ وجلّ لايشاركه فيه أحد ، قال الله تعالى (هل تعلم له سميا)

يعنى أن كل اسم لله تعالى مشترك بينه وبين غيره ، له على الحقيقة ولغيره على المجاز إلا هذا الاسم فإنه مختص به ، فيه معنى الربوبية والمعانى كلها تحته . ألا ترى أنك إذا أسقطت منه الألف بقى لله ، وإذا أسقطت من لله اللام الأولى بقى له ، وإذا أسقطت من له اللام بقى هو : واختلفوا فى اشتقاقه ، فقال النضر بن شميل : هو من التأله وهو التنسك والتعبد ، يقال أله إلهة : أى عبد عبادة . وقال آخرون : هو من الإله ، وهو الاعتماد ، يقال : ألهت إلى فلان ألها : أى فزعت إليه واعتمدت عليه ، معناه : أن الخلق يفزعون ويتضرعون إليه فى الحوادث والحوائج ، فهو يألههم : أى يجيرهم ،فسمى إلها ، كما يقال : إمام للذى يؤتم به فالعباد مؤلهون ، إليه : أى مضطرون إليه فى المنافع والمضار ، كالواله المضطر المغلوب . وقال أبو عمرو بن العلاء : هو من ألهت الشيء : إذا تحيرت فيه فلم تهتد إليه . ومعناه : أن العقول تتحير فى كنه صفته وعظمته، والإحاطة بكيفيته ، فهو إله كما يقال للمكتوب كتاب ، وللمحسوب حساب ، وقال المبرد : هو من قول العرب . ألهت إلى فلان : أى سكنت إليه ، فكأن الخلق يسكنون ويطمئنون بذكره . قال الله عز وجل (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وقيل : أصله من الوله ، وهو ذهاب العقل لفقدان من يعز عليه ، فكأنه سمى بذلك لأن القلوب توله بمحبته وتضطرب وتشتاق عند ذكره . وقيل : معناه المحتجب لأن العرب إذا عرفت شيئا ثم حجب عن أبصارها ، سمته لاها ، يقال : لاهت العروس تلوه لوها : إذا احتجبت ، فالله تعالى هو الظاهر بالربوبية بالدلائل والأعلام ، والمحتجب من جهة الكيفية عن الأوهام . وقيل : معناه المتعالى ، يقال لاه أى ارتفع ، ومنه قيل للشمس إلاهة ؛ وقيل : معناه القادر على الاختراع . وقيل : معناه السيد .

(الرحمن الرحيم) قد قال قوم : هما بمعنى واحد ، وهو ذو الرحمة ، وهما من صفات الذات . وقيل : هما بمعنى ترك عقوبة من يستحق العقوبة ، وإسداء الخير إلى من لا يستحقه ، وهما من صفات الفعل . وفرق الآخرون بينهما فقالوا : الرحمن : للمبالغة ، فمعناه : الذى وسعت رحمته كل شيء ، والرحيم دون ذلك فى الرتبة . وقال بعضهم : الرحمن : العاطف على جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم بأن خلقهم ورزقهم ، قال الله تعالى (ورحمتى وسعت كل شيء) ؛ والرحيم بالمؤمنين خاصة بالهداية والتوفيق فى الدنيا وبالجنة والرؤية فى الآخرة ، قال الله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) فالرحمن خاص اللفظ عام المعنى ، والرحيم عام اللفظ خاص المعنى ؛ فالرحمن خاص من حيث إنه لا يجوز أن يسمى به أحد غير الله ، عام من حيث إنه يشمل جميع الموجودات من طريق الخلق والرزق والنفع والدفع ؛ والرحيم عام من حيث اشتراك المخلوقين فى التسمى به خاص من طريق المعنى ، لأنه يرجع إلى اللطف والتوفيق . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : اسمان دقيقان ، أحدهما أدق من الآخر . وقال مجاهد رحمه الله : الرحمن بأهل الدنيا ، الرحيم بأهل الآخرة . وفى الدعاء : يا رحمن الدنيا يارحيم الآخرة . وقال الضحاك رحمه الله : الرحمن بأهل السماء حيث أسكنهم السموات ، وطوقهم الطاعات ، وجنبهم الآفات ، وقطع عنهم المطامع واللذات . والرحيم بأهل الأرض حيث أرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم

الكتب . وقال عكرمة رحمه الله : الرحمن برحمة واحدة ، والرحيم بمائة رحمة . وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن لله عزّ وجل مائة رحمة ، وأنه أنزل منها رحمة واحدة إلى الأرض فقسمها بين خلقه ، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون ، وأخر تسعة وتسعين لنفسه يرحم بها عباده يوم القيامة » وفى لفظ آخر « وإن الله تعالى ضامّ هذه إلى تلك فيكملا مائة ، ويرحم بها عباده يوم القيامة » الرحمن الذى إذا سئل أعطى ، والرحيم الذى إذا لم يسئل غضب ، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه « من لا يسأل الله يغضب عليه » وقال الشاعر :

الله يغضب إن تركت سؤاله وبنيّ آدم حين يسئل يغضب

الرحمن بالنعماء وهى ما أعطى وحبا ، الرحيم بالآلاء وهى ما صرف وزوى ، الرحمن بالانقاذ من النيران كما قال جلّ من قائل (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) والرحيم بإدخال الجنان كما قال (ادخلوها بسلام آمنين) الرحمن برحمة النفوس ، والرحيم برحمة القلوب ، الرحمن بكشف الكروب ، والرحيم بغفران الذنوب ، الرحمن بتبيين الطريق ، والرحيم بالعصمة والتوفيق ، الرحمن بغفران السيئات وإن كنّ عظيات ؛ والرحيم بقبول الطاعات وإن كن غير صافيات ، الرحمن بمصالح معاشهم ، الرحيم بمصالح معادهم ، الرحمن الذى يرحم ويقدر على كشف الضرّ ودفع الشرّ ، الرحيم يرزق ويطعم ولا يطعم (إن الله هو الرزاق ذو القوّة المتين) الرحمن بمن جحده ، الرحيم بمن وحّده ، الرحمن بمن كفره ، والرحيم بمن شكره ، الرحمن بمن قال له ند ، والرحيم بمن قال فرد .

(فصل) قل بسم الله تجد عفو الله ، هذا سماعك من القارى ، فكيف سماعك من البارى فهذا سماعك والغم باق فكيف سماعك والربّ ساق ؛ فهذا سماعك بواسطة فكيف سماعك بلا واسطة ؛ فهذا سماعك فى دار الغرور ، فكيف سماعك فى دار السرور ؛ فهذا سماعك فى دار الشيطان ، فكيف سماعك فى جوار الرحمن ؛ فهذا سماعك من عبد ذليل ، فكيف سماعك من الملك الجليل ؛ هذه لذّة الخبر فكيف لذّة النظر ، هذه لذّة المجاهدة ، فكيف لذّة المشاهدة ؛ هذه لذّة البيان ، فكيف لذّة العيان ، هذه لذة المغايبة ، فكيف لذة المعاينة .

(فصل) قل بسم الله الذى تعالى عن الأضداد ، بسم الله الذى تنزّه عن الأنداد ، بسم الله الذى تقدّس عن اتخاذ الأولاد ، بسم الله الذى نوّر الأنوار ، بسم الله الذى أكرم الأبرار ، بسم الله الذى قدر الأقدار ونوّر القلوب والأبصار ، بسم الله الذى تجلى لقلوب الأبرار فى أوقات الأسحار ، بسم الله الذى علم الأحباب الأسرار فغمرها بالأنوار واستودعها الأسرار ، وأزاح عنها الأخطار وحفظها من رقّ الأغيار ، وحط عنها الأثقال والأغلال والآصار والأوزار ، إذ كان موصوفا فى الأزل بالإحسان والأفضال وغفران الذنوب لأهل الاستغفار . قل بسم الله ، اسم الذى أجرى الأنهار وأنبت الأشجار ، اسم من عمر البلاد بأهل الطاعة من العباد ، لها أوتاد كالجبال فصارت الأرض بهم لمن عليها كالمهاد ، فهم الأربعون الأخيار من الأبدال ، المنزّهون

الرب عن الشركاء والأنداد ، وملوك فى الدنيا وشفعاء الأنام يوم التناد ، إذ خلقهم ربى مصلحة للعالم ورحمة للعباد .

(فصل) بسم الله للذاكرين ذخر وللأقوياء عزّ وللضعفاء حرز وللمحبين نور وللمشتاقين سرور ؛ بسم الله راحة الأرواح ، بسم الله نجاة الأشباح ، بسم الله نور الصدور ، بسم الله نظام الأمور ، بسم الله تاج الواثقين ، بسم الله سراج الواصلين ؛ بسم الله مغنى العاشقين ، بسم الله اسم من أعزّ عبادا وأذلّ عبادا ، بسم الله اسم من جعل النار لأعدائه مرصادا وجعل الرؤية لأحبائه ميعادا ، بسم الله اسم الواحد بلا عدد ، بسم الله اسم الباقى بلا أمد ، بسم الله اسم القائم بلاعمد ، بسم الله افتتاح كل سورة ، اسم من طابت به الخلوات ، اسم من به تمت الصلوات ، اسم من به حسنت الظنون ، اسم من سهرت له العيون ، اسم من قال للشىء كن فيكون ، اسم من تنزّه عن المساس ، اسم من استغنى عن الأناس ، اسم من جلّ عن القياس . قل بسم الله حرفا حرفا ، تأخذ الأجر ألفا ألفا ، وتحط عنك الأوزار جرفا جرفا ، من قالها بلسانه شهد الدنيا ، ومن قالها بقلبه شهد العقبى ، ومن قالها بسرّه شهد المولى . بسم الله كلمة طاب بها الفم ، بسم الله كلمة لايبقى معها الغم ، كلمة تمت بها النعمة ، كلمة كشفت بها النقمة ، كلمة خصت بها هذه الأمة ، كلمة جمعت بين جلال وجمال . فقوله بسم الله جلال فى جلال ، وقوله الرحمن الرحيم جمال فى جمال ، فمن شهد جلاله طاش ، ومن شهد جماله عاش ، كلمة جمعت بين قدرة ورحمة ، فالقدرة جمعت طاعات المطيعين ، والرحمة محقت ذنوب المذنبين .

(فصل) قل بسم الله ، فكأنه يقولى بى وصل من وصل إلى الطاعات ، ثم بنور الطاعات وصل إلى العيان ، ثم استغنى بالعيان عن البيان ، فصار قلبه وعاء للأسرار وعلوم الأديان ، ومن وصل إلى الحبيب نجا من النحيب ، ومن وصل إلى النظر استغنى عن الخبر ، ومن وصل إلى الصمد نجا من الكمد ، ومن وصل إلى الرفاق نجا من الفراق ، ومن وصل إلى المجد سلم من الوجد ، ومن وصل إلى اللقاء أمن من الشقاء .

(فصل) قل بسم الله ، فالباء : بارئ البرايا ، والسين : ستار الخطايا ، والميم : المنان بالعطايا ؛ وقيل : إن الباء : برىء من الأولاد ، والسين : سميع الأصوات ، والميم : مجيب الدعوات . وقيل : أطعموا فإنى مطعمكم ، واسقوا فإنى ساقيكم ، وانظروا إلىّ فإنى باقيكم . وقيل : الباء : بكاء التائبين ، والسين : سجود العابدين . والميم : مغفرة المذنبين . وقيل : الله كاشف البلايا ، الرحمن معطى العطايا ، الرحيم غافر الخطايا ، الله للعارفين ، الرحمن للعابدين ، الرحيم للمذنبين ، الله الذى خلقكم وهو أحسن الخالقين ، الرحمن الذى رزقكم وهو خير الرازقين الرحيم الذى يغفر لكم وهو خير الغافرين . وقيل : الله بإسباغ النعم ، الرحمن الرحيم بالجود والكرم ، الله بإخراجنا من البطون ، الرحمن بإخراجنا من القبور ، الرحيم بإخراجنا من الظلمات إلى النور .

(فصل) رحم الله من خالف الشيطان وجانب العصيان واتقى النيران وأكثر الإحسان وأدام ذكر الرحمن ، فقال بسم الله رحم الله من اعتصم بالله وأناب إلى الله وتوكل على الله واشتغل

بذكر الله ، فقال بسم الله رحم الله من زهد فى الدنيا ورغب فى الآخرة وصبر على الأذى وشكر على النعماء واشتغل بذكر المولى ، فقال بسم الله طوبى لعبد اجتنب الطاغوت وقنع من الدنيا بالقوت واشتغل بذكر الحيّ الذى لايموت فيقول بسم الله .

مجلس فى قوله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)

وهذا خطاب للعموم بالتوبة . وحقيقة التوبة فى اللغة : الرجوع ، يقال تاب فلان من كذا : أى رجع عنه ، فالتوبة هى الرجوع عما كان مذموما فى الشرع إلى ما هو محمود فى الشرع والعلم بأن الذنوب والمعاصى مهلكات مبعدات من الله عز وجل ومن جنته ، وتركها مقرّب إلى الله عزّ وجل وجنته ، فكأنه عزّ وجل يقول : ارجعوا إلىّ من هوى نفوسكم ووقوفكم مع شهواتكم عسى أن تظفروا ببغيتكم عندى فى المعاد ، وتبقوا فى نعيمى فى دار البقاء والقرار ، وتفلحوا وتفوزوا وتنجوا وتدخلوا برحمتى الجنة العليا المعدة للأبرار . وخاطبهم أيضا بخطاب الخصوص والاقتضاء فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) ومعنى النصوح الخالص لله تعالى الخالى عن الشوائب . مأخوذ من النصاح وهو الخيط ، وهو توبة مجرّدة لاتتعلق بشىء ، ولايتعلق بها شىء ، يكون العبد معها مستقيما على الطاعة غير مائل إلى المعصية ، لايروغ كما يروغ الثعلب ، ولايحدّث نفسه بعود إلى معصية ولاذنب من الذنوب ، وأن يترك الذنب لله خالصا كما ارتكبه للهوى خالصا حتى يختم له بحسن الخاتمة ، فإن التوبة من سائر الذنوب واجبة بإجماع الأمة . وقد ذكر الله سبحانه وتعالى التائبين فى غير موضع ، قال عزّ من قائل (إن الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين) فذكر أنه يحبهم لتوبتهم وتطهرهم من الذنوب المبعدة عنه عزّ وجل وقال فى موضع آخر (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) فذكر اسما معرّفا يعنى التائبون ، ثم وصفه بهذه الأوصاف الحميدة فعلم أن التائب من هذه صفته ، فإذا اتصف بها استحقّ البشارة والإيمان بقوله (وبشر المؤمنين) .

(فصل) والذى ورد عنه التوبة من الذنوب كبائر وصغائر . أما الكبائر فقد اختلف فيها العلماء ، فمنهم من قال : هى ثلاث ، وقيل أربع ، وقيل سبع وقيل تسع ، وقيل إحدى عشرة . وكان ابن عباس رضى الله عنهما إذا بلغه قول ابن عمر رضى الله عنهما : الكبائر سبع يقول : هى إلى سبعين أقرب منها إلى سبعة ، وكان يقول : كل مانهى الله عنه فهو كبيرة . وقيل : إنها مبهمة لايعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة ، ليعظم جدّ الناس فى طلبها ، فكذلك الكبائر ليشتدّ حذر الناس فى ترك الذنوب كلها . وقيل : كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو كبيرة . وقيل : كل ما أوجب الحدّ فى الدنيا فهو كبيرة . وقد جمعها بعض العلماء بالله عزّ وجل فقال : هى سبع عشرة ، أربعة فى القلب : وهى الشرك بالله ، والإصرار على معصية الله ،

والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله . وأربع فى اللسان وهى : شهادة الزور ، وقذف المحصن ، واليمين الغموس وهى التى يحق بها باطل ويبطل بها حق أويقطع بها مال امرئ مسلم باطلا ولوسواكا من أراك ، والسحر . وثلاث فى البطن : وهى شرب الخمر والمسكر من كل شراب ، وأكل مال اليتيم ظلما ، وأكل الربا وهو يعلم به . واثنتان فى الفرج وهما : الزنا واللواطة . واثنتان فى اليدين وهما : القتل ، والسرقة . وواحدة فى الرجلين وهى : الفرار من الزحف ، الواحد من اثنين ، والعشرة من عشرين ، والمائة من المائتين . وواحدة فى جميع الجسد ، وهى عقوق الوالدين ، وهو أن لاتبر قسمهما إذا أقسما عليك ، وأن تضربهما إذا سباك ، وأن لاتعطيهما إذا سألاك ، وأن لاتطعمهما إذا جاعا واستطعماك .

(فصل) وأما الصغائر فأكثر من أن تحصى ، ولا سبيل إلى تحقيق معرفتها وبيان حصرها ، لكنا نعلم ذلك بشواهد الشرع وأنوار البصائر ، فإن مقصود الشرع سياق القلب وقربه وجواره إلى الله عز وجل بترك الذنوب ، كما قال تعالى (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) . ومنها النظر إلى مستحسن والقبلة له والمضاجعة معه من غير جماع ، والسب لأخيه المسلم والشتم له دون القذف والضرب له ، والغيبة والنميمة والكذب ، وغير ذلك مما يطول شرحه ؛ فإذا تاب المؤمن من الكبائر اندرجت الصغائر فى ضمنها لقوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) الآية ، ولكن لايطمع نفسه فى ذلك ، بل يجتهد فى التوبة عن جميع الذنوب كبيرها وصغيرها ، كما قال الشاعر :

خل الذنوب كبيرها وصغيرها فهو التقى لمن استقام وشمرا
واصنع كماش فوق أرض الشوك يسـ ـلك ما خلا حتى يحاذر ما يرى
لاتحقرن صغيرة فى نفسهـا إن الجبال من الحصى لم تحقرا

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال « نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بواد هو وأصحابه ليس فيه حطب ولا شىء يرونه ، فأمرهم أن يحتطبوا ، فقالوا يارسول الله ما نرى حطبا ، قال : لاتحقروا شيئا تأخذونه ، فجعل الرجل يجمع الشىء بعضه إلى بعض حتى جمعوا سوادا عظيما ، فقال لأصحابه : ألا ترون ، هكذا تكون المحقرات من خير وشر ، حتى الذنب الصغير إلى الصغير ، والكبير إلى الكبير ، والخير إلى الخير ، والشر إلى الشر » وقيل : إن الذنب إذا صغر عند العبد عظم عند الله تعالى ، فإذا استعظمه العبد صغر عند الله تعالى ، فإنما يستعظم الذنب الصغير العبد المؤمن بعظم إيمانه وسمو معرفته ، كما جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب طائر على أنفه فأطاره » وقال بعضهم : الذنب الذى لايغفر قول الرجل : ليت كل شىء عملته مثل هذا ، وهذا من نقصان إيمانه ، وضعف معرفته ، وقلة علمه بجلال الله عز وجل ، ولو كان عنده علم بذلك لرأى الصغير كبيرا ، والحقير عظيما ، كما أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لاتنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر

إلى كبرياء من واجهته بها ، ولهذا قال : من جلت رتبته وعظمت منزلته عند الله عزّ وجل فلا صغيرة ، بل كل مخالفة لله تعالى فهى كبيرة . وقال بعض الصحابة لأصحابه من التابعين : إنكم لتعملون أعمالا هى أدقّ فى أعينكم من الشعر كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات فإنما قال ذلك لقربه من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن الله جل جلاله ، فيعظم من العالم مالم يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن العامى مالا يتجاوز عن العارف على قدر ما بينهما من التفاوت فى العلم والمعرفة والمنزلة . فالتوبة فرض عين فى حق كل شخص لايتصوّر أن يستغنى عنها أحد من البشر ، لأنه لايخلو عن معصية الجوارح ، فإن خلا منها فلا يخلو عن الهمّ بالذنوب بالقلب ، وإن خلا عن ذلك فلا يخلو من وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى ، فإن خلا عنها فلا يخلو عن غفلة وتقصير فى العلم بالله عزّ وجل بصفاته وأفعاله ، كل ذلك على قدر منازل المؤمنين فى أحوالهم ومقاماتهم ، فلكل حال طاعات وذنوب وحدود وشروط ، فحفظها طاعة ، وتركها والغفلة عنها ذنب ، فيحتاج إلى توبة ، وهو الرجوع عن التعويج الذى وجد إلى سنن الطريق المستقيم الذى شرع له ، ومقام أقيم فيه ، ومنزلة مهدت له . فالكلّ مفتقر إلى التوبة وإنما يتفاوتون فى المقادير ، فتوبة العوّام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة ، وتوبة خاصّ الخاص من ركون القلب إلى ما سوى الله عزّ وجل ، كما قال ذو النون المصرى رحمه الله : توبة العوّام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة . وكما قال أبو الحسن النورى : التوبة أن تتوب من كل شيء سوى الله عزّ وجل ، فشتان بين تائب يتوب من الزلات ، وتائب يتوب من الغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات ، وتائب يتوب من طمأنينة القلب إلى غير خالق البريات . فالأنبياء عليهم السلام لم يستغنوا عن التوبة . ألا ترى إلى ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنه ليغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله عزّ وجل فى اليوم والليلة سبعين مرة » وآدم عليه السلام لما أكل من الشجرة المنهىّ عنها تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته وبقى التاج والإكليل على رأسه ، فاستحيا أن يرتفعا عنه ، فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه والإكليل عن جبينه ، ونودى هو وحواء : أن اهبطا من جوارى ، فإنه لايجاورنى من عصانى ، فالتفت إلى حوّاء بالحياء وقال لها : أول شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب ، فأحوجنا إلى التوبة والتضرّع والافتقار والاستكانة والذلة من بعد عيش قارّ ، وذلك الملك العظيم والفضل الكبير والعزّ والدلال وارتفاع المنزلة فى أشرف الأمكنة وأطهرها وآمنها وأقربها إلى الله تعالى . فلو استغنى أحد عن التوبة وأمن من العدو وشؤم النفس ووسواس الشيطان ومكايده ، واغترّ بشرف المكان وطهارته والقرب إلى الله ودنوّ منزلته ، لكان ذلك حقيقا بآدم عليه السلام ، فلم يستغن عن التوبة حتى تاب الله عليه ، لقوله عزّ وجل (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) . وروى عن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما أنه قال : لما تاب الله على آدم عليه السلام هنته الملائكة ، فهبط جبريل عليه السلام وميكائيل وإسرافيل عليهما السلام فقالوا : يا آدم قرّت عيناك بتوبة

الله عليك ، فقال آدم عليه السلام : ياجبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى ؟ فأوحى الله إليه : ياآدم ورثت ذريتك التعب والنصب ، وورثتهم التوبة ، فمن دعانى منهم لبيته كما لبيتك ، ومن سألنى منهم المغفرة لم أبخل عليه ، فإنى قريب مجيب ياآدم ، وأحشر التائبين من الذنوب فى الجنة ، وأخرجهم من قبورهم فرحين ضاحكين مستبشرين ، ودعاؤهم مستجاب . وكذلك نوح النبىّ عليه السلام الذى أغرق الله تعالى أهل الشرق والغرب بدعوته والغيرة على عرضه ، ولتكذيبهم إياه وشدة غضبه عليهم لذلك ، وهو آدم الثانى ، لأن الخلق من ذريته على ما قيل إنه لم يتوالد من الذين كانوا معه فى السفينة من الناس غير أولاده الثلاثة وهم سام وحام ويافث ، فالخلق تشعبت منهم ومع هذه المنزلة قال (ربّ إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) . وإبراهيم الخليل عليه السلام مع جلالة قدره واصطفاء الله له بخلته وجعله أبا الأنبياء والمرسلين ، كما روى أنه أخرج من ولده وولد ولده أربعة آلاف نبى عليه وعليهم السلام ، قال الله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) حتى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من ولده ، وموسى وعيسى وداود وسليمان عليهم السلام وغيرهم لم يستغن عن التوبة والاستكانة والافتقار إلى الله عزّ وجل ، فقال (الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) الآية ، وقوله عزّ وجل (وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) وموسى عليه السلام مع جلالة قدره واصطفاء الله له بالرسالة والكلام واصطناعه لنفسه ، وإلقائه المحبة عليه ، وتأييده له بالمعجزات الباهرات من اليد والعصا والآيات التسع والأشياء التى كانت له فى التيه ، من عمود النور بالليل والمنّ والسلوى ، وغير ذلك من الآيات التى لم تكن لأحد من الأنبياء قبله (قال ربّ اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) . وداود النبى عليه السلام مع جلالة قدره وإعطاء الله له ذلك الملك العظيم ، كان حراسه ثلاثة وثلاثين ألف حارس ، وكان إذا قرأ الزبور اصطفت الطير على رأسه ووقف الماء جريانه وحدته ، واصطفت الإنس والجنّ حوله ، والسباع والهوام ، كذلك لايؤذى بعضها بعضا ، وتسبح الجبال بتسبيحه ، وألين له الحديد لرزقه إجلالا لقدره وصيانة لأمره ، فبكى أربعين يوما وهو ساجد ، حتى نبت العشب من دموعه ، فرحمه الله تعالى وتاب عليه ، حتى قال عز وجل (فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) ٥ وسليمان بن داود عليهما السلام مع ملكه العظيم وريحه المسخرة له ، غدوّها شهر ورواحها شهر ، والملك الذى لاينبغى لأحد من بعده ، لما عوقب على خطيئته من أجل التمثال الذى عبد فى داره أربعين يوما ، هرب تائها على وجهه ، وكان يسأل بكفيه فلا يطعم ، فإذا قال أطعمونى فإنى سليمان بن داود شجّ رأسه وضرب وأهين وكذّب ، ولقد استطعم يوما من بيت فطرد وبزقت امرأة على وجهه . وروى أنه ذات يوم أخرجت عجوز جرّة فيها بول وصبته على رأسه ، فبقى فى الذل على ذلك إلى أن أخرج الله له الخاتم من بطن حوت ، فلبسه حتى انتهت الأربعون يوما

من أيام العقوبة ، فجاءت الطير حينئذ فعكفت عليه ، وجاءت الجنّ والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله ، فلما عرفه الذين أهانوه وضربوه اعتذروا له مما جرى منهم إليه من الإساءة ، فقال : لا ألومكم فيما صنعتم من قبل ، ولا أحمدكم الآن فيما تصنعون ، فإن هذا أمر من عند ربى ، فلا بد لى منه ، فتاب الله عليه ورد إليه ملكه ، وأكبر موئله ومرجعه عليه السلام .

فإذا كان هؤلاء السادات الكبراء القادة ولاة الخلق والشرع وخلفاء الله فى خلقه حالهم كذلك ، فما حالك واغترارك يامسكين ، وأنت فى دار الغرور فى إقطاع الشياطين ، محيط بك جنود الأعداء من الخلق والهوى والنفس والشهوات والإرادات والوساوس وتزيين الشيطان وتحسينه ، واغتررت بالعبادات الظاهرة من الصوم والصلاة والزكاة والحج ، وكف الجوارح عن المعاصى الظاهرة وباطنك عار عن العبادات الباطنة ، صفر عنها من الورع والتأنى والتقوى والزهد والصبر والرضا والقناعة والتوكل والتفويض واليقين وسلامة الصدر وسخاوة النفس ورؤية المنة والنية والإحسان وحسن الظن وحسن الخلق وحسن المعاش وحسن المعرفة وحسن الطاعة والصدق والإخلاص ، وغير ذلك مما يطول شرحه ، بل أنت مشحون ممتلىء بأخلاق قبيحة وأمهات الذنوب التى منها يتفرع كل محنة وداهية ، وكل بلية مهلكة موبقة فى الدنيا والآخرة من خوف الفقر والسخط لقدر الله عزّ وجل ، والاعتراض عليه فى قضائه فى خلقه ، والتهمة له فى ذلك ، والشك فى وعده ، والغل والحقد والحسد والغش ، وطلب العلو والمنزلة ، وحب الثناء والمحمدة ، وحب الجاه فى الدنيا والرضا بها والطمأنينة إليها ، والتكبر على عباد الله والتعظم عليهم ، والشمخ بالأنف كما قال تعالى (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) والغضب والحمية والأنفة ، وحب الرياسة والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والشح والرغبة والرهبة والفرح والأشر والبطر ، والتعظيم للأغنياء والاستهانة بالفقراء ، والفخر والخيلاء ، والتنافس فى الدنيا والمباهاة بها ، والرياء والسمعة ، والإعراض عن الحق استكبارا ، والخوض فيما لايعنى ، وكثرة الكلام من غير نفع ، والتيه والصلف ، واختبار أحوال الغير ، وترك حالتك التى أنت عليها ، وجعلت عبادتك فى حظها ، والتملق والاقتدار ، والتهاون فى أمر الله ، والتوقير للمخلوقين ، والمداهنة لهم والعجب بالأعمال ، وحب المدح بما لم تفعله ، والاشتغال بعيوب الخلق والتعامى عن عيوبك ، ونسيان نعمة الله وإضافتها إلى نفسك أو إلى الخلق الذين هم مسخرون وآلة لتلك النعمة ، والوقوف مع الظاهر ، والتقاعد عن النظر فى الأصول ، وحفظ الحدود ووضع الشىء فى محله ، وإيثار الفرح ، وبغض الحزن الذى يكون بعدمه خراب القلب ، وخروج الخشية منه ، وببعده إطفاء نور الحكمة ، وبتزايده إيجاب قرب الرب والأنس به والاستماع إليه والفهم منه ، والاستغناء به عن جميع البرية ، والسعادة الأبدية ، والنجاة السرمدية ، والنعمة الكلية ، ومشحون بالانتصار للنفس إذا نالها الذل الذى دواؤها فيه وسعادتها به ، ودخولها فى زمرة أحباب الله تعالى وأصفيائه وخلصائه وشهدائه وعلمائه ، والعارفين بمجارى أقداره وأبدال أنبيائه عليهم السلام ، وبضعف الانتصار

للحق جلت عظمته ، وأنصار دينه وأوليائه القائمين بحجته ، الداعين للخلق إلى طاعته ، المحذّرين لنقمته وناره بتذكيرها لأيامه ، المرغبين فى رحمته وجنته ، وباتخاذ الإخوان فى العلانية مع عداوتك إياهم فى السرّ ، والإعراض عن موافقة الأخيار الأبرار المنكسرين القلوب والأفئدة ، الذين هم جلساء الرحمن جلت عظمته ، المطمئنون إليه ، الملازمون للشدة ، المداومون على الخدمة المتنعمون بالمنة ، المتلبسون بالخلعة ؛ الموسومون بخلصاء الرحمن ربّ العزّة ، الآمنون فى الدنيا من دوران الدول والفتنة ، وفى القبور من شرّ هول المطلع والضغطة ، وفى القيامة من طول الحساب والوحشة ، الخالدون فى دار البقاء فى النعمة والسرور والبهجة والفرحة ، المخصوصون فيها بكل ظريف ولطيف فى كل ساعة ولحظة وطرفة ؛ واغتررت أيضا بما خوّلت من الدنيا ، وما أطلقت فيها من القضاء ، وأرحت من العناء ، فأمنت من سلب العطاء والفضل والنعم التى كانت لغيرك ، ثم انتقلت منه إليك ممن تقدم ومضى ، من فرعون وهامان وقارون وشداد وعاد وقيصر وكسرى ، من الملوك الخالية والأمم الفانية الذاهبة ، الذين تلاعبت بهم الدنيا وغرّتهم الأمانى ، حتى جاء أمر الله وغرّهم بالله الغرور ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، وجمعوا وفرّقوا وقطع بينهم وبين ما خُوِّلوا وأزيلوا من فرشهم التى مهدوها لأنفسهم ، وأهبطوا عن المنازل التى شيدوها ، وأزيلوا عن العزّ الذى كانوا به ظفروا ، وعن الملك الذى ادعوه وخيلوا[1] ، فطولبوا بالودائع التى استودعوها ، وبالعوارى التى استؤمنوها ، فجاءهم من الله مالم يكونوا احتسبوا ، وأوقفوا على مساوىء ما عملوا ، ونوقشوا على دقائق ما اقترفوا ، وحبسوا فى أضيق الحبوس التى فى الدنيا لغيرهم حبسوا ، وشدّد عليهم بأشد الذى شدّدوا ، وعوقبوا بأبلغ ما عاقبوا ، وبالنار أحرقوا ، وبأيديهم وأرجلهم فيها بالأغلال غلوا ، ومن زقوم وضريع أطعموا ، ومن حميم سقوا ، ومن طينة خبال تيموا[2] ، أما كانت لك بهؤلاء الماضين عبرة ، وبالمأسورين عن أهاليهم عظة عن ادّعاء ماخلّفوا ، وسكنى ما بنوا وعنه أُجْلوا ، إذ كانوا فى بنائهم ذلك جاروا وظلموا ، فكم من عرض وظهر وخد ورأس نالوا وضربوا ، وكم من عين مسكين بائس فقير ذليل أبكوا وأدمعوا ، وكم من غنىّ ذى حسب أذلوا وأفقروا ، وكم من بدعة وسنة سيئة ورسم شرعوا ورسموا ، وكم من قلب حكيم لبيب عليهم كسروا وأغضبوا ، وكم من دعاء ونحيب وصوت حزين فى جنح الليل من أرباب القلوب بظلمهم إلى الرحمن رفعوا ، شكاية منهم إليه فى كشف مابهم ، إذ هم على الخبير سقطوا ، فانتدبت لذلك الملائكة الكرام ، وإليه بادروا ، وإلى المليك العظيم المنصف غير الجائر وصلوا وانتهوا ، فنظر العزيز الحكيم العليم بما فى صدورهم ، والخبير بما يخفون وما يعلنون فيما شكوا ومنه ضجوا فأجابهم العزيز الجليل « لأنصرنكم ولو بعد حين » ، فجعلهم حصيدا (فهل ترى لهم من باقية) فقوم بالغرق ، وقوم بالخسف ، وقوم بالحصب ، وقوم بالقتل ، وقوم بالمسخ فى الصور ، وقوم بالمسخ بالمعانى بأن جعل قلوبهم قاسية كالحجارة الصماء ، فطبع عليها بطابع الكفر ، وختمها بخاتم الشرك والرّين

(١) لعل المؤلف يقصد معنى « الخيلاء » . مصححه .

(٢) معناه والله أعلم أنهم تيموا بشرب الخمر فى الدنيا فآلوا إلى طية الخبال . مصححه .

والغطاء والظلمة ، فلم يلج فيها الإسلام ولا الإيمان ، ثم أخذهم أخذة رابية ، وبطش بهم بطشة الجبار ، فأدخلهم دار البوار (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) فهم أبدا فى نكال وجحيم وطعام ذى غصة وعذاب أليم (خالدين فيها مادامت السموات والأرض) لايموتون فيها ومنها لايخرجون ؛ لاغاية لويلهم ولا منتهى لثبورهم ، ولهم فيها معيشة ضنك ، لايتخلص إليهم روح ولا يخرج منهم نفس ولاروح ، انقطعت آمالهم وأصواتهم ، وتشتتت قلوبهم فى حلوقهم ، وخرست ألسنتهم ، وقيل لهم (اخسئوا فيها ولاتكلمون) فاحذر يامسكين أن تفعل بأفعالهم ، أوتستنّ بسننهم ، فتقفو آثارهم ، فتموت من غير توبة ، وتؤخذ على غفلة وغرّة ، من غير أن تمهد لنفسك عذرا ، وتعدّ لك جوابا ومخلصا ، وتقدم بها زادا ومجازا ، فيحلّ بك من العذاب والنكال ما حلّ بهم .

(فصل : فى شروط التوبة وكيفيتها) أما شروطها فثلاثة : أولها : الندم على ماعمل من المخالفات ، وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم « الندم توبة » ، وعلامة صحة الندم : رقة القلب ، وغزارة الدمع ، ولهذا روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « جالسوا التوّابين ، فإنهم أرق أفئدة » . والثانى : ترك الزلات فى جميع الحالات والساعات . والثالث : العزم على أن لايعود إلى مثل ما اقترف من المعاصى والخطيئات ، وهو معنى قول أبى بكر الواسطى حين سئل عن التوبة النصوح فقال : أن لايبقى على صاحبها أثر من المعصية سرّا ولاجهرا ، ومن كانت توبته نصوحا فلا يبالى كيف أمسى وأصبح ، فالندم يورث عزما وقصدا ؛ فالعزم أن لايعود إلى مثل ما اقترف من المعاصى لعلمه المستفاد بالندم أن المعاصى حائلة بينه وبين ربه وبين محابّ الدنيا والآخرة السليمة من التبعات ، كما ورد فى الخبر « إن العبد يحرم الرزق الكثير بذنب يصيبه » وأيضا الزنا يورث الفقر . وعن بعض العارفين : إذا رأيت التغير والتضيق فى المعيشة والتعسر فى الرزق وتشعب الحال ، فاعلم أنك تارك لأمر مولاك تابع لهواك ؛ وإذا رأيت الأيدى تسلطت عليك والألسن وتناولتك الظّلَمة فى النفس والأهـل والمال والولد ، فاعلم أنك مرتكب للمناهى ومانع للحقوق ومتجاوز للحدود ، ومخرق للرسوم وإذا رأيت الهموم والغموم والكروب فى القلب قد تراكمت ، فاعلم أنك معترض على الربّ فيما قدّر عليك وقضى لك متهم له فى وعده ، ومشرك به خلقه فى أمره ، غير واثق به ولا أنت راض بتدبيره فيك وفى خلقه ؛ فإذا علم التائب هـذا بالنظر فى حاله والتفكر فيها ندم على ذلك . ومعنى الندم : توجع القلب عند علمه بفوات محبوبه ، فتطول حسراته وأحزانه وبكاؤه ونحيبه وانسكاب عـبراته ، فيعزم على أن لايعود إلى مثل ذلك لما تحقق عنـده من العلم بشؤم ذلك ، وأنه أضرّ من السمّ القـاتل والسبع الضارى والنار المحرقة والسيف القاطع ، وأن المؤمن لايلسع من جحر مرتين ، فيهرب ضرورة من المعاصى كما يهرب من هذه المضارّ والمهالك ، فى المعاصى هلاك كلىّ والسلامة الأبدية سعادة دنيوية وأخروية ، فياليت المعاصى لم تخلق ولم تكن ؛ فربّ شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا وأعقبت داء دويا وأهلمت عمرا طويلا وأوبقت فى النـار جيلا كثيرا . وأما القصد الذى ينبعث منه وهو إرادة التدارك ، فله تعلق بالحال ، وهو موجب ترك كل محظوروهوملابس له ومداوم

عليه ، وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال ، وله تعلق بالماضى وهو تدارك مافرطه بالمستقبل ،وهو المداومة على الطاعة وترك المعصية إلى الموت . فأما شرط صحته فيما يتعلق بالماضى وهو أن يردّ فكره إلى أول يوم بلغ فيه السنّ والاحتلام ، فيفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما وساعة ساعة ونفسا نفسا ،فينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيها ، وإلى المعاصى ما الذى قارف منها . أما الطاعات فإن كان ترك صلاة فلم يصلها البتة أوصلاها بغير شرائطها وغير أركانها ، مثل أن صلاها من غير وضوء ، أومع وضوء مختلّ بترك شرط كالنية ، أو بعض واجباته كالمضمضة والاستنشاق وغسل الوجه وغير ذلك من الأعضاء ،أوصلى فى ثوب نجس أوحرير أوغصب أوعلى أرض مغصوبة ،فإنه يقضيها جميعا من حين بلوغه إلى حين توبته ، فيشتغل بقضاء الفرائض أولا ،ولا يزال يصليها إلى أن يضيق وقت صلاة الحاضرة ثم يصلى الحاضرة أداء، ثم يشتغل بقضاء الفوائت هكذا إلى أن يأتى على آخرها فإذا حضرت الجماعة صلاها مع الجماعة ، وينويها قضاء ، ثم يصلى على عادته حتى إذا تضايق وقت التى صلاها مع الإمام صلاها وحده أداء ، كل ذلك إنما يفعله احتياطا لتحصيل الترتيب فى القضاء ، إذ هو واجب عندنا ؛ فإن نوى مع الإمام أداء جماعة سومح ورخص له فى ذلك ، ولايعيدها مرّة أخرى ،والصحيح هو الأول ، فإن كان فى عمره الماضى مخلطا فى دينه من الذين قال الله تعالى فى حقهم (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) تارة يغلب عليه الإيمان فيحسن العمل من صلاته وصيامه والتحرّز من النجاسات والمحرم فى الشرع ويحتاط لدينه ، وأخرى تغلبه الشقاوة فيزله الشيطان فينجس فى صلاته ويتساهل فى شرائطها وأركانها وواجباتها ، فيأتى ببعضها ويترك بعضها ، أو يصلى يوما ويترك أياما ، أويصلى من صلاة يوم وليلة صلاة أو صلاتين ويترك باقيها ، فليجتهد وليتحرّ فى ذلك ، فما تيقن أنه أتى به على التمام والكمال على وجه يسوغ فى الشرع لم يقضها ويقضى الباقى وإن نظر لنفسه وارتكب العزيمة والأشد فقضى الجميع لكانّ ذلك احتياطا وخيرا قدمه لنفسه ، وكفارة وترقيعا لكل ما فرّط من سائر الأوامر يوم القيامة ، ودرجات فى الجنة إذا مات على التوبة والإسلام والسنة ؛ وإذا فرغ من قضاء الفرائض ومدّ الله فى أجله ،وأمهل فى مدته ،ووفقه لخدمته ، ورضيه لطاعته ،وأقامه لها ،وجعله من أهل محبته ،وأنقذه من الضلال ، وأخرجه من مرافقة الشيطان ومتابعته ومن ركوب الهوى ، وملاذ نفسه ، فأدبره من دنياه ، وأقبله على أخراه ، فليشتغل حينئذ بقضاء السنن المؤكدات وما يتعلق بكل صلاة على ما ذكرنا فى الفرائض ، ثم بعد ذلك يجتهد فى التهجد وصلاة الليل والأوراد التى نشير إليها فى آخر الكتاب إن شاء الله تعالى . وأما الصوم فإن كان تركه فى سفر أو مرض ، أو أفطر عمدا فى الحضر أو ترك النية ليلا عمدا أو سهوا ، فليقض ذلك جميعه ، وإن شك فى ذلك ، فليتحرّ وليجتهد فى ذلك ، وليقض ما غلب على ظنه تركه ، ويترك باقيه فلا يقضيه ، وإن أخذ بالأحوط فقضى الجميع كان خيرا له ، فيحسب من حين بلوغه إلى حين توبته ، فإن كان بين ذلك عشر سنين صام عشرة أشهر ، وإن كان اثنتى عشرة سنة صام سنة عن كل سنة شهرا ،

وهو شهر رمضان . وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول تمام ملكه لامن زمانه بلوغه وعقله ، إذ الزكاة واجبة على الصبيّ والمجنون عندنا ، فيخرجها ويدفعها إلى مستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم ، فإن كان قد أدّى فى بعض السنين وتوانى فى بعض حسب ذلك ، وأدى المتروك ويترك المؤدى على ما تقدم فى الصوم والصلاة . وأما الحج فإن كان قد تمّ شروطه فى حقه فوجب عليه السعى فيه والقصد إليه ، فتوانىء وفرّط حتى افتقر واختلت الشرائط فى حقه برهة من الزمان ثم قدر ، فعليه الخروج والقصد إليه ، وإن لم يجد المال وكان له قدرة على الخروج ببدنه مع الإفلاس فعليه الخروج ، فإن لم يقدر إلا بمال فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد والراحلة . فإن لم يقدر على الكسب فليسأل الناس ليدفعوا إليه من زكاتهم وصدقاتهم ليحجّ ، لأن الحج من السبيل عندنا ، وهو واحد من الأصناف الثمانية ، وهو قوله عز وجل (وفى سبيل الله) فإن مات قبل ذلك مات عاصيا آثما ، لأنه فرّط فى أداء الحجّ ، وهو عندنا على الفور ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « من وجد زادا وراحلة تبلغه البيت فلم يحجّ فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا » كل ذلك تأكيد لجانب الأمر واحتياطا لحفظه وخوفا من تضييعه وإن كان عليه كفارات ونذور فعليه الخروج منها والاحتياط فيها على ما ذكرنا . وأما المعاصى فينبغى أن يفتش من أوّل بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وفرجه وجميع جوارحه ، ثم ينظر فى جميع أيامه وساعاته ، ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه ، حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ، ويتذكرها جميعها برؤية قرنائه الذين كانوا معه فيها وشاركوه فى اقترافها ، والبقاع التى قارف عليها ، والمنازل التى تستّر فيها عن الأعين فى زعمه ، وغفل عن الأعين التى لاتنام ولا تغمض طرفة عين عنه (كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) غفل عن هؤلاء الكرام الحفظة (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) ويحصون عليه أفعاله وأنفاسه ، وغفل عن عالم السرّ وأخفى العليم بذات الصدور ، والخبير بما يخفون وما يعلنون ؛ ثم ينظر فى ذلك ، فإن كانت المعاصى تتعلق بحق الله تعالى وهى بينه وبينه لاتتعلق بمظالم العباد كالزنا وشرب الخمر وسماع الملاهى ، وكالنظر إلى غير محرّم ، والقعود فى المسجد وهو جنب ، ومسّ المصحف بغير وضوء ، واعتقاد بدعة ، فتوبته عنها بالندم والتحسر والاعتذار إلى الله عز وجل ، ويحسب مقدارها من حيث الكثرة ومن حيث المدة ، ويطلب لكل معصية عنها حسنة تناسبها ، فيأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات) ومن قول النبى صلى الله عليه وسلم « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها » فتكفير كل سيئة بحسنة من جنسها بما تقارب أن تكون كفارة له دون غيره فى التشبيه ، فتكفير شرب الخمر بالتصدق بكل شراب حلال هو أحبّ إليه وأطيب عنده ، وسماع الملاهى بسماع القرآن وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكايات الصالحين ، وتكفير العقود فى المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة وتكفير مسّ المصحف محدثا بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه ، وكثرة

تلقيه على الطهارة ، والاعتبار بما فيه ، والاتعاظ به واحترامه ، والعمل به ، وبأن يكتب مصحفا ويجعله وقفا على المسلمين ليقرءوا فيه :

وأما مظالم العباد ، ففيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى ، فان الله تعالى نهى عن الظلم للعباد ، كما نهى عن الزنا وشرب الخمر ، فما يتعلق من ذلك بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر ، وترك مثله فى ثانى الحال ، والإتيان بالحسنات لتكفر عنه ، فتكفير إيذائه للناس بالإحسان إليهم والدعاء لهم ؛ فان كان المؤذى ميتا فبالترحم عليه والإحسان لولده وورثته ، إذا كانت الأذية باللسان أو الضرب . وتكفير غصب أموالهم فى حق الله تعالى بالتصدق بما يملكه من الحلال : وإن كانت الأذية فى الأعراض مثل أن اغتابهم ومشى بينهم بالنميمة وقدح فيهم ، فتكفير ذلك بالثناء عليهم وإن كانوا من أهل الدين والسنة وإظهار ما يعرف فيهم من خصال الخير فى أقرانه وأمثاله فى المحافل والمجامع : وتكفير قتل النفوس فى حق الله تعالى باعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء للعبد ، لأن العبد كالمفقود المعدوم فيما يرجع إلى نفسه ، كما قال الله عز وجل (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لايقدر على شىء) فكليته لمولاه وتصرفاته وحركاته وسكناته ، فهو مجرد لسيده ، إذ جميع ذلك له ، ففى إعتاقه إيجاده وإحياؤه ، فكأن القاتل أعدم عبدا عابدا لله تعالى وعطل طاعته له ، فجنى على حقه ، فأمر باقامة عبد مثله عابد لله تعالى ، ولا يتحقق ذلك إلا بعتقه من رق العبودية ؛ فيتصرف فى نفسه لنفسه من غير مانع ولا حاجز ، فيقابل الإعدام بالإيجاد ، وهذا فى حق الله تعالى . وأما فى حق العباد فلا يخلو إما أن يكون فى النفوس أو فى الأموال أو الأعراض أو القلوب ، وهذا هو الإيذاء المحض . وأما إذا كانت المظلمة فى النفوس بأن جرى على يده قتل خطأ ، فتوبته بتسليم الدية إلى من يستحقها من ذى نسب ، أو مولى أو الإمام ؛ فهى فى عهدة ذلك حتى تصل الدية إليهم ، إما من العاقلة ، أو الإمام ؛ فإن لم تكن له عاقلة ، ولا وجد فى بيت المال شىء سقطت ، فان كان هو قادرا على أدائها ولا عاقلة له ، فليس له غير عتق رقبة مؤمنة ، فان تطوع بالدية كان أولى ، إذ الدية إنما تجب عندنا على العاقلة ، فلا يخاطب بها القاتل وهو الصحيح . وقيل : إنه يجب عليه أداء الدية فى هذه الحالة إذا لم تكن له عاقلة وله يسار ؛ وهو مذهب الشافعى رحمه الله ، لأن الدية تجب ابتداء على القاتل ، ثم تتحملها عنه العاقلة على وجه التخفيف عنه والنصرة له ، والمواساة له فى الغرامة لما بينهما من التوارث ، وقد عدمت العاقلة هاهنا ، فوجبت عليه ، لاسيما وهو فى حالة التوبة والخروج من المظالم والتورع والخلاص عن حقوق الآدميين . وأما إن كان القتل عمدا فلا يتخلص إلا بالقصاص ، وكذلك إن كان دون النفس فى محل يمكن الاقتصاص منه ، فان كان فى النفس ، فالكلام مع الوارث ، وإن كان فيما دون النفس فمع المجنى عليه ، فان طابت النفوس بإسقاط ذلك والعفو عنه سقط ، وإن طلبوا العفو على مال بذله وتبرأ عن عهدته ، فان قتل قتيلا ولم يعرف أنه هو القاتل كان عليه أن يعترف عند ولى الدم ، ويحكمه فى روحه ، فان شاء عفا عنه ، وإن شاء قتله أو أخذ المال عليه ، ولا يجوز له إخفاؤه لأنه لايسقط بمجرد التوبة ،

فان قتل جماعة فى أوقات مختلفة ومحالّ متعددة ، وقد تقادم الزمان ، ولا يعرف أولياءهم ولا عدد من قتلهم ، أحسن توبته وعمله ، وأقام على نفسه حدّ الله بأنواع المجاهدات والتعذيب لها ، والعفو عمن ظلمه وآذاه ، وأعتق الرقاب ، وتصدّق بمال ، وأكثر النوافل ، ليُفرّق ثواب ذلك عليهم على قدر حقوقهم يوم القيامة ، فينجو هو ، ويدخل الجنة برحمة الله تعالى التى وسعت كل شىء وهو أرحم الراحمين . ولا فائدة إذ ذاك فى التحدث بما جرى عليه من أنواع القتل والجراحات وقطع الطريق ، إذ لايعثر بأربابها ومستحقيها ليوفيهم أو يستحلّ منهم ، بل يشتغل بما ذكرناه ، وكذلك إن زنا أو شرب أو سرق ، ولا يعرف مالكها ، أو قطع الطريق ولا يعرف المقطوع عليه ؛ أو باشر امرأة دون الفرج مما يجب فيه حدّ الله أو التعزيز ، فانه لايلزمه فى صحة التوبة أن يفضح ويهتك ستره ، ويلتمس من الإمام أو الحاكم إقامة الحدود عليه ، بل يستتر بستر الله تعالى ، ويتوب إلى الله عزّ وجلّ فيما بينه وبين الله ، ويشتغل بأنواع المجاهدات من صيام النهار ، والتقلل من المباح واللذات ، وقيام الليل ، وقراءة القرآن ، وكثرة التسبيح والتورّع ، وغير ذلك ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « من أتى بشىء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله تعالى ، ولايبدى لنا صفحته ، فان من أبدى لنا صفحته أقمنا عليه حدود الله » فان خالف ما قلناه ، ورفع أمره إلى الوالى فأقام عليه الحدّ وقع موقعه وصحّت توبته ، وتكون مقبولة عند الله ، وبرئ من عهدة ذنبه ، وتطهر من إثمه ولطخه .

وأما الأموال ، فان كان تناول مال إنسان بغصب أو سرقة أو قطع طريق أو خيانة فى عين من وديعة أو عارية أو معاملة من نوع تلبيس ، كترويج زائف أو ستر عيب فى المبيع ، أونقص أجرة أجير ، أو منع أجرته جملة ، فكل ذلك عليه أن يفتش عنه لامن مدة بلوغه ، بل من مدة وجود ذلك بعد بلوغه وعقله وتمييزه ، أو قبل بلوغه وهو فى حجر وليه ووصيه ، واختلط ماله بماله ، وتهاون الولىّ فى ذلك ، ولم يبال به بأن كان ظالما مجازفا فى دينه ، فاختلط ذلك الحرام بمال الصبىّ تارة من فعل الصبىّ ، وأخرى من ظلم الوصىّ وجب على الصبىّ التائب بعد بلوغه تفتيش ذلك ، وردّ كل حقّ إلى أهله ، وتصفية ماله من تلك الشبهات والحرام ، فليحاسب نفسه على الحبات والذرّات من أوّل يوم جنايته إلى يوم توبته ، قبل أن يأتيه الموت على غفلة من غير حساب ، وتقوم عليه القيامة على غرّة من غير تحصيل ثواب وتهذيب كتاب ، فيسأل فلا يسمع جوابا ، ويندم فلا ينفعه الندم ، ويستعتب فلا يعتب ، ويعتذر فلا يعذر ، ويستمهل فلا يمهل ، ويستشفع فلا يشفع له إذا كان مفرّطا فى حال حياته ، ومجازفا فى حال يقظته وفطنته ، منتظرًا فى أمور معاشه ، حريصا فى تحصيل شهواته ولذّاته ، متابعا لهواه ولشيطانه ، معرضا عن طاعة ربه وجنابه ، متثبطا عن إجابته ، متسارعا فى معصيته وخلافه ، فلذلك طال فى القيامة حسابه ، وعظم ويله ونحيبه ، وانقطع ظهره ، ونكس رأسه ، واشتدّت خجلته وحياؤه ، وانقطعت حجته وبرهانه ، وأخذت حسناته ، وتضاعفت سيئاته ، وخسرت صفقته وظهر إفلاسه ، واشتدّ عليه غضب ربه ، وأخذه ، وأخذته الزبانية إلى مامهد لنفسه

من عذاب ربه ، وأوبقها وأوردها ، فساوى من فى النار من قارون وفرعون وهامان ، إذ مظالم العباد لاتسامح فيها ، ولا ترك . وفى الأثر : « إن العبد ليوقف بين يدى الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال ، لوسلمت له لكان من أهل الجنان ، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سبّ عرض هذا ، وأخذ مال هذا ، وضرب هذا ، فتقص حسناته فلا يبقى له شيء ، فتقول الملائكة : يا ربّ فنيت حسناته وبقى طالبون كثيرون ، فيقول : ألقوا من سيئاتهم إلى سيئاته ، وصكوا له صكا إلى النار ، فيهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص » . فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم ، وينقل إليه عوضا مما ظلمه . وروت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الدواوين ثلاثة : ديوان يغفره الله تعالى ، وديوان لايغفره الله ، وديوان لايترك منه شيء . فأما الديوان الذى لايغفره الله تعالى ، فالشرك بالله جلّ جلاله ؛ قال الله عزّ وجلّ (إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار) . وأما الديوان الذى يغفره ، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه . وأما الديوان الذى لايترك منه شيء، فظلم العباد بعضهم بعضا » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال « أتدرون من المفلس من أمتى يوم القيامة ؟ قالوا : يارسول الله ، المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاته وصيامه ، وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيقاصّ هذا من حسناته ، وإن فنيت حسناته أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار » فينبغى للمذنب أن يبادر إلى التوبة : وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « هلك المسوّفون الذين يقولون سوف نتوب » . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عزّ وجلّ (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) يعنى يقدم ذنوبه ويؤخر توبته ، ويقول : سأتوب حتى يأتيه الموت ، وهو على شرّ ما كان عليه فيموت عليه . وقال لقمان الحكيم لابنه : يا بنىّ لاتؤخر التوبة إلى غد ، فإن الموت يأتيك بغتة ، فالواجب على كل أحد أن يتوب حين يصبح وحين يمسى . قال مجاهد رحمه الله : من لم يتب إذا أصبح وأمسى فهو من الظالمين .

فالتوبة على وجهين : أحدهما فى حقّ العباد ، وقد ذكرناها . والثانى بينك وبين الله تعالى : فتكون بالاستغفار باللسان والندم بالقلب ، والإضمار أن لايعود على ما أشرنا إليه من قبل ، فليجتهد هـذا التائب من الظلم ، ويبذل جهده فى تكثير الحسنات حتى يقتصّ منه يوم القيامة ، فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين أرباب المظالم ، ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه للعباد وإلا هلك بسيئات غيره ، وهـذا يوجب استغراق جميع العمر فى الحسنات لو طال عمره بحسب مدة الظلم ، فكيف والموت على الرصد ، وربما يكون الأجل قريبا فتخترمه المنية قبل بلوغ الأمنية ، وقبل إخلاص العمل ، وتصحيح النية وتصفية اللقمة ، فليبادر إلى ذلك ، وليبذل الاجتهاد فيكتب جميع ذلك ، وأسامى أصحاب المظالم واحدا واحدا ، ويطوف نواحى العالم وأطراف البلاد وأقطارها ، ويطلبهم يستحلهم ، أو يؤدّى حقوقهم ، فان لم يجدهم فإلى

ورثتهم ، وهو مع ذلك خائف من عذاب الله ، راج لرحمته ، تائب مقلع عن جميع ما يكره
ولاه ، مشمر فى طاعته ومرضاته ، فان أدركته منيته وهو على ذلك فقد وقع أجره على الله ،
قال الله عزّ وجلّ (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع
أجره على الله) . وقد جاء فى الصحيح المتفق عليه ، عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه ،
عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا ،
فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدلّ على راهب ، فأتاه فقال له : إنه قد قتل تسعة وتسعين
نفسا ، فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله ، فكمل به مئة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ؟
فدلّ على رجل عامل ، فأتاه فقال : إنه قد قتل مئة نفس فهل له من توبة ؟ قال : نعم ، ومن
يحول بينك وبين التوبة ، انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فان بها ناسا يعبدون الله ، فاعبد الله معهم
ولا ترجع إلى أرضك ، فانها أرض سوء ؛ فانطلق حتى إذا انتصف الطريق أتاه الموت ،
فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبا مقبلا إلى الله ،
وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرا قطّ ، فأتاهم ملك فى صورة آدمىّ ، فجعلوه بينهم
حكما ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين إلى أيهما كان له أدنى فهو له ، فقاسوا ، فوجدوه أدنى
إلى الأرض التى أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة : وفى رواية : فكان إلى القرية الصالحة أقرب
بشبر ، فجعل من أهلها . وفى رواية : فأوحى الله عزّ وجلّ إلى هذه : أن تباعدى ، وإلى
هذه أن تقاربى ، وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر ، فغفر له » .
فهذا دليل واضح على أن قصده إلى التوبة وسعيه إليها ، ونيته لها نافع ، ودليل على أنه لاخلاص
إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرّة ، فلابدّ للتائب من تكثير الحسنات والنوافل
ليرضى بها الخصوم يوم القيامة ، وترقع بها الفرائض ، كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم :
« أكثروا من النوافل ترقع بها الفرائض » ، أو كما قال ، ويعقد مع الله تعالى عقدا صحيحا مؤكدا ،
وعهدا وثيقا لايعود إلى تلك الذنوب ، ولا إلى أمثالها أبدا ، ويستعين على ذلك بالعزلة والصمت
وقلة الأكل وقلة النوم ، وإحراز قوت حلال ، والتورّع عن الحرام والشبهة ، إما بكسب
أو بضاعة فى يده من إرث ، أو سبب حلال ، فان كان فيما ورثه شبهة أو حرام أخرجه ولم يأكل
منه ولم يتلبس بشىء منه ، فان رأس المعاصى الحرام ، وملاك الدين الحلال والتورّع ، وتصفية
اللقمة ، فكل ما ينشأ من إنسان من خير وشرّ فمن اللقمة ، فالحلال يورث الخير ، والحرام
يورث الشرّ ، كالقدر إذا طبخ ما فيها واستكمل نضجه تبين الرائحة الفائحة عما فيها ، كل إناء
ينضح بما فيه ، ويكثر مجالسة الفقهاء والعلماء بالله ، يستفيد منهم أمر دينه ، ويعرفونه سلوك
الطريق إلى الله تعالى ، وحسن الأدب فى طاعته ، والقيام فى أمره ، وينبهونه على ما خفى عليه
من أمر السلوك فى طريقه ، فلا بدّ لكل من سلك طريقا لم يعرفه من دليل يدله ، ومرشد يرشده
وهاد يهديه ، وقائد يقوده ، ويستعمل الصدق فى جميع ذلك ، والإخلاص والجدّ فى المجاهدة ،
قال الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فقد ضمن للمجدّ الصادق فى طريقه الهداية ،

فاذا صدق فى ذلك لا يعدم الهداية ، لأن الله لا يخلف الميعاد ، وليس بظلام للعبيد ، وهو أرحم الراحمين رءوف رحيم ، لطيف بخلقه ، بارّ ببريته ، معين وموفّق للمقبلين إليه ، وداع للمدبرين المولّين عنه باللطف ، يفرح بتوبتهم كالوالدة الشفيقة إذا قدم ولدها من سفره البعيد ، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم « لله أفرح بتوبة أحدكم من رجل مرّ بأرض دوية مهلكة ومعه راحلة عليها طعامه وشرابه وما يصلحه ، فأضلها ، فخرج فى طلبها حتى كادت نفسه تخرج ، فقال : أرجع إلى المكان الذى أضللتها فيه ، فأموت هنالك ، فرجع إلى مكانه ، فغلبته عينه : فغمضها لحظة ، فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه ، عليها طعامه وشرابه » . قال علىّ كرّم الله وجهه : سمعت أبا بكر رضى الله عنه ، وهو الصادق قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد أذنب ذنبا ، فقام وتوضأ وصلى واستغفر الله من ذنبه ، إلا كان حقا على الله أن يغفر له » لأنه يقول جلّ وعلا (ومن يعمل سوءا ، أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) .

وأما الأموال الحاضرة المغصوبة ، فليردّ إلى المالك ما يعرف له مالكا معينا أو إلى ورثته على ما تقدّم ؛ وما لايعرف له مالكا معينا فعليه أن يتصدق به عن صاحبه ، فان اختلط الحرام بالحلال ، مثل أن اختلط المغصوب بالإرث الحلال ، حسب فاجتهد فى معرفة مقدار الحرام ، وتصدق بذلك المقدار ، وترك الباقى له ولعياله .

وأما الأعراض فهو سبّ الناس وشتمهم مشافهة ، وهو الجناية على القلوب ، وكذلك غيبتهم ، وذكرهم بالقبيح ، وما يسوءهم من الغيبة ، وهو كل كلام لايحسن أن يقال له فى وجهه فاذا قاله فى غيبة منه ، كان قد اغتابه ؛ فكفارته أن يذكر له ذلك ويستحله ، فان كانوا جماعة فواحدا واحدا ؛ ومن مات منهم قبل ذلك ، فتدارك ذلك بتكثير الحسنات على ماذكرنا ، كل ذلك إذا بلغتهم الغيبة ، وأما إذا لم تبلغهم فلا يجب عليه استحلالهم ، بل لايجوز ، لأن فيه إيصال الألم إلى قلوبهم ، بل يأتى الذين اغتابهم عندهم فيكذّب نفسه عندهم ، ويثنى على المغتابين .

(فصل) ولا بدّ أن يعرّفه قدر جنايته ، ولا يعرّض له فى سائر المظالم ، ولا يكفى فى ذلك الاستحلال المبهم ، لجواز أن المظلوم إذا عرف قدر ظلمه على الحقيقة لم تطب نفسه بالإحلال بل يؤخر ذلك ليوم القيامة ، ليأخذ بدله من حسناته ، أو يحمله من سيئاته ، وإن كان من جملة جنايته على الغير ما لو عرفه وذكره لتأذّى بمعرفته ، كزناه بجاريته وأهله ، أو نسبته باللسان إلى عيب خفىّ من عيوبه ، يعظم أذاه به ، فهاهنا لاطريق له إلا أن يستحله مبهما ، ويبقى عليه له مظلمة ما ، فيجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب ، وكل جناية على الغير لم يعلم بها لو ذكر الجانى له ذلك لم تطب نفسه بالإحلال بسرعة ، أولا يأمن المخبى عليه مقابلته بها فحقّ الجانى فى ذلك وطريقه أن يتلطف له ، ويسعى فى مهماته وأغراضه ، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه ، فان الإنسان عبد الإحسان ، وكل من نفّر بسيئة مال ورجع بحسنة ، فان تعذّر عليه ، فالكفارة بتكثير الحسنات ، ليجزى بها فى يوم القيامة جنايته ، فان

الله تعالى يحكم به عليه ، ويلزمه قبول حسناته مقابلة لجنايته عليه إذا امتنع من القبول ، كمن أتلف فى الدنيا مالا ، فجاء بمثله ، فامتنع من له الحقّ عن قبول ذلك ، وإبرائه عن ذلك ، فان الحاكم يحكم عليه بالقبض ، شاء أم لم يشأ ، وكذلك الله عزّ وجلّ يحكم بذلك فى عرصات القيامة ، وهو أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين .

(فصل) فإذا تخلص من مظالم العباد ، وتفرّغ لعبادة الله تعالى فى خاصته ، سلك طريق الورع ، لأن به يتخلص العبد فى الدنيا والآخرة من العباد ، ومن عذاب الله عزّ وجلّ ، وبه يخفف عنه الحساب يوم القيامة ، فإن الحساب يوم القيامة لحقوق العباد والمعاملات التى جرت فى الدنيا بين الأنام على غير وجه الشرع . وأما من حاسب نفسه فى الدنيا ، وأخذ من الخلق ما يستحقه ، وأعرض عما ليس له ، وخاف من طول الحساب فى القيامة ، فعلى أى شىء يحاسب وفى الخبر : « إن الله تعالى يستحى أن يحاسب الورعين فى القيامة » . ولهذا قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا » . وقال صلى الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه » ، وهذا إشارة إلى التوقف فى كل شىء ، وترك الإقدام عليه إلا بإذن الشرع ، فان وجد فى الشرع مساغا لتناوله والشروع فيه فعل ، وإلا وقف عنه ومال إلى غيره ، وإليه أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم « دع مايريبك إلى ما لايريبك » وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمن وقّاف ، والمنافق لقّاف » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا ، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ، فما ينفعكم إلا الورع الشافى » وفى موضع آخر « المؤمن فتاش » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يبال من أين مطعمه ومشربه ، لم يبال الله تعالى من أىّ باب من النار يدخله » . عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أيها الناس إن أحدكم لن يموت حتى يستكمل رزقه فلا تستبقوا الرزق ، واتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، وخذوا ماحلّ لكم ، وزروا ماحرّم عليكم» وعن ابن مسعود رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لايكتسب العبد مالا من الحرام ويتصدّق به فيؤجر عليه ، ولا ينفق منه شيئا فيبارك له فيه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار » . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله لايمحو الشرّ بالشرّ ، ولكن يمحو الشرّ بالخير » عن عمران بن الحصين رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله تعالى يقول : عبدى أدّ ما افترضت عليك تكن من أعبد الناس ، وانته عما نهيتك عنه تكن من أورع الناس ، واقنع بما رزقتك تكن من أغنى الناس » . وقال صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة رضى الله عنه : « كن ورعا تكن من أعبد الناس » . قال الحسن البصرى رحمه الله : مثقال ذرّة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة » . وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : لايتقرّب إلىّ المتقرّبون بمثل الورع . وقيل : ردّ دانق من فضة أفضل عند الله من ستّ مئة حجة مبرورة . وقيل : سبعين حجة متقبلة . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : جلساء الله تعالى غدا أهل الورع والزهد . وقال ابن المبارك رحمه الله : ترك فلس من الحرام أفضل من

مئة فلس يتصدّق به . وروى عن ابن المبارك أنه كان بالشام يكتب الحديث ، فانكسر قلمه ، فاستعار قلما ، فلما فرغ من الكتابة نسى ، فجعل القلم فى مقلمته ، فلما رجع إلى مرو ، رأى القلم وعرفه ، فتجهز للقدوم إلى الشام لردّ القلم إلى صاحبه . وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه أنه كان يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما مشتبهات لايعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن لم يتقّ الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وإن لكل ملك حمى ، وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » . وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : لكل شىء حدّ ، وحدود الإسلام : الورع والتواضع والصبر والشكر ، فالورع ملاك الأمور ، والصبر النجاة من النار ، والشكر الفوز بالجنة . ودخل الحسن البصرى رحمه الله مكة ، فرأى غلاما من أولاد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس ، فوقف عليه الحسن وقال له : ما ملاك الدين ؟ فقال الورع ، فقال ما آفة الدين ؟ قال الطمع ، فتعجب الحسن منه . وقال إبراهيم بن أدهم رحمة الله : الورع ورعان : ورع فرض ، وورع حذر ؛ فروع الفرض : الكفّ عن معاصى الله ، وورع الحذر : الكفّ عن الشبهات فى محارم الله الله تعالى ؛ فروع العامّ من الحرام والشبهة ، وهو كل ما كان للخلق عليه تبعة ، وللشرع فيه مطالبة . وورع الخاصّ من كلّ ما كان فيه الهوى وللنفس فيه شهوة ولذّة ؛ وروع خاصّ الخاص من كل ما كان لهم فيه إرادة ورؤية . فالعامّ يتورع فى ترك الدنيا ، والخاصّ يتورع فى ترك الجنة ، وخاص الخاص يتورّع فى ترك ما سوى الذى خلق وبرأ . قال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله : الورع على وجهين : ورع فى الظاهر ، وهو ألا تتحرّك إلا لله . وورع فى الباطن ، وهو أن لايدخل فى قلبك سواه تبارك وتعالى . وقال يحيى رحمه الله أيضا : من لم ينظر فى دقيق من الورع لم يحصل له شىء ولم يصل إلى الجليل من العطاء . وقيل : من دقّ فى الورع نظره جلّ فى القيامة خطره . وقيل : الورع فى المنطق أشدّ منه فى الذهب والفضة ، والزهد فى الرياسة أشد منه فى الذهب والفضة ، لأنك تبذلهما فى طلب الرياسة . وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : الورع أوّل الزهد ، كما أن القناعة طرف الرضا . وقال أبو عثمان رحمه الله : ثواب الورع خفة الحساب . وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمة الله : الورع الوقوف على حدّ العلم من غير تأويل . وقال ابن الجلاء رحمه الله : من لم يصحبه الورع فى فقره أكل الحرام النص . وقال يونس بن عبيد الله رحمه الله : الورع الخروج من كل شبهة ، ومحاسبة النفس مع كل طرفة . قال سفيان الثورى رحمه الله : ما رأيت أسهل من الورع ، كلّ ما حاك فى نفسك تركته ، وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم « الإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » وهو إذا لم ينشرح الصدر به وكان فى قلبك منه شىء ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الإثم حوّاز القلوب » يعنى ما حزّ فى صدرك وحاك ولم يطمئن عليه القلب فاجتنبه . ومنه

الحديث « إياكم والحكاكات فإنها المآثم » وقوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى مالا يريبك » . وقال معروف الكرخي رحمه الله : احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم . وقال بشر بن الحارث رحمه الله : أشد الأعمال ثلاثة : الجود فى القلة ، والورع فى الخلوة ، وكلمة حق عند من يخاف ويرجى . وقيل : جاءت أخت بشر بن الحارث الحافى إلى الإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله وقالت : ياإمام إنا نغزل على سطوحنا فتمر بنا مشاعل الظاهرية ويقع الشعاع علينا ، فيجوز لنا الغزل فى شعاعها ؟ فقال : من أنت عافاك الله ؟ قالت : أنا أخت بشر ابن الحارث ، فبكى الإمام أحمد رحمه الله وقال : من بيتكم يخرج الورع ، لاتغزلى فى شعاعها . وقال على العطار رحمه الله : مررت بالبصرة فى بعض الشوارع وإذا مشايخ قعود وصبيان يلعبون ، فقلت : ألا تستحيون من هؤلاء المشايخ ؟ فقال صبى من بينهم : هؤلاء المشايخ قل ورعهم فقلت هيبتهم . وقيل : إن مالك بن دينار رحمه الله مكث بالبصرة أربعين سنة ، فلم يصح له أن يأكل من تمر البصرة ولا رطبها حتى مات ولم يذقه ، وكان إذا انقضى وقت الرطب قال : يا أهل البصرة هذا بطنى ما نقص منه شىء ولازاد فيكم شيئا . وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : ألا تشرب من ماء زمزم ؟ فقال : لو كان لى دلو لشربت : وقيل : كان الحارث المحاسبى رحمه الله إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب على رأس أصبعه عرق ، فيعلم أنه غير حلال . وقيل : إن بشرا الحافى رحمه الله كان إذا قدم بين يديه طعام فيه شبهة لاتمتد إليه يده . وقيل : إن أم أبا يزيد البسطامى رحمهما الله كانت إذا مدت يدها إلى طعام فيه شبهة تباعد حال كونها حاملة بأبى يزيد فلم تمد يدها إليه . وكان بعضهم إذا قدم إليه طعام فيه شبهة فاحت منه رائحة منكرة ، فعلم من ذلك فامتنع من أكله . وقيل عن بعضهم : إنه كان إذا وضع فى فمه لقمة من طعام فيه شبهة لم يمتضغ فتصير كالزمل فى فمه ، وإنما فعل الله تعالى لهم ذلك تخفيفا ورحمة وشفقة وحمية لهم ، لما صفوا اللقم واجتهدوا فى طلب الحلال وترك الحرام والشبهة ، حماهم الله تعالى عما يكرهونه من المطاعم ، فذب عنهم فى معرفة ذلك ، وكفاهم مؤنة التفتيش والتنقير عن بائع الطعام وكسبه ومعيشته ، وعن الثمن الذى اشترى به وأصله وتحصيله من وجه الحلال ، فجعل ذلك علامة عندهم فى أى وقت رأوها كفوا أيديهم عن تناول الطعام ، وإذا لم يروها تناولوه ؛ هذا فى حق هؤلاء السادة الكرام الذين سبقت لهم العناية وعمتهم الرعاية .

وأما الحلال فى حق العوام من المؤمنين ، فكل مالا يكون للخلق فيه تبعة ولا للشرع عليه مطالبة كما قال سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله حين سئل عن الحلال قال : الحلال هو الذى لايعصى الله فيه ؛ وقال مرة أخرى : الحلال الصافى الذى لاينسى الله فيه . فالحلال حلال حكم لاحلال عين ، إذ لو كان حلال عين لم يحل لأحد أكل الميتة ، ولا إذا اشترى الشرطى بماله الحرام طعاما حلالا ، ثم رجع فاستقال البيع فرجع الطعام إلى يد مالكه الأول أن لايجوز أكله للمتورع المؤمن ، لأنه قد تخلل بينهما حالة يحرم أكله فيها ، وهو حصوله فى يد الشرطى ، فلما اتفق المسلمون على جواز أكل هذا الطعام الذى حصل فى ملك الشرطى المشترى بماله الحرام

الذى يحرم أكله عند جميع المسلمين علم أن الحلال والحرام ما كان الشرع حكم به لانفس العين ، لأن ذلك طعام الأنبياء ، كما جاء فى الحديث « أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول : اللهمّ ارزقنى الحلال المطلق ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : ذلك رزق الأنبياء ، اسأل الله رزقا لايعذّبك عليه » وكذلك فى الشرع من اتجر من أهل الذمة واليهود والنصارى والمجوس فى المحرّمات من الخمر والخنزير ولّيناهم بيعها وأخذنا منهم العشر من أثمانها ، وروى ذلك عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : ولوهم بيعها ، وخذوا العشر من أثمانها فإذا أخذ العشر منهم فما يصنع به ، أليس ينتفع به المسلمون ؟ فلو كان الحلال حلال العين لما جاز أخذ ذلك ، لأن الخمر والخنزير وثمنهما حرام ، وأحلّ ذلك لدخول اليد والعقد ، كما قيل : بين الحلال والحرام يد ، فمن أخذ الشرع فى يده مصباحا فأخذ به وأعطى به ولم يتأوّل فيه ولم يخرج عنه ، فأخذ ما أذن له الشرع وأعطى ما أذن له الشرع فيه ، وصار جميع تصرفاته بالشرع أكل الحلال بالشرع ؛ وليس عليه طلب الحلال المطلق العين ، إذ ذاك لايكاد يدرك إلا أن يشاء الله أن يكرم به بعض أوليائه وأصفيائه (وما ذلك على الله بعزيز) . فالناس فى الطعام على ثلاثة أضرب متق ، وولىّ ، وبدل عارف . فحلال المتقى ما ليس للخلق عليه تبعة ، ولا للشرع عليه مطالبة . وطعام الولىّ المحق الذى هو الزاهد زائل الهوى ما ليس فيه الهوى ، بل هو مجرّد بأمره . وطعام البدل الذى هو العارف المفعول فيه زائل الإرادة كرّة القدر[1] ، وهو ما لم تكن فيه همة ولا إرادة بل فضل كله من الله عزّ وجل ، يرزقه ويدلله ويربيه بقدرته الشاملة ومنته العامة ومشيئته النافذة ، كالطفل الرضيع فى حجر أمه الشفيقة ، فما لم يتحقق له المقام الأول لايصل إلى المقام الثانى ، وما لم يتحقق له المقام الثانى لايصل إلى المقام الثالث . فطعام المتقى شبهة فى حقّ زائل الهوى وطعام زائل الهوى شبهة فى حق زائل الإرادة والهمة ، كما قيل : سيئات المقربين حسنات الأبرار . فطعام الشيخ مباح للمريد ، وطعام المريد حرام فى حقّ الشيخ لصفاء حالته ونزاهة رتبته وعلوّ منزلته وقربه من ربه عزّ وجل . ومن دقائق الورع ما نقل عن كهمس رحمه الله أنه قال : أذنبت ذنبا وأنا أبكى عليه منذ أربعين سنة ، وذلك أنه زارنى أخ لى فاشتريت بدانق سمكة مشوية ، فلما فرغ من أكلها أخذت قطعة طين من جدار جار لى حتى غسل يده ولم أستحلّ له . وقيل : إن رجلا كان فى بيت بكراء ، فكتب رقعة وأراد أن يتربها من جدار البيت ، فخطر بباله أن البيت بالكراء ، ثم إنه خطر بباله أن لاخطر لهذا ، فترّب الكتاب فسمع هاتفا يقول سيعلم المتخفف بالتراب ما يلقى غدا من طول الحساب . ورؤى عتبة الغلام يتصبب عرقا فى الشتاء فقيل له فى ذلك ؟ فقال : إنه مكان عصيت فيه ربى ، فسئل عنه فقال : كشطت من هذا الجدار قطعة طين غسل ضيف لى يده بها ولم أستحلّ صاحبه . وقيل : إن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله رهن سطلا له عند بقال بمكة ، فلما أراد فكاكه أخرج البقال إليه سطلين وقال : خذ أيهما لك ، فقال الإمام أحمد : أشكل علىّ سطلى فهو لك والدراهم لك ، فقال البقال : سطلك هذا وإنما أردت أن أجرّبك ، فقال : لا آخذه ومضى وترك السطل عنده . وقيل : إن رابعة العدوية رحمها الله

---

(١) لعل المؤلف يقصد أنه مسلوب الإرادة مطلقا مصححه .

خاطت شقا فى قميصها فى ضوء مشعله سلطانية ، ففقدت قلبها زمانا حتى تذكرت ذلك ، فشقت قميصها فوجدت قلبها . ورؤى سفيان الثورى رحمه الله فى المنام وله جناحان يطير بهما فى الجنة من شجرة إلى شجرة ، فقيل له بم نلت هذا ؟ قال : بالورع . وكان حسان بن أبى سنان رحمه الله لا ينام مضطجعا ولا يأكل سمينا ولا يشرب باردا ستين سنة، فرؤى فى المنام بعد مامات فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال خيرا ، إلا أنى محبوس عن الجنة بإبرة استعرتها فلم أردها ؛ وكان لعبد الواحد بن زيد غلاما خدمه سنين وتعبد أربعين سنة ، وكان فى ابتداء أمره كيالا ، فلما مات رؤى فى المنام ، فقيل له: ما فعل الله بك ؟ قال خيرا غير أنى محبوس عن الجنة . وقد أخرج علىّ من غبار القفيز أربعين قفيزا ، ومرّ عيسى عليه السلام بمقبرة ، فنادى رجلا منهم فأحياه الله تعالى فقال : من أنت ؟ فقال : كنت حمالا أنقل للناس ، فنقلت يوما لإنسان حطبا فكسرت منه خلالا تخللت به فأنا مطالب منذ مت .

(فصل) ولايتم الورع إلا أن يرى عشرة أشياء فريضة على نفسه : أولها حفظ اللسان من الغيبة لقوله تعالى (ولا يغتب بعضكم بعضا) . والثانى : الاجتناب عن سوء الظن لقوله تعالى (اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم) ولقوله صلى الله عليه وسلم « إياكم والظن فإنه أكذب الحديث » . والثالث : الاجتناب عن السخرية لقوله تعالى (لايسخر قوم من قوم) . والرابع : غض البصر عن المحارم لقوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) . والخامس : صدق اللسان لقوله تعالى (وإذا قلتم فاعدلوا) يعنى فاصدقوا . والسادس : أن يعرف منة الله تعالى عليه لكيلا يعجب بنفسه لقوله تعالى (بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان) . والسابع : أن ينفق ماله فى الحق ولاينفقه فى الباطل لقوله تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) يعنى لم ينفقوا فى المعصية ولم يمنعوا من الطاعة . والثامن : أن لايطلب لنفسه العلو والكبر لقوله تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا) . والتاسع : المحافظة على الصلوات الخمس فى مواقيتها بركوعها وسجودها لقوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) . والعاشر : الاستقامة على السنة والجماعة لقوله تعالى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

(فصل) ويجوز أن يتوب عن بعض الذنوب دون بعض إذا لم يمكنه التوبة عن جميعها فى حالة واحدة ، مثل أن يتوب عن الكبائر دون الصغائر ، لعلمه أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخطه ومقته ، والصغائر دونها ، فى الرتبة ، إذ هى أقرب إلى تطرق العفو إليها ، فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ؛ ثم إذا قوى الإيمان واليقين فى قلبه ، وظهرت أنوار الهداية وانشرح صدره للإنابة إلى الله تعالى ، حينئذ تاب عن جميع الصغائر ودقائق الزلات والشرك الخفى وذنوب القلوب أجمع ، ومعاصى الحالات والمقامات بعد ذلك كلما رفع إلى حالة ومقام كان هناك ما يأتى وما يذر ، أمر ونهى يعرفه كل ذائق لهذا الأمر ، وسالك لهذه الطريقة ، ومخالط لأهلها ، فلا يأخذ الناس فى أول وهلة بما هو منتهى الأمر « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين

ولا منفرين ، إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المنبتّ – أى المنقطع – لا طريقا سلك ولا ظهرا أبقى » ومثل من يتوب عن بعض الكبائر دون بعض لعلمه أن بعضها أشدّ من البعض عند الله وأغلظ عقوبة وأبلغ ، كالذى يتوب عن القتل والنهب والظلم للعباد ، لعلمه أن ديون العباد لاتترك،وما بينه وما بين الله تعالى يتسارع العفو إليه، ومثل أن يتوب عن شرب الخمر دون الزنا ، لعلمه أن الخمر مفتاح الشرّ ، فإنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصى وهو لايشعر بها من القذف والسبّ والكفر بالله والزنا والقتل والغصب،لأن الخمر مجمع المعاصى وأمها وأصلها ؛ وكمن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصرّ على كبيرة ، مثل أن يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى المحرّم ، وهو مصرّ على شرب الخمر لشدة ضراوته بالخمر ولهجه بها وتعوّده لها وتسويل نفسه بأنه مداو مرضه بها ، وقد أمرنا باستعمال الدواء وتزيين الشيطان له ذلك وتحسينه وقوّة شهوته فيها لما فى شربها من السرور والفرح وذهاب الهموم وصحة الجسم على زعمهم ، وذهول عن بوائقها وعاقبتها ، والغفلة عن عقوبة الله له لأجلها ، وفساد الدين والدنيا بها ، لأنها سبب زوال العقل الذى به انتظام أمر الدين والدنيا . وإنما قلنا إنه تصح التوبة عن بعض هذه الذنوب دون بعض لأنه لا يخلو كل مسلم من جمع بين طاعة الله ومعصيته فى الأحوال كلها ، وإنما يتفاوتون فى الحالات وعظم الذنوب وصغرها على قرب أحوالهم من الله وبعدها ، فإذا قال الفاسق إن قهرنى الشيطان بواسطة غلبة الشهوة فى بعض المعاصى ، فلا ينبغى لى أن أرخى العنان وأخلع العذار بالكلية ، فأتمرج فى المعاصى ، بل أجتهد فيما يخفّ على من ترك بعض المعاصى فأتركها فيكون قهرى لبعض ذلك كفارة لبعض الباقى ، ولعل الله يرانى أخافه فى بعض معاصيه . وأتركها لأجله ، وأجاهد نفسى وشيطانى فى تركها ، فيعيننى ويوفقنى ، ويحول بينى وبين بقية المعاصى برحمته ، ولو لم يكن الأمرعلى ماقلنا لما صحت صلاة كل فاسق ولاصومه ولا زكاته ولا حجه ولاشىء من الطاعات،بأن يقال له : أنت فاسق خارج من طاعة الله بفسقك ، مخالف لأمره ، فعبادتك هذه لغير الله تعالى ، فإن زعمت أنها لله عز وجل فاترك الفسق ، فإن أمر الله فيه واحد لا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرّب إلى الله مالم تتقرّب بترك الفسق ، وهذا محال لايقال ، فما هذا إلا بمثابة من عليه ديناران لرجلين وهو قادر على الأداء إليهما ، فأدّى أحد الدينارين إلى أحدهما وجحد الآخر ، وحلف عليه مع علمه ذلك وتحققه له ، فلا شك أن ذمته بريئة مما قد أدّى ومشتغلة بما جحدوا بى ؛ فكذلك من أطاع الله تعالى فى بعض أوامره مطيع له بطاعته ، وإذا عصاه فى بعض نواهيه عاص له بمعصية فهو مؤمن ملىء ناقص الإيمان طائع بطاعته عاص مخالف له بمخالفته ، وهذا هو دأب كل مخلط فى أمر دينه إلى أن يبلغ إلى حالة يزول هواه ، فتنقطع عنه جميع المعاصى إلا من شاء الله أن يقضى عليه بها ، إذ لا عصمة لنا ، ويتوب الله على من تاب ، ويتفضل بالرحمة على من أناب.

(فصل : فى ذكر الأخبار والآثار الواردة فى التوبة) قال جابر بن عبد الله رضى الله عنهما : « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة فقال : أيها الناس توبوا إلى الله قبل

شراب کی خرابیاں

أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم تسعدوا ، وأكثروا الصدقة ترزقوا ، وأمروا بالمعروف تحصنوا ، وانهوا عن المنكر تنصروا » وكان النبى صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول « اللهم اغفر لى وتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم » . وقال صلى الله عليه وسلم « إن إبليس حين أهبط إلى الأرض قال وعزتك وجلالك لا أزال أغوى ابن آدم ما دام الروح فى جسده ، فقال الربّ : وعزّتى وجلالى لا أمنعه التوبة ما لم يتغرغر بنفسه » : وعن محمد بن عبد الله السلمى رحمه الله أنه قال : : جلست إلى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقال رجل منهم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من تاب قبل موته بنصف يوم تاب الله عليه » . وقال آخر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من تاب قبل الغرغرة تاب الله عليه » : وعن محمد بن مطرف رحمه الله أنه قال : يقول الله : ويح ابن آدم يذنب الذنب فيستغفرنى فأغفر له ، ويحه ثم يعود فيستغفرنى فأغفر له ، ويحه لاهو يترك ذنبه ولا هو ييأس من رحمتى ، أشهدكم أنى قد غفرت له . وقال أنس رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته بعد ما أنزلت ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ تستغفرون كل يوم مائة مرة ويقولون : نستغفر الله ونتوب إليه قال « وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنى أذنبت ذنبا قال صلى الله عليه وسلم : استغفر الله ، قال إنى أتوب ثم أعود ، قال صلى الله عليه وسلم كما : أذنبت فتب حتى يكون الشيطان هو الحسير ، قال : يانبىّ الله إذا تكثر ذنوبى ، فقال صلى الله عليه وسلم : عفو الله أكبر من ذنوبك » : وقال الحسن رحمه الله : لاتتمنى المغفرة من غير توبة ، ولاالثواب بغير العمل ، لأن الغرة بالله أن تمادى فى سخطه ، وتترك العمل بما يرضيه ، وتتمنى عليه المغفرة ، فتغرك الأمانى ، حتى يحلّ بك أمره ، أما سمعته يقول ﴿ وغرتكم الأمانىّ حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ﴾ . وقال الله تعالى ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ ، وقال عزّ وجل . ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ فالطمع فى الرحمة والجنة من غير توبة وغير تقوى حمق وجهل وغرور لأنهما مقيدتان بهاتين الآيتين . وقال صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه بأصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، فقال به هكذا فطار » . قال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليذنب الذنب فيدخله الجنة ، فقالوا : يانبىّ الله وكيف يدخله الجنة؟ قال : يكون الذنب نصب عينه يستغفر منه ويندم عليه حتى يدخله الجنة » : وقال صلى الله عليه وسلم « لم أرشيئا أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ » . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أذنب العبد ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإذا تاب وفزع واستغفر صفا قلبه منها ، وإذا لم يتب ولم يتضرّع ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسواد على السواد حتى يعمى القلب فيموت ، فذلك قوله عز وجل ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ » . وقال صلى الله عليه وسلم « ترك الخطيئة أهون من

طلب التوبة فاغتنم غفلة المنية » : قال : وكان آدم بن زياد رحمه الله يقول : ليزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت ؛ فاستقال ربه فأقاله ، فليعمل بطاعة الله . قيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : اتق أن آخذك على غرّة فتلقانى بلا حجة . ودخل بعض الصالحين على عبد الملك ابن مروان ، فقال له عظني ؛ فقال : هل أنت على استعداد لحلول الموت إن أتاك ؟ قال لا ، قال : فهل أنت مجمع على التحوّل عن هذه الحالة إلى حالة ترضاها ؟ قال لا ، قال : فهل بعد الموت دار فيها مستعتب ؟ قال لا ، قال فهل تأمن الموت أن يأتيك على غرّة ؟ قال لا ، قال : ما رأيت مثل هذه الخصال يرضى بها عاقل. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم « الندم توبة » : وقال صلى الله عليه وسلم « من أذنب ذنبا ثم ندم عليه فهو كفارته » . وقال الحسن رحمه الله : التوبة على أربع : دعاء ، ثم استغفار باللسان ، وندم بالقلب ، وترك بالجوارح ، وإضمار أن لا يعود . وقال : التوبة النصوح : أن يتوب ثم لا يرجع فيما تاب منه . وقال صلى الله عليه وسلم : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه ، كالمستهزئ بربه ، وإن الرجل إذا قال : أستغفرك وأتوب إليك ، ثم عاد ثم قالها ثم عاد ثلاث مرات كتب فى الرابعة من الكبائر » وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : كن وصىّ نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك ، كيف تلومهم أن يضيعوا وصيتك وقد ضيعتها فى حياتك ؟ وأنشد بعضهم يقول :

تمتــع إنّ ذى الدنيا متاع ... وإنّ دوامها لا يســتطاع
وقدّم ما ملكت وأنت حىّ ... أمير فيه متبع مطاع
ولا يغررك من توصى إليه ... فقصر وصية المرء الضياع

وقال آخر :

إذا ما كنت متخذا وصيا ... فكن فيما ملكت وصىّ نفسك
ستحصد ما زرعت غدا وتجنى ... إذا وضع الحساب ثمار غرسك

(فصل آخر) عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال ، فإذا عمل العبد حسنة كتب له صاحب اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال صاحب اليمين أمسك عنه فيمسك عنه ست ساعات من النهار أو سبعا ، فإن استغفر الله تعالى منها لم يكتب عليه شيئا ، وإن لم يستغفر كتب عليه سيئة واحدة » وفى لفظ آخر « إن العبد إذا أذنب لم يكتب عليه حتى يذنب ذنبا آخر فإذا اجتمعت عليه خمسة من الذنوب فإذا عمل حسنة واحدة كتب له خمس حسنات وجعل الخمس بإزاء خمس سيئات ، فيصيح عند ذلك إبليس لعنه الله ويقول : كيف لى أن أستطيع على ابن آدم ، فإنى وإن اجتهدت عليه يبطل بحسنة واحدة جميع جهدى » وروى يونس عن الحسن رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « ليس من عبد إلا عليه ملكان ، وصاحب اليمين أمير على صاحب الشمال ، فإذا عمل العبد السيئة قال له صاحب الشمال اكتبها ؟ فيقول له صاحب اليمين : دعه حتى يعمل خمس سيئات ، فإذا عمل خمس السيئات قال صاحب الشمال اكتبها ، فيقول صاحب اليمين

دعه حتى يعمل حسنة ، فإذا عمل حسنة قال له صاحب اليمين : قد أخبرنا بأن الحسنة بعشر ، فتعال حتى نمحو خمسا بخمس ونثبت له خمسا من الحسنات ، قال : فيصيح الشيطان عند ذلك فيقول : متى أدرك ابن آدم » ؛ وهذه الأحاديث موافقة لقوله عزّ وجل (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) قال على بن أبى طالب كرّم الله وجهه : « مكتوب حول العرش قبل آدم بأربعة آلاف عام (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) » وموافقة لقوله تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « إذا تاب العبد وتاب الله عليه أنسى الله تعالى حفظته ما كان قد عمل من مساوى عمله ، وأنسى جوارحه ما عملت من الخطايا ، وأنسى مقامه من الأرض ، وأنسى مقامه من السماء فيجىء يوم القيامة وليس عليه شىء شهيد عليه » وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « التائب من الذنب كمن لاذنب له » . وفى لفظ « ولو عاد فى اليوم سبعين مرة » وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « من قال أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحىّ القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات ، غفر له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر » . وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « ينظر الإنسان فى كتابه يوم القيامة فيرى فى أوله المعاصى وفى آخره الحسنات ، فإذا رجع إلى أول الكتاب رأى كل ذلك حسنات ، وذلك قوله تعالى (فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات) » وهذا هو فى حق التائب الذى ختم الله له بالتوبة والإنابة . وقال بعض السلف : إن العبد إذا تاب من الذنوب صارت الذنوب الماضية كلها حسنات . ولهذا قال ابن مسعود رضى الله عنه : وليتمنين أناس يوم القيامة أن تكثر سيئاتهم ، وإنما قال ذلك لما ذكر الله تعالى تبديل السيئات بالحسنات لمن يشاء من عباده . وروى عن الحسن رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « لو أخطأ أحدكم حتى يملأ بين السماء والأرض ثم تاب تاب الله عليه » ولهذا جاء فى الخبر « يا ابن آدم لو لقيتنى بقراب الأرض ذنوبا لقيتك بقرابها مغفرة » .

(فصل آخر فى ذلك) وروى أن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه مرّ ذات يوم فى موضع من نواحى الكوفة ، وإذا الفساق قد اجتمعوا فى دار رجل منهم وهم يشربون الخمر ، ومعهم مغنّ يقال له زاذان كان يضرب بالعود ويغنى بصوت حسن ؛ فلما سمع ذلك عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله تعالى كان أحسن وجعل رداءه على رأسه ومضى ، فسمع ذلك الصوت زاذان ، فقال من هذا ؟ قالوا كان عبد الله ابن مسعود صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وأى شىء قال ؟ قالوا : قال ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة القرآن كان أحسن ، فدخلت الهيبة قلبه ، فقام فضرب بالعود على الأرض فكسره ، ثم أسرع حتى أدركه وجعل المنديل فى عنق نفسه وجعل يبكى بين يدى عبد الله فاعتنقه عبد الله وجعل يبكى كلّ واحد منهما ، ثم قال عبد الله رضى الله عنه : كيف لا أحبّ من أحبه الله ؟ فتاب من ضربه بالعود وجعل يلازم عبد الله حتى تعلم القرآن وأخذ الحظّ

حكايت

الوافر من العلم حتى صار إماما فى العلم . وقد جاء فى كثير من الأخبار . روى زاذان عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه ، وروى زاذان عن سلمان الفارسى رضى الله عنه .

وفى الإسرائيليات مروىّ أنه كانت امرأة بغية مغنية مفتنة للناس بجمالها ، وكان باب دارها أبدا مفتوحا وهى قاعدة على السرير بحذاء الباب فكل من مرّ بها ونظر إليها افتتن بها واحتاج إلى إحضار عشرة دنانير أو أكثر من ذلك حتى تأذن له بالدخول عليها ، فمرّ على بابها ذات يوم عابد من عبّاد بنى إسرائيل فوقع بصره عليها فى الدار وهى قاعدة على السرير فافتتن بها وجعل يجادل نفسه حتى إنه يدعو الله تعالى أن يزول ذلك عن قلبه ، فلم يزل ذلك عن نفسه ، ولم يملك نفسه حتى باع قماشا كان له ، فجمع من الدنانير ما يحتاج إليه ، فجاء إلى بابها فأمرته أن يسلم الذهب إلى وكيل لها وواعدته لمجيئه ، فجاء إليها لذلك الوعد وقد تزينت وجلست فى بيتها على سريرها ، فدخل عليها العابد وجلس معها على السرير ، فلما مدّ يديه إليها وانبسط معها ، تداركه الله برحمته ببركة عبادته المتقدمة ، فوقع فى قلبه إن الله تعالى يرانى فى هذه الحالة من فوق عرشه ، وأنا فى الحرام وقد حبط عملى كله ، فوقعت الهيبة فى قلبه ، فارتعد فى نفسه وتغير لونه ، فنظرت إليه المرأة فرأته متغير اللون ، فقالت له : إيش أصابك يارجل ؟ فقال : إنى أخاف الله ربى ، فأذنى لى بالخروج ، فقالت له : ويحك إن كثيرا من الناس يتمنون الذى وجدته فإيش هذا الذى أنت فيه؟ فقال : إنى أخاف الله جلّ ثناؤه وإن المال الذى دفعته إلى وكيلك هو لك حلال ، فأذنى لى بالخروج ، فقالت له : كأنك لم تعمل هذا العمل قطّ ؟ قال لا ، فقالت له : من أين أنت وما اسمك ؟ فأخبرها أنه من قرية كذا واسمه كذا ، فأذنت له بالخروج من عندها ، فخرج وهو يدعو بالويل والثبور ويبكى على نفسه ، فوقعت الهيبة فى قلب المرأة ببركة ذلك العابد ، فقالت فى نفسها : إن هذا الرجل أوّل ذنب أذنب فدخل عليه من الخوف مادخل ، وإنى قد أذنبت منذ كذا وكذا سنة ، وإن ربه الذى خاف منه هو ربى ، فينبغى أن يكون خوفى أشدّ من خوفه ، فتابت إلى الله تعالى وغلقت الباب على الناس ولبست ثيابا خلقانا وأقبلت على العبادة ، فكانت فى عبادتها ما شاء الله تعالى ، فقالت فى نفسها : إنى لو انتهيت إلى ذلك الرجل لعله يتزوّجنى ، فأكون عنده وأتعلم منه أمر دينى ويكون عونا لى على عبادة ربى ، فتجهزت وحملت معها من الأموال والخدم ما شاء الله ، وانتهت إلى تلك القرية وسألت عنه ، فأخبروا العابد أنه قدمت امرأة تسأل عنك ، فخرج العابد إليها ، فلما رأته المرأة كشفت عن وجهها كى يعرفها ؛ فلما رآها العابد وعرف وجهها وتذكر الأمر الذى كان بينه وبينها صاح صيحة فخرجت روحه ، فبقيت المرأة حزينة وقالت فى نفسها : إنى خرجت لأجله وقد مات فهل له أحد من أقربائه يحتاج إلى امرأة ، فقالوا لها : له أخ صالح لكنه معسر لامال له ، فقالت لابأس به ، فإن لى مالا يكفينا ؛ فجاء أخوه فتزوج بها ، فولدت له سبعا من البنين (كلهم صاروا أنبياء فى بنى إسرائيل [1]) . فانظر إلى بركة الصدق والطاعة وحسن النية كيف هدى الله زاذان بعبد الله بن مسعود لما كان صادقا حسن السريرة ، فلا يصلح بك

(١) هذه عبارة لاتصح فى حق الأنبياء ، ولعلها من الإسرائيليات مصححه .

الفاسد حتى تكوّن أنت صالحا فى ذات نفسك ، خائفا لربك إذا خلوت ، مخلصا له إذا خالطته غير مراء للخلق فى حركاتك وسكناتك موحدا لله عز وجل فى ذلك كله ؛ فحينئذ يزاد فى توفيقك وتسديدك وتحفظ عن الهوى والإغواء من شياطين الجن والإنس والمنكرات كلها والفساق والبدع والضلالات أجمع ، فزال بك المنكر من غير تكلف ، ومن غير أن يصير المعروف منكرا ، كما هو فى زماننا ، ينكر أحدهم منكرا واحدا فيتفرع منه منكرات جمة وفساد عظيم من السب والقذف والضرب والكسر وتخريق الثياب وإفساد الأموال ، وكل ذلك لقلة صدقهم ونقصان إيمانهم ويقينهم وغلبة أهويتهم عليهم . فالمنكر فيهم بعد وفرض إزالته متوجه عليهم وبأنفسهم شغل طويل وهم ينكرون على الغير فيتركون الفرض العين ويتعلقون بالفرض على الكفاية ، ويتركون ما يعنيهم ويشتغلون بمالا يعنيهم ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » من أراد أن يزول به المنكر بسرعة ، فعليه بالإنكار على نفسه والوعظ لها ، ومنعها وفطمها عن المعاصى ما ظهر منها وما بطن ، فإذا تطهر من ذلك كله فحينئذ اشتغل بغيره ، فزال به المنكر بأحسن ما يكون من الوجوه ، كما زال فى حق عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . وانظر إلى بركة العبادة والصدق أيضا فى حق العابد كيف نجاه الله من البغية وارتكاب الكبيرة (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) فالله تعالى حال بينه وبين تلك الفاحشة لما تقدم له من الصدق فى الخلوات وحسن الطاعات فيما مضى من الأيام والساعات ؛ ثم انظر كيف نجى الله تعالى تلك البغية ببركة العابد ، ثم كيف نالت بركته أخاه ، فأزال الله فقره وجهده ، وزوجه بأحسن النساء ، فأغناه ورزقه من حيث لا يحتسب ، وجعله أبا الأنبياء السبعة ، وجعلها أمهم عليهم السلام ؛ فالخير كله فى الطاعة والشر كله فى المعصية ؛ فلا كانت المعصية ولا كنا إذا كنا من أهلها .

(فصل) وإنما تعرف توبة التائب فى أربعة أشياء : أحدها : أن يملك لسانه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب . والثانى : أن لايرى لأحد فى قلبه حسدا ولا عداوة . والثالث : أن يفارق إخوان السوء ، فإنهم هم الذين يحملونه على رد هذا القصد ويشوشون عليه صحة هذا العزم ، ولايتم له ذلك إلا بالمواظبة على المشاهدة التى تزيد بها رغبته فى التوبة ، وتوفر دواعيه على إتمام ما عزم عليه مما يقوى خوفه ورجاءه ، فعند ذلك تنحل من قلبه عقد الإصرار على ماهى عليه من قبيح الأفعال ، فيقف عن تعاطى المحظورات ، ويكبح بلجام نفسه عن متابعة الشهوات فيفارق الزلة فى الحال ، ويبرم العزيمة على أن لايعود إلى مثلها فى الاستقبال . والرابع : أن يكون مستعدا للموت نادما مستغفرا لما سلف من ذنوبه مجتهدا فى طاعة ربه : وقيل : علامة أنه مقبول التوبة أربعة أشياء : أولها أن ينقطع عن أصحاب الفسق ولايراهم هيبة من نفسه ، ويخالط الصالحين . والثانى : أن يكون منقطعا عن كل ذنب مقبلا على جميع الطاعات . والثالث : أن يذهب فرح الدنيا من قلبه ، ويرى حزن الآخرة دائما فى قلبه . والرابع : أن يرى نفسه فارغا عما ضمن الله له ، يعنى من الرزق ، مشتغلا بما أمر الله به من الطاعة : فإذا وجدت فيه هذه العلامات كان من الذين قال الله تعالى فى حقهم (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) ،

ووجب له على الناس أربعة أشياء : أولها : أن يحبوه لأن الله تعالى قد أحبه . والثانى : أن يحفظوه بالدعاء على أن يثبته الله تعالى على التوبة . والثالث : أن لايعيروه بما سلف من ذنوبه لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من عيرّ مؤمنا بفاحشة فهو كفارة لها ، وكان حقا على الله تعالى أن يوقعه فيها ؛ ومن عيرّ مؤمنا بجريرة لم يخرج من الدنيا حتى يرتكبها ويفتضح بها » ، ولأن المؤمن لايقصد الوقوع فى الذنب ولا يتعمده ولا يعتقده دينا يتدين به ، وإنما يكون ذلك بتزيين الشيطان وفرط ضراوة الشهوة وشدّة الشبق وتراكم الغفلة والغرّة ، قال الله تعالى (وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان) فقد أخبر أنه بغّض إلى المؤمنين المعصية ، فلا يجوز أن يُعيَّر بها إذا تاب وأناب ، بل يدعى له بالثبات على التوبة والتوفيق والحفظ . والرابع : أن يجالسوه ويذاكروه ويعينوه . ويكرمه الله تعالى أيضا بأربع كرامات : إحداها : أن يخرجه من الذنوب كأنه لم يذنب قط . والثانية : يحبه الله تعالى . والثالثة : أن لايسلط عليه الشيطان ويحفظه منه . والرابعة : أن يؤمنه من الخوف قبل أن يخرجه من الدنيا لأنه عز وجل قال (تتنزّل عليهم الملائكة أن لاتخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) .

(فصـــل : فى ذكر أقاويل شيوخ الطريقة فى التوبة) قال أبو علىّ الدقاق رحمه الله : التوبة على ثلاثة أقسام : أولها : التوبة ، وأوسطها الإنابة ، وآخرها الأوبة : فالتوبة بداية ، والإنابة واسطة ، والأوبة نهاية . فكان من تاب لخوف العقوبة كان صاحب توبة ، ومن تاب طمعا فى الثواب أورهبة من العقاب كان صاحب إنابة ، ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة فى الثواب أو رهبة من العقاب كان صاحب أوبة . وقيل : التوبة : صفة المؤمنين ، قال الله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعـا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) . والإنابة : صـفة الأولياء المقرّبين ، قال الله تعالى (وجاء بقلب منيب) . والأوبة : صفة الأنبياء والمرسلين ، قال الله عزّ وجل (نعم العبد إنه أوّاب) . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : التوبة على ثلاثة معان : الأول يندم ، والثانى يعزم على ترك المعاودة لما نهى الله عنه ، والثالث يسعى فى أداء المظالم . وقال سهل بن عبد الله رحمه الله التوبة : ترك التسويف . وقال الجنيد : سمعت الحارث يقول : ما قلت قطّ اللهمّ إنى أسألك التوبة ، ولكنى أقول : أسألك شهوة التوبة . وقال الجنيد : دخلت على السرىّ رحمه الله يوما فرأيته متغيرا ، فقلت له : مالك ؟ فقال : دخل علىّ شاب فسألنى عن التوبة ، فقلت له : أن لا تنسى ذنبك ، فعارضنى وقال : بل التوبة أن تنسى ذنوبك ، فقلت : إن الأمر عندى على ما قاله الشاب ، فقال : لم ؟ قلت : لأنى إذا كنت فى حال الجفاء فنقلنى إلى حال الوفاء ، فذكر الجفاء فى حال الصفاء جفاء ، فسكت . وقال سهل بن عبد الله رحمه الله : التوبة : أن لاتنسى ذنبك . وقال الجنيد رحمه الله حين سئل عن التوبة : هى أن تنسى ذنبك . وتكلم أبو نصر السرّاج رحمه الله فى المقالتين فقال : أشار سهل إلى أحوال المريدين والمتعرّضين تارة لهم وتارة عليهم . فأما الجنيد فإنه أشار إلى توبة المحققين ، فلا يذكرون ذنوبهم مما غلب على قلوبهم من عظمة الله تعالى ودوام ذكره . وقال : وهو مثل ما سئل رويم عن التوبة فقال :

التوبة من التوبة . وقال ذو النون المصرى رحمه الله : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة . وقال أبو الحسن النورى رحمه الله : التوبة أن تتوب من كل شيء سوى الله عزّ وجل . قال عبد الله بن محمد بن على رحمهم الله : شتان بين تائب يتوب من الزلات ، وتائب يتوب من الغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات . قال أبو بكر الواسطى رحمه الله التوبة النصوح أن لايبقى على صاحبها أثر من المعصية سرّا ولا جهرًا ، ومن كانت توبته نصوحا لا يبالى كيف أمسى وأصبح . قال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله فى مناجاته : إلهى لا أقول تبت ولا أعود لما أعرف من خلقى ، ولا أضمن ترك الذنوب لما أعرف من ضعفى ، ثم إنى أقول لاأعود لعلى أموت قبل أن أعود . قال ذو النون رحمه الله : الاستغفار من غير إقلاع توبة الكذّابين . وقال أيضا رحمه الله : حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت حتى لايكون لك قرار ، ثم تضيق عليك نفسك كما أخبر الله تعالى فى كتابه العزيز (وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا) . وقال ابن عطاء رحمه الله : التوبة توبتان : توبة الإنابة ، وتوبة الاستجابة ؛ فتوبة الإنابة : أن يتوب العبد خوفا من عقوبته ، وتوبة الاستجابة : أن يتوب حياء من كرمه . وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله : زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها . وقال أبو عمرو الأنطاكى رحمه الله : ركب علىّ بن عيسى الوزير فى موكب عظيم ، فجعل الغرباء يقولون من هذا ؟ فقالت امرأة قائمة على الطريق : إلى متى تقولون من هذا ؟ هذا عبد سقط من عين الله فابتلاه الله بما ترون ، فسمع علىّ بن عيسى ذلك ، فرجع إلى منزله واستعفى من الوزارة ، وذهب إلى مكة وجاور بها .

مجلس فى قوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

اختلف العلماء فى معنى التقوى وحقيقة المتقى ، فالمنقول عن النبىّ صلىّ الله عليه وسلم أنه قال « جميع التقوى فى قوله عزّ وجل (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) » وقال ابن عباس رضى الله عنهما المتقى الذى يتقى الشرك والكبائر والفواحش . وقال ابن عمر رضى الله عنهما : التقوى أن لاترى نفسك خيرا من أحد . وقال الحسن رحمه الله : المتقى الذى يقول لكل من رآه هذا خير منى : وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لكعب الأحبار : حدثنى عن التقوى ، قال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال نعم ، قال : فما عملت فيه ؟ فقال : حذرت وشمرت ، قال كعب : كذلك التقوى ، فنظمه الشاعر :

خلّ الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنّ صغيرة إن الجبال من الحصى

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : ليس التقى صيام النهار وقيام الليل والتخليط فيما

بين ذلك ، ولكن التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله ، فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير . وقيل لطلق بن حبيب : أجمل لنا التقوى ، فقال : التقوى عمل بطاعة الله على نور من الله رجاء لثواب الله حياء من الله . وقيل : التقوى: ترك معصية الله على نور من الله مخافة عقاب الله . قال بكر بن عبيد الله رحمه الله : لايكون الرجل تقيا حتى يكون تقيّ المطعم وتقيّ الغضب. وقال عمر بن عبد العزيز أيضا رحمه الله : المتقي ملجّم كالمحرم في الحرم . وقال شهر بن حوشب رحمه الله : المتقي الذي يترك مالا بأس به حذر الوقوع فيما فيه بأس : وقال سفيان الثوري وفضيل رحمهما الله : هو الذي يحبّ للناس ما يحبّ لنفسه . وقال الجنيد بن محمد : ليس المتقي الذي يحبّ للناس ما يحبّ لنفسه، إنما المتقي الذي يحبّ للناس أكثر مما يحبّ لنفسه ، أتدرون ما وقع لأستاذي سريّ السقطي رحمه الله ؟ وهو أن سلم عليه ذات يوم صديق له ، فرد عليه وهو عابس لم ينبشش له ، فقلت له ذلك ، فقال : بلغني أن المرء المسلم إذا سلّم على أخيه وردّ عليه أخوه قسمت بينهما مائة رحمة تسعون منها لأبشهما وعشرة للآخر ، فأحببت أن يكون له تسعون . وقال محمد بن عليّ الترمذي رحمه الله : هو الذي لاخصم له . وقال سريّ السقطي رحمه الله : هو الذي يبغض نفسه . وقال الشبلي رحمه الله : هو الذي لايتقي ما دون الله ، قال الناطق الصادق : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » . وقال محمد بن خفيف رحمه الله : التقوى مجانبة كل شيء يبعدك عن الله . وقال القاسم بن القاسم رحمه الله : هو المحافظة على آداب الشريعة . وقال الثوري رحمه الله : هو الذي يتقي الدنيا وآفاتها . وقال أبو يزيد رحمه الله : هو التورّع عن جميع الشبهات . وقال أيضا : المتقي من إذا قال قال لله ، وإذا سكت سكت لله ، وإذا ذكر ذكر لله . وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : لا يكون العبدَ من المتقين حتى يأمنه عدوّه كما يأمنه صديقه . وقال سهل رحمه الله : المتقي من تبرأ من حوله وقوّته . وقيل : التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك . وقيل : هو الاقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : أن تتقي بقلبك من الغفلات ، وبنفسك من الشهوات ، وبحلقك من اللذات ، وبجوارحك من السيئات ، فحينئذ يرجى لك الوصول إلى ربّ الأرض والسموات . وقال أبو القاسم رحمه الله : هي حسن الخلق . وقال بعضهم : يستدلّ على تقوى الرجل بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر على ما فات . وقيل : المتقي الذي يتقي متابعة هواه. وقال مالك رحمه الله: حدثني وهب بن كيسان أن بعض فقهاء أهل المدينة كتب إلى عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما : إن لأهل التقوى علامات يعرفون بها : الصبر عند البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر عند النعماء ، والتذلل لأحكام القرآن . وقال ميمون ابن مهران رحمه الله : لايكون الرجل تقيا حتى يكون أشدّ محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح والسلطان الجائر . وقال أبو تراب رحمه الله : بين يدي التقوى خمس عقبات من لايجاوزها لاينالها وهي : اختيار الشدّة على النعمة ، واختيار القوّة على الفضول ، واختيار الذلّ على العزّ ، واختيار الجدّ على الراحة ، واختيار الموت على الحياة . وقال بعضهم : لا يبلغ الرجل

صنام التقوى إلا إذا كان بحيث لو جعل مافى قلبه على طبق فيطاف به فى السوق لم يستح من شيء مما عليه . وقيل : التقوى أن تزين سرّك للحقّ كما تزين علانيتك للخلق . وقال أبوالدرداء رضى الله عنه :

يريد العبد أن يعطى مناه ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتى ومالى وتقوى الله أحسن ما استفادا

عن مجاهد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يانبيّ الله أوصنى ، فقال صلى الله عليه وسلم : عليك بتقوى الله فإنه جماع كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله فإنه نور لك » . وعن أبى هرمز نافع بن هرمز رحمه الله قال : سمعت أنسا رضى الله عنه يقول : « قيل يامحمد من آل محمد ؟ قال : كل تقيّ » . فالتقوى جماع الخيرات . وحقيقة الاتقاء التحرّز بطاعة الله عزّ وجل عن عقوبته . يقال : اتقى فلان بترسه ، وأصل التقوى : اتقاء الشرك ، ثم بعده اتقاء المعاصى والسيئات ، ثم بعده اتقاء الشبهات . ثم يدع بعده الفضلات . وجاء فى تفسير قوله تعالى (اتقوا الله حقّ تقاته) هو أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر . وقال سهل ابن عبد الله رحمه الله : لامعين إلا الله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر عليها . وقال الكنانى رحمه الله : قسمت الدنيا على البلوى ، وقسمت الجنة على التقوى ، ومن لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة . وقال النصراباذى رحمه الله : التقوى أن يتقى العبد ما سواه تعالى . وقال سهل رحمه الله : من أراد أن تصحّ له التقوى فليترك الذنوب كلها . وقال النصراباذى أيضا : من لزم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا ، لأن الله تعالى يقول (وللدار الآخرة خير للذين يتقون) . وقال بعضهم : من تحقق فى التقوى هوّن الله على قلبه الإعراض عن الدنيا . وقال أبو عبد الله الروذبارى : التقوى : مجانبة ما يبعدك عن الله تعالى . وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى : التقيّ من لايدنس ظاهره بالمعارضات ، ولا باطنه بالغفلات ، ويكون واقفا مع الله تعالى موقف الاتفاق . وقال ابن عطية رحمه الله تعالى : للمتقى ظاهر وباطن ، فظاهره محافظة الحدود ، وباطنه النية والإخلاص . وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى : لاعيش إلا مع رجال تحنّ قلوبهم للتقوى وترتاح بالذكر . وقال أبوحفص رحمه الله تعالى : التقوى فى الحلال المحض لا غير . وقال أبوالحسين الزنجانى رحمه الله تعالى : من كان رأس ماله التقوى كلت الألسن عن وصف ربحه . وقال الواسطى رحمه الله تعالى : التقوى أن يتقى من تقواه ، يعنى من رؤية تقواه . وروى أن ابن سيرين رحمه الله تعالى اشترى أربعين حبا سمنا ، فأخرج غلامه فأرة من حب ، فسأله من أيّ حبّ من الحباب أخرجتها ؟ فقال لا أدرى ، فصبها كلها . وروى عن بعض الأئمة أنه كان لايجلس فى ظلّ شجرة غريمه ويقول : جاء فى الخبر « كل قرض جرّ نفعا فهو ربا » . وقيل : إن أبا يزيد رحمه الله تعالى غسل ثوبا فى الصحراء مع صاحب له ، فقال صاحبه : نعلق الثياب على

آل محمد

جدران الكروم ، فقال : لانغرز الوتد فى جدار الناس ، فقال : نعلقه على الشجر ، فقال : لا إنه يكسر الأغصان ، فقال : تبسطه على الإذخر ، فقال : لا إنه علف الدوابّ لانستره عنها ؛ قيل : فولى ظهره إلى الشمس وحمل القميص على ظهره ووقف حتى جفّ جانبه ، ثم قلبه حتى جفّ الجانب الآخر . وعن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى أنه قال : بتّ ليلة تحت صخرة بيت المقدس ، فلما كان بعض الليل نزل ملكان ، فقال أحدهما لصاحبه : من هاهنا ؟ فقال الآخر : إبراهيم بن أدهم ، فقال : ذاك الذى حطّ الله درجة من درجاته ، فقال : لم ؟ قال : لأنه اشترى بالبصرة التمر ، فوقعت تمرة من تمر البقال على تمره ، فقال إبراهيم : فمضيت إلى البصرة واشتريت التمر من ذلك الرجل وأوقعت تمرة على تمره ورجعت إلى بيت المقدس ونمت تحت الصخرة ، فلما كان بعض الليل إذا أنا بملكين نزلا من السماء ، فقال أحدهما لصاحبه : من هاهنا ؟ قال الآخر : إبراهيم بن أدهم ، فقال : ذاك الذى ردّ الشيء إلى مكانه ورفعت درجته .

وقيل : التقوى على وجوه : تقوى العامة : ترك الشرك بالخالق ؛ وتقوى الخاصة : ترك الهوى بترك المعاصي ومخالفة النفس فى سائر الأحوال ؛ وتقوى خاصّ الخاص من الأولياء : ترك الإرادة فى الأشياء والتجرّد فى النوافل من العبادات والتعلق بالأسباب ، والركون إلى ما سوى المولى ، ولزوم الحال والمقام ، وامتثال الأمر فى جميع ذلك مع أحكام الفرائض ؛ وتقوى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا تتجاوزهم غيب فى غيب ، فهو من الله وإلى الله ، يأمرهم وينهاهم ، ويوفقهم ويؤدبهم ، ويطيبهم ويطبهم ، ويكلمهم ويحدثهم ، ويرشدهم ويهديهم ، ويعطيهم ويهنئهم ، ويطلعهم ويبصرهم ، لا مجال للعقل فى ذلك ، فهم فى معزل عن البشر بل عن الملائكة أجمع ، إلا فيما يتعلق بالحكم الظاهر والأمر المبين الموضوع للأمة وعوامّ المؤمنين ، فإنهم يشاركون الخلق فى ذلك ، وينفردون عنهم فيما سوى ذلك ، وقد يعطى بعض ذلك الكرام من الأبدال والخلص من الأولياء ، فتقصر عباراتهم عن ذكر ذلك ، فلا تظهر إلى الوجود ولا تدرك بالسمع والحس إلا ما يغلب على اللسان ، فتبدر من ذلك كلمة أو كلمات ، ثم يتداركه الله بالسكينة والتثبيت وإسبال الستر عليه ، فيستيقظ لأمره ويحفظ لسانه ويستغفر الله تعالى مما جرى ، ويغير العبارة ويحسن اللفظ على وجه يعقل ويفهم ، على ما هو المعهود من الناس .

(فصل) وطريق التقوى أولا : التخلص من مظالم العباد وحقوقهم ، ثم من المعاصي الكبائر منها والصغائر ، ثم الاشتغال بترك ذنوب القلب التى هى أمهات الذنوب وأصولها فمنها يتفرّع ذنوب الجوارح من الرياء والنفاق والعجب والكبر والحرص والطمع والخوف من الخلق والرجا لهم وطلب الجاه والرياسة والتقدم على أبناء جنسه ، وغير ذلك مما يطول شرحه ، وإنما يقوى على جميع ذلك بمخالفة الهوى ، ثم الاشتغال بترك الإرادة ، فلا يختار مع الله شيئا ، ولا يدبر مع الله تدبيره ولا يتخير عليه ولا ينصّ على جهة وسبب فى رزقه ، ولا يعترض عليه عزّ وجل فى خلقه ، بل يسلم الكلّ إليه ، ويستسلم بين يديه ، ويطرح نفسه لديه ، فيصير فى يد قدرته

كالطفل الرضيع فى يد ظئره ودايته ، وكالميت فى يد غاسله ، مسلوب اختياره ، منزوع إرادته ، فالنجاة كل النجاة فى ذلك . فإن قال قائل : كيف الطريق إلى ذلك ؟ قيل له : الطريق إلى ذلك بصدق اللجأ إلى الله عزّ وجل ، والانقطاع إليه ، ولزوم طاعته بامتثال أوامره وانتهاء نواهيه ، والتسليم فى قدره ، وحفظ حدوده وصيانة الحال دائما أبدا .

واختلفت أقاويل الشيوخ فى النجاة ، فقال الجنيد رحمه الله تعالى : مانجا من نجا إلا بصدق اللجأ إلى الله عز وجل ، قال الله عزّ وجل (وعلى الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه) وقال رويم رحمه الله تعالى : ما نجا من نجا إلا بالصدق والتقوى ، قال الله عزّ وجل (وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم) . وقال الجريرى رحمه الله : ما نجا من نجا إلا بمراعاة الوفاء ، قال الله تعالى (الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق) . وقال عطاء رحمه الله تعالى : مانجا من نجا إلا بتحقيق الحياء ، قال الله تعالى (ألم يعلم بأن الله يرى) . وقال بعضهم : مانجا من نجا إلا بالحكم والقضاء السابق فى علم الله عزّ وجل ، قال الله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) . وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : مانجا من نجا إلا بالإعراض عن الدنيا وأهلها ، قال الله تعالى (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) وقد ذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم « أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وما تقرّب المتقرّبون إلى الله بشيء أفضل من أداء ما افترض الله » . وقال « منذ خلقها الله تعالى ما نظر إليها » . وقال الحسن رحمه الله تعالى : معناه ما نظر إليها بعين رحمته من مقتها فهى الحجاب العظيم ، وبها تبين الخالص من المعيب ولا يصحّ لمن بقى عليه منها شيء ، الوصول إلى حلاوة مناجاته سبحانه لأنها ضدّ عن الله وضدّ ما يحبه الله .

(فصل) وقد دعا الله عزّ وجل خلقه إلى توحيده وطاعته بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، فحذر وأنذر وخوّف وزجر إعذارا إليهم وتأكيدا للحجة عليهم ، فقال عزّ وجل (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . وقال عزّ من قائل (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) ، وقال تعالى فى آية أخرى (وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا) ، وقال تعالى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) ، وقال جل وعلا فى التخويف والتحذير (ويحذركم الله نفسه والله رؤف بالعباد) ، وقال تبارك وتعالى (واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه) ، وقال جلت عظمته (واعلموا أن الله بكل شيء عليم) ، وقال جلت قدرته (واتقون ياأولى الألباب) ، وقال سبحانه وتعالى (واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه) ، وقال تعالى (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون) وقال تعالى (واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولايقبل منها عدل ولاتنفعها شفاعة) ، وقال جل جلاله (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، إن وعد الله حق فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا

يغرّنكم بالله الغرور) ، وقال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم) ، وقال عزّ وجل (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا) وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا) ، وقال عزّ وجل (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) ، وقال تعالى (واتقوا الله إن الله شديد العقاب) ، وقال تعالى (قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة) ، وقال عزّ وجل (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون) ، وقال جل وعلا (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) ، وقال تعالى (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) فما جوابك يامسكين عن هذه الآيات وما عملك بها ؟ فهل انتهيت عن اتباع شهواتك الخبيثة المؤذية لك فى الدنيا والآخرة ، المحلة لك فى دار الشقاء والمهانة التى يحرقك نارها وتنهشك حياتها وتلسعك وتلسنك عقاربها وهوامها ، وتأكلك ديدانها ، وتضربك زبانيتها وخزانها ، ويجدد عليك فى كل يوم أنواع عذابها وأنت فيها مع فرعون وهامان وقارون والشياطين سواء . وقال فى الترغيب : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب) وقال تعالى (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) وقال تعالى (ياأيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم ، الذى خلقك فسوّاك فعدلك) ، وقال عزّ وجل (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) فقد رغبك فيما عنده فى طلب فضله وسعة رحمته وطيب رزقه والاستراحة إليه والطمأنينة لديه ، بسلوك طريق التقوى وملازمته والمواظبة عليه ، فبين لك بذلك الطريق وأوضح لك الحجة ، وضمن لك بعد ذلك غفران الذنوب وتكفير السيئات وعظم الأجر والجزاء ؛ بقوله عز وجل (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) ثم نبهك عن غرّتك به ورقدتك عنه ، وتعاميك عن طريقه وتصاممك عن سماع آياته ، وعن مواعظه وزواجره ، فقال تعالى (ما غرّك بربك الكريم ، الذى خلقك فسوّاك فعدلك) فوصف نفسه بالكريم لئلا تزهد فى معاملته وتنفر عن مقاربته وتشتغل عنه بخليقته ، ثم ذكرك بأنه خلقك وأوجدك من عدمك ، وأحياك بعد أن لم تكن شيئا ، وأغناك بعد فقرك ، وقواك بعد ضعفك ، وبصرك فى مصالحك بعد عماك ، وعلمك بعد جهلك ، وهداك بعد ضلالتك ؛ فما قعودك ياغافل عن طلب فضله الواسع ، وما ثبطك عن ملازمة طاعته التى تشرفك فى الدنيا وتسعدك فى العقبى ، وترفعك فى الدرجات العلى ، أرضيت بالحياة الدنيا ، واستبدلت الذى هو أدنى بالذى هو خير ، آثرت الدنيا وأبناءها ، وما ظهر لك من الزينة التى لا بقاء لها على الفردوس الأعلى ، والمرافقة مع الأنبياء والصديقين والشهداء ، أما سمعت قوله عزّ وجل (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) ، وقوله تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) ، وقوله تعالى (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى) .

(فصل) واعلم أن دخول النار بالكفر وتضاعف العذاب وقسمة الدركات بالأعمال السيئة والأخلاق السيئة ، ودخول الجنة بالإيمان وتضاعف النعيم وقسمة الدرجات بالأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة ، وأن الله عزّ وجل خلق الجنة فحشاها بالنعيم ثوابا لأهلها ، وخلق النار فحشاها بالعذاب عقابا لأهلها ، وخلق الدنيا فحشاها بالآفات والنعيم محنة وابتلاء ، ثم خلق الخلق والجنة والنار في غيب منهم لم يعاينوهما ، فالنعيم والآفات التي في الدنيا هي أنموذج الآخرة ومذاقة ما فيها ، وخلق في الأرض من عبيده ملوكاً ، أعطاهم سلطانا أرعب به القلوب وملك به النفوس ، فهو أنموذج ومثال لتدبيره وملكه ونفاذ أمره ومعاملته ، فجعل خبر ذلك كله تنزيلا ، ووصف الدارين ووصف ملكه وقدرته وتدبيره ومنته وصنائعه وضرب الأمثال على ذلك ، ثم قال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) . فالعلماء بالله يفهمون عن الله أمثاله ، لأن المثل إنما هو صفة شيء قد شاهدته يريك صفة ما غاب عنك ، ويبصرك بمالا تبصره بعينك لينفذ بصر قلبك إلى مالا تبصره عينك ، فيعقل قلبك ماخوطبت به من خبر الملكوت وخبر الدارين وخبر معاملة ملك الملوك ، فليس في الدنيا نعمة ولاشهوة إلا وهي أنموذج الجنة وذوقها ، ثم من وراء ذلك فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فلو سمي للعباد منها شيء لم ينتفعوا بتلك الأسماء ، لأنهم لم يعقلوه هاهنا ولارأوه وليس له أنموذج في الدنيا . والجنة مائة درجة ، وإنما وصف منها ثلاث درجات الذهب والفضة والنور ، ثم من وراء ذلك شيء غير معقول ولا تحمله العقول ، وكذلك مافي الدنيا من الشدّة والعذاب فهو أنموذج دارالعقاب ، ثم من وراء ذلك شيء لا تحمله العقول من ألوان العذاب ، كل ذلك يخرج لهم من غضبه ولأهل الجنة من رحمته ؛ فكل من تناول من عبيده من دنياه ما أبيح له وشكره عليها أبدل له من الجنة ما يدقّ هذا في جنبه ، ومن تناول مالم يبح له فقد حرم نفسه حظها من الدرجات ، ومن كذّب بها حرم الجنة بما فيها أجمع ، فلأهل الجنة عرائس وولائم وضيافات ، فالعرائس للدعوة وذلك أن ربّ العزة سبحانه دعاهم إلى دار السلام ليجدّد لهم أبدانا طرية وأعمارا أبدية ، والولائم للأزواج والضيافات للزيارة ولأهل الجنة تلاق ، وزيارات فيما بينهم ، ومتحدث في مواطن الألفة ، ومجتمع في ظل طوبى يلقون الرسل هناك ويزورونهم ومجالس الملائكة فيما بينهم سلام الله عليهم أجمعين ، وأسواق يأتونها يتخيرون فيها الصور ، وهدايا من الرحمن في أوقات الصلوات ، يغدى ويراح عليهم من ألوان الأطعمة والأشربة والفواكه بكرة وعشيا ، أرزاقهم دارة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، و مزيد من الله يوما بيوم ، فإذا أتاهم المزيد نسوا ما قبله ، ثم لهم منتزه يخرجون إليه في رياض على شاطىء نهر الكوثر ، عليه خيام الدرّ مضروبة ، وكل خيمة ستون ميلا في عرض مثله ، من لؤلؤة و احدة ليس لها باب ، فيها جوار عبقات ، لم ينظر إليهنّ ملك ولا أحد من أهل الجنة من الخدام والحور ، وهو قوله عزّ وجل (فيهنّ خيرات حسان) وإذا قال الله لهنّ حسان فمن يقدر أن يصف حسنهن ، ثم قال تعالى (حور مقصورات في الخيام) فتلك خيرة الرحمن اختار صورهنّ الحسان بين الصور أبدعن

من سحائب الرحمة ، فإذا أمطرت أمطرت جوارى حسانا على مشيئة الكريم ، نور وجوههن من نور العرش ، ضربت عليهن خيام الدرّ فلم يرهن أحد منذ خلقهن ، فهنّ مقصورات فى الخيام قد قصرن : أى حبسن على أزواجهن من جميع الخلق ، فأهل الجنة يتنعمون فى القصور مع الأزواج ، ويلبثون فى النعمة ما شاء الله ، حتى إذا كان اليوم الذى يريد الله عزّ وجل أن يجدد لهم نعمة ونزهة ، نودوا فى درجات الجنان يا أهل الجنان ، هذا يوم نزهة وسرور وتفسح وحبور ، فاخرجوا إلى منتزهكم ، فيخرجون على خيول الدرّ والياقوت من أرباب مدائنهم إلى تلك الميادين ، ثم يسيرون على تلك الميادين إلى تلك الرياض على شاطىء نهر الكوثر ، فيهديهم الله إلى منازلهم ، فينزل كل رجل منهم عند خيمته ولا باب لها ، فتصدع الخيمة عن باب ، وذلك بعين ولىّ الله تعالى ، ليعلم أن التى فيها لم يطلع عليها أحد ، وفاء لما قدّم الله من الوعد فى دار الدنيا حيث قال (فيهنّ خيرات حسان) ثم قال تعالى (حور مقصورات فى الخيام) ثم قال عزّ وجل (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) فيستوى معها على سرير النزهة فى تلك الحجال ، فيال عليهم من وليمتها ، فإذا طعموا الولائم سقاهم الله شرابا طهورا ، وتفكهوا بطرف الفواكه التى جدد الله لهم من تلك الهدايا فى ذلك اليوم والحلى والحلل ، فخلع عليهم كسوة الرحمن ، واشتغلوا بالخيرات الحسان ، يقضون منهم الأوطار والنهمات ، ثم يتحوّلون إلى مجالس العبقريات الموشاة بألوان النقوش على شواطىء الأنهار فى تلك الرياض ، يركبون الرفارف الخضر ويتكئون عليها ، وهو قوله تعالى (متكئين على رفرف خضر وعبقرىّ حسان) فإذا قال الله لشىء حسان ، فماذا بقى ، فالرفرف : هو شىء إذا استوى عليه رفرف به وأهوى كالأرجوحة يمينا وشمالا ورفعا وخفضا ، يتلذذ مع أنيسه ، فإذا ركبوا الرفارف أخذ إسرافيل عليه السلام فى السماع . وروى فى الخبر « أنه ليس من خلق الله تعالى أحسن صوتا من إسرافيل عليه السلام » ، فإذا أخذ فى السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم ، فإذا ركبوا الرفارف وأخذ إسرافيل فى السماع بألوان الأغانى تسبيحا وتقديسا للملك القدوس ، لم يبق فى الجنة شجرة إلا وردت ، ولم يبق ستر ولا باب إلا ارتجّ وانفتح ، ولم يبق حلقة باب إلا طنت بألوان طنينها ، ولم يبق أجمة من آجام الذهب والفضة إلا وقع هبوب الصوت فى مقاصبها ، فزمرت تلك المقاصب بفنون الزمر ، فلم تبق جارية من جوارى الحور العين إلا غنت بأغانيها والطير بألحانها ، فيوحى الله عزّ وجل إلى الملائكة أن جاوبوهم ، وأسمعوا عبادى الذين نزّهوا سماعهم عن مزامير الشيطان فيجاوبون بألحان وأصوات روحانية ، فتختلط هذه الأصوات فتصير رجة واحدة ، ثم يقول الله تعالى : قم ياداود عند ساق عرشى فمجدنى ، فيندفع داود فى تمجيده بصوت يغمر الأصوات ويجليها - وتتضاعف اللذة وأهل الخيام على تلك الرفارف تهوى بهم ، وقد حفت بهم أفانين اللذّات والأغانى ، فذلك قوله عز وجل (فهم فى روضة يحبرون) قال يحيى بن كثير رحمه الله : الروضة : اللذّة والسماع ، فبينماهم على لذاتهم وسرورهم إذ انفتح لهم باب الملك القدوس من جنة عدن ، فارتجت أصوات صفوف الروحانيين من باب جنة عدن بتماجيد الماجد الكريم

إلى درجات الجنان ، وثارت ريح عدنية بألوان الطيب والروح والنسيم وهو نسيم القربة ، وسطع على أثر ذلك نور فأشرقت منه رياضهم وخيامهم وشواطىء أنهارهم ، وامتلأ كل شيء منهم نورا ، ثم ناداهم الجليل جل جلاله من فوق رءوسهم : السلام عليكم أحبائى وأوليائى وأصفيائى ، يا أهل الجنة كيف وجدتم منتزهكم هذا يومكم بدل نيروز أعدائى ، طلبوا يوما من الدنيا ليجددوا على أنفسهم النعمة التى قد كدروها على أنفسهم لخبثهم وشقائهم ، فلم ينالوا ما طلبوا من اللذة ، وخسروا فى جنب ماطلبوا فى العاجل ، ولم يتصبروا حتى ينالوا هذا الذى أعددت فى الآجل لأهل طاعتى ، فأعرضتم عما إليه أقبلوا ، وامتنعتم مما فيه تنافس أهل الدنيا ، فاليوم يذوقون وبال ما تنافسوا فيه وشيكا ما انقطع به ما طلبوا من اللذة والنهمة فى دار الفناء ، وصاروا إلى الذل والهوان ، وجزيتم بما صبرتم جنة وحريرا ، ومنتزها وسلاما ، وهذا يوم نيروزكم ومنتزهكم ، وهذا يوم زيارتكم فى دارى فى جنة عدن ، وطالما رأيتكم فى أيام الدنيا فى مثل ذلك اليوم مشتغلين بعبادتى وطاعتى ، والمترفون فى لهوهم ولعبهم سكارى حيارى عصاة متمردين ، يتنعمون بحطام الدنيا ، ويفرحون بتداولها بينهم ، وأنتم تراقبون جلالى وتحفظون حدودى وترعون عهدى وتشفقون على حقوقى ، ويفتح لهم باب من أبواب النيران فيفور لهبها ودخانها وصراخ أهلها وعويلهم ، لينظر أهل الجنان من هذه المجالس إلى ما من الله به عليهم ، فيزدادون غبطة وسرورا ، وينظر أهل النار من تلك السجون والمحابس فى تلك الأغلال والقيود فيتحسرون على مافاتهم ، فيستغيثون بوجوه أهل الجنان إلى الله ، وينادونهم بأسمائهم ، فيقول الله تبارك اسمه (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ، سلام قولا من رب رحيم ، وامتازوا اليوم أيها المجرمون ، ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم) فتجيش لهم النار فتفرق جمعهم وينقطع نداءهم ، فترمى بهم إلى جزائر فى النار ، فإذا أخرجوا إليها دبت إليهم عقارب لها أنياب كأمثال النخل ، ثم يقبل عليهم سيل من نار حشوه غضب الجبار ، فيحملهم فيغرقهم فى بحار النيران ، وينادى مناد من قبل الله تعالى : هذا يومكم الذى كنتم تبارزوننى فيه بالعظائم ، وتتمردون على بنعمتى ، وتفرحون فى دار الأحزان والعبودية بما تضاهون به ما أعددت لأهل طاعتى ، فقد انقطعت عنكم تلك اللذات ، فذوقوا وبال ماآثرتموه ، فإن أهل الجنة قد شغلوا عنكم بالتنعم بالولائم وألوان الفواكه وطرف الهدايا وافتضاض العذارى وركوب الرفارف ، والتلذذ بالأغانى وألوان السماع وسلامى عليهم وإقبالى بالبر واللطف إليهم ، والمزيد ما يستفرغ نعمهم ليتهيئوا بنعيمهم ويزدادوا لذة على لذتهم ، فيا أهل الجنة هذا لكم بدل يوم أعدائى الذين تباشروا وأهدوا إلى ملوكهم وقبلوا هداياهم وأنتم الفائزون . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال « قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى رجل قد حبب إلى الصوت الحسن فهل فى الجنة صوت حسن ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إى والذى نفسى بيده ، إن الله عز وجل ليوحى إلى شجرة فى الجنة

أن أسمعى عبادى الذين اشتغلوا بعبادتى وذكرى عن عزف البرابط والمزامير ، فترفع بصوت لم تسمع الخلائق بمثله من تسبيح الربّ وتقديسه » . وعن أبى قلابة رحمه الله قال : قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « هل فى الجنة من ليل ؟ قال صلى الله عليه وسلم : وماهيجك على هذا ؟ قال سمعت الله عزّ وجل يذكر فى الكتاب (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) فقلت : الليل بين البكرة والعشى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس هناك ليل إنما هو ضوء ونور ، يردّ الغدوّ على الرواح والرواح على الغدوّ ، ويأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلوات التى كانوا يصلونها فى الدنيا ، وتسلم عليهم الملائكة » ، فمن أراد أن يكون له حظّ فى هذا العيش اللذيذ الدائم ، فعليه بحفظ حدود شروط التقوى ، وهى مذكورة فى قوله عزّ وجل (ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضرّاء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » وعليه بالإتيان بحدود الإسلام وأجزائه . وروى عن حذيفة ابن اليمان رضى الله عنهما أنه قال فى تفسير قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) . الإسلام ثمانية أسهم : الصلاة سهم والزكاة سهم ، والصيام سهم ، والحج سهم ، والعمرة سهم ، والجهاد سهم ، والأمر بالمعروف سهم ، والنهى عن المنكر سهم ، وقد خاب من لا سهم له . وعن عاصم ، يعنى الأحول ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « مثل الإسلام كمثل الشجرة الثابتة ، الإيمان بالله أصلها ، والصلوات الخمس فروعها ، وصيام رمضان لحاؤها والحجّ والعمرة جناها والوضوء والغسل من الجنابة شربها ، وبرّ الوالدين وصلة الرحم غصونها ، والكفّ عن محارم الله ورقها ، والأعمال الصالحة ثمرها ، وذكر الله عروقها ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : كما لا تحسن الشجرة ولا تصلح إلا بالورق الأخضر ، كذلك لا يصلح الإسلام إلا بالكفّ عن المحارم والأعمال الصالحة . »

(فصل : فى صفة النار وما أعدّ الله لأهلها فيها ، وصفة الجنة وما أعدّ الله لأهلها فيها)

عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة واجتمع الخلائق ليوم لا ريب فيه فى صعيد واحد ، غشيتهم ظلة سوداء لا ينظر بعضهم بعضا من شدة الظلمة ، والخلائق قيام على صدور أقدامهم ، وبينهم وبين ربهم عزّ وجل مسيرة سبعين عاما ؛ قال : فبينما هم كذلك إذ تجلى الخالق تبارك وتعالى للملائكة ، فأشرقت الأرض بنور ربها ، وانجلت الظلمة ، فغشى الخلائق كلهم نور ربهم ، والملائكة حافون من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ويقدّسون له ؛ قال : فبينما الخلائق قيام كلهم صفوفا ، كل أمة قائمة فى ناحية ، إذ أتى بالصحف والميزان ، ووضعت الصحف وعلق الميزان بيد ملك من الملائكة ،

يرفعه مرة ويخفضه مرة أخرى ؛ قال : فبيناهم كذلك إذ كشف الغطاء عن الجنة فأزلفت ، فهبت منها ريح ، فوجد المسلمون عرفها كالمسك وبينهم وبينها مسيرة خمسمائة عام ؛ ثم كشف الغطاء عن جهنم فهبت منها ريح مع دخان شديد ، فوجد المجرمون عرفها وبينهم وبينها مسيرة خمسمائة عام ، ثم جيء بها تقاد موثقة بسلسلة عظيمة عليها تسعة عشر خازنا من الملائكة ، مع كل خازن منهم سبعون ألف ملك أعوان له ، فيقودها كل خازن منهم مع أعوانه ، وسائر الخزان مع أعوانهم يمشون عن يمينها وشمالها وورائها ، بيد كل ملك منهم مقمعة من حديد يصيحون بها ، فتمشي ولها زفير وشهيق ووعث وظلمة ودخان وتقعقع ولهب عال من شدة غضبها على أهلها ، فينصبونها بين الجنة والموقف ، فترفع طرفها ، فتنظر إلى الخلائق ثم تجمح عليهم لتأكلهم ، فيحبسها خزنتها بسلاسلها ، فلو تركت لأتت على كل مؤمن وكافر ؛ فلما رأت أنها قد حبست عن الخلائق فارت فورا شديدا تكاد تميز من الغيظ ، ثم شهقت الثانية فتسمع الخلائق صوت صريف أسنانها ، فارتعدت حينئذ الأفئدة ، وانخلعت القلوب وطارت الأفئدة وشخصت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ؛ قال قائل : يا نبيّ الله صفها لنا ، قال صلى الله عليه وسلم : نعم مثل هذه الأرض عظما سبعون جزاء من بعد، سوداء مظلمة لها سبعة رءوس ، لكل رأس منها ثلاثون بابا ، طول كل باب منها مسيرة ثلاث ليال ، وشفتها العليا تضرب منخرها ، والشفة السفلى تسحبها ، وفى كل منخر من مناخرها وثاق وسلسلة عظيمة ، يمسكها سبعون ألف ملك غلاظ شداد كالحة أنيابهم أعينهم كالجمر وألوانهم كلهب النار ، يفور من مناخرهم لهب ودخان عال ، مستعدين لأمر الجبار تبارك وتعالى ؛ قال : فحينئذ تستأذن جهنم ربها عزّ وجل فى السجود ، فيأذن لها فى السجود ، فتسجد ما شاء الله ؛ قال : ثم يقول لها الجبار عزّ وجلّ ارفعى رأسك ، قال : فترفع رأسها فتقول : الحمد لله الذى جعلنى ينتقم بى ممن عصاه ، ولم يجعل شيئا ممن خلق ينتقم به منى ؛ قال : ثم تقول بلسان طلق ذلق سلق : الحمد لله ما شاء الله من ذلك الحمد بصوت لها جهير ، ثم تزفر زفرة فلا يبقى ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل ولا أحد فمن شهد الموقف إلا جثا على ركبتيه ، ثم تزفر الثانية فلا تبقى قطرة فى عين أحد إلا بدرت ، ثم تزفر الثالثة فلو كان لكل آدمىّ أو جنىّ عمل اثنين وسبعين نبيا لواقعوها ، ثم تزفر الرابعة فلا يبقى شيء إلا انقطع كلامه ، غير أن جبريل وميكائيل وخليل الرحمن عزّ وجل متعلقون بالعرش ، يقول كل واحد منهم : نفسى نفسى لا أسألك غيرها ؛ قال : ثم ترمى بشرر كعدد النجوم، كل شرارة كالسحابة العظيمة ، الطالعة من المغرب ، فيقع ذلك الشرر على رءوس الخلائق ؛ قال : ثم ينصب الصراط عليها ، فيهيأ له سبعمائة قنطرة ، ما بين كل قنطرتين منها سبعون عاما ؛ وقيل : سبع قناطر ، وعرض الصراط من الطبقة الأولى إلى الطبقة الثانية مسيرة خمسمائة عام ومن الثانية إلى الثالثة مسيرة خمسمائة عام، ومن الثالثة إلى الرابعة مثلها ، ومن الرابعة إلى الخامسة مثلها ، ومن الخامسة إلى السادسة مثلها ، ومن السادسة إلى السابعة كذلك ،

وهى أعرضهن وأشدهن حرا وأبعدهن قعرا وأكثرهن ألوانا وأكبرهن جمرا بسبعين مرة .
وأما الطبقة الدنيا فقد جاز لهبها الصراط يمينا وشمالا فى السماء مسيرة ثلاثة أميال ، وكل طبقة أشد حرا وأكبر جمرا وأكثر فى ألوان العذاب من التى فوقها بسبعين مرة ، فى كل طبقة بحر وأنهار وجبال وشجر ، طول كل جبل منها فى السماء مسيرة سبعين ألف عام ، وفى كل طبقة منها سبعون جبلا ، وفى كل جبل منها سبعون ألف شعبة فى كل شعبة منها سبعون ألف شجرة ضريع ، لكل شجرة منها سبعون شعبة ، على كل شعبة منها سبعون حية وسبعون عقربا ، طول كل حية منها مسيرة ثلاثة أميال ، فأما العقارب فكالبخاتى العظام ، على كل شجرة منها سبعون ألف ثمرة فى كل ثمرة رأس شيطان فى جوف كل ثمرة منها سبعون دودة ، طول كل دودة منها غلوة ، ومنها ثمر ليس فيه دود ولكن فيه شوك ؛ وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن لجهنم سبعة أبواب ، لكل باب منها سبعون واديا ، قعر كل واد منها مسيرة سبعين عاما ، ولكل واد منها سبعون ألف شعبة ، فى كل شعبة منها سبعون ألف مغارة ، وفى كل مغارة سبعون ألف شق ، كل شق منها مسيرة سبعين عاما فى جوف كل شق منها سبعون ألف ثعبان ؛ فى شدق كل ثعبان منها سبعون ألف عقرب ، لكل عقرب منها سبعون ألف فقارة ، فى كل فقارة قلة سم لاينتهى الكافر ولا المنافق حتى يوافى ذلك كله ؛ قال : فبينما الخلائق جاثون على ركبهم وجهنم تخطر كما يخطر الجمل المغتلم ، قال فينادى مناد بصوت عال ، فيقوم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون ، ثم عرضوا عرضة ردت فيها المظالم ؛ ثم عرضوا الثانية ، فتجادلت الأرواح والأجساد وظهرت الأجساد على الأرواح ؛ ثم عرضوا على الله الثالثة ، فطارت الصحف فوقعت فى أيدى الخلق ، فمنهم من أوتى كتابه بيمينه ، ومنهم من أوتى كتابه بشماله ، ومنهم من أوتى كتابه وراء ظهره ، فأما الذين أوتوا كتابهم بأيمانهم فأعطوا نورا من نور ربهم ، وهنتهم الملائكة بكرامتهم ، فجاوزوا الصراط برحمة ربهم ، ودخلوا جناتهم فلقيتهم خزانهم عند أبواب جناتهم بكسوتهم ومراكبهم وبالحلية التى تنبغى لهم ، فافترقوا إلى منازلهم وانقلبوا مسرورين إلى قصورهم ، فدخلوا على أزواجهم فنظروا إلى مالاتصف ألسنتهم ، ولم تبصر أبصارهم ، ولم يخطر على قلوبهم ؛ فأكلوا وشربوا ولبسوا حليتهم ثم اعتنقوا أزواجهم ماقدر لهم ، ثم حمدوا خالقهم الذى أذهب عنهم حزنهم ، وآمنهم من فزعهم ، ويسر لهم حسابهم ، ثم شكروا ما أعطاهم ربهم ، فقالوا : الحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله فقرت أعينهم بما تزودوا من دنياهم كانوا موقنين مؤمنين مصدقين خائفين راجين راغبين ، فعند ذلك نجا الناجون وهلك الكافرون . وأما الذين أوتوا كتابهم بشمالهم ومن وراء ظهورهم فاسودت وجوهم وانقلبت زرقا عيونهم ، ووسموا على خراطيمهم وعظمت أجسادهم ، وغلظت جلودهم وهتفوا بويلهم حين نظروا إلى كتابهم ، وعاينوا ذنوبهم ، لم يغادروا صغيرة ولاكبيرة إلا وجدوها مثبتة فى كتبهم ، فهم كاسف بالهم سيء ظنهم ؛

شديد رعبهم كثير همهم ، منكسة رءوسهم خاشعة أبصارهم خاضعة رقابهم ، يسارقون النظر إلى نارهم ، لايرتدّ إليهم طرفهم ، لأنهم عاينوا أمرا عظيما كبيرا مفظعا جليلا طاما مكربا مفزعا مرعبا محزنا مخشيا مهما للقلوب وللعيون مبكيا ، فأقرّوا بالعبودية لربهم واعترفوا بذنوبهم وكان اعترافهم عليهم نارا وعارا وتحزنا وشقاء وإلزاما ومخطا ؛ قال : فبينما القوم بين يدى ربهم عزّ وجل جاثون على ركبهم بذنوبهم معترفون ، زرقا أعينهم لايبصرون ، هاوية قلوبهم فلايعقلون مرجفة أوصالهم فلا يتكلمون ، منقطعة أرحامهم فلا يتواصلون ، فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون ، أصيبوا فى أنفسهم فلا ينجبرون ، ويسألون الرجعة فلا يجابون ، قد أيقنوا بما كانوا يكذبون ، فهم عطاش لايروون وجياع لايشبعون ، وعراة لايكتسون ، مغلوبون لاينصرون ، محزونون مسلوبون ، مخسورون أنفسهم وأهليهم وأموالهم ومكاسبهم ؛ قال : فبينما القوم كذلك إذ أمر الله تعالى خزنة جهنم أن يخرجوا منها ومعهم أعوانهم ، وأن يحملوا أداتهم من السلاسل والأغلال والمقامع ؛ قال : فخرجوا منها على ناحية ينظرون بماذا يؤمرون ، قال : فلما نظر إليهم الأشقياء وعاينوا وثاقهم وثيابهم عضوا أيديهم ، فأكلوا أناملهم وهتفوا بويلهم وفاضت دموعهم وزلزلت أقدامهم ويئسوا من كل خير ، فيقول : خذوهم فغلوهم ثم الجحيم صلوهم ثم فى سلسلة فأوثقوهم ، قال : فمن شاء الله أن يلقيه فى تلك الأطباق دعا خزانها ، فقال لهم : خذوهم فابتدر إلى كل إنسان منهم سبعون ملكا ، فشدّوا وثاقهم وجعلوا الأغلال الثقال فى أعناقهم والسلاسل فى مناخرهم ، فخنقوا وجمعوا بين نواصيهم وأقدامهم من وراء ظهورهم ، فتكسرت أصلابهم ؛ قال : فلما فعل ذلك بهم شخصت أبصارهم وانتفخت أوداجهم ، واحترقت لحوم رقابهم وسلخت عروقهم ، واشتعل حرّ الأغلال فى رءوسهم ، فغلت منها أدمغتهم ، ففاضت على جلودهم حتى وقعت على أقدامهم فتساقطت منها جلودهم واخضرّت منها لحومهم ، فسال منها صديدهم ؛ فلما جعلت الأغلال فى أعناقهم ملأت ما بين مناكبهم إلى آذانهم ، فاحترقت لحومهم وتقطعت شفاههم وبدت أنيابهم وألسنتهم بصوت وصراخ ، ووهج لها لهب عال يجرى حرّها مجرى الدم فى عروقهم مجوّفة ، ويجرى خلالها لهب النار فيبلغ حرّ تلك الأغلال قلوبهم ، فسلخت حتى بلغت حناجرهم ، فاشتدّ خناقهم وانقطعت أصواتهم وفنيت جلودهم ؛ فبيناهم كذلك أمر الله تعالى خزنة جهنم أن يكسوهم ، قال : فيلبسوهم ثيابا وسرابيل شديدا سوادها ومنتنا ريحها وخشنامسها تلظى من شدّة حرّها ، لو وضعت على جبال الأرض أذابتها ، قال : ثم يقول الله عز وجل لخزنة جهنم : سوقوهم إلى منازلهم ، قال : فيأتون بسلاسل أخر أطول وأغلظ من اللاتى أوثقوا فيها ، قال : فيأخذ كل ملاء سلسلة من تلك السلاسل فيقرن فيها أمة من الأمم ، ثم يضع طرفها على عاتقه فيوليهم ظهره ، ثم ينطلق بهم منسحبين على وجوههم ، فى دبر كل أمة منهم سبعون ألف ملك ، يضربونهم بمقامع حتى يأتوا بهم جهنم فيقفوا بهم عليها ، قال : ثم تقول لهم الملائكة : هذه النار التى كنتم بها تكذّبون ، أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون ، اصلوها فاصبروا أولاتصبروا سواء عليكم ، إنما تجزون ما كنتم

تعملون ؛ قال : فلما أوقفوا عليها فتحت لهم أبوابها وكشف عنها غطاؤها ، فتسعرت وألهبت نارها ؛ فخرج منها دخان شديد مع شرر كعدد نجوم السماء فطارت إلى السماء مقدار سبعين عاما، ثم رجع ذلك فوقع على رءوسهم ، فاحترقت أشعارهم وانقلعت جماجمهم ؛ قال : ثم صرخت جهنم بأعلى صوتها : إلىّ يا أهل النار إلىّ ، أما وعزة ربى لأنتقمنّ منكم ، ثم قالت : الحمد لله الذى جعلنى أغضب لغضبه وينتقم بى من أعدائه ، ربّ زدنى حرا إلى حرّى وقوة إلى قوتى ، قال : فتخرج منها ملائكة أخر ، فيستقبل كل أحد منهم أمة من الأمم ، فيرفعهم براحته فيكبهم فى جهنم على وجوههم ، فيهوون على رءوسهم مقدار سبعين عاما من قبل أن يبلغوا رءوس جبالها ؛ قال : وإذا بلغوا رءوس جبالها لم يتقاروا عليها حتى يبدل لكل إنسان منهم سبعون جلدا ، قال فأول أكلة يأكلون على رءوس تلك الجبال أكلة من الزقوم ، ظاهرة حرارتها شديدة مرارتها كثير شوكها ؛ قال فبينا هم يمضغون أكلتهم تلك ، إذ أتتهم الملائكة يضربونهم بمقامعهم فتكسرت عظامهم ثم أخذوا بأرجلهم فألقوهم فى جهنم فهووا على رءوسهم مقدار سبعين عاما من قبل أن يتقاروا فى شعابها ، قال : فما تقاروا فى شعابها حتى يبدل لكل إنسان منهم سبعون جلدا ، قال : وأكلتهم تلك فى أفواههم لايستطيعون أن يسيغوها ، قال : فتجتمع الأكلة والقلب عند الحلق فيغصّ بها ، فيستغيث كل إنسان منهم بالشراب ، فإذا فى تلك الشعاب أودية تنصبّ إلى جهنم ، قال : فينطلقون يمشون حتى يردوها ، فيكبوا عليها يشربون منها ، قال : فتنقطع جلود وجوههم فتقع فيها ، قال : فلايستطيعون أن يشربوا منها ، قال : فيعرضون عنها إعراضة فتدركهم الملائكة وهم منكبون على تلك العيون ، فيضربونهم فتكسر عظامهم ، ثم يأخذون بأرجلهم فيلقونهم فى جهنم ، فيهوون على رءوسهم مقدار أربعين ومائة عام فى لهب ودخان شديد من قبل أن يتقاروا فى أوديتها ، قال : فلا يتقارون فى أوديتها حتى يبدل لكل إنسان منهم سبعون جلدا قال : ومنتهى تلك العيون فى تلك الأودية ، قال : فيشربون منها فإذا هى ماء حميم ، فلا يتقار فى بطونهم حتى يبدل الله لكل إنسان منهم سبعة جلود ، قال : فإذا تقار فى بطونهم قطع أمعاءهم ، فخرجت من مقاعدهم وجرى باقيه فى عروقهم ، فذابت لحومهم وتصدعت عظامهم وأدركتهم الملائكة فضربت وجوههم وأدبارهم ورءوسهم بمقامعهم ، لكل مقمع منها ثلاثمائة وستون حرفا ، فإذا ضربت بها رءوسهم انقلعت جماجمهم وتكسرت أصلابهم ، وسحبوا فى النار على وجوههم حتى توسطوا جحيمها ، فاشتعلت النار فى جلودهم وتشعبت فى آذانهم ، فخرج لهبها من مناخرهم وأضلاعهم ، وتفجر الصديد من أجسادهم ، وخرجت أعينهم فتعلقت على خدودهم ، ثم قرنوا مع شياطينهم الذين كانوا يطيعونهم ، وآلهتهم التى كانت مستغاثهم ، فألقوا فى أماكن ضيقة مقرنين ، فهتفوا بويلهم حتى جىء بأموالهم فأحميت فى نارهم ، فكويت بها جباههم وجنوبهم ووضعت على ظهورهم فخرجت من بطونهم ، فهم أولياء جهنم وقرناء الشياطين والحجارة ، وعلقوا بخطاياهم كالجبال ليشتد عليهم العذاب ، فطول أحدهم مسيرة شهر وعرضه

مسيرة خمسة أيام وغلظه مسيرة ثلاث ليال ورأسه مثل الأقرع وهو جبل بأقصى الشام ، فى فيه اثنان وثلاثون نابا ، قد خرج بعضها من رأسه وبعضها من أسفل لحيته وأنفه مثل الرابية العظيمة ، طول شعر رأسه وغلظه مثل شجرة الأرز وكثرته كآجام الدنيا ، وشفته العليا قالصة ، والسفلى تسعون ذراعا ، وطول يده مسيرة عشرة أيام وغلظها مسيرة يوم ، وفخذه مثل ورقان وغلظ جلده أربعون ذراعا بذراعه ، وطول ساقه مسيرة خمس ليال وغلظها مسيرة يوم ، كل حدقة له مثل حراء ، وهو جبل بمكة ، إذا صبّ فوق رأسه القطران اشتعلت فيه النار ، فلم تزدد إلا التهابا . قال : وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : والذى نفسى بيده لو أن رجلا خرج من النار يجرّ سلسلة مغاولة يداه إلى عنقه ، فى عنقه الأغلال وفى رجليه الكبول ، ثم رآه الخلائق لانهزموا عنه وفرّوا منه كل مفرّ ، قال : فمن شدة حرّها وغمها وألوان عذابها وضيق منازلها ، اخضرّت لحومهم وتصدعت عظامهم وغلت أدمغتهم فصارت على جلودهم ، واحترّقت فقطعت أوصالهم ، فسال منها صديدهم ، فتدودت أجسادهم وسمنت ديدانهم وصارت مثل حمار الوحش ، لها أظافير مثل أظافير النسور والعقبان ، تشتد ما بين جلدهم ولحمهم وتنهشهم ، وتزفر زفرة ، وتتردد كما يتردد الوحش المذعور ، يأكلن لحمهم ويشربن دماءهم ، ليس لها مأكل ولا مشرب غيرها ، تأخذهم الملائكة فتسحبهم على وجوههم على الجمر والحجارة كأنها أسنة ، مستعدين منطلقين بهم إلى بحر جهنم ، مسيرة سبعين عاما ، فلا يبلغونه حتى تنقطع أوصالهم وتبدّل جلودهم فى كل يوم سبعين ألف مرة ، فاذا انتهوا بهم إلى خزنته أخذوا بأرجلهم فدفعوهم فيه ، فلا يعلم أحد قعر ذلك البحر إلا الذى خلقه » . وقد قيل : إنه مكتوب فى بعض أسفار التوراة : أن بحر الدنيا عند بحر جهنم كعين صغيرة فى ساحل بحر الدنيا ، فإذا قذفوا فيه ووجدوا مسّ العذاب قال بعضهم لبعض : كأنما الذى عذّبنا به قبل هذا حلم ، قال : فيغمسون مرة ويرتفعون ويغلى ، ويقذفهم سبعين باعا ، بعد كل باع كبعد المشرق من المغرب ثم تسوقهم الملائكة بمقامعهم ، فيضربونهم بها ويردونهم إلى قعرها مسيرة سبعين عاما ، منه طعامهم وشرابهم فيرتفعون من قعره مقدار أربعين ومائة عام فيريد أحدهم أن يتنفس ، فتستقبله الملائكة بمقامعهم متبادرين إليه لضربه ، غير أنه يذكر أنه إذا رفع رأسه وقع على رأسه سبعون ألف مقمع لا يخطئه شىء منها ، فتردّه سبعين باعا فى قعرها ، كل باع كبعد المشرق من المغرب ؛ قال فهم فيها ما شاء الله من ذلك ، حتى تأكل لحومهم وعظامهم ، فتبقى أرواحهم ، فيضربهم موجه سبعين عاما ، ثم تنبذهم إلى ساحل من سواحله فيه سبعون ألف مغارة ، فى جوف كل مغارة سبعون ألف شق ، كل شق منها مسيرة سبعين عاما ، فى جوف كل شق منها سبعون ألف ثعبان ، طول كل ثعبان منها سبعون ذراعا ، لكل ثعبان منها سبعون نابا ، فى كل ناب منها قلة سم ، فى شدق كل ثعبان منها ألف عقرب ، لكل عقرب منها سبعون فقارة ، فى كل فقارة منها قلة من السم ؛ قال : فتخرج أرواحهم من ذلك البحر إلى تلك المغارة ، فتجدد لهم أجساد وجلود ، ويغلون فى الحديد ، فتخرج عليهم تلك الحيات والعقارب فتعلق فى كل إنسان

منهم سبعون ألف حية وسبعون ألف عقرب ، فيصبرون ، ثم ترتفع إلى ركبهم فيصبرون ، ثم ترتفع إلى صدورهم فيصبرون ، ثم ترتفع إلى تراقيهم فيصبرون ، ثم ترتفع فتعلق بمناخرهم وشفاههم وألسنتهم وآذانهم فيجزعون ، وليس لهم مستغاث إلا أن يهربوا إلى جهنم ، فيقعوا فيها ، فأما الحيات فتمضغ لحومهم وتنشف دماءهم ، وأما العقارب فتلدغهم فتتساقط لحومهم وتقطع أوصالهم ، فإذا وقعوا فى النار مكثت النار سبعين عاما لاتحرقهم من سم الحيات والعقارب قال : ثم تحرقهم النار سبعين عاما ، ثم تجدد لهم جلود غير جلودهم ؛ ثم يستغيثون بالطعام ، فتأتيهم الملائكة بطعام يقال له الوثيمة ، وهو أشد يبسا من الحديد ، فيمضغونه فلا يستطيعون أن يأكلوا منه شيئا ، فيلقونه من أفواههم ويبدءون بأيديهم من شدة الجوع ، فيأكلون أناملهم وأكفهم ، فإذا أكلوها بدءوا بسواعدهم فأكلوها أيضا إلى مرافقهم ، ثم بدءوا بمرافقهم فأكلوها إلى مناكبهم ، فتبقى رءوس المناكب ، ولو نالوا بعدها شيئا من أجسادهم بأفواههم لأكلوه ، فإذا فعلوا ذلك بأجسادهم أخذوا فنوطوا بعراقيبهم كلاليب من حديد على شجرة الزقوم ، قال : فنوط منهم سبعون ألفا فى شعبة واحدة فما تنحنى مصوبين على رءوسهم ، فيوقد تحتهم الجحيم ، فيستقبل حر النار وجوههم مقدار سبعين عاما حتى تذوب أجسادهم وتبقى أرواحهم ، ثم تجدد لهم جلود وأجساد ، ثم يناطون بأناملهم ولهب النار من تحتهم ، تدخل من مقاعدهم وتأكل من أفئدتهم حتى تخرج من مناخرهم وأفواههم ومسامعهم مقدار سبعين عاما ، حتى تذوب عظامهم ولحومهم وتبقى أرواحهم ، ثم يتركون ويجدد لهم جلود وأجساد ، ثم يناطون بأبصارهم مثلها ، فلا يزالون يعذبون كذلك حتى لايبقى مفصل فى أجسادهم إلا نوطوا به مقدار سبعين عاما ، ولا تبقى شعرة فى رءوسهم إلا نوطوا بها ، فيأتيهم الموت من كل مفصل منهم ، وما هم بميتين ومن ورائهم عذاب غليظ ؛ فإذا فعل ذلك بهم كله أنزلوهم فانطلقوا بكل إنسان منهم إلى منزله مغلولا بسلسلة مسحوبا على وجهه . قال : ولهم منازل فيها كقدر أعمالهم ، فمنهم من يعطى منزلة مسيرة شهر طولها وعرضها مثل ذلك نار تتوقد لاينزلها غيره ؛ ومنهم من يعطى منزلة مسيرة تسع وعشرين ليلة طولا وعرضا ، ثم كذلك تنقص منازلهم وتضيق ، حتى أن أحدهم ليعطى منزلة مسيرة يوم طولا وعرضا ، ومن نحو سعة منزلهم يعذبون ؛ فمنهم من يعذب على القفا ، ومنهم من يعذب جالسا ، ومنهم من يعذب جاثيا على ركبتيه ، ومنهم من يعذب قائما على رجليه ، ومنهم من يعذب منبطحا على بطنه ، فهذه المنازل كلها أضيق على أهلها من زج الرمح ، ومنهم من تكون ناره إلى كعبه ، ومنهم من تكون ناره إلى ركبته ، ومنهم من تكون ناره إلى حقويه ، ومنهم من تكون ناره إلى سرته ، ومنهم من تكون ناره إلى ترقوته ، ومنهم من تكون ناره غرقا ، فمرة تعلو به ومرة تديره فتبلغه مسيرة شهر فى قعرها ، فإذا وقعوا فى منازلهم قرن كل منهم مع قرنائهم ، فبكوا حتى تنزف دموعهم ، ثم يبكون الدم بعد الدموع ، حتى لو أن السفن أرسلت إذا بكوا فى دموعهم لجرت . قال : ولهم يوم يجتمعون

فيه فى أصل الجحيم ، ثم لاتكون جماعة أبدا . قال : فإذا أذن الله فى ذلك اليوم نادى مناد فى أصل الجحيم يسمع صوته أعلاهم وأسفلهم وأدناهم وأقصاهم يقال له حشر ، يقول : يا أهل النار اجتمعوا ، فيجتمعون أجمعون فى أصل الجحيم ، ومعهم الزبانية . قال : فيأتمرون بينهم فيقول (الذين استضعفوا للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا) فى الدنيا (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء - قال الذين استكبروا : إنا كلّ فيها إن الله قد حكم بين العباد) وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا (لامرحبا بكم) بنا تستغيثون ؛ قال الذين استضعفوا للذين استكبروا : (بل أنتم لامرحبا بكم ،أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار) قال الذين استضعفوا للذين استكبروا : (ربنا من قدّم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار) فقال الذين استكبروا : (لو هدانا الله لهديناكم - قال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) فنتبرأ منكم وما كنتم تدعوننا إليه فى الدنيا ، قال : ثم أقبلوا أجمعون على قرنائهم من الشياطين ، فقالوا : أغويناكم كما غوينا ، قال الشيطان عند آخر مقالتهم بصوت له عال : يا أهل النار (إن الله وعدكم وعد الحق) ودعاكم الله فلم تجيبوه ولم تصدقوا ،(و) إنى (وعدتكم)وعدا (فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى) فأنا كفرت اليوم بما عبدتمونى من دون الله . قال : (فأذّن مؤذن بينهم : أن لعنة الله على الظالمين) قال : فلعن عند ذلك الذين استضعفوا الذين استكبروا ، ولعن الذين استكبروا الذين استضعفوا ، ولعنوا قرناءهم من الشياطين ، ولعنهم قرناؤهم ، ثم قالوا لقرنائهم : يا ليت بيننا وبينكم بعد المشرقين ، فبئس القرناء أنتم لنا اليوم وبئس الوزراء كنتم لنا فى الدنيا ، فلما نظروا إلى جماعتهم قال بعضهم لبعض هلموا فنطلب الخزنة ، فلعلهم يشفعون لنا عند ربهم ،ف(يخفف عنا يوما من العذاب) قال : وهم على ذلك يعذبون . قال : وبين مراجعة الخزنة إياهم مقدارسبعين عاما ثم يراجعونهم ، فيقولون :(ألم تأتكم رسلكم بالبينات قالوا) بأجمعهم (بلى) قال الخزنة : (فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) قال : فلما رأوا أن الخزنة لاتردّ عليهم خيرا استغاثوا بمالك ، فقالوا : يا مالك ادع لنا ربك فليقض علينا بالموت ، فيمكث مالك مقدار الدنيا لايجيبهم ولايردّ عليهم قولا ، ثم يراجعهم فيقول (إنكم ماكثون) أحقابا من قبل أن يقضى عليكم الموت ، فلما رأوا مالكا لا يردّ عليهم خيرا استغاثوا بربهم ،فقالوا :(ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) يعنى إن عدنا فى معصيتك ، قال : فمكث الجبار سبحانه وتعالى مقدار سبعين عاما لايراجعهم بقولهم ولايردّ عليهم خيرا ،ثم أجابهم بقوله وأنزلهم منزلة الكلاب (اخسئوا فيها ولاتكلمون) قال فلما رأوا ربهم لايرحمهم ولايردّ عليهم خيرا ، قال بعضهم لبعض : (سواء علينا أجزعنا) من العذاب (أم صبرنا ما لنا من محيص - فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ، فلو أن لنا كرّة فنكون من المؤمنين). قال: ثم تنصرف بهم الملائكة إلى مساكنهم ، فزلت عند ذلك أقدامهم ودحضت

حججهم ونظروا ما عند ربهم عزّ وجل ، ويئسوا من رحمته وتلقاهم الكرب الشديد ونزل بهم الخزى والهوان الطويل ، فهتفوا بحسرتهم على ما فرطوا فى دنياهم ، وحملوا أوزارهم على رقابهم وأوزار أتباعهم، من غير أن ينقص من أوزارهم وعذابهم أكثر من تراب أرضهم وقطر بحورهم مع زبانية سريع أمرهم غليظ كلامهم عظيمة أجسادهم كالبرق ، وجوههم كالجمر أعينهم كاللهيب ، ألوانهم كالحة أنيابهم كصياصى البقر أظفارهم ، يعنى القرون والمقامع الطوال الثقال المحرقة بأيديهم لو ضربوا بها الجبال انصدعت ، وكانت رمما يضربون بها عصاة ربهم فيحقّ لهم أن تسيل أعينهم الدم بعد الدموع، لأنهم إن دعوهم لم يجيبوهم ، وإن بكوا لم يرحموهم وإن استغاثوا بماء بارد لم يغيثوهم إلا بماء كالمهل يشوى الوجوه . وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه لتأتى أهل النار سحابة عظيمة كل يوم فتبسط عليهم لها صواعق تخطف أبصارهم ، ورعد يقصف ظهورهم ، وظلمة لا يبصرون معها زبانيتهم ، فتنادى السحابة بصوت له جهر : يا أهل النار أما تريدون أن أمطركم ؟ فيقولون بأجمعهم : أمطرينا الماء البارد ، فتمطرهم ساعة حجارة تقع على رءوسهم فتقطع جماجمهم ، ثم تمطرهم ساعة أخرى أنهارا من حميم وجمرا كثيرا وشواظا وخطاطيف من الحديد ، ثم تمطرهم ساعة أخرى حيات وعقارب ودودا وغسلين . قال : فإذا أمطرت فى جهنم سجر بحرها فماجت لججها وغضبت ، فلم تترك فى جهنم سهلا ولا جبلا إلا ارتفعت عليه ، فتغرق أهل النار أجمعين من غير أن يموتوا . قال : فتزداد جهنم على من فيها من العد ة غيظا وحرّا وزفيرا وشهيقا ولهبا ودخانا وظلمة ووعثا وسموما وحميا وجحيما وسعيرا وشدة على من فيها لنقمة ربها » . فنعوذ بالله منها ومن أعمالها ومقارنة أهلها ، اللهمّ ربنا وربها لا توردنا حياضها ، ولا تجعل فى أعناقنا أغلالها ، ولا تكسنا من ثيابها ، ولا تطعمنا من زقومها ولا تسقنا من حميمها ، ولا تسلط علينا خزنتها ، ولا تجعلنا مأكلة لنارها ، ولكن جوّزنا برحمتك صراطها واصرف عنا شررها ولهبها حتى تنجينا برحمتك منها ومن دخانها ومن كربها وعذابها ، آمين يا رب العالمين . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « ولو أن أدنى باب من أبواب جهنم فتح بالمغرب لذابت منه جبال المشرق كما يذوب القطر ، ولو أن شرارة من شرر جهنم طارت فوقعت بالمغرب ورجل بالمشرق لغلى دماغه حتى يفور على جسده ، وإن أدنى أهل النار عذابا رجال تحذى لهم نعال من نار فتخرج من مسامعهم ومناخرهم وتغلى منها أدمغتهم ، والذين يلونهم يلقون على صخرة من صخور جهنم فينتفضون فيها كما ينتفض الحب من المقلى الحار ، وكلما سقطوا من صخرة وقعوا على أخرى » فأهل النار كلهم يعذّبون على قدر أعمالهم ، فنعوذ بالله من أعمالهم ومصيرهم . قال صلى الله عليه وسلم « وأما عذاب الذين لا يحفظون فروجهم ، فيناطون بفروجهم بقدر ما كانت فى الدنيا حتى تذوب أجسادهم وتبقى أرواحهم ، ثم يتركون فتجدد لهم أجساد وجلود ، ثم يعذبون ، فيجلد كل إنسان منهم سبعون ألف ملك قدر ما كانت الدنيا حتى تذوب أجسادهم وتبقى أرواحهم : فذلك عذابهم وأما عذاب السارق فيقطع عضوا عضوا ثم يجدد ، فذلك

عذابه غير أنه يتبادر إلى كل إنسان منهم سبعون ألف ملك معهم الشفار . وأما عذاب الذين يشهدون الزور ، فيناطون بألسنتهم ، ثم يجلد كل إنسان منهم سبعون ألف ملك حتى تذوب أجسادهم وتبقى أرواحهم . وأما عذاب المشركين ، فيجعلون فى مغار جهنم ثم يغلق عليهم وفيها حيات وعقارب وجمر كثير ولهب ودخان شديد ، يجدد لكل إنسان منهم كل ساعة سبعون ألف جلد فذلك عذابهم . وأما عذاب الجبارين المتكبرين ، فيجعلون فى توابيت من نار ثم يقفل عليهم فتوضع فى الدرك الأسفل من النار ، قال : فيعذب كل إنسان منهم كل ساعة تسعة وتسعين لونا من العذاب ، يجدد لهم فى كل يوم ألف جلد ، فذلك عذابهم . قال : وأما الذين يغلون فيأتون بغلولهم ثم يلقى بهم فى بحر جهنم ثم يقال لهم غوصوا حتى تخرجوا غلولكم لينتهوا إلى قعره ، ولا يعلم قعره إلا الذى خلقه ؛ قال : فيغوصون ما شاء الله ، ثم يخرجون رءوسهم يتنفسون فيبتدرون إلى كل منهم سبعون ألف ملك ، مع كل ملك مقمع من الحديد فيهوى بها إلى رأسه ، فذلك عذابهم أبدا . قال : وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله قضى على أهل النار أنهم لابثون فيها أحقابا ، فلا أدرى كم من حقب ، غير أن الحقب الواحد ثمانون ألف سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوما ، واليوم ألف سنة مما تعدون » فالويل لأهل النار ، والويل لتلك الوجوه التى كانت لاتصبر على حر الشمس حين تلفحها النار ؛ وويل لتلك الرءوس التى كانت لاتصبر على الصداع حين يصب فوقها الحميم ، وويل لتلك الأعين التى كانت لا تصبر على الرمد حين تزرق وتشخص فى النار ، وويل لتلك الآذان التى كانت تسمع الأحاديث تتلذذها حين يفور منها لهب ، وويل لتلك المناخر التى كانت تجزع من ريح الجيف حين تنشقت بالنار ، وويل لتلك الأعناق التى كانت لاتصبر على الوجع حين يجعل فيها الأغلال ، وويل لتلك الجلود التى كانت لا تصبر على اللباس الخشن حين يجعل عليها ثياب من نار خشن مسها ، منتن ريحها تتلظى نارا ، وويل لتلك البطون التى كانت لا تصبر على الأذى حين يدخلها الزقوم مع ماء حميم يقطع أمعاءهم ، وويل لتلك الأقدام التى كانت لا تصبر على الحفا حين تحذى لها نعال من نار ، فويل لأهل النار من أصناف العذاب ، اللهم بحق هذا العلم العظيم وفضلك العميم لاتجعلنا من أهلها .

(فصل) وقال أبو هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « إن لجسر جهنم سبع قناطر ، بين كل قنطرتين سبعون عاما ؛ وعرض الجسر كحد السيف ، فيجوز عليه أول زمرة من الناس سراعا كطرف العين ، والزمرة الثانية كالبرق الخاطف ، والزمرة الثالثة كالريح العاصف ، والزمرة الرابعة كالطير ، والزمرة الخامسة كالخيل ، والزمرة السادسة كالرجل المسرع ، والزمرة السابعة يمرون عليه مشاة ، ثم يبقى رجل واحد فهو آخر من يمر على ذلك الجسر ، فيقال له ، مر فيضع عليه قدميه فتزل إحداهما ، ثم يركبه فيحبو على ركبته ، فتصيب النار من شعره وجلده ؛ قال : فلا يزال يترجرج على بطنه فتزل

قدمه الأخرى وتثبت يده وتتعلق الأخرى ، وهو على ذلك تصيبه النار ، فهو يظن أنه لاينجو منها ، فلا يزال يترجرج على بطنه حتى يخرج منها ؛ فإذا خرج منها نظر إليها فقال : تبارك الذى أنجانى منك ، ما أظن أن ربى أعطى أحدا من الأولين والآخرين مثل ما أعطانى ، إنه نجانى منك ، بعد إذ رأيت ولقيت . قال : فيأتيه ملك من الملائكة فيأخذ بيده فينطلق به إلى غدير بين يدى باب الجنة ، فيقول له الملك : اغتسل فى هذا الغدير واشرب منه ، قال : فيغتسل ويشرب منه ، فيعود له ريح أهل الجنة وألوانهم ، ثم ينطلق به فيوقفه على باب جهنم ويقول له : قف هاهنا حتى يأتيك إذنك من ربك عز وجل ؛ قال : فينظر إلى أهل النار ويسمع عواءهم كعواء الكلاب ، قال : فيبكى فيقول : يا رب اصرف وجهى عن أهل النار ، لا أسألك يا رب غيره ؛ قال : فيأتيه ذلك الملك من عند رب العالمين عز وجل ، فيحول وجهه من النار إلى الجنة ؛ قال : وبين مقامه إلى باب الجنة خطوة ، فينظر إلى باب الجنة وعرضه ، وإن ما بين عضادتى باب الجنة مسيرة أربعين عاما للطير المسرع ؛ قال : فيسأل ذلك الرجل ربه عز وجل فيقول : يا رب إنك قد أحسنت إلى الإحسان كله أنجيتنى من النار وصرفت وجهى عن أهل النار إلى الجنة ، إنما بينى وبين باب الجنة خطوة فأسألك يا رب بعزتك أن تدخلنى الباب ، ولا أسألك غيره ، ولكن اجعل بينى وبين أهل النار حجابا ، فلا أسمع حسيسها ، ولا أرى أهلها ؛ قال : فيأتيه ذلك الملك من عند رب العالمين ، فيقول : يا ابن آدم ما أكذبك ألست زعمت أنك لاتسأل غيره ، قال عليه السلام فيقول : ويحلف لا وعزة الرب لا أسأل غيره ، فيأخذه بيده فيدخله الباب ، ثم ينطلق الملك عند رب العالمين عز وجل ؛ قال : فينظر ذلك الرجل فى الجنة عن يمينه وشماله وبين يديه مسيرة سنة ، فلا يرى أحدا غير الشجر والثمر وبين مقامه إلى أدنى شجرة خطوة ، قال فينظر إليها فإذا أصلها ذهب وغصنها فضة بيضاء وورقها كأحسن حلل رآها آدمى وثمارها ألين من الزبد وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك ، قال : فتحير ذلك الرجل مما رأى ؛ قال : فيقول يا رب نجيتنى من جهنم وأدخلتنى باب الجنة فأحسنت إلى الإحسان كله ، وإنما بينى وبين هذه الشجرة خطوة لا أسألك غيرها ، قال : فيأتيه ذلك الملك فيقول : ما أكذبك يا ابن آدم ألست زعمت أنك لا تسأل زيادة ، فما لك تسأل ، وأين ما أقسمت ألا تستحى ؟ قال : فيأخذ بيده فينطلق به إلى أدنى منازله فإذا هو بقصر من لؤلؤ بين يديه على مسيرة سنة ، قال : فإذا أتاه نظر إلى ما بين يديه فرأى منزلا كأنما كان ذلك القصر وما وراءه معه حلما ، فلا يملك نفسه حين ينظر إليه فيقول : يارب أسألك هذا المنزل ولا أسألك غيره ؛ قال : فيأتيه ملك من الملائكة فيقول : يا ابن آدم أما أقسمت بربك عليك ، ما أكذبك يا ابن آدم هو لك فإذا أتاه نظر إلى منزل آخر بين يديه كأنما كان منزله معه حلما ، قال فيقول : يا رب أسألك هذا المنزل ؛ قال فيأتيه ذلك الملك فيقول له : يا ابن آدم مالك لاتوفى بالعهد ، ألست زعمت أنك لاتسأل غيره ؟ ولايلومه لأنه يرى ما تكاد نفسه تخرج منه من العجائب ، قال : فيقول : هو لك ؛ قال فإذا بين يديه منزل آخر : كأنما كانت معه تلك المنازل حلما ، فيبقى مبهوتا لايستطيع

أن يتكلم ، قال عليه الصلاة والسلام : فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك لاتسأل ربك ؟ فيقول : يا سيدى صلى الله عليك ، والله لقد حلفت لربّ العزة حتى خشيت منه وسألته حتى استحييت ؛ قال : فيقول له ربّ العزّة جلّ جلاله : أيرضيك أن أجمع لك الدنيا منذ يوم خلقتها إلى يوم أفنيتها ثم أضعفها لك عشرة أضعاف ؟ قال : فيقول ذلك الرجل : يا ربّ أتهزأ بى وأنت ربّ العالمين ؟ قال : فيقول له ربّ العزّة جلّ وعلا : إنى لقادر أن أفعله فاسألنى ماشئت ، قال : فيقول الرجل يا ربّ ألحقنى بالناس ، قال : فيأتيه ملك فيأخذ بيده ، فينطلق به يمشى فى الجنة حتى يبدوله شيء كأنه لم يكن رأى معه شيئا فيخرّ ساجدا ، ويقول فى سجدته : إن ربى عزّ وجل تجلى لى ، فيقول له الملك : ارفع رأسك هذا منزلك وهو أدنى منازلك ، قال : فيقول لولا أن الله عزّ وجل حبس بصرى لحار من نور هذا القصر ؛ قال ؛ فينزل فى ذلك القصر فيلقاه رجل إذا رأى وجهه وثيابه يبقى مبهوتا يظن أنه ملَك ، فيأتيه ذلك الرجل فيقول : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، لقد آن لك أن تجيء ، فيردّ عليه السلام ثم يقول له : من أنت يا عبد الله ؟ فيقول : أنا قهرمان لك وأنا على هـذا المنزل ولك مثلى ألف قهرمان ، كل واحد منهم على قصر من قصورك ، ولك ألف قصر فى كل قصر ألف خادم وزوجة من الحور العين ؛ قال : فيدخل فى قصره ذلك فإذا هـو بقبة من لؤلؤة بيضاء وفى جوفها سبعون بيتا ، فى كل بيت سبعون غرفة ، لكل غرفة سبعون باباً ، لكل باب منها قبة من لؤلؤ فيدخل تلك القباب فيفتحها ولم يفتحها أحـد من خلق الله قبله ، فإذا هو فى جوف تلك القبة بقبة من جوهرة حمراء طولها سبعون ذراعا ، لها سبعون باباً ، كل باب منها يفضى إلى جوهرة حمراء على مثل طولها لها سبعون باباً ، ليس منها جوهرة على لون صاحبتها ، فى كل جوهرة أزواج ومناصّ وأسرّة ؛ قال : فإذا دخل فيها وجد فيها زوجة من الحور العين ، فتسلم عليه فيرد عليها السلام ثم يقوم مبهوتا ، فتقول له : قد آن لك أن تزورنا وأنا زوجتك ، قال : فينظر فى وجهها فيرى وجهه فى وجهها كما يرى أحـدكم وجهه فى المرآة من الحسن والجمال والصفوة ، فإذا عليها سبعون حلة فى كل حلة سبعون لونا ليس فيها لون على لون صاحبتها يرى مخ ساقها من ورائها ، لا يعرض عنها إعراضة إلا ازدادت حسنا فى عينه سبعين ضعفا ، فهى له مرآة وهو لها مرآة ؛ قال : وإن لكل قصر منها ثلثمائة وستين باباً ، على كل باب ثلثمائة وستون قبة من لؤلؤة وياقوتة وجوهرة ليس منها قبة على لون صاحبتها ، فإذا أشرف على ظهر القصر أشرف على ملكه مسيرة من الأرض ينفذ بصره فيها ، إذا سار فيه سار فى ملكه مائتى سنة لا ينتهى إلى شيء فيه إلا نظر فيه أجمع ، وإن الملائكة تدخل عليه فى قصوره من كل باب بالسلام والهدايا من عند ربّ العالمين ؛ ليس منهم ملك إلا ومعه من الهدايا ما ليس مع الآخر كل يوم فى النهار تسلم عليه الملائكة معها الهدايا : وتصديق ذلك فى كتاب الله عزّ وجل يقول (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) وقال تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن هذا الرجل يسميه أهل الجنة المسكين لفضل منازلهم على منزله وإن لهذا المسكين ثمانين ألف

خادم فى طعامه إذا اشتهى الطعام نصبوا له مائدة من موائدها من ياقوتة حمراء ممنطقة من ياقوتة صفراء محفوفة بالدر والياقوت والزبرجد وقوائمها من لؤلؤ حافتها عشرون ميلا . قال : فيوضع له عليها من الطعام سبعون لونا ، ويقوم بين يديه ثمانون خادما مع كل خادم منهم صحفة فيها طعام وكأس فيه شراب ، فى كل صحفة من الطعام ما ليس فى الأخرى ، وفى كل كأس شربة ما ليس فى الأخرى ، يجد طعم أولها كطعم آخرها ، ويجد لذة آخرها كلذة أولها ، يشبه بعضه بعضا ، وليس منها لون إلا وهو يصيب منه ، وليس له خادم إلا ويعطى حظه من ذلك الطعام والشراب إذا رفع من بين يديه » وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول « وإن أهل الدرجة العليا يزورونه ولا يزورهم ، وإن أهل الدرجة العليا ليسعى على كل رجل ثمانمائة ألف خادم ، وبيد كل خادم منهم صحفة فيها طعام ليس فى الأخرى ، وليس منها لون إلا وهو يصيب منه ، وليس منهم خادم إلا ويعطى حظه من ذلك الطعام والشراب إذا رفع من بين يديه ، وما منهم من أحد إلا وله اثنتان وسبعون زوجة من الحور العين وآدميتان ، لكل زوجة منهن قصر من ياقوتة خضراء ممنطقة بحمراء ، فيها سبعون ألف مصراع ، لكل مصراع قبة من لؤلؤة ، وليس منها زوجة إلا وعليها سبعون ألف حلة فى كل حلة سبعون ألف لون ، ليس منها حلة تشبه الأخرى ، وليس منهن زوجة إلا بين يديها ألف جارية قيام لحوائجها ، وسبعون ألف جارية لمجلسها ، وما منهن جارية إلا وقد أشغلتها فى حاجتها ، إذا قرب إليها الطعام قام بين يديها سبعون ألف جارية ، كل جارية منهن بيدها صحفة فيها من الطعام ، وكأس فيها من الشراب ما ليس فى الأخرى » .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول « يشتاق الرجل إلى أخ له كان يحبه فى الله عز وجل فى الدنيا ، فيقول : يا ليت شعرى ما فعل أخى فلان شفقة عليه أن يكون قد هلك ، فيطلع الله عز وجل على ما فى قلبه ، فيوحى إلى الملائكة أن سيروا بعبدى هذا إلى أخيه ، فيأتيه الملك بنجيبة عليها رحلها من مياثر النور ، قال : فيسلم عليه ، فيرد عليه السلام ويقول له : قم فاركب وانطلق إلى أخيك ، قال : فيركب عليها ، فيسير فى الجنة مسيرة ألف عام أسرع من أحدكم إذا ركب بنجيبة فسار عليها فرسخا ، قال : فلا يكون شىء حتى يبلغ منزل أخيه ، قال : فيسلم عليه ، فيرد عليه السلام ويرحب به ؛ قال : فيقول : أين كنت يا أخى لقد كنت أشفقت عليك ؟ قال : فيعنق كل واحد منهما صاحبه ثم يقولان : الحمد لله الذى جمع بيننا ، فيحمدان الله عز وجل بأحسن أصوات سمعها أحد من الناس ؛ قال : فيقول الله عز وجل : لهما عند ذلك يا عبدى ليس هذا حين عمل ، ولكن هذا حين تحية ومسألة ، فاسألانى أعطيكما ما شئتما ، فيقولان : يا رب اجمع بيننا فى هذه الدرجة ، قال : فيجعل الله عز وجل تلك الدرجة مجلسهما فى خيمة محفوفة بالدر والياقوت ، ولأزواجهما منزل سوى ذلك ؛ قال : فيشربون ويأكلون ويتمتعون » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن الرجل منهم ليأخذ لقمة فيجعلها فى فيه ، ثم يخطر بباله طعام آخر ، فتتحول تلك اللقمة إلى الذى تمنى ، قيل : يا رسول الله ما أرض الجنة ؟ قال : أرضها رخامة من فضة ملساء ، وترابها مسك ، وتلالها زعفران ، وحيطانها در

وياقوت وذهب وفضة، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وليس فى الجنة قصر إلا يرى ظاهره من باطنه ، وباطنه من ظاهره ، وليس فى الجنة رجل إلا وهو يلبس إزارا ورداء وحللا غير مقطعة وغير مخيطة ، وليس منهم رجل إلا وهو يلبس تاجا من لؤلؤ مجوّفا بالدرّ والياقوت والزبرجد ، له ضفيرتان من الذهب ، فى عنقه طوق من ذهب محفوف بالدرّ والياقوت الأخضر ، وفى يد كلّ رجل منهم ثلاث أسورة : سوار من ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار من لؤلؤ ، تحت تيجانهم أكاليل من درّ وياقوت ، وعلى حللهم تلك يلبسون السندس، وعلى السندس الإستبرق والحرير الأخضر، متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ، وظواهرها العبقرىّ الحسان ، أسرتها من ياقوت أحمر وقوائمها اللؤلؤ على كل سرير منها ألف مثال ، لكل مثال سبعون لونا ، ليس منها مثال يشبه الآخر ، بين يدى كل سرير منها سبعون ألف زربية لكل زربية سبعون لونا ، ليس منها زربية تشبه صاحبتها ، عن يمين كل سرير منها سبعون ألف كرسى ، وعن شمالها مثل ذلك ، ليس منها كرسى يشبه الآخر » وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن أهل الجنة أجمعين أعلاهم وأسفلهم على طول آدم ، وطول آدم عليه السلام ستون ذراعاً شباباً جردا مردا مكحّلين محممين هم ونساؤهم على قدر واحد؛ قال: فلما فعل ذلك بهم، نادى مناد فى الجنة ، فيسمع صوته أعلاهم وأدناهم وأقصاهم ، فيقول : يا أهل الجنة أرضيتم منازلكم ؟ فيقولون بأجمعهم : نعم والله ، لقد أنزلتنا ربنا منزل الكرامة ، لانبغى عنها حولا ولا بها بدلا ، رضينا بربنا جارا؛ اللهمّ ربنا فانا سمعنا مناديك فأجبناه القول الصادق، اللهم ربنا فانا اشتهينا النظر إلى وجهك فأرناه ، فإنه أفضل ثوابنا عندك؛ قال: فأمر الله عزّ وجلّ عند ذلك الجنة فيها منزله ومجلسه ، واسمها دار السلام ، خذى زينتك ، وتزينى واستعدّى لزيارة عبادى فاستمعت لربها وأطاعته قبل أن تنقضى الكلمة ، وأخذت زينتها واستعدّت لزوّار الله تعالى ، فيأمر الله تعالى ملكا من الملائكة أن ادع عبادى إلى زيارتى ؛ قال : فيخرج ذلك الملك من عند الرحمن ، فينادى بأعلى صوته ، بصوت له لذيذ ممدود يقول : يا أهل الجنة ، يا أولياء الله زوروا ربكم ، قال: فيسمع صوته أعلاهم وأسفلهم ، فيركبون على النوق والبراذين بأجمعهم ، فيسيرون فى ظلّ جنب إلى تلال من مسك أبيض وزعفران أصفر ، فيسلمون عند الباب ، وتسليمهم أن يقولوا : السلام علينا من ربنا ، فيستأذنون فيؤذن لهم ، فيتعمدون فيدخلون الباب ، فتهبّ ريح من تحت العرش اسمها المثيرة ، فتنسف تلال المسك والزعفران ، فتغبر فى جيوبهم ورءوسهم وثيابهم ، فيدخلون وينظرون إلى عرش ربهم وكرسيه نورا يتلألأ عليهم من غير أن يتجلى لهم ، فيقولون : سبحانك ربنا قدّوس ، ربّ الملائكة والروح ، تباركت وتعاليت ، أرنا ننظر إلى وجهك ، قال : فيأمر الله عزّ وجلّ الحجب التى من نور : أن اعتزلى ، فلا يزال يرتفع حجاب وراء حجاب حتى يرتفع سبعون حجابا ، كل حجاب هو أشدّ نورا من الذى يليه سبعين ضعفا ، فيتجلى لهم ربّ العزّة عزّ وجلّ ، فيخرّون له سجدا ماشاء الله ، يقولون وهم ساجدون : سبحانك لك الحمد والتسبيح أبدا ، أنجيتنا من النار ،

وأدخلتنا الجنة ، فنعم الدار رضينا عنك الرضا كله ، فارض عنا ، فيقول تبارك وتعالى : قد رضيت عنكم الرضا كله ، وليس هذا أوان عمل ، ولكن هذا حينُ نضرة ونعيم ، فاسألونى أعطكم ، وتمنوا علىّ أزدكم ؛ قال : فيتمنون من غير أن يتكلموا ، فيتمنون أن يديم لهم ما أعطاهم ، فيقول تعالى : إنى مديم لكم ما أعطيتكم وزائدكم مثله ؛ قال : فيرفعون رءوسهم بالتكبير ، ولا يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم إلى ربهم عزّ وجلّ من شدّة نور ربّ العزّة ، وذلك المجلس يسمى شرقى قبة عرش ربّ العالمين ، فيقول لهم ربّ العزّة مرحبا ياعبادى وجيرانى وأصفيائى وأحبائى وأوليائى وخيرتى من خلقى وأهل طاعتى ، قال : فإذا بين يدى عرش ربّ العزّة منابر من نور ، من دون تلك المنابر كراسى من نور ، من دون تلك الكراسى الفرش ، ودون الفرش النمارق ، ودون النمارق الزرابى ؛ قال : فيقول لهم ربّ العزّة : هلمّ اجلسوا على كرامتكم ، فيتقدم الرسل فيجلسون على تلك المنابر ، ويتقدم الأنبياء فيجلسون على تلك الكراسى ، ويتقدم الصالحون فيجلسون على تلك الزرابى ؛ قال : فتوضع لهم موائد من نور ، على كل مائدة سبعون لونا مكللة باللؤلؤ والياقوت ، قال فيقول ربّ العزّة لحفدته أطعموهم ، فيوضع لهم على كل مائدة سبعون ألف صحفة من درّ وياقوت ، وفى كل صحفة سبعون لونا من الطعام ، قال : فيقول عزّ وجل : كلوا ياعبادى ، قال : فيأكلون ماشاء الله من ذلك ؛ قال : فيقول بعضهم لبعض : إن طعامنا اليوم الذى عند أهلنا عند هذا حلم ؛ قالُ : فيقول ربّ العزّة لحفدته : اسقوا عبادى ؛ قال : فيأتونهم بشراب فيشربون منه ، فيقول بعضهم لبعض : إن شرابنا عند هذا الشراب حلم ؛ قال : فيقول ربّ العزّة لحفدته : أطعمتموهم وسقيتموهم ففكهوهم الآن ، قال : فيأتون بفاكهة فيأكلون منها ، فيقول بعضهم لبعض : إن فاكهتنا عند هـذه حلم ؛ قال : فيقول ربّ العزّة سبحانه أطعمتموهم وفكهتموكم وسقيتموهم اكسوهم وحلّوهم ، قال : فيأتونهم بكسوة وحلية يُكسَوْنها ، فيقول بعضهم لبعض : إن كسوتنا وحليتنا عند هذه حلم ؛ قال : فبينما هم جلوس على كراسيهم بعث الله عزّ وجل عليهم ريحاً من تحت العرش تسمى المثيرة ، فتأتيهم بمسك وكافور من تحت العرش أشدّ بياضا من الثلج ، فتغبر ثيابهم ورءوسهم وجيوبهم فتطيبهم ، ثم ترفع عنهم الموائد مع ما عليها من الطعام ؛ قال عليه الصلاة والسلام : فيقول لهم ربّ العزة سلونى الآن أعطكم وتمنوا علىّ أزدكم ، قال : فيقولون بأجمعهم : اللهمّ ربنا فإنا نسألك رضاك عنا ، فيقول عزّ وجل : إنى قد رضيت ياعبادى عنكم ، قال فيخرّون له سجدا بالتسبيح والتكبير ، فيقول ربّ العزة : يا عبادى ارفعوا رءوسكم ليس هذا حين عمل هذا حينُ نظرة ونعيم ؛ قال : فيرفعون رءوسهم ووجوههم مشرقة من نور ربهم ؛ قال : فيقول ربّ العزّة عزّ وجل : انصرفوا إلى منازلكم ، قال : فيخرجون من عند ربهم ، ثم تلقاهم غلمانهم بدوابهم ، قال : فيركب كل واحد منهم على ناقته أو برذونه ، ويركب معه سبعون ألف غلام على مثل الذى يركب : فيسير من شاء منهم بالسواد إلى داره ، ثم يسير معه سائرهم حتى يقدم القصر الذى يريد ؛ قال : فإذا جاء قصره فدخل على زوجته قامت إليه فرحبت به وقالت له : جئتنى

يا حبيبي ، جئتني بحسن ونور وجمال وكسوة وريح وحلية لم أفارقك عليها ؛ قال : فينادي ملك من عند الرحمن عزّ وجل بصوت عال فيقول : يا أهل الجنة كذلك أنتم أبدا ، يجدّد لكم النعيم قال (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) إن ربكم يقرأ عليكم السلام ومعهم من الأطعمة والأشربة والكسوة والحلية » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين أمير يرون له الفضيلة والسودد ، فيها جبال من مسك أبيض وزعفران أصفر ، إذا أكلوا طعامهم تجشوا أطيب من المسك ، فإذا شربوا شرابهم رشحت جلودهم لايتغوّطون ولايهريقون الماء ولا يبصقون ولا يمتخطون ولا يمرضون ولا يصدّعون » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول «أهل الجنة أعلاهم وأسفلهم يتغدون متكئين ساعتين ، ويتفاضلون[1] ساعتين ، ويمجدون خالقهم أربع ساعات ، ويتزاورون ساعتين ، وفيها ليل ونهار وظلمة ، ليلها أشدّ بياضا من نهار ، اليوم سبعين جزاء » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن أدنى أهل الجنة عطية من لو نزل عليه الإنس والجن لكان عنده من الكراسي والفرش والنمارق والزرابى ما يجلسون ويتكئون عليه ، ويفضل عليهم من الموائد والصحائف والخدم والطعام والشراب إلا كقدر ما أصاب رجلا واحدا » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن جذوع الشجر ذهب ومنها فضة ومنها ياقوت ومنها زبرجد ، وسعفها مثل ذلك ، وورقها كأحسن حلل رآها أحد ، وثمرها ألين من الزبد وأحلى من العسل ، طول كل شجرة منها خمسمائة عام ، وغلظ أصلها مسيرة سبعين عاما ، إذا رفع الرجل منهم بصره نظر إلى أقصى فرع من الشجرة وما فيها من الثمار ، وإن على كل شجرة سبعين ألف نوع من الثمار ، وليس منها لون على طعم الآخر ، إذا اشتهى شيئا من تلك الأنواع انحنت له تلك الشعبة التى فيها تلك الثمرة التى اشتهى من مسيرة خمسمائة عام أو مسيرة خمسين عاما أودون ذلك ، حتى يأخذها بيده إن شاء ، فإن عجز أن يأخذها بيده فتح فاه فدخلت فيه ، فإذا قطف منها شيئا أحدث الله مكانها أحسن منها وأطيب ، فإذا أصاب منها حاجته واكتفى رجعت الشعبة حيث كانت ؛ ومنها شجرة لاتثمر ولكن فيها أكمام فيها حرير وحلل وسندس وزخرف وعبقرىّ ؛ ومنها شجرة لها أكمام فيها المسك والكافور » وكان صلى الله عليه وسلم يقول « أهل الجنة يرون ربهم كل يوم جمعة » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « لو أن إكليلا من الجنة دلى من السماء لذهب بضوء الشمس » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن فى الجنة قصورا فى كل قصر منها أربعة أنهار : ماء معين ، ولبن معين ، وخمر معين ، وعسل معين ، إذا شرب منه شيئا صار ختامه مسكا ، ولا يشربون منها شيئا حتى يمزج من عيون فى الجنة اسم أحدها الزنجبيل ، والأخرى تسنيم ، والأخرى كافور ، وإن المقربين يشربون منها صرفا » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « لولا أن الله قضى بينهم أنهم يتنازعون الكأس بينهم ما رفعوها من أفواههم أبدا » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن أهل

(١) قوله : ويتفاضلون ، انظر ما معناه وليحرر لفظ الحديث .

الجنة يتزاورون على سيرة مائة ألف عام وفوق ذلك، فإذا رجعوا من عند إخوانهم فلهم أهدى إلى منازلهم من أحدكم إلى منزله » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن أهل الجنة إذا رأوا ربهم عزّ وجل وأرادوا الانصراف ، يعطى كل رجل منهم رمانة خضراء فيها سبعون حبة ، لكل حبة سبعون لونا ليس منها حبة على لون الأخرى، فإذا انصرفوا من عند ربهم عزّ وجل مرّوا في أسواق الجنة ، ليس فيها بيع ولا شراء، وفيها من الحليّ والحلل والسندس والإستبرق والحرير والزخرف والعبقرى من درّ وياقوت وأكاليل معلقة ، فيأخذون من تلك الأسواق من هذه الأصناف ما يطيقون حمله ، ولاينقص من أسواقها شىء ، وفيها صور كصور الناس من أحسن ما يكون، مكتوب على نحر كل صورة منها : من تمنى أن يكون حسنه على حسن صورتى جعل الله حسنه على صورتى ، فمن تمنى أن يكون حسن وجهه على تلك الصورة جعله الله على تلك الصورة ، قال : ثم ينصرفون إلى منازلهم فيلقاهم غلمانهم صفوفا قياما بالترحيب والتسليم، فيبشر كل واحد منهم صاحبه الذى يليه حتى تبلغ البشرى زوجته ، ثم يستخفها الفرح حتى تقوم إليه فتستقبله عند بابه بالترحيب والتسليم، فتعانقه ويعانقها فيدخلان جميعا معتنقين » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « لو أن امرأة من نساء أهل الجنة برزت لم يرها ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل إلا افتتن بحسنها » وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن آخر شراب يشربه أهل الجنة على أثر طعامهم شراب يقال له طهور دهاق ، فإذا شرب منه شربة هضم طعامهم وشرابهم فجعله كالمسك وجشاه المسك ، ولا يكون فى بطونهم أذى ، فإذا شربوا اشتهوا الطعام فهذا دأبهم أبدا » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن دواب أهل الجنة خلقن من ياقوت أبيض » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « هن ثلاث جنات : الجنة ، وعدن ، ودار السلام ، الجنة أصغر من جنة عدن بسبعمائة ألفٌ ألف جزء ، وإن قصور الجنة ظاهرها من ذهب وباطنها من زبرجد وأبرجتها من ياقوت أحمر وشرفاتها نظام اللؤلؤ » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن الرجل من أهل الجنة ليتمتع عند زوجته التكأة الواحدة مقدار سبعمائة عام مايتحول ، ثم تناديه زوجته الأخرى من القصر أحسن منها : يا أخى قد آن لك أن تكون لنا منك دولة ، فيقول الرجل : من أنت ؟ فتقول : أنا من التى يقول الله عز وجل (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين) فيتحول إليها فيمكث عندها مقدار سبعمائة عام يأكل ويشرب ويباضعها » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها سبعمائة عام ما يقطعها تجرى من تحتها الأنهار وإن على كل غصن من غصونها مدائن مبنية ، طول كل مدينة منها عشرة آلاف ميل ، وإن ما بين كل مدينة إلى الأخرى كما بين المشرق والمغرب ، وإن عيون السلسبيل لتجرى من تلك القصور إلى تلك المدائن، وإن الورقة منها لتظل الأمة الكبيرة العظيمة » : وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن الرجل من أهل الجنة إذا دخل على زوجته قالت : والذى هو أكرمنى بك ما فى الجنة شىء هو أحبّ إلىّ منك ، قال : فيقول لها أيضا مثل ذلك » . قال : وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن فى الجنة مالا يصفه الواصفون ، ولا يخطر على قلوب العالمين ، ولا تسمع

به آذان الواعين ، وفيها ما لم تره عيون المخلوقين » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله عزّ وجل ينزل المتحابين فيه فى جنة عدن على عمود من ياقوتة حمراء ، غلظها مسيرة سبعين ألف عام على سبعين ألف بيت ، لكل بيت قصر مشرفين على أهل الجنة ، مكتوب على جباههم كتاب من نور : هؤلاء المتحابون فى الله ، إذا اطلع أحدهم من قصره إلى أهـل الجنة ملأ نور وجهه قصور أهل الجنة كما تملأ الشمس بيوت أهل الأرض ، فينظر أهل الجنة وجهه فيقول بعضهم لبعض : هذا من المتحابين فى الله عزّ وجل ، فإذا وجهه مثل القمر ليلة البدر » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن فضل حسن الرجل على حسن الخادم من أهل الجنة كمثل القمر ليلة البدر على النجوم » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن نساء أهل الجنة يتغنين عند آخر طعامهم بأصوات لذيذة ممدودة يقلن : نحن الخالدات فلا نموت أبدا ، ونحن الآمنات فلا نخاف أبدا ، ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا ، ونحن الشابات فلا نهرم أبدا ، ونحن الكاسيات فلا نعرى أبدا ، ونحن الخيرات الحسان أزواج قوم كرام » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن طير الجنة له سبعون ألف ريشة ، لكلّ ريشة منها لون ليس يشبه الآخر ، عظم كلّ طير منها ميل فى ميل ، إذا اشتهى المؤمن شيئا منها أتى به فوضع فى جوف الصحفة ، فانتفض فوقع منه سبعون لونا من الطعام من نحو طبيخ وشىء وألوان شتى ، طعمها أطيب من المنّ ، ولينها ألين من الزبد ، وبياضها أشد بياضا من المخيض ، فإذا أكل منها انتفض وطار ولم تنقص منها ريشة ؛ فطيورهم ومراكبهم ترعى فى رياض الجنة حول قصورهم » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن أهل الجنة يعطيهم الله تعالى خواتيم من ذهب يلبسونها وهى خواتيم الخلد ، ثم يعطيهم خواتيم من درّ وياقوت ولؤلؤ ، وذلك إذا زاروه فى دار السلام » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن أهل الجنـة إذا زاروا ربهم أكلوا وشربوا وتمتعوا ، قال : يقول ربّ العزّة عزّ وجل : ياداود مجدنى بصوتك الحسن ، فيمجده ما شاء الله تعالى من ذلك فلا يبقّى شىء فى الجنة إلا أنصت لحسن صوته ولذاذته ، ثم يحبوهم ربّ العزّة عزّ وجل بالكسوة والحلية ، ثم ينصرفون إلى أهاليهم » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إن لكل رجل من أهـل الجنة شجرة يقال لها طوبى ، فإذا أراد أحدهم أن يلبس الكسوة المرتفعة انطلق إلى طوبى فتفتحت له أكمامها ، وهى ستة ألوان فى كل واحد منها سبعون لونا ، ليس منها ثوب لونه على لون الآخر ولاعلى وشيه ، فيأخذ من أىّ ذلك شاء » . وكان صلى الله عليـه وسلم يقول « إن أزواج أهـل الجنة مكتوب فى نحر كل امرأة منهن أنت حبيبى وأنا حبيبتك ، ليس عنك معدل ولا عنك مقصر ، وليس لك فى قلبى غلّ ولا غش ، فينظر الرجل إلى نحر زوجته فيرى سواد كبدها من وراء عظمها ولحمها ، فكبده لها مرآة وكبدها له مرآة ، ولايعيبها ذلك إلا كما يعيب الياقوت السلك فيه ، بياضهنّ كبياض المرجان وصفاؤهن كصفاء الياقوت ، قال الله عز وجل (كأنهنّ الياقوت والمرجان) » . وكان صلى الله عليـه وسلم يقول « إن أهل الجنة على النوق والبراذين يقع خفّ إحداهن عند أقصى

طرفها ، وموضع حافر ذلك البرذون عند أقصى طرفه خلقت من درّ وياقوت ، عظم كل دابة منهن سبعون ميلا ، أزمة النوق والبراذين حلق اللؤلؤ والزبرجد » ؛

(فصل : فى قوله عزّ وجل (فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) إلى آخر صفة أهل الجنة) أما قوله (فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم) يعنى يوم القيامة يقيهم فيه شدة الحساب وهول جهنم ، إذا جيء بها فى عرصات القيامة يقودها تسعة عشر خازنها من الملائكة ، مع كل خازن منهم سبعون ألف ملك أعوان له غلاظ شداد كالحة أنيابهم ، أعينهم كالجمر وألوانهم كلهب النار ، يفور من مناخرهم لهبٌ ودخان عال مستعدين لأمر الجبار تبارك وتعالى ، فيقودها كل خازن وأعوانه بوثاق وسلسلة عظيمة ، فتارة يمشون عن يمينها وأخرى عن شمالها ، ومرّة من ورائها ، بيد كل ملك منهم مقمع من حديد ، يصيحون بها فتمشى ، ولها زفير وشهيق ووعث وظلمة ودخان وقعقعة ولهب عال من شدة غضبها على أهلها ، فينصبونها بين الجنة والموقف ، فترفع طرفها فتنظر إلى الخلائق ، ثم تجمح إليهم لتأكلهم ، فتحبسها الخزنة بسلاسلها ولو تركت لأتت على كل مؤمن وكافر ، فإذا رأت أنها قد حبست عن الخلائق فارت فورة شديدة كادت تميز من الغيظ ، ثم شهقت الثانية فسمعت الخلائق صوت صريف أسنانها ، فارتعدت عند ذلك الأفئدة ، وانخلعت القلوب ، وطارت الأفئدة ، وشخصت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ؛ ثم تزفر زفرة فلا يبقى ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل ولا أحد ممن شهد الموقف إلا جثا على ركبتيه ؛ ثم تزفر أخرى فلا تبقى قطرة فى عين أحد إلا ندرت ؛ ثم تزفر الثالثة فلو كان لكل آدمىّ أوجنىّ عمل اثنين وسبعين نبيا لظنوا أنهم مواقعوها لا ينجون منها ، ثم تزفر الرابعة فلا يبقى شيء إلا انقطع كلامه ويتعلق جبريل وميكائيل وخليل الرحمن عزّ وجل بالعرش يقول كل واحد منهم نفسى نفسى لا أسألك غيرها ، ثم ترمى بشرر منها كعدد نجوم السماء عظم كل شرارة منها كالسحابة العظيمة الطالعة من المغرب ، فيقع ذلك الشرر على رءوس الخلائق ، فهـذا هو الشرر الذى وقاه الله المؤمنين الذين يوفون بالنذر ويخافون عذابه أن يقع بهم ، فالله تعالى يكفى أهل التوحيد والإيمان وأهل السنة شرّ ذلك اليوم ، ولقاهم برحمته وييسر حسابهم ويدخلهم جنته ويخلدهم فيها أبدا الآباد بمنّه ، ويزيد الكافرين وأهل الشرك والأوثان شرا إلى شرّ وخوفا إلى خوف وعذابا إلى عذاب ، فيدخلهم جهنم ويخلدهم فيها أبد الآباد ؛ ثم قال عزّ وجل (ولقاهم نضرة وسرورا) فالنضرة فى الوجوه والسرور فى القلوب ، وذلك أن المؤمن إذا خرج من قبره يوم القيامة نظر أمامه ، فإذا هو بإنسان وجهه مثل الشمس يضحك طيب النفس ، وعليه ثياب بيض وعلى رأسه تاج ، فينظر إليه حتى يدنو منه ، فيقول : سلام عليك ياولىّ الله ، فيقول : وعليك السلام من أنت ياعبد الله هل أنت ملك من الملائكة ؟ فيقول لا والله ، فيقول : أنت نبىّ من الأنبياء ؟ فيقول : لا والله ، فيقول : أنت من المقرّبين ؟ فيقول : لا والله ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح جئت أبشرك بالجنة والنجاة من النار ، فيقول له : يا عبد الله أتعلم ذلك فتبشرنى ؟ فيقول : نعم ، فيقول : ما تريد منى ؟

فيقول له اركبنى ، فيقول له : سبحان الله ما ينبغى لمثلك أن يركب عليه ، فيقول : بلى فإنى طالما ركبتك فى دار الدنيا ، فإنى أسألك بوجه الله إلا ما ركبتنى ، فيركبه ، فيقول له : لاتخف أنا دليلك إلى الجنة ، فيفرح فيتبين ذلك الفرح فى وجهه حتى يتلألأ ، ويرى فيه النور والسرور فى قلبه ، فذلك قوله عزّ وجل (ولقاهم نضرة وسرورا) . وأما الكافر فإذا خرج من قبره نظر أمامه ، فإذا هو برجل قبيح الوجه أزرق العينين أسود أشد سوادا من القبر فى ليلة مظلمة ، وثيابه سود ، يجرّ أنيابه فى الأرض يدبدب دبدبة الرعد وريحه أنتن من الجيفة فيقول : من أنت يا عبد الله ؟ ويريد أن يعرض عنه بوجهه ، فيقول : يا عدوّ الله إلىّ إلىّ أنت لى وأنا لك اليوم ، فقال : ويحك أشيطان أنت ؟ فيقول : لا والله ، ولكنى عملك الطالح ، فيقول : ما تريد منى ؟ فيقول أريد أن أركبك ، فيقول له : أنشدك بالله مهلا ، فإنك تفضحنى على رءوس الخلائق ، فيقول : والله ما منه بد فطالما ركبتنى فأنا اليوم أركبك ، قال : فيركبه ، فذلك قوله عز وجل (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون) ثم ذكر عزّ وجل أولياءه فقال (وجزاهم) بعد البشارة بما صبروا على البلاء وأداء الأوامر ، وانتهاء المناهى والتسليم فى القدر (جنة وحريرا) أما الجنة فيتنعمون فيها ، وأما الحرير فيلبسون ، قال (متكئين فيها) يعنى فى الجنة (على الأرائك) يعنى السرر عليها الحجال يعنى الستر (لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا) يعنى ولا يصيبهم حرّ الشمس ولا برد الزمهرير ، لأنه ليس فيها شتاء ولا صيف ، ثم قال عزّ وجل (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا) يعنى ظلال الشجر ، وذلك أن أهل الجنة يأكلون من الفواكه إن شاءوا قياما وإن شاءوا قعودا وإن شاءوا نياما ، وإذا أرادوها دنت منهم حتى يأخذوا منها ثم يقوم أحدهم قائما ، وذلك قوله عز وجل (وذللت قطوفها تذليلا) ثم قال عزّ وجل (ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب) فهى الأكواب يعنى الكيزان مدورة الرءوس التى ليست لها عرا ، وقال عزّ وجل (قواريرا) يعنى هى قوارير ولكنها من فضة ، وذلك أن قوارير الدنيا من ترابها ، وقوارير الجنة من فضة (قدروها تقديرا) يعنى قدرت الأكواب على الإناء وقدر الإناء على كفّ الخادم على ريّ القوم إذا سقوها لم يبق فيها شىء ، ولم يزد عليه فكانت قدرا على الإناء وكفّ الخادم ورى القوم ، فذلك قوله تعالى (قدروها تقديرا) وقال تعالى (ويسقون فيها كأسا) يعنى خمرا ، وكل إناء لاخمر فيه فليس هو بكأس ، وقال تعالى (كان مزاجها زنجبيلا) يعنى كلها قد مزج فيها الزنجبيل ، ثم قال عز وجل (عينا فيها تسمى سلسبيلا) يسيل عليهم من جنة عدن ، فتمرّ على كل جنة ثم ترجع تعم الجنة كلها ، قال تعالى (ويطوف عليهم ولدان مخلدون) فالولدان : هم الغلمان الذين لا يشيبون أبدا فهم مخلدون ، يعنى لا يحتلمون ولا يكبرون أبدا ، غلمان (إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا) فى الحسن والبياض (منثورا) فى الكثرة ، يعنى مثل اللؤلؤ المنثور الذى لا يدرى ما عدده ، ثم قال عزّ وجل (وإذا رأيت ثمّ) يعنى هنالك من الجنة (رأيت نعيما وملكا كبيرا) ، وذلك أن رجلا من أهل الجنة له قصر ، فى ذلك القصر سبعون قصرا ، فى كل قصر سبعون بيتا ، كل بيت من لؤلؤة مجوفة طولها

فى السماء فرسخ وعرضها فرسخ فى فرسخ ، عليها أربعة آلاف مصراع من ذهب ، فى ذلك البيت سرير منسوج بقضبان الدرّ والياقوت عن يمين السرير ، وعن يساره ، وأربعة آلاف كرسى من ذهب قوائمها من يا قوت أحمر ، على ذلك السرير سبعون فراشا ، كل فراش على لون ، وهو متكىء على يساره ، عليه سبعون حلة من ديباج ، الذى يلى جسده حريرة بيضاء ، وعلى جبهته إكليل مكلل بالزبرجد والياقوت وألوان الجواهر ، كل جوهرة على لون ، وعلى رأسه تاج من ذهب فيه سبعون زاوية ، فى كل زاوية درّة تساوى مال المشرق والمغرب ، وفى يده ثلاثة أسورة : سوارمن ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار من لؤلؤ ، وفى أصابع يديه ورجليه خواتم من ذهب وفضة فيه ألوان الفصوص ، وبين يديه عشرة آلاف غلام لايكبرون ولا يشيبون أبدا ، وتوضع بين يديه مائدة من ياقوتة حمراء طولها ميل فى ميل ، ويوضع على المائدة سبعون ألف إناء من ذهب وفضة ، وفى كل إناء سبعون لونا من الطعام ، فيأخذ اللقمه بيده ، فما يخطر على باله غيرها حتى تتحوّل اللقمة عن حالها إلى الحالة التى يشتهيها ، وبين يديه غلمان بأيديهم أكواب من فضة وأوان من فضة ، ومعهم الخمر والماء ، فيأكل على قدر أربعين رجلا من الألوان كلها ، فإذا شبع من لون من الطعام سقوه شربة مما يشتهى من الأشربة فيتجشى ، فيفتح الله عزّ وجل عليه ألف باب من الشهوة ، ويشرب حتى يعرق ، فإذا عرق ألقى الله عليه ألف باب من الشهوة إلى الطعام والشراب ، ويدخل عليه الطير من الأبواب كأمثال النجائب العظام ، فيقومون بين يديه صفا فينعت كل طير نفسه بصوت مطرب لذيذ ألذّ من كل غناء فى الدنيا ، يقول يا ولىّ الله كلنى فإنى كنت أرعى فى كذا وكذا فى رياض الجنة ، وأشرب من عين كذا وكذا فيجملون إليه أصواتهم ، فيرفع بصره فينظر إلى أعلاها صوتا وأجودها نعتا فيشتهيها ، فيعلم الله عزّ وجل ما قد استقرّ فى قلبه من حبه ، فيجىء ذلك الطير فيقع على المائدة بعضه قديد وبعضه شوىّ ، أشدّ بياضا من الثلج وأحلى من العسل ، فيأكل حتى إذا شبع منها واكتفى صار طيرا كما كان ، فيخرج من الباب الذى كان دخل منه ، فهو على الأرائك وزوجته مستقبلته ، يبصر وجهه فى وجهها من الصفاء والبياض ، كلما أراد أن يجامعها نظر إليها فيستحى منها أن يدعوها ، فتعلم ما يريد منها زوجها ، فتدنو إليه فتقول : بأبى وأمى ارفع رأسك وانظر إلىّ فإنك اليوم لى وأنا لك ، فيجامعها على قوّة مائة رجل من الأولين ، وعلى شهوة أربعين رجلا ؛ فلما أتاها وجدها عذراء لايغفل عنها مقدار أربعين يوما ، فإذا فرغ وجد ريح المسك منها فيزداد حبالها زوجة وفيها له أربعة آلاف وثمانمائة مثلها ، لكل زوجة سبعون خادما وجارية». وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « لو أن جارية أو خادما أخرجت إلى الدنيا لاقتتل عليها أهل الدنيا كلهم حتى يتفانوا ، ولو أن الحور العين أخرجت ذوائبها فى الأرض لأطفأت نور الشمس من نورها ، قيل يا رسول الله ، وكم بين الخادم والمخدوم قال : والذى نفسى بيده ، إن بين الخادم والمخدوم كالكوكب المظلم إلى جنب القمر فى النصف ، قال : فبينا هو جالس على سريره إذ بعث الله عزّ وجل إليه

ملكا معه سبعون حلة ، كل حلة على لون ، قد غابت بين أصبعى الملك ومعه التسليم والرضا ، فيجىء حتى يقوم على بابه فيقول لحاجبه : ائذن لى على ولىّ الله فإنى رسوله ربّ العالمين إليه ، فيقول الحاجب : والله ما أملك منه المناجاة ، ولكن سأذكرك إلى من يلينى من الحجبة ، فلا يزالون يذكر أمره بعضهم إلى بعض حتى يأتيه الخبر بعد سبعين باباً ، فيقول : يا ولىّ الله إن رسول ربّ العزّة على الباب ، فيأذن له بالدخول عليه ، فيدخل الملك فيقول : السلام عليك يا ولىّ الله إن ربّ العزّة عزّ وجل يقرئك السلام وهو عنك راض فلولا أن الله عزّ وجل لم يقض عليه الموت لمات من الفرح ، فذلك قوله عزّ وجل (ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم) وذلك قوله تعالى (إذا رأيت) يعنى يا محمد (ثم رأيت نعيما) يعنى هنالك النعيم الذى هو فيه (وملكا كبيرا) حين لايدخل عليه رسول الله ربّ العالمين إلا بإذن ، ثم قال جلّ وعلا (عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق) يعنى الديباج ، وإنما قال عاليهم لأن الذى يلى جسده حريرة بيضاء،ثم قال (وحلوا أساور من فضة) وفى آية أخرى (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا) فهى ثلاث أسورة ، ثم قال عزّ وجل (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) وذلك أن على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عينان ، فإذا جاز الرجل الصراط إلى العينين يدخل فى عين منها فيغسل فيها ، وريحه أطيب من المسك ، طوله سبعون ذراعا فى السماء على طول آدم عليه السلام ، فأهل الجنة كلهم رجالهم ونساؤهم على قدر واحد فى ميلاد عيسى عليه السلام أبناء ثلاث وثلاثين سنة ، يكبر الصغير حتى يصير ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وينحطّ الشيخ عن حاله إلى ثلاث وثلاثين سنة ، كلهم رجالهم ونساؤهم على قدر واحد فى حسن يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، ويشرب من العين الأخرى ، فينقى ما فى صدره من غلّ أوهمّ أو حسد أو حزن ، فيظهر الله عزّ وجل قلبه بذلك الماء ، فيخرج وقلبه على قلب أيوب ، ولسانه على لسان محمد صلى الله عليهما وسلم عربى ؛ ثم ينطلقون حتى يأتوا الباب ، فتقول لهم الخزنة : طبتم ، فيقولون نعم، فيقولون : ادخلوها خالدين ، يبشرونهم بالخلود قبل الدخول بأنهم لا يخرجون أبدا ، فأول ما يدخل من باب الجنة ومعه الملكان اللذان كانا معه فى دار الدنيا الكرام الكاتبين ، فإذا هو بملك معه نجيبة من ياقوتة خضراء كأنّ زمامها من ياقوتة حمراء ، وعليها راحلة مقدمها ومؤخرها درّ وياقوت ، وصحفتاها الذهب والفضة ، ومعه سبعون حلة ، فيلبسها ويضع على رأسه التاج ، ومعه عشرة آلاف غلام كاللؤلؤ المكنون . فيقول : يا ولىّ الله اركب فإن هذا لك ، ولك مثلها ، فيركبها ولها جناحان خطوها منتهى البصر ، فيسير على نجيبة وبين يديه عشرة آلاف غلام ، ومعه الملكان اللذان كانا معه فى الدنيا حتى يأتى إلى قصوره ، فينزلها ، ثم قال عزّ وجل : إنّ هذا لذى وصفت لكم فى هذه الصورة السورة كان لكم جزاء لأعمالكم من حسن الثواب (وكان سعيكم) أى عملكم (مشكورا) يعنى شكر الله عز وجل أعمالكم ، فأثابكم الجنة » .

مجلس : فى فضائل شهر رجب

قال الله عز وَجل (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم) سبب نزول هذه الآية أن المؤمنين ساروا من المدينة إلى أهل مكة قبل أن يفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إنا نخاف أن يقاتلنا كفار مكة فى شهر حرام ، فأنزل الله تعالى (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله) يعنى فى اللوح المحفوظ (يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم) يعنى رجب ، وذا القعدة ، وذا الحجة ، والمحرّم واحد فرد ، وهو رجب وثلاثة سرد متتابعة (ذلك الدين القيم) يعنى الحساب القيم المستقيم (فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم) يعنى فى الأشهر الحرم خص الله تعالى بالنهى هذه الأربعة الأشهر ليبين لنا تميزها لعظم حرمتها وتأكيد أمرها بالنهى عن الظلم فيها على غيرها من الشهور ، وإن كان الظلم منهيا عنه فى سائر الشهور ، كما قال الله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) أمر بالمحافظة على الصلاة الوسطى وهى العصر ، وإن كان الأمر شاملا فى المحافظة لجميع الصلاة ، وإنما أفرد الوسطى بالصلاة بالذكر لما ذكرنا من الاختصاص والتميز فى الحرمة والتأكيد يعنى بالظلم لا تقتلوا فيهن أحدا من مشركى العرب إلا أن يبدءوكم بالقتل؛ وقال أبو يزيد رحمه الله الظلم : هو الترك لطاعة الله تعالى والعمل بمعاصى الله عزّ وجل . وقال غيره : هو وضع الشىء فى غير موضعه ، وهو راجع إلى ذلك ، ثم قال تعالى (وقاتلوا المشركين) يعنى كفار مكة (كافة) جميعا (كما يقاتلونكم كافة) يعنى إن قاتلوكم فى الشهر الحرام فقاتلوهم جميعا (واعلموا أن الله) فى النصر (مع المتقين) . واختلف أهل التفسير فى الدين القيم ، فقال مقاتل رحمه الله : الدين القيم : هو الدين الحق . وقال آخرون : هو الدين الصادق ، وهو دين الإسلام . وقال آخرون : هو دين الحنيفية . وقال آخرون : الدين القيم : هو الذى أمر الله به المسلمين .

(فصل) ورجب : هو اسم من الأسماء المشتقة ، واشتقاقه من الترجيب ؛ والترجيب : هو التعظيم عند العرب ، يقال : رجبتُ هذا الشهر : إذا عظمته . ومن ذلك قول الحباب بن المنذر بن الجموح يوم سقيفة بنى ساعدة ، يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واختلف المهاجرون والأنصار فى أمير ينصبونه ، فقالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، القصة المشهورة ، فغضب الحباب ، فسلّ سيفه وقال : أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب : أى أنا العظيم فى قومى ، المطاع فيهم . والعذيق : تصغير عذق ، وهو النخلة الكريمة على أهلها ، كانوا يعمدونها إذا مالت لئلا تسقط ، والرجبة : البناء الذى يكون حول النخلة . وقوله : جذيلها المحكك : جذيل : تصغير جذل ، وهو الجذع والنخلة التى تحتكّ بها الإبل الجرباء . وقيل : الجذل عود ينصب فى معاطن الإبل يحتكّ بالفصال . وقال أبو زيد ، عن يحيى بن زياد الفرّاء : إنما سمى رجب لأنهم كانوا يرجبون الأعذاق فى هذا الشهر على النخل ، ويشدونها

بالخوص إلى السعف لئلا تنفضها الرياح ، يقال منه : رجبت النخلة ترجيبا : إذا فعلت بها ذلك . وقال آخرون : الترجيب : أن يوضع الشوك على الأعذاق حفظا لها من تناول أيدى المستطعمين والتحرّز من تناثر التمر على الأرض . وقال آخرون : الترجيب : أن تدعم النخلة إذا مالت بدعامة لئلا تسقط وتخرّ . وقال آخرون : هو مأخوذ من قول العرب : رجبت الشيء : أى رهبته رهبة . وقال آخرون : الترجيب : التأهب والاستعداد ، لقول النبىّ صلى الله عليه وسلم « إنه ليرجب فيه خير كثير لشعبان » . وقال آخرون : الترجيب : تكرّر ذكر الله تعالى وتعظيمه ، لأن الملائكة يرجبون أصواتهم فيه بالتسبيح والتحميد والتقديس لله عزّ وجلّ ، ويقال : شهر رجم بالميم أيضا ، فيكون معناه : ترجم فيه الشياطين حتى لا يؤذوا فيه المؤمنين . فرجب ثلاثة أحرف ، راء وجيم وباء ؛ فالراء : رحمة الله عزّ وجلّ ، والجيم : جود الله تعالى ، والباء : برّ الله عزّ وجلّ ؛ فمن أوّل هذا الشهر إلى آخره من الله عزّ وجلّ ثلاث عطايا للعباد رحمة الله بلا عذاب ، وجود بلا بخل ، وبرّ بلا جفاء .

(فصل) ولرجب أسماء أخر : منها أنه سمى رجب مضر ، ومنصل الأسنة ، وشهر الله الأصمّ ، وشهر الله الأصبّ ، والشهر المطهر ، والشهر السابق ، والشهر الفرد . وأما قولهم رجب مضر ، فقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال فى بعض خطبه « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ، وواحد فرد وهو رجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » وإنما عرف موضعه بقوله : بين جمادى وشعبان ، إبطالا للنسيء الذى كانت العرب تفعله فى الجاهلية ، وهو قوله عزّ وجل (إنما النسيء زيادة فى الكفر ، يضلّ به الذين كفروا) وذلك أن العرب فى الجاهلية كانت إذا أرادت الصدر من منى قام رجل من بنى كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة ، وكان رئيس القوم ، فيقول : أنا الذى أجاب ولا أعاب ولا يردّ لى قضاء ، فيقولون له : صدقت ، أنسئنا شهرا ، يريدون أخّر عنا حرمة المحرّم واجعلها فى صفر ، وأحلّ لنا المحرّم ، وإنما دعاهم إلى ذلك لئلا تتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يغيرون فيها ، وقد كان معاشهم من الإغارة ، فيفعل ذلك عاما ، ثم يرجع إلى تحريم المحرّم ، وإباحة صفر ، فذلك الإنساء . ومنه قيل : نسأ الله فى أجله ، وأنسأ الله أجله ، فوصف النبىّ صلى الله عليه وسلم رجب بصفتين وقيده بنعتين : أحدهما قوله « رجب مضر » ، لأن مضر كانت تبالغ فى تعظيمه وتكبيره وتحريمه . الثانى أنه قيده بقوله بين جمادى وشعبان خوفا من التقديم والتأخير ، كما جرى فى تحريم المحرّم إلى صفر ، فخصّ الشهر وقيده ، وأبد تحريمه وأكده . وقيل : إنما سمى رجب مضر ، لأن بعض الكفار دعا على قبيلة من القبائل فيه فأهلكهم الله عزّ وجلّ . وقيل : إن الدعاء فيه مستجاب على الظلّمة ، وكل جائر ، ولهذا كانت الجاهلية يؤخرون دعواتهم على من ظلمهم ، فيدعون عليه فى رجب فلا يردّ خائبا : وأما منصل الأسنة ، فلأنهم كانوا ينزعون الأسنة فيه عن الرماح ، ويغمدون سيوفهم وسهامهم تهيئا له وتعظيما ، فسمى بذلك .

منصل الأسنة . ويقال : نصلت السهم : إذا جعلت له نصلا ، وأنصلته : إذا نزعت عنه نصله .
وأما شهر الله الأصمّ ، فلما روى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه لما استهلّ رجب رقى المنبر يوم الجمعة وخطب ثم قال : ألا إن هذا شهر الله الأصمّ ، وهو شهر زكاتكم ، فمن كان عليه دين فليؤدّ دينه ، ثم ليزكِّ ما بقى . قال ابن الأنبارى : أما قوله الأصمّ ، فانما سمى بذلك لأن العرب كانت تظلّ تحارب بعضها بعضا ، فاذا أهلّ رجب وضعوا السلاح ونزعوا الأسنة ، فلا تسمع فيه قعقعة السلاح ، ولا صلصلة الرماح ، وكان الرجل إذا ركب فى طلب قاتل أبيه فاذا رآه فى رجب لم يتعرّض له ، كأنه لم يره ولم يسمع له خبرا ، فسمى أصمّ لذلك . وقيل : سمى أصمّ لأنه لم يسمع فيه غضب الله تعالى على قوم قطّ ، لأن الله تعالى عذّب الأمم الماضية فى سائر الشهور ، ولم يعذّب أمة من الأمم فى هذا الشهر ، وفى هذا الشهر حمل الله نوحا فى السفينة ، فجرت به ومن معه فى السفينة ستة أشهر . قال إبراهيم النخعى : إن رجب شهر الله تعالى ، فيه حمل الله نوحا فى السفينة ، فصامه نوح عليه السلام وأمر بصيامه من كان معه ، فأمّنه الله تعالى ، ومن كان معه من الطوفان ، وطهر الأرض من الشرك والعدوان ، ورفع ذلك غيره إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وهو ما أخبرنا به هبة الله باسناده عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « ألا إن رجب من الأشهر الحرم ، وفيه حمل الله نوحا فى السفينة ، فصامه نوح فى السفينة ، وأمر من كان معه بصيامه ، فأنجاهم الله تعالى وأمنهم من الغرق ، وطهر الله الأرض من الكفر والطغيان بالطوفان . وقيل : إنه سمى أصمّ لأنه أصمّ عن جفائك وزلتك وسميع بفضلك يا مؤمن وشرفك ، فجعله الله تعالى أصمّ من جفائك وزلتك ، لئلا يشهد عليك بها يوم القيامة ، بل يكون شهيدا لك لما سمع من فضلك وإحسان العمل فيه . وأما الأصبّ فمعناه : أنه تصبّ الرحمة فيه صبا على العباد ، ويعطيهم الله تعالى من الكرامات والمثوبات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ من ذلك ما أخبرنا الشيخ الإمام هبة الله بن المبارك السقطى رحمه الله باسناده عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن عدة الشهور عند الله تعالى اثنا عشر شهرا ، فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، فرجب يقال له شهر الله الأصمّ ، وثلاث أخر متواليات ، يعنى ذا القعدة وذا الحجة والمحرّم ، إلا أن رجب شهر الله ، وشعبان شهرى ، ورمضان شهر أمتى ، فمن صام من رجب يوما إيمانا واحتسابا استوجب رضوان الله الأكبر ، وأسكن الفردوس الأعلى ، ومن صام منه يومين فله من الأجر ضعفان ، ووزن كل ضعف مثل جبال الدنيا ؛ ومن صام من رجب ثلاثة أيام جعل الله بينه وبين النار خندقا طوله مسيرة سنة ، ومن صام من رجب أربعة أيام عوفى من البلايا من الجنون والجذام والبرص ومن فتنة المسيخ الدجال ، ومن صام منه خمسة أيام وقى من عذاب القبر ، ومن صام منه ستة أيام خرج من قبره ووجهه أضوأ من القمر فى ليلة البدر ، ومن صام منه سبعة أيام فان لجهنم سبعة أبواب ، يغلق الله عنه بصوم كلّ يوم من أيامه بابا ،

من أبوابها ، ومن صام منه ثمانية أيام فإن للجنة ثمانية أبواب ، يفتح الله له بصوم كلّ يوم بابا من أبوابها ، ومن صام منه تسعة أيام خرج من قبره وهو ينادى : أشهد أن لا إله إلا الله ولا يردّ وجهه دون الجنة ، ومن صام منه عشرة أيام ، جعل الله تعالى له على كلّ ليل من الصراط فراشا يستريح عليه ، ومن صام منه إحدى عشر يوما لم ير فى القيامة أفضل منه ، إلا من صام مثله أو زاد عليه ، ومن صام من رجب اثنى عشر يوما كساه الله تعالى يوم القيامة حلتين ، الحلة الواحدة خير من الدنيا وما فيها ، ومن صام من رجب ثلاثة عشر يوما يوضع له يوم القيامة مائدة فى ظلّ العرش فيأكل منها والناس فى شدة شديدة ، ومن صام من رجب أربعة عشر يوما أعطاه الله عزّ وجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ومن صام منه خمسة عشر يوما يوقفه الله تعالى يوم القيامة موقف الآمنين ، ولا يمرّ به ملك مقرّب ولا نبىّ مرسل إلا قال له : طوبى لك إنك من الآمنين ، وفى لفظ آخر زيادة على خمسة عشر ، وهى من صام منه ستة عشر يوما كان فى أوائل من يزور الرحمن وينظر إليه ويسمع كلامه ، ومن صام منه سبعة عشر يوما ينصب الله له على كل ميل من الصراط مستراحا يستريح عليه ، ومن صام منه ثمانية عشر يوما زاحم إبراهيم عليه السلام فى قبته ، ومن صام منه تسعة عشر يوما بنى الله له قصرا فى الجنة تجاه قصر إبراهيم وآدم عليهما السلام ، ويسلم عليهما ويسلمان عليه ، ومن صام منه عشرين يوما ، نادى مناد من السماء : يا عبد الله أما ما قد مضى فقد غفره الله لك ، فاستأنف العمل فيما بقى . وأما المطهر فلأنه يطهر صائمه من الذنوب والخطيئات ، فمن ذلك ما أخبرنا به الشيخ الإمام هبة الله بن المبارك السقطى رحمه الله عن الحسن بن أحمد بن عبد الله المقرى بإسناده عن هارون بن عنترة ، عن أبيه ، عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن شهر رجب شهر عظيم من صام منه يوما كتب الله تعالى له صوم ألف سنة ، ومن صام منه يومين كتب الله تعالى له صوم ألفى سنة ، ومن صام منه ثلاثة أيام كتب الله تعالى له صوم ثلاثة آلاف سنة ، ومن صام منه سبعة أيام أغلقت عنه أبواب جهنم ، ومن صام منه ثمانية أيام فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء ، ومن صام منه خمسة عشر يوما بدلت سيئاته حسنات ، ونادى مناد من السماء : قد غفر لك ، فاستأنف العمل ، ومن زاد زاده الله تعالى » وأخبرنا الشيخ الإمام هبة الله بن المبارك بإسناده عن يونس ، عن الحسن رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام يوما من رجب عدل له بصيام ثلاثين سنة » وأخبرنا الشيخ الإمام هبة الله ، عن الحسن بن أحمد بن عبد الله المقرى بإسناده ، عن العلاء بن كثير ، عن مكحول رحمه الله قال : إن رجلا سأل أبا الدرداء رضى الله عنه عن صيام رجب ، فقال له : سألت عن شهر كانت الجاهلية تعظمه فى جاهليتها ، وما زاده الإسلام إلا فضلا وتعظيما ، ومن صام منه يوما تطوّعا يحتسب به ثواب الله تعالى ، ويبتغى به وجهه مخلصا ، أطفأ صومه ذلك اليوم غضب الله تعالى ، وأغلق عنه بابا من أبواب النار ، ولو أعطى ملء الأرض ذهبا ما كان جزاء له ، ولا يستكمل أجر شىء من الدنيا دون يوم الحساب ،

وله إذا أمسى عشر دعوات مستجابات ، فان دعا به لشيء من عاجل الدنيا أعطاه ، وإلا ادّخر له من الخير كأفضل ما دعا به داع من أولياء الله تعالى وأصفيائه الصادقين ، ومن صام يومين كان له مثل ذلك ، وله مع ذلك أجر عشرة من الصدّيقين فى عمرهم ، بالغة أعمارهم مابلغت ، ويشفع فى مثل ما يشفعون فيه ، ويكون فى زمرتهم حتى يدخل الجنة معهم ، ويكون من رفقائهم . ومن صام ثلاثة أيام ، كان له مثل ذلك ، وقال الله تعالى عند إفطاره : لقد وجب حقّ عبدى هذا وجبت له محبتى وولايتى ، أشهدكم ياملائكتى أنى قد غفرت له من ذنبه ما تقدم وما تأخر . ومن صام أربعة أيام كان له مثل ذلك ، وثواب أولى الألباب التوّابين ، ويعطى كتابه فى أوائل الفائزين . ومن صام خمسة أيام كان له مثل ذلك ، ويبعث يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر ، ويكتب له عدد رمل عالج حسنات ، ويدخل الجنة ، ويقال له تمنّ على الله ماشئت . ومن صام ستة أيام كان له مثل ذلك ، ويعطى سوى ذلك نورا يستضيء به أهل الجمع فى القيامة ، ويبعث فى الآمنين حتى يمرّ على الصراط بغير حساب ، ويعافى من عقوق الوالدين وقطيعة الرحم ، ويقبل الله عليه بوجهه إذا لقيه يوم القيامة . ومن صام سبعة أيام كان له مثل ذلك ، ويغلق عنه سبعة أبواب النار ، ويحرّمه الله على النار ، ويوجب له الجنة يتبوأ منها حيث يشاء . ومن صام ثمانية أيام كان له مثل ذلك ، وفتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخلها من أىّ باب شاء . ومن صام تسعة أيام كان له مثل ذلك ، ويرفع كتابه فى عليين ، ويبعث يوم القيامة فى الآمنين ، ويخرج من قبره ووجهه نور يتلألأ ، ويشرق لأهل الجمع حتى يقولوا هذا نبيّ مصطفى ، وإن أدنى ما يعطى أن يدخل الجنة بغير حساب . ومن صام عشرة أيام فبخ فبخ له ، فيعطى مثل ذلك وعشرة أضعافه ، وهو ممن يبدّل الله سيئاته حسنات ، ويكون من المقرّبين القوّامين لله بالقسط ، وكان كمن عبد الله ألف عام صائما قائما صابرا محتسبا ، ومن صام عشرين يوما كان له مثل ذلك وعشرون ضعفا ، وهو ممن يزاحم إبراهيم خليل الله عليه السلام فى قبته ، ويشفع فى مثل ربيعة ومضر ، كلهم من أهل الخطايا وأهل الذنوب . ومن صام ثلاثين يوما كان له مثل ذلك وثلاثون ضعفا ، وينادي مناد من السماء : يا ولىّ الله أبشر بالكرامة العظمى ، قال : وما الكرامة العظمى؟ قال : النظر إلى وجه الله تعالى الجميل ، ومرافقة النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، طوبى لك غدا إذا كشف الغطاء ، وأفضيت إلى جسيم ثواب ربك الكريم ، فإذا نزل به ملك الموت سقاه الله تعالى عند خروج نفسه شربة من حياض الفردوس ، ويهوّن عليه سكرات الموت حتى ما يجد ألم الموت ، ويظلّ فى قبره ريان ، ويظلّ فى الموقف ريان حتى يرد حوض النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإذا خرج من قبره شيعه سبعون ألف ملك ، معهم النجائب من الدرّ والياقوت ، ومعهم طرائف الحلىّ والحلل ، فيقولون له : يا ولىّ الله ، النجاء النجاء إلى ربك عزّ وجلّ الذى أظمأت له نهارك ، وأنحلت له جسمك ، فهو من أوّل الناس دخولاً جنات عدن يوم القيامة مع الفائزين ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك هو الفوز العظيم . قال : وإن كان له

فى كل يوم يصومه صدقة على زنة قوته ، تصدّق بها ، فهيهات هيهات هيهات ثلاثا ، لواجتمع جميع الخلائق على أن يُقدِروا قدر ما أعطى ذلك العبد من الثواب مابلغوا معشارالعشر مما أعطى الله ذلك العبد من الثواب . وعن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أنه قال : من فرّج عن مؤمن كربة فى شهر رجب ، وهو شهر الله الأصمّ ، أعطاه الله تعالى فى الفردوس قصرا مدّ بصره ألا فأكرموا رجب يكرمكم الله عزّ وجل بألف كرامة . قال عقبة بن سلامة بن قيس يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال «من تصدّق فى رجب باعده الله تعالى من النار كمقدارغراب طار فرخا من وكره ، وهو فى الهواء حتى مات هرما » ، وقيل الغراب يعيش خمسمائة عام . وأما السابق فلأنه أوّل الأشهر الحرم . وأما الفرد فلأنه مفرد عن إخوانه ، كما روى ثور بن يزيد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فى خطبته « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ، وواحد فرد : رجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » .

(فصل آخر) وعن عكرمة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « رجب شهر الله ، وشعبان شهرى ، ورمضان شهر أمتى » . وعن موسى بن عمران [1] قال : سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فى الجنة نهرا يقال له رجب ، أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، من صام يوما من رجب سقاه الله من ذلك النهر » . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : إن فى الجنة قصرا لايدخله إلا صوّام رجب . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : لم يصم رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرا بعد رمضان إلا رجب وشعبان . وعن أنس رضى الله عنه أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام ثلاثة أيام من الشهر الحرام : الخميس والجمعة والسبت ، كتب الله له عبادة تسعمائة سنة » . وقيل رجب : لترك الجفاء ، وشعبان للعمل والوفاء ، ورمضان للصدق والصفاء . رجب شهر التوبة ، شعبان شهر المحبة ، رمضان شهر القربة . رجب شهر الحرمة ، شعبان شهر الخدمة ، رمضان شهر النعمة . رجب شهر العبادة ، شعبان شهر الزهادة ، رمضان شهر الزيادة . رجب شهر يضاعف الله فيه الحسنات ، شعبان شهر تكفر فيه السيئات ، رمضان شهر تنتظر فيه الكرامات . رجب شهر السابقين ، شعبان شهر المقتصدين ، رمضان شهر العاصين . وقال ذو النون المصرى رحمه الله : رجب لترك الآفات ، وشعبان لاستعمال الطاعات ، ورمضان لانتظار الكرامات ، فمن لم يترك الآفات ولم يستعمل الطاعات ولم ينتظر الكرامات فهو من أهل الترّهات . وقال أيضا رحمه الله : رجب شهر الزرع ، وشعبان شهر السقى ، ورمضان شهر الحصاد ، وكل يحصد مازرع ، ويُجزَى ماصنع ، ومن ضيع الزراعة ندم يوم حصاده ، وأخلف ظنه مع سوء معاده . وقال بعض الصالحين : السنة شجرة ، رجب أيام إيراقها ، وشعبان أيام إثمارها ، ورمضان أيام قطافها . وقيل : خصّ رجب بالمغفرة من الله تعالى ، وشعبان بالشفاعة ، ورمضان بتضعيف الحسنات وليلة القدر بإنزال الرحمة ،

(١) لم يسبق ذكر لرواية بهذه الكيفية (عن موسى بن عمران عن أنس) فلينظر . اهـ . مصححه .

ويوم عرفة بإكمال الدين ، كما قال الله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) ، ويوم الجمعة باجابة أدعية الداعين ، ويوم العيد بالعتق من النار ، وفكاك رقاب المؤمنين . قال المازنى ، عن الحسين بن علىّ رضى الله عنهما أنه قال : صوموا رجب فإن صوم رجب توبة من الله عزّ وجل . وروى عن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من صام يوما من رجب ، فكأنما صام ألف سنة ، وكأنما أعتق ألف رقبة ؛ ومن تصدّق فيه بصدقة ، فكأنما تصدّق بألف دينار ، وكتب الله له بكل شعرة على بدنه ألف حسنة ، ورفعه ألف درجة ، ومحا عنه ألف سيئة ، وكتب له بكل يوم يصومه وبكلّ صدقة يتصدّق بها ألف حجة وألف عمرة ، وبنى له فى الجنة ألف دار وألف قصر وألف حجرة ، وفى كل حجرة ألف مقصورة ، وفى كل مقصورة ألف حوراء أحسن من الشمس ألف مرّة» .

(فصل: فى فضل صيام أوّل يوم من رجب ، وقيام أوّل ليلة منه) أخبرنا الإمام الشيخ هبة الله السقطىّ رحمه الله بإسناده عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل رجب ، قال : اللهمّ بارك لنا فى رجب وشعبان وبلغنا رمضان » . وأخبرنا الشيخ الإمام هبة الله بإسناده عن ميمون بن مهران بإسناده عن أبى ذرّ رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صام أوّل يوم من رجب عدل صيام شهر ، ومن صام سبعة أيام غلقت عنه أبواب جهنم السبعة ، ومن صام ثمانية أيام فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، ومن صام منه عشرة أيام ، بدّل الله سيئاته حسنات ، ومن صام منه ثمانية عشر يوما نادى مناد من السماء : قد غفرلك فاستأنف العمل» . وأخبرنا الشيخ الإمام هبة الله بإسناده عن سلامة بن قيس يرفعه إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم « من صام أوّل يوم من رجب كفر الله عنه ذنوب ستين سنة ، ومن صام خمسة عشر يوما حاسبه الله حسابا يسيرا ، ومن صام ثلاثين يوما من رجب كتب الله تعالى له رضوانه ولم يعذّبه» . وروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كتب إلى الحجاج بن أرطاة وهو على البصرة . وقيل : إلى عدىّ بن أرطاة : عليك بأربع ليال فى السنة ، فإن الله تعالى يفرغ فيهنّ الرحمة إفراغا ، وهى أوّل ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة السابع والعشرين من رمضان ، وليلة الفطر . وعن خالد بن معدان رحمه الله أنه قال : خمس ليال فى السنة من واظب عليهنّ رجاء ثوابهنّ ، وتصديقا بوعدهنّ ، أدخله الله تعالى الجنة : أول ليلة من رجب يقوم ليلها ويصوم نهارها ، وليلتى العيدين يقوم ليلهما ويفطر نهارهما وليلة النصف من شعبان يقوم ليلها ويصوم نهارها ، وليلة عاشوراء يقوم ليلها ويصوم نهارها .

(فصل) وقد جمع بعض العلماء رحمهم الله الليالى التى يستحب إحياؤها فقال : إنها أربع عشرة ليلة فى السنة ، وهى أول ليلة من شهر المحرم ، وليلة عاشوراء ، وأول ليلة من شهر رجب ، وليلة النصف منه ، وليلة سبع وعشرين منه وليلة النصف من شعبان ، وليلة عرفة ، وليلتا العيدين ، وخمس ليال منها فى شهر رمضان وهن وتر ليالى العشر الأواخر ؛ وكذلك يستحبّ مواصلة سبعة عشر يوما بالأوراد والمواظبة على العبادة فيها . وهى : يوم عرفة ، ويوم عاشوراء ويوم

النصف من شعبان ، ويوم الجمعة ، ويوما العيدين ، والأيام المعلومات وهى عشر ذى الحجة والأيام المعدودات وهى أيام التشريق، وآكدها يوم الجمعة وشهر رمضان ، لما روى أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام ، وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة » ثم آكد الأيام وأفضلها بعد ذلك يوم الاثنين والخميس ، هما يومان ترفع فيهما الأعمال إلى الله عز وجل .

(فصل : فى الأدعية المأثورة فى أول ليلة من رجب) ويستحب أن يدعو فى أول ليلة من رجب إذا فرغ من صلاته بهذا الدعاء وهو أن يقول : إلهى تعرّض لك فى هذه الليلة المتعرّضون وقصدك القاصدون ، وأمّل فضلك ومعروفك الطالبون ، ولك فى هذه الليلة نفحات وجوائز وعطايا ومواهب ، تمنّ بها على من تشاء من عبادك ، وتمنعها ممن لم تسبق له العناية منك ، وها أنا عبدك الفقير إليك ، المؤمل فضلك ومعروفك ، فإن كنت يا مولاى تفضلت فى هذه الليلة على أحد من خلقك وجُدت عليه بعائدة من عطفك ، فصل على محمد وآله ، وجد علىّ بطولك ومعروفك يا ربّ العالمين . وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يفرغ نفسه للعبادة فى أربع ليال فى السنة وهى : أول ليلة من رجب ، وليلة الفطر ، وليلة الأضحى ، وليلة النصف من شعبان ؛ وكان من دعائه فيها : اللهمّ صل على محمد وآله مصابيح الحكمة وموالى النعمة ومعادن العصمة ، واعصمنى بهم من كل سوء ، ولا تأخذنى على غرّة ولا على غفلة ، ولا تجعل عواقب أمرى حسرة وندامة ، وارض عنى ، فإن مغفرتك للظالمين وأنا من الظالمين ؛ اللهمّ اغفرلى ما لايضرّك ، وأعطنى ما لاينفعك ، فإنك الواسعة رحمته ، البديعة حكمته ، فأعطنى السعة والدعة والأمن والصحة والشكر والمعافاة والتقوى ، وأفرغ الصبر والصدق علىّ وعلى أوليائك ، وأعطنى اليسر ولاتجعل معه العسر ، واعمم بذلك أهلى وولدى وإخوانى فيك ، ومن ولدنى من المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات .

(فصل : فى الصلاة الواردة فى شهر رجب) أخبرنا الشيخ الإمام هبة الله بن المبارك السقطى حدثنا محمد بن أحمد المحاملى ، حدثنا على بن محمد بن إسماعيل بن محمد الصفار ، أخبرنا سعيد ابن نضر بن المنصور البزار ، أخبرنا سفيان بن عيينة عن الأعمش عن طارق بن شهاب عن سلمان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال وقد استهلّ رجب « يا سلمان ما من مؤ من ولا مؤمنة يصلى فى هذا الشهر ثلاثين ركعة يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثلاث مرات وقل يا أيها الكافرون ثلاث مرات ، إلا محا الله عنه ذنوبه ، وأعطى من الأجر كمن صام الشهر كله ، وكان من المصلين إلى السنة المقبلة ، ورفع له كل يوم عمل شهيد من شهداء بدر ، وكتب له بصيام كل يوم عبادة سنة ، ورفع له ألف درجة ، فإن صام الشهر كله وصلى هذه الصلاة أنجاه الله من النار وأوجب له الجنة ، وكان فى جوار الله سبحانه ، أخبرنى بذلك جبريل عليه السلام وقال : يا محمد هذه علامة بينكم وبين المشركين والمنافقين ، لأن المنافقين لايصلون ذلك ؛ قال سلمان رضى الله عنه : قلت يا رسول، أخبرنى كيف أصليها ومتى أصليها ،

قال : ياسلمان تصلى فى أوله عشر ركعات تقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرّة واحدة ، وقل هو الله أحد ثلاث مرات ، وقل يا أيها الكافرون ثلاث مرات ، فإذا سلمت رفعت يديك وقلت : لا إله إلاالله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لايموت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير . اللهم لامانع لما أعطيت ، ولامعطى لما منعت ، ولاينفع ذا الجدّ منك الجدّ ، ثم امسح بهما وجهك ؛ وصلّ فى وسط الشهر عشر ركعات اقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرّة ، وقل هو الله أحد ثلاث مرات ، وقل يا أيها الكافرون ثلاث مرات ، فإذا سلمت فارفع يديك إلى السماء وقل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، إلها واحدا أحدا صمدا فردا وترا ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، ثم امسح بهما على وجهك ، وصلّ فى آخر الشهر عشر ركعات اقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرّة واحدة ، وقل هو الله أحد ثلاث مرات ، وقل يا أيها الكافرون ثلاث مرات ، فإذا سلمت فارفع يديك إلى السماء وقل : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين ، ولاحول ولاقوّة إلا بالله العلىّ العظيم ، وسل حاجتك يستجب لك دعاؤك ، ويجعل الله بينك وبين جهنم سبعين خندقا ، كل خندق كما بين السماء والأرض ، ويكتب لك بكل ركعة ألف ألف ركعة ، ويكتب لك براءة من النار وجوازا على الصراط » قال سلمان رضى الله عنه : فلما فرغ النبى صلى الله عليه وسلم من الحديث ، خررت ساجدا أبكى شكرا لله تعالى لما سمعت من هذه الزيادة وجدت فى كتاب العمل بالسنة والله أعلم .

(فصل : فى تأكيد الفضيلة فى صوم أول الخميس من رجب والصلاة فى أول ليلة الجمعة)

أخبرنا الشيخ أبوالبركات هبة الله السقطى ، أخبرنا القاضى أبو الفضل جعفر بن يحيى بن الكمال المكى ، أخبرنا أبو عبد الله بن الحسين بن عبد الكريم بن محمد بن محمد الجزرى بمكة فى المسجد الحرام ، أخبرنا أبو الحسن علىّ بن عبد الله بن جهضم الهمدانى ، أخبرنا أبو الحسن علىّ بن محمد ابن سعيد السغدى البصرى ، أخبرنا أبى ، قال أخبرنا خلف بن عبد الله الصغانى ، عن حميد الطويل ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رجب شهر الله ، وشعبان شهرى ، ورمضان شهر أمّتى ، قيل يا رسول الله ما معنى قولك شهر الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لأنه مخصوص بالمغفرة ، وفيه تحقن الدماء ، وفيه تاب الله تعالى على أنبيائه ، وفيه أنقذ أولياءه من يد أعدائه ، ومن صامه استوجب على الله تعالى ثلاثة أشياء : مغفرة لجميع ما سلف من ذنوبه ، وعصمة فيما بقى من عمره ، وأما الثالث فيأمن العطش يوم العرض الأكبر ، فقام شيخ ضعيف فقال : يا رسول الله إنى أعجز عن صيامه كله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صم أوّل يوم منه وأوسط يوم فيه وآخر يوم منه ، فإنك تعطى ثواب من صامه كله ، فإن الحسنة بعشر أمثالها ، ولكن لاتغفلوا عن أول ليلة جمعة فى رجب ، فإنها ليلة تسميها الملائكة ليلة الرغائب ، وذلك أنه إذا مضى ثلث الليل لا يبقى ملك فى جميع

السموات والأرضين إلا ويجتمعون فى الكعبة وحواليها ، فيطلع الله تعالى عليهم اطلاعة فيقول : ملائكتى سلونى ما شئتم ، فيقولون ربنا حاجتنا أن تغفر لصوام رجب ، فيقول الله تعالى : قد فعلت ذلك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فما من أحد يصوم يوم الخميس أول خميس فى رجب ، ثم يصلى فيما بين المغرب والعشاء العتمة يعنى ليلة الجمعة اثنتى عشرة ركعة ، يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة ، وإنا أنزلناه فى ليلة القدر ثلاث مرات ، وقل هو الله أحد اثنتى عشرة مرة ، يفصل بين كل ركعتين بتسليمة ، فإذا فرغ من صلاته صلى على سبعين مرة يقول : اللهم صل على محمد النبى الأمى وعلى آله وسلم ، ثم يسجد سجدة يقول فى سجوده : سبوح قدوس رب الملائكة والروح سبعين مرة ، ثم يرفع رأسه فيقول : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم ، فإنك أنت العزيز الأعظم سبعين مرة ؛ ثم يسجد الثانية فيقول فيها مثل ما قال فى السجدة الأولى ، ثم يسأل الله حاجته فى سجوده ، فإنها تقضى ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ما من عبد ولا أمة صلى هذه الصلاة إلا غفر الله له جميع ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وعدد الرمل ووزن الجبال ، وعدد قطر الأمطار وورق الأشجار ، وشفع يوم القيامة فى سبعمائة من أهل بيته ، فإذا كان أول ليلة فى قبره جاءه ثواب هذه الصلاة بوجه طلق ولسان ذلق ، فيقول له : ياحبيبى أبشر فقد نجوت من كل شدة ، فيقول من أنت؟ ، فوالله ما رأيت رجلا أحسن وجها من وجهك ولا سمعت كلاما أحلى من كلامك ، ولا شممت رائحة أطيب من رائحتك فيقول له : يا حبيبى أنا ثواب تلك الصلاة التى فى ليلة كذا فى شهر كذا فى سنة كذا ، جئت الليلة لأقضى حاجتك وأونس وحدتك وأدفع عنك وحشتك ، فإذا نفخ فى الصور أظللتك فى عرصات القيامة على رأسك ، فأبشر فلن تعدم الخير من مولاك أبدا » .

(فصل : فى فضل صيام يوم السابع والعشرين من رجب) أخبرنا الشيخ أبو البركات هبة الله السقطى ، قال أخبرنا الشيخ الحافظ أبو بكر أحمد بن على ثابت بن الخطيب ، قال أخبرنا عبد الله ابن على بن محمد بشير ، قال أخبرنا على بن عمر الحافظ ، أخبرنا أبو بكر نصر بن جيشون ابن موسى الخلال ، أخبرنا على بن سعيد الديلمى ، أخبرنا ضمرة بن ربيعة القرشى عن ابن شوذب عن مطر الوراق ، عن شهر بن حوشب ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من صام يوم السابع والعشرين من رجب كتب له ثواب صيام ستين شهرا » ، وهو أول يوم نزل فيه جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم بالرسالة» . وأخبرنا هبة الله بإسناده عن الحسن البصرى رحمه الله قال : « كان عبد الله بن عباس رضى الله عنهما إذا كان يوم السابع والعشرين من رجب أصبح معتكفا وظل مصليا إلى وقت الظهر ، فإذا صلى الظهر تنفل هنيهة ، ثم صلى أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة الحمد لله مرة ، والمعوذتين مرة ، وإنا أنزلناه فى ليلة القدر ثلاثا ، وقل هو الله أحد خمسين مرة ، ثم يخلد إلى الدعاء إلى وقت العصر ويقول : هكذا كان يصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا اليوم » . وأخبرنا هبة الله بإسناده عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة وسلمان الفارسى رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم « إن فى رجب يوما وليلة من صام ذلك اليوم وقام تلك الليلة كان له من الأجر كمن صام مائة سنة وقام لياليها » وهى لثلاثة يبقين من رجب ، وهو اليوم الذى بعث فيه نبينا صلى الله عليه وسلم .

(فصل : فى آداب الصيام ، وما ينهى عنه من الآثام) ينبغى للصائم أن يجرد صومه من الآثام ويتمه بتقوى الله عزّ وجل لما أخبرنا به الشيخ هبة الله ، قال أخبرنا الحسن بن أحمد بن عبد الله الفقيه الحنبلى ، قال أخبرنا محمد بن أحمد الحافظ ، قال أخبرنا الحسين بن جعفر الواعظ ، قال أخبرنا أحمد بن عيسى بن السكن ، قال أخبرنا ابن إسحاق الملقب بالحسام قال أخبرنا إسحاق بن رزين الراسنى ، قال أخبرنا إسماعيل بن يحيى ، قال أخبرنا مسعر بن كدام ، عن عطية عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رجب من الشهور الحرام وأيامه مكتوبة على باب السماء السادسة ، فإذا صام الرجل منه يوما وجرّد صومه بتقوى الله عزّ وجل نطق الباب ونطق اليوم وقالا : يا ربّ اغفر له ، وإذا لم يتمّ صومه بتقوى الله تعالى لم يستغفر له ، وقالا أو قيل له : خدعتك نفسك » وعن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصيام جنة فإذا كان أحدكم صائما فلا يجهل ، فإن امرؤ شاتمه أوقاتله فليقل إنى صائم » . وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من لم يترك قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يترك طعامه وشرابه » . وعن الحسن عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصيام جنة من النار ما لم يخرقه ، قيل وما يخرقه ؟ قال بكذبة أو بغيبة » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ليس الصيام من الأكل والشرب ، ولكن الصيام من اللغو والرفث » أخبرنا الشيخ أبو نصر محمد بن البناء ، قال أخبرنا والدى الشيخ أبو على بن أحمد بن عبد الله ابن البناء ، قال أخبرنا محمد الحافظ ، قال حدثنا عبد الله ، قال حدثنا جعفر بن محمد الحمال ، قال حدثنا سعيد بن عتبة ، قال أخبرنا بقية بن خلف ، قال حدثنا محمد بن الحجاج ، عن خاقان ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خمس يفطرن الصائم وينقضن الوضوء : الكذب ، والنميمة ، والغيبة ، والنظر بشهوة ، واليمين الكاذبة » . وأخبرنا أبونصر عن والده بإسناده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماصام من ظل يأكل لحوم الناس » . وأخبرنا أبونصر عن والده بإسناده عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما قال : من تأمل خلف امرأة من فوق ثيابها بطل صومه . وأخبرنا أبو نصر بإسناده عن سليمان بن موسى قال : قال جابر بن عبد الله رضى الله عنهما : إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك من الكذب والمحارم ، ودع أذى الجار ، وليكن عليك وقار وسكينة ، ولاتجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء . قال النبى صلى الله عليه وسلم « ربّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ، وربّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر » . وقال صلى الله عليه وسلم « اهتزّ لذلك العرش وغضب له الربّ » عنى به صلى الله عليه وسلم إذا لم يرد

بالعمل وجه الله تعالى بل أريد به الخلق . وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يقول : أنا خير شريك ، ومن أشرك معى شريكا فى عمله فهو لشريكى دونى ، إنى لا أقبل إلا ما أخلص لى ، يا ابن آدم أنا خير قسّيم ، فانظر عملك الذى عملت لغيرى ، فإنما جزاؤك على الذى عملت » .
وكان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه «اللهمّ طهر لسانى من الكذب ، وقلبى من النفاق ، وعملى من الرياء ، وبصرى من الخيانة فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » فينبغى للصائم أن يتأدّب ويحذر من الرياء ونظر الخلق وعلمهم فى صومه وجميع عباداته ، لئلا يخسر الدنيا والآخرة .
وحدثنا الشيخ أبو نصر عن والده بإسناده عن أبى فراش أنه سمع عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «صام نوح الدهر إلا يومين الفطر والأضحى وصام داود نصف الدهر ، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر ، صام الدهر وأفطر الدهر» .
وأخبرنا الشيخ أبو نصر ، عن والده بإسناده عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما « أن رجلا جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم من أهل البادية فقال : يارسول الله أخبرنى عن صومك ، فغضب النبىّ صلى الله عليه وسلم حتى احمرّت وجنتاه ؛ فلما رأى ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه أقبل على الرجل فزجره وانتهره حتى أسكته ؛ فلما سرّى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال عمر رضى الله عنه : جعلنى الله فداءك أخبرنى عن رجل يصوم الدهر كله ؟ قال لاصام ذلك ولا أفطر ، فقال : يانبىّ الله أخبرنى عن رجل يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ذلك صوم الدهر كله ، فقال يانبىّ الله أخبرنى عن رجل يصوم الاثنين والخميس ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أما الخميس فيوم ترفع فيه الأعمال ، وأما الاثنين فهو اليوم الذى ولدت فيه وأنزل علىّ فيه الوحى » .

(فصل) فإذا جاء وقت الإفطار فليقل عند إفطاره : بسم الله ، اللهمّ لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، سبحانك وبحمدك ، اللهمّ تقبل منا إنك أنت السميع العليم . وكان عبد الله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما يقول عند فطره : اللهمّ إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء أن تغفرلى . وعن أبى العالية رحمه الله قال : من قال عند إفطاره : الحمد لله الذى علا فقهر ، والحمد لله الذى نظر فخبر ، والحمد لله الذى ملك فقدر ، والحمد لله الذى يحيى الموتى ، فقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . وعن مصعب بن سعيد ، عن عبد الله بن الزبير ، عن سعيد بن مالك رضى الله عنهم قال « إن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أفطر عند أحد قال : أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة » .

(فصل) اعلم أن شهر رجب تستجاب فيه الدعوة ، وتقال فيه العثرة ، وتضاعف على من اجترم فيه العقوبة ؛ من ذلك ما أخبرنا هبة الله قال ، أخبرنا القاضى هناد بن إبراهيم النسفى ، قال أخبرنا عبد القاهر بن عمر الجزرى بها ، قال أخبرنا هبة الله ، قال أخبرنا محمد بن الفرخان قال أنبأنا أحمد بن الحسين بن سعيد الأنبارى ، قال أنبأنا محمد بن إبراهيم بن يعقوب ، قال أنبأنا إبراهيم بن فراش ، عن عمرو بن سمرة ، عن موسى بن العباس ، عن الأصبغ ، عن بناتة ،

عن الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما قال : بينما نحن فى الطواف إذ سمعنا صوتا وهو يقول :

يا من يجيب دعا المضطرّ فى الظلم يا كاشف الكرب والبلوى مع السقم
قد بات وفدك حول البيت والحرم ونحن ندعو وعين الله لم تنم
هب لى بجودك ما أخطأت من جرم يا من أشار إليه الخلق بالكـرم
إن كان عفوك لم يسبق لمجترم فمن يجود على العاصين بالنعم

قال الحسين بن علىّ رضى الله عنهما : قال لى أبى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : ياحسين أما تسمع النادب ذنبه والمعاتب ربه ، أمض فعساك تدركه وناده ؛ قال الحسين رضى الله عنه : فأسرعت حتى أدركته ، وإذا أنا برجل جميل الوجه نقىّ البدن نظيف الثياب طيب الريح ، إلا أنه قد شلّ جانبه الأيمن ، فقلت : أجب أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه ، فقال له : من أنت وما شأنك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ما شأن من أخذ بالعقوبة ومنع الحقوق ؟ قال : وما اسمك ؟ قال : منازل بن لاحق ، قال : فما قصتك ؟ قال : كنت مشهورا فى العرب باللهو والطرب ، أركض فى صبوتى ولا أفيق من غفلتى ، إن تبت لم تقبل توبتى ، وإن استقلت لم تقبل عثرتى ، أديم العصيان فى رجب وشعبان ، وكان لى والد شفيق رفيق ، يحذرنى مصارع الجهالة وشقوة المعصية يقول : يا بنىّ لله سطوات ونقمات ، فلا تتعرّض لمن يعاقب بالنار ؛ فكم قد ضجّ منك الظلام والملائكة الكرام والشهر الحرام والليالى والأيام ؛ وكان إذا ألح علىّ بالعتب ألححت عليه بالضرب ، فأبلغت إليه يوما فقال : والله لأصومن ولا أفطر ، ولأصلين ولا أنام فصام ، أسبوعا ثم ركب جملا أورق وأتى مكة يوم الحج الأكبر وقال لأفدنّ إلى بيت الله ولأستعين عليك الله ؛ قال : فقدم مكة يوم الحجّ الأكبر ، فتعلق بأستار الكعبة ودعا علىّ وقال :

يا من إليه أتى الحجاج من بعد يرجون لطف عزيز واحد صمد
هذا منازل لا يرتدّ عن عققى فخذ بحقى يا رحمن من ولدى
وشلّ منه بجود منك جانبه يا من تقدّس لم يولد ولم يلد

قال : فو الذى رفع السماء وأنبع الماء ما استتمّ كلامه حتى شلّ جانبى الأيمن ، فظللت كالخشبة الملقاة بأرجاء الحرم ، وكان الناس يغدون ويروحون علىّ ويقولون : هذا أجاب الله فيه دعوة أبيه ، فقال له رضى الله عنه : فما فعل أبوك ؟ قال : يا أمير المؤمنين سألته أن يدعو الله لى فى المواضع التى دعا علىّ فيها بعد أن رضى عنى ، فأجابنى ، فحملته على ناقة وجدت فى السير حتى وصلنا إلى واد يقال له واد الأراك ، فنفر طائر من شجرة ، فنفرت الناقة فوقع منها ومات فى الطريق ؛ فقال علىّ رضى الله عنـه : « ألا أعلمك دعوات سمعتها من رسول صلى الله عليه وسلم وقال : ما دعا بها مهموم إلا فرج الله تعالى عنه همه ، ولا مكروب إلا فرج الله تعالى عنه كربته ، فقال نعم ، فقال الحسين بن علىّ رضى الله عنهما : فعلمه الدعاء ، فدعا به وخلص من مرضه وغدا علينا صحيحا سالما ، فقلت للرجل : كيف عملت ؟ قال : لما هدأت

العيون دعوت به مرّة وثانية وثالثة، فنوديت: حسبك الله فقد دعوت الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ثم حملتنى عينى فنمت، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامى، فعرضتها عليه فقال صلى الله عليه وسلم: صدق علىّ ابن عمى، فيها اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى؛ ثم حملتنى عينى مرّة ثانية فرأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله أريد أن أسمع الدعاء منك، فقال صلى الله عليه وسلم: قل اللهمّ إنى أسألك يا عالم الخفية، ويا من السماء بقدرته مبنية، ويامن الأرض بعزّته مدحية، ويامن الشمس والقمر بنور جلاله مشرقة ومضية، ويامقبلا على كل نفس مؤمنة زكية، ويا مسكن رعب الخائفين وأهل التقية، يا من حوائج الخلق عنده مقضية، يا من نجى يوسف من رقّ العبودية، يا من ليس له بواب ينادى، ولا صاحب يغشى، ولا وزير يعطى ولاغيره، ربّ يدعى، ولايزداد على كثرة الحوائج إلا كرما وجودا، وصلى الله على محمد وآله، وأعطنى سؤالى إنك على كل شىء قدير؛ قال: فانتبهت وقد برأت». قال علىّ رضى الله عنه: تمسكوا بهذا الدعاء، فإنه كنز من كنوز العرش، وقد نقل مثل ذلك فى زمن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وغيره مما يطول شرحه.

وفى الجملة لاينبغى لذى لبّ أن يستهين بالمعاصى والمظالم ودعاء المظلوم، فقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم «الظلم ظلمات يوم القيامة». وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله ليستحين إذا بسط العبد كفيه إليه بالدعاء أن يردّهما صفرا، فإما أن يعجل له فى الدنيا، وإما أن يؤخره له فى يوم القيامة» وقد أنشد فى ذلك:

أتنسـمع بالدعاء فتزدريه ... تبين فيك ما صنع الـدعاء
سهام الليل لاتخطى ولكن ... لها أمد وللأمد انقضـاء

(مجلس: فى فضل شهر شعبان وما ينزل فى ليلة النصف من المغفرة والرضوان)

أخبرنا الشيخ أبو نصر محمد، عن والده أبى على الحسين، أخبرنا أبو الحسين علىّ بن محمد ابن عمر بن حفص جعفر المقرى بافتفاء أبى الفتح الحافظ، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعى، أخبرنا إسحاق بن الحسن، أخبرنا عبد الله بن سلمة، أخبرنا مالك بن أنس، عن أبى النضر مولى عمر بن عبد الله، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم ورضى عنها أنها قالت «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لايفطر، ويفطر حتى نقول لايصوم، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استكمل صيام شهر قط إلا شهر رمضان، وما رأيته صام فى شهر أكثر من صيامه فى شعبان». وهو حديث صحيح أخرجه البخارى عن عبد الله بن يوسف، عن مالك رحمه الله وأخبرنا أبو نصر عن محمد عن والده بإسناده عن هشام بن عروة، عن عائشة رضى الله عنها قالت «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لايفطر، ويفطر حتى نقول لايصوم، وكان أحبّ صيامه فى شعبان، فقلت: يا رسول الله ما لى أرى صيامك فى شعبان؟ فقال صلى الله عليه وسلم:

يا عائشة إنه شهر ينسخ لملك الموت فيه اسم من يقبض روحه فى بقية العام ، فأنا أحبّ أن لاينسخ اسمى إلا وأنا صائم» . وأخبرنا أبونصر عن محمد عن والده بإسناده عن عطاء بن يسار ، عن أم سلمة رضى الله عنها قالت « لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم فى شهر بعد رمضان أكثر من صيامه فى شعبان » وذلك أن كل من يموت فى تلك السنة ينسخ اسمه فى شعبان من الأحياء إلى الأموات ، وأن الرجل ليسافر وقد نسخ اسمه فيمن يموت . وحدثنا أبو نصر عن والده بإسناده عن ثابت عن أنس رضى الله عنه قال : « سئل النبىّ صلى الله عليه وسلم عن أفضل الصيام قال : صيام شعبان تعظيما لرمضان » . وأخبرنا أبو نصر عن والده بإسناده عن معاوية بن الصالح قال : إن عبيد الله بن قيس حدثه أنه سمع عائشة رضى الله عنها تقول : كان أحبّ الشهور إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبان يصله برمضان . وقال عبد الله رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام آخر يوم الاثنين من شعبان غفر له » يعنى آخر اثنين فيه ، لا آخر يوم من الشهر ، لأن استقبال الشهر باليوم واليومين فيه منهىّ عنه . وعن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما سمى شعبان لأنه ينشعب لرمضان فيه خير كثير ، وإنما سمى رمضان لأنه يرمض الذنوب » .

(فصل) قال الله تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار) فالله تعالى اختار من كل شيء أربعة ، ثم اختار من الأربعة واحدا من الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، ثم اختار منهم جبريل ، واختار من الأنبياء عليهم السلام أربعة إبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا صلى الله عليه وسلم أجمعين ، ثم اختار منهم محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ واختار من الصحابة رضى الله عنهم أربعة : أبا بكر وعمر وعثمان وعليا رضى الله عنهم ، ثم اختار منهم أبا بكر رضى الله عنه ؛ ومن المساجد أربعة : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد المدينة المشرّفة ومسجد طورسيناء ثم اختار منها المسجد الحرام . ومن الأيام أربعة : يوم الفطر ويوم الأضحى ويوم عرفة ويوم عاشوراء ، ثم اختار منها يوم عرفة ؛ ومن الليالى أربعة : ليلة البراءة وليلة القدر وليلة الجمعة وليلة العيد ، ثم اختار منها ليلة القدر . ومن البقاع أربعة : مكة ، والمدينة ، وبيت المقدس ، ومساجد العشائر ، ثم اختار منها مكة . ومن الجبال أربعة ، أحدا ، وطور سيناء ، ولكام ، ولبنان ثم اختار منها طور سيناء . ومن الأنهار أربعة : جيحون ، وسيحون ، والفرات ، والنيل ، ثم اختار منها فراتا . واختار من الشهور أربعة : رجب وشعبان ، ورمضان ، والمحرّم ، واختار منها شعبان ، وجعله شهر النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فكما أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء كذلك شهره أفضل الشهور . وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « شعبان شهرى ، ورجب شهر الله ، ورمضان شهر أمتى ؛ شعبان هو المكفر ، ورمضان هو المطهر » . وقال صلى الله عليه وسلم « شعبان شهر بين رجبُ ورمضان يغفل الناس عنه ، وفيه ترفع أعمال العباد إلى ربّ العالمين ، فأحبّ أن يرفع عملى وأنا صائم » . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « فضل رجب على

سائر الشهور كفضل القرآن على سائر الكلام ، وفضل شعبان على سائر الشهور كفضلي على سائر الأنبياء ، وفضل رمضان على سائر الشهور كفضل الله تعالى على سائر خلقه » . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : « كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا نظروا إلى هلال شعبان أكبوا على المصاحف يقرءونها ، وأخرج المسلمون زكاة أموالهم ليتقوّى بها الضعيف والمسكين على صيام شهر رمضان ، ودعا الولاة أهل السجن ، فمن كان عليه حدّ أقاموه عليه وإلا خلوا سبيله ، وانطلق التجار فقضوا ما عليهم وقبضوا مالهم ، حتى إذا نظروا إلى هلال رمضان اغتسلوا واعتكفوا . »

(فصل) شعبان خمسة أحرف ، شين وعين وباء وألف ونون ، فالشين من الشرف ، والعين من العلوّ ، والباء من البرّ ، والألف من الألفة ، والنون من النور ، فهذه العطايا من الله تعالى للعبد في هذا الشهر ، وهو شهر تفتح فيه الخيرات ، وتنزل فيه البركات ، وتترك فيه الخطيئات ، وتكفر فيه السيئات ، وتكثر فيه الصلوات على محمد صلى الله عليه وسلم خير البريات ، وهو شهر الصلاة على النبيّ المختار ، قال الله تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبيّ ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما (فالصلاة من الله الرحمة ، ومن الملائكة الشفاعة والاستغفار ، ومن المؤمنين الدعاء والثناء . وقال مجاهد رحمه الله : الصلاة من الله التوفيق والعصمة ، ومن الملائكة العون والنصرة ، ومن المؤمنين الاتباع والحرمة . وقال ابن عطاء : الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من الله تعالى الوصلة ، ومن الملائكة الرقة ، ومن المؤمنين المتابعة والمحبة . وقال غيره : صلاة الربّ تبارك وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم تعظيم الحرمة ، وصلاة الملائكة عليه صلى الله عليه وسلم إظهار الكرامة ، وصلاة الأمة عليه صلى الله عليه وسلم طلب الشفاعة . وقد قال صلى الله عليه وسلم « من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه عشرا » فينبغي لكل مؤمن لبيب أن لايغفل في هذا الشهر ، بل يتأهب فيه لاستقبال شهر رمضان بالتطهر من الذنوب والتوبة عما فات وسلف فيما مضى من الأيام ، فيتضرّع إلى الله تعالى في شهر شعبان ، ويتوسل إلى الله تعالى بصاحب الشهر محمد صلى الله عليه وسلم حتى يصلح فساد قلبه ، ويداوي مرض سرّه ، ولا يسوّف ويؤخر ذلك إلى غد ، لأن الأيام ثلاثة : أمس وهو أجل ، واليوم وهو عمل ، وغدا وهو أمل فلا تدري هل تبلغه أم لا ؛ فأمس موعظة ، واليوم غنيمة ، وغدا مخاطرة . وكذلك الشهور ثلاثة : رجب فقد مضى وذهب فلا يعود ، ورمضان وهو منتظر لا ندري هل تعيش إلى إدراكه أم لا ؟ وشعبان وهو واسطة بين شهرين فليغتنم الطاعة فيه ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه ، قيل هو عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه « اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

(فصل : في ليلة البراءة ، وما خصت به من الرحمة والكرامة والفضائل) قال الله عزّ وجل (حمٓ والكتاب المبين ، إنا أنزلناه في ليلة مباركة) قال ابن عباس رضي الله عنهما (حمٓ) يعني

تقضى الله ماهو كائن إلى يوم القيامة (والكتاب المبين) يعنى القرآن (إنا أنزلناه) يعنى القرآن (فى ليلة مباركة) هى ليلة النصف من شعبان وهى ليلة البراءة ، وقال ذلك أكثر المفسرين سوى عكرمة ، فإنه قال : هى ليلة القدر ، وقد سمى الله تعالى شيئا كثيرا فى القرآن مباركا منها سمى القرآن مباركا . قال (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) فمن بركته أن من قرأه وآمن به اهتدى ، وتخلص من النار وتمطى حتى يتعدى ذلك إلى الآباء والأبناء ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن نظرا فى المصحف خفف الله عز وجل عن أبويه العذاب وإن كانا كافرين » . ومنها أنه عز وجل سمى الماء مباركا قال (وأنزلنا من السماء ماء مباركا) فمن بركته أن حياة الأشياء به كما قال الله عز وجل (وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون) وقيل فيه عشر لطائف : الرقة ، واللين ، والقوة ، واللسان والصفاوة ، والحركة ، والرطوبة ، والبرودة ، والتواضع ، والحياة . وجعل الله تعالى هذه اللطائف فى المؤمن اللبيب : رقة القلب ، ولين الخلق ، وقوة الطاعة ، ولطافة النفس ، وصفاوة العمل ، والحركة فى الخير ، والرطوبة فى العين ، والبرودة فى المعاصى ، والتواضع عند الخلق والحياة عند استماع الحق . ومنها أنه عز وجل سمى الزيتون مباركا فى قوله تعالى (من شجرة مباركة زيتونة) وهى أول شجرة أكل منها آدم عليه السلام حين أهبط إلى الأرض ، وفيها طعام واستضاءة كما قال الله تعالى (وصبغ للآكلين) ؛ وقيل الشجرة المباركة هى إبراهيم عليه السلام . وقيل هى القرآن ، وقيل هى الإيمان ، وقيل هى نفس المؤمن المطمئنة الأمارة بالخير الممتثلة للأمر ، المنتهية للنهى ، المسلمة للقدر ، الموافقة للرب فيما قضى وسطر . ومنها أنه عز وجل سمى عيسى عليه السلام مباركا قال تعالى (وجعلنى مباركا أينما كنت) فمن بركته عليه السلام ظهور الثمرة من النخلة لأمه الصديقة مريم عليهما السلام ، ونبع الماء من تحته ، قال عز وجل (فناداها من تحتها أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا) وأبرأ الأكمه والأبرص ، وأحيا الموتى بدعوته وغير ذلك من الخيرات والمعجزات . ومنها أنه عز وجل سمى الكعبة مباركا قال عز وجل (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا) ومن بركتها أن من دخلها وعليه أثقال من الذنوب خرج مغفورا له ، قال الله تعالى (ومن دخله كان آمنا) فمن دخل البيت وهو مؤمن محتسب تائب أمنه الله عذابه وقبل توبته وغفر له . وقيل من دخله كان آمنا من أن يؤذى فى الحرم حتى يخرج منه ، ولهذا يحرم قتل صيده وقطع شجره لحرمة الكعبة ، فحرمة الكعبة لحرمة الله ، وحرمة المسجد لحرمة الكعبة ، وحرمة مكة لحرمة المسجد ، وحرمة الحرم لحرمة مكة . كما قيل : إن الكعبة قبلة لأهل المسجد ، والمسجد قبلة لأهل مكة ، ومكة قبلة لأهل الحرم ، والحرم قبلة لأهل الأرض ، وإنما سماها بكة لأن الأقدام يبك بعضها بعضا : أى يدفع ويدرأ ، وبكة ومكة واحد تبدل إحدهما بالأخرى ، ككمد وكبد ، ولازم ولازب . ومنها سمى ليلة البراءة مباركة لما فيها من نزول الرحمة والبركة والخير والعفو والغفران لأهل الأرض . ومن ذلك ما أخبرنا الشيخ أبو نصر عن والده ، قال : أخبرنا محمد ، قال : أخبرنا عبد الله بن محمد ، أخبرنا إسماعيل بن عمر

البجلي ، أخبرنا عمر بن موسى الوجهي ، عن زيد بن عليّ عن آبائه ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « ينزل الله تعالى في ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفر لكل مسلم إلا لمشرك أو مشاحن أو قاطع رحم أو امرأة تبغي في فرجها ».
وأخبرنا أبو نصر عن والده بإسناده عن يحيي بن سعيد ، عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت « لما كانت ليلة النصف من شعبان انسل النبيّ صلى الله عليه وسلم من مرطي ، ثم قالت : والله ما كان مرطي من حرير ولا قزّ ولا كتان ولا خزّ ولاصوف ، قال : قلت لها : سبحان الله فمن أي شيء كان ؟ قالت : كان سداؤه من شعر وكانت لحمته من حرير ، وحسبت نفسي أن يكون صلى الله عليه وسلم قد أتى بعض نسائه ، فقمت فالتمسته في البيت فوقعت يدى على قدميه وهو ساجد ، فحفظت من دعائه صلى الله عليه وسلم يقول : سجد لك سوادي وخيالي ، وآمن بك فؤادي ، أبوء لك بالنعم وأعترف لك بالذنب ، ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، أعوذ بعفوك من عقوبتك ، وأعوذ برحمتك من نقمتك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ؛ قالت : فما زال صلى الله عليه وسلم قائما وقاعدا حتى أصبح وقد أصعدت قدماه وأنا أغمزها وأقول : بأبى أنت وأمى أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، أليس قد فعل الله بك ، أليس أليس ؟ قال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة أفلا أكون عبدا شكورا ؟ هل تدرين ما في هذه الليلة ؟ قالت : قلت وما فيها ؟ قال : فيها يكتب كل مولود في هذه السنة ، وفيها يكتب كل ميت ، وفيها تنزل أرزاقهم ، وفيها ترفع أعمالهم وأفعالهم ، قلت : يا رسول الله ما أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ما أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله ، قلت : ولا أنت ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه ، فمسح يده على هامته وعلى وجهه » .
وأخبرني أبو نصر ، قال أنبأنا والدي ، حدثنا محمد بن أحمد الحافظ ، أنبأنا عبد الله بن محمد ، أنبأنا أبو العباس الهروي وإبراهيم بن محمد بن الحسن ، قال أخبرنا أبو عامر الدمشقي ، أنبأنا الوليد ابن مسلم ، أخبرني هشام بن الغار وسليمان بن مسلم وغيره ، عن مكحول ، عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : « يا عائشة أية ليلة هي ؟ قالت : الله ورسوله أعلم ، فقال : ليلة النصف من شعبان ، فيها ترفع أعمال الدنيا وأعمال العباد ، ولله فيها عتقاء من النار بعدد شعر غنم كلب ، فهل أنت أذنت لي الليل ؟ قالت : قلت نعم ، فصلى فخفف القيام وقرأ الحمد وسورة خفيفة ، ثم سجد إلى شطر الليل ، ثم قام في الركعة الثانية ، فقرأ فيها نحوا من قراءة الأولى ، فكان سجوده إلى الفجر ، قالت عائشة رضي الله عنها : أنظره حتى ظننت أن الله تعالى قد قبض رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلما طال عليّ دنوت منه حتى مسست أخمص قدميه ، فتحرّك فسمعته يقول في سجوده : أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك ، جل ثناؤك لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، قلت : يارسول الله قد سمعتك تذكر في سجودك الليلة شيئا ما سمعتك تذكره قط ، قال صلى الله عليه وسلم : وعلمت

ذلك ؟ قلت نعم ، قال صلى الله عليه وسلم : تعلّميهن وعلميهن ، فإن جبريل عليه السلام أمرنى أن أذكر هنّ فى السجود » . وأخبرنى أبو النصر عن والده ، قال أنبأنا عبد الله بن محمد ، أنبأنا إسحاق بن أحمد الفارسى ، أنبأنا أحمد بن الصباح بن أبى شريح ، أنبأنا يزيد بن هارون ، حدثنا الحجاج بن أرطاة ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن عروة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت « فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فخرجت فإذا هو بالبقيع رأسه إلى السماء ، فقال لى : أكنت تخافين أن يحيف الله ورسوله عليك ؟ فقلت له : يا رسول الله ظننت أنك أتيت بعض نسائك ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا ، فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب » . وعن عكرمة مولى ابن عباس رحمه الله ورضى الله عنهما فى قول الله تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم) قال : هى ليلة النصف من شعبان ، يدبر الله تعالى أمر السنة ، وينسخ الأحياء إلى الأموات ، ويكتب حاجّ بيت الله ، فلا يزيد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد » . وقال حكيم بن كيسان : يطلع الله تعالى إلى خلقه فى ليلة النصف من شعبان ، فمن طهره فى تلك الليلة زكاه إلى مثلها . وعن عطاء بن يسار : يعرض عمل السنة فى ليلة النصف من شعبان ، فيخرج الرجل مسافرا وقد نسخ من الأحياء إلى الأموات ، ويتزوّج وقد نسخ من الأحياء إلى الأموات. وأخبرنى أبو نصر عن والده بإسناده ، عن مالك بن أنس ، عن هشام بن عروة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « يسحّ الله الخير فى أربع ليال سحا ، ليلة الأضحى ، وليلة الفطر ، وليلة النصف من شعبان ينسخ الله فيها الآجال والأرزاق ، ويكتب فيها الحاجّ ، وليلة عرفة إلى الأذان » . قال سعيد ، قال إبراهيم بن أبى نجيح : خمس فيها ليلة الجمعة . وقال أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « جاءنى جبريل عليه السلام ليلة النصف من شعبان وقال لى : يا محمد ارفع رأسك إلى السماء ، قال : قلت له : ما هذه الليلة ؟ قال : هذه الليلة يفتح الله سبحانه فيها ثلاثمائة باب من أبواب الرحمة ، يغفر لكل من لا يشرك به شيئا ، إلا أن يكون ساحرا أو كاهنا أو مدمن خمر أو مصرّا على الربا والزنا ، فإن هؤلاء لا يغفر لهم حتى يتوبوا ؛ فلما كان ربع الليل نزل جبريل عليه السلام وقال : يا محمد ارفع رأسك ، فرفع رأسه فإذا أبواب الجنة مفتوحة ، وعلى الباب الأول ملك ينادى : طوبى لمن ركع فى هذه الليلة ، وعلى الباب الثانى ملك ينادى : طوبى لمن سجد فى هذه الليلة ، وعلى الباب الثالث ملك ينادى : طوبى لمن دعا فى هذه الليلة ، وعلى الباب الرابع ملك ينادى : طوبى للذاكرين فى هذه الليلة ، وعلى الباب الخامس ملك ينادى : طوبى لمن بكى من خشية الله فى هذه الليلة ، وعلى الباب السادس ملك ينادى : طوبى للمسلمين فى هذه الليلة ، وعلى الباب السابع ملك ينادى : هل من سائل فيعطى سؤله ؟ وعلى الباب الثامن ملك ينادى : هل من مستغفر فيغفر له ؟ فقلت : يا جبريل إلى متى تكون هذه الأبواب مفتوحة ؟ قال : إلى طلوع الفجر من أوّل الليل ، ثم قال : يا محمد إن لله تعالى فيها عتقاء من النار بعدد شعر غنم كلب » .

(فصل) وقيل سميت ليلة البراءة لأن فيها براءتين ، براءة للأشقياء من الرحمن ، وبراءة للأولياء من الخذلان . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «إذا كان ليلة النصف من شعبان اطلع الله على خلقه اطلاعة ، فيغفر للمؤمنين ، ويمهل للكافرين ، ويدع أهل الحقد بحقدهم حتى يدعوه . قيل : إن للملائكة ليلتى عيد فى السماء ، كما أن للمسلين يومى عيد فى الأرض ؛ فعيد الملائكة ليلة البراءة وليلة القدر ، وعيد المؤمنين يوم الفطر ويوم الأضحى ، وعيد الملائكة بالليل لأنهم لاينامون ، وعيد المؤمنين بالنهار لأنهم ينامون . وقيل : إن الحكمة فى أن الله تعالى أظهر ليلة البراءة وأخفى ليلة القدر ، لأن ليلة القدر ليلة الرحمة والغفران والعتق من النيران ، أخفاها الله عزّ وجل لئلا يتكلموا عليها ، وأظهر ليلة البراءة لأنها ليلة الحكم والقضاء ، وليلة السخط والرضا ، ليلة القبول والردّ والوصول والسد ، ليلة السعادة والشقاء والكرامة والنقاء ، فواحد فيها يسعد والآخر فيها يبعد ، وواحد يجزى وواحد يخزى ، وواحد يكرم وآخر يحرم وواحد يؤجر وآخر يهجر ، فكم من كفن مغسول وصاحبه فى السوق مشغول ، وكم من قبر محفور وصاحبه بالسرور مغرور ، وكم من فم ضاحك وهو عن قريب هالك ، وكم من منزل كمل بناؤه وصاحبه قد أزف فناؤه ، وكم من عبد يرجو الثواب فيبدو له العقاب ، وكم من عبد يرجو البشارة فتبدو له الخسارة ، وكم من عبد يرجو الجنان فتبدو له النيران وكم من عبد يرجو الوصل فيبدو له الفصل ، وكم من عبد يرجو العطاء فيبدو له البلاء ، وكم من عبد يرجو الملك فيبدو له الهلك» . وقيل : إن الحسن البصرى رحمه الله كان يخرج من داره يوم النصف من شعبان ، وكأنّ وجهه قد قبر ودفن ، ثم أخرج من قبره ، فقيل له فى ذلك ، فقال : والله ما الذى انكسرت سفينته بأعظم مصيبة منى ، قيل له : ولم ذلك ؟ قال : لأنى من ذنوبى على يقين ، ومن حسناتى على وجل ، فلا أدرى أتقبل منى أم تردّ علىّ .

(فصل) فأما الصلاة الواردة فى ليلة النصف من شعبان فهى مائة ركعة بألف مرّة . قل هو الله أحد ، فى كل ركعة عشر مرات ، وتسمى هذه الصلاة صلاة الخير ، وتتفرّق بركتها . وكان السلف الصالح يصلونها جماعة مجتمعين لها ، وفيها فضل كثير وثواب جزيل . وروى عن الحسن رحمه الله أنه قال : حدثنى ثلاثون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن من صلى هذه الصلاة فى هذه الليلة نظر الله إليه سبعين نظرة ، وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة ، أدناها المغفرة . ويستحبّ أن تصلى هذه الصلاة أيضا فى الأربع عشر ليلة التى يستحبّ إحياؤها التى ذكرناها فى فضائل رجب ، ليحوز بها المصلى هذه الكرامة وهذه الفضيلة والمثوبة .

تم الجزء الأول ، ويليه الجزء الثانى

أوله : مجلس فى فضائل شهر رمضان

تراث الإسلام

٣

الغنية

لطالبي طريق الحق

في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية

للشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني

٤٧٠ – ٥٦١ هـ

الجزء الثاني

دمشق ـ حلبوني

وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ
(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

(مجلس : فى فضائل شهر رمضان)

قال الله عزّ وجل (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) . قال الحسن البصرى رحمه الله : إذا سمعت الله تعالى يقول (يا أيها الذين آمنوا) فأرع لها سمعك فإنها لأمر تؤمر به أو لنهى تنهى عنه . وقال جعفر الصادق رحمه الله : لذّة ما فى النداء إزالة تعب العبادة والعناء ، قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) يا : نداء من العالم ، وأى : اسم من المعلوم المنادى ، وها : تنبيه على نداء المنادى الذى هو إشارة إلى المعرفة السابقة والصحبة القديمة ، آمنوا : إشارة إلى السرّ المعلوم بيد المنادى والمنادى ، كأنه يقول يامن هو لى بسرّه المخلص له بضميره وبلبه (كتب) : أى فرض وأوجب (عليكم الصيام) وهو مصدر كقولك : صمت صياما وقمت قياما ؛ وأصل الصيام فى اللغة : الإمساك يقال : صامت الريح : إذا سكنت وأمسكت عن الهبوب ؛ وصامت الخيل : إذا وقفت وأمسكت عن السير ؛ ويقال : صام النهار : إذا اعتدل وقام قائم الظهيرة ، لأن الشمس إذا بلغت كبد السماء وقفت وأمسكت عن السير هنية ، كما قال الشاعر :

حتى إذا صام النهار واعتدل وسال للشمس لعاب فنزل

ويقال للرجل إذا صمت وأمسك عن الكلام صام ، قال الله تعالى (إنى نذرت للرحمن صوما) أى صمتا ؛ فالصوم : هو الإمساك عن المعتاد من الطعام والشراب والجماع فى الشرع مع ترك الآثام ، قال الله عز وجل (كما كتب على الذين من قبلكم) أى من الأنبياء والأمم أولهم آدم عليه السلام ؛ وهو ما روى عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن جده قال : سمعت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يقول ؛ « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم عند انتصاف النهار وهو فى الحجرة ، فسلمت عليه ، فرد علىّ السلام ثم قال : يا علىّ هذا جبريل يقرئك السلام ، فقلت : عليك وعليه السلام يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : ادن منى ، فدنوت منه ، فقال : يا علىّ يقول لك جبريل صم من كل شهر ثلاثة أيام ،

يكتب لك بأول يوم عشرة آلاف سنة ، وباليوم الثانى ثلاثون ألف سنة ، وباليوم الثالث مائة ألف سنة ، فقلت : يا رسول الله هذا الثواب لى خاصة أم للناس عامة ؟ قال صلى الله عليه وسلم يا علىّ يعطيك الله هذا الثواب ولمن يعمل بعملك بعدك ، قلت : يا رسول الله ، وما هى ؟ قال : الأيام البيض ثالث عشر ورابع عشر وخامس عشر » قال عنترة : فقلت لعلىّ رضى الله عنه : لأى شىء تسمى هذه الأيام أيام البيض ؟ فقال علىّ رضى الله عنه : لما أهبط الله تعالى آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض أحرقته الشمس فاسودّ جسده ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا آدم أتحبّ أن يبيض جسدك ؟ قال نعم ، قال له : فصم من الشهر ثالث عشر ورابع عشر وخامس عشر ، فصام آدم عليه السلام أول يوم فابيض ثلث جسده ، ثم صام اليوم الثانى فابيضّ ثلثا جسده ، ثم صام اليوم الثالث فابيضّ جسده كله ، فسميت أيام البيض ؛ فآدم عليه السلام من الذين كتب عليهم الصيام من قبل محمد صلى الله عليه وسلم . قال الحسن وجماعة من العلماء بالتفسير : أراد الله تعالى بالذين من قبلكم : النصارى ، شبه صيامنا بصيامهم لاتفاقهما فى الوقت والقدر ، وذلك أن الله تعالى فرض على النصارى صيام شهر رمضان ، فاشتدّ ذلك عليهم ، لأنه ربما كان يأتى فى الحرّ الشديد أوفى البرد الشديد ، وكان يضرّهم فى أسفارهم ومعايشهم ، فاجتمع رأى علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم فى فصل من السنة بين الشتاء والصيف ، فجعلوه فى الربيع وزادوا فيه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصار أربعين يوما ، ثم إن ملكا لهم اشتكى فمه ، فجعل لله إن هو برئ من وجهه ذلك يزيد فى صومهم أسبوعا ، فزادوا فيه ، ثم مات ذلك الملك ووليهم ملك آخر فأتموه خمسين يوما . قال مجاهد رحمه الله : أصابهم موتان ، فقال : زيدوا فى صيامكم ، فزادوا عشرا قبل وعشرا بعد . قال الشعبى رحمه الله لو صمت السنة كلها لأفطرت اليوم الذى يشكّ فيه ، فيقال من شعبان ويقال من رمضان ، وذلك أن النصارى فرض عليهم شهر رمضان كما فرض علينا ، فحوّلوه إلى الفصل ، وذلك أنهم كانوا ربما صاموا فى القيظ فعدوا ثلاثين يوما ، ثم جاء بعدهم قرن منهم فأخذوا بالثقة فى أنفسهم ، فصاموا قبل الثلاثين يوما وبعدها يوما ، ثم لم يزل الآخر يستنّ بسنة القرن الذى قبله حتى صاروا إلى خمسين يوما ، فذلك قوله عز وجل (كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) يعنى لكى تتقوا الأكل والشرب والجماع . وقال أهل التفسير أيضا : فرض الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين صوم يوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر حين قدم المدينة ، فكانوا يصومونها ، إلى أن نزل صيام شهر رمضان قبل قتال بدر بشهر وأيام ، قال الله تعالى (أياما معدودات) يعنى شهر رمضان ثلاثين يوما أوتسعة وعشرين يوما . وروى عن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص أنه سمع ابن عمر رضى الله عنهما يحدّث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « أنا وأمتى أمية لانحسب ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا وهكذا لتمام الثلاثين » وسمى الشهر شهرا لشهرته ، وهو مأخوذ من الشهرة وهى البياض ، ومنه يقال : شهرت السيف إذا سللته وشهر الهلال إذا طلع .

(فصل) اختلف الناس فى معنى قوله رمضان ؛ فقال بعضهم: رمضان : اسم من أسماء الله تعالى، فيقال شهر رمضان، كما يقال: شهر الله الأصمّ لرجب وعبد الله . وروى جعفر الصادق رحمه الله عن آبائه رضى الله عنهم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال«شهر رمضان شهرالله» ؛ وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم« لاتقولوا رمضان بل انسبوه كما نسبه الله تعالى فى القرآن ، فقال : شهر رمضان » . وروى الأصمعى قال أبو عمرو : إنما سمى رمضان لأنه رمضت فيه الفصال من الحرّ، وقال غيره : لأن الحجارة كانت ترمض فيه من الحرارة ، والرمضاء : الحجارة المحماة . وقيل : سمى بذلك لأنه يرمض الذنوب : أى يحرقها، وهو مرويّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقيل: إن القلوب تأخذ من الحرارة الموعظة والفكرة فى أمر الآخرة كما يأخذ الرمل والحجارة من حرّ الشمس . وقال الخليل : مأخذه من الرمض ، وهو مطر يأتى فى الخريف ، فسمى هذا الشهر رمضان لأنه يغسل الأبدان من الآثام غسلا ، ويطهر القلوب تطهيرا .

(فصل) : فى قوله عز وجل(شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) روى عن عطية بن الأسود أنه سأل ابن عباس رضى الله عنهما فقال : إنه قد وقع الشكّ فى قوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) وقد نزل القرآن فى سائر الشهور ، قال الله تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث) فقال له نزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ فى ليلة القدر من شهر رمضان، فوضع فى بيت العزّة فى سماء الدنيا ، ثم نزل به جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم نجوما نجوما فى ثلاث وعشرين سنة ، وذلك قول الله عز وجل (فلا أقسم بمواقع النجوم) . وقال داود بن أبى هند : قلت للشعبى : شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن أما كان ينزل عليه ، عليه السلام فى سائر السنة ؟ قال : بلى ، ولكن جبريل عليه السلام كان يعارض محمدا صلى الله عليه وسلم فى رمضان بما أنزل الله ، فيحكم الله مايشاء ويثبت مايشاء وينسيه مايشاء . عن شهاب ابن طارق عن أبى ذرّ الغفارى رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « أنزلت صحف إبراهيم فى ثلاث ليال مضين من شهر رمضان ، وأنزلت توراة موسى عليه السلام فى ست ليال مضين من شهر رمضان ، وأنزل زبور داود عليه السلام فى ثمانى عشرة ليلة مضت من شهر رمضان ، وأنزل إنجيل عيسى عليه السلام فى ثلاث عشرة ليلة مضت من شهر رمضان ، وأنزل الفرقان على محمد صلى الله عليه وسلم فى الرابعة والعشرين من شهر رمضان . ثم وصف عزّ وجل القرآن فقال (هدى للناس) من الضلالة (وبينات) من الحلال والحرام والحدود والأحكام (من الهدى والفرقان) يفصل بين الحق والباطل .

(فصل : فيما يختصّ بشهر رمضان من الفضائل) أخبرنى أبونصر عن والده ، قال : أنبأنا ابن الفارس ، قال حدثنا أبو حامد أحمد بن محمد بن الجلودى النيسابورى ، قال أخبرنا محمد ابن إسحاق بن خزيمة ، قال أنبأنا على بن حجر السعدى ، قال أنبأنا يوسف بن زياد، قال أخبرنا همام بن يحيى عن علىّ بن زيد بن جدعان ، عن سعيد بن المسيب ، عن سلمان رضى الله عنه ،

قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر يوم من شعبان وقال « أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم ، شهر مبارك ، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر ، جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوّعا ، من تقرّب فيه بخصلة من الخير أو أدى فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ؛ وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يزاد فيه فى رزق المؤمن ؛ فمن أفطر فيه صائما كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شىء ، قالوا : ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم ، قال : يعطى الله هذا الثواب لمن فطر صائما على تمرة أو شربة ماء أو مذقة لبن ، وهو شهر أوله رحمة ووسطه مغفرة وآخره عتق من النار ، فمن خفف عن مملوكه فيه غفر الله له وأعتقه من النار ، فاستكثروا فيه من أربع خصال : خصلتان ترضون بهما ربكم ، وخصلتان لاغنى لكم عنهما . فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إله إلا الله ، وتستغفرونه . وأما اللتان لا غنى لكم عنهما : فتسألون الله الجنة ، وتعوذون به من النار ؛ ومن أشبع فيه صائما سقاه الله تعالى من حوضى شربة لايظمأ بعدها أبدا ». وعن الكلبى عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أبواب الجنة وأبواب السماء لتفتح لأول ليلة من شهر رمضان ، ولا تغلق إلى آخر ليلة منه ، ليس من عبد أو أمة يصلى فى ليلة منه إلا كتب الله له بكل سجدة ألفا وسبعمائة حسنة ، وبنى له بيتا فى الجنة من ياقوتة حمراء له سبعون ألف باب ، لكل باب منها مصراعان من ذهب موشح من ياقوتة حمراء ، فإذا صام أوّل يوم من شهر رمضان غفر الله له كل ذنب إلى آخر يوم من رمضان ، وكان كفارة إلى مثلها ، وكان له بكل يوم يصومه قصر فى الجنة له ألف باب من ذهب ، واستغفر له سبعون ألف ملك من غدوه إلا أن تتوارى بالحجاب ، وكان له بكل سجدة سجدها من ليل أو نهار شجرة فى الجنة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها » وأخبرنى أبو نصر عن والده بإسناده عن الأعرج ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان ، نظر الله إلى خلقه ، وإذا نظر إلى عبد لم يعذّبه أبدا ، ولله عزّ وجل فى كل يوم ألف ألف عتيق من النار » . وأخبرنى أبو نصر عن والده بإسناده عن سهل ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين » . وعن نافع بن بردة ، عن أبى مسعود الغفارى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من عبد يصوم يوما من رمضان إلا زوّج زوجة من الحور العين فى خيمة من درّة مجوّفة مما نعت الله عزّ وجل (حور مقصورات فى الخيام) على كل امرأة منهن سبعون حلة ليس منها حلة على لون الأخرى ، ويعطى سبعين لونا من الطيب ، ليس منها لون على لون الآخر ، ويعطى سبعين سريرا من ياقوتة حمراء موشحة بالدرّ ، على كل سرير سبعون فراشا ، على كل فراش أريكة ، لكل امرأة سبعون ألف وصيف لحاجتها ، وسبعون ألف وصيفة لزوجها مع كل وصيفة صحفة من ذهب فيها لون من طعام ، فيجد لآخر لقمة منها لذّة لم يجدها لأوله ،

ويعطى زوجها مثل ذلك ، على سرير من ياقوت أحمر ، هذا لكلّ يوم صامه من رمضان سوى ما يعمل من الحسنات » .

(فصل) أخبرنى أبو نصر عن والده بإسناده ، قال حدثنا محمد بن أحمد ، قال حدثنا عبد الله بن محمد ، قال حدثنا أبو القاسم بن عبد الله بن محمد ، قال حدثنا الحسن بن إبراهيم بن يسار وإبراهيم بن محمد بن حارث ، قال حدثنا سلمة بن شبيب ، قال حدثنا القاسم بن محمد ، قال حدثنا هشام بن الوليد ، قال حدثنا حماد بن سليمان الدوسى ، عن الحسن ، عن الضحاك بن مزاحم ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إن الجنة لتنجد وتزين من الحول إلى الحول بدخول شهر رمضان ، فإذا كان أول ليلة من شهر رمضان ، هبت ريح من تحت العرش يقال لها المثيرة ، تصفق أوراق أشجار الجنة وحلق المصاريع ، فيسمع لذلك طنين لم يسمع السامعون أحسن منه ، فتزين الحور العين حتّى يقفن بين شرف الجنة ، فينادين هل من خاطب إلى الله عزّ وجل فيزوجه ، ثم يقلن لرضوان : ما هذه الليلة فيجيبهنّ بالتلبية يا خيرات حسان ، هذه أول ليلة من شهر رمضان فتحت أبواب الجنة للصائمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقول الله تعالى : يا رضوان افتح أبواب الجنان ، يا مالك أغلق أبواب الجحيم عن الصائمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، يا جبريل اهبط إلى الأرض وصفد مردة الشياطين وغلهم بالأغلال ، ثم اقذف بهم فى لجج البحار حتّى لايفسدو على أمة محمد حبيبى صيامهم ؛ قال : ويقول الله عز وجل فى كل ليلة من شهر رمضان ثلاث مرات : هل من سائل فأعطيه سؤله ، هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفر فأغفر له ؟ من يقرض الغنىّ غير المعدم ، والوفى غير الظلوم ؟ قال : وله فى كل يوم من شهر رمضان عند الإفطار ألف ألف عتيق من النار ، كلهم قد استوجبوا العقاب ، فإذا كان ليلة الجمعة ويوم الجمعة أعتق الله تعالى فى كل ساعة ألف ألف عتيق من النار ، كلهم قد استوجبوا العذاب ؛ فإذا كان فى آخر يوم من شهر رمضان أعتق الله فى ذلك اليوم بعدد ما أعتق من أول الشهر إلى آخره ؛ فإذا كان ليلة القدر يأمر جبريل عليه السلام فيهبط فى كبكبة من الملائكة ومعه لواء أخضر إلى الأرض ، فيركزه على ظهر الكعبة ، وله ستمائة جناح لاينشرها إلا فى ليلة القدر ، فينشرها فى تلك الليلة ، فيجاوز المشرق والمغرب ، ويأمر جبريل عليه السلام الملائكة بالدخول بين هذه الأمة فيدخلون بينهم ، فيسلمون على كلّ قائم ومصلّ وذاكر ، ويصافحونهم ويؤمنون على دعائهم حتّى مطلع الفجر ؛ ثم ينادى جبريل عليه السلام : يا معشر الأولياء الرحيل فيقولون : يا جبريل ما صنع الله فى حوائج المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فيقول : إن الله تعالى نظر إليهم وعفا عنهم وغفر لهم إلا أربعة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هؤلاء الأربعة : مدمن خمر ، وعاقّ والديه ، وقاطع رحم ، ومشاحن ؛ قيل : يا رسول الله من المشاحن ؟ قال : المصارم ؛ فإذا كان ليلة الفطر سميت تلك الليلة ليلة الجائزة ، فإذا كان غداة الفطر بثّ الله تعالى الملائكة فى كل البلاد يهبطون إلى الأرض ، فيقومون على أفواه السكك

فينادون بصوت يسمعه كل من خلق الله تعالى إلا الجن والإنس فيقولون : يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم اخرجوا إلى رب كريم يعطي الجزيل ويغفر الذنب العظيم ، فإذا برزوا إلى مصلاهم يقول الله تعالى للملائكته : يا ملائكتي ما جزاء الأجير إذا عمل عمله ؟ قال : فتقول الملائكة إلهنا وسيدنا توفيه أجرته ، فيقول : فإني أشهدكم يا ملائكتي أني قد جعلت ثواب صيامهم من شهر رمضان وقيامهم رضاى ومغفرتي ، ثم يقول : ياعبادى سلونى فبعزتى وجلالى لاتسألونى اليوم فى جمعكم هذا لآخرتكم شيئا إلا أعطيتكم ، ولا لدنياكم إلا نظرت لكم ، وعزتى وجلالى لأسترن عليكم عثراتكم ما راقبتمونى ، وعزتى وجلالى لا أخزيكم ولا أفضحكم بين أصحاب الحدود ، انصرفوا مغفورا لكم ، لقد أرضيتمونى ورضيت عنكم ؛ قال : فتفرح الملائكة ويستبشرون بما يعطى الله عز وجل هذه الأمة إذا أفطروا من شهر رمضان » . وعن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم نحوه ، واللفظ متقارب . وأخبرنى أبو نصر عن والده بإسناده عن نافع ، عن أبى مسعود الغفارى رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم أهل شهر رمضان « لو يعلم العباد ما فى شهر رمضان لتمنى العباد أن يكون شهر رمضان سنة ، فقال رجل من خزاعة : يا رسول الله حدثنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الجنة لتزين لشهر رمضان من رأس الحول إلى الحول ، حتى إذا كان أول ليلة منه هبت ريح من تحت العرش ، فصفقت أوراق أشجار الجنة ، فنظرت الحور العين إلى ذلك فقلن : يا رب اجعل من عبادك فى هذا الشهر لنا أزواجا تقر أعيننا بهم ، وتقر أعينهم بنا ، فما من عبد صام شهر رمضان إلا زوجه الله زوجة من الحور العين فى خيمة من درة مجوفة ، مما نعت الله به (حور مقصورات فى الخيام) على كل امرأة منهن سبعون حلة ليس منها حلة على لون الأخرى ، وتعطى سبعين لونا من الطيب ليس منه لون يشبه الأول ، كل امرأة منهن على سرير من ياقوت موشح بالدر عليه سبعون فراشا ، بطائنها من إستبرق ، وفوق كل فراش سبعون أريكة ، ولكل امرأة منهن سبعون ألف وصيف يخدمها ، وسبعون ألف وصيف لزوجها بيد كل وصيف صحفة من ذهب فيها لون من الطعام ، يجد لآخره من اللذة ما لا يجد لأوله ، ويعطى زوجها مثل ذلك ، على سرير من ياقوتة حمراء ، عليه سواران من ذهب مرصع بالياقوت هذا لكل من صام شهر رمضان سوى ما عمل من الحسنات » . وعن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نادى الجليل جلت عظمته رضوان خازن الجنان ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : نجد جنتى وزينها للصائمين من أمة أحمد ، ولا تغلقها عنهم حتى ينقضى شهرهم ؛ ثم ينادى مالكا خازن النار : يا مالك ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : أغلق أبواب الجحيم عن الصائمين من أمة أحمد ، ثم لا تفتحها عليهم حتى ينقضى شهرهم ؛ ثم ينادى جبريل عليه السلام ، فيقول : لبيك وسعديك فيقول : انزل إلى الأرض فغل مردة الشياطين عن أمة أحمد حتى لا يفسدوا عليهم صيامهم وإفطارهم ولله عز وجل فى كل يوم من شهر رمضان عند طلوع الشمس وعند وقت الإفطار عتقاء أعتقهم

من النار عبيدا وإماء ، وله فى كل سماء مناد فيهم ملك له عرف تحت عرش رب العالمين وفرائسه فى تخوم الأرض السابعة السفلى ، له جناح بالمشرق وجناح بالمغرب ، مكلل بالمرجان والدر والجواهر ، ينادى : هل من تائب يتاب عليه ، هل من داع يستجاب له ، هل من مظلوم ينصره الله، هل من مستغفر يغفر الله له، هل من سائل يعطى سؤله ؟ قال: وينادى الربّ تعالى ذكره فى الشهر كله : عبادى وإمائى أبشروا واصبروا وداوموا، يوشك أن أرفع عنكم المؤنات وتفضوا إلى رحمتى وكرامتى . فإذا كان ليلة القدر نزل جبريل عليه السلام فى كبكبة من الملائكة يصلون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عزّ وجل » . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أذن الله للسموات والأرض أن تتكلما لبشرتا من صام رمضان بالجنة » . وعن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نوم الصائم عبادة ، وصمته تسبيح ، ودعاؤه مستجاب ، وعمله مضاعف ». وعن الأعمش عن أبى خيثمة رضى الله عنه أنه قال : كانوا يقولون رمضان إلى رمضان ، والحج إلى الحج والجمعة إلى الجمعة، والصلاة إلى الصلاة كفارات لما بينهنّ ما اجتنبت الكبائر. وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول إذا دخل شهر رمضان : مرحبا بشهر خير كله ، صيام نهاره وقيام ليله ، والنفقة فيه كالنفقة فى سبيل الله . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صام رمضان وقامه إيمانا واحتسابا غفر له ماتقدّم من ذنبه وما تأخر » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أيضا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « كل حسنة يعملها ابن آدم من أمّتى تتضاعف عشرا إلى سبعمائة ضعف ، إلا الصوم فإن الله تعالى يقول : الصوم لى وأنا أجزى به ، يدع شهوته وأكله وشربه من أجلى، والصوم جنة. وللصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه » . وأخبرنا أبو البركات السقطى بإسناده عن يزيد بن هارون قال : حدثنا المسعودى قال : بلغنى أن من قرأ فى ليلة من شهر رمضان فى التطوّع (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) حفظ فى ذلك العام .

(فصل) رمضان خمسة أحرف : الراء : رضوان الله ، والميم : محاباة الله ، والضاد : ضمان الله ، والألف : ألفة الله ، والنون : نور الله ، فهو شهر رضوان ومحاباة وضمان وألفة ونور ونوال وكرامة للأولياء والأبرار . وقيل : مثل شهر رمضان فى الشهور كمثل القلب فى الصدور ، وكالأنبياء فى الأنام ، وكالحرم فى البلاد ؛ فالحرم يمنع منه الدجال اللعين . وشهر رمضان تصفد فيه مردة الشيطان ، وتكون الأنبياء شفعاء للمجرمين . وشهر رمضان شفيع للصائمين ، والقلب مزين بنور المعرفة والإيمان . وشهر رمضان مزين بنور تلاوة القرآن ، فمن لم يغفر له فى شهر رمضان ففى أى شهر يغفر له ؛ فليتب العبد إلى الله عزّ وجل قبل أن تغلق أبواب التوبة ، وليتب إليه عزّ وجل قبل أن يفوت وقت الإنابة ، وليبك قبل أن ينقضى وقت البكاء والرحمة . وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم «إن أمّتى لم يخزوا ما أقاموا شهر رمضان ، فقال رجل يا نبيّ الله وما خزيهم ؟ قال : من انتهك فيه محرما أو عمل سيئة أو شرب خمرا ، أو زنى لم يقبل

منه رمضان ، ولعنه الله وملائكته وأهل السموات إلى مثله من الحول ، وإن مات فيا بينه وبين رمضان فليس له عند الله حسنة » .

(فصل) قيل : إن سيد البشر آدم عليه السلام ، وسيد العرب محمد صلى الله عليه وسلم ، وسيد الفرس سلمان ، وسيد الروم صهيب ، وسيد الحبش بلال ، وسيد القرى مكة ، وسيد الأودية وادى بيت المقدس ، وسيد الأيام يوم الجمعة ، وسيد الليالى ليلة القدر ، وسيد الكتب القرآن ، وسيد القرآن البقرة ، وسيد البقرة آية الكرسى ، وسيد الأحجار الحجر الأسود ، وسيد الآبار زمزم ، وسيد العصى عصا موسى ، وسيد الحيتان الحوت الذى كان يونس عليه السلام فى بطنه ، وسيد النوق ناقة صالح ، وسيد الأفراس البراق ، وسيد الخواتم خاتم سليمان عليه السلام ، وسيد الشهور شهر رمضان .

(فصل : فى فضائل ليلة القدر) قوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) إلى آخر السورة ، فأنزلناه كناية عن القرآن أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا إلى السفرة ، وهم الكتبة من الملائكة ، فكان ينزل فى تلك الليلة من اللوح على قدر ما ينزل به جبريل عليه السلام بإذن الله تعالى إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى السنة كلها . إلى مثلها من قابل ، حتى نزل القرآن كله فى ليلة القدر من شهر رمضان إلى سماء الدنيا . وقال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) يعنى أنزلنا جبريل بهذه السورة وجملة القرآن فى ليلة القدر على الكتبة ثم نزل بعد ذلك نجما نجما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى ثلاث وعشرين سنة ، فى سائر الشهور والأيام والليالى والأوقات . قوله تعالى (فى ليلة القدر) أى فى ليلة عظيمة ، وقيل فى ليلة الحكم ، وسميت ليلة القدر تعظيما لها ولقدرها ، لأن الله تعالى يقدر فيها ما يكون من أمر السنة إلى مثلها من العام المقبل . ثم قال (وما أدراك ما ليلة القدر) يا محمد لولا أن الله أعلمك بعظمتها ، فكل ما فى القرآن وما أدراك فقد أعلمه الله إياه ، وما فيه وما يدريك فلم يدره ، ولم يطلعه عليه كقوله عز وجل (وما يدريك لعلّ الساعة تكون قريبا) وما تبين له وقتها . قوله تعالى (ليلة القدر) أى ليلة العظمة والحكمة ، وقيل : هى ليلة المباركة التى قال الله عز وجل (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ـ فيها يفرق كل أمر حكيم) . ثم قال عزّ وجل (ليلة القدر خير من ألف شهر) يعنى العمل فيها خير من ألف شهر ليس فيها ليلة قدر . ويقال : إن الصحابة رضى الله عنهم لم يفرحوا بشىء كفرحهم بقوله تعالى (خير من ألف شهر)، وذلك « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوما لأصحابه أربعة من بنى إسرائيل بأنهم عبدوا الله ثمانين سنة لم يعصوه طرفة عين ، وذكر أيوب وزكريا وحزقيل ويوشع بن نون عليهم السلام ، فعجب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له . يا محمد عجبت أنت وأصحابك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوا الله تعالى فيها طرفة عين ، فقد أنزل الله عليك خيرا من ذلك ، ثم قرأ عليه (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) إلى آخرها ، وقال له هذا أفضل مما عجبت أنت وأصحابك منه ، فسرّ بذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم » . وقال يحيى

ابن نجيح : إنه كان فى بنى إسرائيل رجل لبس السلاح ألف شهر فى سبيل الله تعالى لم يضعه عنه ، فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، فتعجبوا من قول ذلك ، فأنزل الله عز وجل (ليلة القدر خير من ألف شهر) يعنى خير لكم من تلك الألف شهر التى لبس فيها ذلك الرجل السلاح فى سبيل الله ولم يضعه عنه . وقيل : إنه كان اسمه شمعون العابد فى بنى إسرائيل ، وقيل شمسون (تنزّل الملائكة) يعنى تنزّل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر (والروح) يعنى جبريل عليه السلام . وقال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما إنه قال : الروح على صورة الإنسان عظيم الخلق ، وهو الذى قال الله عزّ وجل (ويسألونك عن الروح) وهو الملك يقوم مع الملائكة صفا وحده يوم القيامة . وقال مقاتل : هو أشرف الملائكة عند الله تعالى . وقال غيره : إنه ملك وجهه على صورة الإنسان وجسده جسد الملائكة ، وهو أعظم مخلوق عند العرش يقوم صفا ، وتقوم الملائكة صفا ، قال الله تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا) (فيها) يعنى فى ليلة القدر (بإذن ربهم) أى بأمر ربهم (من كلّ أمر) يعنى بكل خير (سلام هى) أى هى سلام ، أى سليمة (حتى مطلع الفجر) لايحدث فيها داء ولا كهانة ، مطلع الفجر بكسر اللام يريد الطلوع ، وبالفتح يريد الموضع الذى يطلع فيه ؛ وقيل سلام ، يعنى سلام الملائكة على المؤمنين من أهل الأرض ، يقولون سلام سلام حتى يطلع الفجر .

(فصل) وتلتمس ليلة القدر فى العشر الأواخر من شهر رمضان ، وآكدها ليلة سبع وعشرين. وعند مالك رحمه الله جميع ليالى العشر ليس بعض بآكد من بعض . وعند الشافعى رحمه الله : آكدها إحدى وعشرون . وقيل : إنها ليلة التاسع عشر ، وهو مذهب عائشة رضى الله عنها . وقال أبو بردة الأسلمىّ رضى الله عنه : هى ليلة ثلاث وعشرين . وقال أبو ذرّ والحسن رضى الله عنهما : إنها ليلة خمس وعشرين . وروى بلال رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . « أنها ليلة أربع وعشرين » . وقال ابن عباس وأبىّ بن كعب رضى الله عنهم إنها ليلة سبع وعشرين . والدليل على أن آكدها ليلة سبع وعشرين والله أعلم ، ما روى ابن حنبل رحمه الله بإسناده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال « كانوا لايزالون يقصون على النبىّ صلى الله عليه وسلم الرؤيا من العشر الأواخر فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : أرى رؤياكم قد تواترت أنها ليلة سابعة من العشر الأواخر ، من كان متحرّيا فليتحرّها الليلة السابعة من العشر الأواخر » . ويروى أن ابن عباس قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنهم : إنى نظرت فى الأفراد فلم أر فيها أحرى من السبعة ، فذكر بعض ما نذكره فى السبعة ، فقال : السموات سبع ، والأرضون سبع ، والليالى سبع ، والأفلاك سبع ، والنجوم سبع ، والسعى بين الصفا والمروة سبع ، والطواف بالبيت سبع ، ورمى الجمار سبع وخلق الإنسان من سبع ، ورزقه من سبع ، وشقّ فى وجهه سبع ، والخواتيم سبع ، والحمد سبع آيات ، وقراءة القرآن على سبعة أحرف ، والسبع المثانى ، والسجود على سبعة أعضاء ، وأبواب جهنم سبع ، وأسماؤها سبع ، ودركاتها سبع ، وأصحاب الكهف سبع ، وأهلك عاد بالريح فى سبع ليال ، ومكث يوسف عليه السلام فى السجن سبع سنين ،

والبقرات سبع ، والسنون الجدبة سبع ، والسنون الخصبة سبع ، والصلوات الخمس سبع عشرة ركعة ، وقال الله عزّ وجلّ (وسبعة إذا رجعتم) وحرم من النساء النسب سبع ، ومن الصهر سبع ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم طهارة الإناء إذا ولغ فيه الكلب سبع مرات إحداهن بالتراب ، وعدد حروف سورة القدر إلى قوله (سلام هى) سبع وعشرون حرفا ، ومكث أيوب عليه السلام فى بلائه سبع سنين ، وقالت عائشة رضى الله عنها : تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا بنت سبع سنين ، وأيام العجوز يعنى الحسوم سبعة ، ثلاثة من شباط وأربعة من أذار ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شهداء أمتى سبعة : القتيل فى سبيل الله ، والمطعون ، والمسلول ، والغريق ، والحريق ، والمبطون ، والنفساء من النساء » وأقسم الله عزّ وجل بسبع (والشمس وضحاها) إلى قوله (وما سوّاها) وكان طول موسى عليه السلام سبعة أذرع بذراع ذلك القرن ، وطول عصى موسى سبعة أذرع ، فإذا ثبت أن أكثر الأشياء سبع ، فقد نبه الله تعالى عباده على أن ليلة القدر السابعة والعشرون بقوله تعالى : (سلام هى حتى مطلع الفجر) فعلمنا بذلك أنها ليلة السابع والعشرين .

(فصل) فهل ليلة الجمعة أفضل أم ليلة القدر ؟ اختلف أصحابنا فى ذلك ؛ فاختار الشيخ أبو عبد الله بن بطة ، والشيخ أبو الحسن الجزرى ، وأبو حفص عمر البرمكى رحمهم الله أن ليلة الجمعة أفضل ؛ واختار أبو الحسن التميمى رحمه الله أن الليلة التى أنزل فيها القرآن من ليالى القدر أفضل من ليلة الجمعة ، فأما أمثال تلك الليلة من ليالى القدر فليلة الجمعة أفضل . وقال أكثر العلماء : ليلة القدر أفضل من ليلة الجمعة وغيرها من الليالى ، وجه اختيار أصحابنا ما روى القاضى الإمام أبو يعلى رحمه الله بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يغفر الله ليلة الجمعة لأهل الإسلام أجمعين » وهذه فضيلة لم تنقل عنه عليه الصلاة والسلام لغيرها من الليالى . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أكثروا علىّ من الصلاة فى الليلة الغراء واليوم الأزهر ، ليلة الجمعة ويومها » والغرّة من الشىء خياره ، ولأن ليلة الجمعة تابعة ليومها . وقد جاء فى فضل يومها ما لم يجىء فى فضل يوم ليلة القدر ، من ذلك ما روى أنس رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما طلعت الشمس على يوم أعظم عند الله من يوم الجمعة ولا أحبّ إليه منه » . وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تطلع الشمس ولا تغرب على يوم أفضل من يوم الجمعة ، وما من دابة إلا وهى تفزع ليوم الجمعة إلا هذين الثقلين من الجنّ والإنس » . وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « إن الله عزّ وجل يبعث الأيام يوم القيامة على هيئتها ، ويبعث الجمعة وهى زهراء منيرة ، وأهلها يحفون بها كالعروس تهدى إلى كريمها تضىء لهم ويمشون فى ضوئها ، وألوانهم كالثلج ، وريحهم كالمسك ، يخوضون فى جبال الكافور ، وينظر إليهم أهل الموقف الثقلان ما يطرفون تعجبا حتى يدخلون الجنة » ، فإن قيل : فما جوابكم عن قوله عزّ وجل (ليلة القدر خير من ألف شهر) ؟

قيل: المراد بها خير من ألف شهر ليس فيها ليلة الجمعة، كما أن تقديرها عندهم خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وأيضا أنّ ليلة الجمعة باقية فى الجنة، لأن فى يومها تقع الزيادة إلى الله سبحانه وتعالى وهى معلومة فى الدنيا بعينها على القطع، وليلة القدر مظنون عينها، وجه اختيار التميمى وغيره من العلماء أن ليلة القدر أفضل. قوله تعالى (خير من ألف شهر) وألف شهر: ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر. وقيل: إنه عرض على النبىّ صلى الله عليه وسلم أعمار أمته فاستقلها، فأعطى ليلة القدر. وعن مالك بن أنس رحمه الله أنه قال: سمعت ممن أثق به يقول «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أعمار الناس قبله أو ما شاء الله تعالى من ذلك، فكأنه تصاغر أعمار أمته بأن لايبلغوا من العمل مثل الذى بلغ غيرهم فى طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر. وقال أنس بن مالك رحمه الله: بلغنى أن سعيد بن المسيب قال: من حضر صلاة العشاء ليلة القدر أصاب منها حظا، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال «من صلى العشاء والمغرب فى جماعة فقد أخذ بحظه من ليلة القدر، ومن قرأها» يعنى سورة القدر «فكأنما قرأ ربع القرآن» ويستحبّ أن يقرأها فى العشاء الأخيرة من شهر رمضان.

(فصل) فإن قال قائل: لم لم يطلع الله عباده على ليلة القدر يقينا وقطعا كما أطلعهم على ليلة الجمعة وبينها لهم؟ قيل له: لئلا يتكلوا على عملهم فيها، فيقول قد عملنا فى ليلة خير من ألف شهر، فقد غفر الله لنا وحصل لنا عنده درجات وجنات، فلا يعملوا عملا واطمأنوا، فيغلب عليهم الرجاء فيهلكوا؛ وهذا كما لم يطلعهم على فناء آجالهم لئلا يقول من كان فى عمره طول: أتبع الشهوات واللذات والتنعم فى الدنيا، فإذا قاربت فناء أجلى تبت واشتغلت بعبادة ربى وأموت تائبا مصلحا، فغيب الله تعالى عنهم آجالهم ليكونوا أبدا على وجل وحذر من الموت فيحسنوا العمل ويداوموا على التوبة وإصلاح العمل، فيأتيهم الموت وهم على خير حال، فتصل إليهم الأقسام من اللذات والشهوات فى الدنيا، وينجون من عذاب الله فى الآخرة برحمة الله تعالى. وقيل: إن الله تعالى أخفى خمسة أشياء فى خمسة: الأول: أخفى رضاء الله فى الطاعات. والثانى: أخفى غضبه فى المعاصى. والثالث: أخفى الصلاة الوسطى بين الصلوات. والرابع: أخفى وليه فى خلقه. والخامس: أخفى ليلة القدر فى شهر رمضان.

(فصل) وإن الله عزّ وجل أعطى المصطفى صلى الله عليه وسلم خمس ليال: الأولى ليلة المعجزة والقدرة وهى انشقاق القمر قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشقّ القمر) وكان انفلاق البحر لموسى عليه السلام بضرب العصا، والانشقاق لمحمد صلى الله عليه وسلم بإشارة أصبع المصطفى صلى الله عليه وسلم، فهو أعظم فى المعجزات والإعجاز والقدرة. والثانية. ليلة: الإجابة والدعوة قوله تعالى (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجنّ يستمعون القرآن). والثالثة ليلة الحكم والقضية، قوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين، فيها يفرق كل أمر حكيم). والرابعة ليلة الدنو والقربة، هى ليلة المعراج، قوله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) الآية. وأما الخامسة فليلة السلام والتحية قوله (إنا أنزلناه فى ليلة القدر)

إلى قوله (تنزّل الملائكة والروح فيها) يعنى ليلة القدر : وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إذا كان ليلة القدر يأمر الله سبحانه وتعالى جبريل عليه السلام أن ينزل إلى الأرض ومعه سكان سدرة المنتهى وهم سبعون ألف ملك ، ومعهم ألوية من نور ، فإذا هبطوا إلى الأرض ركز جبريل عليه السلام لواءه والملائكة ألويتهم فى أربع مواطن : عند الكعبة ، وعند قبر النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وعند مسجد بيت المقدس ، وعند مسجد طور سيناء ؛ ثم يقول جبريل عليه السلام للملائكة : تفرّقوا ، فيتفرّقون فلا تبقّى دار ولاحجرة ولابيت ولا سفينة فيها مؤمن أو مؤمنة إلا دخلت الملائكة فيها ، إلا بيت فيه كلب أو خنزير أو خمر أو جنب من حرام أو صورة ، فيسبحون ويقدسون ويهللون ويستغفرون لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان وقت الفجر يصعدون إلى السماء ، فيستقبلهم سكان السماء الدنيا فيقولون لهم : من أين أقبلتم ؟ فيقولون : كنا فى الدنيا ، لأن الليلة ليلة القدر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال سكان سماء الدنيا : ما فعل الله بهم وبحوائجهم ؟ فيقول جبريل عليه السلام : إن الله غفر لصالحيهم وشفعهم فى طالحيهم ، فترفع ملائكة سماء الدنيا أصواتهم بالتسبيح والتقديس والثناء على ربّ العالمين شكرا لما أعطاه الله هذه الأمة من المغفرة والرضوان ، ثم تشيعهم ملائكة سماء الدنيا إلى السماء الثانية ، ثم كذلك سماء بعد سماء إلى السابعة ؛ ثم يقول جبريل عليه السلام : يا سكان السموات ارجعوا ، فترجع ملائكة كل سماء إلى مواضعهم ، ويرجع سكان سدرة المنتهى إلى السدرة ، فيقول سكان السدرة : أين كنتم ؟ فيجيبون مثل ما أجابوا أهل السماء الدنيا ، فترفع سكان السدرة أصواتهم بالتسبيح والتقديس ، فتسمع جنة المأوى ، ثم جنة النعيم ، ثم جنة عدن ، ثم الفردوس ، فيسمع عرش الرحمن ، فيرفع العرش صوته بالتسبيح والتهليل والثناء على ربّ العالمين شكرا لما أعطى هذه الأمة ، فيقول الله عزّ وجل وهو أعلم : يا عرشى لم رفعت صوتك ؟ فيقول : إلهى بلغنى أنك قد غفرت البارحة لصالحى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وشفعت صالحيها فى طالحيها ، فيقول الله تعالى : صدقت يا عرشى ، ولأمة محمد عندى من الكرامة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقيل : إن جبريل عليه السلام إذا نزل من السماء ليلة القدر لايدع أحدا من الناس إلا سلم عليه وصافحه ، وعلامة ذلك اقشعرار جلده وترقيق قلبه وتدميع عينيه . ولهذا روى «أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان مهموما لأجل أمته ، فقال الله تعالى : يامحمد لاتغتمّ فإنى لا أخرج أمتك من الدنيا حتى أعطيهم درجات الأنبياء ، وذلك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تنزّل عليهم الملائكة بالروح والرسالة والوحى والكرامة ، وكذلك أنزل بالملائكة على أمتك فى ليلة القدر بالتسليم والرحمة منى .

(فصل) والأمارة فى أنها ليلة القدر ، أن تكون ليلة طلاقة سمحة لاحارّة ولاباردة . وقيل : لايسمع فيها نباح الكلاب ، وتطلع الشمس صبيحتها ، ليس لها شعاع كالطست ، وتكشف عجائبها لأرباب القلوب والولاية وأهل الطاعة لمن يشاء الله تعالى من المؤمنين من عباده ، على قدر أحوالهم وأقسامهم ومنازلهم فى القرب من الله عزّ وجل :

(فصل) وصلاة التراويح سنة النبيّ صلى الله عليه وسلم صلاها ليلة ، وقيل ليلتين ، وقيل ثلاثا ، ثم انتظروه فلم يخرج ، وقال : « لوخرجت لفرضت عليكم » ثم إنها استديمت فى أيام عمر رضى الله عنه ، فلذلك أضيفت إليه لأنه ابتدأها . والحديث المرويّ فى ذلك عن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها « أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج فى جوف الليل فى شهر رمضان ؛ فصلى فى المسجد وصلى الناس بصلاة ؛ فلما كانت الليلة الثانية كثر الناس حتى عجز المسجد عن أهله ، فلم يخرج إليهم حتى خرج لصلاة الفجر ؛ فلما صلى الفجر أقبل على الناس وقال لهم : إنه لم يخف علىّ شأنكم الليلة ، ولكن خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عن ذلك » . قالت : وكان صلى الله عليه وسلم يرغبهم فى إحياء رمضان من غير أن يأمرهم بعزيمة ؛ فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمر على ذلك فى أيام خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه وصدرا من خلافة عمر رضى الله عنه . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : إنما أخذ عمر ابن الخطاب رضى الله عنه هذه التراويح من حديث سمعه منى ، قالوا : وما هو يا أمير المؤمنين قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن لله تعالى حول العرش موضعا يسمى حظيرة القدس وهى من النور ، فيها ملائكة لايحصى عددهم إلا الله عزّ وجل ، يعبدون الله تعالى عبادة لايفترون ساعة ، فإذا كان ليالى شهر رمضان استأذنوا ربهم أن ينزلوا إلى الأرض ، فيصلون مع بنى آدم ، فكلّ من مسهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أو مسوه سعد سعادة لايشقى بعدها أبدا » فقال عمر رضى الله عنه إذ ذاك : فنحن أحقّ بهذا ، فجمع للتراويح وسنها وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه خرج فى أول ليلة من شهر رمضان ، فسمع القرآن فى المساجد ، فقال : نوّر الله قبر عمر كما نوّر مساجد الله بالقرآن . وكذلك يروى عن عثمان ابن عفان رضى الله عنه . وفى لفظ آخر : إن عليا رضى الله عنه اجتاز بالمساجد وهى تزهر بالقناديل والناس يصلون التراويح ، فقال : نوّر الله عزّ وجل على عمر قبره كما نوّر مساجدنا . روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من علق فى بيت من بيوت الله قنديلا لم تزل الملائكة تستغفر له وتصلى عليه وهم سبعون ألف ملك حتى يطفأ ذلك القنديل » . وعن أبى ذرّ الغفارى رضى الله عنه أنه قال « صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كانت الليلة الثالثة والعشرون قام فصلى بنا حتى مضى ثلث الليل ، ثم لما كانت الليلة الرابعة والعشرون لم يخرج إلينا ، فلما كانت الليلة الخامسة والعشرون خرج وصلى بنا حتى مضى شطر الليل ، فقلنا له : لونفلتنا ليلتنا هذه لكان حسنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنه من قام مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة ، ولم يصل بنا فى الليلة السادسة والعشرين ، فلما كانت الليلة السابعة والعشرون قام بنا وجمع أهله وصلى بنا حتى خشينا أن يفوتنا الفلاح ، قيل : وما الفلاح ؟ قال : السحور » ؛

(فصل) ويستحبّ لها الجماعة والجهر بالقراءة ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلاها كذلك فى تلك الليالى ، ويكون ابتداؤها فى الليلة التى يسفر صباحها غرّة رمضان ، لأنها ليلة من شهر رمضان ، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم كذلك صلاها ، ويكون فعلها بعد صلاة

لفرض ، وبعد ركعتين بتسليمة ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم هكذا صلاها وهى عشرون ركعة يجلس عقب كل ركعتين ، ويسلم فهى خمس ترويحات ، كل أربعة منها ترويحة ، وينوى فى كل ركعتين : أصلى ركعتى التراويح المسنونة إذا كان فردا ، أو إذا كان إماما ، أو مأموما . ويستحبّ أن يقرأ فى الركعة الأولى منها فى أول ليلة من شهر رمضان الفاتحة وسورة العلق ، وهى اقرأ باسم ربك الذى خلق ، لأنها أول سورة نزلت من القرآن عند إمامنا أحمد بن محمدبن حنبل رحمه الله ، وكذلك عند جميع الأئمة رضوان الله عليهم ، ثم يسجد فى آخرها ، ثم ينهض فيبدأ بسورة البقرة . ويستحبّ له قراءة الختمة كاملة ليسمع الناس جميع القرآن فيقفوا على ما فيه من الأوامر والنواهى والمواعظ والزواجر ، ولايستحب الزيادة على ختمة واحدة ، لئلا يشق ذلك على المأمومين فيضجروا وتلحقهم السآمة ويكرهوا الجماعة ويثقلوا بها ، فيفوتهم أجر عظيم وثواب جزيل ، فيكون ذلك بسبب الإمام فيعظم إثمه فيكون من الآثمين ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى مثل ذلك لمعاذ رضى الله عنه « أفتان أنت يامعاذ » وذلك لما صلى بقوم وطوّل فى القراءة وقطع أحدهم الصلاة وانفرد ، ثم شكا ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . ويستحبّ تأخير الوتر إلى آخر صلاة التراويح ، ويقرأ فى الركعة الأولى سبح اسم ربك الأعلى ، وفى الثانية سورة الكافرون ، وفى الثالثة سورة الإخلاص ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم كذلك كان يصلى ويكره التنفل بين كل ترويحتين ، ويكره أن يصلى التراويح فى مسجدين ، وكذلك صلاة النوافل فى جماعة بعد التراويح فى إحدى الروايتين ، لأنه هو التعقب ، وذلك مكروه عند الإمام أحمد رحمه الله تعالى . روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه كرهه بل ينام نومة خفيفة ، ثم يقوم ويأتى بما شاء من النوافل والتهجد ثم يرجع إلى منامه ، وهى ناشئة الليل التى أثنى الله عليها وذكرها وقال (إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا) . والرواية الثانية : أن ذلك جائز غير مكروه لكنه يؤخره لما روى عمر رضى الله عنه قال : تدعون فضل الليل آخره الساعة التى تنامون أحبّ إلىّ من الساعة التى تقومون .

(فصل آخر : يختم به ما يتعلق بليلة القدر وجميع شهر رمضان) قوله عزّ وجل (تنزّل الملائكة والروح) الذى هو جبريل عليه السلام ومعه سبعون ألف ملك وهو أمير عليهم فجبريل عليه السلام يسلم على من كان قاعدا ، والملائكة تسلم على من كان نائما ، والبارى سبحانه وتعالى يسلم على عباده من كان قائما ، كما جاز أن يسلم الله عزّ وجل على عباده المؤمنين من أهل الجنة فى الجنة بقوله (سلام قولا من ربّ رحيم) فجاز أن يسلم على عباده الأبرار فى الدنيا الذين سبقت لهم منا الحسنى والعناية والسعادة فى الأزل ، الفانين عن الخلق الباقين بالربّ المطمئنين إلى الحقّ ، فلا يبقى فى ليلة القدر بقعة إلا وعليها ملك ساجد أوقائم يدعو للمؤمنين والمؤمنات إلا أن تكون كنيسة أو بيعة أو بيت النار أو بيت الوثن ، أو بعض أماكنهم التى يطرحون فيها الخبث ، فلا يزالون يدعون ليلتهم تلك للمؤمنين والمؤمنات . وأما جبريل عليه السلام فلا يدع أحدا من المؤمنين والمؤمنات إلا يسلم عليه ويصافحه ويقول له : إن كنت فى الطاعة فسلام عليك

بالقبول والإحسان ، وإن كنت فى المعصية فسلام عليك بالغفران ، وإن كنت فى النوم فسلام عليك بالرضوان ، وإن كنت فى القبر فسلام عليك بالروح والريحان ، فهو قوله عزّ وجل (من كل أمر سلام) وقيل : إن الملائكة تسلم على أهل الطاعات ولا تسلم على أهل العصيان، فمنهم الظلمة ليس لهم نصيب فى سلام الملائكة وآكل الحرام وقاطع الرحم والنمام وآكل أموال اليتامى ، فهؤلاء ليس لهم نصيب فى سلام الملائكة ، فأىّ مصيبة أعظم من هذه المصيبة ؟ يمضى شهرا أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار،ولا يكون ذلك حظّ فى سلام ملائكة ربّ العصاة والأبرار ، فهل كان ذلك إلا لبعدك من الرحمن ، وكونك من أهل الطغيان وموافق الشيطان ، وتحليك بحلية سالكى سبيل النيران ؟ ولبعدك وتجافيك عن سالكى سبيل الجنان ، وهجرانك لطاعة من بيده الضرر والإحسان ؟ فشهر رمضان شهر الصفا وشهر الوفا وشهر الذاكرين وشهر الصابرين وشهر الصادقين؛ فإذا لم يؤثر فى إصلاح قلبك وإقلاعك عن معاصى ربك ومجانبة أهل الشقاء والجرائم ، فما الذى يؤثر فى قلبك ؟ فأىّ خير يرجى فيك ؟ وأى بقية بقيت فيك ؟ وأى فلاح يترقب منك ؟ فتنبه يا مسكين لما حلّ بك ، واستيقظ من رقدتك وغفلتك،وانظر إلى الذى دهاك ، وشيع بقية شهرك بالتوبة والإنابة ، وتمتع فيها بالاستغفار والطاعة لعلك تكون ممن تناله الرحمة والرأفة ، وتودّعها بإسبال العبرات ، وابك على نفسك المشئومة بالعويل والويل والنياحات ، فكم من صائم لايصوم غيره أبدا ، وكم من قائم[1] لايقوم بعده أبدا،والعامل يعطى أجره عند فراغه من عمله،وقد فرغنا من العمل،فليت شعرى أمقبول صيامنا وقيامنا أم مضروب بهما وجوهنا ؟ ياليت شعرى من المقبول منا فنهنيه ؟ ومن المردود منا فنعزّيه ؟ وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « ربّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش وربّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر » السلام عليك يا شهر الصيام ، السلام عليك يا شهر القيام ، السلام عليك يا شهر الإيمان ، السلام عليك يا شهر القرآن ، السلام عليك يا شهر الأنوار السلام عليك يا شهر المغفرة والغفران ، السلام عليك يا شهر الدرجات والنجاة من الدركات ، السلام عليك يا شهر التائبين العابدين ، السلام عليك يا شهر العارفين ، السلام عليك ياشهر المجتهدين ، السلام عليك يا شهر الأمان ، كنت للعاصين حبسا وللمتقين أنسا ، السلام على القناديل والمصابيح الزاهرة والعيون الساهرة والدموع الهاطلة ، والمحاريب المنورة والعبرات المنسكبة المتفطرة ، والأنفاس الصاعدة من القلوب المحترقة . اللهمّ اجعلنا ممن قبلت صيامهم وصلاتهم وبدلت سيئاته بحسناته وأدخلته برحمتك فى جناتك،ورفعت درجاته يا أرحم الراحمين :

(فصل : فى ذكر الفطر) قال الله تعالى (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) قوله (قد أفلح) فالفلاح على وجهين : أحدهما الفوز بالجنة والنجاة من النيران فى العقبى ومن الآفات والبليات فى الدنيا ، والثانى اليمن والسعادة بالتوفيق للطاعة فى الدنيا والخلود فى الجنان فى الأخرى ، قال الله عزّ وجلّ (قد أفلح المؤمنون) يعنى سعدوا ، ونظيره (قد أفلح من تزكى) أى وفق للزكاة ، وتطهيره إيمانه وتقواه من الآثام . وأما من لم يزك فلا فلاح له ،

(١) لعل « من صائم يوم . وقائم ليل » الخ . اهـ مصححه .

قال الله عزّ وجل (لايفلح المجرمون) أى لايفوزون ولايسعدون . وأما قوله (من تزكى) فقد اختلف فى ذلك ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما : يعنى من تطهر من الشرك بالإيمان . وقال الحسن رحمه الله (من تزكى) يعنى من كان صالحا وعمله زاكيا ناميا . وقال أبوالأحوص : أعنى به زكاة الأموال كلها . وقال قتادة وعطاء رحمهما الله: أراد به زكاة الفطر لاغير. وقوله (وذكر اسم ربه فصلى) قد اختلف فى ذلك أيضا ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما : معناه وحد الله تعالى وصلى الصلوات الخمس . وقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه (ذكر اسم ربه) بالتكبير (وصلى) يعنى خرج إلى العيد فصلى . وقال وكيع بن الجراح رحمه الله : زكاة الفطر لرمضان كسجدة السهو للصلاة ،وفرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طهرة للصائم من الرفث ،فكأنها جبران للصائم لما دخله من النقصان بالآثام من اللغو والرفث والكذب والغيبة والنميمة وأكل الشبهات والنظر إلى المستحسنات ،فجعلت الفطرة مكفرة لها متممة للصيام جابرة لها ، كالتوبة للذنوب والاستغفار لها ، والسجود للسهو ؛ فكأنما السجود للسهو شرع ترغيا للشيطان إذا كان هو السبب فى ذلك ، فكذلك التوبة من المعاصى والفطرة لرمضان شرعتا ترغيا له ، لأن المعاصى الرفث الحاصل فى الصيام سببه الشيطان ، أعاذنا الله وجميع المؤمنين من مكايده ومصايده وغوائله ، وسلمنا من آفات الدنيا وبلائها ، وأخرجنا منها برحمته ومنه آمين .

(فصل) وإنما سمى العيد عيدا لأنه يعيد الله إلى عباده الفرح والسرور فى يوم عيدهم . وقيل : إنما سمى عيدا لأنه فيه عوائد الإحسان من الله وفوائد الامتنان منه للعبد . وقيل : لأنه يعود العبد فيه إلى التضرّع والبكاء ، ويعود الربّ عزّ وجل فيه إلى الهبة والعطاء . وقيل : لأنهم عادوا إلى مثل ما كانوا عليه من الطهارة . وقيل : معناه عادوا من طاعة الله إلى طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن الفريضة إلى السنة ، ومن صوم رمضان إلى صوم ستة أيام من شوّال . وقيل : إنما سمى عيدا لأنه يقال للمؤمنين فيه : عودوا إلى منازلكم مغفورا لكم . وقيل : إنما سمى العيد عيدا لأن فيه ذكر الوعد والوعيد ، ويوم الجزاء والمزيد ، ويوم عتق الإماء والعبيد ، وإقبال الحقّ إلى القريب من خلقه والبعيد ، ووجود الإنابة والأوبة من العبد الضعيف إلى الغفور الودود . وقال وهب بن منبه رحمه الله : خلق الله الجنة يوم الفطر ، وغرس شجرة طوبى يوم الفطر ، واصطفى جبريل عليه السلام للوحى يوم الفطر ، والسحرة وجدوا المغفرة يوم الفطر . روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا كان يوم الفطر وخرج الناس إلى الجبانة اطلع الله تعالى عليهم فيقول : عبادى لى صمتم ولى صليتم انصرفوا مغفورا لكم » . وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « ليلة الفطر يوفى الله تعالى فيها أجر من صام شهر رمضان ،فيأمر الله تعالى غداة الفطر للملائكته فيهبطون إلى الأرض ، ويقومون على أفواه السكك ومجامع الطرق فينادون بصوت يسمعه جميع الخلائق إلا الإنس والجن : يا أمة محمد اخرجوا إلى ربكم عزّ وجل يقبل القليل ويعطى الجزيل ويغفر الذنب العظيم ،فإذا برزوا إلى مصلاهم وصلوا ودعوا لم يدعْ لهم الربّ تبارك وتعالى حاجة إلا قضاها ،

ولا سؤالا إلا أجابه ولا ذنبا إلا غفره ، فينصرفون مغفورا لهم » . وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما : « فإذا كانت ليلة الفطر سميت تلك الليلة ليلة الجائزة ، وإذا كان غداة الفطر بثّ الله ملائكته فى كل البلاد ، فيهبطون إلى الأرض فيقومون على أفواه السكك وينادون بصوت يسمعه كل من خلق الله تعالى إلا الجنّ والإنس ، فيقولون : يا أمة محمد اخرجوا إلى ربّ كريم يعطى الجزيل ويغفر الذنب العظيم ، فإذا برزوا إلى مصلاهم يقول الله تعالى لملائكته : يا ملائكتى فيقولون : لبيك وسعديك ، فيقول لهم : ما جزاء الأجير إذا عمل عمله ؟ فيقولون : إلهنا وسيدنا ومولانا توفية أجره ؛ قال : فيقول الجليل جل جلاله : أشهدكم يا ملائكتى أنى قد جعلت ثواب صيامهم من شهر رمضان وقيامهم رضائى ومغفرتى ؛ ثم يقول : يا عبادى سلونى فوعزتى وجلالى لا تسألونى اليوم فى جمعكم هذا شيئا لآخرتكم إلا أعطيتكم ، ولا لدنياكم إلا نظرت لكم ، وعزتى وجلالى لأسترنّ عليكم عثراتكم ما راقبتمونى ، ولا أخزيكم ولا أفضحكم بين أصحاب الحدود ، انصرفوا مغفورا لكم ، قد أرضيتمونى ورضيت عنكم ، قال : فتفرح الملائكة وتستبشر بما يعطى الله عزّ وجل هذه الأمة إذا أفطروا من شهر رمضان » .

(فصل) وأربعة أعياد لأربعة أقوام : أحدها عيد قوم إبراهيم ، قوله عزّ وجل (فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم) وذلك أن قومه خرجوا إلى عيد لهم فتخلف إبراهيم عليه السلام عنهم واعتلّ بعلة ولم يخرج معهم ، لأنه لم يكن على دينهم ؛ فلما خرجوا أخذ فأسا وكسر أصنامهم ، وجاء بالفأس فوضعه فى عنق الصنم الكبير ؛ فلما رجعوا قالوا (من فعل هذا بآلهتنا) القصة إلى آخرها ، فغار خليل الرحمن عليه السلام لربه ، فأتعب يده بكسر الأصنام وخاطر بنفسه فى ولاية ربّ الأنام ، فأكرمه ربه بالخلة ، وأحيا على يده الطيور الميتة ، وأخرج من ظهره أهل الرسالة والنبوّة وجعله أبا المصطفى خير البرية صلى الله عليه وسلم . وأما العيد الثانى : فهو عيد قوم موسى كليم الرحمن عليه السلام ، قوله عزّ وجل (موعدكم يوم الزينة) قيل : سمى يوم الزينة لأنه عز وجل زين موسى وقومه بإهلاك عدوّهم فرعون وقومه ، فخرج مع فرعون وقومه اثنان وسبعون ساحرا ، وقيل : ثلاثة وسبعون ، ومعهم سبعمائة عصا وحبل ، وجعلوا فى وسط العصا الملتفة بالحبال الزئبق والخلائق قيام على الرمضاء ، واشتدّ حرّ الشمس فسال الزئبق فسعت العصى الملتفة بالحبال ، فتخيل للناس أنها حيات تسعى وهى لا تتحرك (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) على قومه ، قال : ربما يتوهمون أن الذى فعلوه حقّ فينقص إيمانهم أو يرتدون ، فقال الله تعالى لموسى عليه السلام (وألق عصاك) فألقاها فإذا هى حية كأعظم جمل يكون ، ولها عينان تتقدان نارا ، ودمدمة وهيبة ، فأقبلت على ما صنعوا من السحر والحبال والعصىّ فتلقفتها ، يعنى تلقمتها بأسرها ولم تتغير بانتفاخ بطن ونقصان حركة ولا زاد فى طولها ولا فى عرضها (فألقى السحرة ساجدين) له عزّ وجل وكان أكبرهم اسمه شمعون ، فقالوا (آمنا) يعنى صدّقنا (برب هارون وموسى) ثم أقبلت الحية على عسكر فرعون وقومه فانهزموا وقيل : مات منهم خمسون ألفا ، القصة بطولها . وأما الثالث : فهو عيد عيسى عليه السلام وقومه ،

قوله تعالى (اللهمّ ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك) الآية . وذلك أن الحواريين قالوا : ياعيسى هل يستطيع ربك أن يعطيك إن سألته أن ينزّل علينا مائدة من السماء ، قال لهم عيسى عليه السلام اتقوا الله فلا تسألوه البلاء إن كنتم مؤمنين ، فإنها إن أنزلت ثم كذبتم بها عوقبتم (قالوا : نريد أن نأكل منها) فقد جعنا (وتطمئن قلوبنا) يعنى تسكن قلوبنا إلى ما تدعونا إليه من الإيمان والتصديق (ونعلم أن قد صدقتنا) بأنك نبيّ ورسول (ونكون عليها) يعنى على المائدة(من الشاهدين) عند بنى إسرائيل إذا رجعنا إليهم . والحواريون هم الذين أجابوا عيسى عليه السلام حين مرّ بهم وهم ببيت المقدس يقصرون الثياب . وبالنبطية : الحواريون : المبيضون للثياب ، وهم اثنا عشر رجلا لما قال لهم عيسى عليه السلام (من أنصارى إلى الله) يعنى من ينصرنى مع الله على أهل الكفر والطيغان فادعوهم إلى طاعة الله تعالى وتوحيده (فقال الحواريون نحن أنصار الله) فتركوا معيشتهم واتبعوا عيسى عليه السلام يسبحون معه أينما توجه من الأرض ، فيرون العجائب والمعجزات التى تجرى على يده عليه السلام ، فأىّ وقت جاعوا واحتاجوا إلى الطعام أخرج عيسى يده فأخرج من الأرض لكل واحد منهم رغيفين ولنفسه كذلك ؛ وكان جبريل عليه السلام يمشى معه ويريه العجائب ويؤيده وينصره بالأشياء ، فما زال عيسى عليه السلام يرى بنى إسرائيل العجائب ولم يزدهم ذلك إلا بعدا من تصديقه واتباعه ، حتى خرج معه يوما خمسة آلاف بطريق من بنى إسرائيل وسألوه المائدة مع الحواريين ، فقال عيسى بن مريم عليه السلام عند ذلك (اللهمّ ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا) يقول : تكون عيدا لمن كان فى زماننا عند نزول المائدة ، وتكون عيدا لمن بعدنا ، تكون المائدة (آية منك وارزقنا) يعنى المائدة (وأنت خير الرازقين) من غيرك ، فإنك خير من يرزق ، قال الله تعالى (إنى منزلها) يعنى المائدة عليكم (فمن يكفر بعد منكم) أى بعد نزولها منكم (فإنى أعذبه عذابا لاأعذبه أحدا من العالمين) فأنزلها الله عليهم يوم الأحد من السماء سمكا طريا وخبزا رقاقا وتمرا . وقيل : كانت سفرة فيها سمكة مشوية ، وعند رأسها ملح وعند ذنبها خلّ وفيها خمسة أرغفة ، على كل رغيف زيتونة ، وخمس رمانات وتمرات قد نضد حولها من البقول ما خلا الكراث . وقيل : إن عيسى عليه السلام قال لأصحابه وهم جلوس فى روضة : هل مع أحد منكم شىء ، فجاء شمعون بسمكتين صغيرتين وخمسة أرغفة ، وجاء آخر بشىء من السويق ، فعمد عيسى عليه السلام فقطعهما صغارا وكسر الخبز فوضعه فلقا ، ووضع السويق وتوضأ صلى ركعتين ودعا ربه ، فألقى الله سبحانه وتعالى على أصحابه شبه السنات ، ففتح القوم أعينهم وزاد الطعام حتى بلغ الركب ، فقال عيسى عليه السلام للقوم : كلوا وسموا الله ولا ترفعوا ، وأمرهم أن يجلسوا حلقا حلقا ، فجلسوا وأكلوا وسموا الله تعالى حتى شبعوا وهم خمسة آلاف رجل ، وقيل إنهم كانوا ألف رجل وثمانمائة رجل وامرأة من بين فقير وجائع وبين من له فاقة إلى رغيف واحد أو أكثر ، فصدروا كلهم شباعا يحمدون ربهم ، وإذا ما عليها كهيئته ، ورفعت السفرة إلى السماء وهم ينظرون ، قال فاستغنى كل فقير أكل منها يومئذ ولم

يزل غنيا حتى مات ، وبرئ كل زمن وشفى كل مريض . وقال مقاتل : فنادى عيسى عليه السلام للقوم : أكلتم ؟ فقالوا : نعم ، قال: فلا ترفعوا، قالوا : لا نرفع ورفعوا ، فبلغ كل ما رفعوا من الفضل أربعة وعشرين مكتلا ، فآمنوا عند ذلك بعيسى عليه السلام وصدقوا به ، ثم رجعوا إلى قومهم اليهود ، يعنى بنى إسرائيل ومعهم فضل المائدة ، فلم يزل بهم قومهم حتى ردّوهم عن الإسلام ، وكفروا بالله تعالى ، وجحدوا بنزول المائدة ، فمسخهم الله عزّ وجل وهم نيام خنازير وهم ذكور ، وليس فيهم صبىّ ولا امرأة . وقيل فى ذلك مائدة وضع عليها طعام محدود ، صدر عنها الجمّ الغفير والجمع الكثير وهى بحالها ، فكيف بمائدة الرضا وبساط الرحمة التى لا حدّ لها ولا نهاية . فى الخبر « إن لله عزّ وجل مائة رحمة ، واحدة أنزلها إلى خلقه فيها يتراحمون وبها يتعاطفون ، وأخر تسعة وتسعين عنده يرحم بها عباده يوم القيامة » . وفى خبر آخر « إن يوم القيامة يبسط الجليل جلّ جلاله بساط المجد يدخل ذنوب الأولين والآخرين فى حواشيه ويبقى البساط فارغا حتى يتطاول إليه إبليس رجاء أن تصيبه » ومع ذلك لاينبغى لكلّ عاقل لبيب أن يتكل على ذلك ويغترّ به ، ، ولايغلبه الرجاء فيهلك ، بل يبذل مجهوده ويستفرغ وسعه فى أداء الأوامر وانتهاء النواهى وتسليم الأمور إلى الله عزّ وجل ، ويكثر من الاستغفار والتوبة ، ويكون دائما على حذر ، لاخوف مؤيس من رحمة الله ، ولا رجاء يوقع فى ارتكاب المحارم وإهمال الأوامر ، بل يبتغى بين ذلك سبيلا . كما قيل : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا ، فليكن خوفه ورجاؤه كجناحى الطائر ، والطائر لا يطير بجناح واحد . وأما العيد الرابع : فهو عيد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكرنا ما يتعلق به أوّل المجلس .

(فصل) يشترك المؤمن والكافر فى العيد ، فكل له عيد ؛ فالمؤمن عيده لرضا الرحمن ، والكافر عيده لرضا الشيطان ، المؤمن يذهب إلى عيده وعلى رأسه تاج الهداية وعلى عينيه علامة فكرة العبرة ، وعلى أذنيه استماع الحقّ ، وعلى لسانه الشهادة بالتوحيد ، وفى قلبه المعرفة واليقين وعلى عنقه رداء الإسلام ، وفى وسطه منطقة العبودية ، ومعدنه المحاريب والجوامع والمساجد ، ومعبوده ربّ العباد والبرية ، ثم التضرّع منه . والسؤال ، ويقابله الربّ بالإجابة والنوال ، ثم يحله دار الكرامة والجنان ؛ والكافر يذهب إلى عيده وعلى رأسه تاج الخسران والضلال ، وعلى أذنيه ختم الغفلة والحجاب ، وعلى عينيه علامة السهو والشهوات ، وعلى لسانه ختم الشقاوة والإبعاد ، وعلى قلبه ظلمة النكرة والجحود ، وعلى وسطه زنار الفرقة والشقاوة والشقاق ، وموضعه البيعة والكنائس أو بيت النار ، ومعبوده الوثن والأصنام ومصيره آخرا إلى جهنم والنيران .

(فصل) ليس العيد لبس الناعمات وأكل الطيبات ومعانقة المستحسنات والتمتع باللذات والشهوات ، لكن العيد بظهوره علامة القبول للطاعات ، وتكفير الذنوب والخطيئات ، وتبديل السيئات بالحسنات ، والبشارة بارتفاع الدرجات ، والخلع والطرف والهبات والكرامات ، وانشراح الصدر بنور الإيمان ، وسكون القلب بقوّة اليقين وما ظهر عليه من العلامات ، وانفجار

بحور العلوم من القلب على الألسنة ، وأنواع الحكم والفصاحة والبلاغة . كما قيل : إن رجلا دخل على علىّ رضى الله عنه وكرّم الله وجهه فى يوم عيد ، وهو يأكل الخبز الخشكار فقال له : اليوم يوم العيد وأنت تأكل الخبز الخشكار ؟ فقال : اليوم عيد لمن قبل صومه ، وشكر سعيه ، وغفر ذنبه ، اليوم لنا عيد وغدا لنا عيد ، وكل يوم لانعصى الله فيه فهو لنا عيد ؛ فينبغى لكل عاقل أن يترك النظر إلى الظاهر ولا يتقيد به ، بل يكون نظره فى يوم العيد نظر التفكر والاعتبار ، فيشبه العيد بيوم القيامة ، فليذكر نفخ الصور يوم القيامة عند سماع صوت بوق السلطان ليلة العيد ؛ وإذا بات الناس ليلة العيد ورقدوا منتظرين عيدهم متأهبين له ، فيذكر الرقود بين النفختين ، وإذا رأى الناس صبيحة يوم العيد وقد خرجوا من قصورهم وبيوتهم مختلفى الأحوال متفاوتى اللباس والألوان كلٌ ذى زىّ وحلية ، واحد منهم مسرور وواحد مغموم ، وواحد راكب وآخر ماش ، وواحد غنىّ وآخر فقير ، وواحد فى فرحة وآخر فى ترحة ، فليذكر تفاوت أهل القيامة ، أهل الطاعة مسرور وأهل المعصية مغموم ، المتقى راكب والمجرم المشرك متعثر مكبوب على وجهه مسحوب أوماش ، كما قال عزّ من قائل (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) أى ركبانا على النجائب (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) أى عطاشا والزاهد والعارف والبدل كل واحد فى راحة وغنى عند مليكهم ومحبوبهم تحت ظلّ العرش عليهم الحلىّ والحلل ، وأنوار الطاعات والمعارف على وجوههم ظاهرة وهى نضرة ومشرقة ، وبين أيديهم موائد عليها أنواع الأطعمة والأشربة والفواكه حتى يقضى حساب الخلائق ، ثم يسيرون إلى الجنة إلى منازلهم التى أعدّ الله تعالى لهم ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، قال الله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون) . وأما الراغب فى الدنيا فهو فى نياحة وبكاء وعناء ، ممنوع عما فيه القوم من النعم بدنياه ، وتناوله الحرام والشبهات ، وتخليطه فى طاعة ربه ، وهو يرى مكانه فى الجنة فلا يصل إليه حتى يخرج مما عليه من الحقوق ؛ والكافر ينادى بالويل والثبور لما قد عاين وانكشف له من أنواع العذاب والنكال والهوان والهلاك والخلود فى النيران ، وإذا رأى الأعلام قد نشرت والألوية قد ضربت فليذكر أهل الإسلام أصحاب الأعلام حين ينادى منادى الرحمن بالتوجه إلى زيارة ربّ الأنام إلى دار السلام بأمر السلام ، وإذا رأى الصفوف قد استكملت والخلائق قد اجتمعت فليذكر وقوف الخلائق بين يدى الجبار وصفوف الفجار والأبرار يوم النشر الذى فيه تظهر الأسرار ، وإذا رأى الناس قد انصرفوا من الجبانة فكلّ يرجع إلى ما قد قسم له من دار أو مسجد أو خان ، فليذكر منصرف الخلائق من بين يدى الملك المنان الديان إلى الجنة أو إلى النار : كما قال ذو العظمة والامتنان (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرّقون ـ فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير) .

(مجلس : فى فضائل أيام العشر)

قوله عزّ وجلّ (والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر) . قوله (والفجر) اختلف الناس فى ذلك ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما : عنى بالفجر : صلاة الصبح ، (وليال عشر) هى عشر ذى الحجة ، (والشفع) الخلق ، (والوتر) هو الله (والليل إذا يسر) يعنى إذا ذهب (هل فى ذلك قسم لذى حجر) أى إن ذلك قسم لذى لبّ وعقل، وجواب القسم قوله تعالى (إن ربك لبالمرصاد) . وقال مقاتل رحمه الله : (والفجر) عنى به : غداة جمع يوم النحر ، (وليال عشر) وهى عشر ليال قبل الأضحى ، وإنما سماها عزّ وجلّ : ليال عشر ، لأنها تسعة أيام وعشر ليال ، (والشفع والوتر) أما الشفع : فآدم وحوّاء عليهما السلام ، والوتر : فهو الله عز وجلّ (والليل إذا يسر) إذا أقبل ، وهى ليلة الأضحى ، فأقسم عزّ وجلّ بيوم النحر والعشر وبآدم وحوّاء ، وأقسم بنفسه تبارك وتعالى وبليلة الأضحى ؛ فلما فرغ منها قال (هل فى ذلك قسم لذى حجر) ؟ يعنى : هل فى ذلك القسم كفاية لذى لبّ ، يعنى ذى عقل ، فيعرف عظم هذا القسم ، (إن ربك لبالمرصاد) . وقيل : المراد بالفجر : فجر النهار . وقيل : هو النهار ، فعبر عنه بالفجر ، لأنه أوّله . وقال مجاهد رحمه الله : هو فجر يوم النحر خاصة . وقال عكرمة رحمه الله : أقسم الله تعالى بانفجار المياه من العيون ، والنبات من الأرض ، والثمار من الشجر . وقيل : أقسم الله بانفجار الماء من أصابع النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : أقسم الله بانفجار الناقة من الصخرة لصالح عليه السلام . وقيل : أقسم الله تعالى بانفجار الماء من الحجر بعصا موسى عليه السلام . وقيل : أقسم الله تعالى بانفجار الماء من عيون العصاة . وقيل : أقسم الله تعالى بانفجار المعرفة من القلب كما قال الله تعالى (أومن كان ميتا فأحييناه) يعنى بالإيمان والمعرفة . وأيضا قوله تعالى (وليال عشر) روى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « والفجر وليال عشر : هى عشر الأضحى » . وقال ابن الزبير وابن عباس رضى الله عنهم : إنها عشر ذى الحجة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، فى رواية أخرى : إنه العشر الأواخر من شهر رمضان . وقال مجاهد رحمه الله : إنها عشر موسى عليه السلام . وقال محمد بن جرير الطبرى رحمه الله : إنها عشر أوّل المحرّم . قوله تعالى (والشفع والوتر) قال قتادة والسدىّ رحمهم الله : الشفع : كل اثنين ، والوتر : هو الله تعالى . وقيل : هما آدم وحوّاء ، وهو قول مقاتل : وهو أن آدم كان وترا فشفع بزوجته حوّاء . وقيل : الصلاة منها شفع ، ومنها وتر . قال الربيع بن أنس وأبو العالية رحمهم الله : هى صلاة المغرب الشفع فيها ركعتان، والوتر الثالثة . وقيل : هو يوم النحر ، لأنه العاشر ، والوتر هو يوم عرفة لأنه التاسع . وقيل : الشفع يومان بعد النحر ، والوتر اليوم الثالث . قوله تعالى (والليل إذا يسر) يعنى إذا ذهب . وقيل : إذا أظلم . وقيل : إنه ليلة المزدلفة خاصة . وقيل : يعنى إذا سرى فيه أهله ، لأن السرى : هو سرى الليل ، وقوله

تعالى (هل فى ذلك قسم لذى حجر) يعنى لذى عقل ، وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما . وقال الحسن وأبو رجاء رحمهما الله : لذى علم . وقال محمد بن كعب رحمه الله : لذى دين ، معناه : إن فى ذلك قسم لذى حجر ، وهل هاهنا فى موضع إن ، ومعنى قوله عزّ وجلّ (والفجر وليال عشر) وحقّ ربّ الفجر ، وحقّ ربّ ليال عشر إلى آخر القسم ، وكذلك فيما شاكل ذلك كقوله تعالى (والشمس وضحاها — والسماء والطارق — والسماء ذات البروج) وغيرها ؛

(فصل : فيما ورد فى عشر ذى الحجة من كرامات الأنبياء ، وما نقل فى ذلك من الأخبار والآثار وفضائل الأعمال) أخبرنا الشيخ أبو البركات ، قال أنبأنا الشيخ الحافظ أبو بكر أحمد بن علىّ الثابت الخطيب ، قال أنبأنا أحمد بن أحمد بن زرقونه ، قال أنبأنا محمد بن عبد الله الشافعىّ رحمه الله ، قال أنبأنا محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بحلب ، قال أنبأنا عمرو بن عثمان ، قال أنبأنا الوليد ، عن ابن المبارك ، عن خالد الحذّاء ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما أنه قال فى عشر ذى الحجة قبل الله توبة آدم ، وتاب عليه بعرفة ، لأنه اعترف بذنبه ، وفيه وجد إبراهيم الخليل عليه السلام الخلة ، فبذل ماله للضيفان ، ونفسه للنيران ، وولده للقربان وقلبه للرحمن ، ولم يصحّ لأحد التوكل إلا لإبراهيم خليل الرحمن ، وفيه بنى إبراهيم عليه السلام الكعبة الشريفة ، قال الله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) الآية ، وفيه أكرم الله موسى عليه السلام بالمناجاة ، وفيه نزلت على داود المغفرة ، وفيه كانت ليلة المباهاة . وقيل : إن فيه افتتاح نزول القرآن بكرة يوم الأضحى ، والنبىّ صلى الله عليه وسلم متوجه إلى المصلى ، وفيه كانت بيعة الرضوان ، فأنزل الله تعالى (إذ يبايعونك تحت الشجرة) وهى سمرة ، وكان ذلك يوم الحديبية ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف وأربعمائة رجل وقيل ألف وخمسمائة رجل ، وأول من أطلق يده للمبايعة أبو سنان الأسدىّ ، عليه وعلى جميع الصحابة رحمة الله تعالى وبركاته وتحياته والتابعين لهم بإحسان ، وفيه يوم التروية ، ويوم عرفة ، ويوم النحر وهو يوم الحجّ الأكبر . وأخبرنا الشيخ أبو البركات ، عن الفضل بن محمد ، عن أحمد بن علىّ الحافظ بإسناده عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « سيد الشهور شهر رمضان ، وأعظمها حرمة ذو الحجة » . وأخبرنا الشيخ أبو البركات عن الفضل بن محمد القصار الأصفهانى ، قال أنبأنا أبو سعيد الحسن بن علىّ بن سهدان ، قال أخبرنا عبد الله بن محمد الورّاق ، قال أخبرنا أبو بكر البزار ، قال أخبرنا أبو كامل الفضل بن الحسين الجحدرى ، قال أنبأنا أبو عاصم بن هلال ، عن أيوب ، عن ابن الزبير ، عن جابر رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « أفضل أيام الدنيا أيام عشر ذى الحجة ، قيل : ولا مثلها فى سبيل الله ؟ قال : ولا مثلها فى سبيل الله ، إلا رجل عفر وجهه فى التراب » وأخبرنا الشيخ أبو البركات عن القاضى أبى المظفر هناد بن إبراهيم البخارى النسفى بإسناده عن عطاء بن أبى رباح ، قال : سمعت عائشة رضى الله عنها قالت : « كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل يحبّ السماع ، يعنى الغناء ، وكان إذا أهلّ هلال ذى الحجة أصبح صائما ، فاتصل الحديث برسول

الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فأحضروا الرجل ، فقال له : ماحملك على صيام هذه الأيام ؟ فقال : يا رسول الله إنها أيام مشاعر وأيام الحجّ ، فأحببت أن يشركنى الله تعالى فى دعائهم . فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : لك بعدد كلّ يوم تصومه عتق مئة ، قة مؤمنة بدنة تهديها ، ومئة فرس تحمل عليها فى سبيل الله ، فإذا كان يوم التروية ، فلك عتق ألف رقبة وألف بدنة وألف فرس تحمل عليها فى سبيل الله ، فإذا كان يوم عرفة فلك عتق ألفى رقبة وألفى بدنة تهديها وألفى فرس تحمل عليها فىسبيل الله ، وصيام سنة قبلها وسنة بعدها » . وأخبرنا الشيخ أبوالبركات بإسناده عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « ما من أيام العمل الصالح فيها أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من رجل فى هذه الأيام ، يعنى أيام العشر ، قالوا : يا رسول الله ولا الجهاد فىسبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد فىسبيل الله ، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشىء » . وأخبرنا الشيخ أبوالبركات ، عن أبىبكر بن أحمد بن علىّ بن ثابت الحافظ بإسناده عن جبيرة بن خالد الخزاعى ، عن حفصة رضى الله عنها أنها قالت : أربع لم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم يتركهنّ : صوم عشر ذى الحجة ، وعاشوراء ، وثلاثة أيام من كلّ شهر ، وركعتان قبل الغداة . وأخبرنا الشيخ أبوالبركات ، من حمزة بن عيسى بن الحسن الورّاق بإسناده عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من أيام أحبّ إلى الله تعالى أن يتعبد له فيهنّ من أيام عشر ذىالحجة ، وإن صيام يوم فيها يعدل صيام سنة ، وقيام ليلة فيهنّ كقيام سنة » . وأخبرنا الشيخ أبوالبركات عن الحسن بن أحمد المقرى بإسناده ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر رضى الله عنه ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صام أيام العشر كتب الله له بكلّ يوم صوم سنة » . وعن سعيد ابن جبير رحمه الله أنه كان يقول : لاتطفئوا سرجكم ليال العشر ، ويأمر بإيقاظ الخدم ، وتعجبه فيه العبادة .

(فصل : فى الصلاه الواردة فى أيام العشر) أخبرنا الشيخ أبو البركات ، عن الشريف أبى عبد الله محمد بن علىّ بن محمد بن يحيى المهدى بإسناده ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أحيا ليلة من ليالى عشر ذى الحجة ، فكأنما عبد الله عبادة من حجّ واعتمر طول سنته ، ومن صام فيها يوما فكأنما عبد الله تعالى سائر سنته . أخبرنا الشيخ أبوالبركات عن محمد بن محمد بن عبد العزيز الشاهد بإسناده عن جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين ، عن أبيه محمد بن علىّ ، عن أبيه علىّ بن الحسين زين العابدين ، عن أبيه الحسين بن علىّ ، عن أبيه على رضى الله عنه ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا دخل عشر ذىالحجة ، فجدّوا فى الطاعة ، فإنها أيام فضلها الله تعالى وجعل حرمة ليلها كحرمة نهارها ، فمن صلى فى ليلة من ليالى العشر فى الثلث الأخير أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرّة ، والمعوّذتين ، ويكرّر سورة الإخلاص ثلاثا ، ويقرأ آية الكرسى ، ويكرّر ذلك ثلاثا فى كل ركعة ، فإذا فرغ من صلاته رفع يديه وقال : سبحان

ذى العزّة والجبروت ، سبحان ذى القدرة والملكوت ، سبحان الحى الذى لايموت ، لاإله إلا هو يحيى ويميت ، وهو حىّ لايموت ، سبحان الله ربّ العباد والبلاد ، والحمد لله كثيرا طيبا مباركا على كلّ حال ، الله أكبر كبيرا ، ربنا جلّ جلاله وقدرته بكلّ مكان ، قال الشيخ : يعنى علمه بكل مكان ، ثم يدعو بما شاء ، فإن له من الأجر كمن حجّ بيت الله الحرام وزار قبر النبىّ صلى الله عليه وسلم وجاهد فى سبيل الله ، ولم يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه ، وإن صلاها فى كل ليلة من ليالى العشر ، أحله الله تعالى الفردوس الأعلى ، ومحا عنه كلّ سيئة . وقيل له : استأنف العمل ، فإذا كان يوم عرفة ، وصام نهارها ، وصلى ليلها ، ودعا بهذا الدعاء ، وأكثر التضرّع بين يدى الله تعالى يقول الله : ياملائكتى اشهدوا أنى قد غفرت له وأشركته بالحاج إلى بيت الله ، قال : فتستبشر الملائكة بما يعطى الله تعالى ذلك العبد المؤمن بصلاته ودعائه .

(فصل) والعشر لخمسة أنبياء عليهم السلام : الأوّل : عشر آدم عليه السلام ، وهو أنه لما خلق الله حوّاء من ضلعه الأيسر القصير وهو نائم ، فاستيقظ من سنته ، فرأى حوّاء جالسة عنده ، فقال لها : لمن أنت ؟ قالت : لك ، فأراد أن يمسها ، فقيل له : لاتمسها حتى تعطى مهرها ، قال : إلهى وما مهرها ؟ قال الله تعالى : هو أن تصلى على نبىّ آخر الزمان عشر ، فذلك مهرها .

والثانى : عشر إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، قال الله تعالى (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهنّ) وهى عشر خصال : خمس منها فى الرأس : الفرق ، وقصّ الشارب ، والسواك ، والمضمضة ، والاستنشاق . وخمس فى البدن : وهى تقليم الأظفار ، ونتف الإبطين ، والختان ، وحلق العانة ، وتخليل الأصابع ؛ فلما أتمّ إبراهيم عليه السلام هذه الخصال العشرة أكرمه الله تعالى بالخلة ، قوله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا) .

والثالث عشر : شعيب النبىّ عليه السلام ، قوله عزّ وجلّ (فإن أتممت عشرا فمن عندك) وهو أنه أجره موسى عليه السلام نفسه عشر سنين ، فكان أجرته مهر ابنة شعيب النبىّ عليه السلام . وقيل : إن شعيبا عليه السلام بكى عشر سنين حتى ذهب بصره ، فردّ الله بصره عليه ، فأوحى الله تعالى إليه : ياشعيب إن كنت تخاف النيران فقد أمنتك منها ، وإن كنت تريد الجنان فقد وهبت لك ، وإن كنت تطلب الرضوان فقد أعطيتك ؛ فقال : يا جبريل ليس بكائى حبا للجنان ، ولا خوفا من النيران ، ولكن شوقا إلى لقاء الرحمن ، فقال الله عزّ وجلّ : الآن حقّ لك ، فابك ثم ابك ثم عوض لبكائه ن أجعل الله نبيه موسى عليه السلام خادما له عشر سنين . جزاء لما كان من بكائه على محبته ، سوى ما قد ادّخر له عنده من الكرامات والمنازل العاليات والقرب منه تبارك وتعالى ، والنظر إلى وجهه الكريم ، وغير ذلك مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

والرابع : عشر موسى ، عليه السلام ، قوله عزّ وجل (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة

وأتممناها بعشر) وذلك أن الله عزّ وجل وعد موسى عليه السلام المناجاة ، وأعطاه التوراة ، فصام موسى عليه السلام ثلاثين يوما ، وكان شهر ذى الحجة . وقيل : إنه شهر ذى القعدة ؛ فلما قصد المناجاة وضع قطعة زيتون فى فيه لما شاهد من تغير رائحة فمه ؛ فقال عزّ وجلّ : يا موسى أما علمت أن خلوف فم الصائم عندى أطيب من ريح المسك ؟ ثم أمره أن يصوم عشرا من المحرّم آخرها يوم عاشوراء ، وعلى قول من قال : الشهر كان ذا القعدة ، فيكون عشر ذى الحجة ، ثم قرّبه وأكرمه بالمناجاة والقربة ، قوله عزّ وجلّ (ولما جاء موسى لميقاتنا) الآية .

والخامس : عشر نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (والفجر وليال عشر) يعنى عشر ذى الحجة ، وقد ذكرناه .

(فصل) وقيل : من أكرم هذه الأيام العشرة أكرمه الله تعالى بعشر كرامات : البركة فى عمره ، والزيادة فى ماله ، والحفظ لعياله ، والتكفير لسيئاته ، والتضعيف لحسناته ، والتسهيل لسكراته ، والضياء لظلماته ، والتثقيل لميزانه ، والنجاة من دركاته ، والصعود على درجاته . ومن تصدّق فى هذه الأيام العشر بصدقة على مسكين ، فكأنما تصدّق على أنبيائه ورسله ، ومن عاد فيها مريضا فكأنما عاد أولياء الله وبدلائه ، ومن شيع جنازة فكأنما شيع جنازة شهدائه ، ومن كسا مؤمنا كساه الله تعالى من حلله ، ومن لطف فيها بيتيم لطف الله تعالى به فى القيامة تحت ظلّ عرشه ، ومن حضر مجلسا من مجالس العلم ، فكأنما حضر مجالس أنبياء الله ورسله . وقال وهب بن منبه رحمه الله : إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض بكى على ذنبه ستة أيام ، ثم أوحى الله إليه فى اليوم السابع وهو محزون كظيم منكس رأسه ، يا آدم ماهذا الجهد الذى بك ؟ فقال : إلهى عظمت مصيبتى ، وأحاطت بى خطيئتى ، وصرت فى دار الهوان بعد الكرامة ، وفى دار الشقاوة بعد السعادة ، وفى دار الموت والفناء بعد الخلد والبقاء ، فكيف لاأبكى على خطيئتى ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم أما اصطنعتك لنفسى ، ثم اصطفيتك على خلقى ، وخصصتك بكرامتى ، وألقيت عليك محبتى ؟ أما خلقتك بيدى وأسجدت لك ملائكتى ؟ ألم تكن فى بحبوحة كرامتى ومنتهى رحمتى ، فعصيت أمرى ، ونسيت عهدى ؟ فكيف نسيت رحمتى ونعمتى ؟ فوعزّتى وجلالى لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك يعبدونى ويسبحونى الليل والنهار لايفترون عن عبادتى طرفة عين ، ثم إنهم عصونى لأنزلتهم منازل العاصين ؛ قال : فبكى عند ذلك ثلاث مئة عام على جبل الهند تجرى دموعه فى أودية جبالها ، فنبتت من تلك الدموع أشجار طيبة ، فقال له جبريل عليه السلام : اذهب إلى بيت الله الحرام ، واصبر حتى تدخل أيام العشر ، ثم تب إلى الله لعله يرحم ضعفك ، فمضى فكان يخطو خطوة ، فكان موضع قدميه عمرانا ، وما بينهما مفاوز . وقيل : كان بين قدميه ثلاثة فراسخ ، حتى أتى البيت ، فطاف بالبيت أسبوعا كاملا ، وبكى حتى خاض فى دموعه إلى ركبتيه ، وجرى على الأرض ، فقال : لاإله إلا أنت سبحانك اللهمّ وبحمدك عملت سوءا ، وظلمت نفسى

فاغفر لى وأنت خير الغافرين ، وارحمنى وأنت خير الراحمين ، فأوحى الله إليه : يا آدم قد رحمت ضعفك ، وغفرت ذنبك ، وقبلت توبتك ، فذلك قوله عزّ وجل (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) فوجد آدم من بركات أيام العشر التوبة ، وكذلك المؤمن الذى عصى ربه واتبع هواه فى معصية مولاه إذا تاب وأناب ، وانقاد لطاعة الله فى هذه الأيام يتفضل عليه بالرحمة والغفران ، وإبدال السيئات بالحسنات برحمة منه .

(فصل) وقد أقسم الله تعالى (بالفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر) إلى قوله (إن ربك لبالمرصاد) وهى ثمان قناطر على جسر جهنم ، فيسئل العبد فى أوّل موقف منها عن الإيمان بالله ، فإن كان مؤمنا نجا ، وإلا تردّى فى النار ، ثم جاز إلى الثانى فيسئل عن الوضوء والصلاة ، فإن قصر فيهما تردّى فى النار ، وإن أكمل ركوعها وسجودها نجا ، ثم جاز إلى الثالث فيسئل عن الزكاة ، فإن كان قد أدّاها نجا ، ثم جاز إلى الرابع ، فيسئل عن الصيام ، فإن كمل صيامه نجا ؛ ثم جاز إلى الخامس فيسئل عن الحج والعمرة ، فاذا كان أدّاهما نجا ؛ ثم جاز إلى السادس فيسئل عن الأمانة ، فان لم يخن فيها نجا ؛ ثم جاز إلى السابع فيسئل عن الغيبة والنميمة والبهتان ، فإن لم يكن اغتاب نجا ؛ ثم جاز إلى الثامن فيسئل عن أكل الحرام ، فإن لم يكن أكل نجا وإلا تردّى فى النار .

(فصل : فى ذكر يوم التروية) قال الله سبحانه وتعالى (وأذّن فى الناس بالحجّ يأتوك رجالا) الآية . وهذه الآية فى سورة الحجّ ، وهى من أعاجيب سور القرآن العظيم ، فإن فيها مكيا ومدنيا وحضريا وسفريا وليليا ونهاريا ، وفيها ناسخ ومنسوخ . فأما المكىّ فمن رأس ثلاثين آية منها إلى آخرها . وأما الآيات المدنيـة فمن رأس خمسة عشر إلى رأس الثلاثين . وأما الليلى منها فمن أوّلها إلى رأس خمس آيات . وأما النهارى منها فمن رأس خمس إلى رأس تسع . وأما الحضرىّ فالى رأس العشرين ، ونسب ذلك إلى المدينة لقربها منها . وأما الناسخ، فقوله تعالى (أذن للذين يقاتلون) الآية . وأما المنسوخ فثلاث آيات (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبىّ) نسخت بقوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى) ، والثانية قوله تعالى (الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) فنسخت بآية السيف . والثالثة (وجاهدوا فى الله حقّ جهاده) فنسخت بقوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) . قوله تعالى (وأذّن فى الناس بالحجّ)أى ناديا إبراهيم ذرّيتك وغيرهم من بنى آدم من المؤمنين بالحجّ (يأتوك رجالا) أى يجيئون إليك رجالا على أرجلهم ؛ (وعلى كلّ ضامر) يعنى ركبانا على الإبل (يأتين من كلّ فجّ عميق) يعنى من كلّ أرض بعيدة وطريق بعيد ، قال الله تعالى ذلك لإبراهيم عليه السلام حين فرغ من عمارة البيت الحرام ، وقال : إلهى من يقصد هذا البيت ؟ فأمره أن يؤذّن فى الناس بالحجّ ، فصعد أبا قبيس وهو الجبل الذى الصفا فى أصله ، فنادى بأعلى صوته : ياأيها الناس أجيبوا ربكم إن الله يأمركم أن تحجوا بيته ، فسمع نداء إبراهيم كل مؤمن ومؤمنة على وجـه الأرض ، ومن فى أصلاب الرجال وأرحام

للنساء ، فالتلبية اليوم هي جواب نداء إبراهيم عليه السلام عن أمر ربه ، فأجابوا كلهم : لبيك فمن أجاب ذلك اليوم فلا يخرج من الدنيا حتى يزور هذا البيت .

(فصل : فى فضائل من أحرم بالحجّ ولبى وقصد البيت وإليه دنا) روى مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبلت طائفة من اليمن قالوا : فداك الأمهات والآباء ، أخبرنا بفضائل الحجّ ، قال نعم ، أىّ رجل خرج من منزله حاجا أو معتمرا ، فكلما رفع قدما ووضع قدما تناثرت الذنوب من قدميه كما يتناثر الورق من الشجر ، فإذا ورد المدينة وصافحنى بالسلام صافحته الملائكة بالسلام ، فإذا ورد ذا الحليفة واغتسل طهره الله من الذنوب ، وإذا لبس ثوبين جديدين جدّد الله له الحسنات ، وإذا قال لبيك اللهم لبيك أجابه الله تعالى بلبيك وسعديك أسمع كلامك وأنظر إليك ، وإذا دخل مكة فطاف وسعى بين الصفا والمروة أوصل الله له الخيرات ، وإذا وقف بعرفات وضجت له الأصوات بالحاجات ، باهى الله تعالى بهم ملائكة سبع سموات فيقول : ملائكتى وسكان سمواتى ، أما ترون إلى عبادى أتونى من كل فجّ عميق شعثا غبرا ، وقد أنفقوا الأموال وأتعبوا الأبدان ، فوعزتى وجلالى وكرمى لأهبنّ مسيئهم لمحسنهم ، ولأخرجنهم من الذنوب كيوم وضعتهم أمهاتهم ؟ فإذا رموا الجمار وحلقوا الرءوس وزاروا البيت ، نادى مناد من بطنان العرش : ارجعوا مغفورا لكم واستأنفوا العمل » . وروى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه أعرابى وقال له : يا رسول الله خرجت أريد الحجّ ففاتنى ، وأنا رجل متزر ، يعنى محرما ، فمرنى بما أصنع ، فأبلغ به الحج أومثل أجر الحج ؟ فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : انظر إلى أبى قبيس ، فلو أن لك أبا قبيس ذهبا أحمر وجعلته فى سبيل الله ما بلغت ما بلغ الحاج ، ثم قال عليه السلام : إن الحاج إذا أخذ فى جهازه لم يرفع شيئا ولا يضعه إلا كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات ، فإذا ركب بعيره لم يرفع البعير خفا ولا يضعه إلا كتب الله له مثل ذلك ، فإذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه ، فإذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه ، فإذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه ، ثم قال : إذا وقف بالمشعر الحرام خرج من ذنوبه ، فإذا رمى الجمار خرج من ذنوبه ، ثم قال للأعرابى : أنى لك أن تريد تبلغ ما بلغ الحاج » . وعن علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه أنه قال « كنت طائفا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم بالبيت الحرام ، فقلت له : يا رسول الله فداك أبى وأمى ما هذا البيت ؟ فقال : يا علىّ أسس الله تعالى هذا البيت فى دار الدنيا كفارة لذنوب أمتى ، فقلت : فداك أبى وأمى يا رسول الله ، ما هذا الحجر الأسود ؟ قال صلى الله عليه وسلم : تلك جوهرة كانت فى الجنة ، فأهبط الله بها إلى دار الدنيا ، لها شعاع كشعاع الشمس ، فاشتدّ سوادها وتغير لونها منذ مستها أيدى المشركين » . وعن ابن أبى مليكة عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينزل على هذا البيت الحرام فى كل ليلة ويوم مائة وعشرون رحمة ، ستون منها للطائفين بالبيت الحرام ، وأربعون منها للعاكفين حول البيت الحرام ، وعشرون منها للناظرين إليها :

إليها » . وعن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن عمر بن سلمة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «يقول الله تعالى : إن عبدا صححت له فى جسمه وفسحت له فى عمره وتمضى عليه ثلاثة أعوام لا يغدو إلى هذا البيت ، إنه لمحروم إنه لمحروم » . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال « حججنا مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أوّل خلافته ، فدخل المسجد حتى وقف عند الحجر ، فقال : إنك حجر لا تضرّ ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ، فقال له علىّ رضى الله عنه : لا تقل هذا يا أمير المؤمنين ؛ فإنه ليضرّ وينفع بإذن الله ، ولو أنك قرأت القرآن وعلمت ما فيه لما أنكرت علىّ ، فقال له عمر رضى الله عنه : يا أبا الحسن وما تاويله فى كتاب الله عزّ وجل ؟ فقال : قوله تعالى « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم » ، فلما أقرّوا بالعبودية كتب إقرارهم فى ورق ، ثم دعا الحجر فألقمه ذلك الورق ، فهو أمين الله تعالى على هذا المكان ليشهد لمن وافاه يوم القيامة ؛ فقال عمر رضى الله عنه : يا أبا الحسن لقد جعل الله بين ظهرانيك من العلم غير قليل . وعن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « الحجاج والعمار وفد الله عزّ وجل إن دعوه أجابهم ، وإن استغفروا غفر لهم » . وعن مجاهد رحمه الله أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « اللهمّ اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج » . وروى عن الحسن رحمه الله أنه قال فى الخبر « إن الملائكة يتلقون الحاج فيسلمون على صاحب الجمال ويصافحون أصحاب البغال والحمير ويعانقون الرجالة » . وروى عن الضحاك رحمه الله عن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرسلا أنه قال : « أيما مسلم خرج من بيته قاصدا فى سبيل الله فوقصته الدابة قبل القتال ، أو لدغته هامة ، أو مات بأى حتف فهو شهيد ؛ وأيما مسلم خرج من بيته إلى بيت الله تعالى ، ثم نزل به الموت قبل بلوغه إلا أوجب الله له الجنة » . وعن سفيان بن عيينة رحمه الله عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من حجّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق ولم يجهل عاد كما ولدته أمه » . وروى عن سعيد بن المسيب رحمه الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من حجّ هذا البيت ثم عاد فلم يرفث ولم يفسق ولم يجهل عاد كيوم وضعته أمه » . وقال صلى الله عليه وسلم « ليدخل ثلاثة نفر بالحجة الواحدة الجنة : الموصى بها ، والمنفذ لها ، والحاج عنه ؛ والعمرة والجهاد كذلك » . وعن علىّ بن عبد العزيز رحمه الله قال : كنت عديلا لأبى عبيد القاسم بن سلام سنة من السنين ، فلما صرت إلى الموقف فصرت إلى ركن جبل الرحمة ، فتطهرت ونسيت نفقتى عنده ، فلما صرت إلى المأزمين ، قال لى أبو عبيد : لو اشتريت لنا زبدا وتمرا ، فخرجت لابتياع ذلك ، فتذكرت النفقة ، ورجعت عودا على بدء إلى أن وافيت الموضع ، فإذا النفقة بحالها ، فأخذتها ورجعت ، وكنت قد صادفت الوادى مملوءا قردة وخنازير وغير ذلك ، فجزعت منهم ، ثم إنى رجعت فإذا هم على حالهم حتى دخلت على أبى عبيد قبيل الصبح ، فسألنى عن أمرى فأخبرته وذكرت له القردة والخنازير ، فقال : تلك ذنوب بنى آدم تركوها وانصرفوا .

(فصل) واختلفوا فى تسمية يوم التروية ، والتروية : اسم اليوم الثامن من شهر ذى الحجة وهو اليوم الذى يخرج الناس فيه من مكة إلى منى ، فسمى تروية لأن الناس يرتون فيه من ماء زمزم، والتروية: تفعلة من قولهم ارتوى: إذا استقى الماء وسقى وشرب واغتسل، والناس يسقون من ماء زمزم فى ذلك اليوم مستكثرين . وقيل : سميت التروية لأن إبراهيم عليه السلام رأى فى المنام فى ليلتها أنه يذبح ولده ، فلما أصبح تروى وتفكر أنه من العدو الشيطان ، أم من الحبيب الرحمن ؟ فبقى ذلك اليوم متفكرا فيما رأى فلما كان يوم عرفة قيل له : افعل ما تؤمر به ، فعرف أنه من الحبيب ، فلهذا سمى يوم عرفة . قوله عزّ وجل (وأذن فى الناس بالحجّ) أمر خليله بدعوة عباده إلى بيته . والدعوات أربعة: دعوة الله لعباده ، قال الله عزّ وجل (والله يدعو إلى دارالسلام) دعاهم من دار إلى دار، دعاهم من دار التكليف إلى دار التشريف، من دارالغيبة إلى دارالمشاهدة، ومن دارالزوال إلى دار البقاء، ومن دار البلوى إلى دار المولى، دعاهم من دار أولها بكاء ووسطها عناء وآخرها فناء ، إلى دار أولها عطاء ووسطها رضاء وآخرها لقاء . والثانية دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا أمته إلى دين الإسلام قوله عزّ وجل (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) الآية . فالدعوة إليه صلى الله عليه وسلم والهداية ليست إليه ، كما قال عليه الصلاة والسلام « بعثت هاديا وليس إلىّ من الهداية شىء، وبعث إبليس غاويا ، وليس إليه من الضلالة شىء ، قال الله عز وجل (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء (: سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم هداية عمه أبى طالب ، فأبى أن يهدى وهدى وحشيا قاتل حمزة رضى الله عنهما ، كأنه عزّ وجل يقول لنبيه عليه السلام : يا محمد عليك الدعوة كما قال عزّ وجل (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك)، وقال تعالى (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) الآية ، ولك الشفاعة ، وأما الإجابة والهداية فإلىّ ، قال الله عزّ وجل (يهدى الله لنوره من يشاء) قوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) . والثالثة : المؤذّن يدعو إلى الصلاة وإلى دار أمر الله تعالى ، قال الله تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله) وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن المؤذّنين والملبين يوم القيامة يخرجون من قبورهم، المؤذن يؤذن، والملبى يلبى، ويستغفر للمؤذن مدى صوته ، ويشهد له كل رطب ويابس من شجر ومدر سمع صوته ، ويكتب للمؤذن بكل إنسان صلى فى ذلك المسجد مثل حسناته ، ويعطيه الله تعالى ما بين الأذان والإقامة كل شىء سأله ، إما أن يعجله فى الدنيا أو يصرف عنه سوءا ، أو يدخر له فى الآخرة » . وروى « أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جاءه رجل فقال : يا رسول الله أخبرنى بعمل واحد أدخل به الجنة ، فقال : تكون مؤذّن قومك ، يجمعون بك صلاتهم ؛ قال : يا رسول الله ، فإن لم أطق ؟ قال : تكون إمام قومك يقيمون بك صلاتهم ؛ قال : فإن أطلق ؟ قال : فعليك بالصف الأوّل » . وعن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها قالت: « نزلت هذه الآية فى المؤذّنين (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا) » يعنى دعا الخلق إلى الصلاة ، وصلى بين الأذان

والإقامة . وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يغفر للمؤذن مدى صوته ، وله مثل أجر من صلى معه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا » . وعن سعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال «المريض ضيف الله مادام فى مرضه ، يرفع له كل يوم عمل سبعين شهيدا ، فإن عافاه الله من مرضه فيخرج من ذنوبه كيوم وضعته أمه ، وإن قضى عليه بالموت أدخله الجنة بغير حساب » وقال بعضهم : المؤذّن أحاجب الله تعالى يعطى بكل أذان ثواب ألف نبىّ ، والإمام وزير الله يعطى بكلّ صلاة ثواب ألف صديق ، والعالم وكيل الله تعالى يعطى بكل حديث نورا يوم القيامة ، وكتب له عبادة ألف سنة والمتعلمون من الرجال والنساء هم خدم الله فما جزاؤهم إلا الجنة » . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « أطول الناس أعناقا يوم القيامة المؤذّنون » وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « من أذّن سبع سنين أعتقه الله من النار بعد أن يحسن نيته » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « يغفر الله تعالى للمؤذّن مدى صوته ، ويصدقه كل ما سمعه من رطب ويابس » . وأما الدعوة الرابعة ، فدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام قوله عزّ وجل (وأذّن فى الناس بالحج) الآية ، وقد ذكرناها فى أوّل المجلس .

(مجلس : فى فضائل يوم عرفة)

قال الله عزّ وجل (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) هذه الآية نزلت بعرفات دون سائر آيات هذه السورة ، لأنها نزلت بالمدينة وهى سورة المائدة ، وقوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) يعنى شرائع دينكم من الحلال والحرام (وأتممت عليكم نعمتى) أى منتى عليكم : أى لا يجتمع معكم بعرفات كافر ولا مشرك (ورضيت لكم الإسلام دينا) يعنى اخترت لكم دين الإسلام ، نزلت هذه الآية يوم عرفة بعرفات فى حجة الوداع ، ثم مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزولها إحدى وثمانين يوما ، ثم قبضه الله تعالى إلى رحمته ورضوانه . مروىّ ذلك عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عنه وغيره من المفسرين . وقال محمد بن كعب القرظى رحمه الله : نزلت هذه الآية يوم فتح مكة . وقال جعفر الصادق رحمه الله « (اليوم) إشارة إلى بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، ويوم رسالته ، وقيل : إنّ اليوم إشارة إلى يوم الأزل . والإتمام : إشارة إلى الوقت والرضا إشارة إلى الأبد . وقيل : إن كمال الدين فى شيئين : فى معرفة الله تعالى ، واتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : كمال الدين فى الأمن والفراغ ، لأنك إذا كنت آمنا بما تكفل الله تعالى لك صرت فارغا لعبادته . وقيل : كمال الدين فى التبرى من الحول والقوّة والرجوع من الكلّ إلى من له الكل . وقيل : إن كمال الدين حيث ردّ الحج إلى يوم عرفة ، لأنهم كانوا يحجون كل سنة فى كل شهر ؛ فلما ردّ الله وقت الحج إلى الميقات وجعله فريضة ؛ أنزل (اليوم أكملت لكم دينكم) . والدين على وجوه عدّها الله فى القرآن : منها بمعنى الدنيا ، وهو قوله عز وجل (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) يعنى فى دنياه وعادته وسيرته . ومنها الحساب ، قوله

عزّ وجل (ذلك الدين القيم) يعنى الحساب المستقيم . ومنها الجزاء ، قوله عزّ وجل (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحقّ) أى الجزاء الأعدل . ومنها بمعنى الحكم ، قوله عزّ وجل (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) يعنى فى حكم الله . ومنها بمعنى العيد ، قوله تعالى (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) يعنى عيدهم . ومنها الصلاة والزكاة ، قوله تعالى (ذلك دين القيمة) . ومنها القيامة ، قوله تعالى (مالك يوم الدين) . ومنها الشريعة ، قوله عزّ وجل (اليوم أكملت لكم دينكم) يعنى شرائع دينكم .

(فصل) قوله (اليوم أكملت لكم دينكم) وذلك أن الله تعالى أنزل الكتاب جملة واحدة ، وأنزل الفرقان متفرّقا ، فقيل : أيهما أحسن نزولا ؟ قيل : القرآن أحسن لأن الله تعالى لما أنزل التوراة جملة واحدة فقبلها بنو إسرائيل ، فعملوا بها قليلا ، فثقلت عليهم تلك الأوامر والنواهى التى فى التوراة (فقالوا سمعنا وعصينا) . وأما القرآن فأنزله الله شيئا بعد شىء على التدريج متفرّقا ، فأول ما أمر الله المؤمنين بقوله : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وضمن لهم إذا قالوها الجنة ، فسمعوا وأطاعوا ، ثم أمرهم بإقامة صلاتين ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين بعد غروبها ، ثم أمرهم بالصلاة الخمس ، ثم أمرهم بالجمعة على الجماعة بعد الهجرة ، ثم أمرهم بالزكاة ، ثم أمرهم بصوم عاشوراء ، ثم أمرهم بصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، ثم أمرهم بصوم شهر رمضان ، ثم أمرهم بالجهاد ، ثم أمرهم بالحج ، ثم إذ تمت الأوامر والنواهى أنزل الله على رسوله فى حجة الوداع (اليوم أكملت لكم دينكم) . . . الآية ، وكان ذلك يوم الجمعة ، ويوم عرفة ، كذلك نقل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال طارق بن شهاب رحمه الله : جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال له : آية تقرءونها لو كانت نزلت علينا وعلمنا ذلك اليوم لا تخذناه عيدا ، فقال له عمر رضى الله عنه : أىّ آية ؟ فقال (اليوم أكملت لكم دينكم) الآية ، فقال عمر رضى الله عنه : قد علمت فى أىّ يوم نزلت وفى أىّ مكان نزلت ، إنها نزلت يوم عرفة ويوم الجمعة ، ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوف بعرفات ، وكلاهما بحمد الله تعالى لنا عيد ، ولا يزال هذا اليوم عيدا للمسلمين مابقى واحد . وقال رجل من اليهود لا بن عباس رضى الله عنهما : لو كان هذا اليوم فينا لاتخذناه عيدا ، فال له ابن عباس رضى الله عنهما : وأىّ عيد أكمل من يوم عرفة .

(فصل) واختلف العلماء فى المعنى الذى لأجله قيل للموقف عرفات ، وليوم الموقف بها عرفة ، فقال الضحاك : إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض وقع بالهند وحوّاء بجدّة ، فجعل آدم يطلب حوّاء وهى تطلبه ، فاجتمعا بعرفات يوم عرفة وتعارفا ، فسمى هذا اليوم عرفة ، والموضع عرفات . وقال السدىّ : إنما سميت عرفات ، لأن هاجر حملت إسماعيل عليه السلام فأخرجته من عند سارة ، وكان إبراهيم عليه السلام غائبا ، فلما قدم لم ير إسماعيل عليه السلام وحدثته سارة بالذى صنعت هاجر ، فانطلق فى طلب إسماعيل فوجده مع هاجر بعرفات فعرفه ، فسميت عرفات . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن إبراهيم

عليه السلام عدا من فلسطين ، فحلفته سارة أن لا ينزل عن ظهر دابته حتى يرجع إليها من الغيرة ، فأتى إسماعيل ثم رجع ، فحبسته سارة سنة ، ثم استأذنها فأذنت له ، فخرج حتى بلغ مكة وجبالها ، فكان ليله يسير ويسعى حتى أذن الله عز وجل له فى ثلث الليل الأخير عند سند جبل عرفات ، فلما أصبح عرف البلاد والطريق ، فجعل الله عز وجل عرفة حيث عرف : فقال اللهم بيتك فى أحب بلادك إليك حيث تهوى إليه قلوب المسلمين من كل فج عميق » وقال عطاء رحمه الله : إنما سميت عرفات لأن جبريل عليه السلام كان يرى إبراهيم عليه السلام المناسك ، فيقول له عرفت ، ثم يريه فيقول عرفت ، فسميت عرفات . وروى سعيد بن المسيب عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : بعث الله عز وجل جبريل إلى إبراهيم عليهما السلام فحج به ، حتى إذا أتى عرفات قال له : قد عرفت ، قال : وكان قد أتاها مرة من قبل ذلك ، فسميت عرفات . وروى أبو الطفيل رحمه الله عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إنما سميت عرفة لأن جبريل عليه السلام أتى إبراهيم عليه السلام فأراه بقاع مكة ومشاهدها ، فكان يقول : يا إبراهيم هذا موضع كذا وهذا موضع كذا ، فيقول قد عرفت قد عرفت . وروى أسباط عن السدى رحمهما الله قال : لما أذن إبراهيم عليه السلام للناس بالحج أجابوه بالتلبية ، وأتاه من أتاه ، فأمره الله عز وجل أن يخرج إلى عرفات ونعتها له ، فخرج ؛ فلما بلغ الشجرة استقبله الشيطان على الجمرة الثالثة التى هى جمرة العقبة ، فرماه بسبع حصيات وكبر مع كل حصاة ؛ فطار فوقع على الجمرة الثانية ، فرماه وكبر ، فطار فوقع على الجمرة الأولى ، فرماه فكبر ؛ فلما رأى أنه لا يطيقه ، ذهب فانطلق إبراهيم حتى أتى ذا المجاز ، فلما نظر إليه لم يعرفه فجاز ، فلذلك سمى ذا المجاز ؛ ثم انطلق حتى وقف بعرفات ، فلما نظر إليها بالنعت عرفها ، فقال عرفت ، فسميت عرفات بذلك . وسمى ذلك اليوم يوم عرفة ؛ حتى إذا أمسى ازدلف إلى جمع فسميت مزدلفة ، وإنما سمى جمعا لأنه يجمع فيه بين الصلاتين المغرب والعشاء ؛ وإنما سمى المشعر الحرام لأن الله أشعر الناس وأعلمهم بأنه حرم كسائر بقاع الحرم كيلا يأتوا فيه بمحرم . وعن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إنما سميت تروية وعرفة ، لأن إبراهيم عليه السلام رأى ليلة التروية فى منامه أنه يؤمر بذبح ابنه ، فلما أصبح روى يومه أجمع : أى تفكر ، أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان ؟ فسمى اليوم من فكرته تروية ، ثم رأى ليلة عرفة ذلك ثانيا ، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله سبحانه وتعالى ، فسمى ذلك اليوم يوم عرفة . وقال بعضهم : سميت بذلك لأن الناس يعترفون فى هذا اليوم على الموقف بذنوبهم ، والأصل فيه أن آدم عليه السلام لما أمر بالحج فوقف بعرفات يوم عرفة ، فقال (ربنا ظلمنا أنفسنا) الآية : وقيل : هى مأخوذة من العرف وهو الطيب ، قال الله عز وجل (عرفها لهم) : أى طيبها . وقيل : هى ضد منى ، لأن منى موضع يمنى فيه الدم : أى يصب ، ولذلك سميت منى ، ففيه تكون الفروث والدماء ، فهى ليست بطيبة ، وعرفات ليست فيها تلك الأقذار فهى طيبة ، فلذلك سميت عرفات ، ويوم الوقوف بها يوم عرفة . وقيل : لأن الناس يتعارفون بها . وقيل : أصل هذين الاسمين من الصبر ، يقال ،

رجل عارف : إذا كان صابرا خاضعا خاشعا ، ويقال فى المثل : النفس عروف وما حملتها تتحمل وقال ذو الرمة :

* عروف لما حطت عليه المقادير *

أى صبور على قضاء الله ، فسمى بهذا الاسم لخضوع الحجاج وتذللهم وصبرهم على الدعاء وأنواع البلاء ، واحتمال الشدائد والمشقات لإقامة هذه العبادة .

(فصل : فى شرف يوم عرفة وليلته) أخبرنا هبة الله بن المبارك ، قال أنبأنا أبو علىّ الحسن بن أحمد ، أنبأنا علىّ بن محمد بن عبد الله المعدل ، أنبأنا أبو علىّ بن الصواف ، أنبأنا عبد الله بن محمد بن ناجية ، أنبأنا عمر بن حفص أبو عمرو ، أنبأنا محمد بن مروان ، أنبأنا هشام الدستوائى ، عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم أفضل من يوم عرفة ، يباهى الله تعالى بأهل الأرض أهل السماء ، يقول : انظروا إلى عبادى شعثا غبرا جاءونى من كل فجّ عميق ، يرجون رحمتى ويخافون عذابى ، فلم ير يوم أكثر عتقا من النار من يوم عرفة » وأخبرنا هبة الله عن أبى محمد الحسن بن محمد بن أحمد الفارسى بإسناده عن الحسن العرنى ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خطب النبىّ صلى الله عليه وسلم الناس يوم عرفة فقال « أيها الناس إنه ليس البرّ فى إيجاف الإبل ولا فى إيضاع الخيل ، ولكن سيرا جميلا ، تواصلوا ضعيفا ، ولا تؤذوا مسلما » . وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله تعالى ينظر إلى عباده يوم عرفة ، فلا يدع أحدا فى قلبه مثقال ذرّة من الإيمان إلا غفر له » فقلت لابن عمر : للناس جميعا أم لأهل عرفة ؟ فقال : بل للناس جميعا . وأخبرنا هبة الله ، قال أنبأنا مكابر بن الجحش المازنى بالبصرة ، بإسناده عن أبى الزبير عن جابر رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا كان يوم عرفة ينزل الله تعالى إلى سماء الدنيا ، فيباهى بالحاج الملائكة ، فيقول لهم عزّ وجل : يا ملائكتى انظروا إلى عبادى كيف جاءونى من كل فجّ عميق ، شعثا غبرا يرجون رحمتى ويخافون عذابى ، فحقّ على المزور أن يكرم زائره ، وحقّ على المضيف أن يكرم ضيفه ، اشهدوا أنى قد غفرت لهم وجعلت قراهم دخول الجنة ، قال فتقول الملائكة : يا ربّ إن فيهم فلانا يزهو ، وفلانة تزهو ، فيقول الله عزّ وجل : قد غفرت لهم فما من يوم أكثر عتقا من النار من يوم عرفة » وأخبرنا هبة الله بإسناده عن طلحة بن عبد الله رضى الله عنه ، أن رسول صلى الله عليه وسلم قال « ما رأى إبليس يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحض ولا أغيظ من يوم عرفة ، وذلك لما يرى من تنزيل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر ، قالوا : يارسول الله وما رأى يوم بدر ؟ قال : أما إنه رأى جبريل يدعو الملائكة » . وعن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان يقول : إن يوم الحجّ الأكبر يوم عرفة ، وهو يوم المباهاة ، ينزل الله تعالى إلى سماء الدنيا فيقول لملائكته : انظروا إلى عبادى فى أرضى صدّقوا بى ، فليس من يوم أكثر عتقا من النار من يوم عرفة . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« اليوم الموعود يوم القيامة ، والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة » . وعن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله تعالى باهى بالناس يوم عرفة عامة ، وباهى بعمر بن الخطاب خاصة » . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا إن أعظم الناس جرما من انصرف من عرفات » ويرى أن الله عزّ وجل لم يغفر له . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال «إن الله تعالى يغفر عشية يوم عرفة لأهل الجمع جميعا إلا أهل الكبائر ، فإذا كان غداة المزدلفة غفر لأهل الكبائر والتبعات » . أخبرنا هبة الله ابن المبارك ، قال أخبرنا أبو الفتح محمد بن أحمد المطرى يعرف بالباهر ، قال أخبرنا علىّ ابن أحمد بن الرفاء السامرى ، أنبأنا إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمى ، أنبأنا أبو مصعب عن مالك ابن أنس عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال « وقف بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية يوم عرفة ، فلما قام عند الدفعة استنصت الناس فأنصتوا ، فقال : يا أيها الناس إن ربكم عزّ وجل قد تطول عليكم فى يومكم هذا ، فوهب مسيئكم لمحسنكم ، وأعطى لمحسنكم ما سأله ، وغفر ذنوبكم إلا التبعات ، ادفعوا بسم الله ، فلما صرنا بالمزدلفة وقف بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان عند الدفعة استوقف الناس واستنصتهم فأنصتوا ، ثم قال : يا أيها الناس إن ربكم قد تطوّل عليكم فى يومكم هذا ، فوهب مسيئكم لمحسنكم ، وأعطى محسنكم ما سأله ، وغفر ذنوبكم وغفر التبعات وضمن لأهلها الثواب ، ادفعوا بسم الله ؛ فقام أعرابىّ وأخذ بزمام الناقة ، فقال : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحقّ ما بقى من عمل إلا وقد عملته ، وإنى لأحلف على اليمين الفاجرة ، فهل دخلت فيمن وصفت ؟ فقال ؛ : يا أعرابىّ إنك إن تحسن فيما تستأنف يغفر لك فيما مضى خلّ زمام الناقة » . وأخبرنا هبة الله عن أبى على الحسن بن الحباب المقرى ، بإسناده عن ابن عباس بن مرداس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عشية عرفة لأمته بالمغفرة والرحمة ، فأجابه الله تعالى : إنى قد فعلت إلا ظلم بعضهم بعضا ، فأما ذنوبهم فيما بينى وبينهم فقد غفرتها ، فقال : يا ربّ إنك قادر أن تثيب هذا المظلوم خيرا من مظلمته وتغفر لهذا الظالم ، قال : فلم يجبه تلك العشية ؛ فلما كان غداة مزدلفة أعاد الحديث ، فأجابه الله تعالى : إنى قد غفرت لهم ؛ قال : ثم تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له بعض أصحابه : يا رسول الله تبسمت فى ساعة لم تكن تتبسم فيها ؟ فقال : تبسمت من عدوّ الله إبليس لأنه لما علم أن الله قد استجاب لى فى أمتى ما أهوى ، يدعو[1] بالويل والثبور ، ويحثو التراب على رأسه » . وعن سعيد بن جبير رحمه الله قال « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عرفة بعرفات فى الموضع الذى ترفع العباد فيه أيديهم إلى الله تعالى ويعجون بالدعاء ، إذ هبط عليه جبريل عليه السلام ، وقال : يا محمد إن العلىّ الأعلى يقرأ عليك السلام ويقول لك : هؤلاء حجاج بيتى وزوّارى ، وحقّ على المزور أن يكرم الزائر ، أشهدك وأشهد ملائكتى أنى قد غفرت لهم جميعا وهكذا أفعل بزوّار يوم الجمعة » : وعن علىّ رضى الله عنه أنه لما كان عشية يوم عرفة ورسول

(١) قوله يدعو لعل فيه سقطا ، نحو « طفق » ما يصلح أن يكون جوابا لما .

الله صلى الله عليه وسلم واقف ، أقبل على الناس بوجهه فقال : مرحبا بوفد الله ثلاث مرات ، الذين إذا سألوا أعطوا ، وتخلف عليهم نفقاتهم فى الدنيا ، وتجعل لهم عند الله فى الآخرة مكان كلّ درهم ألف ، ألا أبشركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله : قال : فإنه اذا كان فى هذه العشية ينزل الله إلى سماء الدنيا ، ثم يأمر ملائكته فيهبطون إلى الأرض ، فلو طرحت إبرة لم تسقط إلا على رأس ملك ، فيقول الله عزّ وجل : يا ملائكتى انظروا إلى عبادى جاءونى شعثا غبرا من أطراف البلاد ، هل تسمعون ما سألونى ؟ قالوا : يا ربنا يسألونك المغفرة ، فيقول سبحانه وتعالى : أشهدكم أنى قد غفرت لهم ثلاث مرات ، فأفيضوا من موقفكم مغفورا لكم » :

(فصل : فى تفضيل صيامه ، وما ورد فيه من الصلوات ، وما أمر به من صنوف الدعوات)

آخبرنا هبة الله بن المبارك ، قال أنبأنا أحمد بن محمد ، بإسناده عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ، قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من صام يوم عرفة غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر لسنة » . وأخبرنا هبة الله بإسناده عن أبى قتادة رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « صيام يوم عرفة كفارة سنتين ، سنة ماضية ، وسنة مستقبلة » . وأما الصلاة فما أخبرنا به هبة الله ، قال أنبأنا الشيخ أبو علىّ الحسن بن أحمد عبد الله المقرى ، قال أنبأنا أبو الفتح هلال بن محمد بن جعفر الحفار ، قال أنبأنا أبو الحسن علىّ بن أحمد الحلوانى ، أنبأنا موسى بن عمران البلخى ، أنبأنا أبو يوسف بن موسى القطان ، أنبأنا عمر بن نافع ، أنبأنا مسعود ابن واصل ، أنبأنا النهاس بن فهم ، عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم عرفة بين الظهر والعصر أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرّة وقل هو الله أحد خمسين مرة ، كتب له ألف ألف حسنة ، ورفع له بكل حرف فى القرآن درجة فى الجنة ، ما بين كل درجة مسيرة خمسمائة عام ، ويزوّجه الله بكلّ حرف فى القرآن سبعين حوراء ، مع كل حوراء سبعون ألف مائدة من الدرّ والياقوت ، على كل مائدة سبعون ألف لون بين لحم طير خضر ، برده برد الثلج ، وحلاوته حلاوة العسل ، وريحه ريح المسك ، لم تمسسه نار ولا حديدة ، يجد لآخره طعما كما يجد لأوله ، ثم يأتيهم طائر جناحاه من ياقوتتين حمراوين ومنقاره من ذهب ، له سبعون ألف جناح ، فينادى بصوت لذيذ لم يسمع السامعون بمثله ويقول : مرحبا بأهل عرفة ؛ وقال : يسقط ذلك الطير فى صحفة الرجل منهم ، فيخرج من تحت كل جناح من أجنحته سبعون لونا من الطعام فيأكل منها ، ثم ينتفض فيطير ، فإذا وضع فى قبره أضاء له بكل حرف فى القرآن نور حتى يرى الطائفين حول البيت ، ويفتح له باب من أبواب الجنة ، ثم يقول عند ذلك : ربّ أقم الساعة ربّ أقم الساعة ، مما يرى من الثواب والكرامة » :

وأخبرنا هبة الله بن المبارك ، قال أنبأنا الحسن بإسناده عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وعبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم عرفة ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب ثلاث مرات ، فى كل مرة يبدأ ببسم الله الرحمن

الرحيم ويختمها بامين ، ثم يقرأ قل يا أيها الكافرون ثلاث مرات ، وقل هو الله أحد مرة ، يبدأ في كل مرة ببسم الله الرحمن الرحيم ، إلا قال الله تعالى : اشهدوا أنى قد غفرت لـه ذنوبه » .

وأما الدعوات ، فما خبرنا هبة الله بن المبارك عن القاضي الشريف أبي الحسن محمد بن عليّ المهتدى بالله، عن أبي الفتح يوسف بن عمر بن مسرور القواس، قال أنبأناعبدالله بن أحمد بن ثابت البزاز ، أنبأنا أيوب ، يعني ابن الوليد الضرير ، أنبأنا أبو النصر ، يعني الهاشم بن القاسم عن محمد بن الفضل بن عطية ، عن أبيه، عن عبد الله بن عمر الليثي ، عن أبيه رضى الله عنه قال بلغنا أن الله تعالى أهدى إلى عيسى عليه السلام خمس دعوات جاء بهنّ جبريل عليه السلام وقال لعيسى عليه السلام : ادع بهؤلاء الخمس دعوات ، فإنه ليس عبادة أحبّ إلى الله تعالى من عبادة أيام العشر أوّلهن : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير . والثانية: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، له إلها واحدا صمدا لم يتخذ صاحبة ولا ولدا . والثالثة : أشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت وهو حيّ لا يموت ، بيده الخير وهوعلى كل شيء قدير والرابعة : حسبي الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس وراء الله منتهى . والخامسة : اللهمّ لك الحمد كما تقول ، وخيرا مما تقول ؛ اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياى ومماتى ، ولك يارب تراثي : اللهمّ إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن شتات الأمر ؛ اللهم إني أسألك من خير ما تجرى به الريح . فسأل الحواريون عيسى ابن مريم عليه السلام وقالوا: ما ثواب من دعا بهذه الدعوات فقال : أما من قال الأولى مائة مرة ، فإنه لا يكون لأحد من أهل الأرض عمل مثل ذلك العمل في ذلك اليوم ، وكان أكثر العباد حسنات يوم القيامة ؛ ومن قال الثانية مائة مرة ، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه مثلها سيئات ، ورفع لـه عشرة آلاف درجة في الجنة . ومن قال الثالثة مائة مرة ، نزل سبعون ألف ملك من سماء الدنيا رافعي أيديهم يصلون على من قالها ؛ ومن قال الرابعة مائة مرة ، تلقاها ملك ويضعها بين يدى الرحمن عزّ وجل ، فينظر إلى من قالها، ومن نظر الله تعالى إليه لم يشق؛ وقالوا يا عيسى ، فما ثواب من قال الخامسة ؟ قال : هي دعوتي ولم يؤذن لي في تفسيرها .

وأخبرنا هبة الله بن المبارك ، عن الحسن بن أحمد بن عبد الله المقرى ، باسناده عن خليفة ابن الحسين، عن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال«كان أكثر ما يدعو به النبيّ صلى الله عليه وسلم عشية عرفة يقول : اللهمّ لك الحمد كما تقول وخيرا مما تقول ، اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياى ومماتى ، ولك يا ربّ تراثي ، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وفتنة الصدر وشتات الأمر ، اللهمّ إني أسألك من خير ما تجرى به الريح » . وأخبرنا هبة الله بن المبارك بإسناده عن موسى بن عبيدة ، عن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثر دعائي ودعاء الأنبياء من قبلي بعرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهوعلى كل شيء قدير ، اللهم اجعل في قلبي نورا،وفي سمعي نورا وفي بصري

نورا اللهمّ اشرح لى صدرى ويسرلى أمرى ؛ اللهم إنى أعوذ بك من وساوس الصدر وفتنة القبر وشتات الأمر؛ اللهم إنى أعوذ بك من شرّ ما يلج فى الليل، ومن شرّ ما يلج فى النهار، ومن شرّ ما تهب به الرياح، ومن شرّ بوائق الدهر ». وروى الضحاك رحمه الله عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال فى حجة الوداع حين اجتمعوا بعرفة : « هذا يوم الحجّ الأكبر ، ولا حج لمن لم يواف عرفة اليوم والليلة ، فاليوم دعاء وسؤال الربّ عز وجل ، وهو يوم تهليل وتكبير وتلبية إنه من وافى هذا اليوم فى هذا المكان وحرم سؤال ربه عز وجل فهو المحروم ، وإنكم تدعون جوادا لا يبخل ، وحليما لا يجهل ، وعالما لا ينسى ، إنه من صام يوم عرفة مقيما فى أهله فقد صام عاما أمامه وعاما خلفه » .

(فصل) وأما ما اختصّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدعاء فى عشية عرفة ، فهو ما أخبرنا به هبة الله بن المبارك ، قال أنبأنا القاضى أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسن بن عبد الكريم العسكرى ، قال حدثنا علىّ بن محمد بن عبيد الله المعدل ، قال حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا محمد بن أحمد أبو شيبة ، حدثنا علىّ ، حدثنا مسلم ، أنبأنا ابن أبى فديك ، قال حدثنى إبراهيم بن فضل المخزومى ، عن سليمان بن زيد ، عن هرم بن حيان ، عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس فى الموقف بعرفة قول ولا عمل أفضل من هذا الدعاء ، وأول من ينظر الله إليه صاحبه ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا وقف بعرفة استقبل القبلة بوجهه وبسط يديه كهيئة الداعى ، ثم يلبى ثلاثا ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، مائة مرة ، ثم يقول : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم ، أشهد أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ، يقول ذلك مائة مرة ، ثم يتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم ويقول : إن الله هو السميع العليم ، يقولها ثلاث مرات ، ثم يقرأ فاتحة الكتاب ثلاث مرات ، ويبدأ فى كل مرّة ببسم الله الرحمن الرحيم ، ويختمها بآمين ؛ ويقرأ قل هو الله أحد مائة مرة ، ثم يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم صلّ على النبىّ الأمىّ ورحمة الله وبركاته مائة مرة ، ثم يدعو الله عزّ وجل بما شاء ، فيقول الله تعالى لملائكته : انظروا إلى عبدى توجه إلى بيتى وكبرنى ولبانى وسبحنى ووحدنى وهللنى ، وقرأ بأحبّ السور إلىّ وصلى على رسولى أشهدكم أنى قد قبلت عمله ، وأوجبت له أجره ، وغفرت له ذنوبه ، وشفعته فيما سألنى » .

(فصل : فى دعاء جبريل وميكائيل والخضر عليهم السلام عشية عرفة) أخبرنا هبة الله ابن المبارك ، قال أنبأنا الحسن بن أحمد بن عبد الله المقرى ، قال أخبرنا الحسين بن عمران المؤذن قال حدثنا أبو القاسم الفامى ، قال حدثنا أبو علىّ الحسن بن على ، قال حدثنا أحمد بن عمار ، أنبأنا محمد بن مهدى ، قال حدثنى ابن جريج ، عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يجتمع البرىّ والبحرىّ ، يعنى إلياس والخضر عليهما السلام كل عام بمكة» قال ابن عباس رضى الله عنهما : وبلغنا أنه يحلق أحدهما رأس صاحبه ، فيقول

أحدهما للآخر : قل بسم الله ما شاء الله ، لا يأتى بالخير إلا الله ؛ بسم الله ما شاء الله ، لا يصرف السوء إلا الله ؛ بسم الله ما شاء الله ، وما بكم من نعمة فمن الله ؛ بسم الله ما شاء الله ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله . قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « من قالها كل يوم أمن من الغرق والحرق والسرق ومن كل شىء ، يكرهه حتى يمسى ؛ ومن قالها حين يمسى كان فى حرز الله حتى يصبح » . وأخبرنا هبة الله بن المبارك ، قال أنبأنا الحسن بن أحمد الأزهرى ، قال أنبأنا أبو طالب بن حمدان البكرى ، قال أنبأنا إسماعيل ، قال حدثنا عباس الدورى ، قال أنبأنا عبيد الله بن إسحاق العطار ، قال أنبأنا محمد بن المبشر القيسى ، عن عبد الله الحسن ، عن أبيه عن جده ، عن علىّ رضى الله عنه قال : يجتمع فى كل يوم عرفة بعرفات جبريل وميكائيل وإسرافيل والخضر عليهم السلام ، فيقول جبريل : ما شاء الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله ؛ فيردّ عليه ميكائيل فيقول : ما شاء الله ، كل نعمة من الله ؛ فيردّ عليه إسرافيل فيقول : ما شاء الله الخير كله بيد الله ؛ فيرد عليهم الخضر فيقول : لا يدفع السوء إلا الله ؛ ثم يتفرقون ولا يجتمعون إلى قابل ذلك اليوم ، والله أعلم .

(فصل) قال ابن جريج : بلغنى أنه كان يؤمر أن يكون أكثر دعاء المسلم فى الموقف : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . وروى مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : عند الركن اليمانى ملك قائم منذ خلق الله تعالى السموات والأرض يقول آمين ، لمن يقول : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . عن حماد بن ثابت قال : إنهم قالوا لأنس بن مالك رضى الله عنه : ادع لنا ، فقال : « اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ، قالوا زدنا ، فأعادها ؛ قالوا زدنا ، قال : ما تريدون قد سألت الله لكم خير الدنيا والآخرة . وقال أنس رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يدعو بها يقول « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ، وقد ذكر الله تعالى من دعا بهذا الدعاء جعل له نصيبا وحظا من فضله ورحمته ، قال الله عزّ وجل (فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا) أى أعطنا إبلا وغنما وبقرا وعبيدا وإماء وذهبا وفضة ، ينوى الدنيا فى كل شىء ولها ينفق ولها يعمل ولها ينصب ، فهى همه وسؤله وطلبته ، فقال الله عز وجل (وما له فى الآخرة من خلاق) يعنى حظا ولا نصيبا (ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) وهم النبىّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنون .

واختلف العلماء فى معنى الحسنتين فقال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه قوله (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة) امرأة صالحة (وفى الآخرة حسنة) الحور العين (وقنا عذاب النار) وهى المرأة السوء . وقال الحسن رحمه الله (فى الدنيا حسنة) العلم والعبادة (وفى الآخرة حسنة) الجنة . وقال السدىّ وابن حبان (فى الدنيا حسنة) أى رزقا حلالا واسعا وعملا صالحا (وفى الآخرة حسنة) هى المغفرة والثواب . وقال ابن عطية رحمه الله (فى الدنيا حسنة) العلم والعمل به (وفى الآخرة حسنة) تيسير الحساب ودخول الجنة . وقيل (فى الدنيا حسنة) التوفيق والعصمة

(وفى الآخرة حسنة) النجاة والرحمة . وقيل (فى الدنيا حسنة) أولادا أبرارا (وفى الآخرة حسنة) مرافقة الأنبياء . وقيل (فى الدنيا حسنة) المال والنعمة (وفى الآخرة حسنة) تمام النعمة ، وهو الفوز من النار ودخول الجنة . وقيل (فى الدنيا حسنة) الإخلاص (وفى الآخرة حسنة) الخلاص وقيل (فى الدنيا حسنة) الثبات على الإيمان (وفى الآخرة حسنة) السلام والرضوان . وقيل (فى الدنيا حسنة) حلاوة الطاعة (وفى الآخرة حسنة) لذّة الرؤية . وقال قتادة رحمه الله : فى الدنيا عافية ، وفى الآخرة عافية ؛ والذى يؤيد هذا التأويل ما روى ثابت البنانى عن أنس رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد رجلا قد صار مثل الفرخ المنتوف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل كنت تدعو الله بشىء ، أو تسأله شيئا ؟ فقال : كنت أقول : اللهمّ ما كنت معاقبى به فى الآخرة ، فعجله لى فى الدنيا ، فقال صلى الله عليه وسلم سبحان الله إذن لا تستطيعه ولا تطيقه ، هلا قلت : اللهمّ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ؟ قال : فدعا الله عزّ وجل بها ، فشفاه » . وقال سهل ابن عبد الله رحمه الله : فى الدنيا السنة ، وفى الآخرة الجنة . وعن المسيب عن عوف رحمه الله أنه قال : فى هذه الآية من آتاه الله عزّ وجل الإسلام والقرآن وأهلا ومالا ، فقد أوتى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وعن عبد الأعلى بن وهب قال : سمعت سفيان الثورى رحمه الله يحدث فى هذه الآية قال (فى الدنيا حسنة) الرزق الطيب (وفى الآخرة حسنة) الجنة .

مجلس : فى فضائل يوم الأضحى ويوم النحر

قول الله عزّ وجل (إنا أعطيناك الكوثر . فصلّ لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر) قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : الكوثر هو الخير الكثير ، منه القرآن والنبوّة والنهر الذى فى الجنة ، وهو نهر يجرى من بطنان الجنة ، باطنه الدّر المجوف ، وعلى حافتيه قباب من الياقوت الأخضر ، ماؤه أحلى من العسل وألين من الزبد ، حمأته المسك الأذفر وترابه الكافور الأبيض وحصاه الدرّ والياقوت ، يطرد مثل السهام ، أعطاه الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم . وقال مقاتل رحمه الله (إنا أعطيناك الكوثر) هو نهر فى بطنان الجنة ، وإنما سمى الكوثر لأنه أكثر أنهار الجنة خيرا ، وذلك النهر عجاج يطرد مثل السهم ، طينته المسك الأذفر ، ورضراضه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ ، أشدّ بياضا من الثلج وألين من الزبد وأحلى من العسل ، حافتاه قباب الدرّ المجوف ، كل قبة طولها فرسخ فى فرسخ ، عليها أربعة آلاف مصراع من ذهب ، فى كل قبة زوجة من الحور العين ، لها سبعون خادما ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « ليلة الإسراء قلت لجبريل ما هذه الخيام ؟ فقال جبريل عليه السلام : هذه مساكن لأزواجك فى الجنة » . ويتفجر من الكوثر أربعة أنهار لأهل الجنان التى ذكرها الله عزّ وجل فى سورة محمد صلى الله عليه وسلم أحدها الماء ، والثانى اللبن ، والثالث الخمر ، والرابع العسل . قوله عزّ وجل (فصلّ لربك وانحر) قال مقاتل رحمه الله : يعنى صلّ لربك الصلوات الخمس ، وانحر البدن يوم النحر . وقيل : فصلّ لربك ، يعنى صلاة العيد . وانحر : يعنى انحر البدن بمنى وقيل : ارفع يدك بالتكبير

إلى نحرك . قيل : وانحر ، يعنى استقبل القبلة بنحرك . وقوله عزّ وجل (إن شانئك هو الأبتر) وذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم دخل المسجد الحرام من باب بنى سهم بن عمرو بن حصيص، والناس من قريش جلوس فى المسجد ، فمضى النبىّ صلى الله عليه وسلم ولم يجلس حتى خرج من باب الصفا ، فنظروا إليه حين خرج ولم يروه حين دخل ، فلم يعرفوه ، فتلقاه العاص بن وائل ابن هشام بن سعيد بن سعد بن سهم على باب الصفا وهو يدخل والنبىّ صلى الله عليه وسلم يخرج ؛ وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم توفى ابنه عبد الله بن محمد[1] ، وكان الرجل إذا مات ولم يكن له منه من بعده ابن يرثه فيسمونه أبتر ، فلما انتهى العاص بن وائل إلى القوم سألوه ، فقالوا له : من ذا الذى تلقاك ، فقال لهم الأبتر ، فنزل قوله عزّ وجل (إن شانئك) يعنى عدوّك ومبغضك (هو الأبتر) يعنى مقطوع من الخير الذى هو العاص بن وائل ، وأما أنت يامحمد فستذكر معى إذا ذكرت ، فرفع الله عزّ وجل ذكره عليه السلام فى الناس عامة ، قال الله تعالى (ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك) فتذكر صلى الله عليه وسلم فى كل عيد وجمعة على المنابر والمساجد والأذان والإقامة والصلاة وكل المواطن، حتى فى خطبة النكاح وخطبة الكلام وفى الحاجات صلى الله عليه وسلم ، وجعل مأواه الفردوس الأعلى وماضرّه قول شانئه وعدوّه ،وجعل مأوى العاص بن وائل النار ،وأنواع العذاب والنكال لقوله للنبى صلى الله عليه وسلم ذلك ، وكفره بالله عزّ وجل ،فهكذا يجازى الله عزّ وجل كل محبّ النبىّ صلى الله عليه وسلم من المؤمنين من أمته بالجنة ،ومبغضه عليه السلام من المنافقين والكفار بالنار .

(فصل) قوله عزّ وجل (فصلّ لربك وانحر) اعلم أن الله عزّ وجل أمر نبيه عليه الصلاة والسلام وأمته بالصلاة ، ثم أمرهم ثانيا بأشياء بعد الصلاة : منها الذكر ، ومنها الدعاء ، ومنها النحر .

(فصل) وأما الذكر ، فقوله عزّ وجل (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) وقوله عزّ وجل (فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ولا تكفرون) اختلف العلماء فى ذلك ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما : اذكرونى بطاعتى أذكركم بمعونتى ، كما قال الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) . وقال سعيد بن جبير رحمه الله : اذكرونى بطاعتى أذكركم بمغفرتى ، كما قال الله تعالى (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) . وقال فضيل بن عياض رحمه الله : فاذكرونى بطاعتى أذكركم بثوابى ، كما قال الله عزّ وجل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ، أولئك لهم جنات عدن) الآية . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « من أطاع الله فقد ذكر الله » وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن ، ومن عصى الله فقد نسى الله ، وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن » . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : كفى بالتوحيد عبادة ، وكفى بالجنة ثوابا . وقال ابن كيسان رحمه الله : فاذكرونى بالشكر أذكركم بالزيادة ، لقوله تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم) وقيل : اذكرونى بالتوحيد والإيمان أذكركم بالدرجات والجنان ، لقوله عزّ وجل (وبشر الذين آمنوا وعملوا

(١) قوله توفى ابنه عبد الله ، اقتصر المحلى على القاسم وانظر حاشية الجمل اه مصححه .

لصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) الآية . وقيل : اذكرونى على ظهر الأرض أذكركم فى بطنها إذا نسيكم أهلها ، كما قال الأصمعى : رأيت أعرابيا واقفا يوم عرفة بعرفات وهو يقول : إلهى عجت إليك الأصوات بضروب اللغات يسألونك الحاجات ، وحاجتى إليك أن تذكرنى عند البلاء إذا نسينى أهلى . وقيل : اذكرونى فى الدنيا أذكركم فى الآخرة . وقيل : اذكرونى بالطاعات أذكركم بالمعافات ، دليله قوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) وقيل : اذكرونى بالخلاء والملأ أذكركم بالخلاء والملأ ، كما روى أن الله تعالى قال فى بعض الكتب « أنا عند ظنّ عبدى بى ، فليظن بى ماشاء ؛ وأنا معه إذا ذكرنى ؛ فمن ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ؛ ومن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منهم ؛ ومن تقرّب إلىّ شبرا ، تقرّبت إليه ذراعا ؛ ومن تقرب إلىّ ذراعا ، تقرّبت إليه باعا ؛ ومن أتانى ماشيا ، أتيته هرولة ؛ ومن أتانى بقراب الأرض خطيئة ، أتيته بمثلها مغفرة ، بعد أن ألا يشرك بى شيئا » . وقيل : اذكرونى فى النعمة والرخاء أذكركم فى الشدة والبلاء ، كما قال الله عزّ وجل (فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون) . وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه : إن العبد إذا كان دعا فى السرّاء فينزل به البلاء ، فتقول الملائكة : يا ربنا عبدك قد نزل به البلاء فيشفعون له ، فيجيبهم الله تعالى ، وإذا لم يكن دعاه قالوا آلآن فلا يشفعون له ، بيانه قصة فرعون (آلآن وقد عصيت قبل) الآية . وقيل : اذكرونى بالتسليم والتفويض أذكركم بأصلح الاختيار ، بيانه قوله عزّ وجل (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) . وقيل : اذكرونى بالشوق والمحبة أذكركم بالوصل والقربة . وقيل : اذكرونى بالمجد والثناء أذكركم بالعطاء والجزاء . وقيل : اذكرونى بالتوبة أذكركم بغفران الحوبة ، اذكرونى بالدعاء أذكركم بالعطاء ، اذكرونى بالسؤال أذكركم بالنوال ، اذكرونى بلا غفلة أذكركم بلا مهلة ، اذكرونى بالندم أذكركم بالكرم ، اذكرونى بالمعذرة أذكركم بالمغفرة ، اذكرونى بالإرادة أذكركم بالإفادة ، اذكرونى بالتنصل أذكركم بالتفضل ، اذكرونى بالإخلاص أذكركم بالخلاص ، اذكرونى بالقلوب أذكركم بكشف الكروب ، اذكرونى بلا نسيان أذكركم بالإيمان ، اذكرونى بالافتقار أذكركم بالاقتدار ، اذكرونى بالاعتذار والاستغفار أذكركم بالرحمة والاغتفار ، اذكرونى بالإيمان أذكركم بالجنان ، اذكرونى بالإسلام أذكركم بالإكرام ، اذكرونى بالقلب أذكركم بكشف الحجب ، اذكرونى ذكرا فانيا أذكركم ذكرا باقيا ، اذكرونى بالابتهال أذكركم بالأفضال ، اذكرونى بالتذلل أذكركم بمغفرة الزلل ، اذكرونى بالاعتراف أذكركم بمحو الاقتراف ، اذكرونى بصفاء السرّ أذكركم بخالص البرّ ، اذكرونى بالصدق أذكركم بالرفق ، اذكرونى بالصفو أذكركم بالعفو ، اذكرونى بالتعظيم أذكركم بالتكريم ، اذكرونى بالتكبير أذكركم بالنجاة من السعير ، اذكرونى بترك الجفاء أذكركم بحفظ الوفاء ، اذكرونى بترك الخطا أذكركم بأنواع العطا ، اذكرونى بالجهد فى الخدمة أذكركم بإتمام النعمة ، اذكرونى من حيث أنتم أذكركم من حيث أنا ، ولذكر الله أكبر . قال الربيع رحمه الله فى هذه الآية : إن الله تعالى ذاكر

من يذكره ، وزائد لمن يشكره ، ومعذّب لمن يكفره . وقال السدىّ رحمه الله فيها : ليس من عبد يذكر الله تعالى إلا ذكره ، لا يذكره مؤمن إلا ذكره بالرحمة ، ولا يذكره كافر إلا ذكره بالعذاب .
وقال سفيان بن عيينة رحمه الله : بلغنا أن الله عزّ وجل قال : أعطيت عبادى ما لو أعطيته جبريل وميكائيل كنت قد أجزلت لهما ، فقلت لهم : اذكرونى أذكركم ، وقلت لموسى : قل للظلمة لا يذكرونى فإنى أذكر من ذكرنى ، وإن ذكرى إياهم أن ألعنهم . وقال أبو عثمان النهدى رحمه الله : إنى أعلم حين يذكرنى ربى ، قيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : إن الله عزّ وجل قال (اذكرونى أذكركم) فإذا ذكرت الله ذكرنى . وقيل : أوحى الله عزّ وجل إلى داود عليه السلام : يا داود بى فافرحوا ، وبذكرى فتنعموا . وقال الثورى رحمه الله : لكل شىء عقوبة ، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله . وقيل : إذا تمكن الذكر من القلب فإذا دنا منه الشيطان صرع كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان ، فيقولون : ما لهذا ؟ فيقال : قدمسه الإنس . وقال سهل بن عبد الله رحمه الله : ما أعرف معصية أقبح من نسيان هذا الربّ الكريم وقيل : الذكر الخفىّ لا يرفعه الملك لأنه لا اطلاع له عليه ، فهو سرّ بين العبد وبين الله تعالى وقال بعضهم : وصف لى ذاكر فى الأجمة فأتيته ، فبينما نحن جلوس وإذا سبع عظيم أقبل ، فضربه ضربة ونهش منه قطعة ، فغشى عليه وعلىّ ، فلما أفقت قلت له : ما هذا ؟ فقال : قيض الله علىّ هذا السبع كلما دخلتنى فترة عن ذكرى جاءنى فعضنى كما رأيت .
(فصل) وأما الدعاء فقوله عزّ وجل (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) وقوله تعالى (فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب) أى إذا فرغت من صلاتك فانصب للدعاء له تبارك وتعالى ، وقوله عزّ وجل (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) الآية اختلف المفسرون فى نزول هذه الآية ، فروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال « سألت يهود أهل المدينة النبىّ صلى الله عليه وسلم : كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام ، وأن غلظ كل سماء مثل ذلك ؟ فنزلت هذه الآية (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب) . وقال الحسن رحمه الله : سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أين ربنا ؟ فأنزل الله هذه الآية ؛ وقال عطاء وقتادة رحمهما الله : لما نزلت هذه الآية (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) قال رجل يا رسول الله كيف ندعو ربنا ومتى ندعوه ؟ فأنزل الله هذه الآية (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب) وقال الضحاك رحمه الله : « سأل بعض الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله هذه الآية (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب) » . قال أهل المعانى : فيه إضمار كأنه قال : فقل لهم أو فأعلمهم أنى قريب منهم بالعلم . وقال أهل الإشارة : رفع الواسطة إظهار للقدرة . قوله (أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى) أى فليستجيبوا لى بالطاعة ، يقال : أجاب واستجاب بمعنى واحد . وقال أبو رجاء الخراسانى رحمه الله : يعنى فليدعونى . والإجابة فى اللغة الطاعة وإعطاء ما سئل ؛ يقال : أجابت السماء بالمطر ، وأجابت الأرض بالنبات : أى سئلت

السماء المطر فأعطت ، وسئلت الأرض النبات فأعطت. والإجابة من الله عزّ وجل : هو الإعطاء ومن العبد الطاعة ، قوله (وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) أى لكى يهتدوا ، فإن سأل سائل عن قوله (أجيب دعوة الداع إذا دعان) وقوله (ادعونى أستجب لكم) وقال : قد نرى كثيرا من خلق الله تعالى يدعون فلا يجاب لهم ، قيل : اختلف أهل العلم فى وجه الآيتين ، وتأويلهما فقال بعضهم : معنى الدعاء ههنا : الطاعة ، ومعنى الإجابة : الثواب ، كأنه قال عزّ وجل : أجيب دعوة الداع بالثواب إذا أطاعنى . وقال بعضهم : معنى الآيتين خاصّ وإن كان لفظهما عاما ، تقديرهما أجيب دعوة الداع إن شئت ، أجيب دعوة الداع إذا وافق القضاء ، أجيب دعوة الداع إذا لم يسأل محالا ، أجيب دعوة الداع إذا كانت الإجابة له خيرا . يدلّ على ذلك ما روى عن علىّ بن أبى المتوكل عن أبى سعيد رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من مسلم دعا الله عز وجل بدعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم إلا أعطى الله تعالى بها صاحبها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها ، قالوا يا رسول الله ، فإذن نكثر من الدعاء ، قال صلى الله عليه وسلم : الله أكثر » وقال بعضهم : إن الآية عامة ليس فيها أكثر من إجابة الدعوة ، فإما إعطاء المنية وقضاء الحاجة فليس بمذكور فى الآية ، وقد يجيب السيد عبده والوالد ولده ولا يعطيه سؤاله ، فالإجابة كائنة لا محالة عند حصول الدعوة ، لأن قوله أجيب وأستجيب خبر ، والخبر لا يعترض عليه النسخ ، لأنه إذا نسخ صار المخبر كاذبا ، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وخبر الله تعالى لا يقع بخلاف مخبره ؛ والذى يؤيد هذا التأويل ما روى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «من فتح له باب فى الدعاء فتحت له أبواب الإجابة». وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قل للظلمة لا يدعونى فإنى أوجبت على نفسى أن أجيب ، وإنى إذا أجبت الظالمين لعنتهم . وقيل : إن الله تعالى يجيب دعوة المؤمن فى الوقت إلا أنه يؤخر إعطاء مراده ليدعوه فيسمع صوته ؛ يدلّ عليه ما روى عن محمد بن المنكدر عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليدعو الله عزّ وجل وهو يحبه ، فيقول الله تعالى : يا جبريل اقض لعبدى هذا حاجته وأخرها ، فإنى أحبّ أن لا أزال أسمع صوته ، وإن العبد ليدعو الله عزّوجل وهو يبغضه فيقول : يا جبريل اقض لعبدى هذا حاجته بإخلاصه وعجلها ، فإنى أكره أن أسمع صوته . وقيل : إن يحيى بن سعيد رحمه الله قال : رأيت ربّ العزّة فى المنام فقلت : يا ربّ كم أدعوك فلا تستجب لى ؟ قال : يا يحيى إنى أحبّ صوتك . وقال بعضهم : إن للدعاء آدابا وشرائط هى أسباب الإجابة ونيل المنى ، فمن راعاها واستكملها كان من أهل الإجابة ، ومن أغفلها أو أخلّ بها فهو من أهل الاعتداء فى الدعاء . وقيل : إنه سئل إبراهيم بن أدهم رحمه الله فقيل له : ما بالنا ندعو الله فلا يستجيب لنا ؟ فقال : لأنكم عرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته ، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به ، وأكلتم نعمة الله فلم تؤدّوا شكرها ، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها ، وعرفتم النار فلم ترهبوا منها ، وعرفتم الشيطان

فلم تحاربوه ووافقتموه ، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له ، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا بهم . وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس .

(فصل) وأما النحر فقوله عز وجل (وانحر) والأصل فى النحر أمر الله تعالى لخليله إبراهيم عليه السلام لما أنجاه الله تعالى من نار نمرود الجبار وسلمه من كيده وعذابه ، قال (إنى ذاهب إلى ربى) يعنى مهاجرا إلى ربى ، يعنى إلى رضا ربى بالأرض المقدسة (سيهدين) لدينه ، وهو عليه السلام أول من هاجر من خلق الله فى دين الله عزّ وجل ، فهاجر ومعه لوط وسارة أخت لوط ، وهو ابن خال إبراهيم عليه السلام ؛ فلما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد قال (ربّ هب لى من الصالحين) يقول : هب لى ولدا صالحا ، فاستجاب الله له (فبشره بغلام حليم) يعنى عليم وهو العالم ، وهو إسحاق بن سارة (فلما بلغ معه السعى) يعنى المشى إلى الجبل (قال يابنىّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) يعنى أمرت فى المنام بذبحك وذلك لنذر كان عليه فيه عليه السلام (فانظر ماذا ترى) فردّ عليه السلام بقوله (يا أبت افعل ما تؤ مر) وأطع ربك ، فمن ثم لم يقل إسحاق لإبراهيم افعل ما رأيت فى المنام ، ورأى ذلك إبراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات ، وكان إبراهيم صام وصلى قبل الذبح فقال (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) على الذبح (فلما أسلما) يقول أسلما لأمر الله تعالى وطاعته (وتله للجبين) يقول : كبه على جبهته ، فلما أخذ بناصيته ليذبحه لله علم الله منهما الصدق ، وقال الله عزّ وجل (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) فى ذبح ابنك ، فخذ الكبش واذبحه فداء ابنك ، قال الله عزّ وجل (وفديناه بذبح عظيم) واسم الكبش زرير ، كان من الوعول يرعى فى الجنة أربعين سنة قبل أن يذبح ، وقيل : إنه هو الكبش الذى قرّبه هابيل بن آدم المقتول شهيدا عليه السلام ، وكان يرعى فى الجنة قد فدى به إسحاق النبىّ عليه السلام من الذبح ، قال الله عزّ وجل (إنا كذلك نجزى المحسنين) يعنى هكذا نجزى كلّ محب ، فجزاه الله خيرا بإحسانه بطاعته لأمر الله تعالى فى الذبح لابنه إسحاق . وقيل : إن المأمور بذبحه إنما هو إسماعيل عليه السلام ، ثم قال الله عزّ وجل (إن هذا لهو البلاء المبين) يعنى النعيم المبين حين عفا عنه وفداه بالكبش . وقيل : إنه لما وضع الخليل عليه السلام السكين على حلق ولده نودى (أن يا إبراهيم) خلّ ولدك ، فإن مرادنا لم يكن قربانا للولد ، وإنما كان مرادنا خلوّ القلب من محبة الولد ، ولهذا قيل : إنه ذكر فى بعض الكتب أنّ إبراهيم عليه السلام لما أراد أن يذبح ولده قال فى سرّه : يا ربّ إيش لو كان هذا الذبح على يد غيرى لكان خيرا ، قال الله تعالى : لا يكون إلا على يدك ، فقالت الملائكة : يا ربنا لم فعلت هكذا ؟ قال : حتى يزيد بلاء على بلاء ، فقالت الملائكة : لم ذلك ؟ قال : حتى لا يحبّ أحدا غيرى ، فإنى لا أقبل الشريك فى الحبّ ؛ فإبراهيم عليه السلام أحبّ ولده فابتلى بذبحه ، ويعقوب أحبّ يوسف فغاب عنه أربعين سنة ، وابتلى بفراقه ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أحبّ الحسن والحسين رضى الله عنهما وعلقا بقلبه ، فجاء جبريل عليه السلام وأخبره بأن أحدهما يسمّ والآخر يقتل حتى لا يحبّ مع الحبيب سواه .

(فصل) ويستحبّ إذا خرج المؤمن إلى صلاة العيد فى طريق أن يرجع من طريق أخرى ، لما روى ابن عمر رضى الله عنهما أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أخذ يوم العيد فى طريق ورجع فى طريق أخرى . وفى حديث آخر أنه كان يخرج فى طريق ويرجع فى طريق ، فاختلف الناس فى ذلك ، فقال أكثرهم : إنما أراد بذلك اختلاف حرز المشركين لعسكره ، فخالف بين الطريقين ليختلف الحرز . وقال آخرون : إنما قصد بذلك الاختصار فى الرجوع كأنه سلك الطريق الأطول فى الممرّ لكثر الحسنات ورجع فى الأقصر . وقال آخرون : لما مضى فى طريق شهدت له الأرض ، ثم رجع فى طريق أخرى لتشهد له الأرض الثانية . وقيل : إنه عليه السلام مضى على حىّ من الأحياء ثم رجع على غيرهم ليساوى بينهم فى الإكرام ، لأن رؤيته عليه السلام كانت رحمة ، قال الله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . وقيل : إن الأرض تفتخر بوطء النبىّ صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والأولياء وسعيهم عليها ، فأراد صلى الله عليه وسلم أن يساوى بين البقعتين لكى لا تفتخر بعضها على بعض . وقيل : إنه عليه السلام كان قد سلك إلى المصلى فى طريق وقصده الحقيقة إلى الله تعالى ، ثم أراد الرجوع إلى الأهل والوطن والطين والماء المعروف المعهود ، فكره أن يسلك إلى الله تعالى طريقا ثم يسلكه إلى غيره ، فرجع فى طريق آخر . وقيل : إنه عليه السلام لو لم يرجع فى طريق آخر لوجب على الناس الاستنان به عليه السلام ، وتعذّر عليهم التفرّق بعد صلاة العيد إلى منازلهم ، فأراد أن يبين التوسعة عليهم فى الرجوع فى أىّ طريق شاءوا . وقيل : إنه صلى الله عليه وسلم فزع من مكيدة الكفار والمنافقين وقيل : إنه كان يتصدق على من كان معه ، فكان يرجع فى طريق آخر حتى تتوفر الصدقة على الفقراء وقيل : إنه كان يفعل ذلك لأجل ازدحام الناس عليه صلى الله عليه وسلم .

(فصل : فى فضيلة يوم النحر والأضحية) روى عبد الله بن قرط رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعظم الأيام عند الله يوم النحر » وروى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة رضى الله عنها « قومى إلى أضحيتك فاشهديها ، فإنه يغفر لك بأول قطرة تقطر من دمها كل ذنب عملت ، وقولى : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله ربّ العالمين » وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « إن داود عليه السلام قال : إلهى ما ثواب من ضحى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، قال الله عزّ وجل : ثوابه أن يعطى بكل شعرة منها عشر حسنات ، ويمحى عنه عشر سيئات ، ويرفع له عشر درجات ، فقال : إلهى فما ثوابه إذا شقّ بطنها ؟ قال : إذا انشقّ القبر عنه أخرجه الله تعالى آمنا من الجوع والعطش ومن أهوال القيامة ، يا داود له بكل بضعة من لحمها طير فى الجنة كأمثال البخت ، وبكل ذراع منها مركب من مراكب الجنة ، وبكل شعرة على جسدها قصر فى الجنة وبكل شعرة على رأسها جارية من الحور العين أما علمت يا داود أن الضحايا هى المطايا ، وأن الضحايا تمحو الخطايا وتدفع البلايا ، مر بالضحايا فإنها فداء المؤمن كفداء إسحاق من الذبح » وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم «أحسنوا ضحاياكم فإنها مطاياكم يوم القيامة » وروى أن عليا رضى الله عنه قرأ (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) ثم

قال : وهل يكون الوفد إلا ركبانا على نجائبهم ، ونجائبهم ضحاياهم يؤتون بنوق لم ير الخلائق مثلها ، عليها أرحلة من الذهب ، وأزمتها الزبرجد ، ثم تنطلق بهم إلى الجنة حتى شرعوا بابها . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « ضحوا وطيبوا بها نفسا فإنه من أخذ أضحيته فاستقبل بها القبلة كان دمها وشعرها محصورين له إلى يوم القيامة ، فإن الدم إذا وقع فى التراب فإنما يقع فى حرز الله ، أنفقوا يسيرا تؤجروا كثيرا » . وروى « أن النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا بكبشين أملحين أقرنين عظيمين ، فأضجع أحدهما وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله والله أكبر ، اللهم هذا عن محمد وعن أهل بيته ، ثم بالآخر ثنى وقال : بسم الله والله كبر اللهم هذا عن محمد وعن أمته » . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم « أنه ضحى بكبشين يوم النحر » . وأخبرنا هبة الله عن محمد بن أحمد بن الحرث المعدل الكوفى ، قال أنبأنا القاضى محمد بن محمد بن عبد الله الجعفى ، أنبأنا محمد بن جعفر الأشجعى أنبأنا على بن المنذر الطرفى ، أنبأنا ابن فضيل عن هشام عن عروة عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من قرّب أضحيته يوم النحر لمنحرها ، قرّبه الله تعالى إلى الجنة ؛ فإذا نحرها غفر الله له بأوّل قطرة تقطر من دمها ، وجعلها الله تعالى له مركبا يوم القيامة إلى المحشر ، ويعطى بعدد شعرها وصوفها حسنات » . وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه « أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أقرنين أملحين ، فكان يذبح ويسمى ويضع رجله على صفحتها » قال أبو عبيدة الأملح ما فيه بياض وسواد ، والسواد أغلبه وينظر فى سواد ويبرك فى سواد . وروت عائشة رضى الله عنها « أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بكبش أقرن يطأ فى سواد وينظر فى سواد ويبرك فى سواد ، فأتى به فضحى به فأضجعه وذبحه فقال : بسم الله اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد » وقال أصحاب الحديث : قوله « ويطأ فى سواد وينظر فى سواد » معناه : لكثرة شحمه ولحمه ما يظلّ إلا فى ظل نفسه وينظر فيه ويبرك فيه . وقال أهل اللغة : معنى السواد فى هذا الموضع : أنه كان أسود اليدين والعينين والركبتين .

(فصل : فى صلاة ليلة الأضحى) وهى أن يصلى ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب خمس عشرة مرة ، وقل هو الله أحد كذلك ، وقل أعوذ بربّ الفلق مثل ذلك ، وقل أعوذ بربّ الناس كذلك ؛ فإذا سلم قرأ آية الكرسى ثلاث مرات ، واستغفر الله خمس عشرة مرة ، ثم يدعو بما شاء من خير الدنيا والآخرة :

(فصل) والأضحية سُنة لا يستحبّ تركها لمن قدر عليها عند الإمام أحمد ومالك والشافعى رحمهم الله ، وعندغيرهم هى واجبة . والأصل فى استحبابها دون وجوبها ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « أمرت بالنحر وهو لكم سنة » وفى خبر آخر « ثلاث علىّ فرض ، ولكم تطوّع : النحر ، والوتر ، وركعتا الفجر » . وفى حديث أمّ سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دخل العشر وأراد أحدكم

أن يضحى فلا يمس من شعره ولابشره شيئا » فعلق صلى الله عليه وسلم الاضحية بالإرادة ، وما كان واجبا بالشرع لا يتعلق بالإرادة .

(فصل) وأفضلها الإبل ثم البقر ثم الغنم ، ولا يجزى إلا الجذع من الضأن والثنى من غيره . أما الجذع فهو ما كمل له ستة أشهر ، والثنى من المعزما كمل له سنة ، ومن البقر ما كمل له سنتان ، ومن الإبل ما كمل له خمس سنين . وتجزىء الشاة عن واحد ، والبدنة من الإبل والبقر عن سبعة . وأفضل الضحايا الشهب ثم الصفر ثم السود ، والأفضل أن يذ بحها بنفسه ، وإن لم يحسن فليشاهد ذبحها ، ويأكل ثلثها ، ويهدى ثلثها ، ويتصدق بثلثها ، ويجتنب فيها المعيبة . والعيوب خمسة ، فلا يضحى بعضباء القرن والأذن ، وهى ما ذهب أكثر أذنها أو قرنها ، وقيل : ما ذهب ثلث أذنها وقرنها ؛ وكذلك لا يضحى بالجماء ، لأنها كالعضباء فى أصح القولين ، ولا بالعوراء البين عورها ، وهى ما انخسفت عينها وذهبت ؛ ولا بالعجفاء التى لا تنقى ، وهى الهزيلة التى لا مخ فيها ؛ ولا بالعرجاء البين عرجها ، وهى التى لا تقدر على المشى مع السرح ؛ ولا المشاركة فى العلف لضعفها ؛ ولا بالمريضة البين مرضها ؛ ولا بالجرباء ، لأن جربها يفسد اللحم ؛ وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يضحى بالمقابلة ، وهى ما قطع شىء من مقدم أذنها وبقى معلقا ؛ ولا بالمدابرة ، وهى ما قطع شىء من خلف أذنها ؛ ولا بالخرقاء ، وهى ماثقب الكى أذنها ؛ ولا بالشرفاء ، وهى ما شق الكى أذنها وذلك محمول على نهى تنزيه لا على نهى تحريم ، والأولى أن يجتنب ذلك ، وإن ضحى بها جاز وأيام النحر ثلاثة : يوم العيد بعد الصلاة أو قدرها . ويومان بعده ، وهو مذهب أكثر الفقهاء . وقال الشافعى رحمه الله : يوم العيد وأيام التشريق الثلاثة ، والذى ذكرناه من أنه ثلاثة أيام منقول عن عمر وعلى وابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهم . ومن ضحى قبل صلاة الإمام فهى شاة لحم لا يحصل بذلك ثواب الأضحية ، لما روى منصور عن الشعبى عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال ، خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر بعد الصلاة فقال «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك ، ومن نسك قبل الصلاة فتلك شاة لحم ، فقام أبو بردة بن نيار رضى الله عنه فقال : يا رسول الله لقد نسكت قبل أن أخرج إلى الصلاة ، وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب فعجلت وأكلت وأطعمت أهلى وجيرانى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك شاة لحم فقال : إن عندى عناقا جذعة وهى خير من شاتى لحم فهل تجزىء عنى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم نعم ، ولا تجزئ عن أحد بعدك » . وعن الأسود بن قيس رضى الله عنه قال : شهدت النبى صلى الله عليه وسلم يوم النحر مر بقوم ذبحوا قبل الصلاة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من ذبح قبل الصلاة فليعد » . وفى بعض الأخبار « من كان ذبح قبل أن يصلى فليعد أخرى مكانها ، ومن لم يكن ذبح فليذبح » .

(فصل : فى ذكر أيام التشريق) قال الله تعالى (واذكروا الله فى أيام معدودات) يعنى بالذكر : التكبير أدبار الصلوات ، وعند الجمرات يكبر مع كل حصاة وغيرها من الأوقات

يستحبّ ذلك من أول العشر إلى آخر أيام التشريق . قوله (فى أيام معدودات) يعنى أيام التشريق أيام منى الثلاث . وأما المعلومات : فهى أيام العشر ، وعلى هذا أكثر العلماء ، ويدلّ عليه قوله تعالى (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه) وإنما يكون الصدر فى أيام التشريق فى يومين منها أو جميع الثلاث . قال ابن عباس رضى الله عنهما : أمر الله تعالى بذكره فى الأيام المعدودات وهى أيام التشريق ثلاثة أيام بعد النحر ، وجعلها معدودة لقلتها فى أيام عمرك ، كقوله تعالى فى شهر رمضان (أياما معدودات) لقلتها من بين الشهور ، وكما قال تعالى (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة) وقيل : إنما سميت معدودة ، لأنها تعدّ من أيام الحجّ ، فيفرغ فيها مما عليه من أفعال الحجّ من البيتوتة بمزدلفة ، ورمى الجمار بمنى وقال الزجاج : تستعمل المعدودات فى اللغة للشىء القليل فسميت بذلك لأنها ثلاثة أيام . فالأيام المعدودات : ثلاثة أيام التشريق ، والذكر المأمور فيها : التكبير . وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : الأيام المعدودات : ثلاثة أيام يوم النحر ويومان بعده . وقال إبراهيم النخعى رحمه الله : الأيام المعدودات : أيام العشر . والمعلومات : أيام النحر ؛ وسبب أمر الله تعالى المسلمين بالذكر فى هذه الآية والتى قبلها قوله عزّ وجل (فاذكروا الله كذكركم آباءكم) على ما ذكر المفسرون أن العرب كانوا إذا فرغوا من حجهم وقفوا عند البيت وذكروا مآثر آبائهم ومفاخرهم ، وكان الرجل يقول إن أبى كان يقرى الضيف ، ويطعم الطعام ، وينحر الجزور ، ويفك العانى ، ويجزّ النواصى ، ويفعل كذا وكذا ، ويتفاخرون بذلك ؛ فأمرهم الله عزّ وجل بذكره ، فأنزل الله عزّ وجل (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) إلى قوله تعالى (واذكروا الله فى أيام معدودات) وقال جل وعلا (فاذكرونى) فأنا الذى فعلت ذلك بكم وبآبائكم وأحسنت إليكم وإليهم . وقال السدىّ رحمه الله : كانت العرب إذا قضت مناسكها وأقاموا بمنى يقوم الرجل فيسأل الله عزّ وجل ويقول : اللهم إن أبى كان عظيم الجفنة عظيم العتبة كثير المال ، فأعطنى مثل ذلك ، وليس يذكر الله عزّ وجل، إنما يذكر أباه ، ويسأل أن يعطى فى دنياه، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن عباس وعطاء والربيع والضحاك معناه : فاذكروا الله تعالى كذكر الصبيان الصغار الآباء ، وهو قول الصبى ، أول ما يفصح ويفقه كلام أبيه وأمه ، ثم يلهج بأبيه وأمه . عن عمر ابن مالك عن أبى الجوزاء قال : قلت لابن عباس رضى الله عنهما : أخبرنى عن قول الله عزّ وجل (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) وقد يأتى على الرجل يوم لا يذكر فيه أباه، فقال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس كذلك ، ولكن أن تغضب لله عزّ وجل إذا عصى أشدّ من غضبك لوالديك إذا شتما . وعن محمد بن كعب القرظى رحمه الله (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) يعنى بل أشدّ كقوله (أو يزيدون) أى بل يزيدون . قال مقاتل رحمه الله (أو أشد ذكرا) يعنى أكثر ذكرا كقوله (أو أشدّ قسوة أو أشد خشية) .

(فصل) وقد سمى الله عزّ وجل أشياء فى القرآن ذكرا ، من ذلك أنه سمى التوراة ذكرا ، فقال عزّ وجل (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) ، وسمى القرآن ذكرا ، قوله عزّ وجل

(وهذا ذكر مبارك أنزلناه) ، وسمى اللوح المحفوظ ذكرا ، قوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر) يعنى من بعد اللوح المحفوظ ، وسمى الموعظة ذكرا قوله عز وجل (فلما نسوا ما ذكروا به) وسمى الرسول ذكرا ، قوله عزّ وجل (قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا) ، والخير ذكرا ، قوله عز وجل (هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) والشرف ذكرا ، قوله عزّ وجل (إنه لذكر لك ولقومك) ، والتوراة ذكرا، قوله عزّ وجل (ذلك ذكرى للذاكرين) ، والصلاة ذكرا ، قوله عزّ وجل (فاذكروا الله كما علمكم) ، وسمى صلاة العصر ذكرا ، قوله عزّ وجل (إنى أحببت حبّ الخير عن ذكر ربى) يعنى صلاة العصر ، والجمعة أيضا ذكرا قوله عز وجل (فاسعوا إلى ذكر الله) ، والشفاعة ذكرا ، قوله عزّ وجل (اذكرنى عند ربك) ، وسمى الطاعة والمغفرة ذكرا ، قوله عزّ وجل (فاذكرونى أذكركم) معناه : اذكرونى بالطاعة أذكركم بالمغفرة ، وسمى الندامة ذكرا ، قوله تعالى (إذ ظلموا أنفسهم ذكروا الله) أى ندموا بالقلب واستغفروا باللسان ، وسمى التكبير ذكرا ، قوله تعالى (واذكروا الله فى أيام معدودات) يعنى أيام التشريق .

(فصل) واختلف لم سميت أيام التشريق ، فقال قوم إن المشركين كانوا يقولون أشرق ثبير كيما نغير ، يعنى أدخل فى الشروق ياثبير ، وهو اسم جبل ، كيما نغير أى كيما ندفع ، لأنهم كانوا لا يدفعون ولا يفيضون من المزدلفة إلا بعد أن تشرق الشمس ، فجاء الاسلام فأبطل ذلك . وقيل : إنما سميت أيام التشريق لأنهم كانوا يشرقون فيها لحوم الأضاحى ، وتشريق اللحم : أن يشرح ويشرق فى الشمس؛ ويسمى القديد شرائق اللحم . وقيل : بل سميت الصلاة يوم النحر ، والتشريق صلاة العيد، وإنما أخذ من شروق الشمس لأن ذلك وقتها وسمى المصلى المشرق لأن الناس يبرزون فيه للشمس، فسمى يوم العيد يوم التشريق لهذا المعنى ،ثم صارت أيام التشريق تبعا للعيد. وقيل لذى النون المصري رحمه الله: لم سمي الموقف بالمشعر ولم يسم بالحرم؟ فقال : لأن الكعبة بيته ، والحرم حجابه ، والمشعر بابه ، فلما قصده الوافدون أوقفهم بالباب الأول يتضرعون إليه ، ثم أوقفهم بالحجاب الثانى وهو المزدلفة ، فلما نظر إلى تضرعهم أمرهم بتقريب قربانهم ، فلما أن قربوها وتطهروا من الذنوب أمرهم بالزيارة على الطهارة ، فقيل له : لم كره الصيام فى أيام التشريق ؟ قال : لأن القوم زوار الله تعالى وهم فى ضيافته ، ولا ينبغى للضيف أن يصوم عند من أضافه ؛ فقيل له : ياأبا الفيض ما معنى تعلق الرجل بأستار الكعبة ؟ قال : مثله كمثل رجل بينه وبين صاحبه جناية ، فهو متعلق بذيل رجال يشفعون له أن يهب له جرمه .

(فصل) واختلف فى قدر التكبير فى هذه الأيام قال نافع رحمه الله : كان عمر وعبد الله ابنه رضى الله عنهما يكبران بمنى هذه الأيام عقيب الصلاة ، وفى المجلس ، وعلى الفرش والفسطاط ، وفى الطريق ، ويكبر الناس بتكبيرهما ، ويتلوان هذه الآية . فالاتفاق حاصل على كون التكبير سنة ، وإنما الخلاف فى قدره ، وكان على رضى الله عنه يكبر من صلاة الغداة من يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق ، وهو مذهب إمامنا أحمد بن محمد بن حنبل

رحمه الله تعالى، وأحد أقوال الشافعي ومذهب أبي يوسف ومحمد بن الحسن، وهو أولى الأقاويل وأجمعها . وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يكبر من صلاة الغداة يوم عرفة إلى صلاة العصر من يوم النحر ، وهو مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان رحمه الله تعالى . وكان ابن عباس وزيد بن ثابت رضى الله عنهم يكبران من صلاة الظهر من يوم النحر إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق ، وهو قول عطاء رحمه الله ، والأظهر من مذهب الشافعى رحمه الله أن يبدأ بالتكبير من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الفجر من آخر يوم التشريق اقتداء بالحاج ، وهو مذهب الإمام مالك . وللشافعي قول ثالث : أوله من صلاة المغرب ليلة النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق . وأما لفظ التكبير ، فكان ابن مسعود رضى الله عنه يكبر اثنين الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد . وهو مذهب إمامنا أحمد وأبي حنيفة رحمهما الله وأهل العراق . وعن مالك رحمه الله تعالى أنه كان يقول الله أكبر الله أكبر ، ثم يقطع فيقول : الله أكبر لا إله إلا الله . وكان سعيد بن جبير والحسن رحمهما الله تعالى يقولان : الله أكبر الله أكبر الله أكبر ثلاثا نسقا ثم يسوق التكبير إلى آخره على ما ذكرنا أولا ، وهو مذهب الشافعي رحمه الله وأهل المدينة وعن قتادة رحمه الله أنه كان يقول الله أكبر كبيرا ، الله أكبر على ماهدانا الله أكبر ولله الحمد . وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أيام منى أيام أكل وشرب وذكر الله تعالى » . وعن جعفر بن محمد رحمه الله أنه قال « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث مناديا فنادى فى أيام التشريق : أنها أيام أكل وشرب وبعال » .

(فصل) وإن كان محرما فمن صلاة الظهر يوم النحر إلى آخر أيام التشريق عند إمامنا أحمد رحمه الله تعالى، وكذلك فى الصحيح عنه لا يكبر إلا إذا صلى الفرض فى جماعة، ولا يكبر إذا كان وحده ولا عقيب النوافل .

(فصل) وهذا التكبير الذى ذكرناه فى عيد الأضحى مثله فى عيد الفطر ، بل آكد فى الفطر ليلة الفطر لقول الله عز وجل (ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم) الآية ، غير أن ابتداءه من بعد غروب الشمس ليلة الفطر إلى أن يفرغ الإمام من خطبتى العيد يوم العيد ثم ينقطع . وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله ليس فى الفطر تكبير مسنون . وقال مالك رحمه الله : يكبر يوم الفطر دون ليلته ويكون وقته إلى أن يأتى المصلى ويخرج الإمام ويظهر الناس للصلاة . وقال الشافعي رحمه الله يكبر من غروب الشمس ليلة الفطر إلى أن يفرغ الإمام من خطبتى العيد يوم العيد . وقال فى قول : يكبر من غروب الشمس ليلة العيد إلى أن يظهر الإمام فى المصلى . وقال فى قول : إلى أن يحرم بالصلاة وفى قول : إلا أن يفرغ من الصلاة .

مجلس : فى فضائل يوم عاشوراء

قال الله تعالى (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله) إلى قوله (منها أربعة حرم) ، وقد تقدم ذكر ذلك . وأن منها المحرم ، فهذا الشهر من الأشهر المحرمة عند الله

تعالى ،وفيه يوم عاشوراء الذى عظم الله تعالى أجرمن أطاعه فيه . من ذلك ماأخبرنا به أبو نصر عن والده ، بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام يوما من المحرم فله بكل يوم ثلاثون يوما». ومن ذلك ماروى عن ميمون ابن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام عاشوراء من المحرم أعطى ثواب عشرة آلاف ملك ، ومن صام يوم عاشوراء من المحرم أعطى ثواب عشرة آلاف شهيد وثواب عشرة آلاف حاج ومعتمر ، ومن مسح بيده على رأس يتيم يوم عاشوراء رفع الله تعالى له بكل شعرة على رأسه درجة فى الجنة ، ومن فطر مؤمنا ليلة عاشوراء فكأنما أفطر عنده جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأشبع بطونهم ، قالوا : يا رسول الله لقد فضل الله تعالى يوم عاشوراء على سائر الأيام ، قال صلى الله عليه وسلم : نعم خلق الله تعالى السموات فى يوم عاشوراء ، وخلق الجبال يوم عاشوراء ، وخلق البحار يوم عاشوراء ، وخلق القلم يوم عاشوراء ، وخلق اللوح يوم عاشوراء وخلق آدم يوم عاشوراء ، وأدخله الجنة يوم عاشوراء ، وولد إبراهيم عليه السلام يوم عاشوراء ، ونجاه الله من النار يوم عاشوراء ، وفدى ابنه من الذبح يوم عاشوراء ، وأغرق فرعون يوم عاشوراء ، وكشف الله تعالى البلاء عن أيوب يوم عاشوراء ، وتاب الله تعالى على آدم يوم عاشوراء، وغفر الله تعالى ذنب داود عليه السلام يوم عاشوراء ، وولد عيسى يوم عاشوراء ، ويوم القيامة فى يوم عاشوراء » . وفى لفظ آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام يوم عاشوراء كتب الله له عبادة ستين سنة بصيامها وقيامها ، ومن صام يوم عاشوراء أعطى ثواب ألف شهيد ، ومن صام يوم عاشوراء كتب الله له أجر أهل سبع سموات، ومن فطر مؤمنا يوم عاشوراء ، فكأنما أفطر عنده جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأشبع بطونهم ، ومن مسح رأس يتيم فى يوم عاشوراء رفعت له بكل شعرة على رأسه درجة فى الجنة ، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله لقد فضلنا الله تعالى بيوم عاشوراء قال صلى الله عليه وسلم : خلق الله تعالى السموات يوم عاشوراء والأرض كمثله وخلق الجبال يوم عاشوراء والنجوم كمثله ، وخلق العرش يوم عاشوراء والكرسى كمثله ، وخلق اللوح يوم عاشوراء والقلم كمثله، وخلق جبريل يوم عاشوراء والملائكة كمثله، وخلق آدم فى يوم عاشوراء وولد إبراهم فى يوم عاشوراء ، ونجاه الله تعالى يوم عاشوراء ، وفدى الله ابنه يوم عاشوراء ، وأغرق فرعون فى يوم عاشوراء ، ورفع إدريس فى يوم عاشوراء ، وكشف الضر عن أيوب فى يوم عاشوراء ، ورفع عيسى فى يوم عاشوراء ، وولد عيسى فى يوم عاشوراء، وتاب الله على آدم فى يوم عاشوراء، وغفر ذنب داود فى يوم عاشوراء، وأعطى الله الملك لسليمان فى يوم عاشوراء ، واستوى الرب تبارك وتعالى على العرش فى يوم عاشوراء ، ويوم القيامة فى يوم عاشوراء وأول مطر نزل من السماء يوم عاشوراء وأول رحمة نزلت فى يوم عاشوراء ، ومن اغتسل يوم عاشوراء لم يمرض مرضا إلا مرض الموت ، ومن اكتحل

بالإثمد يوم عاشوراء لم ترمد عينه تلك السنة كلها ، ومن عاد مريضا يوم عاشوراء فكأنما عاد ولد آدم ، ومن سقى شربة من ماء يوم عاشوراء فكأنما لم يعص الله طرفة عين ، ومن صلى أربع ركعات يوم عاشوراء يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وخمسين مرة قل هو الله أحد غفر الله تعالى له ذنوب خمسين عاما ماضيا وخمسين عاما مستقبلا ، وبنى الله تعالى له فى الملأ الأعلى ألف قصر من نور » . وقد ورد فى حديث آخر « أربع ركعات بتسليمتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرّة واحدة ، وإذا زلزلت الأرض زلزالها مرة ، وقل يا أيها الكافرون مرة ، وقل هو الله أحد مرة ، ويصلى على النبىّ صلى الله عليه وسلم سبعين مرة إذا فرغ منها » مروى ذلك فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «افترض على بنى إسرائيل صوم يوم فى السنة وهو يوم عاشوراء العاشر من المحرم فصوموه، ووسعوا فيه على عيالكم ، ومن وسع على عياله من ماله فى يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته ، ومن صام هذا اليوم كان له كفارة أربعين سنة ، وما من أحد أحيا ليلة عاشوراء وأصبح صائما مات ولم يدر بالموت » . وفى حديث علىّ كرّم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أحيا ليلة عاشوراء أحياه الله تعالى ما شاء » وعن سفيان بن عيينة عن جعفر الكوفى عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر ، وكان من أفضل ما رؤى بالكوفة على ما قيل فى زمانه أنه بلغه : أن من وسع على عياله فى يوم عاشوراء وسع الله تعالى عليه سائر سنته ، قال سفيان رحمه الله : فجربنا ذلك منذ خمسين سنة فلم نر إلا سعة . وعن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من وسع على أهله فى يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته » . وقيل عن بعض السلف أنه قال : من صام يوم الزينة ، يعنى يوم عاشوراء أدرك ما فاته من صيام السنة ، ومن تصدق فيه يومئذ أدرك ما فاته من صدقة السنة . وقال يحيى بن كثير رحمه الله : من اكتحل يوم عاشوراء بكحل فيه مسك لم يشك عينه إلى قابل من ذلك اليوم . وأخبرنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن أبى غليط بن أمية بن خلف الجمحى قال : « رأى النبىّ صلى الله عليه وسلم على بيتى صردا فقال : هذا أول طائر صام يوم عاشوراء » . وقال قيس ابن عبادة : كانت الوحش تصوم يوم عاشوراء . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل صيام بعد شهر رمضان شهر الله الذى يدعونه المحرم ، وأفضل الصلاة بعد المفروضة وفى جوف الليل الصلاة يوم عاشوراء » . وعن علىّ كرّم الله وجهه قال : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « فى شهر الله المحرم تاب الله على قوم ويتوب على آخرين » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام آخر يوم من ذى الحجة وأوّل يوم من المحرّم فقد ختم السنة الماضية بصوم واستفتح السنة المستقبلة بصوم ، وجعل الله عزّ وجل له كفارة خمسين سنة » . وعن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان عاشوراء يوما تصومه قريش فى الجاهلية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه بمكة ، فلما قدم المدينة فرض صيام رمضان ، فمن شاء صام يوم عاشوراء ، ومن شاء تركه

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فوجد اليهود تصوم يوم عاشوراء ، فسأل عن ذلك ، فقالوا : هذا اليوم الذى أظهر الله فيه عزّ وجل موسى عليه السلام وبنى إسرائيل على قوم فرعون فنحن نصومه تعظيما له ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : نحن أحقّ بموسى منكم ، فأمر بصومه » .

(فصل) واختلف العلماء رحمهم الله فى تسميته بيوم عاشوراء ، فقال أكثرهم : إنما سمى يوم عاشوراء ، لأنه عاشر يوم من أيام المحرّم . وقال بعضهم : إنما سمى عاشوراء ، لأنه عاشر الكرامات التى أكرم الله عزّ وجل هذه الأمة بها : أولها : رجب ، وهو شهر الله تعالى الأصم ، وإنما جعله كرامة لهذه الأمة لفضله على سائر الشهور كفضل هذه الأمة على سائر الأمم ؛ الكرامة الثانية : شهر شعبان ، وفضله على سائر الشهور كفضل النبىّ صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ؛ والثالثة : شهر رمضان وفضله على سائر الشهور كفضل الله تعالى على خلقه ؛ والرابعة : ليلة القدر ، وهى خير من ألف شهر ؛ والخامسة : يوم الفطر ، وهو يوم الجزاء ؛ والسادسة أيام العشر ، وهى أيام ذكر الله تعالى ؛ والسابعة : يوم عرفة ، وصومه كفارة سنتين والثامنة : يوم النحر ، وهو يوم القربان ؛ والتاسعة يوم الجمعة ، وهو سيد الأيام ؛ والعاشرة : يوم عاشوراء ، وصومه كفارة سنة ؛ وكل وقت من هذه الأيام كرامة جعلها الله تعالى لهذه الأمة تكفيرا لذنوبهم وتطهيرا لخطاياهم . وقال بعضهم ؛ : إنما سمى عاشوراء ، لأن الله تعالى أكرم فيه عشرة من الأنبياء عليهم السلام بعشر كرامات ؛ إحداها : أنه عزّ وجل تاب على آدم عليه السلام فيه ؛ والثانية : رفع الله عز وجل إدريس عليه السلام فيه مكانا عليا ، والثالثة : استوت سفينة نوح عليه السلام فيه على الجودى ؛ والرابعة : ولد إبراهيم عليه السلام فيه ، واتخذه الله تعالى خليلا ، وأنجاه من نار نمرود فيه ؛ والخامسة : تاب الله عزّ وجل على داود عليه السلام فيه ، وردّ الملك على سليمان عليه السلام فيه ؛ والسادسة : كشف الله ضرّ أيوب عليه السلام فيه ؛ والسابعة : نجى الله عزّ وجل موسى عليه السلام من البحر ، وأغرق فرعون فى البحر فيه ؛ والثامنة : نجى الله عزّ وجل يونس عليه السلام من بطن الحوت فيه ؛ والتاسعة : رفع الله عز وجل عيسى عليه السلام إلى السماء فيه ؛ والعاشرة : ولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيه .

(فصل) واختلفوا فى أىّ يوم هو من المحرّم ، فقال أكثرهم : اليوم العاشر من المحرّم وهو الصحيح لما تقدّم . وقال بعضهم : هو الحادى عشر منه . ونقل عن عائشة رضى الله عنها هو التاسع منه . وعن الحكم بن الأعرج أنه سأل ابن عباس رضى الله عنهما عن أىّ يوم يصام عاشوراء؟ فقال : إذا رأيت هلال المحرّم فاعدد ، ثم أصبح صائما من تاسعه . قلت : كذلك كان يصومه محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . وفى حديث آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا ، أنه كان يقول « صام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عاشوراء وأمر بصيامه ، قالوا يا رسول الله تعظمه اليهود والنصارى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان العام المقبل إن شاء الله تعالى صمنا يوم التاسع ، فلم يأت العام المقبل حتى توفى رسول الله صلى الله

عليه وسلم » . قال ابن عباس رضى الله عنهما فى لفظ آخر « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن عشت إلى قابل إن شاء الله تعالى صمت يوم التاسع ، مخافة أن يفوته يوم عاشوراء » .

(فصل) ونذكر من فضائل يوم عاشوراء أن الحسين بن علىّ رضى الله تعالى عنهما قتل فيه . روى عن أمّ سلمة رضى الله عنها أنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزلى ، إذ دخل عليه الحسين رضى الله عنه ، فطالعت عليهما من الباب وإذا الحسين رضى الله عنه على صدر النبىّ صلى الله عليه وسلم يلعب ، وفى يد النبىّ صلى الله عليه وسلم قطعة من طين ودموعه تجرى ؛ فلما خرج الحسين رضى الله عنه دخلت فقلت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله طالعت عليك وفى يدك طينة وأنت تبكى ، فقال صلى الله عليه وسلم لى : لما فرحت به وهو على صدرى يلعب أتانى جبريل عليه السلام وناولنى الطينة التى يقتل عليها ، فلذلك بكيت » . وروى عن الحسن البصرى رحمه الله أنه قال : إن سليمان بن عبد الملك رأى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى المنام يبشره ويلاطفه ، فلما أصبح سأل الحسن رضى الله عنه عن ذلك ، فقال له الحسن رضى الله عنه : لعلك فعلت إلى أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفا ، فقال نعم ، وجدت رأس الحسين بن علىّ رضى الله عنه فى خزانة يزيد بن معاوية ، فكسوته خمسة من الديباج ، وصليت عليه مع جماعة من أصحابى وقبرته ؛ فقال له الحسن رحمه الله : لقد رضى النبىّ صلى الله عليه وسلم عنك بسبب ذلك ، فأحسن إلى الحسن رحمه الله ، وأمر له بالجوائز » وروى عن حمزة بن الزيات قال : رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم وإبراهيم الخليل عليه السلام فى المنام يصليان على قبر الحسين بن علىّ رضى الله عنهما . وأخبرنا أبو نصر عن والده بإسناده عن أبى أسامة عن جعفر بن محمد رحمه الله قال : هبط على قبر الحسين بن علىّ رضى الله عنهما يوم أصيب سبعون ألف ملك يبكون عليه إلى يوم القيامة .

(فصل) وقد طعن قوم على من صام هذا اليوم العظيم وما ورد فيه من التعظيم ، وزعموا أنه لايجوز صيامه لأجل قتل الحسين بن علىّ رضى الله عنهما فيه . وقالا : ينبغى أن تكون المصيبة فيه عامة لجميع الناس بفقده فيه ، وأنتم تتخذونه يوم فرح وسرور ، وتأمرون فيه بالتوسعة على العيال والنفقة الكثيرة ، والصدقة على الفقراء والضعفاء والمساكين ، وليس هذا من حق الحسين رضى الله عنه على جماعة المسلمين . وهذا القائل مخطىء ومذهبه قبيح فاسد ، لأن الله تعالى اختار بسبط نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الشهادة فى أشرف الأيام وأعظمها وأجلها وأرفعها عنده ، ليزيده بذلك رفعة فى درجاته وكراماته ، مضافة إلى كرامته وبلغه منازل الخلفاء الراشدين الشهداء بالشهادة ، ولوجاز أن يتخذ يوم موته يوم مصيبة لكان يوم الاثنين أولى بذلك ، إذ قبض الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فيه ، وكذلك أبو بكر الصديق رضى الله عنه قبض فيه ، وهو ماروى هشام بن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : « قال أبو بكر رضى الله عنه : أىّ يوم توفى النبى صلى الله عليه وسلم فيه ؟ قلت : يوم الاثنين ، قال رضى الله عنه إنى أرجو أن أموت فيه » فمات رضى الله عنه فيه ، وفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وفقد أبي بكر رضي الله عنه أعظم من فقد غيرهما ؛ وقد اتفق الناس على شرف يوم الاثنين وفضيلة صومه ، وأنه تعرض فيه الأعمال ، وفي يوم الخميس ترفع أعمال العباد ، وكذلك يوم عاشوراء لا يتخذ يوم مصيبة ، ولأن يتخذ يوم عاشوراء يوم مصيبة ليس بأولى من أن يتخذ يوم فرح وسرور لما قدمنا ذكره وفضله ، من أنه نجى الله تعالى فيه أنبياءه من أعدائهم ، وأهلك فيه أعداءهم الكفار من فرعون وقومه وغيرهم ، وأنه تعالى خلق السموات والأرض والأشياء الشريفة فيه ، وآدم عليه السلام وغير ذلك ، وما أعد الله تعالى لمن صامه من الثواب الجزيل والعطاء الوافر ، وتكفير الذنوب وتمحيص السيئات ؛ فصار عاشوراء بمثابة بقية الأيام الشريفة كالعيدين والجمعة وعرفة وغيرها ، ثم لو جاز أن نتخذ هذا اليوم مصيبة لاتخذه الصحابة والتابعون رضي الله عنهم ، لأنهم أقرب إليه منا وأخص به . وقد ورد عنهم الحث على التوسعة على العيال فيه والصوم فيه ، من ذلك ما روى عن الحسن رحمه الله أنه قال : « صوم يوم عاشوراء فريضة » . وكان علي رضي الله عنه يأمر بصيامه . وقالت لهم عائشة رضي الله عنها : من يأمركم بصوم يوم عاشوراء ؟ قالوا : علي رضي الله عنه ، قالت : إنه أعلم من بقي بالسنة وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أحيا ليلة عاشوراء أحياه الله تعالى ما شاء » فدل على بطلان ما ذهب إليه القائل ، والله تعالى أعلم .

مجلس : في فضائل يوم الجمعة

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (يا أيها الذين آمنوا) يعني أقروا وصدقوا بوحدانية الله تعالى (إذا نودى للصلاة) ، يعني إذا دعيتم بالأذان يوم الجمعة (فاسعوا إلى ذكر الله) يعني فامشوا إلى صلاة الجمعة (وذروا البيع) يعني واتركوا البيع بعد النداء (ذلكم) يعني الصلاة (خيرلكم) من الكسب والتجارة (إن كنتم تعلمون) يعني تصدقون . وسبب نزول هذه الآية أن اليهود افتخروا على المسلمين بأشياء ثلاثة ، أحدها : قالوا : نحن أولياء الله وأحباؤه دونكم . والثاني : لنا كتاب ولا لكم كتاب : والثالث لنا سبت ولا سبت لكم ، فرد الله عليهم وكذبهم في هذه الآية ، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) بقولكم نحن أولياء الله من دونكم ، وأنزل الله عز وجل لقولهم أنتم أميون لا كتاب لكم ، قوله جل وعلا (هو الذى بعث في الأميين رسولا منهم) ، وذمهم فقال تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) الآية ، وأنزل تبارك وتعالى لقولهم لنا سبت ولا سبت لكم (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة) إلى قوله تعالى (ذلكم خير لكم) الآية : ثم قال عز وجل (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها) الآية ، وذلك أن العير إذا قدمت المدينة استقبلوها بالطبل والتصفيق ، فيخرج الناس من المسجد ؛ فلما كان ذات يوم

جاءت العير فخرجت الناس من المسجد ، غير اثنى عشر رجلا وامرأة ، ثم جاءت عير أخرى فخرجوا أيضا ، إلا اثنى عشر رجلا وامرأة ثم إن دحية بن خليفة الكلبي من بني عامر بن عوف أقبل بتجارة من الشام قبل أن يسلم ، وكان يحمل معه من أنواع التجارة ، وكان يتلقاه أهل المدينة بالطبل والتصفيق ، فوافق قدومه يوم الجمعة والنبيّ صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر يخطب ، فخرج إليه الناس ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : انظروا كم بقى فى المسجد ؟ فقالوا : اثنا عشر رجلا وامرأة ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : لولا هؤلاء لقد سوّمت عليهم الحجارة ، يعنى علم على الحجارة لهم ، فأنزل الله عزّ وجل (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما) على المنبر (قل ما عند الله خير من اللهو) يعنى الطبل والتصفيق (ومن التجارة) التى جاء بها دحية (والله خير الرازقين) من غيره وقيل : من الاثنى عشر رجلا الذين بقوا فى المسجد أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما .

(فصل : فى فضائل يوم الجمعة من طريق الآثار) من ذلك ما روى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « لم تطلع الشمس ولم تغرب على يوم أفضل من يوم الجمعة ، ومامن دابة إلا وهى تفزع من يوم الجمعة إلا الثقلان الجنّ والإنس ، وعلى كل باب من أبواب المسجد ملكان يكتبان الناس الأول فالأول ، كرجل قرب بدنة ، وكرجل قرب بقرة ، وكرجل قرب شاة وكرجل قرب دجاجة ، وكرجل قرب بيضة ، فإذا قام الإمام طوت الصحف » . وعن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « إن خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق الله تعالى آدم ، وفيه أدخله الجنة ، وفيه أهبط منها ، وفيه تقوم الساعة ، وفيه ساعة لا يصادفها مؤمن يسأل الله تعالى فيها شيئا إلا أعطاه إياه » . قال أبو سلمة : قال عبد الله بن سلام رضى الله عنه : قد عرفت تلك الساعة ، هى آخر ساعة من النهار ، وهى الساعة التى خلق فيها آدم عليه السلام ، قال الله عزّ وجل (خلق الإنسان من عجل) . وروى عبد الله بن منذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله ، وهو أعظم عند الله تعالى من يوم الفطر ، وفيه خمس خلال : فيه خلق الله تعالى آدم عليه السلام ، وفيه أهبط إلى الأرض ، وفيه توفى ، وفيه ساعة لايسأل العبد ربه فيها شيئا إلا أعطاه إياه ما لم يسأل حراما ، وفيه تقوم الساعة ، ومامن ملك مقرّب عند ربه عزّ وجل إلا وهو يفزع من يوم الجمعة ، ولاسماء ولا أرض إلا وهى تشفق من يوم الجمعة » وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم عليه السلام ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، وفيه تقوم الساعة » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أيضا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « اليوم الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، والموعود يوم القيامة ما طلعت شمس ولا غربت ، على يوم أفضل من يوم الجمعة ، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله تعالى فيها خيرا إلا أعطاه أو يستعيذه من شرّ إلا يعيذه » . أخبرنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن علىّ بن أبى طالب

رضى الله عنه قال : إذا كان يوم الجمعة خرجت الشياطين يزفون الناس إلى أسواقهم ومعهم الرايات ، وتخرج الملائكة على أبواب المساجد يكتبون الناس على قدر منازلهم ، السابق والمصلى والذى يليه ، حتى يخرج الإمام ، فمن دنا من الإمام فنصت واستمع ولم يلغ كان له كفلان من الأجر ، ومن نأى عنه فاستمع ونصت ولم يلغ كان له كفل من الأجر ، ومن دنا من الإمام فلغا ولم ينصت ولم يستمع كان له كفلان من الوزر ، ومن نأى عنه فلغا ولم ينصت ولم يستمع كان عليه كفل من الوزر ، ومن قال صه فقد تكلم ، ومن تكلم فلا جمعة له . ثم قال علىّ رضى الله عنه : هكذا سمعت من نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة والإمام يخطب أنصت فقد لغوت » . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « تقف الملائكة على أبواب المساجد يوم الجمعة يكتبون مجيء الناس حتى يخرج الإمام ، فإذا خرج الإمام طوت الصحف ورفعت الأقلام ، قال : فتقول الملائكة بعضهم لبعض : ما حبس فلانا وما حبس فلانا ؟ قال : فتقول الملائكة بعضهم لبعض : اللهمّ إن كان مريضا فاشفه ، وإن كان ضالا فاهده ، وإن كان غائبا فأعنه » . وقال جعفر : حدثنا ثابت قال : بلغنا أن لله تعالى ملائكة معهم ألواح من فضة وأقلام من ذهب يكتبون من صلى ليلة الجمعة ويوم الجمعة فى جماعة . أخبرنا الشيخ أبو نصر عن والده ، بإسناده عن أبى الزبير ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما : قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة فى يوم الجمعة ؛ إلا مريضا أو مسافرا أو امرأة أو صبيا أو مملوكا ، ومن استغنى عنها بلهو أو تجارة استغنى الله تعالى عنه ، والله غنىّ حميد » . وعن أبى الجعد الظهيرى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من ترك الجمعة ثلاثا تهاونا بها طبع الله تعالى على قلبه » وأخبرنا الشيخ أبو نصر عن والده بإسناده عن سعيد بن المسيب عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على منبره « يا أيها الناس توبوا إلى الله تعالى قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له تسعدوا ، وأكثروا من الصدقة فى السرّ والعلانية تؤجروا وتحمدوا وترزقوا واعلموا أن الله تعالى قد فرض عليكم الجمعة فريضة مكتوبة فى مقامى هذا فى شهرى هذا فى عامى هذا إلى يوم القيامة ، من وجد إليها سبيلا وتركها فى حياتى أو بعدى جحودا بها أو استخفافا بها ، وله إمام جائر أو عادل ، فلا جمع الله له شمله ولا بارك له فى أمره ، ألا فلا صلاة له ، ألا ولا وضوء له ، ألا ولا زكاة له ، ألا ولا حج له ، ألا ولا بركة له حتى يتوب ، فإن تاب تاب الله عليه ، ألا ولا تؤمن امرأة رجلا ولا يؤمن أعرابى مهاجرا ، ألا ولا يؤمن فاجر مؤمنا إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفه وسوطه » . وأخبرنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن ثابت البنانى عن طاوس عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « إن الله يبعث الأيام يوم القيامة على هيئتها ، ويبعث الجمعة وهى زاهرة منيرة ، أهلها يحفون بها كالعروس ،

تهدى إلى كريمها تضىء لهم ، يمشون فى ضوئها ، ألوانهم كالثلج وريحهم كالمسك ، يخوضون فى جبال الكافور ، وينظر إليهم الثقلان ، ما يطرفون تعجبا حتى يدخلوا الجنة ، لايخالطهم أحد إلا المؤذنون المحتسبون » . وأخبرنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن ثابت البنانى ، عن أنس ابن مالك رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن لله تعالى ستمائة ألف عتيق من النار ، فى كل يوم وليلة الجمعة ، ويوم الجمعة أربع وعشرون ساعة ، فى كل ساعة ستمائة ألف عتيق من النار ، كلهم قد استوجبوا النار » . وفى لفظ آخر عن ثابت عن أنس رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « إن لله فى كل ساعة من ساعات الدنيا ستمائة ألف عتيق من النار يعتقهم كلهم ، قد استوجبوا النار يوم القيامة وفى يوم الجمعة وليلة الجمعة أربع وعشرون ساعة ، ليس فيها ساعة إلا ولله عزّ وجل فيها ستمائة ألف عتيق يعتقهم من النار كلهم قد استوجبوا النار » . وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم الجمعة فى جماعة كتبت له حجة متقبلة ، وإن صلى العصر كانت له عمرة وإن تمسى فى مكانه لم يسأل الله تعالى شيئا إلا أعطاه » . وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام يوم الجمعة وصلى مع الإمام وشهد جنازة وتصدّق بصدقة وعاد مريضا وشهد نكاحا وجبت له الجنة » . وأخبرنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « يحضر الجمعة ثلاثة نفر : فرجل حضرها بلغو فذاك حظه ؛ ورجل حضرها بدعاء فهو رجل دعا الله تعالى ، فإن شاء أعطاه وإن شاء منعه ؛ ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخطّ رقبة مسلم ولم يؤذ أحدا ، فهى كفارة إلى الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام ، فإن الله عزّ وجل يقول (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) » ؛ وقد ورد فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من دابة إلا وهى قائمة على ساق يوم الجمعة مشفقة من قيام الساعة إلا الشياطين وشقى بنى آدم » ، ويقال إن الطير والهوام تلقى بعضها بعضا فى يوم الجمعة ، فتقول سلام عليكم يوم صالح . وفى خبر آخر : « إن جهنم تسعر فى كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس فى كبد السماء ، فلا تصلوا فى هذه الساعة إلا يوم الجمعة ، فإنها صلاة كلها ، وإن جهنم لا تسعر فيه » .

(فصل) روى عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « من اغتسل يوم الجمعة ثم راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » فالساعة الأولى تكون بعد صلاة الصبح ، والساعة الثانية تكون عند ارتفاع الشمس ، والثالثة عند انبساطها وهى الضحى الأعلى إذا رمضت الأقدام بحرّ الشمس ، والساعة الرابعة تكون قبل الزوال ، والخامسة إذا زالت الشمس أو مع

استوائها . وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من اغتسل فى كل يوم جمعة أخرجه الله تعالى من ذنوبه ثم قيل له استأنف العمل » . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من غسل واغتسل وغدا وابتكر ودنا من الإمام ولم يلغ ، كان له بكل خطوة صيام سنة وقيامها » وقوله صلى الله عليه وسلم « من غسل » بالتشديد: أى غسل أهله كناية عن الجماع ، ولهذا يستحب عند أهل العلم إتيان الزوجة فى يوم الجمعة ، وكان بعض السلف يفعله اتباعا لهذا الحديث ، وروى بالتخفيف : أى غسل رأسه ثم غسل جسده . وعن الحسن عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة اغتسل كل يوم جمعة ، ولو صار أن تشترى الماء بقوت يومك » فغسل الجمعة مستحبّ عند أكثر الفقهاء ، وواجب عند داود ، فلا ينبغى أن يتركه من يأتى الجمعة . قال ووقته : بعد طلوع الفجر الثانى ، والأولى له أن يعقبه بالرواح إلى المسجد ليخرج من الخلاف ، وأن يتحفظ من نقض الطهارة حتى يصلى الجمعة وينوى بالغسل خدمة مولاه ، فإن أصبح جنبا فتوضأ واغتسل ناويا بهما الجنابة والجمعة جاز ، ويتنظف بأخذ شعره وظفره وقطع رائحته : أى الكريهة ، ويلبس أحسن ثيابه وأفضلها البياض ويتعمم ويرتدى ، فإنه جاء فى الحديث «إن الملائكة تصلى على أهل العمائم يوم الجمعة» ،ويتطيب بأطيب طيبه ممايظهر ريحه ويخفى لونه ، وليخرج من بيته إلى الجامع وعليه السكينة والوقار خاشعا متواضعا مخبتا مفتقرا مكثرا من الدعاء والاستغفار ، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينوى بخروجه زيارة مولاه فى بيته والتقرّب إلى الله تعالى بأداء فرائضه ، والعكوف فى المسجد إلى حين انقلابه إلى بيته ، وينوى كفّ جوارحه عن اللهو واللغو فى الطريق والجامع ، وليترك راحته يوم الجمعة وحظوظ دنياه ، وليواصل الأوراد والعبادة فيه ، فيجعل أوّل نهاره إلى انقضاء صلاة الجمعة للخدمة ، ثم يجعل وسط النهار إلى صلاة العصر لاستماع العلم ومجالس الذكر ، وبعد صلاة العصر إلى غروب الشمس للتسبيح والاستغفار ، وأفضل ما يشتغل به فى هذا الوقت وفى كل يوم وليلة من الأذكار أن يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو حىّ لا يموت ، بيده الخير وهو على كلّ شىء قدير ، مائتى مرة ، سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، لا إله إلا الله الملك الحقّ المبين مائة مرة ، اللهمّ صلّ على محمد عبدك ورسولك النبىّ الأمىّ مائة مرة وأستغفر الله الحىّ القيوم وأسأله التوبة مائة مرة ، وماشاء الله لاقوّة إلا بالله مائة مرة فذلك سبعمائة مرة من أنواع الأذكار . وقد نقل عن بعض الصحابة رضى الله عنهم ، أنه كان يسبح فى كل يوم اثنى عشر ألف تسبيحة . وعن بعض التابعين أنه كان يسبح كل يوم ثلاثين ألفا ، كل قد علم صلاته وتسبيحه ، فاحذر أن تكون من المحرومين ، فلا تذكر ولا تذكر ، والمؤمن أولا يكون ذاكرا لله عزّ وجل ، ثم مذكورا له ، قال الله تعالى (فاذكرونى أذكركم) . وأما قبل الصلاة فلا يستحبّ له حضور القاصّ ، لأن القصص بدعة وكان ابن عمر وغيره من الصحابة رضى الله عنهم يخرجون القصاص من الجامع ، اللهمّ إلا أن يكون عالما بالله تعالى من أهل المعرفة

واليقين ، فيكون حضور مجلسه أفضل من صلاته لحديث أبي ذرّ رضي الله عنه : «حضور مجلس العلم أفضل من صلاة ألف ركعة» ، وإذا أتى الجامع لا يتخطى رقاب الناس إلا أن يكون إماما أو مؤذنا ، لما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل رآه يتخطى رقاب الناس : «يا فلان ما منعك أن تصلى معنا الجمعة ؟ فقال : أولم ترنى يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم رأيتك تلبثت وآذيت » أي تأخرت من البكور ، وآذيت بالحضور . وفى حديث آخر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم « ما منعك اليوم أن تجمع ؟ قال : يا نبيّ الله قد جمعت ، قال صلى الله عليه وسلم : أولم أرك تتخطى رقاب الناس » . وقد قيل : إن من فعل ذلك جعل جسرا يوم القيامة على ظهر جهنم يتخطاه الناس ، ولا تمرّن بين يدى المصلى ، لأن فى الخبر « لأن يقف أحدكم أربعين سنة خير له من أن يمرّ بين يدى المصلى » . وفى لفظ آخر « لأن يكون الرجل رمادا تذروه الرياح خير له من أن يمرّ بين يدى المصلى » . ولا يقيمن أحدا من موضعه ويجلس مكانه ، لما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يقيمنّ أحدكم أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه » . وكان ابن عمر رضى الله عنهما إذا قام له الرجل من مجلسه لم يجلس فيه حتى يعود إليه . وإن رأى بين يديه فرجة فهل يجوز له أن يتخطى رقاب الناس فيجلس فيها ؟ على روايتين عند إمامنا أحمد رحمه الله تعالى ، فإن قدمّ صاحبا له فجلس فى موضعه ، فإذا جلس هناك جاز ، وإن بسط له شيئا فهل لغيره أن يرفعه ويجلس هناك على وجهين عند أصحابنا ، ويجتهد أن يدنو من الإمام فينصت إلى الخطبة فلا يتكلم ، فإن تكلم أثم فى إحدى الروايتين ، ولا يحرم الكلام قبل الشروع فى الخطبة وبعد الفراغ منها .

(فصل) أخبرنا الشيخ أبو نصر عن والده ، قال أنبأنا أبو القاسم عبد الله بن عمر الفقيه الشافعي رحمه الله تعالى ، قال حدثنا خبيب بن الحسن القزاز ، قال حدثنا جعفر بن محمد الخراسانى قال حدثنا أبو أيوب سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى ، قال حدثنا محمد بن شعيب ، عن عمر بن عبد الله مولى عفرة ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « أتانى جبريل عليه السلام فى كفه كمأة بيضاء فيها نكتة سوداء ، فقلت : ما هذه يا جبريل ؟ قال : هذه الجمعة ، لكم فيها خير كثير ، قلت : وما هذه النكتة السوداء ؟ قال : هذه الساعة ، تقوم يوم الجمعة ، وهو سيد الأيام ، ونحن نسميه عندنا يوم المزيد ، قلت : ولم تسمونه يوم المزيد يا جبريل ؟ قال : ذلك لأن ربك عزّ وجل اتخذ فى الجنة واديا أفيح من مسك أبيض ، فإذا كان يوم الجمعة من أيام الآخرة هبط الجبار تبارك وتعالى من عرشه إلى كرسيه إلى ذلك الوادى ، وقد حفّ الكرسى بمنابر من نور يجلس عليها النبيون ، وحفت المنابر بكراسى من ذهب مكللة بالجوهر يجلس عليها الصديقون والشهداء ، ثم جاء أهل الغرف حتى حفوا بالكثيب ، فيقول الله عزّ وجل : أنا الذى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى وأحللتكم كرامتى ، ثم يقول : فسلونى فيقولون بأجمعهم : نسألك الرضا عنا ، فيقول : رضاى عنكم أحلكم دارى وأنيلكم كرامتى ؛ ثم يقول : سلونى فيعيدون فيقولون : ربنا نسألك الرضا ، ثم يقول : سلونى فيسألونه حتى تنتهى

أمنية كل عبد منهم ، ثم يقولون : حسبنا ربنا ، فيفتح لهم بقدر انصرافهم من يوم الجمعة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم ، وكل غرفة من لؤلؤة بيضاء وياقوتة حمراء وزمردة خضراء ، ليس فيها فصم ولا وصم ، مطردة فيها الأنهار متدلية فيها ثمارها وفيها أزواجها وخدمها ومساكنها ، فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة ، ليزدادوا فضلا من ربهم ورضوانا » . وأخبرنا أبو نصر عن والده ، قال حدثنا محمد بن أحمد الحافظ ، قال حدثنا أبو عليّ محمد بن أحمد الصوّاف ، قال حدثنا أبو العباس عبد الله بن أصغر ؛ قال حدثنا إسحق بن إبراهيم أبو صالح الجزّار ، قال حدثنا عمرو بن شمس عن سعد بن طريف الإسكاف ، عن الأصبغ بن نباتة ، عن عليّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم الجمعة غدا أمين الله جبريل عليه السلام إلى المسجد الحرام ، فركز لواءه فيه ، وغدا سائر الملائكة إلى المساجد التي يجمع فيها ، فركزوا ألويتهم وراياتهم بأبواب المساجد ، ثم ينشرون قراطيس من فضة وأقلاما من ذهب ، ثم يكتبون الأول فالأول ممن بكر إلى الجمعة ، فإذا دخل كل مسجد سبعون ممن بكر إلى المسجد طويت القراطيس ، وكان أولئك السبعون الذين بكروا إلى الجمعة كالذين اختار موسى (واختار موسى قومه سبعين رجلا) والذين اختارهم موسى من قومه كانوا أنبياء ، ثم يتخلل الملائكة الصفوف فيتفقدون الرجال ، ويقول بعضهم لبعض : ما فعل فلان ؟ فيقولون مات ، فيقولون رحمه الله تعالى ، فإنه كان صاحب جمعة ؛ ويقولون مافعل فلان ؟ فيقولون غائب ، فيقولون حفظه الله فإنه كان صاحب جمعة ؛ فيقولون ما فعل فلان ؟ فيقولون مريض ، فيقولون عافاه الله فإنه كان صاحب جمعة .

(فصل) وفى يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد يدعو الله تعالى إلا استجيبت دعوته . أخبرنا أبو نصر عن والده ، بإسناده ، عن محمد بن إبراهيم ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أتيت الطور فوجدت فيه كعبا ، فحدثته عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وحدثنى عن التوراة ، قال : فما اختلفنا فى شيء حتى انتهينا إلى حديث ، فقلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فى الجمعة ساعة لا يوافقها مؤمن يصلى فيسأل الله تعالى فيها خيرا إلا أعطاه إياه » فقال كعب : فى كل سنة ، قال : فقلت بل فى كل جمعة ، كذلك قال صلى الله عليه وسلم ، فذهب قليلا ثم رجع فقال : صدقت والله ، إنها لكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل جمعة ، وإنه لسيد الأيام وأحبها إلى الله تعالى . فيه خلق آدم عليه السلام ، وفيه أسكن الجنة ، وفيه أهبط منها ، وفيه تقوم الساعة ، ما من دابة إلا وهى مصيخة تنتظر ما يكون فى يوم الجمعة إلا الثقلين . فرجعت فلقيت عبد الله بن سلام رضى الله عنه فحدثته بحديثى وحديث كعب ، قال : فقال عبد الله رضى الله عنه كذب كعب هو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى التوراة ، قال : فقلت إنه قد رجع ، فقال عبد الله بن سلام رضى الله عنه : إنى لأعلم تلك الساعة ، قلت : أيّ ساعة هى ؟ قال : آخر ساعة من نهار يوم الجمعة ، قال : فقلت وكيف وقد سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « لا يوافقها مؤمن

يصلى » ولات حين صلاة قال : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من انتظر صلاة فرض فهو فى صلاة » قلت بلى ، قال فهى كذلك . وفى لفظ عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فى الجمعة ساعة لايوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه ، وقال بيده يقللها » وقد روى عن بعض السلف أنه قال : إن لله فضلا من الرزق سوى أرزاق العباد لايعطى من ذلك الفضل إلا لمن سأله عشية الخميس ويوم الجمعة . وأخبرنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن سعيد ابن راشد ، عن زيد بن على عن مرجانة ، عن فاطمة بنت النبىّ صلى الله عليه وسلم رضى الله عنها ، عن أبيها صلى الله عليه وسلم قال « إن فى الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه ، قلت يا أبت أية ساعة هى ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إذا تدلى نصف الشمس للغروب » قالت فكانت فاطمة رضى الله عنها إذا كان يوم الجمعة أمرت غلاما لها يقال له زيد تقول اصعد إلى الظراب ، فإذا تدلى نصف الشمس للغروب فآذنى واعلمنى ، فكان يصعد ، فإذا كانت تلك الساعة آذنها وأعلمها ، فتقوم وتدخل المسجد حتى تغرب الشمس وتصلى . وفى حديث كثير بن عبد الله المزنى ، عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « فى الجمعة ساعة من نهار لا يسأل الله فيها عبد شيئا إلا أعطاه سؤله ، قيل له : وأية ساعة هى يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : حين تقام الصلاة إلى الانصراف منها » قال كثير بن عبد الله المزنى : يعنى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة .

وأخبرنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن محمد بن المنكدر قال : سمعت جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يقول : عرض هذا الدعاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لودعى به على شىء بين المشرق والمغرب فى ساعة يوم الجمعة لا ستجيب لصاحبه : سبحانك لا إله إلا أنت يا حنان يا منان ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام » . وقال صفوان ابن سليم : بلغنى أن من قال حين يجلس الإمام على المنبر يوم الجمعة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير ، غفر له . وقال البراء بن عازب رضى الله عنهما : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « فضل الجمعة فى رمضان على سائر الأيام كفضل رمضان على سائر الشهور » .

(فصل : فى الصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم فى يوم الجمعة) أخبرنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الصلاة علىّ يوم الجمعة ، فإنه يوم تضاعف فيه الأعمال ، وسلوا الله لى الدرجة الوسيلة ، قيل : يا رسول الله : وما الدرجة الوسيلة من الجنة ؟ قال : هى أعلى درجة فى الجنة لا ينالها إلا نبىّ ، وأرجو أن أكون هو » . وعن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال حين يسمع النداء : اللهمّ ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ، وابعثه مقاما محمودا

الذى وعدته ، حلت له الشفاعة يوم القيامة » . وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أكثروا الصلاة على نبيكم فى الليلة الغراء واليوم الأزهر ، ليلة الجمعة ويوم الجمعة » . وعن عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كنت واقفا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « من صلى علىّ فى كل جمعة ثمانين مرة غفر الله تعالى له ذنوب ثمانين سنة ؛ قلت : يا رسول الله كيف الصلاة عليك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : تقول اللهمّ صل على محمد عبدك ورسولك النبىّ الأمىّ وتعقد واحدة » . وعن مكحول الشامى عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الصلاة علىّ فى يوم الجمعة ، فإن صلاة أمّتى تعرض علىّ فى كل يوم جمعة ، فمن كان أكثرهم علىّ صلاة كان أقربهم منى منزلة يوم القيامة » .

(فصل : فيما يستحبّ أن يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة) أخبرنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن أبى الأحوص ، عن عبد الله رضى الله عنه قال : « كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يقرأ يوم الجمعة الم السجدة ، وهل أتى » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم « أنه كان يقرأ فى المغرب بقل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ؛ وفى العشاء بسورة الجمعة والمنافقين » ، وقيل : إنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ذلك فى صلاة الجمعة . وعن الحسن عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ ليلة الجمعة سورة يس وحم الدخان أصبح مغفورا له » وقيل : إن من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة كان كمن تصدّق بعشرة آلاف دينار . ويستحبّ أن يصلى ليلة الجمعة ويوم الجمعة ركعات بأربع سور : سورة الأنعام ، وسورة الكهف ، وسورة طه ، وسورة الملك ؛ فإن لم يحسن القرآن قرأ جميع مايحسن منه ، فذلك له ختمة ؛ فقد قيل : ختمه من حيث علمه ؛ وإن كان يحسن القرآن يستحبّ له أن يختم فى يوم الجمعة ، فإن لم يقدر يشفع إليه ليلة الجمعة ، فإن جعل آخر ختمته فى ركعتى المغرب أو ركعتى الفجر كان أحسن ، وكذلك إن جعل ختمته بين الأذان والإقامة يوم الجمعة كان فيه فضل كبير ، وإن قرأ ألف مرة قل هو الله أحد يوم الجمعة فى عشر ركعات أو عشرين أو فى غير صلاة كان أفضل من ختمة القرآن . ويستحبّ الصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم ألف مرّة يوم الجمعة ، وكذلك التسبيح ألف مرة ، وهى الكلمات الأربع التى تقدمت : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر .

(فصل : فى تسميته بيوم الجمعة) أخبرنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن سلمان رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتدرى لم سمى يوم الجمعة ؟ قلت : لا ، قال : لأن فيه جمع أبوكم آدم ، ثم قال : لايتطهر رجل يوم الجمعة فيتوضأ ويحسن وضوءه ، ثم يأتى الجمعة ، إلا كفر له ما بينها وبين الجمعة الأخرى ما اجتنب الكبائر » . وقال بعضهم : هو من الاجتماع ، وهو اجتماع قالب آدم وزوجه بعد أن كان ملقى أربعين سنة . وقال آخرون : لاجتماع آدم وحوّاء بعد الفرقة الطويلة . وقيل : إنما سمى بذلك لاجتماع أهل البلد والرساتيق فيه .

وقيل : لأنه تقوم فيه القيامة ، وهو يوم الجمع ، قال الله عزّ وجل (يوم يجمعكم ليوم الجمع) .

(فصل) وجميع ما ذكرناه من صيام الأشهر والأضحية والعبادات من الصلاة والأذكار وغير ذلك ، وما سنذكر إن شاء الله تعالى ، لا يقبل إلا بعد التوبة وطهارة القلب وإخلاص العمل لله تعالى وترك الرياء والسمعة .

أما التوبة فقد تقدّم بيانها ونزيد عليه بأن الله يحبّ التوّابين ويحبّ كل قلب طاهر من الذنوب ، فقال عز وجل (إن الله يحب التوّابين ويحبّ المتطهرين) . قال عطاء ومقاتل والكلبي رحمهم الله : إن الله يحبّ التوابين من الذنوب ، والمتطهرين بالماء من الأحداث والحيض والجنابات والنجاسات بيانه قصة أهل قباء ، حيث ذكرهم الله عزّ وجل بقوله تعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) سألهم النبيّ صلى الله عليه وسلم عما يعملون ، فقالوا : نتبع الماء الأحجار فى الاستنجاء . وقال مجاهد رحمه الله : يحبّ التوّابين من الذنوب والمتطهرين عن أدبار النساء أن يأتوها ، من أتى امرأة فى دبرها فليس من المتطهرين ، فإن دبر المرأة مثله من الرجل . وقيل : التوّابين من الذنوب والمتطهرين من الشرك . روى عن أبى المنهال رحمه الله أنه قال : كنت عند أبى الغالية فتوضأ وضوءا حسنا ، فقلت : إن الله يحبّ التوّابين ويحب المتطهرين ، فقال : الطهور بمه ، إن الطهور حسن ، ولكنهم المتطهرون من الذنوب . وعن سعيد بن جبير رحمه الله قال : إن الله تعالى يحبّ التوّابين من الشرك ، والمتطهرين من الذنوب . وقيل : التوّابين من الكفر والمتطهرين بالإيمان . وقيل : التوّابين من الذنوب لا يعودون فيها ، والمتطهرين منها لم يصيبوها . وقيل : التوّابين من الكبائر والمتطهرين من الصغائر . وقيل : التوّابين من الأفعال ، والمتطهرين من الأقوال . وقيل : التوّابين من الأقوال والأفعال ، والمتطهرين من العقود والإضمار . وقيل : التوّابين من الآثام ، والمتطهرين من الأجرام . وقيل : التوّابين من الجرائر ، والمتطهرين من خبث السرائر . وقيل : التوّابين من الذنوب ، والمتطهرين من العيوب . وقيل : التوّاب الذى كلما أذنب تاب ، قال الله عزّ وجل (فإنه كان للأوّابين غفورا) . وعن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مرّ رجل ممن كان قبلكم بجمجمة ، فنظر إليها فقال : أى ربّ أنت أنت وأنا أنا ، أنت العوّاد بالمغفرة وأنا العوّاد بالذنوب ، ثم خرّ ساجدا ؛ فقيل له : ارفع رأسك فأنا العوّاد بالمغفرة ، وأنت العواد بالذنوب فرفع رأسه فغفر له » .

وأما الإخلاص فقد قال الله عزّ وجل (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وقال جلّ وعلا (ألا لله الدين الخالص) ، وقال تعالى (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) ، وقال جلّ جلاله (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون) اختلف الناس فى معنى الإخلاص ، قال الحسن رحمه الله : سألت حذيفة رضى الله عنه عن الإخلاص ما هو؟ قال « سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الإخلاص ما هو ؟ قال صلى الله عليه وسلم : سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سألت ربّ العزّة جلّ وعلا عن الإخلاص

ما هو ؟ فقال سبحانه وتعالى : هو سِرٌّ من سرّى أستودعه قلب من أحببت من عبادى » . وعن أبى إدريس الخولانى رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لكلّ حق حقيقة وما يبلغ عبد حقيقة الإخلاص حتّى لا يحبّ أن يحمد على شيء من عمل عمله لله عزّ وجل » . وقال سعيد بن جبير رحمه الله : الإخلاص أن يخلص العبد دينه لله وعمله لله تعالى ، ولا يشرك به فى دينه ، ولا يرائى بعمله أحدا . وقال الفضيل رحمه الله تعالى : ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص هو الخوف من أن يعاقبك الله تعالى عليهما ، وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : الإخلاص : تمييز العمل من العيوب ، كتمييز اللبن من الفرث والدم . وقال أبو الحسين البوشنجى رحمه الله : هو مالا يكتبه الملكان ، ولا يفسده الشيطان ، ولايطلع عليه الإنسان . وقال رويم رحمه الله : هو ارتفاع رؤيتك من الفعل . وقيل : هو ما يراد به الحقّ ويقصد به الصدق . وقيل : هو مالاتشوبه الآفات ولا يتبعه رخص التأويلات . وقيل : هو ما استتر عن الخلائق واستصفى من العلائق . وقال حذيفة المرعشى : هو أن تستوى أفعال العبد فى الظاهر والباطن . وقال أبو يعقوب المكفوف : هو أن يكتّم حسناته كما يكتّم سيئاته . وقال سهل بن عبد الله : هو الإفلاس . عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا يغلّ عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين » . وقيل : الإخلاص : إفراد الحقّ فى الطاعة بالقصد ، وهو إرادة العبد بطاعته القرب إلى مولاه دون أحد من خلقه ، فلا يتصنع للخلق ، ولا يكتسب منهم الحمد ، ولا يستجلب منهم الحبّ ، ولا يدفع بها عن نفسه اللوم والذم . وقيل : الإخلاص : تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين . قال ذو النون المصرى رحمه الله : الإخلاص لا يتمّ إلا بالصدق فيه والصبر عليه ، والصدق لا يتمّ إلا بالإخلاص فيه والمداومة عليه . وقال أبويعقوب السوسى : متّى شهدوا فى إخلاصهم إخلاصا احتاج إخلاصهم إلى إخلاص . وقال ذو النون رحمه الله : ثلاث من علامات الإخلاص : استواء المدح والذم من العامة ، ونسيان رؤية الأعمال ، واقتضاء ثواب العمل فى الآخرة . وقال أيضا رحمه الله : الإخلاص : ما حفظ من العدوّ أن يفسده . قال أبوعثمان المغربى رحمه الله : الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظّ بحال ، وهو إخلاص العوّام . وأما إخلاص الخواص فهو ما يجرى عليهم لا بهم ، فتبدو عنهم الطاعات وهم عنها بمعزل ، ولا يقع عليهم رؤية بها اعتداد ، فذلك إخلاص الخواص . وقال أبو بكر الدقاق رحمه الله : نقصان كل مخلص فى إخلاصه رؤية إخلاصه ، فإذا أراد الله تعالى أن يخلص إخلاصه ، يسقط عن إخلاصه رؤية إخلاصه ، فيكون مخلصا لا مخلصا . وقال سهل رحمه الله : لا يعرف الرياء إلا مخلص . وقال أبو سعيد الخرّاز رحمه الله : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين . وقال أبو عثمان رحمه الله : الإخلاص : نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق . وقيل : الإخلاص : ما أريد به الحقّ وقصد به الصدق . وقيل : هو الإغماض عن رؤية الأعمال . وقال سرّى السقطى رحمه الله : من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله تعالى . وقال الجنيد رحمه الله :

الإخلاص سر بين الله تعالى وبين العبد ، لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوى يميله . وقال رويم رحمه الله : الإخلاص فى العمل هو الذى لا يريد صاحبه عليه عوضا فى الدارين ، ولا حظا من الملكين . وسئل ابن عبد الله رحمه الله : أىّ شى أشدّ على النفس ؟ فقال : الإخلاص ، لأنه ليس لها منه نصيب . وقيل : هو أن لا يشهد على عملك أحد غير الله عزّ وجل . وقال بعضهم : دخلت على سهل بن عبد الله رحمه الله يوم جمعة قبل الصلاة ، فرأيت فى البيت حية ، فجعلت أقدم رجلا وأؤخر رجلا أخرى ، فقال : ادخل لا يبلغ أحد حقيقة الإيمان وعلى وجه الأرض شىء يخافه ؛ ثم قال : هل لك فى صلاة الجمعة ؟ فقلت : بيننا وبين المسجدمسيرة يوم وليلة ، فأخذ بيدى ، فما كان إلا قليلا حتى رأيت المسجد ، فدخلنا وصلينا الجمعة ثم خرجنا ، فوقف ينظر إلى الناس وهم يخرجون ، فقال : أهل لا إله إلا الله كثير ، ولكن المخلصون منهم قليل . كنت مع إبراهيم الخوّاص رحمه الله فى سفر ، فجئنا إلى موضع فيه حيات كثيرة ، فوضع ركوته وجلس وجلست ؛ فلما كان برد الليل وبرد الهواء ، خرجت الحيات ، فصحت بالشيخ ، فقال : اذكر الله تعالى ، فذكرت فرجعت ، ثم عادت ، فصحت به ؛ فقال مثل ذلك ، فلم أزل إلى الصباح فى مثل تلك الحالة ؛ فلما أصبحنا قام ومشى ومشيت معه ، فسقطت من وطائه حية عظيمة قد تطوّقت ، فقلت : ما أحسست بها ؟ فقال لا ، منذ زمان ما بتّ ليلة أطيب من البارحة . وقال أبو عثمان رحمه الله تعالى : من لم يذق وحشة الغفلة لم يجد طعم أنس الذكر .

(فصل) وينبغى لكلّ متعبد وعارف أن يحذر فى جميع أحواله من الرياء ورؤية الخلق والعجب ، فإن النفس خبيثة ، وهى منشأ الأهوية المضلة والشهوات المردية واللذات الحائلة بين العبد وبين الحقّ عزّ وجل ، لا طريق إلى الأمن من غوائلها ما دام الروح فى جسد ابن آدم ، وإن بلغ العبد إلى حالة البدلية والصديقية ، وإن كانت هذه الحالة أسلم من الابتداء وآمن من شرّها ودواهيها ، والخير أغلب والنور أكثر والهداية متحققة بسبيل الله ، والتوفيق شامل والحفظ موجود ، غير أن العصمة ليست لنا ، إنما ذلك مختصّ بالأنبياء عليهم السلام ، ليقع الفرق بين النبوّة والولاية ، وقد توعد الله عزّ وجل أهل الرياء والسمعة ، ونبه على شؤم النفس وغوائلها ، ونهى عن اتباعها وأمر بمخالفتها فى القرآن تارة ، وفيما نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأخبار والسنة أخرى . من ذلك قال الله عز وجل (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) ، وقال جلّ وعلا (يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون) ، وقال تعالى (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) ، وقال تعالى (إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) الأحبار . هم العلماء . والرهبان : العباد ، وقال عزّ وجل (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) ، وقال تعالى (وأسرّوا قولكم أو اجهروا به ، إنه عليم بذات

الصدور) ، وقال جل وعلا (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) ، وقال تعالى (إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي) ، وقال تعالى (وأحضرت الأنفس الشحّ) ، وقال عزّ وجل لداود عليه السلام : ياداود اهجر هواك فإنه لا منازع ينازعني فى ملكي غير الهوى ، وقال تعالى (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

وأما السنة فمن ذلك ما روى عن شداد بن أوس رضى الله عنه أنه قال « دخلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم فرأيت فى وجهه ماساءني ، فقلت : ما الذى بك يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أخاف على أمتي الشرك بعدى . فقلت : أيشركون من بعدك يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا وثنا ولا حجرا ، ولكنهم يراءون فى أعمالهم ، والرياء : هو الشرك ، ثم تلا قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) ، وقال صلى الله عليه وسلم « يجاء يوم القيامة بصحف مختومة ، فيقول الله عزّ وجل للملائكته : ألقوا هذا واقبلوا هذا ، فيقولون : وعزّتك وجلالك ما علمنا إلا خيرا ، فيقول تعالى : نعم ، ولكن هذا عمل لغيرى ، ولا أقبل إلا ما ابتغى به وجهى » . وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه « اللهمّ طهر لسانى من الكذب ، وقلبى من النفاق ، وعملى من الرياء ، وبصرى من الخيانة ، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » . وقال صلى الله عليه وسلم « لا تقعدوا إلا على عالم يدعوكم من خمس إلى خمس ، من الرغبة إلى الزهد ، من الرياء إلى الإخلاص ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن المداهنة إلى المناصحة ، ومن الجهل إلى العلم » . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يقول : أنا خير شريك ، من أشرك معى شريكا فى عمله فهو لشريكى دونى ، إنى لا أقبل إلا ما خلص لى ؛ يا ابن آدم أنا خير قسيم ، فانظر عملك الذى عملت لغيرى ، فإنما أجرك على الذى عملت له » . وقال صلى الله عليه وسلم « بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة فى الدين والتمكين فى البلاد ، مالم يعملوا عمل الآخرة للدنيا ، ومن يعمل عمل الآخرة للدنيا لم يقبل منه وماله فى الآخرة من نصيب » . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يعطى الدنيا على نية الآخرة ، ولا يعطى الآخرة على نية الدنيا » . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسرى بى بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت لجبريل عليه السلام . من هؤلاء ؟ قال : خطباء أمتك الذين يقولون الشيء ولا يعملون به ، يقولون ما يعرفون ، ويفعلون ما ينكرون ، يأمرون الناس بالبرّ وينسونّ أنفسهم » . وقال صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان ، والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى يكون عليكم أمراء كذبة ، ووزراء فجرة وأعوان خونة ، وعرفاء ظلمة ، وقرّاء فسقة ، وعباد جهال ، يفتح الله تعالى عليهم فتنة غبراء مظلمة ، فيتهوكون تهوّك اليهود الظلمة ، فحينئذ ينقض الإسلام عروة عروة حتى لا يقال الله الله » . وعن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بناس يوم القيامة فى أعظم نكال ، فيقول الله تعالى : إنكم كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم ، وإذا

لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين هبتم الناس ولم تهابونى ، وأجللتم الناس ولم تجلونى ، وعزتى لأذيقنكم أليم العذاب » . وعن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يلقى رجل فى النار فتندلق أقتاب بطنه ، فيدار به كما تدور الرحى بصاحبها ، فيقال له : أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه ، ولا أجتنبه » . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « ربّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ، وربّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر ، وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : اهتز لذلك العرش وغضب له الربّ تبارك وتعالى » . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « بئس العبد عبد حال بينه وبين ثواب الله عبد من خلق الله تعالى ، يتعبد له رجاء ما فى يديه ، فيتعب بدنه فى مرضاته ، فيخرج دينه وينمسخ ، ويقبح مروءته ، حتى يحول بينه وبين ربه ، يرجو الله تعالى فى الكبير ، ويرجو العبد فى الصغير ، يعطى العبد من خدمته مالا يعطى الله تعالى من طاعته» وعن مجاهد رحمه الله أنه قال «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنى أتصدّق بصدقة فألتمس بها وجه الله تعالى ، وأحبّ أن يقال لى خيرا ، فنزل قوله سبحانه (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « يخرج فى آخر الزمان أقوام يختلون الدنيا بالدين ، فيلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، وألسنتهم أحلى من السكر ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الله تعالى أبى يغترون أم على يجترؤون ؟ بى حلفت لأبعثنّ على أولئك فتنة تدعو الحليم فيها حيران» . وعن ضمرة عن أبى حبيب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة يرفعون عمل عبد من عباد الله فيستكثرونه ويزكونه حتى ينتهوا به إلى حيث يشاء الله تعالى من سلطانه ، فيوحى الله تعالى إليهم إنكم حفظة على عمل عبدى وأنا رقيب على ما فى نفسه إن عبدى هذا لم يخلص عمله فاكتبوه فى سجين ، ويصعدون بعمل عبد من عباده يستقلونه ويحقرونه حتى ينتهوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه ، فيوحى الله إليهم إنكم حفظة على عمل عبدى وأنا رقيب على ما فى نفسه ، إن عبدى هذا أخلص لى عمله فاكتبوه فى عليين » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة يقضى بين خلقه وكل أمة جاثية ، فأول من يدعى به رجل جمع القرآن ، ورجل قتل فى سبيل الله ، ورجل كثير المال ، فيقول الله تعالى للقارىء : ما ذا عملت فيما علمت ؟ فيقول : كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار ، فيقول تبارك وتعالى : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان قارىء ، فقد قيل ذلك . ويقال لصاحب المال : ما ذا عملت فيما آتيتك ؟ فيقول كنت أصل الرحم وأتصدق به ، فيقول الله تبارك وتعالى : كذبت ، وتقول الملائكة كذبت ، بل أردت أن يقال : فلان جواد ، وقد قيل ذلك . ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله تعالى ، فيقول الله تعالى : لماذا قاتلت ؟ فيقول : قاتلت فى سبيلك حتى قتلت فى سبيلك ، فيقول الله تبارك وتعالى : كذبت وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان جرىء ، وقد قيل ذلك ؛ ثم ضرب رسول

الله صلى الله عليه وسلم بيديه على ركبتيه وقال : يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أوّل خلق الله عزّ وجل تسعر بهم النار يوم القيامة » قال : فبلغ هذا الخبر إلى معاوية رضى الله عنه ، فبكى بكاء شديداً وقال : صدق الله تعالى وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم وقرأ هذه الآية (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ، أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الأخسرون) . وعن عدىّ بن حاتم الطائى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يؤمر بناس يوم القيامة من أهل النار إلى الجنة ، حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله تعالى لأهلها نودوا : اصرفوهم لا نصيب لهم فيها ، فيرجعون بحسرة وندامة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها ، فيقولون : يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثواب ما أعددت لأوليائك ، فيقول الله تعالى : ذلك أردت بكم كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم ، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين متواضعين ، تراؤون الناس بأعمالكم خلاف ما تنطوى عليه قلوبكم ، هبتم الناس ولم تهابونى ، وأجللتم الناس ولم تجلونى ، وتركتم للناس ولم تتركوا لى ، فاليوم أذيقكم أليم عذابى مع ما حرمتم من جزيل ثوابى » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لما خلق الله تعالى جنة عدن ، خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم قال لها : تكلمى ، فقالت (قد أفلح المؤمنون) ثلاثا ، ثم قالت : إنى حرام على كل بخيل ومراء » . وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم « فيم النجاة غدا ؟ قال : لا تخادع الله تعالى ، قال : وكيف أخادع الله عزّ وجل ؟ قال : أن تعمل بما أمرك وتريد به غير وجه الله تعالى ، فاتقوا الرياء فإنه الشرك بالله تعالى ، فإن المرائى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء على رءوس الخلائق : يا كافر ، يا فاجر ، يا غادر ، يا خاسر ، ضلّ عملك وبطل أجرك ، فلا خلاق لك اليوم ، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع » . فنعوذ بالله من الرياء والسمعة والنفاق ، فإن ذلك عمل أهل النار ، قال الله عزّ وجل (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) يعنى فى الهاوية مع فرعون وهامان وقومهما ، فإن قيل : قد جاء فى بعض الأخبار ما يدل على أن رؤية الخلق للعمل لا تضرّ ، وهو ما روى عن وكيع عن سفيان عن حبيب عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنى أعمل العمل أسرّه ، فيطلع عليه فيعجبنى ، ألى فيه أجر ؟ فقال : لك أجران أجر السرّ وأجر العلانية » . قيل : هذا محمول على أن ذلك الرجل كان يعجبه اقتداء الناس به فى عمله ، وعلم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ، فقال له : لك أجران أجر لعملك ، وأجر لاقتداء الناس بك . كما قال صلى الله عليه وسلم «من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » الحديث إلى آخره . وأما إذا تجرّد العجب من الاقتداء به ، فإنه لا أجر له ، لأن العجب يسقط العبد من عين الله . وقال الحسن البصرى رحمه الله : إذا شئت لقيت أبيض فطا ذليق اللسان حديد النظر ميت القلب

ترى أبدانا ولا قلوب ، وسمع الصوت ولا أنيس ، أخصب ألسنة وأجدب قلوب ، حتى لقد حدثني جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه لا تزال هذه الأمة تحت يد الله في كنفه مالم تمل قراؤها أمراءها ، وما لم تزمل صلحاؤها فجارها ، وما لم يأمن خيارها شرارها ، فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله تعالى عنهم يده ، وضربهم بالفاقة والفقر ، وملأ قلوبهم رعبا ، وسلط عليهم جبابرهم فساموهم سوء العذاب . وقال أيضا رحمه الله : بئس العبد عبد يسأل المغفرة وهو يعمل بالمعصية ، يخشع ليحسب عنده أمانة وإنما يتصنع بالخيانة ، ينهى ولا ينتهي ، يأمر ولا يفعل ، إن أعطى قتر وإن منع لم يعذر ، وإن صح أمن وإن سقم ندم ، وإن افتقر حزن وإن استغنى فتن ، يرجو النجاة ولا يعمل ، ويخاف العذاب ولا يحذر ، يريد الزيادة ولا يشكر ، ويؤثر الثواب ولا يصبر ، يعجل النوم ويؤخر الصوم . وقال يوما لفرقد السنجي وهو جالس في مجلسه وعليه ثياب فاخرة وعلى فرقد جبة صوف : ثيابي ثياب أهل الجنة ، وثيابك ثياب أهل النار ، وجعلوا زهدهم في ثيابهم ، وكبرهم في صدورهم ، والله لأحدهم أعجب بصوفه من صاحب المطرف بمطرفه ما له تفاخر ، ألا البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية . وقال عمر رضي الله عنه : ألبس من الثياب مالم تستهزىء به القرّاء ولا يزدريك السفهاء . وكان يقال : كن صوفيّ القلب قطنيّ الثياب .

وفي الجملة : الناس في اللباس على ثلاثة أضرب : الأتقياء ، والأولياء ، والبدلاء . فلباس الأتقياء : هو الحلال الذي ليس للخلق عليه تبعة ، ولا للشرع فيه مطالبة في كل حال ، سواء كان لباسهم قطنا أو صوفا أزرق أو أبيض . ولباس الأولياء ما وقع به الأمر ، وهو أدنى ما يستر به العورة والجسد مما لا بد منه وتدعو إليه الضرورة ، ليتحقق بذلك كسر أهويتهم ، فيبلغوا درجة الأبدال . ولباس البدلاء ما جاء به القدر مع حفظ الحدود ، قميص بقيراط أو حلة بمائة دينار ، فلا إرادة ، فسموا إلى الأعلى ، ولا هوى يكسر بالأدنى ، بل ما تفضل به المولى من جميع ما أحلّ وأعطى من غير نصب ولا عناء ، ولا بشرف من النفس ولا منى ، وماسوى هذه الوجوه فهو من الجاهلية الأولى ، ورعونة النفس واتباع الهوى .

باب في ذكر فضائل أيام الأسبوع

والأيام البيض ، وما ورد في صيام ذلك من التحضيض

وذكر أوراد الليل والنهار فيها

من ذلك ما أخبرنا أبو نصر عن والده ، قال أنبأنا أبو الحسن عليّ بن أحمد المقرى ، قال حدثنا أبو الحسين أحمد بن عثمان بن يحيي الأدمى ، قال حدثنا عباس بن محمد بن حاتم الدورى ، قال حدثنا حجاج بن محمد الأعور ، قال حدثنا ابن جريج ، قال أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد ، عن عبيد الله بن رافع مولى أبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال : خلق الله تعالى التربة يوم السبت ، وخلق

فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق الخير يوم الأربعاء ، وبثّ فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل». وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأيام ، فسئل عن يوم السبت فقال : يوم مكر وخديعة ، قالوا : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لأن فيه مكرت قريش بى فى دار الندوة ؛ وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الأحد ، فقال صلى الله عليه وسلم يوم غرس وعمارة ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لأن فيه ابتداء الدنيا وعمارتها ؛ وسئل صلى الله عليه وسلم عن يوم الا ثنين ، قال صلى الله عليه وسلم : يوم سفر وتجارة ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لأن فيه سافر شعيب النبيّ عليه السلام واتجر ؛ وسئل صلى الله عليه وسلم عن يوم الثلاثاء ، قال صلى الله عليه وسلم : يوم دم ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لأن فيه حاضت حوّاء ، وقتل ابن آدم أخاه ، وسئل صلى الله عليه وسلم عن يوم الأربعاء ، قال صلى الله عليه وسلم : يوم نحس وشؤم ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم لأن فيه أغرق الله تعالى فرعون وقومه ، وأهلك عادا وثمود ؛ وسئل صلى الله عليه وسلم عن يوم الخميس ، فقال صلى الله عليه وسلم : فيه قضاء الحوائج ، والدخول على السلاطين ، قالوا وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم فيه دخل إبراهيم خليل الرحمن على نمروذ فقضى حوائجه ، وأخذ منه هاجر . وسئل صلى الله عليه وسلم عن يوم الجمعة ، فقال صلى الله عليه وسلم : يوم خطبة ونكاح ، قالوا : وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم لأن فيه كانت الأنبياء تنكح » وروى عن الزهرىّ ، عن عبد الرحمن بن كعب ، عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال : «ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج فى سفر إلا يوم الخميس» . وعن معاوية بن قرة عن أنس رضى الله عنه يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « من احتجم يوم الثلاثاء لسبعة عشر من الشهر أخرج الله تعالى منه داء سنة » وقيل : إن الله تعالى أعطى يوم السبت لموسى ولخمسين نبيا مرسلا ، وأعطى يوم الأحد لعشرين نبيا ولعيسى عليه السلام ، وأعطى يوم الاثنين لمحمد صلى الله عليه وسلم ولثلاثة وستين نبيا مرسلا ، وأعطى يوم الثلاثاء لسليمان عليه السلام ولخمسين نبيا مرسلا ، وأعطى يوم الأربعاء : ليعقوب عليه السلام ولخمسين نبيا مرسلا ، وأعطى يوم الخميس لآدم عليه السلام ولخمسين نبيا ، ويوم الجمعة لله عزّ وجل وتقدس . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم « إلهى ما حظّ أمتى ؟ قال تبارك وتعالى : يا محمد الجمعة لى والجنة لى ، فأعطيت الجمعة لأمتك والجنة معها ، وأنا مع الجنة لأمتك » . وعن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام يوم الأربعاء والخميس والجمعة بنى الله تعالى له قصرا فى الجنة من لؤلؤ وياقوت وزمرّد ، وكتب الله تعالى له براءة من النار » . وفى لفظ آخر عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم « من صام ثلاثة أيام من كل شهر ، الخميس والجمعة والسبت ، كتب الله له عبادة تسعمائة سنة » . وقال صلى الله عليه وسلم « صوموا يوم السبت والأحد ، وخالفوا اليهود والنصارى » : وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « تفتح أبواب السماء كل اثنين وخميس ، فيغفر الله تعالى فى ذلك اليوم لكل عبد لا يشرك بالله تعالى شيئا ، إلا امرأ كان بينه وبين أخيه شحناء ، يقول تعالى أنظروا هذين حتى يصطلحا » . وروى « أنه صلى الله عليه وسلم لم يدع صومهما حضرا ولا سفرا ، ويقول : إنهما يومان تعرض فيهما الأعمال » .

(فصل) وأما صيام الأيام البيض ففيها فضل كثير . من ذلك ما أخبرنا أبو نصر عن والده قال أنبأنا هلال بن محمد ، قال حدثنا النقاش ، قال حدثنا الحسين بن سفيان ، قال حدثنا سليمان ابن يزيد مولى بنى هاشم ، قال حدثنا علىّ بن يزيد ، عن عبد الملك بن هرون ، عن سعيد ابن عثمان، عن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى‌طالب رضى‌الله عنه قال : صوم يوم الثالث عشر يعدل صيام ثلاثة آلاف سنة ، وصوم الرابع عشر يعدل صوم عشرة آلاف سنة ، وصوم يوم الخامس عشر يعدل صوم مائة ألف سنة وثلاثة عشر ألف سنة . وعن أبى إسحاق عن جرير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صيام ثلاثة أيام من كل شهر ثالث عشر ورابع عشر وخامس عشر يعدل صوم الدهر كله » وعن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام ثلاثة أيام من الشهر صام الدهر » وقد صدقه الله فى كتابه العزيز بقوله عزّ وجل (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدع صيام الأيام البيض فى سفر ولا حضر » . وعن الشعبى رحمه الله قال : سمعت ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « من صام ثلاثة أيام من كل شهر ، وصلى ركعتى الفجر ولم يترك الوتر فى سفر ولا حضر ، كتب له أجر شهيد » . وعن سعيد بن أبى هند عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « أوصانى حبيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث لا أدعهن حتى ألقاه : صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، والوتر قبل النوم ، وصلاة الضحى » . وعن عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن جده قال : سمعت علىّ بن أبى‌طالب رضى الله عنه يقول « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم عند انتصاف النهار وهو فى الحجرة ، فسلمت عليه ، فردّ النبىّ صلى الله عليه وسلم علىّ ثم قال : ادن منى يا علىّ ، هذا جبريل يقرئك السلام ، فقلت : عليك وعليه السلام : يا رسول الله ، فقال : ادن منى ، فدنوت منه ، فقال : يا علىّ يقول لك جبريل عليه السلام : صم من كل شهر ثلاثة أيام يكتب لك بأول يوم ثلاث عشرة آلاف سنة ، وباليوم الثانى ثلاثين ألف سنة ، وباليوم الثالث مائة ألف سنة ، فقلت : يا رسول الله هذا الثواب لى خاصة أم للناس عامة ، قال صلى الله عليه وسلم : يا علىّ يعطيك الله هذا الثواب ولمن يعمل مثل عملك بعدك ، قلت يا رسول الله وما هى ؟ قال صلى الله عليه وسلم : الأيام البيض ثالث عشر ورابع عشر وخامس عشر » . قال عنترة : قلت لعلىّ رضى الله عنه . لأىّ شىء سميت هذه الأيام البيض ؟

فقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لما أهبط الله آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض أحرقته الشمس فاسودّ جسده ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا آدم أتحبّ أن يبيض جسدك ؟ قال نعم ، قال فصم من الشهر ثالث عشر ورابع عشر وخامس عشر ، فصام آدم عليه السلام أول يوم فابيضّ ثلث جسده ، ثم صام اليوم الثانى فابيضّ ثلثا جسده ، ثم صام اليوم الثالث فابيضّ جسده كله ، فسميت الأيام البيض» وعن ذرّ بن حبيش رحمه الله قال : سألت ابن مسعود رضى الله عنه عن الأيام البيض قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال « إن آدم عليه السلام لما عصى وأكل من الشجرة ، أوحى الله تعالى إليه : يا آدم اهبط من جوارى ، وعزّتى وجلالى لا يجاورنى من عصانى ، قال : فهبط إلى الأرض مسودا ، قال : فبكت الملائكة وضجت وقالت يا ربّ خلقت خلقته بيدك ، وأسكنته جنتك ، وأسجدت له ملائكتك ، فى ذنب واحد حولت بياضه سوادا ، فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم صم لى هذا اليوم ، يوم ثالث عشر ، فصامه فأصبح ثلثه أبيض ، ثم أوحى الله تعالى إليه : يا آدم صم هذا اليوم ، يوم رابع عشر ، فصامه فأصبح ثلثاه أبيض ، ثم أوحى الله تعالى إليه يا آدم صم هذا اليوم ، يوم خامس عشر ، فصامه ، فأصبح كله أبيض ، فسميت الأيام البيض . وقال القتبى فى أدب الكاتب : العرب تسميها الأيام البيض ، لأن لياليها تبيض بطلوع القمر من أوّلها إلى آخرها .

باب فى صيام الدهر وما لمن صامه من الثواب والأجر

أخبرنا أبو نصر عن والده ، قال حدثنا أبو الحسن علىّ بن أحمد المقرى ، قال حدثنا إبراهيم ابن أحمد القرميى ، قال حدثنا الحسن بن سهيل ، قال حدثنا يحيى ، قال حدثنا إبراهيم بن أبى نجا عن صفوان بن سليم ، عن علقمة بن أبى علقمة ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الصيام صيام داود ، ومن صام الدهر كله فقد وهب نفسه لله تعالى » . وعن أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من صام الدهر ضيقت عليه جهنم هكذا ، وعقد تسعين » . وعن شعيب عن سعد بن ابراهيم قال : «كانت عائشة رضى الله عنها تصوم الدهر» . وعن يعقوب قال حدثنا أبى ، قال «سرد سعد رضى الله عنه الصوم قبل أن يموت أربعين سنة» . وعن أبى ادريس عائذ الله قال « صام أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه حتى صار كأنه خلال ، قال : فقلت يا أباموسى لو أجممت نفسك ؟ فقال : إجمامها أريد أنى رأيت السابق من الخيل المضمرة» . وعن أبى إسحاق ابن ابراهيم قال : حدثنى عمار الراهب قال : رأيت سكينة الظفارية فى منامى ، وكانت تحضر معنا مجلس عيسى بن زاذان بالأبلة ، تنحدر من البصرة حتى تأتيه قاصدة ، قال عمار : فقلت لها يا سكينة مافعل عيسى ؟ فضحكت ثم قالت : قد كسى حلة البهاء وطافت بأباريق حوله الخدم ، ثم حلى . وقيل : يا قارئ ارق فلعمرى لقد براك الصيام ، وكان عيسى قد صام حتى انحنى وانقطع صوته . وعن أنس رضى الله عنه قال : كان أبو طلحة رضى الله عنه

لا يصوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل الغزو ، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أره مفطرا إلا يوم الفطر ويوم النحر . وعن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام قال : «حدثنى من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم صائف يصبّ على رأسه الماء من شدة الحرّ والعطش وهو صائم » . وعن سفيان عن أبى إسحق عن الحرث عن علىّ رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم يوما ويفطر يوما» . وما نقل فى حديث جابر رضى الله عنه قال : « إن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما سأله عمر رضى الله عنه : يانبى الله أخبرنى عن رجل يصوم الدهر كله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لاصام ذلك ولاأفطر » فمحمول على رجل صام الدهر ولم يفطر يومى العيدين وأيام التشريق ؛ وكذا قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله ، وأما إذا أفطر هذه الأيام وصام بقية السنة فلا نهى فى حقه ، بل له ما ذكرنا من الفضائل .

(فصل : فى فضل الصيام على الجملة) من ذلك ما أخبرنا أبو نصر عن والده ، باسناده عن عمرو بن ربيعة عن سلام بن قيس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام يوما ابتغاء وجه الله تعالى ، بعده الله من جهنم كبعد غراب طار وهو فرخ حتى مات هرما » . وقيل : إن الغراب يعيش مقدار خمسمائة سنة . وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام يوما فى سبيل الله جعل الله بينه وبين النار خندقا عرضه كما بين السماء والأرض » . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام يوما فى سبيل الله باعد الله بذلك وجهه عن النار سبعين خريفا » . وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من عبد أصبح صائما إلا فتحت له أبواب السماء ، وسبحت أعضاؤه ، واستغفر له أهل سماء الدنيا إلى أن توارت بالحجاب ، وإن صلى ركعة أو ركعتين تطوعا أضاءت له السماء نورا ، وقالت أزواجه من الحور العين : اللهم اقبضه إلينا فقد اشتقنا إلى رؤيته ، وإن هلل أو سبح تلقاها سبعون ألف ملك يكتبونها إلى أن توارت بالحجاب» . وعن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كل حسنة يعملها ابن آدم فهى بعشر حسنات إلى مئة حسنة أو سبعمائة حسنة ، إلا الصوم ، فإن الله تعالى قال فى بعض كتبه : الصوم لى وأنا أجزى به ، وخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » . وعن على رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من منعه الصيام من الطعام والشراب الذى يشتهيه أطعمه الله من ثمار الجنة ، وسقاه من شرابها » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل أهل عمل باب من أبواب الجنة يدعون منه بذلك العمل ، ولأهل الصيام باب يدعون منه يقال له الريان ، قال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله هل أحد يدعى من هذه الأبواب كلها ؟ قال صلى الله عليه وسلم ؛ نعم ، وأنا أرجو أن تكون منهم يا أبابكر » . وقال صلى الله عليه وسلم « إن لكل شىء بابا وإن باب العبادة الصيام » . وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بالصوم تصفو قلوبكم » . وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصوم نصف الصبر ، ولكل شيء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم » . وعن أبي أوفى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « نوم الصائم عبادة ، وسكوته تسبيح ، وعمله متقبل » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوضع للصائمين يوم القيامة مائدة من ذهب عليها سمك فيأكلون منها والناس ينظرون » . وعن أحمد بن أبي الحوارى ، قال حدثني أنو سليان ، قال جاءنى أبو على الأصم بأحسن حديث سمعته فى الدنيا قال : يوضع للصوّام مائدة يأكلون عليها والناس فى الحساب ؛ قال فيقولون : يارب نحن نحاسب وهؤلاء يأكلون ؟ قال فيقول : أنهم طالما صاموا وأفطرتم وقاموا ونمتم » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الصائمون إذا خرجوا من قبورهم تنفح من أفواههم ريح المسك ، ويؤتون بمائدة من الجنة فيأكلون منها ، وهم فى ظل العرش » . وقال سفيان بن عيينة : بلغنى أن الصائم لايحاسب على مايفطر عليه . وعن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : الصوم لى وأنا أجزى به ، يدع شهوته وأكله وشربه من أجلى ؛ والصوم جنة ، وللصائم فرحتان : فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلوف فه أطيب عند الله من رائحة المسك » . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الصوم جنة يجتن بها العبد من النار » . وعن سعيد بن جبير عن ابن عمر رضى الله عنهما عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : ما آسى على شيء من الدنيا أتركه خلفى إلا الصيام فى الهاجرة والمشى إلى الصلاة . وعن مجاهد عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أن رجلا صام لله تطوعا ثم أعطى ملء الأرض ذهبا لم يستوف ثوابه دون الحساب » .

(فصل) وأما أوراد الليل والحثّ على قيامه مما اتفق فى الصحيحين وما ذكر فى غيرهما من الكتب ، فمن ذلك ماروى عن شقيق عن عبد الله رضى الله عنه قال : ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقيل: يا رسول الله إن فلانا نام الليلة حتى أصبح ماصلى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ذلك رجل بال الشيطان فى أذنه» . وفى الخبر «إذا نام الرجل عقد الشيطان على رأسه ، ثلاث عقد ، فإن قعد وذكر الله تعالى انحلت عقدة ، وإن توضأ انحلت عقدة وإن صلى ركعتين انحلت العقد كلها ، وأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح كسلان خبيث النفس » . وفى خبر آخر « إن للشيطان سعوطا ولعوقا وذرورا ، فاذا سعط العبد ساء خلقه ، وإذا لعقه لعقة ذرب لسانه بالشرّ ، وإذا ذره نام بالليل حتى الصبح » . ويسنّ طول القيام فى صلاة الليل ، وهى مثنى مثنى ، وكثرة الركوع والسجود فى صلاة النهار ، وإن أراد أن يصليها أربعا بتسليمة جاز ، وصلاة الليل فى حق النبيّ صلى الله عليه وسلم نافلة وفريضة وقربة وكرامة ، وفى حقّ أمته مكملة ومتممة للفرائض . وعن سالم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كان الرجل فى حياة رسول

الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : فتمنيت أن أرى رؤيا أقصها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وكنت غلاما شابا عزبا ، وكنت أنام فى المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيت فى النوم كأن ملكين أخذانى فذهبا بى إلى النار ، وإذا هى مطوية كطى البئر ، وإذا لها قرنان كقرنى البئر ، فرأيت ناسا قد عرفتهم ، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار أعوذ بالله من النار فلقينا ملك آخر فقال : لى لن تراع ، قال : فقصصتها على حفصة فقصتها حفصة رضى الله عنها على النبى صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم الرجل عبد الله ، لوكان يصلى من الليل ؟ قال : فكان رضى الله عنه لاينام من الليل إلا قليلا . وعن أبى سلمة عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل» . وعن أبى صالح عن ابن شهاب قال أخبرنى على بن حسين أن أباه الحسين بن على رضى الله عنهما ، أخبره أن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أخبره « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه هو وفاطمة ابنته رضى الله عنهما ، فوجدهما نياما ، فقال : ألا تصليان ؟فقلت يارسول الله إن أنفسنا بيد الله تعالى ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت ذلك له ، فلم يرجع شيئا فسمعته ، وهو يضرب فخذه ويقول صلى الله عليه وسلم (وكان الانسان أكثر شىء جدلا) » : وحدثنا أبو نصر عن والده بإسناده عن سفيان الثورى عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ركعتان يصليهما العبد فى جوف الليل خير من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتى لفرضتها عليهم» . وحدثنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن أبى العالية ، قال حدثنى أبو مسلم ، أنه سأل أبا ذر رضى الله عنه : أى صلاة الليل أفضل ؟ فقال أبوذر رضى الله عنه : سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « جوف الليل ، أوقال نصف الليل وقليل فاعله » . وفى بعض الأخبار « سأل داود النبى عليه السلام ربه عز وجل وقال : إلهى إنى أحب أن أتعبد لك فأى وقت أفضل فأوحى الله تعالى إليه : ياداود لاتقم أول الليل ولا آخره ، فإنه من قام أوله نام آخره ، ومن قام آخره لم يقم أوله ، ولكن قم وسط الليل حتى تخلوبى وأخلوبك ، وارفع إلى حوائجك وعن يحيى بن المختار عن الحسن رحمه الله أنه قال : ما عمل عبد عملا أقر لعين ، ولا أخف لظهر ولا أطيب لنفس ، من قيام من جوف الليل يدام أو إنفاق مال فى حق . وكان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول : ياأيها الناس إنى لكم ناصح إنى عليكم شفيق ، صلوا فى ظلمة الليل لوحشة القبور ، وصوموا فى الدنيا لحر يوم النشور ، وتصدقوا لمخافة يوم عسير ، يا أيها الناس إنى لكم ناصح إنى عليكم شفيق وحدثنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى جعفر أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا بقى ثلث الليل ينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا فيقول : من الذى يدعونى فأستجيب له ، من الذى يستغفرنى فأستغفر له ، من الذى يسترزقنى فأرزقه من الذى يستكشف الضر فأكشفه

عنه حتى ينفجر الفجر » . وحدثنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إلى سماء الدنيا ثلث الليل الآخر فيقول : هل من مستغفر فأغفر له هل من داع فيستجاب له ؟ هل من سائل فيعطى سؤله ؟ فمن ثم كانوا يستحبون الصلاة من آخر الليل . وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الليل أسمع ؟ قال : جوف الليل الآخر وأدبار الصلوات المكتوبات » . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن خير الصيام صيام داود عليه السلام ، كان يصوم نصف الدهر ؛ وخير الصلاة صلاة داود عليه السلام ، كان يرقد نصف الليل ويصلى آخر الليل ، حتى إذا بقى سدس الليل » . وفى لفظ آخر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام ، كان يرقد شطر الليل ثم يقوم ، ثم يرقد آخره ثم يقوم ثلث الليل بعد شطره » . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إنى أجعل الليل أثلاثا ، فثلثا أنام وثلثا أصلى ، وثلثا أستذكر . فيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية . وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه : ركعة بالليل خير من عشر بالنهار . « وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام : أى الليل أسمع فقال : إن العرش يهتز من السحر » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم ، » إن قيام الليل قربة إلى الله تعالى ، وتكفير للسيئات ، ومنهاة عن الاثم ، ومطردة للداء عن الجسد حدثنا أبو نصر عن والده بإسناده عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فى الليل ساعة لا يوافقها عبد يسأل الله تعالى فيها شيئا إلا أعطاه إياه ، وهى فى كل ليلة قالوا : وهذا عام مثل الساعة فى يوم الجمعة ، ومثل ليلة القدر فى العشر الأخير من شهر رمضان . ويقال : إن فى الليل وقتا لا بد أن ينام فيه ويغفل كل ذى عين إلا الحى القيوم الذى لا يموت ، فلعلها هذه الساعة » وفى حديث عمرو بن عتبة رضي الله عنه : عليك بصلاة آخر الليل فإنها مشهودة محضورة تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار .

(فصل) وأما صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم المذكورة فى المتفق عليه فما روى عن أبي إسحاق « قال أتيت الأسود بن يزيد وكان لى أخا وصديقا ، فقلت له ياأبا عمرو حدثنى ما حدثتك عائشة رضي الله عنها عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : قالت رضي الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم ينام فى أول الليل ويحيى آخره ، ثم إن كانت له حاجة إلى أهله قضى حاجته ثم لم يمس ماء حتى ينام فإذا سمع النداء الأول قالت وثب ، لا والله ماقالت قام فأفاض عليه الماء ، ولا والله ما قالت اغتسل ، وأنا أعلم ماتريد ، وإن لم يكن جنبا توضأ وضوءه للصلاة ثم صلى » وعن كريب مولى ابن عباس عن ابن عباس رضي الله عنهما « أنه بات ليلة عند ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها قال : فاضطجعت فى عرض الوسادة ،

واضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله فى طولها ، ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ، استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس فمسح النوم عن وجهه بيده ، ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران ، ثم قام إلى شن معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ، ثم قام فصلى ، قال ابن عباس رضى الله عنه : فقمت فصنعت مثل ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذهبت فقمت إلى جنبه ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده اليمنى على رأسى ، فأخذ بأذنى اليمنى ففتلها فصلى ركعتين ، ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر ثم اضطجع حتى جاء المؤذن ، ثم قام فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم خرج فصلى الصبح » وعن أبى سلمة عن عائشة رضى الله عنها قالت : «ما كنت ألقى النبى صلى الله عليه وسلم من آخر السحر إلا وهو نائم عندى» ، تعنى بعد الوتر . وعن مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت « إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الدائم من العمل ، فقلت أى الليل كان يقول ؟ قالت إذا سمع الصارخ » وعن الحسن رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلوا من الليل ولو أربعا ، صلوا ولو ركعتين ، ما من أهل بيت يعرف لهم صلاة بالليل إلا ناداهم مناد يا أهل البيت : قوموا لصلاتكم » . وعن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أذن الله لشئ مثل ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن» . وعن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت « إن النبى صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقرأ فى سورة من الليل ، فقال صلى الله عليه وسلم : رحمه الله لقد أذكرنى كذا وكذا آية ، كنت أسقطتها من سورة كذا وكذا » .

وأما قدر صلاته صلى الله عليه وسلم فى الليل ، فما أخبرنا به الشيخ أبو نصر عن والده ، قال حدثنا محمد بن أحمد بن أبى الفوارس ، قال حدثنا أحمد بن يوسف ، قال حدثنا أحمد بن إبراهيم بن ملحان ، قال حدثنى أبو بكر ، قال حدثنى الليث عن ابن أبى حبيب ، عن عراك ، عن عروة رحمه الله قال : « إن عائشة رضى الله عنها أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى بالليل ثلاث عشرة ركعة وركعتى الفجر » ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى من الليل اثنتى عشرة ركعة ، ثم يوتر بواحدة ، وقيل عشر ركعات ثم يوتر بواحدة .

(فصل آخر : فى صلاة الليل) وقد ذكر الله تعالى القائمين بالليل فى كتابه العزيز ، فقال عز وجل (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحارهم يستغفرون) ، وقال جل وعلا (تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفا وطمعا) ، وقال تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) ، وقال تبارك وتعالى (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) ، وقال جل وعلا (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة نادى مناد : ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ، فيقومون وهم قليل ؛ ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانت لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله

فيقومون وهم قليل ؛ ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانوا يحمدون الله عز وجل فى السراء والضراء فيقومون وهم قليل ، ثم يحاسب سائر الناس من بعدهم » . وقال صلى الله عليه وسلم « استعينوا بطعام السحر على صوم النهار ، وبقيلولة النهار على قيام الليل ، إن صاحب النوم يجيء مفلسا ، وما نام أحد طول ليله إلا بال الشيطان فى أذنه » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما ردد آية حتى يصبح . وقالت عائشة رضى الله عنها : « نام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة حتى ألصق جلده بجلدى ، ثم قال ياعائشة أتأذنين لى أن أتعبد لربى الليلة ، قلت : والله إنى لأحب قربك ولكنى أوثر هواك ، ثم قام صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن ويبكى حتى بل بالدموع منكبيه ، ثم جلس يقرأ حتى بل بالدموع جنبيه وحقويه ثم اضطجع يبكى ويقرأ حتى بل بالدموع ما يلى الأرض ، فأتاه بلال رضى الله عنه فقال : بأبى وأمى ألم يغفر الله لك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : يابلال أفلا أكون عبدا شكورا ، إنه أنزل على فى هذه الليلة (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) . وقالت عائشة رضى الله عنها : « مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فى شيء من صلاة الليل جالسا حتى دخل فى السن ، فجعل يصلى وهو جالس ، فإذا بقى عليه من السورة ثلاثون آية أو أربعون آية ، قام فقرأ بها ثم ركع صلى الله عليه وسلم » . وقال يعمر بن بشر : أتيت باب عبد الله بن المبارك بعد العشاء الآخرة ، فوجدته يصلى وهو يقرأ (إذا السماء انفطرت) حتى إذا بلغ (ياأيها الانسان ماغرك بربك الكريم) وقف يرددها إلى أن ذهب هوىّ من الليل ، فرجعت حين طلع الفجر وهو يرددها ، فلما رأى الفجر قد طلع قطع ، ثم قال حلمك وجهلى ، حلمك وجهلى ، فانصرفت وتركته ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم « الشتاء ربيع المؤمن قصر نهاره فصامه ، وطال ليله فقامه » . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ينبغى لقارئ القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون وبنهاره إذا الناس يفطرون ، وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبورعه إذا الناس يخلطون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون ، وبصمته إذا الناس يخوضون .

(فصل : فى فضل الصلاة بين العشاءين) حدثنا أبو نصر عن والده قال حدثنا أبو الفتح محمد بن أحمد بن أبى الفوارس الحافظ إملاء ، قال حدثنا بشر ، قال حدثنا محمد بن سليمان المصيصى ، قال حدثنا زيد بن الحباب ، عن عمر بن عبد الله بن خثعم ، عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى ست ركعات بعد المغرب لم يتكلم بينهن عدلن بعبادة ثنتى عشرة سنة » . وفى حديث زيد ابن الحباب ولم يتكلم بينهن بسوء . وقيل : يستحب أن يقرأ فى الركعتين الأوليين بقل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ، ليسرع بهما ، لأنه قيل : إنهما يرفعان مع صلاة المغرب ، ثم يصلى باقيها ويطول فيها إن شاء . وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه

وسلم قال « من صلى أربع ركعات بعد المغرب قبل أن يكلم أحدا رفعت له فى عليين ، وكان كمن أدرك ليلة القدر فى المسجد الأقصى ، وهو خير من قيام نصف ليلة » . وحدثنا أبو نصر عن والده بإسناده عن طارق بن شهاب عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « من صلى المغرب وصلى من بعدها أربعا كان كمن حج بعد حجة ، قلت فإن صلى بعدها ستا ؟ قال : يغفر له ذنوب خمسين سنة » . وعن سعيد بن جبير ، عن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عكف نفسه ما بين المغرب والعشاء فى مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن كان حقا على الله أن يبنى له قصرين فى الجنة ، مسيرة كل قصر منهما مائة عام ، ويغرس له بينهما غراسا لوضافه أهل الدنيا لوسعهم » . وحدثنا أبو نصر عن والده بإسناده عن هشام بن عروة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من صلاة أحب إلى الله تعالى من صلاة المغرب ، بها يفتتح العبد ليلته ، ويختم بها نهاره ، ولم يحط عن مسافر ولا عن مقيم ، من صلاها وصلى بعدها أربعا من غير أن يكلم جليسا بنى الله له قصرين مكللين بالدر والياقوت ، بينهما من الجنان مالا يعلم علمه إلا الله تعالى ، وإن صلاها وصلى بعدها ستا من غير أن يكلم جليسا غفر له أربعين عاما » . وكان أبو هريرة رضى الله عنه يصلى بين العشاءين ثنتى عشرة ركعة وعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى بين المغرب والعشاء عشرين ركعة بنى الله له بيتا فى الجنة » . وروى أن أنس بن مالك رضى الله عنه كان يصلى ما بين المغرب والعشاء ويقول : هى ناشئة الليل . وعن عبد الرحمن بن الأسود عن عمه أنه قال : ما أتيت ساعة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه إلا وجدته يصلى مابين المغرب والعشاء ، وكان يقول : هى ساعة غفلة ، وقيل : فيها نزلت (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) . وعن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من قرأ بعد المغرب الم تنزيل السجدة ، وتبارك الذى بيده الملك ، جاء يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر وقد أدى حق تلك الليلة » . وهذه الركعات التى وردت بها الأخبار يحتمل أن تكون منفردة عن الركعتين السنة ، ويحتمل أن تكون معها .

(فصل) وأما الركعتان قبل صلاة المغرب ، فقد سئل أحمد بن حنبل رحمه الله فقال : أما أنا فلا أفعلهما ، وإن فعلهما رجل لم يكن به بأس . وسئل ابن عمر رضى الله عنهما عن صلاتهما فقال : ما رأيت أحدا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصليهما ولم ينه ابن عمر رضى الله عنهما . وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كنا نصلى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غروب الشمس قبل صلاة المغرب ركعتين ، فقلت له : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاهما ، فقال : قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرانا نصليهما فلا يأمرنا ولا ينهانا . قال إبراهيم النخعى رحمه الله : قدكان بالكوفة خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب وابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر وأبو مسعود

الأنصارى وغيرهم رضى الله عنهم ، فما رأيت أحدا منهم يصلى قبل المغرب ، وما صلى هاتين الركعتين أبو بكر ولا عمر ولا عثمان رضى الله عنهم .

(فصل آخر : فى ذكر ما ورد فعله بين العشاءين ، ورؤية فاعله للنبى صلى الله عليه وسلم ببركة فعله ذلك فى المنام ، وغير ذلك من الثواب) عن عبد الرحمن بن حبيب الحارثى البصرى ، عن سعيد بن سعد ، عن أبى طيبة كرز بن وبرة الحارثى رحمه الله ، وكان من الأبدال ، قال : أتانى أخ لى من أهل الشام فأهدى لى هدية وقال لى : اقبل منى هذه الهدية ياكرز فانها نعم الهدية ؛ قال : فقلت يا أخى ومن أهدى إليك هذه الهدية ؟ قال : أعطانيها إبراهيم التيمى رحمه الله تعالى ، قال فقلت فهل سألت إبراهيم من أعطاه هذه العطية ، قال بلى ، قال لى : كنت جالسا فى قبالة الكعبة وأنا فى التهليل والتسبيح والتحميد ، فجاءنى رجل فسلم على وجلس عن يمنى ، فلم أر فى زمانى أحسن منه وجها ولا أحسن منه ثيابا ولا أطيب منه ريحا ولا أشد منه بياضا ، فقلت : يا عبد الله من أنت ومن أين جئت وما أنت ؟ فقال : أنا الخضر جئت للسلام عليك وحبا لك فى الله ، وعندى هدية أريد أن أهديها إليك ، فقلت له : فأعلمنى هديتك هذه ما هى ؟ فقال ، الخضر عليه السلام : تقرأ قبل أن تطلع الشمس وتبسط على الأرض وقبل أن تغرب سورة الحمد سبع مرات ، وقل أعوذ برب الناس سبع مرات ، وقل أعوذ برب الفلق سبع مرات وقل هو الله أحد سبع مرات ، وقل ياأيها الكافرون سبع مرات وآية الكرسى سبع مرات ، وتقول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر سبع مرات ، وتصلى على النبى صلى الله عليه وسلم سبع مرات ، وتستغفر لنفسك ولوالديك وللمؤمنين والمؤمنات سبع مرات ، وعقيب الاستغفار اللهم ربّ افعل بى وبهم عاجلا وآجلا فى الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ، ولا تفعل بنا يامولانا ما نحن له أهل ، إنك غفور حليم جواد كريم برّ رءوف رحيم سبع مرات ، وأنظر أن لاتدع ذلك غدوة وعشية ، فإن الذى أعطانيها قال لى : قلها مرة واحدة فى دهرك ، فقلت : أحب أن تعرفنى من أعطاك هذه الهدية ؟ قال : اعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قال : فقلت للخضر عليه السلام : علمنى شيئا إن قلته رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى منامى فأسأله أهو أعطاك هذه العطية ؟ فقال لى : أتتهم أنت لى ؟ قلت لا والله ، ولكنى أحبّ أن أسمع ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لى : إن كنت تريد أن ترى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى منامك ، فاعلم أنك إذا صليت المغرب تقوم تصلى إلى العشاء الآخرة من غير أن تكلم أحدا من الآدميين ، وأقبل على صلاتك التى أنت فيها ، وتسلم فى كل ركعتين ، واقرأ فى كل ركعة سورة الحمد مرة ، وقل هو الله أحد سبع مرات ، ثم تصلى صلاة العتمة فى الجماعة ، ولا تكلمن أحدا حتى تأتى منزلك وتصلى الوتر ، وتصلى عند نومك ركعتين ، تقرأ فى كل ركعة سورة الحمد وقل هو الله أحد سبع مرات ، ثم اسجد بعد الصلاة ، واستغفر الله تعالى فى سجودك سبع مرات ، وقل سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم سبع مرات ، ثم ارفع رأسك من

السجود واستو جالسا ، فارفع يديك وقل : ياحيّ ياقيوم ، ياذا الجلال والإكرام ، يا إله الأولين والآخرين ، ويارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، يارب يارب يارب ، يا ألله يا ألله يا ألله، ثم قم فادع بمثل مادعوت فى قيامك، ثم اسجد وادع فى سجودك مثل مادعوت، ثم ارفع رأسك وتم حيث شئت مستقبل القبلة وأنت تصلى على النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأدم ذلك حتى يغلبك النوم؛ فقلت أحبّ أن تعلمنى ممن سمعت هذا الدعاء، فقال: أمتهم أنت لى فقلت : والذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق نبيا ماأنا بمتّهم لك، فقال عليه السلام: إنى حضرت محمدا صلى الله عليه وسلم حيث علم هذا الدعاء، وأوصى إليه به وكنت عنده، فتعلمته ممن علمه إياه؛ قال إبراهيم: فقلت له: أخبرنى بثواب هذا الدعاء، فقال لى الخضر عليه السلام : إذا لقيت محمدا صلى الله عليه وسلم فاسأله عن ثوابه ، قال إبراهيم : ففعلت ماقال لى الخضر عليه السلام، ولم أزل أصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وأنا فى فراشى ، فذهب عنى النوم من شدة الفرح بما علمنى الخضر عليه السلام وبمارجوته من لقاء النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأصبحت على تلك الحال إلى أن صليت الفجر ، وجلست فى محرابى إلى أن ارتفع النهار ، فصليت الضحى وأنا أحدث نفسى : إن عشت الليلة فعلت هذا كما فعلت فى الليلة الماضية ، فغلبنى النوم ، فجاءتنى الملائكة فحملونى فأدخلونى الجنة ، فرأيت قصورا من الياقوت الأحمر ، وقصورا من زمرد أخضر ، وقصورا من لؤلؤ أبيض ورأيت أنهارا من عسل ولبن وخمر ، ورأيت فى قصر منها جارية أشرفت علىّ فرأيت نوروجهها أشد من نور الشمس الضاحية ، وإذا لها ذوائب قد سقطت على الأرض من أعلى القصر ، فسألت الملائكة الذين أدخلونى لمن هذا القصر ولمن هذه الجارية؟ فقالوا للذى يعمل مثل عملك، فلم يخرجونى من تلك الجنان حتى أطعمونى من ثمرها وسقونى من ذلك الشراب ، ثم أخرجونى وردّونى إلى الموضع الذى كنت فيه، فأتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه سبعون نبيا وسبعون صفا من الملائكة ، كل صفّ مابين المشرق والمغرب، فسلم علىّ وأخذ بيدى، فقلت : يا رسول الله صلى الله عليك وسلم، إن الخضر أخبرنى أنه سمع منك هذا الحديث، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : صدق الخضر وكل مايحكيه فهو حقّ ، وهو عالم أهل الأرض ، وهو رئيس الأبدال ، وهو من جنود الله فى الأرض ، فقلت : يا رسول الله مالمن يعمل هذا العمل من الثواب سوى مارأيت؟ فقال صلى الله عليه وسلم لى: وأى ثواب يكون أفضل من هذا الذى رأيت وأعطيت، لقد رأيت موضعك من الجنة وأكلت من ثمارها وشربت من شرابها، ورأيت الملائكة والأنبياء معى ، ورأيت الحور العين ، فقلت يا رسول الله فمن يعمل مثل ما عملت ولم ير مثل الذى رأيت فى منامى ، هل يعطى شيئا مما أعطيته فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : والذى بعثنى بالحق نبيا، إنه ليغفر له جميع الكبائر التى عملها، ويرفع الله عنه غضبه ومقته، والذى بعثنى بالحق نبيا إنه ليعطى العامل لهذا ، وإن لم ير الجنة فى منامه مثل أعطيت، وإن مناديا ينادى من السماء : إن الله قد غفر لعامله ولجميع أمته صلى الله عليه وسلم من المؤمنين والمؤمنات من المشرق إلى المغرب ويؤمر صاحب الشمال أن لايكتب على أحد منهم شيئا من السيئات إلى السنة المقبلة ؛ قال : فقلت

له : بأبى أنت وأمى يا رسول الله، بالذى أرانى جمالك وأرانى الجنة ، أله هذا الثواب ، قال صلى الله عليه وسلم : نعم يعطى ذلك جميعا ، فقلت : يا رسول الله إنه ينبغى لجميع المؤمنين والمؤمنات أن يتعلموا هذا ويعلموه ، لما فيه من الثواب والفضل ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : والذى بعثنى بالحق نبيا مايعمل بهذا إلا من خلقه الله سعيدا ، ولايتركه إلا من خلقه الله شقيا ، فقلت : يا رسول الله فهل يعطى عامل هذا شيئا غير هذا ؟ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : والذى بعثنى بالحق نبيا إن من عمل هذا العمل ليلة واحدة كتبت له بعدد كل قطرة نزلت من السماء منذ خلق الله الدنيا إلى يوم ينفخ فى الصور حسنات ، ويمحى عنه بعدد كل حبة تنبت من الأرض سيئات له ولمن عمل به من المؤمنين والمؤمنات من الأولين والآخرين . وعن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى ليلة الجمعة ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى مرة ، وخمسة عشر مرة . قل هو الله أحد ، ويقول فى آخر صلاته ألف مرة اللهمّ صلّ على محمد النبىّ الأمى فإنه يرانى فى المنام ، ولا تتمّ له الجمعة الأخرى إلا وقد رآنى ، ومن رآنى فله الجنة وغفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ذكرها فى الحديث .

(فصل : فى ذكر الصلاة بعد العشاء الآخرة) من ذلك ماحدثنا به أبو نصر عن والده ، بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « من صلى أربعا بعد العشاء الآخرة ، كان كمن أدرك ليلة القدر فى المسجد الحرام » . وكذلك عن كعب الأحبار : « من صلى بعد العشاء الآخرة أربع ركعات بقراءة حسنة ، كان له من الأجر مثل ليلة القدر » ، يعنى كأنما صلاها فى ليلة القدر . وأخبرنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن ثابت البنانى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى ركعتين بعد العشاء الآخرة يقرأ بفاتحة الكتاب مرة وعشرين مرة قل هو الله أحد ، بنى الله له قصرين فى الجنة يتراءاهما أهل الجنة » .

(فصل) وأما الوتر فالأفضل فيه آخر الليل لما تقدم من فضل قيام آخر الليل ، وما روى عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « إن رجلا سأله عن قيام الليل فقال : مثنى مثنى ، فإذا خشيت الصبح فواحدة توتر لك ما قبلها .) وكان عمر الفاروق رضى الله عنه يوتر فى آخر الليل ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه يوتر فى أول الليل ، فسألهما النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لأبى بكر رضى الله عنه : متى توتر ؟ فقال : أول الليل قبل أن أنام ؛ وقال لعمر رضى الله عنه : متى توتر ؟ فقال : من آخر الليل ، فقال صلى الله عليه وسلم عن أبى بكر رضى الله عنه : حذر هذا ؛ وقال عن عمر رضى الله عنه : قوى هذا » وقد روى عنه رضى الله عنه أنه قال : إن الأكياس يوترون أول الليل ، وإن الأقوياء يوترون آخر الليل وهو أفضل . وقيل : بل أول الليل أفضل لفعل أبى بكر رضى الله عنه ، وما روى عن عثمان رضى الله عنه أنه قال : أما أنا فأوتر أول الليل ، فإذا استيقظت صليت ركعة شفعت بها وترى ، فما شبهتها إلا بالغريبة من الإبل ضممتها إلى أخواتها ، ثم أوترت فى آخر صلاتى ؛ والمشهور عنه رضى الله عنه من فعله أنه كان يحيى الليل كله فى ركعة واحدة يختم فيها القرآن

وهى وتره . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : أوصانى خليلى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم بثلاث : الوتر قبل النوم . وصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتى الضحى ولا سيما فى حق من يخاف أن لا يستيقظ الا بعد طلوع الفجر ، فإن الأولى أن ينام على وتر وقد قال علىّ رضى الله عنه : الوتر على ثلاثة أنحاء : إن شئت أوترت أول الليل ، ثم صليت ركعتين ركعتين ؛ وإن شئت أوترت بركعة ، فإذا استيقظت شفعت إليها أخرى ، ثم أوترت من آخر الليل ، وإن شئت أخرت الوتر حتى يكون آخر صلاتك . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من خاف أن لا يستيقظ من آخر الليل فليوتر من أول الليل ثم ليرقد ومن طمع أن يقوم من آخر الليل فليؤخر ، فإن قيام آخر الليل محظور ، وذلك أفضل » . وعن عائشة رضى الله عنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن ، وإلا اضطجع فى مصلاه حتى يأتيه بلال رضى الله عنه فيؤذنه بالصلاة » . وقالت عائشة رضى الله عنها : من كل الليل قد أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوله وأوسطه وانتهاء وتره إلى السحر . وفى الخبر « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر عند الأذان ، ويصلى الركعتين عند الإقامة » . وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون العشاء ، ثم يصلون ركعتين ، ثم أربعا ، فمن بدا له أن يوتر أوتر ، ومن أراد أن ينام نام .

(فصل) ومن أوتر أول الليل ثم قام إلى التهجد فهل يفسخ وتره أم يصلى ما يشاء من غير أن يفسخه على روايتين عن أحمد رحمه الله : أحدهما لا يفسخه . وقال فى رواية الفضل بن زياد : الوتر آخر الليل أفضل ، فإن خاف رجل أن ينام فليوتر أول الليل ، فإن قام آخر الليل صلى ركعتين ركعتين ولم يوتر . والرواية الأخرى : بنقضه . قال الفضل بن زياد : قلت لأحمد : أفتراه ينقض الوتر ؟ قال لا ، وإن نقضه فلا بأس ، قد فعل ذلك عمر وعلىّ وأسامة وابن عمر وابن عباس وأبو هريرة رضى الله عنهم . وصفة نقض الوتر وفسخه ، أنه إذا أوتر أول الليل بواحدة ، ونام ثم قام فى أثناء الليل ليصلى ، صلى ركعة واحدة ينوى بها نقض وتره وإشفاعه وسلم منها ، فيصير كل ما صلى من قبل شفعا ، ثم يصلى ما شاء مثنى مثنى ، ثم يوتر بركعة واحدة قبل طلوع الفجر ، ويكشف ذلك فعل عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى قدمنا ذكره ، ولا يترك الوتر على حاله ، ثم يوتر مرة أخرى لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « لا وتران فى ليلة » وإن لم ينقضه وصلى ما أراد ، فقد بينا جواز ذلك .

(فصل : فى دعاء الوتر) وهو أن يقول إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الوتر : اللهمّ إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ، ونؤمن بك ، ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ، ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك ؛ اللهمّ إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ، ونحفد نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك الجدّ بالكفار ملحق ، اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عفيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى

فيما أعطيت ، وقنى شرّ ما قضيت ، إنك تقضى ولا يقضى عليك ، إنه لا يذلّ من واليت ، ولا يعزّ من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ؛ اللهمّ إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . وإن زاد على ذلك جاز ، ثم يمرّ يده على وجهه فى إحدى الروايتين ، والأخرى يمرّها على صدره ، فإن كان إماما فى شهر رمضان قال فى جميعها : بالنون والألف اهدنا وعافنا إلى آخر الدعاء .

(فصل) وإذا كان ممن يصلى الليل وغلبه النعاس ، فالأولى له أن ينام ، لما روى فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا نعس أحدكم وهو فى الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإنه إذا صلى وهو ينعس لعله يذهب ليستغفر فيسبّ نفسه» . وعن عبد العزيز بن صهيب عن أنس رضى الله عنه قال « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وحبل ممدود بين الساريتين ، فقال : ماهذا ؟ فقالوا : هو لزينب تصلى ، فإذا كسلت أوفترت أمسكت بدها به ، فقال حلوه ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : يصلى أحدكم نشاطه ، فإذا كسل أو فتر فليقعد » . وعن عروة عن عائشة رضى الله عنها « أنها كانت عندها امرأة من بنى أسد ، فدخل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : من هذه ؟ قالت : هذه فلانة لا تنام الليل ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : عليكم بالذى تطيقون من العمل ، فوالله لا يملّ الله عزّ وجل حتى تملوا » قالت : وأحبّ العمل إلى الله تعالى الذى يداوم عليه صاحبه ، وإن قل ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أمرهم بما يطيقون من العمل يقولون : يا رسول الله إنا لسنا كهيئتك ، إن الله عزّ وجل قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فيغضب حتى يعرف فى وجهه ، فالسنة فى حق من غلبه النوم حتى شغله عن الصلاة والذكر أن ينام حتى يذهب عنه ثقل النوم ، وينبسط للعبادة ويعقل ما يقول . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان يكره النوم قاعدا . وفى الخبر : لا تكابدوا الليل ، وقد كان من الصالحين من يتعمد لنفسه النوم ليتقوّى بذلك على أوسط الليل ، ومنهم من كره التعمد للنوم وكان لا ينام حتى يغلبه النوم . ويقال : إن وهب بن منبه اليمانى رحمه الله ماوضع جنبه إلى الأرض ثلاثين سنة ، كانت له مسورة من أدم إذا غلبه النوم وضع صدره عليها وخفق خفقات ثم يفزع إلى القيام ؛ وكان يقول : لأن أرى فى بيتى شيطانا أحبّ إلىّ من أن أرى فيه وسادة ، يعنى لأنها تدعو إلى النوم . وسئل بعضهم عن وصف الأبدال فقال : أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة وصمتهم حكمة وعلمهم قدرة . وسئل بعضهم عن صفة الخائفين فقال : أكلهم أكل المرضى ، ونومهم نوم الغرقى ، ولا ينظر إلى أحوال الصالحين وأفعالهم ، بل إلى ما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن الاعتماد عليه حتى يدخل العبد فى حالة ينفرد بها عن غيره . وعن أمّ سلمة عن عائشة رضى الله عنها قالت « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ العمل أفضل ؟ قال : أدومه وإن قلّ » وعن علقمة عن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم دائمة ، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم ليلة نصف الليل ، وليلة ثلثه ،

وليلة نصف الليل مع نصف سدسه ، ويقوم ليلة ربعه فقط ، ويقوم سدس الليل فحسب ، وكل ذلك مذكور فى سورة المزمل . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « صل من الليل ولو قدر حلب شاة » وقد يكون ذلك قدر أربع ركعات ، وقد يكون قدر ركعتين ، وقال صلى الله عليه وسلم « ركعتان يصليهما العبد فى جوف الليل خير من الدنيا وما فيها ، ولولا أن أشقّ على أمتى لفرضتهما عليهم » كل ذلك ليسهل على أمته قيام الليل والعبادة ، ولا يثقل عليهم ، وتبغض العبادة إليهم فيسأموا ، بل أرشدهم صلى الله عليه وسلم لقيام الليل وذكر فضله وثوابه لئلا يقتصروا على الفرائض والسنن خاصة . ويستحبّ من قيام الليل ثلثه ، وأقلّ الاستحباب من القيام سدسه ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يقم ليلة قط حتى أصبح ، بل كان ينام فيها ، ولم ينم ليلة حتى يصبح ، بل كان يقوم فيها على ما بيناه . وقيل : إن صلاة أوّل الليل للمتهجدين. وقيام أوسطه للقانتين ، وقيام آخره للمصلين ، والقيام من الفجر للغافلين . وعن يوسف ابن مهران أنه قال : بلغنى أن تحت العرش ملكا فى صورة ديك براثنه من لؤلؤ ، وصيصته من زبرجد أخضر ، فإذا مضى ثلث الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقم المصلون ، فإذا مضى نصف الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقم المتهجدون ، فإذا مضى ثلثا الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقم القانتون ، فإذا طلع الفجر ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم . وقال بعض العارفين : إن الله تعالى ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين فيملؤها أنوارا ، فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ، ثم تنتشر من قلوبهم العوافى إلى قلوب الغافلين . وروى أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لى عبادا من عبادى يحبوننى وأحبهم ، ويشتاقون إلىّ وأشتاق إليهم ، ويذكروننى وأذكرهم ، وينظرون إلىّ وأنظر إليهم فإن حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك ، فقال : يا ربّ وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحنّ الطير إلى أوكارها عند الغروب ، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام ، وفرشت الفرش ونصبت الأسرّة وخلا كل حبيب بحبيبه ، نصبوا إلىّ أقدامهم وافترشوا إلى وجوههم ، فناجونى بكلامى وتملقوا لىّ بإنعامى ، فبين صارخ وباك ، وبين متأوه وشاك ، وبين قائم وقاعد ، وبين راكع وساجد ، بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى ما يشكون من حبى ، أوّل ما أعطيهم أقذف من نورى فى قلوبهم ، فيخبرون عنى كما أخبر عنهم ، والثانية لو كانت السموات السبع وما فيها فى موازينهم لاستقللتها لهم ، والثالثة أقبل بوجهى الكريم عليهم فترى من أقبلت بوجهى الكريم عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه :

(فصل) وأما قيام جميع الليل ، ففعل الأقوياء الذين سبقت لهم منه العناية ، وأديمت لهم الرعاية ، وأحيط على قلوبهم بالتوفيق ونور الجلال ثم الجمال ، فجعل القيام بالليل لهم موهبة وخلعة ، فلم يسلبه منهم مولاهم عزّ وجل حتى اللقاء . وقد روى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه كان يحيى الليل بركعة واحدة يختم فيها القرآن وقدمنا ذكره ، وذكر عن أربعين رجلا من التابعين أنهم كانوا يحيون الليل كله ، ويصلون صلاة الغداة بوضوء العشاء الآخرة أربعين

سنة ، صحّ النقل عنهم واشهر ، منهم سعيد بن جبير ، وصفوان بن سليم ، وابو حازم ومحمد ابن المنكدر من أهل المدينة ، وفضيل بن عياض ، ووهب بن الورد من أهل مكة ، وطاوس ووهب بن منبه من أهل اليمن ، والربيع بن خيثم ، والحكم من أهل الكوفة ، وأبو سليمان الداراني ، وعليّ بن بكار من أهل الشام ، وأبو عبد الله الخوّاص ، وأبو عاصم من أهل عبادان وحبيب أبو محمد وأبو جائز السليماني من أهل فارس ، ومالك بن دينار ، وسليمان التيمي ، ويزيد الرقاشي ، وحبيب بن أبي ثابت ، ويحيى البكاء من أهل البصرة ، وغيرهم ممن يطول ذكرهم ، رحمة الله عليهم ورضوانه .

(فصل) ومن استكملت غفلته ، وأحاطت به خطيئاته ، وقيدته وثبطته عن قيام الليل زلته ذنوبه ، وأحبّ قيامه والدخول في زمرة القانتين المستغفرين بالأسحار ، فليستغفر الله تعالى ثلاثا عند نومه واضطجاعه ، ثم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم يقرأ عشر آيات من أول سورة الكهف ، وعشرا من آخرها ، ويقرأ آمن الرسول ، وقل يا أيها الكافرون ، فإن الله تعالى يوقظه ويؤهله لقيام الليل بنعمته الواسعة ، ومغفرته الشاملة ، ورعايته العامة للمؤمنين من عباده؛ وليقل أيضا : اللهمّ أيقظني في أحبّ الساعات إليك ، واستعملني بأحبّ الأعمال لديك ، التي تقرّبني إليك زلفى ، وتبعدني من سخطك بعدا ؛ أسألك فتعطيني ، وأستغفرك فتغفرلي ، وأدعوك فتستجيب لي ؛ اللهمّ لا تؤمني مكرك ، ولا تولني غيرك ، ولا ترفع عني سترك ، ولا تنسني ذكرك ، ولا تجعلني من الغافلين ؛ فإنه قيل : من قال هذه الكلمات عند نومه أهبط الله عزّ وجل له ثلاثة أملاك يوقظونه للصلاة ، فإن صلى ودعا أمنوا على دعائه ، وإن لم يقم تعبد الأملاك في الهواء ، وكتب له ثواب عبادتهم ؛ وليقل أيضا ما نقل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من سرّه أن يستيقظ بالليل فليقل عند اضطجاعه : اللهمّ ابعثني من مضجعي لذكرك وشكرك وصلاتك واستغفارك وتلاوة كتابك وحسن عبادتك ، ثم ليسبح ثلاثا وثلاثين مرة ، وليحمد ثلاثا وثلاثين مرة ، وليكبر أربعا وثلاثين مرة » . وإن أحبّ أن يقول خمسا وعشرين مرة سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فهو أخفّ عليه ، ومجموعها مائة جزء عن الأول وروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى ، وهو يرى أنه ميت في ليلته تلك : اللهمّ ربّ السموات السبع وربّ العرش العظيم ، ربنا وربّ كل شيء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحبّ والنوى ، أعوذ بك من شرّ كل ذي شرّ ، ومن شرّ كل دابة أنت آخذ بناصيتها ؛ اللهمّ أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين ، وأغنني من الفقر » .

(فصل) : ومن أنعم عليه بقيام الليل وفعل شيء من النوافل ، فليجتهد في المداومة عليه مع القدرة وعدم العذر ، لما روى عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال «من عبد الله سبحانه من عبادة ثم تركها ملالة مقته الله تعالى» وقالت عائشة رضي الله عنها

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة ، صلى من النهار اثنتى عشرة ركعة » . وفى الخبر إن أحبّ الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلّ .

(فصل) ويستحبّ لمن قام من الليل للتهجد أن يقول : الحمد لله الذى أحيانى بعد ما أماتنى وإليه النشور ، ويقرأ العشر الآيات من آخر آل عمران ، ثم يستاك ويتوضأ ، ثم يقول : سبحانك وبحمدك ، لا إله إلا أنت أستغفرك وأسألك التوبة ، فاغفرلى وتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم ؛ اللهمّ اجعلنى من التوّابين ، واجعلنى من المتطهرين ، واجعلنى صبورا شكورا ، واجعلنى ممن يذكرك ذكرا كثيرا ويسبحك بكرة وأصيلا ، ثم يرفع رأسه إلى السماء ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك أنا عبدك وابن عبدك ، ناصيتى بيدك ، جار فىّ حكمك ، عدل فىّ قضاؤك ، هذه يداى بما كسبت ، وهذه نفسى بما اجترحت ، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، عملت سوءا وظلمت نفسى ، فاغفرلى ذنبى العظيم ، إنك أنت ربى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فإذا قام إلى الصلاة متوجها فليقل : الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ، ثم ليسبح عشرا ، وليحمد عشرا ، وليهلل عشرا ، وليكبر عشرا وليقل : الله أكبر ذو الملكوت والجبروت ، والكبرياء والعظمة ، والجلال والقدرة ؛ وإن شاء أن يقول هذه الكلمات فإنها مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيامه للتهجد وهى : اللهمّ لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ، ولك الحمد أنت زين السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهنّ ومن عليهنّ ، أنت الحق ، ومنك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق ؛ اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وبك خاصمت ، وإليك حكمت ، فاغفرلى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت ، اللهمّ آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ؛ اللهمّ اهدنى لأحسن الأعمال ، فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت ؛ واصرف عنى سيئها فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت ، أسألك مسألة البائس المسكين ، وأدعوك دعاء المفتقر الذليل ؛ فلا تجعلنى بدعائك رب شقيا ، وكن بى رءوفا رحيما يا خير المسئولين وأكرم المعطين . وأخبرنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن يحيى بن أبى كثير ، قال حدثنى أبو سلمة بن عبد الرحمن ، قال سألت عائشة رضى الله عنها ، بأىّ شىء كان يكبر ويفتح النبىّ صلى الله عليه وسلم صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت : كان يكبر ويفتح فيقول : اللهمّ ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم .

(فصل) يستحبّ إذا قام لصلاة الليل أن يفتح صلاته بركعتين خفيفتين ، ولا يتناول شيئا

من الطعام والشراب حتى يفرغ مما أنعم الله عليه من فعل الصلاة والتسبيح ، لأنه إذا استيقظ من نومه يكون حامى القلب فارغ الهم ، فإذا أكل أو شرب تغير قلبه عن هيئته وأظلم ، فالأولى له أن يؤخر ذلك ، إلا أن يكون جائعا وأفرطه الجوع ، أو يخاف من جوع النهار فى شهر رمضان ، ويخاف طلوع الفجر ، فإن المستحبّ ، تقديم الأكل .

(فصل) ويستحبّ أن لا ينام حتى يقرأ ثلثمائة آية ليدخل فى زمرة العابدين ، ولم يكتب من الغافلين ، فليقرأ سورة الفرقان والشعراء ، فإن فيهما ثلثمائة آية ، وإن لم يحسنهما قرأ سورة الواقعة ونون والحاقة وسورة الواقع : أى سأل سائل والمدثر ، فإن لم يحسنهن فليقرأ سورة الطارق إلى خاتمة القرآن ، فإنها ثلثمائة آية ؛ فإن قرأ مقدار ألف آية كان أحسن وأكمل للفضل ، وكتب له قنطار من الأجر ، وكتب من القانتين ، وذلك من سورة تبارك الذى بيده الملك إلى خاتمة القرآن : فإن لم يحسنها فليقرأ مائتين وخمسين مرة قل هو الله أحد ، فإن مجموعها ألف آية ، وينبغى له أن لا يدع قراءة أربع سور فى كل ليلة : ألم تنزيل السجدة ، وسورة يس ، وحم الدخان ، وتبارك ؛ وإن قرأ معها سورة المزمل والواقعة كان أحسن وكان النبى صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ السجدة وتبارك الملك . وفى خبر آخر : سورة بنى إسرائيل والزمر . وفى خبر آخر : المسبحات ، ويقال : فيها آية أفضل من مائة ألف آية .

(فصل) والذى يستعان به على قيام الليل أشياء : منها أكل الحلال ، والاستقامة على التوبة رغم خوف الوعيد ، وشوق رجاء الموعود ؛ ومنها أنه يجتنب أكل الشبهات والإصرار على الذنوب ، ويدفع غلبة همّ الدنيا وحبها عن القلب بذكر الموت والفكر فى المعاد ، وما يلقى بعد الموت . وقال رجل للحسن رحمه الله : يا أبا سعيد إنى أبيت معافى وأحبّ قيام الليل وأعدّ طهورى فما بالى لا أقوم ؟ فقال : ذنوبك قيدتك . وقال الثورى رحمه الله : حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته ، قيل : وما هو ؟ قال : رأيت رجلا يبكى ، فقلت فى نفسى : هذا مراء . وكان الحسن رحمه الله يقول : إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل وصيام النهار . وقيل : كم من أكلة منعت قيام ليلة ، وكم من نظرة حرمت قراءة سورة ؛ وإن العبد ليأكل الأكلة ، أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام السنة ، فبحسن التفقد يعرف المزيد من النقصان ، وبقلة الذنوب يوقف على التفقد وقال أبو سليمان رحمه الله تعالى : لا يفوت أحدا صلاة جماعة إلا بذنب . وكان يقول : الاحتلام بالليل عقوبة ، والجنابة البعد ؛ ومنها : قلة الطعام والشراب ، وخلوّ المعدة منها ، لما روى عون بن عبد الله رحمه الله أنه قال : كان فى بنى إسرائيل ناس يتعبدون ، فكان إذا حضر فطرهم قام عليهم قائم فقال : لا تأكلوا كثيرا ، فإنكم إذا أكلتم كثيرا نمتم كثيرا وإذا نمتم كثيرا صليتم قليلا . وقيل : إن كثرة النوم من كثرة شرب الماء . وقيل : إنه اتفق رأى سبعين صديقا وهم يقولون : إن كثرة النوم من كثرة شرب الماء ؛ ومنها أنه يلزم قلبه الهمّ والغمّ والحزن ويقظة دائمة ، فيحيى بها القلب ، ويديم الفكر فى الملكوت ، ويقيل فى النهار ، ولا يكثر تعب جوارحه فى أمور الدنيا ، فإن اختار أن يقوم أوّل الليل حتى يغلبه النوم ، ثم ينام ثم يقوم متى استيقظ ، ثم ينام متى غلبه النوم ،

ثم يقوم آخر الليل ، فيكون له فى الليل قومتان ونومتان ، فيكابد الليل فهو من أشدّ الأعمال ؛ وهى حالة أهل الحضور واليقظة والفكر والتذكر . وقيل : إنها من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد يكون للعابد فى الليل قومات ونومات فى تضاعيف ذلك ، وأما أن يكون للقيام والنوم موزونا عدلا فلا يكون ذلك إلا للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، فيكون قلبه دائم اليقظة ، ووحى من الله سبحانه يؤمر به وينهى ويوقظ وينوّم ويقلب ويحرك ، خاصّ له ذلك دون بقية الخلق .

(فصل) ويستحبّ لمن قام الليل أن ينام آخره لوجهين : أحدهما : أنه يذهب النعاس بالغداة ، والنوم بالغداة مكروه ، ولهذا كانوا يأمرون الناعس بالنوم بعد صلاة الصبح ، ويمنعون قبلها ؛ وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له هجعة بعد صلاة الفجر . والوجه الثانى : أن نوم آخر الليل يذهب صفرة الوجه ، وإذا كابد نومه ولم ينم بقيت الصفرة بحالها ، وينبغى أن يتقى ذلك لأنه باب غامض ، وهو من الشهوة الخفية والشرك الخفىّ ، لأنه يشار إليه بالأصابع ، ويتوهم فيه الصلاح والسهر والصوم والخوف من الله عزّ وجل لأجل تلك الصفرة التى فى وجهه ، نعوذ بالله من الشرك والرياء ، وكل أمارة تدل عليهما ؛ وينبغى أن يقلل شرب الماء بالليل لما قدمنا من أنه يجلب النوم ، ولأنه تكون منه صفرة الوجه ، سيما فى آخر الليل ، وعند الانتباه من النوم . وفى الخبر « كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل اضطجع على شقه الأيمن ضجعة حتى يأتيه بلال رضى الله عنه فيخرج معه إلى الصلاة » . وقد كان السلف يستحبون هذه الضجعة بعد الوتر ، وقبل صلاة الصبح حتى جعلها بعضهم سنة ، وهو أبو هريرة رضى الله عنه ومن تابعه فى ذلك ، وإنما استحبوا ذلك لأنه مزيد لأهل المشاهدة والحضور ، لأنهم يكشف لهم عن الملكوت وتضىء لهم أنواع العلوم من الجبروت ، ويلقنون غرائب الحكم والعلوم ، ويطلعون على ما غاب عنهم من الأقسام والحظوظ ، مما أعدّها لهم ربّ الخليقة علام الغيوب ، وفى حق العمال وأهل المجاهدة راحة وسكون ، ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة بعد طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وبعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، ليستريح فيها أهل أوراد الليل والنهار ، وكذلك يستحب أن يفصل فى تضاعيف صلاة الليل بجلوس يسبح فيه مائة تسبيحة ، ليكون عونا على الصلاة ، ولتسكن الجوارح ، وتزول سآمة النفس للقيام ، ويحبب إليها التهجد و الصلاة ، وهو داخل تحت قوله عزّ وجل (ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) ، وقوله تعالى (وأدبار السجود) أى أعقاب الصلاة .

(فصل) فإن فاته قيام الليل بنوم أو شغل ، فإن قضاه ما بين طلوع الشمس إلى زوالها كان كمن صلاه فى وقته من الليل ، لما حدثنا به أبو نصر عن والده ، بإسناده عن عبد الله بن غنم ، قال حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أربع ركعات قبل الظهر بعد الزوال يحسبن بمثلهن من السحر » . وفى لفظ آخر عن عمر رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من نام عن حزبه من الليل أو نسيه فقرأه من صلاة الفجر إلى صلاة الظهر ، فكأنما قرأه فى ليله » . وعن بعض السلف أنه قال : اجتمع رأى آل محمد

صلى الله عليه وسلم أنه من صلى ورده الذى فاته من الليل قبل الزوال كان كمن صلاه فى الليل، وإن لم يقدر على ذلك فيقضيه ما بين الظهر والعصر، قال الله تعالى (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) أى جعلهما خلفين يتعاقبان فى الفضل ، فيخلف أحدهما الآخر .

(فصل) فقد تحصل من هذه الجملة أن أوراد الليل خمسة : أحدها : ما بين العشاءين . والثانى : ما بعد العشاء الأخيرة إلى وقت منامه . والثالث : جوف الليل . والرابع : الثلث الأخير . والخامس: وهو السحر الأخير قبل طلوع الفجر الثانى وهو القراءة والاستغفار وللتفكر والاعتبار دون الصلاة ، لأنه لا يؤمن أن تصادف صلاته طلوع الفجر ، وهو الوقت المنهى عن الصلاة فيه ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خشيت الفجر فأوتر بركعة توتر لك ما قبلها » اللهمّ إلا أن يكون قد نام عن وتره وورده ، فإنه يصليها هذه الساعة على ما تقدم بيانه فى فصل فعل الوتر .

(فصول أوراد النهار)

(فصل) وأما أوراد النهار فخمسة أيضا : أحدها : من وقت طلوع الفجر الثانى إلى طلوع الشمس . والثانى : صلاة الضحى وما كان فى معناها إلى الزوال . والثالث : أربع ركعات بعد الزوال بقراءة حسنة وسلام واحد ؛ وقيل : إن أبواب السماء تفتح لها . والرابع : ما بين الظهر والعصر . والخامس : بعد العصر إلى الغروب .

(فصل) وأما الورد الأول من النهار فيستحبّ الجلوس من بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس ، يذكر الله تعالى فيه إما بتلاوة القرآن أو تسبيح أوتفكر أو تذكر أو تعليم أو جلوس إلى عالم ، وكذلك بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، لأنهما وقتان نهى عن التنفل بالصلاة فيهما ، لما أخبرنا الشيخ أبو نصر عن والده ، قال أخبرنا أبو علىّ إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الخطى ، قال حدثنا محمد بن يعقوب ، قال حدثنا هدبة بن خالد القيسى ، قال حدثنا أحمد ابن سلمة عن علىّ بن زيد ، عن الشعبىّ عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأن أقعد مع قوم أذكر الله تعالى من بعد صلاة الفجر حتّى تطلع الشمس أكبر وأهلل أحبّ إلىّ من أن أعتق رقبتين ، ولأن أذكر الله عزّ وجل من بعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس أحبّ إلىّ من أن أعتق أربع رقاب من ولد إسماعيل ؛ وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تناموا عن طلب أرزاقكم » قيل : يا أنس ما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تناموا عن طلب أرزاقكم؟ قال : فإذا صليتم الفجر ، فقولوا ثلاثا وثلاثين مرة الحمد لله ، وسبحان الله، ولا إله إلا الله ، والله أكبر وفى حديث آخر : « يسبح ثلاثا وثلاثين مرة ، ويحمد ثلاثا وثلاثين مرة ، ويكبر أربعا وثلاثين مرة ، ويختمها بلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو حىّ لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير » هكذا يفعل بعد العصر وعند النوم وحدثنا .

أبو نصر عن والده ، بإسناده عن عروة بن الزبير ، عن أبيه رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « غدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، فقال رجل : يا رسول الله فمن لا يستطيع غزوا قال : من جلس حين يصلى المغرب يذكر الله تعالى حتى يصلى العشاء ، كان مجلسه ذلك روحة فى سبيل الله ، ومن جلس حين يصلى الغداة يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس كانت مثل غدوة فى سبيل الله » . وحدثنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يقول فى دبر صلاة الغداة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، عشر مرات إلا كتب الله له بهن عشر حسنات ، ومحا عنه بهن عشر سيئات ، ورفع له بهن عشر درجات ، وكن عدل عشر رقاب ، ولا يضره يومئذ ذنب يصيبه إلا أن يكون شركا ؛ وما من عبد أحسن الوضوء فغسل وجهه كما أمر الله تعالى ، إلا حط الله عنه كل ذنب نظرت إليه عيناه ، أو تكلم به لسانه ، وما من عبد غسل يديه كما أمر الله عز وجل ، إلا حط الله عنه كل ذنب بطشت به يداه ؛ ثم مسح رأسه وأذنيه إلا حط الله عنه كل ذنب استمعت إليه أذناه ؛ ثم غسل رجليه كما أمره الله تعالى ، إلا حط الله عنه كل ذنب مشت به رجلاه حتى يقوم إلى صلاته ، فتكون تلك الصلاة فضيلة ؛ وما من عبد نام على ذكر طاهرا ، فأول ما ينتبه يدعو بدعوة إلا كانت دعوته مستجابة ؛ وما من عبد رمى بسهم فى سبيل الله عز وجل فأصاب أو أخطأ إلا أعطى به تحرير رقبة ؛ وما من عبد شاب شيبة فى سبيل الله ، إلا أعطى بها نورا يوم القيامة ؛ ومن أعتق رقبة كانت له فداء من نار جهنم ، كل عضو بعضو » . وحدثنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من صلى الغداة فى مسجده ثم جلس يذكر الله تعالى إلى أن تطلع الشمس ؛ فإذا طلعت حمد الله تعالى وقام يصلى ركعتين ، أعطاه الله بكل ركعة ألف ألف قصر فى الجنة ؛ فى كل قصر ألف ألف حوراء ، مع كل حوراء ألف ألف خادم ، وكان عند الله من الأوابين » وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا صلى الفجر لم يقم من مجلسه حتى تمكنه الصلاة » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من صلى الصبح وجلس فى مجلسه حتى تمكنه الصلاة كانت بمنزلة حجة وعمرة متقبلتين » فكان ابن عمر رضى الله عنهما إذا صلى الغداة جلس حتى تطلع الشمس ، فقيل له : لم تفعل هذا ؟ فقال أريد به السنة ، وحدثنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن عكرمة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى الفجر فى جماعة ، ثم اعتكف إلى طلوع الشمس ، فصلى أربع ركعات متواليات ، يقرأ فى أول ركعة بفاتحة الكتاب وآية الكرسى ثلاث مرات ، وقل هو الله أحد سبع مرات ؛ وفى الركعة الثانية فاتحة الكتاب بمرة ، والشمس وضحاها ، وفى الركعة الثالثة فاتحة الكتاب ، والسماء والطارق ؛ وفى الركعة الرابعة فاتحة الكتاب ، وآية الكرسى مرة ، وقل هو الله أحد ثلاث مرات ، بعث الله تعالى إليه سبعين ملكا ، من كل سماء عشرة أملاك ، معهم

أطباق من أطباق الجنة ، ومناديل من مناديل الجنة ، فيحملون تلك الصلاة على تلك الأطباق ، ثم يصعدون بها ، فلا يمرّون بقوم من الملائكة إلا استغفروا لصاحبها ، فإذا وضعت بين يدى الجبار قال الله تعالى : عبدى لى صليت ، وإياى عبدت ، فأستأنف العمل قد غفرت لك » وهذه الصلاة هى تفسير ماروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم عن ربه عزّ وجل قال «يا ابن آدم صل لى أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره» . وقد حمله بعضهم على صلاة الفجر فرضها ومسنونها ، والصحيح ما ذكرنا .

(فصل) وأما الورد الثانى : فصلاة الضحى ، وهى صلاة الأوّابين ، وهل يستحبّ المداومة عليها أم لا ؟ على وجهين عند أصحابنا . والأصل فى ذلك ماحدثنا به أبو نصر عن والده ، بإسناده عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « صلاة الضحى صلاة الأوّابين » وبهذا الإسناد قال صلى الله عليه وسلم « صلاة الضحى أكثر صلاة داود عليه السلام » . وحدثنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن بابا من أبواب الجنة يقال له الضحى ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الذين كانوا يصلون صلاة الضحى دائمين عليها ، أدخلوهم الجنة برحمة الله » . وكان الناس على عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعلىّ رضى الله عنهما يصلون صلاة الصبح ، ثم ينتظرون الوقت الذى يصلى فيه صلاة الضحى فيصلونها فى المسجد . وعن الضحاك بن قيس عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لقد أتى علينا زمان لا ندرى ما وجه هذه الآية (يسبحن بالعشىّ والإشراق) حتى رأينا الناس يصلون الضحى . وقال ابن أبى مليكة رحمه الله : سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن صلاة الضحى فقال : إنها لفى كتاب الله تعالى ثم قرأ (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدوّ والآصال) . وكان ابن عباس رضى الله عنهما يصلى ركعتى الضحى ، ولكن لا يدمن عليها ؛ ولهذا لما سئل عكرمة عن صلاة ابن عباس رضى الله عنهما الضحى قال : كان يصليها اليوم ويدعها العشرة . وقال النخعى رحمه الله : كانوا يكرهون أن يديموا صلاة الضحى فيصلون ويدعون لئلا تكون كالمكتوبة .

(فصل) وأما عدد ركعات صلاة الضحى ، فأقلها ركعتان ، وأعدلها ثمان ركعات ، وأكثرها اثنتا عشرة ركعة . فأما الركعتان فما أخبرنا به الشيخ أبو نصر عن والده ، بإسناده عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فى الإنسان ثلثمائة وستون مفصلا ، فعليه أن يتصدّق عن كل مفصل كل يوم بصدقة ، قالوا : ومن يطيق ذلك يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : النخامة يراها فى المسجد فيدفنها ، أو الشىء ينحيه عن الطريق ، فإن لم يقدر فركعتا الضحى تجزيه » . وحديث أبى هريرة رضى الله عنه : أوصانى خليلى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم بثلاث : الوتر قبل النوم ، وصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتى الضحى . وروى أربع ركعات ، وهو ما تقدم فى الفصل الذى قبله من حديث عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم الحديث . وروت معاذة عن عائشة

رضى الله عنها ، «أن النبىّ صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الضحى أربعا ، ثم ستّ ركعات» . وعن حميد الطويل عن أنس رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، «أنه كان يصلى الضحى ستّ ركعات ، ثم ثمان ركعات» . وعن عكرمة بن خالد عن أمّ هانىء بنت أبى طالب رضى الله عنها قالت : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم : فى الفتح ، فتح مكة ، نزل بأعلى مكة ، فصلى ثمان ركعات ، فقلت : يا رسول الله ما هذه الصلاة ؟ قال صلى الله عليه وسلم : صلاة الضحى » : قال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : هو ثبت . والاختيار عند أهل العلم رحمهم الله ثمان ركعات . وكذلك روى أبو سعيد رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وعن عائشة رضى الله عنها أيضا أنها صلت الضحى ثمان ركعات . وقال القاسم بن محمد رحمه الله : كانت عائشة رضى الله عنها تصلى الضحى ثمان ركعات وتطيل ذلك ، وكانت إذا صلتّها غلقت الباب عليها ، ثم عشر ركعات إن اختارت ، ثم ثنتا عشرة ركعة وهو أفضلها ، لما حدثنا به أبو نصر عن والده ، بإسناده عن حمزة بن موسى بن أنس بن مالك الأنصارىّ ، عن عمه ثمامة بن أنس ، عن جده أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من صلى الضحى اثنتى عشرة ركعة بنى الله تعالى له قصرا من ذهب فى الجنة » . وحدثنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن أمّ حبيبة رضى الله عنها قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من صلى اثنتى عشرة ركعة من النهار بنى الله تعالى له بيتا فى الجنة» . وحدثنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه ، عن أبى ذرّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا ذر إن النهار اثنتا عشرة ساعة ، فأعد لكل ساعة منها ركعة وسجدتين ، يدرأ عنك مافيها من ذنب ، يا أبا ذرّ من صلى ركعتين لم يكن من الغافلين ، ومن صلى أربعا كتب من الذاكرين ، ومن صلى ستا لم يلحقه فى يومه حنث إلا الشرك بالله تعالى ، ومن صلى اثنتى عشرة ركعة بنى له بيت فى الجنة قلت : يا رسول الله أجمعا أم شتى ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لا عليك » .

(فصل) وأما وقتها : فلها وقتان : جائز ، وهو بعد طلوع الشمس إلى صلاة الظهر ومستحبّ ، وهو حين ترمض الفصال عند قرب الزوال . والدليل على استحبابها فى هذا الوقت ما روى أن زيد بن أرقم رضى الله عنه رأى قوما يصلون الضحى فى مسجد قباء ، فقال : لقد علموا أن الصلاة فى غير هذه الساعة أفضل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «صلاة الأوّابين حين ترمض الفصال » . ويجوز فعلها أيضا بعد الزوال ، لما روى عوف بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ساعة السبحة حين تزول الشمس من كبد السماء » وهى صلاة المخبتين ، وأفضلها فى شدة الحرّ وإن هو لم يصلها إلى أن صلى الظهر قضاها على وجه الاستحباب .

(فصل) وأما الذى يقرأ فيها ، فما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال «صلاة الضحى بسورة والشمس وضحاها والضحى » . وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى اثنتى عشرة ركعة صلاة الضحى ، فقرأ

فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة ، وآية الكرسى مرة ، وثلاث مرات (قل هو الله أحد) نزل من كل سماء سبعون ألف ملك ؛ معهم قراطيس بيض وأقلام من نو ريكتبون له الحسنات إلى أن ينفخ فى الصور ، فإذا كان يوم القيامة أتته الملائكة مع كل ملك حلة وهدية ، فيقومون على قبره ويقولون : يا صاحب القبر قم بإذن الله عزّ وجل فإنك من الآمنين » .

(فصل) وقد ورد عن بعض الصحابة رضى الله عنهم إنكار صلاة الضحى : من ذلك ما روى ابن المنادى من أصحابنا ، بإسناده عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : ماصليت الضحى منذ أسلمت ، إلا أن أطوف بالبيت ، وإنها لبدعة ولنعمت البدعة ، وإنها لمن أحسن ما أحدثه الناس . وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول فى صلاة الضحى : ياعباد الله لا تحمّلوا الناس ما لم يحملهم الله إياه ، فإن كنتم لا بد فاعليها فصلوها فى بيوتكم ، وكل هذا لايدل على ردّ ما قدمنا ذكره من الفضائل الواردة فى فعلها ، وإنما أرادوا بذلك أن لاتشبه بصلاة الفرض فيعتقد الناس وجوبها وليس كل الناس سواء فى نشاط العبادة ، فطلبوا الخفة عنهم وتسهيل الطاعة عليهم ولهذا المعنى روى عن عتبان بن مالك رضى الله عنه قال : «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى فى بيته سبحة الضحى ، فقاموا وراءه فصلوا » ؛ وكانت عائشة رضى الله عنها إذا أرادت أن تصليها غلقت الباب ، وابن عباس رضى الله عنهما كان يصليها يوما ويتركها عشرا .

(فصل) وأما الورد الثالث ، فالصلاة قبل الظهر وبعدها . حدثنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن أمّ حبيبة رضى الله عنها أنها قالت : « من صلى أربع ركعات قبل الظهر وأربعا بعدها ، حرّم الله تعالى لحمه على النار » . وقيل : إن أبواب السماء والجنة تفتح من بعد الزوال إلى أن تصلى الظهر ، ولهذا قيل : إن الدعوات تستجاب فى هذه الساعة ، ولهذا يستحبّ ملازمة العبادة والدعاء والذكر فيها . وفى ذلك حديث مرويّ عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال« إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يواظب على أربع ركعات قبل الظهر ، فسئل فقال صلى الله عليه وسلم : « إن أبواب الجنة تفتح عند زوال الشمس فلا ترتج حتى تقام الصلاة ، فأحبّ أن أقدّم » . وسئلت عائشة رضى الله عنها : أىّ صلاة كانت أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يواظب عليها ؟فقالت رضى الله عنها : « كان صلى الله عليه وسلم يصلى أربعا قبل الظهر يطيل فيهن القيام ، ويحسن فيهن الركوع و السجود » .

(فصل) وأما الورد الرابع ، ففيما بين الظهر والعصر ، حدثنا أبو نصر عن والده قال أنبأناعمر ابن أحمد ، قال أنبأناعبد الله بن محمد ، قال حدثنا صالح بن مالك ، قال حدثنا جعفر بن عمر قال : حدثنا يونس ابن أبى عمرة عن عطاء ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم« من أحيا ما بين الظهر والعصر أحيا الله قلبه يوم تموت القلوب » . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان يحيى ما بين الظهر والعصر . وعن إبراهيم النخعى رحمه الله أنه قال : كانوا يشبهون الصلاة بين العشاءين وفيما بين الظهر والعصر بصلاة الليل . كان ذلك دأب كثير من العباد فيصلون أورادهم بين الظهر والعصر ، ينفردون عن الخلق وينقطعون إلى الحقّ

فى هذه الساعة، وهى ساعة شريفة للخلوة بالربّ عزّ وجل وذكره، وهى صلاة الغفلة . ويستحب الاعتكاف فى المسجد بين الظهر والعصر للصلاة والذكر، ليجمع بين الاعتكاف والانتظار للصلاة، وقد كان دأب السلف، إلا أن يكون قد فاته النوم قبل الزوال، فلينم فى هذه الساعة ليتقوّى به على قيام الليل ، فإن نومه قبل الظهر لليلة الماضية وبعد الظهر لليلة المستقبلة ، ولا يستحبّ أن يزيد فى النوم على ثمان ساعات . وقيل إن نقص فى النوم عن هذا المقدار اضطرب بدنه ، لأن النوم قوت البدن وراحته . وحدثنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن سهل عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « من صلى اثنتى عشرة ركعة كل يوم بنى الله له بيتا فى الجنة ، اثنتين قبل الفجر ، وأربعا قبل الظهر ، واثنتين بعد الظهر ، واثنتين قبل العصر ، واثنتين بعد المغرب » . وعن سعيد بن المسيب عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يزال المصلون لأربع قبل العصر حتى يغفر الله لهم مغفرة حتما » .

(فصل) وقد ورد حديث جامع للنوافل فى هذه الأوقات ، وهو ما حدثنا به أبو نصر عن والده ، قال حدثنا محمد بن أحمد الحافظ ، قال حدثنا محمد بن بدر الحمارى ، قال حدثنا حماد ابن مدرك ، قال حدثنا عثمان بن عبد الله الشامى ، قال حدثنا محمد بن إبراهيم ، عن عبد الله ابن أبى سعيد عن طاوس ، عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى بعد المغرب أربع ركعات قبل أن يكلم أحدا رفعت له فى عليين ، وكان كمن أدرك ليلة القدر فى المسجد الأقصى » يعنى مسجد بيت المقدس « وهى خير من قيام نصف ليلة ، وهى قول الله تبارك وتعالى (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) وهى قول الله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) وهى قول الله تعالى (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) . « ومن صلى أربعا بعد العشاء الآخرة كان كمن أدرك ليلة القدر فى المسجد الحرام، ومن صلى أربعا قبل الظهر وأربعا بعدها حرّم الله تعالى جسده على النار أن تأكله أبدا، ومن صلى أربعا قبل العصر كتب الله له براءة من النار » . وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ركعتا الفجر أحبّ إلىّ من الدنيا وما فيها » . وحدثنا أبو نصر عن والده ، بإسناده عن علىّ كرّم الله « وجهه أنه سئل عن تطوّع النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : ومن يطيق ذلك ، كان يمهل حتى إذا كانت الشمس عن يساره مقدارها عن يمينه فى العصر صلى ركعتين ، فإذا كانت عن يساره مقدارها عن يمينه فى الظهر صلى أربعا ، فإذا زالت الشمس صلى أربعا ، فيصلى بعد الظهر ركعتين وقبل العصر أربعا » . وفى الجملة يغتنم العبد الصلاة بعد الأذان والإقامة والدعاء والتضرّع ، فإنها ساعة مرجو إجابة الداعى فيها على ما تقدم .

(فصل) وأما الورد الخامس بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، فهو الذكر من التسبيح والتهليل والاستغفار والتفكر فى الملكوت وقراءة القرآن، لأن صلاة النافلة منهىّ عنها فيه ، ويقرأ قبل غروب الشمس : والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى ، ثم المعوذتين يختم نهاره ، ويستفتح ليله بالقرآن والاستعاذة . وروى عن الحسن رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم

أنه قال فيما يذكر من رحمة ربه عزّ وجل : إن الله تعالى قال : « يا ابن آدم اذكرنى من بعد صلاة الفجر ساعة ، وبعد صلاة العصر ساعة ، أكفك ما بينهما » .

باب فى الصلوات الخمس

وبيان أوقاتها وسننها وفضائلها

(فصل) الصلوات المكتوبة خمس : الفجر وهى ركعتان : والظهر وهى أربع ركعات ، والعصر وهى أربع ركعات ، والمغرب وهى ثلاث ركعات ، والعشاء الآخرة وهى أربع ركعات ؛ فذلك سبع عشرة ركعة . وقد كانت فرضت خمسين صلاة ليلة أسرى بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، ثم أعيدت إلى خمس حكمة من الله عزّ وجل ، ليتبين بذلك التخفيف وسهولة ما أبقى مما أسقط عن عباده المؤمنين ، كما أسقط عنهم ثبوت واحد لعشرة من المشركين فى القتال إلى ثبوت واحد لا ثنين منهم ، وكما أسقط تحريم الأكل والشرب والجماع بعد النوم فى ليالى الصيام بقوله (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) بعد أن كان ذلك محرّما عليهم .

(فصل) والأصل فى وجوبها قوله عزّ وجل (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) والأصل فى بيان أوقاتها آيات وأخبار ، أما الآيات فقوله عزّ وجل (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون) فسبحان الله : أى صلوا لله حين تمسون صلاة المغرب والعشاء ، وحين تصبحون صلاة الفجر ، وعشيا صلاة العصر ، وحين تظهرون صلاة الظهر . وقال عزّ وجل (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) وقال تعالى (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل) وقال تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) أى عند غروبها ، وقيل : عند زوالها . وقال جلت عظمته (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى) . قال قتادة رحمه الله : قبل طلوع الشمس : هى صلاة الفجر ، وقبل غروبها : صلاة العصر ، ومن آناء الليل : صلاة المغرب والعشاء ، وأطراف النهار : صلاة الظهر . وأما الأخبار فاروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمنى جبريل عليه السلام عند البيت ، فصلى بى الظهر حين زالت الشمس ، وكانت بقدر الشراك ؛ ثم صلى بى العصر حين صار ظل كل شىء مثله ؛ ثم صلى بى المغرب حين أفطر الصائم ؛ ثم صلى بى العشاء حين غاب الشفق ؛ ثم صلى بى الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم ؛ ثم صلى بى الظهر حين صار ظل كل شىء مثله ؛ ثم صلى بى العصر حين صار ظلّ كل شىء مثليه ؛ ثم صلى بى المغرب حين أفطر الصائم ؛ ثم صلى بى العشاء إلى ثلث الليل الأول ؛ ثم صلى بى الفجر حين أسفر ؛ ثم التفت إلىّ فقال : يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك ، والوقت فيما بين هذين الوقتين » وهذا الخبر هو أصل فى المواقيت . وفى هذا الباب أحاديث وردت كلها ترجع إلى معناه فلم نذكرها .

(فصل : فى ذكر من صلى هذه الصلوات أولا قبل نبينا صلى الله عليه وسلم) روى فى بعض الأخبار « أن رجلا من الأنصار سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر : من صلاها أولا ؟ فأخبره أن من صلاها أولا آدم عليه السلام ، والظهر صلاها إبراهيم عليه السلام حين نجاه الله تعالى من نار نمروذ ، والعصر صلاها يعقوب عليه السلام حين أخبره جبريل بيوسف عليهما السلام ، والمغرب صلاها داود عليه السلام حين تاب الله عليه : وصلاة العتمة صلاها يونس ابن متى عليه السلام حين أخرجه الله من بطن الحوت كالفرخ الذى لاريش له ، فجاء جبريل عليه السلام فقال : إن الله تعالى يقرئك السلام ويقول لك : إنى مستح منك كيف عذّبتك فى دار الدنيا ، فهل أنت راض عنى ؟ فقام فصلى أربع ركعات ثم قال : إنى عن ربى راض ، إنى عن ربى راض » . .

(فصل) وأول ما وجب من الصلوات على نبينا صلى الله عليه وسلم وأمر بفعلها ، صلاة الفجر والمغرب ، فكان صلى الله عليه وسلم يصلى ركعتين بالغداة وركعتين بالعشىّ ، وهو قوله عزّ وجل (وسبح بحمد ربك بالعشىّ والإبكار) إلى أن أسرى به صلى الله عليه وسلم إلى السماء ليلة المعراج ، ففرض عليه خمس صلوات ؛ وصلاة الفجر هى أول صلاة النهار ، ثم الظهر ؛ وإنما بدأ العلماء فى بيان صفة الصلوات بالظهر اتباعا للسنة ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما « أمنى جبريل عند البيت فصلى بى الظهر » إلى آخر الحديث ، فبدأ ببيان وقتها ، فجعل أول المواقيت وقتها ، لأنها فرضت أوّلا . وقد بينا أن الفجر هى التى صلاها آدم عليه السلام ، وهو أول نبىّ أرسل فى الأرض من الإنس ، فعلم أنها أول صلاة فرضت فى الجملة .

(فصل : فى بيان وقت صلاة الفجر) فأول وقتها انصداع الفجر الثانى المعترض بالضياء فى أقصى المشرق ذاهبا من القبلة إلى دبرها حتى يرتفع فيعمّ الأفق ، وينتشر على رءوس الجبال والقصور المشيدة ، وآخر وقتها الإسفار النير الذى إذا سلم منها بدا حاجب الشمس ، وما بين هذين وقت واسع . والمستحبّ أن تسمى هذه الصلاة صلاة الصبح أو الفجر ولا تسمى صلاة الغداة ، لأن الله تعالى قال (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) يعنى صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار ، فتحصل فى آخر صحيفة ملائكة الليل وأول صحيفة ملائكة النهار عليهم السلام ؛ والأفضل التغليس بها ، خلاف ما قال الإمام أبو حنيفة من أن الإسفار بها أفضل . وإنما قلنا ذلك لما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كن النساء يخرجن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلين الفجر معه ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن لايعرفهن أحد من الغلس » . وعن إمامنا أحمد رحمه الله رواية أخرى : أن المعتبر بحال المأمومين ، فإن أسفروا فالأفضل الإسفار لتكثير الجمع والثواب . وأما الفجر الأول فلا عبرة به ، لأنه لا يحرّم شيئا ولا يوجب شيئا ، لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : الفجر فجران ، فالذى تحلّ به الصلاة ويحرم فيه الأكل والشرب الذى ينتشر على رءوس الجبال وهو الذى يحرّم . وقد وصف بعض العلماء

بالله عزّ وجل الفجرين وحدهما بحدين فقال : الفجر الأول ، وهو بدوّ سلطان شعاع الشمس إذا ظهرت من وراء الأرض الخامسة ليسطع ضوءها فى وسط السماء حتّى يقطعها بمقـدار بقاء الفجر الأول ، فذلك الضياء الذى يظهر فى السماء فى الثلث الأخير من الليل هو الفجر الأول ، ثم يعود سـواد الليل كما كان ، لأن الشمس تغرق فى الفلك الأسفل المتجانف ، وتحجبها الأرض السادسة ، فيذهب ذلك الضوء الذى ظهر فى السماء . وأما الفجر الثانى ، فهو انشقاق شفق الشمس وهو بدوّ بياضها الذى تحته الحمرة ، وهو الشفق الثانى ، وهو أول سلطانها من آخر الليل وبعده طلوع قرص الشمس وذلك أن الشمس إذا ظهرت على وجـه أرض الدنيا التى هى السابعة وانفجر شعاعها من الفلك الأسفل ، وهو ذيل السماء سترت عينها الجبال والبحار والأقاليم العالية ،وظهر شعاعها منتشرا إلى وسط السماء عرضا مستطيرا . والأول يسمى مستطيلا لأنه يظهر فى وسط السماء طولا ثم يذهب ، والثانى يظهر عرضا يستطير فيعمّ الأفق وأرجاء السماء كلها . وللشمس شفقان عند الغروب ، وشفقان عند الطلوع . .

(فصل) وأما الظهر ، فأول وقتها إذا زالت الشمس ، وآخره إذا صار ظل كل شىء مثله والأفضل تعجيلها إلا فى شدّة الحرّ ، ومع الغيم فى حق من أراد الخروج إلى الجماعة لقول النبىّ صلى الله عليه وسلم « أبردوا بالظهر ، فإن شدة الحرّ من فيح جهنم » ولما روى عن بلال رضى الله عنه قال « آذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاة الظهر ، فقال : أبرد ، ثم آذنته ثانية فقال : أبرد ، ثم آذنته ثالثة فقال : أبرد ، حتى رأيت فىء التلول ، ثم قال : إن شدة الحرّ من فيح جهنم ، فإذا اشتدّ الحرّ فأبردوا » . وبيان معرفة الزوال أن الشمس إذا وقفت فهو قبل الزوال ، فإذا زالت أقلّ القليل فذلك وقت الظهر ، وجاء فى الحديث « أن الشمس إذا زالت بمقدار شراك فذلك أول وقت الظهر ، فإذا صار ظل كل شىء مثله فهو آخر وقت الظهر وأول وقت العصر ، فإذا أردت أن تعرف ذلك فقس الظل بأن تنصب عمودا ، أو تقوم قائمـا فى موضع من الأرض مستويا معتدلا ، ثم علم على منتهى الظلّ بأن تخط خطا ، ثم انظر أينقص أو يزيد ، فإن رأيته ينقص علمت أن الشمس لم تزل بعد ، وإن رأيته قائما لا يزيد ولا ينقص ، فذلك قيامها وهو نصف النهار لا تجوز الصلاة حينئذ ، فإذا أخذ الظلّ فى الزيادة فذلك زوال الشمس ، فقس من حدّ الزيادة إلى ظل ذلك الشيء الذى قست به طول الظل ، فإذا بلغ إلى آخر طوله فهو آخر وقت الظهر ، فإذا زاد شيئا يسيرا فقد دخل وقت العصر حتى يزيد الظلّ طول ذلك الشىء مرة أخرى ، فذلك آخر وقت العصر ، ثم يبقى وقت الضرورة إلى قبل غروب الشمس ، وكذلك تفعل بقيامك فتعلم على موضع ظلك،فإن نقص علمت أنه لم تزل الشمس ، وإن وقف فهو حال القيام ، وإن زاد فهو الزوال . وأما معرفتك المثل بقيامك وطولك ، فإن طولك سبع أقدام بقدمك سوى قدمك التى تقوم عليها ، فإنك تقوم مستقبل الشمس بوجهك ، ثم تأمر إنسانا يعلم طرف ظلك بعلامة ، ثم تقيس من عقبك إلى تلك العلامة ، فإن كان بينهما أقل من سبعة

أقدام سوى ما زالت الشمس عليـه من الظل ، فتعلم أنك فى وقت الظهر ، وأن وقت العصر لم يدخل بعد ، فإذا زاد الظل على سبعة أقدام علمت دخول وقت العصر .

(فصل) وهذا الذى ذكرنا من الأقدام ونصب العمود ، يختلف فى الشتاء والصيف ، فيزيد الظل وينقص ، فالزيادة تكون فى الشتاء ، لأن الشمس تكون فى مسامتة الشخص ، لأنها تسير فى ذيل السماء ولا ترتفع فى الجو ، ونقصانه يكون فى الصيف ، لأن الشمس ترتفع إلى الجو فتشرف على الأشخاص ، لأنها أول ما تصعد تكون من جانب السماء ، فيمتد ظلها لمقابلة قرصها ، فكلما صعدت قصر الظل إلى أن تنتهى فى الارتفاع فتصير فى كبد السماء وهو حالة قيامها ، فإذا أخذت فى السيران وهو النزول نحو ما يلى مغربها ، فيأخذ الظل فى الطول وهو الزوال وكذلك يختلف فى البلدان ، فما كان منها تحت وسـط الفلك كمكة وما حواليها من البلدان قصر ظل الشمس فيه حتى لا يبقى للشمس ظل أصـلا ، وما كان بعيدا من وسط الفلك كخراسان وما والاها من النواحى فإن ظل الشمس يطول صيفا وشتاء ، فيكون صيفها كشتاء غيرها فى طول الظل ، فقد يزول فى تلك البلاد على قدم واحدة .

(فصل : فى معرفة الأقدام) اعلم أن أقل ما تزول عليه الشمس على ما ذكره القدماء من أهل هذا العلم فى حزيران على قدمين ، وأكثر ما تزول عليه فى كانون على ثمانية أقدام وتزول فى أيلول على خمسة أقدام ، وفى تشرين الأول على ستة أقدام ، وفى تشرين الآخر على سبعة أقدام ، وفى كانون الأول على ثمانية أقدام ، وذلك منتهى قصر النهار وطول الليل ، وهو أكثر ما تزول عليه الشمس ، ثم ينقص الظل ويزيد النهار ، فتزول الشمس فى كانون الآخر على سبعة أقدام ، وتزول فى شباط على ستة أقدام ، وتزول فى أدار على خمسة أقدام ، وذلك استواء الليل والنهار ، وتزول فى نيسان على أربعة أقدام ، وفى أيار على ثلاثة أقدام ، وفى حزيران على قدمين ، فذلك منتهى طول النهار وقصر الليل ، وهو أقل ما تزول الشمس عليه ، فيكون النهار خمس عشرة ساعة ، والليل تسع ساعات ، وتزول فى تموز على ثلاثة أقدام ، وفى آب على أربعة أقدام ، وفى أيلول على خمسة أقدام ، وفيه يستوى الليل والنهار . وروى عن سفيان الثورى رحمـه الله أنه قال أكثر ما تزول عليه الشمس سبعة أقدام ، وأقل ذلك ما تزول على قدم واحدة . وعن عبدالله ابن مسعود رضى الله عنه قال : كانت صلاتنا الظهر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصيف على ثلاثة أقدام إلى خمسة أقـدام ، وفى الشتاء على خمسة أقدام إلى ستة أقدام .

(فصل) وذكر بعضهم صفة أخـرى فقال : تزول الشمس فى تسعة عشر يوما من أدار وظل الإنسان ثلاثة أقدام ، وكذلك كل شىء تنصبه ، فإن الشمس تزول يومئذ ، وظل ذلك الشىء ثلاثة أسباعه ، ثم ينقص الظل قدما حتى ينتهى طول النهار وقصر الليل فى تسعة عشر من حزيران ، فتزول الشمس يومئذ ، وظل الإنسان نصف قدم وذلك أقل ما تزول عليه الشمس ، ثم يزيد الظل ، فكلما مضت ستة وثلاثون يوما ، زاد الظل قدما حتى يستوى الليل والنهار فى تسعة عشر يوما من أيلول ، فتزول الشمس يومئذ والظل على ثلاثة أقدام ، ثم يزيد الظل ، فكلما

مضى أربعة عشر يوما ، زاد الظلّ قدما حتى ينتهى طول الليل وقصر النهار ، وذلك فى تسعة عشر يوما من كانون الأول ، فتزول الشمس يومئذ على سبعة أقدام ونصف قدم ، وذلك أكثر ما تزول الشمس عليه ثم كلما مضى أربعة عشر يوما زاد الظل قدما ، حتى ينتهى إلى تسعة عشر يوما من أدار ، فذلك استواء الليل والنهار ، وتزول الشمس على ثلاثة أقدام ، وذلك دخول الشمس فى الصيف وزيادة الظلّ ونقصانه الذى ذكرناه فى كل ستة وثلاثين يوما قدم فى الصيف والقيظ ، وزيادة فى كل أربعة عشر يوما قدم فى الربيع والشتاء .

(فصل) وقد ذكر بعض شيوخنا لذلك صفة أخرى ، وهى أن قال : تزول الشمس فى حزيران كله على ثلاثة أقدام ، والقدم سبع كل شخص منتصب وأول وقت العصر فيه تسعة أقدام ونصف ، وأول وقت الظهر فى تموز كله أربعة أقدام ، وأول وقت العصر فيه عشرة أقدام ونصف ، وأول وقت الظهر فى آب كله خمسة أقدام ، وأول وقت العصر فيه أحد عشر قدما ونصف ، وأول وقت الظهر فى أيلول كله ستة أقدام ، وأول وقت العصر فيه اثنا عشر قدما ونصف ، وأول وقت الظهر فى تشرين الأول كله سبعة أقدام ، وأول وقت العصر فيه ثلاثة عشر قدما ونصف ، وأول وقت الظهر فى تشرين الآخر كله ثمانية أقدام ، وأول وقت العصر فيه أربعة عشر قدما ونصف ، وأول وقت الظهر فى كانون الأول كله عشرة أقدام ونصف ، وأول وقت العصر فيه سبعة عشر قدما ، وأول وقت الظهر فى كانون الثانى كله تسعة أقدام ، وأول وقت العصر فيه خمسة عشر قدما ، وأول وقت الظهر فى شباط كله سبعة أقدام ونصف ، وأول وقت العصر فيه أربعة عشر قدما ونصف . وأول وقت الظهر فى أدار كله ستة أقدام ، وأول وقت العصر فيه اثنا عشر قدما ونصف ، وأول وقت الظهر فى نيسان كله أربعة أقدام ونصف ، وأول وقت العصر فيه أحد عشر قدما ، وأول وقت الظهر فى أيار كله ثلاثة أقدام ونصف ، وأول وقت العصر فيه عشرة أقدام ، فهذه مقادير ما تزول عليه الشمس فى شهور السنة كلها ، والله أعلم بما لا تدركه إحساسنا ، ولا تنتهى نحوه علومنا :

(فصل) ومعرفة الزوال على هذه الصفات والتحديد ليس هو بأمر حتم ، بل هى جهة من جهات الوصول إلى معرفة الزوال ، وليس كل أحد يدرك ذلك ، بل كل من غلب على ظنه ويقينه زوال الشمس وجب عليه فعل صلاة الظهر ، وذلك أن الناس فى الأوقات على ثلاثة أضرب : من فرضه اليقين ، وهو من يعرف الدقائق والساعات وسير الكواكب ، يستدل بذلك ليحصل له يقين الوقت ؛ ومن فرضه الاجتهاد والتقدير بالعمل أو تقليد من يعمل ، وهم الصناع الجهال بالأوقات ، فإن اجتهدوا فقدروا بأعمالهم ، مثل الخباز عادته أن يخبز العجنتين أو ثلاثة إلى الظهر ، أو الطحان يطحن القفيز إلى الظهر ، استظهر بالتأخير وصلى ، لأن فى يوم الغيم كان الوقت يقصر بغيبة الشمس فيعضل الإنسان عن مراعاة الوقت أو يتشاغل عنه ، وكذا الأذان من عارف بالأوقات ، أو ممن لا يؤذن إلا بإذن عارف بالوقت يقوم للصلاة ؛ والثالث :

من فرضه التحرى والتأخير بجهده إلى أن يغلب على ظنه دخول الوقت ، وهو المطمور والمحبوس فى الأمكنة التى لا يتوصل إلى معرفة الوقت بدلالة ولا خبر ولا سماع أذان ، لقول النبىّ صلى الله عليه وسلم « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

(فصل) ومعرفة الزوال على التحقيق أمر يدقّ ويصعب ، وقد ورد فى الحديث « أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عليه السلام : أزالت الشمس ؟ فقال : لا نعم ، فقال كيف هذا ؟ فقال : من قولى لك : لا ، نعم ، قطعت الشمس من الفلك خمسين ألف فرسخ ، فكأن النبىّ صلى الله عليه وسلم سأله عن زوالها فى علم الله تعالى : لكنك إذا استقبلت القبلة فكانت الشمس على حاجبك الأيمن فى الصيف فقد زالت بلا شك ، فصلّ الظهر ، فإذا صار ظلّ كل شىء مثله فهو وقت العصر ، فإذا كانت الشمس على حاجبك الأيسر فى الصيف أيضا وأنت مستقبل القبلة ، فاعلم أنها لم تزل بعد ، فإذا كانت بين عينيك فهو قيامها واستواؤها فى كبد السماء ، وقد يجوز أنها قد زالت إذا كانت فى أول الشتاء وقصر النهار ، وأما إذا كانت فى أول الشتاء على حاجبك الأيمن فتكون قد زالت فى جميع الأزمنة ، لأنه إذا كان ذلك فى الصيف فهو أول وقته الظهر ، وإن كان فى الشتاء فهو آخر وقت الظهر ، وإذا كانت على حاجبك الأيسر فقد يجوز أنها قد زالت لقصر النهار فى أول الشتاء ، ولا يجوز فى أول الصيف لامتداد النهار وطوله ، وإذا كانت بين عينيك فى الشتاء فقد زالت بلا شك ، فإذا صارت إلى حاجبك الأيمن فهو آخر وقته الظهر ، وهذا لأهل إقليم العراق وخراسان الذين يصلون إلى الركن الأسود وباب البيت من جهة الكعبة ، وأما أهل اليمن والمغرب ومن يليهم ، فعلى ضد ذلك ، لأنهم يصلون إلى الركن اليمانى ومؤخر الكعبة ، فلذلك اختلف التقدير .

(فصل) فإذا عرفت الزوال وأردت أن تعرف القبلة فاجعل ظلك على يسارك ، فإنك تكون حينئذ مستقبل القبلة فاعلم ذلك مختصرا بلا تعب ، وإنما طوّلت فى ذكر معرفة الزوال لأنه أشكل الأوقات وأدقها ، وقد ورد ذكر الأقدام فى خبر ابن مسعود رضى الله عنه ، والتنبيه على معرفة ذلك ما تقدم بيانه والله أعلم .

(فصل) وأما وقت العصر ، فأوله على ما ذكرنا أدنى زيادة على ظلّ المثل ، وآخر وقتها إذا صار الظل مثليه ، ووقت الضرورة إلى قبل أن تغيب الشمس ، وقد تقدم ذكره والأفضل تعجيلها .

(فصل) وأما صلاة المغرب فإذا غربت الشمس ، وهو إذا تدلى حاجب الشمس الأعلى ، وهو غيبتها عن الأبصار دخل وقتها ؛ ولها وقتان : أحدهما الغروب ، والثانى غيبوبة شفق الشمس وهو الحمرة فى أصح الروايتين .

(فصل) فإذا غاب الشفق دخل وقت العشاء الآخرة ، ووقت الفضيلة مبقى إلى ثلث الليل فى إحدى الروايتين ، والثانية إلى نصف الليل ، ووقت العذر والضرورة ما لم يطلع الفجر الثانى ، ولها اسمان : أحدهما عتمة ، والثانى العشاء الآخرة ، لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : غلبتكم

الأعراب على اسم صلاتكم هذه يسمونها عتمة، يعني أن اسمها العشاء الآخرة، والأعراب يسمونها عتمة، فوافقوهم فى ذلك، والأفضل تأخيرها إلى آخر وقتها، وهو الثلث الأول أو النصف الأول على ما ذكرنا، وأفضل ما صليت إذا غاب البياض الغربى وأظلم مكانه، وهو الشفق الثانى فيؤخر إلى ربع الليل أو الثلث أو النصف، كل ذلك ما لم ينم المصلى قبل أن يصليها، فإنه يكره النوم عنها، فمن خاف غلبة النوم، فالأفضل أن يصليها ثم ينام، ولهذا الأفضل عند الشافعى رحمه الله أن يصلى فى أول الوقت، وإنما قلنا الأفضل تأخيرها لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « أعتموا بالعتمة » . وخرج صلى الله عليهو سلم ليلة وقد أعتم فقال « لولا أن أشقّ على أمتى لأمرتهم أن يصلوها » ، هكذا فالنبىّ صلى الله عليه وسلم أخرها وحثّ على تأخيرها .

(فصل) وأما السنن الراتبة مع هذه الصلوات الخمس فثلاث عشرة ركعة : ركعتان قبل صلاة الفجر، وركعتان قبل الظهر، وركعتان بعدها، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء الآخرة، ويوتر بثلاث ؛ وهو مخير إن شاء صلاها بتسليمة واحدة كصلاة المغرب ؛ وإن شاء فصل بينها، فيسلم عن كل ركعتين، ويوتر بالآخرة، وهو الأفضل ؛ فيقرأ فى الأولى من الثلاث بعد الفاتحة سبح اسم ربك الأعلى، وفى الثانية بقل يا أيها الكافرون، وفى الثالثة بقل هو الله أحد، ويقرأ فى أول الركعتين من سنة الفجر بقل يا أيها الكافرون، وفى الثانية بقل هو الله أحد، ويستحبّ فعلهما فى منزله، ثم يخرج، ويستحبّ الاشتغال بذكر الله تعالى وترك الكلام إلا أن يكون واجبا بعد أن يصليهما حتى يدخل فى الفريضة، والقراءة فى الركعتين بعد المغرب كالقراءة فى ركعتى الفجر . روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من عشرين مرة يقرأ فى الركعتين بعد المغرب : قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد » . وروى عن طاوس رحمه الله أنه كان يقرأ فى الأولى منهما : آمن الرسول، وفى الثانية قل هو الله أحد . ويستحبّ تعجيلهما لما روى حذيفة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « عجلوا بالركعتين بعد المغرب ترفعهما الملائكة مع المكتوبة » فيستحبّ تخفيفهما لذلك . وفى حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم « من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم رفعت صلاته فى عليين » . وقد جاء ما يدلّ على استحباب تطويلهما، وهو ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيل القراءة فى الركعتين بعد المغرب حتى يتفرق أهل المسجد » . وروى كذلك عن حذيفة رضى الله عنه أنه قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فصليت معه صلاة المغرب، ثم قام فصلى إلى العشاء الآخرة، ثم انتقل إلى منزله » : وقد ورد أيضا أن الاستحباب فى فعلهما فى المنزل، وهو ما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « إن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يصلى الركعتين اللتين بعد المغرب فى بيتها » وكذلك عن أم حبيبة رضى الله عنها » . وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصلى الركعتين بعد المغرب إلا فى بيته » . وروى سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال : « لقد أدركت زمان عثمان بن عفان رضى الله عنه وإنه ليسلم من

المغرب ، وما أرى رجلا واحدا يصليهما يعنى الركعتين بعد المغرب فى المسجد ، بل كانوا يبتدرون باب المسجد فيخرجون فيصلونها فى بيوتهم » .

(فصل : فى فضائل الصلوات الخمس) روى عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل كل يوم منه خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا : لا ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله تعالى بها الخطايا » . وعن أبى ثعلبة القرظى قال : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحترقون فإذا صلوا الصبح غسلت الصلاة ما كان قبلها ، ثم يحترقون فإذا صلوا الظهر غسلت الصلاة ما كان قبلها ، ثم يحترقون فإذا حضرت صلاة العصر فصلوا غسلت ما كان قبلها ، حتى ذكر صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس» . وعن الحرث مولى عثمان بن عفان رحمه الله قال « جلس عثمان بن عفان رضى الله عنه ثم دعا بماء فتوضأ ، ثم قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ وضوئى هذا ، ثم قال : فمن توضأ وضوئى هذا ثم قام فصلى الظهر غفر له ما بينها وبين صلاة الصبح ، ثم قام فصلى صلاة العصر غفر له ما بينها وبين صلاة الظهر ، ثم صلى المغرب غفر له ما بينها وبين صلاة العصر ، ثم صلى العشاء الآخرة غفر له ما بينها وبين صلاة المغرب ، ثم لعله يبيت يتمرغ ليله ، ثم إذا قام فصلى الصبح غفر له ما بينها وبين العشاء الآخرة ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، قالوا : هذه الحسنات : فما الباقيات الصالحات ؟ قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة مرضاة الرب والملائكة ، وسنة الأنبياء صلوات الله عليهم ونور المعرفة وأصل الإيمان ، وإجابة الدعاء وقبول الأعمال ، وبركة فى الرزق ، وراحة الأبدان ، وسلاح الأعداء ، وكراهية الشيطان ، وشفيع بين صاحبها وبين مالك السموات ، وسراج فى قبره وفراش تحت جنبه . وجواب منكر ونكير ومؤنس زائر معه فى قبره ، إلى يوم القيامة ؛ فإذا كان يوم القيامة كانت الصلاة ظلا فوقه ، وتاجا على رأسه ، ولباسا على بدنه ، ونورا يسعى بين يديه ، وسترا بينه وبين النار ، وحجة المؤمنين بين يدى الرب عز وجل ، وثقلا فى الميزان ، وجوازا على الصراط ومفتاحا للجنة ، لأن الصلاة تسبيح وتحميد وتقديس وتعظيم وقراءة ودعاء ، وإن أفضل الأعمال كلها الصلاة لوقتها » . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الصلوات الخمس عماد الدين ، لا يقبل الله الإيمان إلا بالصلاة » . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال « قال رجل : يا رسول الله كم افترض الله عز وجل على عباده من الصلوات ؟ قال : خمس صلوات ، قال : فهل قبلهن أو بعدهن شىء ؟ قال : افترض الله على عباده صلوات خمسا ليس قبلهن أو بعدهن شىء ، فحلف الرجل بالله لا يزيد عليهن ولا ينقص منهن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن صدق دخل الجنة » . وعن تميم الدارى رضى الله عنه : قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة

صلاته ، فإن هو أكملها كتبت له كاملة ، وإن لم يكن أكملها قال الله عزّ وجل للملائكة : انظروا هل تجدون لعبدى من تطوع فأكملوا له ما ضيع من ذلك » . وعن أنس بن حكيم الضبى قال : قال أبو هريرة رضى الله عنه : إذا أتيت أهلك فأخبرهم أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته المكتوبة ، فإن أتمها وإلا نظر فإن كان له تطوّع أكملت له الفريضة بها ، ثم يفعل بسائر الأعمال كذلك » . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » « أول ما يحاسب به العبد الصلاة ، وأول ما افترض الله تعالى على هذه الأمة الصلاة » .

(فصل : فى الخروج إلى المسجد ، وفضل الجماعة والخشوع فى الصلاة) عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما بين صلاة الجماعة والفذّ سبع وعشرون درجة » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله وسلم قال « إذا توضأ العبد ثم خرج إلى المسجد كتب الله عزّ وجل له بكل خطوة حسنة ، ومحا عنه سيئة ، ورفع له درجة ، ويستبشر الله تعالى به كما يستبشر بالغائب الطويل غيبة إذا قدم على أهله » . وعن أبى عثمان النهدى عن سلمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عزّ وجل : « من توضأ فى بيته فأحسن الوضوء ثم زارنى فى بيت من بيوتى فأتانى زائرا وحقّ على المزور أن يكرم زائره » وعن سالم بن عبد الله عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « جاء جبريل إلى النبىّ عليهما السلام فقال : بشر المشائين فى ظلم الليل إلى المساجد بالنور التامّ يوم القيامة » . وعن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من مشى فى ظلم الليل إلى المساجد آتاه الله تعالى نورا يوم القيامة » . وعن سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذّ بخمس وعشرين درجة » . وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما بين صلاة الجماعة والفذّ سبع وعشرون درجة » . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يا عثمان بن مظعون من صلى الصبح فى جماعة كانت له حجة مبرورة وعمرة متقبلة ، يا عثمان من صلى الظهر فى جماعة كان له خمس وعشرون صلاة كلها مثلها وسبعون درجة فى جنة الفردوس ، يا عثمان من صلى العصر فى جماعة ثم ذكر الله تعالى حتى تغرب الشمس فكأنما أعتق نسمة من ولد إسماعيل ، مع كل رجل منهم اثنا عشر ألفا ، ياعثمان من صلى المغرب فى جماعة كانت له خمس وعشرون صلاة كلها مثلها ، وسبعون درجة فى جنة عدن ، يا عثمان من صلى العشاء الآخرة فى جماعة فكأنما قام ليلة القدر » . ويستحبّ للرجل إذا أقبل إلى المسجد أن يقبل بخوف ووجل وخشوع وخضوع ، وأن تكون عليه السكينة والوقار ، وأن يحدث لنفسه فكرا وأدبا غير ما كان عليه ، وفيه قبل ذلك من حالات الدنيا وأشغالها ، وليخرج برغبة ورهبة وذلّ وتواضع وانكسار من غير عجب وتكبر وافتخار ورؤية الناس والخلق ، وينوى بذلك التوجه إلى الله عزّ وجل إلى بيت

من بيوته التى (أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) فما أدرك من الصلاة صلى مع الجماعة ، وما فاته قضى » كذا جاء فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا جاء أحدكم وقد أقيمت الصلاة فليمش على هينة ، فليصلّ ما أدرك وليقض ما سبقه » . وفى لفظ آخر « فليمش وعليه السكينة والوقار» فليحذر العجب فى المواظبة على العبادات والمداومة عليها ؛ لأن ذلك يسقطه من عين الله عزّ وجل، ويبعده من قربه ، ويعمى عليه حالته ، ويزيل نور بصيرته وحلاوة ما كان يجده من قبل فى عبادته ، ويكدر صفاء معرفته ، وربما ردّ عليه عمله وقصم ؛ لأنه روى أنه تبارك وتعالى لا يتقبل من المتكبرين عملا حتى يتوبوا ،وقد جاء فى الحديث : أن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام أحيا ليلة ،فلما أصبح أعجب بقيام ليله فقال : نعم الربّ ربّ إبراهيم ؛ونعم العبد ابراهيم فلما كان غداؤه لم يجد أحدا يأكل معه ،وكان صلى الله عليه وسلم يحب أنه يأكل معه غيره ، فأخرج طعامه إلى الطريق ليمرّ به مارّ فيأكل معه ، فنزل ملكان من السماء فأقبلا نحوه فدعاهما إبراهيم عليه السلام إلى الغداء ، فأجاباه ، فقال لهما : تقدما بنا إلى هذه الروضة ، فإن فيها عينا وفيها ماء فنتغدى عندها ، فتقدموا إلى الروضة ، فإذا العين قد غارت وليس فيها ماء ، فاشتدّ ذلك على إبراهيم عليه السلام واستحيا مما قال ، إذ لم يجد الماء ، فقالا له : يا إبراهيم فادع ربك واسأله أن يعيد الماء فى العين ، فدعا الله عزّ وجل فلم يردّ شيئا ، فاشتدّ ذلك عليه ، فقال لهما : ادعوا الله ، فدعا أحدهما فرجع الماء فى العين ، ثم دعا الآخر فأقبلت العين ، فأخبراه أنهما ملكان ، وإن إعجابه بقيام ليله ردّ دعاءه عليه فلم يستجب له ؛ فإذا كان هذا فعله عزّ وجل بخليله إبراهيم عليه السلام ، فكيف فعله بغيره ؟ بل يعتقد العبد أن جميع ما هو فيه من الطاعة والمسارعة إليها توفيق من الله ونعمة وفضل ورحمة ومنة ، فليقم بين يديه عزّ وجل محترما خاضعا ذليلا ، كأنه يشاهده ، كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . وقد ورد فى الحديث « أن الله عزّ وجل أوحى إلى عيسى بن مريم عليهما السلام إذا قمت بين يدى فقم مقام الخائف الذليل الذامّ لنفسه فإنها أولى بالذم ، وإذا دعوتنى فادعنى وأعضاؤك تنتفض » . وكذلك روى أن الله تعالى أوحى مثل ذلك إلى موسى عليه السلام . وروى أن ابن سيرين رحمه الله كان إذا قام إلى الصلاة ذهب دم وجهه خوفا من الله عزّ وجل وفرقا منه . وكان مسلم بن يسار رحمه الله إذا دخل فى الصلاة لم يسمع حسا من صوت ولا غيره ، اشتغالا بالصلاة وخوفا من الله عزّ وجل . وقال عامر بن عبد قيس : لأن تختلف الخناجر بين كتفى أحبّ إلىّ من أن أتفكر فى شىء من أمر الدنيا ، وأنا فى الصلاة . وقال سعد بن معاذ رضى الله عنه : ما صليت صلاة قط فحدثت نفسى فيها بشىء من أمر الدنيا حتى انصرفت . وقال مجاهد رحمه الله : كان ابن الزبير رضى الله عنهما إذا قام فى الصلاة كأنه عود من الخشوع . وكان وهب رحمه الله إذا قام يصلى كأنما يطلع فى جهنم . وكان عتبة الغلام رحمه الله إذا قام فى الصلاة فى الشتاء ينصب العرق منه ، فسألوه فى ذلك ، فقال حياء من الله عزّ وجل . وكان مسلم بن يسار رحمه الله

يصلي فوقع الحريق فى داره وهو فى بيت منها ، ففزع أهل البصرة حتى خرجوا فأطفأوه ، فما عقل مسلم إلا بعد ما أطفئوها وفرغ عن صلاته . وقيل : إنه أيضا كان يصلي فى الجامع ، فسقطت سارية إلى جنبه ففزع منها أهل السوق ، وهو لم يعقل بها . وعن عمار بن الزبير رحمه الله : أنه كان يصلي ونعله بين يديه ، وكان شسع نعله جديدا ، فالتفت إلى الشسع ، فلما فرغ من صلاته رمى بنعله ولم يلبس بعد ذلك نعلا حتى مات رحمه الله . وحكى عن الربيع بن خثيم رحمه الله أنه كان يصلي تطوّعا وبين يديه فرس له يساوى عشرين ألف درهم ، فجاء لصّ فحله وذهب به ، فجاء الناس من الغداة يعزونه ، فقال : أما إنى كنت أرى من يحله ، ولكن كنت فى شيء أحبّ إلىّ منه ، فلما كان فى بعض النهار فإذا الفرس قد أقبل حتى قام بين يديه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه صلى فى شملة سوداء فيها خيط أحمر » ، فلما سلم قال : إن هذا الخيط ألهانى عن صلاتى . وقد وصف الله تعالى الخاشعين فى الصلاة فى قوله تعالى (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) قال الزهرى رحمه الله : هو سكون المرء فى صلاته . قيل : هو الذى لا يعلم من عن يمينه وشماله فى الصلاة لاشتغاله بالصلاة ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن فى الصلاة لشغلا » .

(فصل : فى المحافظة عليها وما ورد من العقوبة على من ضيعها) روى الأعمش عن شقيق ابن سلمة عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا صلى العبد فى أول الوقت صعدت إلى السماء ، ولها نور حتى تنتهى إلى العرش ، تستغفر لصاحبها إلى يوم القيامة وتقول : حفظك الله كما حفظتنى ، وإذا صلى العبد فى غير وقتها صعدت إلى السماء لا نور لها ، فتنتهى إلى السماء فتلفّ كما يلفّ الثوب ، أو الخرقة فيضرب بها وجهه ثم تقول : ضيعك الله كما ضيعتنى » . وفى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « من توضأ فأبلغ الوضوء ، ثم قام إلى الصلاة فأتمّ ركوعها وسجودها والقراءة فيها قالت الصلاة : حفظك الله كما حفظتنى ، ثم صعد بها إلى السماء ولها ضوء ونور ، فتفتح لها أبواب السماء حتى تنتهى إلى الله عزّ وجل ، فتشفع لصاحبها ؛ وإذا ضيع ركوعها وسجودها والقراءة فيها : قالت الصلاة ضيعك الله كما ضيعتنى ، ثم صعد بها ولها ظلمة حتى تنتهى إلى السماء ، فتغلق أبواب السماء دونها ، ثم تلفّ كما يلفّ الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها » . وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ الأعمال أفضل ؟ قال : الصلوات لوقتهنّ ، وبرّ الوالدين ، والجهاد فى سبيل الله عزّ وجل » . وعن ابراهيم ابن أبى محذورة المؤذن عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول الوقت رضوان الله ، وأوسط الوقت رحمة الله ، وآخر الوقت عفو الله » وقال الله تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) قال ابن عباس رضى الله عنهما : والله ما تركوها ولكن أخروها عن أوقاتها . وقال سعد رضى الله عنه « سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قوله عز وجل (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قال صلى الله عليه وسلم : هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها » . وعن البراء بن عازب رضى الله عنهما فى قوله تعالى (أضاعوا الصلاة واتبعوا

الشهوات فسوف يلقون غيا) قال: هو واد فى جهنم. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: لايدخله إلا من أضاع أوقات صلاته ، وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الصلاة يوما فقال « من حافظ عليها كانت نورا له وبرهانا ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورا ولا برهانا ولا نجاة من النار ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبىّ بن خلف » . وعن الحرث عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من تهاون بصلاته فإن الله عز وجل يعاقبه بخمس عشر عقوبة : ستّ منها قبل الموت ، وثلاث عند الموت ، وثلاث فى القبر ، وثلاث عند خروجه من القبر ؛ فأما الستّ قبل الموت فأولها : أنه يرفع عنه اسم الصالحين ، والثانية ترفع عنه بركة الحياة ، والثالثة ترفع عنه بركة الرزق ، والرابعة لا يقبل منه شىء من أعمال الخير حتى يكمل صلاته ، والخامسة لا يستجاب دعاؤه ، والسادسة لا يجعل له فى دعاء الصالحين نصيبا ؛ وأما الثلاث التى عند الموت فأولها : يموت عطشانا ولو صبت فى حلقه سبعة أبحر ما روى ، والثانية أنه يموت بغتة ، والثالثة أنه أثقل بحديد الدنيا وخشبها وأحجارها على رقبته وكتفه ؛ وأما الثلاث التى فى القبر : فيضيق عليه قبره ، والثانية يظلم عليه القبر ، والثالثة يصير عيبا بالقول ؛ وأما الثلاث التى عند خروجه من القبر فأولها : يلقى الله عزّ وجل وهو عليه غضبان ، والثانية يكون حسابه شديدا ، والثالثة رجوعه من بين يدى الله عزّ وجل إلى النار إلا أن يعفو الله عنه .

(فصل) الصلاة خطرها عظيم وأمرها جسيم ، وبالصلاة أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأول ما أوحى الله بالنبوة ، ثم بالصلاة قبل كل عمل ، وقبل كل فريضة فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى (أتل ما أوحى إليك من الكتاب ، وأقم الصلاة) وقال عزّ وجل (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ، وقال جل وعلا (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ، لا نسألك رزقا نحن رزقك) وخاطب جميع المؤمنين فأمرهم بالاستعانة على طاعاته كلها ، بالصبر والصلاة ، فقال (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) وقال تعالى (وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة) فذكر الخيرات كلها جملة وهى جميع الطاعات مع اجتناب جميع المعاصى ، فأفرد الصلاة بالذكر وأوصاهم بها خاصة ، وبالصلاة أوصى النبىّ صلى الله عليه وسلم أمته عند خروجه من الدنيا فقال : الله الله الله فى الصلاة وفيما ملكت أيمانكم » فهى آخر وصيته صلى الله عليه وسلم. وجاء فى الحديث « أنها آخر وصية كل نبىّ لأمته ، وآخر عهده إليهم عند خروجه من الدنيا » فالصلاة أول فريضة فرضت عليه صلى الله عليه وسلم وعلى أمته ، وهى آخر ما أوصى به أمته وآخر ما يذهب به من الإسلام ، وأول ما يسأل العبد عنه من عمله يوم القيامة ، وهى عمود الإسلام وليس بعد ذهابها دين ولا إسلام. وجاء فى الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون منه الصلاة ، وليصلينّ أقوام لاخلاق لهم ؛ فتارك الصلاة يكفر عند إمامنا أحمد رحمه الله إذا تركها

جاحدا لوجوبها ووجب قتله لاخلاف فى مذهبه . وأما إن تركها تهاونا وكسلا مع اعتقاد وجوبها ودعى ليفعلها ، فإن لم يفعلها حتى تضايق الوقت الذى يليها فيكفر وقتل بالسيف لكفره ، وبعد أن يستتاب ثلاثة أيام كالمرتد فى الحالتين ، ويكون ماله فيأ يوضع فى بيت مال المسلمين ، ولا يصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين ، وعنه لا يجب قتله فى التهاون حتى يترك ثلاث صلوات ويتضايق وقت الرابعة ، ويقتل حدا كالزانى المحصن ؛ وحكمه حكم أموات المسلمين يرث ماله ورثته من المسلمين. وقال الإمام أبوحنيفة رحمه الله : لايقتل ولكن يحبس حتى يصلى فيتوب أو يموت فى الحبس . وقال الإمام الشافعى رحمه الله : يقتل بالسيف حدا ولا يكفر ؛ والدليل على كفره ما ذكرنا فيما تقدم من الآيات والأخبار ، ونزيد عليها بما روى عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما بين الرجل وبين الكفر والشرك إلا ترك الصلاة » . وروى عن عبد الله بن زيد عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بيننا وبينهم ترك الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » . وروى عن جعفر بن محمد عن أبيه رضى الله عنه قال « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبصر رجلا ينقر فى صلاته كما ينقر الغراب ، فقال : لو مات هذا مات على غير دين محمد صلى الله عليه وسلم وعن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا ترك الرجل صلاته متعمدا كتب اسمه على باب النار فيمن يدخلها » . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا من نام عن صلاة العتمة ولم يصلها تقول الملائكة : لا نامت عيناك ولا قرتا ، حبسك الله بين الجنة والنار كما حبستنا » .

(فصل) مروى عن الحسن البصرى رحمه الله أنه قال : كان العلماء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : خمس وأربعون خصلة مكروهة منهى عنها فى صلاة الفريضة ، وهى : التنحنح عمدا ، والتشاغل عمدا ، والتعاطس عمدا ، ورفع الرأس إلى السماء ، لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه كان يقلب بصره فى السماء ، فنزلت (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) فطأطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ، فكانوا يستحبون للرجل أن لا يجاوز ببصره مصلاه » . ومنها إلصاق الحنك بالصدر ، وفلى الثوب ، والتمطى ، وتنفس الصعداء ، وتغميض العينين ، والالتفات فى الصلاة ، لما روى عتبة بن عامر رضى الله عنه فى قوله تعالى (الذين هم على صلاتهم دائمون) قال : إذا صلوا لم يلتفتوا يمينا ولا شمالا . وقالت عائشة رضى الله عنها « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التفات الرجل فى صلاته ، فقال : إنما هى اختلاسة اختلسها الشيطان من صلاة العبد » . وقيل : جاء طلحة ، يعنى ابن مصرف إلى عبد الجبار بن وائل وهو فى القوم ، فساره ثم انصرف ، فقال عبد الجبار : أتدرون ما قال ؟ قال : رأيتك أمس التفت وأنت تصلى ، وقد جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا فتح الصلاة استقبله الله بوجهه ، فلا يصرفه حتى يكون العبد هو الذى ينصرف أو يلتفت يمينا وشمالا » وفى حديث آخر « إن العبد ما دام فى صلاته فله ثلاث خصال : البر

يتناثر عليه من عنان السماء إلى مفرق رأسه ، وملائكة يحفون من لدن قدمه إلى عنان السماء ، ومناد ينادى : لو يعلم المصلى من يناجى ما أنتقل » أى التفت وانصرف ؛ والالتفات مكروه جدا . وقد قيل : إنه يقطع الصلاة ، وفيه استخفاف بحرمة الصلاة وآدابها ؛ ومن ذلك الإقعاء فى التعود فيها ، والرد على الإمام ، وافتراش الذراعين فى السجود ، ووضع الصدر على الفخذين فى السجود ، وضم الابطين إلى الجنبين فى السجود : بل يفرق بينهما ولا يلصقهما ؛ لأنه مروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا سجد لومرّت بهيمة تحت ذراعيه لنفدت » وذلك لشدة مبالغته فى رفع مرفقيه عن ضبعيه . وفى حديث آخر « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد يجافى بين ضبعيه ، ومن ذلك تفريق الأصابع فى السجود ، بل يضمها ، ووضع اليدين دون الركبتين فى الركوع ، ووضع القدمين إحداهما على الأخرى ، وتعليقهما من الأرض ، والسدل على الإزار والسراويل ، والتخليل والتلمظ ، واسترط الطعام مقدار الحبة والحبتين ، والتلس أن يردد ويبلع ، والنفث باللسان والنفخ فى السجود ، وتسوية الحصى ، والمشى عرضا ورفع الصوت على جليسك فى التشهد ، ومعرفتك من عن يمينك ومن عن شمالك ، والإيماء ، والإشارة ، وبلع الجشاء ، أو ما يخرج من الحلق ، والاستعال ، والتمخط ، والتبزق ، والنظر فى الثياب ، ومسح التراب عن الجبهة قبل أن ينصرف وتسوية الحصى أكثر من مرة واحدة . ونفض موضع السجود ، والدعاء بعد التشهد إذا كنت إماما ، والقعود فى المحراب بعد التسليم حتى ينحرف من مكانه إلى يساره ، والعقد باليد بالأصابع فى الصلاة ، والعبث باللحية والثوب فيها ، لما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه ، وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته فقال : لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه » . ونظر الحسن رحمه الله إلى رجل يعبث بالحصى وهو يقول : اللهم زوّجنى من الحور العين ، فقال : بئس الخاطب أن تخطب وأنت تعبث ، وقال عبد الرحمن بن عبد الله عن عبد الله رضى الله عنه أنه قال « لينتهينّ أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء أولا ترجع إليهم أبصارهم » يعنى فى الصلاة . وقال الأوزاعى رحمه الله : يكون الرجلان فى الصلاة وبين أحدهما وبين الآخر كما بين السماء والأرض ، هذا مقبل على الله تعالى بقلبه ؛ وهذا لاه وساه ؛ وقد صح الخبر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « للمصلى من له من صلاته نصفها ، فذكر إلى عشرها » يعنى بذلك ما عقل منها وحضر قلبه فيها ؛ وفى حديث آخر أنه قال صلى الله عليه وسلم « لمصل أربعمائة صلاة ، ولمصلّ مائتا صلاة ، ولمصلّ مائة وخمسون صلاة ، ولمصلّ سبعون صلاة ، وصلاة بخمسين صلاة ، وصلاة بسبع وعشرين صلاة ، وصلاة بعشر صلوات ، وصلاة بصلاة واحدة ؛ فالذى يكتب له أربعمائة صلاة فهو الذى يصلى بمكة فى البيت الحرام مع الإمام فى الجماعة بعد أن لا تفوته التكبيرة الأولى ، والذى يكتب له مائتا صلاة فهو الإمام الذى يؤمّ الناس بعد أن يعرف أحكام الصلاة ، والذى يكتب له مائة وخمسون صلاة فهو المؤذن ، والذى له سبعون صلاة فهو الذى يستاك ويسبغ وضوءه ويصلى فى الجامع فى الجماعة ، والذى يكتب له خمسون

صلاة فهو الرجل الذى يصلى فى الجامع مع الإمام فى الجماعة ، ويكون قد فاتته تكبيرة الإحرام ، والذى يكتب له سبع وعشرون صلاة فهو الرجل الذى يسبغ وضوءه ويصلى فى المسجد فى الجماعة ولا تفوته تكبيرة الإحرام ، والذى يكتب له عشر صلوات فهو الرجل الذى يلحق الجماعة وقد فاتته تكبيرة الإحرام ، والذى يكتب له صلاة واحدة فهو الذى يصلى وحده فى غير جماعة ، والذى لا صلاة له هو الذى يصلى وينقر كنقر الديك ولا يتمّ ركوعها وسجودها ، وهو الذى تطوى صلاته كالثوب الخلق ويضرب بها وجه صاحبها ، ويقال له : لا حفظك الله كما لم تحفظ صلاتك » .

(فصل) وينبغى لكل مصلّ أن يقدم النية لصلاته ، ويمثل الكعبة البيت الحرام أمامه ونصب عينيه على ما تقدم بيانه فى أول الكتاب ، ويتيقن قيامه بين يدى الله تعالى ، ولا يشكّ أنه بعين الله منتصب حيث يراه لقوله تعالى (والذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين) ، ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فهو يراك » وينوى الصلاة الفريضة يعينها بالأداء والقضاء فهو أولى ، ويرفع يديه إلى فروع أذنيه أو حذو منكبيه . وقد بينا صفة ذلك فى أوّل الكتاب ، وهل يضمّ الأصابع بعضها إلى بعض أو يفرجها على روايتين : وإذا رفع يديه وكبر كأنه رفع الحجاب الذى بينه وبين الله تعالى ، فوصل فى المكان الذى لا يجوز التلفت فيه ولا التشاغل عنه ، لعلمه أنه بعين من يرى حركته ، ويعلم ما يتلجلج فى نفسه وينطوى عليه سرّه وقلبه ، فينظر موضع سجوده ، ولا يلتفت يمينا وشمالا ، ولا يرفع رأسه إلى السماء ، وإذا قال سبحانك اللهمّ وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك ، علم أنه يخاطب من هو سامع منه مقبل عليه ناظر إليه ، ولا يخفى عليه موضع شعرة ولا حركة جارحة عنه ، وكذلك قوله (إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم) يعقل ما يقول ويدرى من يخاطب بهذا الخطاب ، ولا ينسى مع ذلك الخشوع والتحفظ حذرا ، من وقوع السهو عليه فيما هو قائم له وماثل فيه ، ويأتى بإحدى عشرة تشديدة فى الفاتحة ، ويحذر اللحن الذى يغير المعنى فيها ، فإن قراءتها فريضة ، وهى ركن تبطل الصلاة بتركها ، ومع ذلك يرى كأنه واقف على الصراط ، وأن الجنة عن يمينه بصفتها ، والنار عن شماله بما فيها ، وأنه بصلاته مستنجز ما وعد الله عزّ وجل بها ، إذا صحت صلاته من ثواب الجنة ومستحصن بها من وعيد الله بعقاب النار ، كل ذلك بتيقن من قلبه ، وحضور من عقله ، ويعتقد مع ذلك أنه يصلى صلاة مودع لا يشكّ أنها تعرض على الله تعالى ، وأنه لا يصحّ له منها إلا ما يصحّ له عند الله فقط ، ثم يأتى بقراءة ما تيسر من السور الكوامل ، وهى أولى من قراءة أواخرها وأواسطها ، ويكون منصتا إلى ما يقرأ متفهما إلى ما يلفظ ويتلو ، وكذلك إن كان مأموما ينصت إلى قراءة الإمام ويفهمها ويتعظ بمواعظها وزواجرها ، ويعتقد امتثال أوامرها والانتهاء عن نواهيها هكذا إلى أن تنتهى السورة ؛ فإذا فرغ من القراءة ثبت قائما وسكت حتى يرجع إليه نفسه قبل أن يركع ، ولا يصل قراءته

بتكبيرة الركوع ، ثم يكبر ويرفع يديه إلى فروع أذنيه أو حذو منكبيه على ما بينا فى أول الكتاب ، فإذا انقضى التكبير حطّ يديه ، ثم انحط من قيامه للركوع ، ويلقم راحته ركبتيه ، ويفرق بين أصابعه ، ويعتمد على ضبعيه وساعديه ، ويسوّى ظهره ، ولا يرفع رأسه ، ولا يخفض فينكسه ، فقد جاء عن النبىّ صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا ركع لو كانت قطرة ماء على ظهره ما تحركت عن موضعها » وجاء عنه صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا ركع لو كان قدح من ماء على ظهره ما تحرّك عن موضعه » وذلك لاستواء ظهره صلى الله عليه وسلم ، ويقول : سبحان ربى العظيم ثلاثا وهو أدنى الكمال . وقال الحسن البصرى رحمه الله : التسبيح التام سبع ، والوسط من ذلك خمس ، وأدناه ثلاث تسبيحات ، ثم يرفع رأسه مسمعا فينتصب معتدلا فيطمئن مترسلا يديه ، ثم ينحطّ للسجود فيبدأ بوضع ركبتيه على الأرض ثم يديه ثم جبهته وأنفه ، ويتمكن من الأرض ويطمئن فى سجوده ، ويتوجه بكل عضو منه وجزء إلى القبلة . وجاء فى الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « أمرت بالسجود على سبعة أعظم » . وفى حديث آخر « إن العبد يسجد على سبعة أعضاء ، فأىّ عضو منها ضيعه لم يزل ذلك العضو يلعنه » ويكون فى سجوده منقبضا لا ينبسط على الأرض ، ولا يفرش ذراعيه ، بل يضع أصابع يديه على الأرض حتى يحاذى بها أذنيه أو منكبيه الموضع الذى يستحبّ رفع اليد إليه فى التكبير فى حال القيام ، ولا يضعهما حذاء رأسه ، ويضمّ أصابعه ويوجهها نحو القبلة ، ويبين العضدين عن الجنبين ، والفخذين عن الساقين ، والبطن عن الأرض على ما تقدم بيانه ، ويقول فى سجوده : سبحان ربى الأعلى ثلاثا كالركوع ، ثم يرفع رأسه مكبرا ، ويجلس على رجله اليسرى ، وينصب اليمنى ويقول : ربّ اغفرلى ثلاثا ، ناظرا إلى حجره ، ثم يسجد ثانية كذلك ، ثم يرفع رأسه مكبرا من الأرض ثم يديه ثم ركبتيه معتمدا على ركبتيه ، فينهض على صدر قدميه ، ولا يقدم إحدى رجليه فإنه مكروه . وقيل : إنه يقطع الصلاة مروىّ ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما ؛ ويفعل كذلك فى الركعة الثانية ، فإذا جلس للتشهد الأوّل جلس على رجله اليسرى ، وينصب رجله اليمنى ويوجه أصابعه نحو القبلة ، ويضع يده اليسرى على فخذه اليسرى ، ويده اليمنى على فخذه اليمنى ويشير بأصبعه التى تلى الإبهام وهى السبابة ، ويحلق الإبهام مع الوسطى ، ويقبض الخنصر والبنصر ، ويكون ناظرا إلى أصبعه من أول تشهده إلى آخره ؛ لما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا كان أحدكم فى الصلاة فجلس فلا يعبث بشىء ، فإنه يناجى ربه » ولكن يجعل يده اليسرى على فخذه اليسرى ، ويده اليمنى على فخذه اليمنى ، ثم ليكن قلبه وبصره إلى أصبعه فإنها مذبة للشيطان ، ويتشهد فيقول : « التحيات لله والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » ثم يقوم مكبرا فيقرأ الفاتحة فحسب ، ويركع ويسجد كذلك ، ثم يصلى الركعة الرابعة كذلك ، ثم يجلس للتشهد فيأتى به على ما ذكرنا ؛ فإذا بلغ عبده ورسوله قال : « اللهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، وبارك

على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد » . وعن إمامنا أحمد رواية أخرى : أنه يذكر إبراهيم ثم يذكر آله فيقول على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وهذا آخر التشهد . ويستحبّ له أن يستعيذ من أربع فيقول «اللهمّ إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المسيح الدجال ، ومن فتنة المحيا والممات » ثم يدعو فيقول : « اللهمّ إنى أسألك من الخير كله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشرّ كله ما علمت منه وما لم أعلم ؛ اللهم إنى أسألك من خير ماسألك عبادك الصالحون ، وأعوذ بك من شرّ ما استعاذك منه عبادك الصالحون ؛ اللهمّ إنى أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ؛ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد » . وإن زاد على ذلك جاز ، إلا أن يكون إماما فيطول ذلك على المأمومين ، فالمستحبّ الاقتصار حفظا لقلوبهم ، لعل أن يكون فيهم ذو الحاجة ، ثم يسلم ويدعو لنفسه ولوالديه وللمسلمين ، ويكون فى جميع ذلك متخوّفا من عاقبتها ، كيف وقد وقعت عند الله عزّ وجل الداعى إليها الآمر بها المثيب عليها والمعاقب عليها عند إساءتها ، فإذا خرج منها عرضها على العلم ، فإن شهد لها ببراءة الساحة وسلامة المنزلة حمد الله تعالى وأثنى عليه إذ جعله أهلا لذلك ، وإن وجد فيها نقصانا وخللا تاب إلى الله عزّ وجل واستغفر الله وتأهب واجتهد فى التحفظ فى التى بعدها ، وللصلاة المقبولة علامة بينة وللمردودة علامة ، فعلامة المقبولة نهيها وكفها لصاحبها عن الفواحش والمناكر ، وترغيبه فى الخير وتجديد نيته فى الصلاح والازدياد من الطاعات وفعل الخيرات ، والرغبة فى المثوبات وارتداعه عن الأسواء وكراهة المعاصى والخطيئات ، لقول الله عزّ وجل (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) وهذا الذى ذكرنا يشترك فيه الإمام والمأموم والمنفرد . فأما شرائط الصلاة وواجباتها ومسنوناتها فقد ذكرناها فى أول الكتاب ، والله الموفق للصواب .

(فصل : فيما يختص بالإمام) ولا ينبغى للرجل أن يكون إماما حتى تكون فيه هذه الخصال التى نذكرها ؛ وهى أن لا يحبّ أن يتقدم وهو يجد من يكفيه ذلك ، ولا يتقدم وهناك من هو أفضل منه ، لأنه جاء فى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أمّ القوم رجل وخلفه من هو أفضل منه لم يزالوا فى سفال » . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لأن أتقدم فتضرب عنقى ولا يقربنى ذلك من إثم خير من أن أتقدم قوما فيهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وأن يكون قارئا لكتاب الله ، فقيها فى دين الله ، بصيرا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه جاء فى الحديث « اجعلوا أمر دينكم إلى فقهائكم ، وأئمتكم قراؤكم » وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم « يؤمكم خياركم فإنهم وفودكم إلى الله عزّ وجل » وإنما خصهم صلى الله عليه وسلم بذلك لأنهم أهل الدين والفضل والعلم بالله عزّ وجل والخوف من الله تعالى ، الذى يعنون بصلاتهم وصلاة من خلفهم ، ويتقون مايلزمهم من وزر أنفسهم ووزر من خلفهم إن أساءوا فى صلاتهم ، وما أراد

صلى الله عليه وسلم بالقرّاء الحفظة للقرآن فحسب من غير أن يعملوا به ، وإنما أراد صلى الله عليه وسلم العمل بالقرآن مع حفظه ؛ وقد جاء فى الحديث « إن أحقّ الناس بهذا القرآن من كان يعمل به وإن كان لا يقرؤه » وقد يحفظ القرآن من لا يعمل به ولا يعبأ بإقامة حدوده مما فرض الله عليه من العمل به وما نهاه من النهى عنه ، فلا نعنى نحن به ولا كرامة له ؛ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « ما آمن بالقرآن من استحلّ محارمه » فلا يجوز للناس أن يقدموا عليهم فى صلاتهم إماما إلا أعلمهم بالله وأخوفهم له ، فإن خالفوا وقدّموا غيره لم يزالوا فى سفال وإدبار وانتقاص فى دينهم وبعد من الله تعالى ومن رضوانه وجنته ؛ فرحم الله قوما اعتنوا بدينهم وصلواتهم ، فقدّموا خيارهم واتبعوا فى ذلك سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وطلبوا بذلك القربة إلى ربهم تبارك وتعالى . وينبغى أن يكون الإمام حافظا للسانه من عيب الناس عليه وغيبتهم له ، إلا من الخير ، ويكون يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويجتنبه ، ويحب الخير وأهله ، ويبغض الشرّ وأهله ، عارفا بمواقيت الصلاة محافظا عليها ، مقبلا على شأنه ، عفيف البطن والفرج ، منقبض اليد عن الحرام ، قليل السعى إلا فى ابتغاء مرضاة الله عزّ وجل ، قعودا حمولا صبورا على الأذى ، يغضى عن الشرّ ويحتمل ممن يتكلم فيه ، ويصبر على من يجهل عليه ، ويحسن إلى من أساء إليه ؛ ويكون غضيض الطرف عن المحارم ؛ إن رأى عورة سترها ، وإن رأى مخزية دفنها ، يعرض عن الجاهلين ويقول : اللهمّ سلاما ؛ الناس منه فى راحة ، وهو من نفسه فى عناء ، حريصا على فكاك رقبته ، مجدًّا فى خلاص نفسه ، ويعلم أنه قد بلى بشىء عظيم جليل خطره ، كبير شأنه ؛ وليكن همه ما قد كلّف به من عظم قدر الإمامة وخطر قدرها وخيرها : قليل الكلام إلا فيما يعنيه ، له حال وللناس حال ، إذا قام فى محرابه علم أنه قائم فى مقام النبيين ؛ وخليفة سيد المرسلين ، ويناجى ربّ العالمين ؛ يتحرّى الاجتهاد لتمام الصلاة والتسليم من خلفه ، ممن تقلد إمامته ، خفيف الصلاة فى تمام ، يصلى بصلاة أضعفهم ، فيرى من نفسه أنه دونهم وأنه مبتلى بإمامتهم ، وأن الله تعالى يسأله عن أداء الفرائض عن نفسه وعنه ، وهو بتقدمه باك على خطيئته ، نادم على ما سلف من تفريطه وقديم آثامه ، وما انقضى من أوقاته ؛ لا يتكبر على من خلفه ، ولا يتخير على من هو دونه ، ولا يتعصب حمية لنفسه ، إذ قيل ما فيه وما هو عنه برىء ولا يحبّ حمدهم ولا يكره ذمهم ، فتكون الجماعة عنده فى الحالين سواء ، لم يجرّب عليه كذبة ، طيب الطعام ، نظيف اللباس ، متواضعا فى لبسه متخاشعا فى جلسته ، غير محدود فى الإسلام ، ولا ذاريبة فى الأنام ، ولا غمازا على أخيه عند السلطان ، ولا يشيع أسرار الناس : أى لا يفشيها ، ولا هو ساع إلى شرّ الناس ، ولا ذو حقد فى أخيه ، ولا خائن فى وديعته وتجارته وعاريته ، ولا يتقدم وهو خبيث المطعم والمكسب ، ولا يتقدم وهو يشتهى الإمامة ، ولا يتقدم وهو يعلم أن فيه حسدا ولا بغيا ولا حقدا ولا إحنة ولا غلا ولا دخا[1] ولا ترة ، ولا طالبا ثأرا ، ولا متنصرا لنفسه ، ولا متشفيا من غيظ ، ولا متتبعا عورة رجل مسلم ، ولا غاشا لأحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يتكلم فى فتنة ولا يسعى فيها ولا يقوّيها ، بل يعين أهل الحق على

(١) يقصد أنه يريد الارتفاع على الناس اه مصححه .

أهل الباطل بيده ولسانه وقلبه ، يقول الحق وإن كان مرا ءلا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يحب مدح الناس له ، ولا يكره ذمهم ، ولا يخص نفسه بشئ من الدعاء ، بل يعمم الدعاء له ولهم وقت ما يدعو عقيب الصلاة بهم ، فإن أفرد نفسه بذلك كان خيانة منه لهم ، ولا يؤثر بعضهم على بعض إلا أولى العلم ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « ليلينى أولو الأحلام والنهى » وكذلك الذين يلونهم وراء ظهره ، ولا يقرب الغنى ويزرى بالفقير ، ولا ينبغى له أن يتقدم بقوم وفيهم من يكره إمامته ، فإن كان فيهم من يكرهه ومن لا يكرهه نظر ، فإن كان الأكثر يكرهونه اعتزل المحراب ولا يقربه ، هذا إذا كانت كراهتهم له بعلم وحق ، وإن كانت بجهل وباطل ورعونة نفس أو عصبة لمذهب أو هوى لم يلتفت إلى كراهتهم ؛ ولا يترك الصلاة بهم إلا أن يخاف الفتنة فى القوم لأجله ، فيتنحى ويعتزل المحراب لذلك حتى يصطلحوا ويرضوا ، ولا ينبغى له أن يكون مماريا ولا حلافا ولا لعانا ، ولا يدخل فى مداخل السوء والتهم ، ولا يألف ولا يخالط من الناس إلا الصالحين ، ولا ينبغى له أن يكون إماما وهو يحب الفتنة وأهلها ، ثم المعصية وأهلها ، والرياسة وأهلها . وينبغى أن يكون صبورا على أذية الناس متوددا إليهم ، طالبا لمنفعتهم ، مجتهدا فى نصيحتهم ، لا يمارى على الإمامة ولا يقاتل عليها من كفاه مؤنتها ؛ والقد نقل عن الأكابر ممن تقدم من السلف الصالحين أنهم كرهوا الإمامة وقدموا من ليس هو مثلهم فى الشرف والديانة ابتغاء حمل المؤنة عنهم وتخفيفا ، وخيفة من تقصير يقع لهم . وينبغى للإمام إذا حضر عنده ذو سلطان أن لا يتقدم عليه فى الصلاة إلا بإذنه ، وكذلك لا يجلس إلا باذنه وإذا نزل بقرية أو محلة أو قبيلة أو حى من أحياء العرب لا يؤمهم إلا باذنهم ، وكذلك إذا اتفق مع قوم فى قافلة وسفر ومجمع الحمام لا يؤمهم إلا باذنهم . وينبغى للإمام أن لا يطيل الصلاة بل يخففها مع التمام لما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان أحدكم إماماً فليخفف ، فانه يقوم وراءه الصغير والكبير وذو الحاجة ، وإذا صلى لنفسه فليطل ماشاء » وعن أبى واقد رضى الله عنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوجز الناس صلاة على الناس ، وأدومه على نفسه » :

(فصل) وينبغى للامام أن لا يدخل فى الصلاة ولا يكبر حتى ينوى الإمامة بقلبه ، وإن تلفظ بلسانه كان أحسن ، ويلتفت يمينا وشمالا فيسوى الصفوف فيقول : استقيموا يرحمكم الله ، اعتدلوا رضى الله عنكم ؛ ويأمرهم بسد الفرج وتسوية المناكب ودنو بعضهم من بعض حتى تتماس مناكبهم ، لأن اختلاف المناكب واعوجاج الصفوف نقص فى الصلاة وحضور الشياطين وقيامهم مع الناس فى الصفوف ، جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « راصوا الصفوف وحاذوا المناكب وسدوا الخلل حتى لا يقوم بينكم مثل أولاد الحذف » يعنى مثل أولاد الغنم من الشياطين . « وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة لم يكبر حتى يلتفت يمينا وشمالا ، فيأمرهم بتسوية مناكبهم ويقول : لا تختلفوا فتختلف قلوبكم » . « ورأى صلى الله عليه وسلم يوما رجلا قد خرج صدره من الصف فقال : لتسون مناكبكم أو ليخالفن الله

تعالى بين قلوبكم» . وفيما اتفق عليه مسلم والبخارى رحمهما الله عن سالم بن أبى الجعد رحمه الله قال سمعت النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول « لتسوّن صفوفكم أو ليخالفنّ الله تعالى بين وجوهكم » . وفى حديث آخر عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سوّوا صفوفكم ، فان تسوية الصفوف من تمام الصلاة». وجاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان اذا قام مقام الإمام لايكبر حتى يأتيه رجل قد وكله باقامة الصفوف فيخبره أنهم قد استووا فيكبر حينئذ . وكذلك كان يفعل عمر ابن عبد العزيز رحمه الله . وروى أن بلالا المؤذّن رضى الله عنه كان يسوّى الصفوف ويضرب عراقيبهم بالدرة حتى يستووا . وقال بعض العلماء : إن الظاهر من هذه أنه كان يفعل ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند إقامته قبل أن يدخل فى الصلاة لأن بلالا رضى الله عنه لم يؤذّن لأحد بعد النبى صلى الله عليه وسلم إلا يوما واحدا عند مرجعه من الشام فى زمن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، بسؤاله وسؤال الصحابة رضى الله عنهم شوقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده ، فلما بلغ بلال رضى الله عنه إلى قوله : أشهد أن محمداً رسول الله ، امتنع من الأذان فلم يقدر عليه ، فسقط مغشيا عليه حبا للنبى صلى الله عليه وسلم وشوقا إليه ، واشتد عند ذلك بكاء أهل المدينة من المهاجرين والأنصار حتى خرجت العواتق من خدورهن شوقا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فثبت بذلك أن ضربه لعراقيب الناس كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وينبغى للإمام أن لايدخل طاق القبلة فيمنع من وراءه رؤيته ، بل يخرج منه قليلا . وعن إمامنا أحمد رحمه الله رواية أخرى : أنه يستحب قيامه فيه ، ولايقف مقاما أعلى من مقام المأمومين ، فان فعل ذلك قيل تبطل صلاته على وجه . وينبغى له إذا سلم من صلاته أن لايلبث فى محرابه ، وليقم وليتنحّ إلى يساره ، فليأت بتنفله ناحية من المحراب ، لما روى المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لايتطوّع الإمام فى مقامه الذى يصلى فيه بالناس المكتوبة » . وأما المأموم فجائز له ذلك ، وهو مخير إن شاء صلى فى موضعه أو يتأخر قليلا . وينبغى أن تكون له سكتتان سكتة عند افتتاح الصلاة ، وسكتة إذا فرغ من القراءة قبل أن يركع حتى يتنفس ويسكن وهج قراءته . ولايصل قراءته بتكبيرة الركوع ، لأن ذلك مروىّ عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث سمرة بن جندب رضى الله عنه . وينبغى إذا صلى إلى سترة أن يدنو منها ، ولايدع بينه وبينها فرجة بعيدة لئلايمرّ بينهما كلب أسود بهيم أو حمار أو امرأة ، فإن صلاته تنقطع بذلك عند أحمد إمامنا رحمه الله . وعنه فى المرأة والحمار رواية أخرى لابأس بهما . وينبغى له إذا ركع أن يسبح له ثلاث تسبيحات على ما ذكرنا ، ولايسرع فيها ولايبادر ، وليكن بتمام من كلامه ويتئد ويمكن ، لأنه إذا أسرع بالتسبيح لم يدركه من خلفه ، فيؤدى ذلك إلى مسابقة المأمومين فتفسد صلاتهم ، فيرجع وزرهم إليه . وكذلك ينبغى له إذا رفع رأسه من الركوع وقال : سمع الله لمن حمده ثبت قائماً معتدلا ويقول : ربنا ولك الحمد من غير عجلة فى كلامه حتى يدركه المأمومون ، وإن زاد على ذلك فقال : ملء السماء وملء الأرض وملء ما شئت من شىء بعد ، جاز

لان ذلك مروىّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وجاء عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع يقوم حتى يقال قد نسى » وكذلك يثبت فى السجود وفى جلسته بين السجدتين ليدركه من خلفه فى الركن ، ولا نظر إلى قول من يقول : إذا فعل ذلك سبقه المأموم فبطلت صلاته ، إذا تكرّر ذلك منه ، ففى ذلك فساد لأن الناس إذا رأوه يديم ذلك ويواظب عليه علموا أن التثبيت دأبه فثبتوا له ولم يبادروا ، ثم يقال للإمام : يستحبّ لك أن تخوفهم قبل الشروع فى الصلاة وتحذرهم من مسابقتك على ما نذكره فى الفصل الذى يليه ، فلا يؤدى ذلك إلى فساد بل إلى مصلحة عامة وتمام صلاة الجميع ، وقد جاء فى الحديث أن كل مصلّ راع ومسئول عن رعيته . وقيل : إن الإمام راع لمن يصلى بهم ، فعلى الإمام النصيحة لمن يصلى خلفه ، وينهاهم عن المسابقة فى الركوع والسجود ، ويحسن أدبهم إذ هو راع لهم ومسئول غدا عنهم ، ويتمّ صلاته ويحكمها ويحسنها حتى يكون له مثل أجر من يصلى خلفه ، وإلا عليه مثل أوزارهم إذا أساء وقصر .

(فصل) ويجب على المأموم أن ينوى الائتمام ، ويقف على يمين الإمام ولا يقف قدامه ولا عن يساره ، فان كانوا جماعة فالسنة أن يقفوا خلفه ، فان كبر عن يمينه وجاء آخر فانه يكبر معه ويحصل معه صفا ثم يخرجان وراء الإمام ، فان كبر الثانى أخرجهما الإمام بيده ، ولا يتقدم هو عن موضعه إلا أن يكون وراءه ضيق ، وإذا حضر الجماعة فوجد فى الصف فرجة دخل فيها ، وإن لم يجد وقف عن يمين الإمام ، ولا يجذب رجلا فيقوم معه صفا لأنه يؤدى إلى الهرج والفتنة والبغضاء والعداوة ، ولأنه يؤدى ذلك إلى بطلان صلاة المجذوب ، لأنه يصير فذّا بذلك ، وذلك يبطل الصلاة عندنا ، ولكن يجتهد فيحصل كتفيه فى الصف ، فيكبر ويحرم بالصلاة ، ثم يخرج مع واحد منهم إلى وراء الصف ، وإذا دخل المسجد والإمام فى الركوع كبر تكبيرتين : إحداهما للإحرام ، والأخرى للركوع ، فإن كبر واحدة ونواهما جاز ، وإذا دخل والإمام فى التشهد الأخير استحبّ له أن ينوى الصلاة ويكبر ويجلس مع الإمام ليدرك فضل الجماعة ، فاذا سلم الإمام بنى على تكبيرته وصلى .

(فصل) وينبغى للمأموم أيضا أن لايسبق الإمام فى التكبير ولا فى الركوع والسجود ولا فى الرفع منهما ، ويحذر ذلك جدا ، ويجتهد وسعه ويبذل طاقته أن تكون أفعاله جميعها فى الصلاة عقيب فعل إمامه ، وقد جاء فى ذلك أحاديث كثيرة عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، من ذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «أما يخاف الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأس حمار » وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الإمام يرجع قبلكم ويسجد قبلكم ويرفع قبلكم » . وعن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال « كنا خلف النبيّ صلى الله عليه وسلم فكان إذا انحطّ من قيامه لايحنى أحد منا ظهره حتى يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم جبهته على الأرض ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يثبتون خلفه قياما حتى ينحطّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ويكبر ويضع جبهته على الأرض

وهم قيام ثم يتبعونه» : وقد جاء عن الصحابة رضى الله عنهم أنهم قالوا « لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستوى قائما وإنا سُجَّدٌ بعد» . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوِّل الله رأسه رأس حمار أو رأس خنزير » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول « أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار ؟ » وروى أن ابن مسعود رضى الله عنه نظر إلى من سبق الإمام فقال : لاوحدك صليت ولابامامك اقتديت ، والذى لم يصلّ وحده ولم يقتد بامامه فذلك الذى لاصلاة له . وكذلك روى أن ابن عمر رضى الله عنهما نظر إلى من سبق الإمام فقال له : ما صليت وحدك ولاصليت مع الإمام ، ثم ضربه وأمره أن يعيد الصلاة . وعن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنما جعل الإمام ليؤتمّ به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا ركع فاركعوا ، وإذا رفع رأسه فارفعوا رءوسكم ، وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا جميعا : ربنا لك الحمد، وإذا سجد فاسجدوا ، ولا تسجدوا قبل أن يسجد، وإذا رفع رأسه فارفعوا رءوسكم ، ولا ترفعوا روسكم قبل أن يرفع وإذا صلى جالسا فصلوا أجمعين جلوسا » . وروى إمامنا أبوعبد الله أحمد رحمه الله فى رسالة له باسناده عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا صلاتنا وعلمنا مانقول فيها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم« إذا كبر الإمام فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا ، وإذا قال غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين ، يستجيب الله تعالى لكم ، وإذا كبر فكبروا ، وإذا رفع رأسه فقال : سمع الله لمن حمده ، فارفعوا رءوسكم وقولوا اللهم ربنا لك الحمد ، يسمع الله لكم ، وإذا كبر وسجد فكبروا واسجدوا ، وإذا رفع رأسه وكبر فارفعوا رءوسكم وكبروا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فتلك بتلك ، وإذا كان فى القعدة فليكن من قول أحدكم التحيات لله والصلوات والطيبات ، حتى تفرغوا من التشهد » . قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى رحمه الله وأماتنا على مذهبه أصلا وفرعا ، وحشرنا فى زمرته : قول النبى صلى الله عليه وسلم « إذا كبر فكبروا » معناه أن ينتظروا الإمام حتى يكبر ويفرغ من تكبيره وينقطع صوته ثم يكبرون بعده ؛ والناس يغلطون فى هذه الأحاديث ويجهلونها مع ما عليه عامتهم من الاستخفاف بالصلاة والاستهانة بها ، فتارة يأخذ الإمام فى التكبير فيأخذون معه فى التكبير ، وهذا خطأ لاينبغى لهم أن يأخذوا فى التكبير حتى يكبر الإمام ويفرغ من تكبيره وينقطع صوته وهكذا قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « إذا كبر الإمام فكبروا » والإمام لايكون مكبرا حتى يقول : الله أكبر ، لأن الإمام لو قال الله ثم سكت لم يكن مكبرا حتى يقول : الله أكبر فيكبر الناس بعد قوله : الله أكبر ، فأخذهم فى التكبير مع الامام خطأ ، وترك لقول النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لأنك لو قلت إذا صلى فلان كلمته كان معناه أن انتظره حتى إذا صلى وفرغ من صلاته كلمته ، وليس لك أن تكلمه وهو يصلى ، وكذلك معنى قول النبىّ صلى الله عليه وسلم« إذا كبر الإمام

فكبروا » وربما طوّل الإمام فى التكبير إذا لم يكن له فقه ، والذى يكبر معه ربما جزم التكبير ففرغ من التكبير قبل أن يفرغ الإمام ، فقد صار هذا مكبرا قبل الإمام ، ومن كبر قبل الإمام فليست له صلاة ، لأنه دخل فى الصلاة قبل الامام وكبر قبل الكلام فلا صلاة له ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم « إذا كبر وركع فكبروا واركعوا » معناه : أن ينتظروا الإمام حتى يكبر ويركع وينقطع صوته ، وهم قيام يتبعونه ؛ وقول النبىّ صلى الله عليه وسلم « فاذا رفع رأسه وقال : سمع الله لمن حمده فارفعوا رءوسكم وقولوا : اللهمّ ربنا لك الحمد » معناه أن ينتظروا الإمام ويثبتوا ركوعا حتى يرفع الإمام رأسه ويقول : سمع الله لمن حمده ، وينقطع صوته وهم ركوع ، ثم يتبعونه فيرفعون رءوسهم ويقولون : اللهمّ ربنا لك الحمد ، وقوله « فاذا اكبر وسجد فكبروا واسجدوا » معناه : أن يكونوا قياما حتى يكبر وينحط للسجود ويضع جبهته على الأرض وهم قيام ، ثم يتبعونه . وكذلك جاء عن البراء بن عازب رضى الله عنهما ، وهذا كله موافق لقول النبىّ صلى الله عليه وسلم « الإمام يركع قبلكم ويسجد قبلكم ويرفع قبلكم » وقوله « إذا كبر ورفع رأسه فارفعوا رءوسكم وكبروا » معناه أن يثبتوا سجودا حتى يرفع رأسه ويكبر ، فاذا انقطع صوته وهم سجود اتبعوه فرفعوا رءوسهم وقول النبىّ صلى الله عليه وسلم « فتلك بتلك » يعنى انتظاركم إياه قياما حتى يكبر ويركع وأنتم قيام فتتبعونه ، وانتظاركم إياه ركوعا حتى يرفع رأسه ويقول : سمع الله لمن حمده وانقطع صوته وأنتم ركوع ، فاذا قال : سمع الله لمن حمده وانقطع صوته وأنتم ركوع اتبعتموه فرفعتم رءوسكم وقلتم ربنا لك الحمد ؛ وقول النبىّ صلى الله عليه وسلم « فتلك بتلك » فى كل رفع وخفض ، وهذا إتمام الصلاة فاعقلوه وأبصروه وأحكموه . وأعلموا أن كثيرا من الناس يوم القيامة ما تكون لهم صلاة لسبق الإمام بالركوع والسجود والرفع والخفض . قد جاء فى الحديث « أنه يأتى على الناس زمان يصلون ولا يصلون » ويوشك أن يكون زماننا هذا ، فإن الغالب عليهم مسابقة الإمام وتضييع أركان الصلاة وواجباتها ومسنوناتها وتمامها .

(فصل) ويجب على من رأى من يقصر فى صلاته ويسقط أركانها وواجباتها وآدابها أن يعظه ويعلمه وينصحه ليصلح فيما بقى ويستغفر عما مضى ، فان لم يفعل كان شريكه فى ذلك وعليه وزره وإثمه . وقد جاء فى الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « ويل للعالم من الجاهل حيث لا يعلّمه » فلولا أن تعليم الجاهل واجب على العالم ولازم له وفرض عليه لما توعده صلى الله عليه وسلم بالويل فى السكوت عنه ، لأن الوعيد لا يستحقه إلا من ترك الواجب والفرض دون النفل . وجاء فى الحديث عن بلال بن سعد أنه قال : الخطيئة إذا خفيت لم تضرّ إلا صاحبها ، وإذا ظهرت فلم تغيّر ضرت العامة ، وذلك لتركهم ما لزمهم من التغيير والإنكار على من ظهرت الخطيئة منه وسكوتهم عنه ، فلما سكتوا تفاقم الأمر والوبال على الجميع ، وشارك المحسن المسىء فى إساءته إذا لم ينهه وينصحه . وقد ورد عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : من رأى من يسىء فى صلاته فلم ينهه شاركه فى وزرها وعارها ويكون موافقا

للشيطان اللعين ، لأنه يريد أن يسكت عن الكلام فى ذلك ، وأن يترك التعاون على البرّ والتقوى اللذين أوصى الله تعالى بهما فى قوله عز وجل (وتعاونوا على البرّ والتقوى) الآية. والنصيحة التى هى واجبة عليهم بعضهم لبعض ، ويريد أن يضمحلّ الدين ويذهب الاسلام ، ويأثم الخلق كلهم ، فلا ينبغى للعاقل أن يطيع الشيطان ، قال الله عز وجل : (يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) . وقال جلا وعلا (إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) . واعلم أن جميع مايوجد من النقص فى الصلاة والزكاة وجميع سائر العبادات لسكوت أهل العلم والفقه والتصبر عنهم وترك النصيحة والتعليم والتأديب ، فينشأ ذلك أولا من أهل الجهل ، ثم يعمّ أهل العلم وينسب إليهم ، ومن العجب لو رأى رجلا من يسرق حبة واحـدة أو رغيفا من إنسان يهودىّ أو مسلم لم يتمالك من نفسه حتى يصيح عليه ويزجره ويقبّح له ذلك ، وإذا رأى من يصلى ويسرق أركان الصلاة ويسقطها مع الواجب ويسابق الإمام سكت عنه ولاينطق ، فينكر عليه ويعلمه ويستهين أمره . وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « شرّ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته ، قالوا : يا رسول الله وكيف يسرق من صلاته ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لايتمّ ركوعها ولاسجودها » . وعن الحسن البصرى رحمه الله قال : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « ألا أخبركم بشرّ الناس سرقة ؟ قالوا بلى من هو يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : الذى لايتمّ ركوع الصلاة ولاسجودها » . وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه : الصلاة مكيال ، فمن وفى وفى له ؛ ومن طفف فقد علمتم ما قال الله تعالى فى المطففين . وعن عبد الله بن علىّ أو على بن شيبان رضى الله عنه ، وكان من الوفد الذين وفدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم «لاينظر الله إلى صلاة عبد لايقيم صلبه فى ركوعه وسجوده » وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال « إن رجلا دخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى ناحية المسجد فصلى ، ثم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليه ، فردّ عليه السلام وقال : ارجع فصلّ فانك لم تصل فصلى كما صلى ، ثم جاء فسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارجع فصلّ فانك لم تصل ففعل ذلك ثلاث مرات ، فقال : والذى بعثك بالحق نبيا ما أحسن غير هذا فعلمنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا قمت إلى صلاتك فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة فكبر ، ثم اقرأ ماتيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعا ، ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم اجلس حتى تطمئنّ جالساً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ، ثم اصنع ذلك فى صلاتك كلها » . وفى حديث آخر عن رفاعة بن رافع رضى الله عنه قال « بينما نحن جلوس حول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ دخل رجل فاستقبل القبلة فصلى ، فلما قضى صلاته جاء فسلم على النبىّ صلى الله عليه وسلم وعلى قومه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارجع فصلّ فانك لم تصلّ أمره بذلك مرتين أو ثلاثاً ، فقال الرجل : ما أقصر بما قدرت فلا أدرى ما عنيتَ من صلاتى ، فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : لاتتمّ صلاة

أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمر الله تعالى فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ، ويمسح رأسه ويغسل رجليه إلى الكعبين ، ثم يكبر الله تعالى ويحمده ، ثم يقرأ من القرآن ما أذن له فيه ، ثم يكبر فيضع كفيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله وتسترخى ، ثم يقول : سمع الله لمن حمده ، ويستوى قائما حتى يقيم صلبه ، ويأخذ كل عضو مأخذه ، ثم يكبر ويسجد ويمكّن وجهه حتى تطمئن مفاصله وتسترخى ، ثم يكبر ويستوى قاعدا على مقعده ويقيم صلبه ، فوصف صلاته هكذا أربع ركعات ، حتى فرغ ، ثم قال : لاتتمّ صلاة أحدكم حتى يفعل كذلك » فقد أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بإتمام الصلاة والركوع والسجود ، وأخبر أن الصلاة لاتقبل إلا هكذا وما وسعه صلى الله عليه وسلم السكوت حين رأى الرجل يصلى صلاة ناقصة ، فلو جاز تأخير البيان عن وقت الحاجة وترك الإنكار على الجاهل وتعليمه لسكت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ووكل ذلك إلى ما قد بين من قبل الصحابة رضى الله عنهم وتجاوز عنه ، فلما بالغ فى ذلك الإنكار عليه والتعليم له دلّ على وجوب ذلك ، وتنبيهه صلى الله عليه وسلم من حضره من الصحابة رضى الله عنهم أن يفعلوا كذلك إذا رأوا من يفعل فى صلاته مثل ما فعل ذلك الرجل ويعلموا أصحابهم وأصحاب أصحابهم كيفية أحكام الشرع إلى أن تقوم الساعة .

(فصل) ويجب على المؤذّن أن يصلح من لسانه مالا يلحن فى الشهادتين ، ويكون عارفا بالأوقات ، وأن لايؤذّن إلا بعد دخول الوقت إلا فى الفجر خاصة ويحتسب بأذانه وجه الله تعالى ، ولا يأخذ على أذانه جزاء ، ويستقبل القبلة بوجهه فى التكبير والشهادتين ، ويولى وجهه يمينا وشمالا فى الدعاء إلى الصلاة ، وإذا أذّن لصلاة المغرب جلس بين الأذان والإقامة جلسة خفيفة ، ويكره له أن يؤذّن وهو جنب أو محدث ، ولا ينبغى له أن يشقّ الصفوف إذا فرغ من الإقامة ليقوم فى الصفّ الأول ، ولا ينبغى له أن يقيم فى غير موضع الأذان إلا أن يشقّ عليه مثل أن يكون قد أذن فى منارة ، فإنه يقيم مواضع الصلاة ، أو حيث تيسر له .

(فصل) فرحم الله من أقبل على صلاته خاشعا خاضعا ذليلا لله عز وجل خائفاً واعياً راغباً وجلا مشفقاً ، راجياً وجعل أكثر همته فى صلاته لربه تعالى ، ومناجاته إياه وانتصابه بين يديه قائما وقاعدا وراكعاً وساجدا ، وفرّغ لذلك قلبه وثمرة فؤاده ، واجتهد فى أداء فرائضه ، فإنه لايدرى هل يصلى صلاة بعد التى هو فيها أو يعاجل عليه بوفاته قبل ذلك ، فقام بين يدى ربه عزّ وجل محزونا مشفقا يرجو قبولها ، ويخاف ردها ، إن قبلها سعد وإن ردها شقى ، فما أعظم خطرك يا أيها المؤمن المتحلى بأنوار الإسلام فى هذه الصلاة وفى غيرها من عملك ، وما أولاك من الهمّ والحزن والخوف والوجل فيها وفيما سواها ، مما افترض الله تعالى عليك أنك لا تدرى هل قبلت منك صلاة أو حسنة قط أم لا ؟ وهل غفرت لك سيئة أم لا ؟ وأنت على ذلك ضاحك فرح غافل منتفع بالعيش ، كيف وقد جاء اليقين من مخبر صادق أمين أنك وارد النار فقال جل وعلا (وإن منكم إلا واردها) ولم يأتك اليقين أنك صادر عنها ، فمن أحقّ بطول البكاء وطول الحزن منك حتى يتقبل الله منك ، ثم مع ذلك لاتدرى لعلك لاتصبح إذا أمسيت

ولا تمسى إذا أصبحت ، فمبشر بالجنة أم مبشر بالنار ؟ فحقيق أن لاتفرح بأهل ولا ولد ولا مال ، وإن العجب كل العجب من طول غفلتك وطول سهوك عن هـذا الأمر العظيم وأنت تساق سوقا حثيثا فى كل يوم وليلة ، وفى كل ساعة وطرفة عين ، فتوقّع أجلك ولاتغفل عن هذا الخطر العظيم الذى قد أظلك ، فإنك لابد ذائق الموت ولاقيه ، ولعله ينزل بساحتك فى صباحك أو مسائك أشر ما تكون عليها إقبالا ، فانك قد أخرجت من ذلك كله وسلبته فاما إلى الجنة وإما إلى نار انقطعت عنها الصفات ، وقصرت العبارات والحكايات عن بلوغ حقيقة وصفها ومعرفة قدرها وأنواع عذابها والإحاطة بغاية خبرها . قال العبد الصالح رحمه الله : عجبت للنار كيف نام هاربها ، وعجبت للجنة كيف نام طالبها ! فو الله لئن كنت خارجا من الهرب والطلب لقـد هلكت هلاكا بينا وعظم شقاؤك وطال حزنك وبكاؤك غـدا مع الأشقياء المعذبين ، ولئن زعمت أنك هارب طالب ، فلا تغرّنك الأمانى والعجب بما أنت متحلّ به ، فدونك الجدّ والاجتهاد ، واحذر النفس والشيطان ، فان مثقبهما دقيق وغائلتهما شديدة ومكايدهما خبيثة ، واحذر الدنيا لئلا تأخذك بزينتها وتخدعك بأباطيلها وكذبها وخضرتها ونضرتها وقد جاء فى الحديث عن سيد البشر « إن الدنيا تغرّ وتمرّ وتضرّ » قال الله عزّ وجل (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرّنكم بالله الغرور) فالغرور هو الشيطان الرجيم الله الله ثم الله ، احذر الهلاك والرّدى ، احفظ الصلاة وما سواها من الأوامر ، وانته عن المناهى أجمع ، وذر الإثم ما ظهر منه ومابطن ، وسلم إلى ربك جميع المقدور فيك وفى غيرك ، وانقد لربك بطاعته فيما أمرك ونهاك ولا تنفر منه بارتكابك ما نهاك عنه ، ولا تسخطه عليك باعتراضك عليه فى تدبيره فيك وترك رضاك عنه ، فيما قسم لك من الأقسام والأرزاق ، وفعل فيك من الأفعال ، ما طوى عنك مصالحها وأخفى عنك عواقبها ، وما سيظهر لك من أطيب ثمارها ومنافعها ، قال عزّ من قائل (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرلكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون) وكن أبدا طائعا لمولاك راضيا بقضائه صابرا على بلائه شاكرا لآلائه داعيا بأسمائه ، ذاكرا لأنعمه وآياته ، موافقا لفعله ومراده ، غير متهم له فى تدبيره فيك وفى خلقه ، حتى تأتيك الوفاة ، فتتوفى مع الطيبين ، وتحشر مع النبيين ، وتدخل جنات النعيم برحمة ربّ العالمين ، ومشيئة إله الأولين والآخرين .

(فصل) وأما صلاة الخاصة لإيقاظ المتيقظين الخاشعين المراقبين ، حراس القلوب جلساء الرحمن رضوان الله عليهم وسلامه ، فصفتها ما روى أن يوسف بن عصام مرّ فى جامع من جوامع خراسان فاذا هو بحلقة عظيمة ، فسأل عنها فقيل له : إنها حلقة حاتم ، وهو يتكلم فى الزهد والورع والخوف والرجاء ، فقال لأصحابه : قوموا بنا نسأله عن مسئلة من أمر الصلاة ، فان هو أجابنا عنها جلسنا إليه ، فوقف عليه وسلم عليه وقال رحمك الله لى مسألة ، قال : له حاتم سل ، قال : أسألك عن أمر الصلاة ، فقال له حاتم : تسألنى عن معرفتها أو عن أدبها ؟ قال : فصارت مسألتين ، وجب لهما جوابان ؛ فقال يوسف : أسألك عن أدبها ، فقال حاتم : هو أن تقوم بالأمر ، وتمشى

بالاحتساب ، وتدخل بالنية ، وتكبر بالتعظيم ، وتقرأ بالترتيل ، وتركع بالخشوع ، وتسجد بالتواضع ، وتتشهد بالإخلاص ، وتسلم بالرحمة ؛ فقال أصحاب يوسف : سله عن معرفتها ، فسأله ، فقال حاتم : هو أن تجعل الجنة عن يمينك ، والنار عن شمالك ، والصراط تحت قدميك والميزان تحت عينيك ، والربّ عز وجل كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فانه يراك ؛ فقال يوسف : يا شاب منذ كم تصلى هذه الصلاة ؟ قال : منذ عشرين سنة ، فقال يوسف لأصحابه : قوموا بنا نقضى حتى نعيد صلاة خمسين سنة ، ثم التفت إليه فقال له : من أين لك هذا ؟ قال : من كتبك التى كنت تمليها علينا . وحديث أبى حازم الأعرج رحمه الله يليق بهذه الجملة فنذكره ، وذلك أن أبا حازم رحمه الله قال : لقينى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا على ساحل البحر ، فقال لى : يا أبا حازم أتحسن أن تصلى ؟ قلت : وكيف لاأحسن أن أصلى وأنا بصير بالفرائض وما استنّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : يا أبا حازم ما الفرض عليك قبل قيامك إلى الصلاة ؟ فقلت : ستة ، قال : وما هى ؟ قلت : الطهارة ، والاستتار ، واختيار موضع الصلاة ، والقيام إلى الصلاة ، والنية ، والتوجه إلى القبلة ، قال لى : يا أبا حازم فبأىّ نية تخرج من بيتك إلى المسجد ؟ قلت : بنية الزيارة ، قال : فبأىّ نية تدخل المسجد ؟ قلت : بنية العبادة ، قال : فبأى نية تقوم إلى العبادة ؟ قلت : بنية العبودية مقرًا له بالعبودية ، قال : فأقبل علىّ وقال : يا أبا حازم بم تستقبل القبلة ؟ قلت : بثلاث فرائض وسنة ، قال : وما هى؟ قلت : التوجه إلى القبلة فرض ، والنية فرض ، والتكبيرة الأولى فرض ، ورفع اليدين سنة ، قال : فكم من التكبير عليك فرض وسنة ؟ قلت أصل التكبير أربع وتسعون تكبيرة ، منها خمس فرض ، والباقى كلها سنة ، قال : فبم تستفتح الصلاة؟ قلت : بالتكبير ؛ قال : فما برهانها ؟ قلت : قراءتها ؛ قال : فما جوهرها ؟ قلت : تسبيحها ؛ قال : فما إحياؤها؟ قلت : خشوعها قال : فما الخشوع ؟ قلت : النظر إلى موضع السجود ؛ قال : فما وقارها؟ قلت : السكون ؛ قال : فما تحريمها؟ قلت : التكبير ؛ قال : فما تحليلها ؟ قلت : التسليم ؛ قال : فما شعارها ؟ قلت : التسبيح عند انقضائها ؛ قال : فما مفتاح ذلك كله يا أبا حازم؟ قلت : الوضوء ؛ قال : فما مفتاح الوضوء ؟ قلت : التسمية ، قال : فما مفتاح التسمية ؟ قلت : النية ؛ قال : فما مفتاح النية ؟ قلت اليقين ؛ قال : فما مفتاح اليقين ؟ قلت : التوكل قال : فما مفتاح التوكل ؟ قلت : الخوف ؛ قال : فما مفتاح الخوف ؟ قلت : الرجاء ؛ قال : فما مفتاح الرجاء ؟ قلت : الصبر ؛ قال : فما مفتاح الصبر ؟ قلت : الرضا ؛ قال : فما مفتاح الرضا ؟ قلت : الطاعة ؛ قال : فما مفتاح الطاعة ؟ قلت : الاعتراف ؟ قال : فما مفتاح الاعتراف قلت : الاعتراف بالوحدانية والربوبية ؛ قال : فبم استفدت ذلك كله ؟ قلت : بالعلم ؛ قال : فبم استفدت العلم ؟ قلت : بالتعلم ؛ قال : فبم استفدت التعلم ؟ قلت : بالعقل ؛ قال : فبم استفدت العقل ؟ قلت : العقل عقلان ، عقل تفرّد الله بصنعه دون خلقه ، وعقل يستفيده المرء بتأديبه ومعرفته ، فإذا اجتمعا جميعا عضد كل واحد منهما صاحبه ؛ قال : فبم استفدت ذلك كله . قلت : بالتوفيق ، وفقنا الله وإياك لما يحبّ ويرضى . ثم قال : والله لقد أكملت مفاتيح الجنة ، فما

الفرض عليك ، وما فرض الفرض ، وما فرض يؤدى إلى فرض ، وما السنة الداخلة فى الفرض ، وما سنة يتمّ بها الفرض ؟ قلت : أما الفرض : فالصلاة ؛ وأما فرض الفرض : فالطهارة ؛ وفرض يؤدى إلى فرض : أخذك الماء بيمينك إلى شمالك ؛ وأما السنة الداخلة فى الفرض : فتخليلك الأصابع بالماء ، وسنة يتمّ بها الفرض فهى الختان ؛ فقال : ما أبقيت على نفسك حجة يا أبا حازم ؛ فكم فرض وسنة عليك فى أكل الطعام قلت : هل فى أكل الطعام فرض وسنة ؟ قال : نعم ، أربعة فرض ، وأربعة سنة ، وأربعة مكرمة ؛ فأما الفرض : فالتسمية ؛ والحمد ، والشكر ، ومعرفة ما أطعمك الله ؛ وأما السنة : فاتكاؤك على فخذك الأيسر ، والأكل بثلاث أصابع ، وشدّ المضغ ، ولعق الأصابع ؛ وأما المكرمة : فغسل اليدين ، وتصغير اللقم ، والأكل مما يليك ، وأن تقلّ النظر إلى جليسك ، هكذا كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

باب نشير فيه إلى صلاة الجمعة والعيدين وصلاة الاستسقاء والكسوف والخسوف والقصر والجمع وصلاة الجنازة مختصرا

(فصل) أما صلاة الجمعة فالأصل فى وجوبها قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع) وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم « إن الله فرض عليكم الجمعة فى يوم الجمعة » وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم « من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر طبع الله على قلبه » فكل من لزمته الصلوات الخمس يلزمه فرض الجمعة إذا كان مستوطنا مقيما ببلد أو قرية جامعة فيها أربعون رجلا عقلاء بلغاء أحرارا ، وإن كانت قرية ليس فيها أربعون رجلا ، وكان من حيث يسمع النداء من قرية أخرى أو مدينة بينهما فرسخ وجب عليه إتيانها ، ولا يسعه التخلف عنها إلا أن يكون له عـذر ، أو فاته يعذر فى تركها وترك الجماعات فى بقية الصلوات مثل أن يكون مريضا ، أو يكون له مال يخاف ضياعه ، أو قريب يخاف موته فى غيبته ، أو يدافعه الأخبثان البول والغائط أو أحدهما ، أو حضره الطعام وبه حاجة إليه ، أو يخاف من سلطان أن يأخذه ، أو غريم يلازمه ، ولا شىء معه يعطيه ، أو يكون مسافرا يخاف فوات القافلة ، أو يخاف ضررا فى ماله ، أو يرجو وجوده بتخلفه عن الجمعة والجماعة ، أو غلبه النعاس حتى يفوته الوقت ، أو يخاف التأذّى بالمطر والوحل والريح الشديدة ، وهى ركعتان يصليها بعد الخطبة مع الإمام ، فإن فاتته يصلى أربعا ظهرا إن شاء وحده وإن شاء بجماعة ، ووقتها قبل الزوال فى الوقت الذى تقام فيه صلاة العيد . وقال بعض أصحابنا : فى الساعة الخامسة ، ومن شرط انعقادها حضور أربعين رجلا ممن تجب عليهم الجمعة ، وفى رواية خمسين ، وفى رواية ثلاثة ويسنّ الجهر بالقراءة فيها ، وأن تكون سورة الجمعة بعد الفاتحة فى الأولى ، وسورة المنافقين فى الثانية . وهل يشترط إذن الإمام ؟ على

روايتين ، ومن شرطها الخطبتان ؛ وليس لها سنة قبلها ؛ وأما بعدها فأقلها ركعتان ، وأكثرها ستّ ركعات ، مرويّ ذلك فى حديث بعض الصحابة رضى الله عنهم ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد قال بعض العلماء بالله عزّ وجل : تستحبّ أن يصلى قبل صلاة الجمعة اثنتى عشرة ركعة وبعدها ستّ ركعات ، ويجتنب البيع والشراء بعد الأذان عند المنبر لقوله تعالى (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) وهذا هو الأذان الذى كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو واجب عندنا ، ولغيرها فرض على الكفاية . وروى عنه أنه سنة . وأما أذان المنارة فأمر به عثمان بن عفان رضى الله عنه فى زمانه لمصلحة عامة وهى إعلام الغائبين عن الأمصار والقرى فلا يبطل البيع ولا الشراء . ويستحبّ أن يصلى إذا دخل الجامع ، وكان فى الوقت سعة أربع ركعات يقرأ فيهنّ (قل هو الله أحد) مائتى مرة ، فى كل ركعة خمسين مرة ، فإنه روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال من فعل ذلك لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أويرى له ، رواه ابن عمر رضى الله عنهما ، وإذا دخل الجامع فلا يجلس حتى يصلى ركعتين قبل أن يجلس ،وقد ذكرنا فضائل الجمعة وصفة الخروج إلى الجامع وجميع ما يتعلق بذلك فيما تقدم .

(فصل) وأما صلاة العيدين ففرض على الكفاية إذا قام بها جماعة من أهل موضع سقطت عن الباقين ، فإن اتفقوا على تركها قاتلهم الإمام حتى يتوبوا ؛ وأوّل وقتها إذا ارتفعت الشمس وآخره إذا زالت ، ويستحبّ تقديمها فى عيد الأضحى لأجل الأضحية ، وتأخيرها فى عيد الفطر لعدم ذلك . ومن شرطها : الاستيطان والعدد وإذن الإمام كالجمعة ؛ وعن إمامنا أحمد رحمه الله رواية أخرى أنه لا يشترط جميع ذلك ، وهو مذهب الإمام الشافعى رحمه الله . ويستحبّ المباكرة إليها ولبس الثياب الفاخرة والتطيب كما قلنا فى فضائل الجمعة من قبل . والأولى أن تقام فى الصحراء ؛ وتكره فى الجامع إلا لعذر ، ولا بأس بحضور النساء . والأولى أن يكون فى خروجه ماشيا ، وأن يرجع فى طريق أخرى . وقد ذكرنا العلة فى ذلك فى فضائل العيدين ، وينادى لها الصلاة جامعة ، وهى ركعتان يكبر فى الأولى بعد دعاء الاستفتاح وقبل التعوّذ سبع تكبيرات ، وفى الثانية قبل القراءة خمس تكبيرات ، يرفع يديه مع كل تكبيرة ويقول : الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ، وصلوات الله على سيدنا محمد النبيّ وآله وسلم تسليما ؛ فإذا فرغ من التكبير استعاذ وقرأ الفاتحة ، وقرأ (سبح اسم ربك الأعلى) . وفى الثانية (هل أتاك حديث الغاشية) ؛ وإن قرأ فى الأولى (ق والقرآن المجيد) وفى الثانية (اقتربت الساعة وانشقّ القمر) فهى رواية منقولة عن إمامنا أحمد رحمه الله، وإن قرأ غير ذلك جاز ؛ وكذلك فى تأخير الاستفتاح إلى حين القراءة روايتان : إحداهما يستفتح عقيب تكبيرة الإحرام ؛ والأخرى يؤخر مع التعوّذ إلى حين القراءة ؛ وإذا صلى العيد لا يشتغل بالنوافل من الصلاة ؛ وكذلك لا يصلى قبلها ، بل يرجع إلى أهله ويجمع شملهم بحضوره ؛ ويحسن خلقه مع أهله ، ويجتهد فى التوسعة عليهم فى النفقة لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال «أيام العيد أيام أكل وشرب

وبعال » وهذا عام فى يومى العيدين وأيام التشريق ؛ وإن صلوها فى المسجد جاز ، فإذا دخل المسجد فلا يجلس حتى يصلى ركعتين تحية المسجد لقول النبىّ صلى الله عليه وسلم «إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يأتى بركعتين » وهذا عامّ فى يومى العيدين وغيره . وإنما نصّ إمامنا أحمد على منع التنفل إذا كان فى المصلى ، لأنه مروىّ من غير وجه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يصلّ قبل ولا بعد ، وهو قول عمر وعبد الله بن عباس وابن عمر رضى الله عنهم ؛ وصلاة النبىّ صلى الله عليه وسلم كانت فى المصلى فى الجبانة ، ولوكانت فى المسجد لما كان صلى الله عليه وسلم يترك تحية المسجد ، فإن فاته جميع صلاة العيد استحبّ له قضاؤها وهو مخير فى ذلك بين أن يصلى أربعا كصلاة الضحى بغير تكبير ، أو بتكبير كهيئتها ؛ فيجمع أهله وأصحابه كل ذلك إليه ؛ وله بذلك فضل كثير .

(فصل) وأما صلاة الاستسقاء فسنة تقام ، يخرج لها الإمام كما يخرج للعيدين ضحوة ، فهى كصلاة العيدين فى جميع صفاتها وموضعها وأحكامها . ويستحبّ له التنظف والتطهر من جميع الأحداث والأوساخ ، غير أنه لا يستحبّ التطيب ، لأنها حالة الافتقار والتذلل وطلب الحاجة ، ولهذا يستحبّ الخروج إليها بثياب البذلة مع الخشوع والتضرّع والاستكانة والانكسار والحزن ، وأن تخرج معهم الشيوخ والعجائز والصبيان وأصحاب العاهات ، وأن يخرجوا من المظالم والحقوق من الغصوب وغيرها ، ولله عز وجلّ من الزكوات والنذور والكفارات ، ويكثروا الصدقة والصيام ، ويجدّدوا التوبة ، ويعزموا على المداومة عليها إلى الممات ، ولا يبارزوا الربّ سبحانه بكبيرة من الذنوب ولا صغيرة ، ويستحيوا منه عزّ وجلّ فى الخلوات ، إذ لا خلوة منه ، فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، هو عالم بالسرّ والخفيات . وكذلك يستحبّ أن يتوسلوا بالزهاد والصالحين وأهل العلم والفضل والدين ، لما روى أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه خرج يستسقى ، فأخذ بيد العباس رضى الله عنه فاستقبل القبلة فقال : اللهم هذا عمّ نبينا جئنا نتوسل به إليك فاسقنا به . قال : فما رجعوا حتى سقوا ، لأن منع القطر وحبسه عقوبة ومقابلة عن شؤم معاصى بنى آدم . ولهذا « إذا مات الكافر وقبر وجاءه منكر ونكير وسألاه عن ربه ونبيه ودينه ولم يقدر على الجواب ، يضربانه بمرزبة فيصيح صيحة يسمعها الخلائق غير الجنّ والإنس ، فيلعنه كل شىء حتى شاة القصاب والسكين على حلقها ، فتقول : لعنه الله هذا الذى كنا نمنع القطر لأجله ، وهو قوله عزّ وجل (أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) » فإن الآدمى إذا فسد تعدّى فساده إلى كل شىء من الحيوانات وإذا صلح تعدّى صلاحه إلى كل شىء ، ففساده لمعصيته لربه ، وصلاحه لطاعته له عزّ وجل فيصلى الإمام أو نائبه بالناس ركعتين بغير أذان ولا إقامة ، يكبر فى الأولى ستا سوى تكبيرة الإحرام ، وفى الثانية خمسا سوى تكبيرة القيام من السجود ، على ما ذكرنا فى صلاة العيد ، ويذكر الله عزّ وجل بين كل تكبيرتين كذلك ؛ فإذا صلى خطب بهم ، وإن خطب قبل الصلاة جاز : وفى رواية وعنه : أنه مخير فى ذلك : ونقل عنه رحمه الله أنه لا يسنّ لها الخطبة ، وإنما

يدعو فحسب : فيفعل الإمام من ذلك ما يتيسر عليه ؛ فإذا خطب افتتحها بالتكبير كما يفعل في خطبة العيد ، ويكثر الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقرأ فى خطبته (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا) الآيات ؛ فإذا فرغ من الخطبة استقبل القبلة ، فحوّل رداءه فجعل ما كان على منكبه الأيمن على الأيسر ؛ وما على الأيسر على الأيمن ولا ينكسه ، وليفعل الناس كذلك ، ويتركونه حتى يرجعوا إلى أهلهم ، فينزعونه مع ثيابهم ، يفعلونه تفاؤلا بتحوّل القحط ؛ ولأن السنة بذلك وردت ، وهو ما روى عباد بن تميم ، عن عمه رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج بالناس يستسقى ، فصلى بهم ركعتين ، جهر بالقراءة فيهما ، وحوّل رداءه ودعا واستسقى واستقبل القبلة ثم يرفع يديه فيستقبل القبلة فيدعو بدعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم : « اللهمّ اسقنا غيثا مغيثا مريئا هنيئا مريعا غدقا مجللا ، وروى مجللا عاما طبقا سحا دائما ؛ اللهمّ اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ؛ اللهمّ سقيا رحمة لاسقيا عذاب ولا محق ولا بلاء ولا هدم ولا غرق ؛ اللهمّ إن بالبلاد والعباد والخلق من اللأواء والبلاء والجهد والضنك ما لا شكوى إلا إليك ؛ اللهمّ أنبت لنا الزرع ، وأدر لنا الضرع ، واسقنا من بركة السماء ، وأنبت لنا من بركات الأرض ؛ اللهمّ ارفع عنا الجهد والجوع والعرى ، واكشف عنا من البلاء ما لا يكشفه غيرك ؛ اللهمّ إنا نستغفرك إنك كنت غفارا ، فأرسل السماء علينا مدرارا » ويدعو مثل ذلك : اللهمّ إنك أمرتنا بدعائك ، ووعدتنا إجابتك ، فقد دعونا كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا . وقيل : إنه يستقبل القبلة فى أثناء الخطبة ويتمها مستقبل القبلة ، ثم يردفها بالدعاء : والأولى ما قلنا من أنه إذا فرغ من الخطبة استقبل القبلة ، لأن الخطبة وعظ وزجر وتخويف ، وذلك إنما يحصل إذا وجه الناس واستقبلهم ليبلغ إلى أسماعهم وقلوبهم ، وأما إذا استقبل القبلة فقد استدبرهم وقد كان بين أيديهم حين صلى بهم ؛

(فصل) وأما صلاة الكسوف ، فهى سنة مؤكدة ، ووقتها من حين الكسوف إلى حين التجلى ورد نورهما إليهما ، يعنى إذا كسفت الشمس وخسف القمر ، فمن حين يبتدىء ظهور السواد والكدر ونقصان الشعاع يدخل وقت الصلاة إلى أن يزول ذلك ، فإذا زال ، زال وقت الصلاة ؛ والسنة أن تصلى فى الجامع موضع صلاة الجمعة ، وينادى لها الصلاة جامعة ؛ فيصلى بهم الإمام ركعتين ، يحرم بالأولى ويستفتح ويستعيذ ، ويقرأ الفاتحة ، ثم يقرأ سورة البقرة ، ثم يركع فيطيل الركوع ، يكرّر فيه التسبيح بقدر مائة آية ، ثم يرفع رأسه قائلا : سمع الله لمن حمده ، ثم يقرأ الفاتحة وآل عمران ، ثم يركع دون الركوع الأول ، ثم يرفع رأسه كذلك ثم يسجد سجدتين طويلتين يسبح فى كل واحدة بقدر مائة آية ، ثم يقوم إلى الثانية فيقرأ الفاتحة ، ويقرأ سورة النساء ، ثم يركع فيطيل ، ثم يرفع ويقرأ الفاتحة والمائدة ، وإن لم يحسن هذه السور قرأ غيرها من سور القرآن بعدد آياتها ، فإن لم يحسن إلا قل هو الله أحد قرأها على التفصيل كذلك ، فتكون قراءته فى القيام الثانى كثلثى قراءته فى القيام الأول ، وتكون قراءته فى القيام الثالث وهو إذا رفع من السجود إلى القيام كنصف قراءته فى القيام الأول ، وتكون قراءته فى القيام الأخير وهو الرابع

كثلثى القيام الثالث ، وهو الذى قبله ؛ وأما التسبيح فهو كثلثى قراءته فى كل قيام ، ويركع بعده من غير خلف ، ثم يسلم . فتكون أربع ركعات وأربع سجدات، ويزيد فى كل ركعة ركوعا واحدا ، وإن انجلى والناس فى الصلاة استحبّ تخفيفها ولا يقطعونها ، ومن أراد أن يصليها وحده فى بيته أو مع أهله جاز . والأولى ما ذكرنا ، والأصل فى صلاة الكسوف على ما بينا ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت « كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى النبى صلى الله عليه وسلم المصلى ، فكبر وكبر الناس ، ثم قرأ فجهر بالقراءة ، وأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع ، ثم رفع رأسه فقال : سمع الله لمن حمده ، فقرأ وأطال القراءة ، ثم ركع فأطال الركوع ، ثم رفع رأسه ، ثم سجد ، ثم رفع رأسه ، ثم سجد ، ثم قام ؛ ففعل فى الثانية مثل ذلك ؛ ثم قال صلى الله عليه وسلم : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ؛ فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة » .

(فصل) وأما صلاة الخوف فجائز فعلها بشرائط أربع : أحدها : أن يكون العدوّ مباح القتال . والثانى : أن يكون فى غير جهة القبلة . والثالث : أن لا يؤمن هجومه . والرابع : أن يكون فى القوم كثرة يمكن تفرقتهم طائفتين ، فيحصل فى كل طائفة ثلاثة فصاعدا ، فتجعل إحدى الطائفتين بإزاء العدوّ ، والأخرى خلفه ، فيصلى بها ركعة فإذا قام إلى الثانية فارقته الطائفة وصلت الركعة لأنفسها ناوية للمفارقة ، لأنه لا يجوز للمأموم أن يفارق إمامه إلا بنية فتسلم وتمضى إلى وجه العدوّ ، فتأتى الطائفة الأخرى فتحرم بالصلاة خلف الإمام فتصلى معه الركعة ، ويجلس الإمام وتقوم هى فتصلى الركعة الأولى ، وتجلس وتتشهد ويسلم بهم الإمام ، غير أنه يطيل القراءة فى الركعة الثانية بقدر ما تمّ الطائفة الأولى الركعة الثانية وتمضى إلى أصحابها ، وتأتى الطائفة الأخرى فتحرم معه ، ويطيل التشهد فى حق الطائفة الثانية حتى تتمّ الركعة التى عليها وتدركه فى التشهد ، فيسلم بها ، وتحصل له فضيلة السلام مع الإمام وللأولى فضيلة التحريم مع الإمام ، هكذا صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين فى غزوة ذات الرقاع ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم فى حديث سهل بن أبى خزيمة رضى الله عنه « يقوم الإمام وصفّ خلفه ، وصفّ بين يدى العدوّ ، فيصلى بالذين خلفه ركعة وسجدتين ، ثم يقوم قائما حتى يصلوا لأنفسهم ركعة ، ثم تتقدم أخرى أولئك مكان هؤلاء ، ثم يجىء أولئك فيقومون مقام هؤلاء ، فيصلى بهم ركعة وسجدتين ، ثم يقعد حتى يقضوا ركعة أخرى ، ثم يسلم بهم » . وقد روى عن إمامنا رحمه الله ما يدلّ على جواز تأخير الصلاة فى حالة التحام القتال والمطاردة إلى حين زوالها ووضع الحرب أوزارها ؛ فهذا الذى ذكرناه من صفة صلاة الخوف فى صلاة الفجر . والرباعية إذا قصرت فى السفر . وأما المغرب فيصلى بالطائفة الأولى ركعتين ، وبالثانية ركعة ، ولا ينقص منها شىء لأنها لا تقصر ، فإذا جلس فى التشهد الأول فهل تفارقه الطائفة أو حين يقوم إلى الثالثة ؟ على وجهين ، وإن خاف بالحضر صلى بكل طائفة ركعتين ، وتقضى لأنفسها ركعتين ، وإن فرقهم أربع فرق لم تصحّ صلاته وصلاة الفرقة الثالثة والرابعة ، وهل تبطل صلاة الأولى

والثانية ؟ على وجهين ، هذا الذى ذكرناه إذا كان العدوّ وراء القبلة أو عن يمينهم وشمالها وأما إذا كان فى جهة القبلة فيرى بعضهم بعضا ، ولا يتوهم هناك كمين لهم ، جاز أن يصلى بهم صلاة الخوف ، فيجعلهم صفين أو ثلاثة على قدر كثرتهم وقلتهم ، ويحرم بهم أجمعين : فيصلى الركعة الأولى ، فإذا أراد السجود سجد الجميع إلا الصفّ الأول الذى يليه ، فإنه يقف فيحرسهم حتى يقوموا إلى الركعة الثانية ثم يسجد فيلحقهم قياما ، فإذا سجد الإمام فى الركعة الثانية وقف الصف الأول الذى سجد معه فى الركعة الأولى ، فيحرسهم إلى أن يجلس الإمام فى التشهد ، ثم يلحقه فى التشهد فيتبعه ، فيسلم بالجميع . هكذا روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه صلاها بعسفان ؛ وإن تأخر فى الركعة الثانية الصفّ الأول وتقدم الصفّ الثانى إلى مكان الأول فيحرس جاز ، وإن اشتدّ الخوف والتحم القتال صلوا جماعة وفرادى على أىّ حال أمكنهم رجالا ، وركبانا ، مستقبلى القبلة ومستدبريها ، إيماء وغير إيماء . وهل عليهم افتتاح الصلاة متوجهين إلى القبلة أم لا ؟ على روايتين ، فإن حصل الأمن وانكسر العدوّ بنوا على صلاتهم ونزلوا عن ظهور دوابهم متوجهين ، وإن شرعوا فى الصلاة مطمئنين ثم اشتدّ الخوف ركبوا وأتموا صلاة خوف ، وإن احتاجوا إلى الضرب والطعن والكرّ والفر ، وتجوز هذه الصلاة لكل خائف من عدوّ ، كالسبع والسيل وقطاع الطريق وغير ذلك ، وكذلك إذا كان طالبا للعدوّ ويخاف فوته عند هزيمته يصليها على إحدى الروايتين .

(فصل) وأما قصر الصلاة فجائز إذا جاوز بيوت قريته أو خيام قومه ؛ فيقصر الرباعية فيصليها ركعتين إذا كان سفره طويلا ، وهو ستة عشر فرسخا أربعة برد ، وهى ثمانية وأربعون ميلا بالهاشمى ، والبريد الواحد أربعة فراسخ ، فيقصر مارا وجائيا ، فإن دخل بلدة أو قرية فنوى الإقامة فيها اثنتين وعشرين صلاة أتم ، وكان حكمه حكم المقيم ، وإن نوى إحدى وعشرين صلاة فعلى روايتين ، ودون ذلك قصر ؛ وإن نزل بلدة ولم يدر متى يرتحل ولا نية له بل قال اليوم أخرج وغدا أخرج قصر بها ، لما روى « أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أقام بمكة ثمانية عشر يوما ، وقيل : خمسة عشر يوما يقصر » . وفى حديث عمران بن الحصين رضى الله عنهما : « شهدت الفتح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان لا يصلى إلا ركعتين ، ثم يقول لأهل البلد : صلوا أربعا فانا قوم سفر » وأقام صلى الله عليه وسلم بتبوك عشرين يوما يقصر ، وكذلك الصحابة رضى الله عنهم قال أنس بن مالك رضى الله عنه : كان أقام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم برامهرمز سبعة أشهر يقصرون الصلاة . وروى أن ابن عمر رضى الله عنهما أقام بأذربيجان ستة أشهر يصلى ركعتين ؛ وإن أحرم بالصلاة وهو مقيم ثم صار مسافرا بأن كان بمركب إلى جنب بلده فى حدودها داخلا من حيطانها وسورها ، ثم دفع الملاح المركب فخرج من حدودها لزمه الإتمام ؛ وكذلك لو أحرم فى السفر ثم أقام ببلد أو ائتمّ بمقيم أو بمن يشكّ هل هو مقيم أو مسافر ، ولم ينو القصر عند شروعه فيها لزمه الإتمام فى جميع ذلك . ولا يجوز القصر إذا كان قاضيا للصلاة لأنها قد ثبتت فى ذمته كاملة ، ولا يؤثر السفر إلا فى الأداء خاصة ؛ وإذا أحرم بنية القصر ثم

نوى الاقامة أتم ؛ وكذلك إن أحرم وهو مقيم ثم نوى السفر أتم ؛ وكذلك إن كان سفره معصية أو لعبا ونزهة لا يستبيح رخص السفر ، ولا يستبيح ذلك إلا إذا سافر لواجب كالحج والجهاد ، أو مباح كتجارة أو طلب غريم وماشاكله ؛ وإذا أبحناه للعاصى بسفره فقد أعناه على معصية ربه وبقائه عليها وعدم صلاحه بطاعته ، فلانقويه على ذلك ولانعينه ، بل نمنعه ونكسره والقصر عند إمامنا أحمد رحمه الله أفضل من الاتمام ، وله الإتمام والقصر كماله الصيام والفطر وترك التجلد على الله عز وجل فى جميع ذلك واتباع رخصه ورفقه أولى ، ولو لم يكن فى إتمامه للصلاة وصيامه فى السفر غير رؤيته للنفس وعجبه ومباهاته وتعظيمه ذلك وفى قصره وإفطاره من ذل النفس وانكسارها وخضوعها لترك تمام العبادة والعزيمة ، لكان بالحرى أن يقال : إن القصر والفطر أولى ، كيف وقد قال صلى الله عليه وسلم لما قيل له فى قصر الصلاة : « مالنا نقصر وقد أمنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : تلك صدقة تصدق الله بها على عباده فاقبلوا صدقته » . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه » فالعجب كل العجب ممن يتم الصلاة فى السفر ويصوم فيه ، ويترك الرخص ، وهو يرتكب الكبائر من أكل الحرام وشرب المسكر ولبس الحرير والزنا واللواطة ، واعتقاد السوء فى الأصول وغير ذلك من العظائم .

(فصل) وأما الجمع بين الصلاتين فجائز بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء فى السفر ، بشرط أن يكون السفر طويلا ، وهو ستة عشر فرسخا على ما بينا ، ولا يجوز ذلك فى القصير ، وهو ما دون ذلك ، وهو مخير بين تأخير الأولى إلى تقديم الثانية ، وبين تقديم الثانية إلى وقت الأولى ، والاستحباب فى التأخير وهو أن يؤخر من الأولى ويقدم الثانية ، فيصليها فى أول وقت الثانية ، فإن صلاهما فى وقت الأولى قدم الأولى منهما ثم الثانية ، ونوى الجمع عند الإحرام بالأولى ، ولا يفرق بينهما إلا بقدر الإقامة والوضوء إن انتقض وضوءه ، وإن صلى بينهما سنة الصلاة بطل الجمع فى إحدى الروايتين ، والأخرى لايبطل ؛ والأولى أن يؤخر السنة إلى بعد الفراغ من الفرض ، ولا يفصلها بشىء وإن جمع فى وقت الثانية فنيته فى وقت الأولى تجزيه ، ولا يفتقر إلى تجديد النية عند فعلهما ، لأنه ما أخر الأولى إلا ليجمع بينها وبين الثانية ولافرق بين أن ينوى ذلك فى أول وقت الأولى ، أو إذا بقى منه مقدار فعلها ؛ فإن خرج وقت الأولى من غير نية الجمع لم يجز الجمع بينهما ، وإذا جمع فى وقت الثانية فقدم الأولى ثم الثانية ، كما لو صلاهما فى وقت الأولى ، وهل يشترط أن لايفرق بينهما بسنة وغيرها على وجهين ؛ ومن أصحابنا من قال إن الجمع والقصر لايفتقران إلى نية ، وهو أبو بكر رحمه الله . وأما الجمع لأجل المطر فيجوز بين المغرب والعشاء وهل يجوز بين الظهر والعصر على وجهين ، وكذلك الحكم فى الرحل المجرد من غير مطر أو ريح شديدة باردة ، هل يجوز الجمع لأجله ؟ على وجهين : فاذا جمع نظرنا ، فان كان ذلك فى وقت الأولى لأجل المطر اعتبر أن يكون المطر موجودا عند افتتاح الأولى ، وعند الفراغ منها وافتتاح الثانية ، وإن كان ذلك فى وقت الثانية جاز ، سواء كان المطر قائما أو قد انقطع لأنه قد أخر

الأولى، بسبب العذر، فلا يؤثر زواله، لأن أول الوقت قد فات وانقضى فلا يمكن تلافيه وإدراكه، وإنما جوّزنا له الجمع لأجل المشقة اللاحقة بالناس من بلّ الثياب والحذاء والآنية، فيشقّ على الناس الدخول والخروج، وقد قال صلى الله عليه وسلم «إذا ابتلت النعال فالصلاة فى الرحال» مرويّ ذلك فى الصحيحين: وكذلك عندنا حكم المريض حكم المسافر فى الجمع، لأن الله تعالى جمع بينهما وذكرهما فى كلام واحد، فقال عز وجل (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدّة من أيام أخر). فالعدة فى التخفيف: العجز والمشقة، وذلك فى المريض آكد وأظهر وبه أحق لأن المسافر قد يكون مرفها مدللا محمولا متفرجا قويا نشيطا فى سفره أكثر مما كان فى الحضر لغناه وسلطنته وقدرته، ومع ذلك تستباح له الرخص، والمريض بخلافه، فكان أولى بالرخص من المسافر.

(فصل) وأما الصلاة على الجنازة، فهى فرض على الكفاية، وأولى الناس بها عندنا وصيه ثم السلطان، ثم الأقرب فالأقرب من عصباته، فيقف الإمام حذاء صدر الرجل ووسط المرأة؛ وإن كانوا جماعة سوّى بين رءوسهم، وإن كانوا أنواعا قدّم أفضلهم مما يلى الإمام، مثل أن يكونوا رجالا ونساء وعبيدا وخناثى وصبيانا، قدمّ الرجال ثم العبيد ثم الصبيان ثم الخناثى ثم النساء، وروى عنه تقديم الصبيان على العبيد، ثم ينظر فى الأنواع فيقدّم مما يلى الإمام من كل نوع أفضلهم فى العلم والقرآن والدين والورع. وقيل: إذا اجتمع رجل وامرأة جعل وسط المرأة حذاء صدر الرجل، وإذا وقف الإمام التفت يمينا وشمالا وسوّى الصفوف كفعله فى بقية الصلوات، واستغفر الله تعالى وتاب من ذنوبه وذكر مصرعه والدار الآخرة، ويتحقق أنه كأس لابد من شربه، وأنه سيدنو إليه ولا يفوته، فليحضّر قلبه وليخشّع جوارحه ليكون أسرع لإجابة دعائه، ثم يصلى على الميت، فصفتها أن يقول: أصلى على هذا الميت فرضا على الكفاية، ولا يحتاج أن يذكر ذكرا أو أنثى، فيكبر أربع تكبيرات يقرأ فى الأولى الفاتحة، لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقرأ بفاتحة الكتاب على الجنازة» ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم فى الثانية كما يصلى فى التشهد، لما روى مجاهد رحمه الله قال: سألت ثمانية عشر رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على الجنازة، فكلهم يقول: كبر ثم اقرأ فاتحة الكتاب ثم كبر، ثم صل على النبى صلى الله عليه وسلم، ثم كبر، وادع للميت فى الثالثة بما تحسنه وتيسر عليك من أنواع الدعاء ولنفسك ولوالديك وللمسلمين، غير أن المستحبّ أن يقول: اللهمّ اغفر لحينا وميتنا وشاهدنا وغائبنا وصغيرنا وكبيرنا وذكرنا وأنثانا؛ اللهمّ من أحييته منا فأحيه على الاسلام والسنة، ومن توفيته منا فتوفه عليهما، إنك تعلم منقلبنا ومثوانا وأنت على كل شىء قدير؛ اللهمّ إنه عبدك وابن عبدك، نزل بك وأنت خير منزول به ولا نعلم إلا خيرا. اللهمّ إن كان محسنا فجازه بإحسانه، وإن كان مسيئا فتجاوز عنه؛ اللهمّ إنا جئناك شفعاء له فشفعنا فيه، وقه من فتنة القبر وعذاب النار، واعف عنه وأكرم مثواه، وأبدله دارا خيرا من داره، وجوارا خيرا من جواره، وافعل ذلك بنا

وبجميع المسلمين ؛ اللهمّ لاتحرمنا أجره ، ولاتفتنا بعده . ويقول فى الرابعة : (اللهمّ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار) . ومن أصحابنا من قال : يقف قليلا ولا يقول شيئا ، ويسلم تسليمة واحدة عن يمينه ، وإن سلم تسليمتين جاز ، وهو مذهب الإمام الشافعى رحمه الله ، والتسليمة الواحدة الاختيار عند إمامنا أحمد رحمه الله . قال رضى الله عنه : يروى عن ستة من الصحابة رضى الله عنهم أنهم سلموا على الجنازة تسليمة واحدة منهم علىّ بن أبى طالب ، وعبد الله بن عباس ، وابن عمر ، وابن أبى أوفى ، وأبو هريرة ووائلة بن الأسقع رضى الله عنهم . وروى أيضا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم « أنه صلى على جنازة فسلم عن يمينه » وإن أراد غير هذا الدعاء دعا وقال : الحمد لله الذى أمات وأحيا ، والحمد لله الذى يحيى الموتى له العظمة والكبرياء والملك والقدرة والثناء ، وهو على كل شىء قدير ؛ اللهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت ورحمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ؛ اللهمّ إنه عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، أنت خلقته ورزقته ، وأنت أمته وأنت تحييه ، وأنت تعلم بسره ، جئناك شفعاء له فشفعنا فيه ؛ اللهمّ إنا نستجير بحبل جوارك له ، إنك ذو وفاء وذمة اللهمّ قه من فتنة القبر ومن عذاب جهنم ؛ اللهمّ اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه ، وأكرم مثواه ووسع مدخله ، واغسله بماء الثلج والبرد ، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأنزل له دارا خيرا من داره ، وزوجا خيرا من زوجه ، وأهلا خيرا من أهله ، وأدخله الجنة ونجه من النار ؛ اللهمّ إن كان محسنا فزد فى إحسانه وجازه بإحسانه ، وإن كان مسيئا فتجاوز عنه ؛ اللهمّ إنه قد نزل بك وأنت خير منزول به ، وهو فقير إلى رحمتك وأنت غنىّ عن عذابه ؛ اللهمّ ثبت عند مسئلته منطقه ، ولاتبتله فى قبره بما لاطاقة به ؛ اللهمّ لاتحرمنا أجره ، ولاتفتنا بعده . وإن كانت امرأة قال : اللهمّ إنها أمتك وابنة عبدك وأمتك ، ثم يتم الدعاء . وأحق الناس عند إمامنا أحمد رحمه الله بالصلاة عليه ، من أوصى أن يصلى عليه ، ثم الوالى ، ثم أقرب العصبة الأب ، وإن علا ، ثم الابن وإن سفل ، ثم أقرب العصبة الأخ وابن الأخ والعم وابن العم ؛ وهل يقدمّ الزوج على الولد ؟ على روايتين . وقد أوصت الصحابة رضى الله عنهم بالصلاة عليهم ، فروى أن أبابكر رضى الله عنه وصى أن يصلى عليه عمر ، وعمر رضى الله عنه وصى أن يصلى عليه صهيب رضى الله عنه ، وكان ابنه عبد الله رضى الله عنه موجودا ، وأوصى شريح أن يصلى عليه زيد بن أرقم ، وأوصى ميسرة أن يصلى عليه شريح ، ووصت عائشة رضى الله عنها إلى أبى هريرة رضى الله عنه ، ووصت أم سلمة رضى الله عنها أن يصلى عليها سعيد بن جبير . وأما دعاء الطفل فيقول : اللهمّ إنه عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، أنت خلقته ورزقته ، وأنت أمته وأنت تحييه ؛ اللهمّ اجعله لوالديه سلفا وذخرا وفرطا وأجرا ، وثقل به موازينهما وعظم به أجورهما ، ولاتحرمنا وإياهما أجره ، ولاتفتنا وإياهما بعده ؛ اللهمّ ألحقه بصالح سلف المؤمنين فى كفالة إبراهيم ، وأبدله دارا خيرا من داره ، وأهلا خيرا من أهله ، وعافه من عذاب جهنم ؛ اللهمّ اغفر لأفراطنا وأسلافنا ومن سبقنا بالإيمان ؛ اللهمّ من أحييته منا فأحيه على الإسلام ، ومن

توفيته منا فتوفه على الإيمان ، واغفر للمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات . وإنما يصلى على السقط ويغسل إذا كان قد تبين فيه شكل الإنسان ، وأما إذا كان قطعة لحم لم يتبين فيه شئ من الخلقة فلا يغسل ولايصلى عليه ، بل يدفن ؛ والذى يشرع فيه الغسل من ذلك لافرق بين أن يغسله رجل أو امرأة ، لما روى أن إبراهيم بن النبىّ صلى الله عليه وسلم توفى وهو ابن ثمانية عشر شهرا فغسلته النساء .

(فصول فيما يفعل بمن حضره الموت وكيفية غسله وتكفينه وتحنيطه ودفنه) .

(فصل) يستحبّ لكل مؤمن موقن بالموت عاقل أن يكثر ذكر الموت ويستعد له ، ويكون على أهبة وترقب بتجديد التوبة كل ساعة ، ومحاسبة نفسه والخروج من المظالم والديون ، وكتب وصية معدة ، ولايكون غافلا عن هذا الأمر المتيقن العام الشامل فى حقّ جميع الأنام ، الذى لابد من مجيئه وهجومه وقدومه ، وهو كأس لابد من شربه . وإنما قلنا يستحبّ له ذلك لماروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « أكثروا من ذكر هازم اللذات » . وفى لفظ آخر « أكثروا ذكر الموت فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدره عليكم ؛ وإن ذكرتموه فى ضيق وسعه عليكم » . وقال صلى الله عليه وسلم « أتدرون أىّ الناس أكيس وأحزم ؟ أكيسهم أكثرهم ذكرا للموت ، وأحزمهم أكثرهم استعدادا له ، قالوا : يارسول الله وما علامة ذلك ؟ قال : التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » . وقال لقمان عليه السلام لابنه : يا بنى لاتؤخر التوبة إلى غد ، فإن الموت يأتيك بغتة . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « ما حقّ امرىء له مال أن يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده » . وجاء فى الحديث « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا » وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . فليجتهد العاقل المؤمن فى خلاص نفسه من الحقوق اللازمة الواجبة عليه قبل الموت من الذنوب والمظالم والديون ، فان لم يفعل فليقطع وليتيقن أنه سيكون مرتهنا بها ومؤاخذا ومعاقبا غدا فى قبره حين تنقطع القوى وتبطل الحيل والحواس ويهجره الأهل والجيران ، ويتظافر على ماله الأعداء والخلان من الرجال والنساء والولدان ، فلا ينجيه من تبعتها إلا الأداء فى الدنياء والاستحلال والتوبة والإذعان أو تغمد الرحيم ، برأفته ورحمته إذ هو أرحم الراحمين ، فيعوض أصحابها بما يشاء فى دار الخلود والجنان . وروى عن سمرة بن جندب رضى الله عنه أنه قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى على جنازة ، فلما انصرف قال : هل هاهنا من آل فلان أحد ؟ فقال رجل : أنا فقال له عليه الصلاة والسلام : إن فلانا مأسور بدينه ، قال : فلقد رأيت أهله ومن يتحرقّ عليه قاموا يقضون عنه حتى ما بقى أحد يطلبه بشئ » . وفى لفظ آخر قال : « إن فلانا محبوس بباب الجنة بدين عليه » . وعن على رضى الله عنه أنه قال « مات رجل من أهل الصفة فقيل : يا رسول الله ترك دينارا ودرهما ، فقال صلى الله عليه وسلم : كيتان من نار ، صلوا على صاحبكم وكان دينا عليه » . وفى حديث آخر « شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة رجل من الأنصار فقال : أعليه

دين ؟ قيل : نعم ، قالوا فرجع ، فقال علىّ رضى الله عنه : أنا ضامن ما عليه ، فرجع فصلى عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا علىّ فك الله رقبتك كما فككت عن أخيك المسلم ، ما من رجل يفك عن رجل دينه إلا فكه الله به يوم القيامة » . وقال صلى الله عليه وسلم « لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يؤخذ للشاة الجماء من الشاة القرناء » . وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والظلم فإنه ظلمات يوم القيامة ، وإياكم والفحش فإن الله لا يحبّ الفحش ، وإياكم والشحّ فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، ثم أمرهم بالظلم فظلموا » .

(فصل) فإذا مرض المؤمن استحبت عيادته ، فإذا عاده أخوه المسلم نظر فى حاله فإن رجا خلاصه من مرض دعا له وانصرف ، وإن خاف موته رغبه فى التوبة من الذنوب والوصية بثلث ماله لمن لم يرثه من الأقارب الفقراء منهم ، فإن كانوا أغنياء فللفقراء والمساكين وأهل العلم والفضل والدين والمنقطعين عن الأسباب الذين قطعهم عنها القدر ، وضيق الورع عليهم التحرّك فيها ، فانقلبت الأسباب عندهم ربابا ، فتركوها ونزهوا الربّ سبحانه عن أن يكون له شريك يرجعون إليه فى الرزق ، فصار مالهم الثقة بالحق عزّ وجل ، واليأس مما فى أيدى الناس ، فسلم توحيدهم واشتاقت أقسامهم إليه صفوا عفوا من غير تبعة فى الدنيا ولا عقوبة فى الأخرى ، فياطوبى لمن أنالهم بنوال ، أو حذاهم بحذاء ، أو واصلهم بفضل ، أو خدمهم يوما من الأيام ، أو أمّن على دعائهم ساعة من الساعات ، أو أحسن القول فيهم حالة من الأحوال ، طوبى له طوبى له ، وذلك لأنهم أهل الله وخاصته ، فهل يدخل على الملك إلا بخاصته ، وهل يجزى من السلطان إلا بطريق حواشيه وخدمه من صادق الحواشي والخدم وأحسن إليهم ، وخدمهم يوشك أن يوقفوه على الملك الأعظم ، ثم كل منهم يذكر ما عنده من خير خصاله ومآثره ، ثم ينعم الملك عليه بما جاء من نعمه وفضائله ؛ فإذا ظهرت أمارة الموت استحبّ لأهله أن يلزموه أرفقهم به وأعرفهم بأخلاقه وسياسته ، وأتقاهم لربه ، ليذكره بالله عزّ وجل ، ويحثه على ما ذكرنا من طاعته ، ويتعاهد بلّ حلقه بأن يقطر فيه ماء أو شرابا ، ويندى شفتيه بقطنة ، ويلقنه قول لا إله إلا الله مرّة ، ولا يزيد على ثلاث لئلا يضجر ويسأم ، فتخرج روحه وهو مستكره لذلك ، فإنه لقنه ثم تكلم بشىء غيره ، أعاد تلقينه ليكون آخر كلامه : لا إله إلا الله . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » ويكون تلقينه بلطف ومداراة . وينبغى أن يقرأ عنده سورة يس لتكون عونا على خروج روحه وتسهله عليه . فإذا خرجت روحه وجهه إلى القبلة على ظهره طولا ، بحيث إذا أقعد كان وجهه إليها ، ثم يبادر فيغمض عينيه لما روى شدّاد بن أوس رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا حضرتم موتاكم فأغمضوهم ، فإن البصر يتبع الروح وقولوا خيرا ، فإنه يؤمن على ما قال أهل البيت ثم يشدّ لحييه » وصفته ما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لابنه عبد الله رضى الله عنه حين حضرته الوفاة : ادن منى ، فإذا رأيت روحى قد بلغت لهاتى فضع كفك اليمنى على جبهتى تحت ذقنى وأغمضنى ، ثم يلين مفاصله بأن يردّ ذراعيه حتى يلصقهما بعضديه ، ثم

يردهما ويردّ ساقيه إلى فخذيه ، وفخذيه إلى بطنه ، ثم يردهما ويخلع ثيابه ويسجيه بثوب يستر جميعه ، لأنه يصير جميعه عورة بالموت ؛ ولهذا يجب ستر جميعه بالكفن ، ويجعل على بطنه مرآة أوسيفا ، لأن الميت إذا خرجت روحه يعلو وينتفخ ، ثم يوضع على سرير غسله متوجها منحدرا نحو رجليه ، ثم يسارع إلى قضاء دينه وإبراء ذمته من الديون والوصايا حتى يلقى ربه برىء الذمة من المظالم ، مخلصا من الحقوق والجواذب .

(فصل) ثم يسارع فى غسله وتجهيزه وتكفينه ودفنه إلا أن يكون موته فجأة ، فيتوقف عن ذلك حتى يتيقن موته ، فتنفصل كفاه وتسترخى رجلاه ويسيل أنفه وتنخسف صدغاه ، ثم يسرع فى ذلك . أما صفة الغسل فيجرّد الغاسل الميت ويستره من سرّته إلى ركبتيه ، لأنه أمكن له وأعون على مبالغة غسله ، ويغضّ بصره ما أمكن لاسيما من عورته . وقيل : إن الأفضل أنه يغسله فى قميص خفيف واسع ، وإن كان ضيقا فتق رأس الدخاريص ، ثم يلين مفاصله برفق إن سهلت عليه ، وإلا فيدعها لأنه ربما آل ذلك إلى كسرها . وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم « كسر عظم الميت ككسره حيا » ثم يحنيه قليلا إلى أن يبلغ به قريبا من الجلوس ، ثم يعصر بطنه عصرا رفيقا ، ثم يلف على يده خرقة وينحيه كى لايباشر عورته بيده ، ولأن الخرقة أبلغ فى إزالة النجاسة لخشونتها ، فكذلك يستحبّ أن لايباشر بقية بدنه إلا بخرقة ، ويتابع فى صب الماء على يده ، ثم يرى بالخرقة ويأخذ غيرها نظيفة ، كذلك إلى ثلاث ، ثم يلقى الخرقة ويغسل يده ثم يوضئه وضوءه للصلاة مرتبا ، فينوى ويسمى ويدخل أصبعيه مبلولتين بالماء بين شفتيه ، فيمسح أسنانه ، وكذلك فى منخريه فينظفهما ، ويصبّ الماء على فيه وأنفه كالمضمضة والاستنشاق ، من غير أن يدخل الماء فى فيه وأنفه ، فيوضئه إلى آخر الأعضاء ؛ فإذا فرغ من ذلك غسل رأسه بماء وسدر ، ثم لحيته ، ولايسرح شعره ، ثم يصبّ عليه الماء القراح من رأسه إلى رجليه ، ويغسل شقه الأيمن ، ثم يقلبه شمالا فيغسل شقه الأيسر ، وكذلك يغسل سائر جسده بالماء والسدر فى الغسلات كلها ، ولكن ينظفه عقيب كل غسلة بالسدر وبالماء القراح ، فإن احتاج إلى أشنان لغسل وسخ وخلال لتنقية ماتحت الأظافير استعملها ، ويلفّ القطن على الخلال فيزيل ما بأنفه وصماخيه من الأذى وينظفها ، ثم يرجع فيحنيه ، ثم يعيد وضوءه ثانية على ماذكرنا ثم يغسله الأخيرة بماء فيه كافور ، ثم ينشفه بثوب . وأقلّ مايغسل الميت ثلاث مرات ، وأكثره سبع مرات ، فإذا لم ينق بثلاث زاد إلى سبع ؛ ولا يقطع إلا على وتر ، ثلاث أو خمس أوسبع وإن خرج منه شىء بعد ذلك أعيد عليه الغسل إلى سبع مرات ، فان لم يمنع ذلك خروجه حشى بالقطن وألحم به وبالطين الحرّ . وقال بعض أصحابنا : لايحشى لأن الإمام أحمد رحمه الله كرهه . وقيل : إنه إذا خرج شىء منه بعد تمام الغسل لم يعد إلى الغسل ، بل يغسل موضع النجاسة ثم يوضأ وضوءه للصلاة وكفن وحمل . والأولى أن يغسل المرّة الأولى بماء وسدر ، وبقية الغسلات بالماء القراح كغسل الجنابة ، ويكون الكافور فى الآخرة ، ثم ينشف ويكفن . وأما تكفينه فإنه يكفن فى ثلاثة أثواب ، يدرج فيها إدراجا ، وتكون لفائف بيض لايكون فيها قميص ولا مئزر

لا سراويل ولاشيء مخيط ، إلا اللفائف فتخاط لضيق عرض الثوب وصغره ، فيبسط بعضها فوق بعض بعد أن تجمر بالعود والند والكافور ، ويجعل الطيب بين كل لفافتين . وقيل : إنه يكفن فى قميص ومئزر ولفافة ، ويكون المئزر مما يلى جلده ، ولم يزر القميص عليه ، وثلاثة أثواب أفضل لما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفن فى ثلاثة أثواب بيض سحولية ، ليس فيها قميص ولاعمامة » وقد صحح الإمام أحمد رحمه الله حديث عائشة رضى الله عنها وبنى مذهبه عليه ، ثم يجعل الطيب وهو الحنوط والكافور فى قطن فيجعل منه بين أليتيه ويشد فوقه خرقة ، ويجعل باقيه من مواضع سجوده ومغابنه كالفخذين وتحت إبطيه ومنافذ وجهه وصماخيه وجبينه وركبتيه وكفيه وظاهر عينيه ، ولايدخله فى عينيه ، وإن خاف الانتقاض وخروج ما فى الباطن إلى الظاهر حشا داخل أنفه وصماخيه بالقطن والكافور ، وإن طيب جميع جسده بالكافور والصندل كان أحسن . وروى نافع أن ابن عمر رضى الله عنهما كان يتبع مغابن الميت ومرافقه بالمسك ، ثم يأتى بالميت ويطرحه على اللفائف ويثنى طرف اللفافة العليا على شقه الأيمن ثم يرد طرفها الآخر على شقه الأيسر ويدرجه فيه إدراجا ثم يفعل بالثانية والثالثة كذلك ، فيجعل ما عند رأسه مما عند رجليه ، ثم يجمع ذلك جمع طرف العمامة فيعيده على وجهه ورجليه ، إلا أن يخاف انتشارها فيعقدها ؛ ثم إذا وضع فى القبر حلها ولم يخرق الكفن . وأما المرأة فانها تكفن فى خمسة أثواب : إزار ، ودرع ، وخمار ، ولفافتين ، تدرج فيها إدراجا ، والإزار يعمها . قال بعض أصحابنا : يستحب أن يعمل لها خامسة تشد بها فخذاها ، فيكون ذلك بدل إحدى اللفافتين ، ويضفر شعرها ثلاثة قرون ، ويسدل من خلفها ويفعل بها وبالرجل كما يفعل بالعروس ، فإن تعذر فى حقها جميع ما ذكرنا ، اجتزى بثوب واحد . وأما المحرم فيغسل بماء وسدر ، ولا يقرب طيبا ولايخمر رأسه ولا رجلاه ، ولا يلبس مخيطا ، ويكفن فى ثوبيه لما روى أن ابن عباس رضى الله عنهما قال « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة ورجل واقف إذ وقع من راحلته فوقصته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اغسلوه بماء وسدر وكفنوه فى ثوبيه ولاتخمروا رأسه ، فإن الله يحشره يوم القيامة ملبيا » . وأما السقط إذا ولد لأكثر من أربعة أشهر غسل وصلى عليه ، وإن لم يتبين أذكر هو أم أنثى ، سمى اسما يصلح للذكر والأنثى ، ولافرق فى غسله بين الرجل والمرأة ، لأن النساء غسلن إبراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم وكان عمره ثمانية عشر شهرا ، مذكور ذلك فى حديث أم عطية رضى الله عنها ، ويغسل الرجل الرجل والمرأة المرأة ، فإن غسلت المرأة زوجها جاز بلا خلاف فى المذهب ؛ وهل يغسل الرجل امرأته ؟ على روايتين ، وكذلك الحكم فى أم الولد ، وقد غسل على فاطمة الزهراء رضى الله عنهما ، وكفن الرجل مقدم على الدين والوصية ، فإن لم يكن له مال فعلى من تلزمه نفقته ، فإن لم يكن فمن بيت المال ، وكذلك كفن المرأة ، ولايجب على زوجها ، والأولى أن يتولى دفنه من يتولى غسله ، ويعمق القبر قدر قامة وبسطة ، ويكون طوله ثلاثة أذرع وشبرا فى عرض ذراع وشبر كما قال النبى صلى الله عليه وسلم

لعمر بن الخطاب رضي الله عنه «كيف أنت اذا أعد لك من الأرض ثلاثة أذرع وشبر فى عرض ذراع وشبر ، ثم قام إليك أهلك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ثم حملوك حتى يغيبوك فيه ، ثم يهيلوا عليك التراب ، ثم انصرفوا عنك» الحديث . ويستحبّ أن يسلّ الميت من قبل رأسه سلا وإن عسر ذلك فمن جنب القبر أو أسهل الجهات ، وهو رواية عن الإمام أحمد رحمه الله . وأما المرأة فيتولى دفنها النساء كما يتولين غسلها ، فإن تعذر فذو أرحامها من الرجال ، فإن تعذر فالشيوخ من الأجانب . ويستحبّ أن يسجى قبرها خلاف الرجل ، لأنها عورة ، وقد مر على رضي الله عنه بقوم وقد بسطوا على رجل ثوبا ، فجذبه وقال : إنما يصنع هذا بالنساء ، فإذا حصل فى القبر مستقبل القبلة حثى عليه التراب ثلاث حثيات ، بذلك جاءت السنة ، ثم يهال عليه التراب ، ويرفع القبر من الأرض قدر شبر ويرشّ عليه الماء ويضع عليه الحصى ، وإن طين جاز وإن جصص كره ، ويسنّ تسنيم القبر دون تسطيحه ، لما روى عن الحسن رحمه الله قال : رأيت قبر النبيّ صلى الله عليه وسلم وصاحبيه مسنما ، فإذا فرغ من تقبيره سن تلقينه لما روى أبو أمامة رضي الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال «إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول : يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب ، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة ثانية ، فإنه يستوى قاعدا ، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة ، فإنه يقول : أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون ، فيقول اذكر ما خرجت عليه من دار الدنيا ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأنك رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا ، وبالقرآن إماما ، فإن منكرا ونكيرا يقولان ما يقعدنا عند هذا ، وقد لقن حجته ، فقال رجل : يا رسول الله فإن لم يعرف اسم أمه ؟ قال : فلينسبه إلى حوّاء» ، وإن شاء أن يزيدوا بالمؤمنين إخوانا وبالكعبة قبلة ، وغير ذلك من أعلام الإسلام جاز .

(فصل : فى ذكر فضائل الصلوات فى أيام الأسبوع ولياليه) أما ما جاء فى صلوات النهار ، فمن ذلك ما روى عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا خرجت من منزلك فصلّ ركعتين يمنعانك مخرج السوء ، وإذا دخلت إلى منزلك فصلّ ركعتين يمنعانك مدخل السوء» . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى صلاة الصبح «من توضأ ثم توجه إلى المسجد ثم يصلى فيه الصلاة ، كان له بكل خطوة حسنة ومحى عنه سيئة ، والحسنة بعشر أمثالها ، فإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب الله تعالى له بكل شعرة فى جسده حسنة ، وانقلب بحجة مبرورة ، فإن جلس حتى يركع كتب الله تعالى له بكل جلسة ألفى ألف حسنة ، ومن صلى العتمة فله مثل ذلك ، وانقلب بعمرة مبرورة» . وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام شطر الليل ، ومن صلى الفجر فى جماعة فكأنما صلى الليل كله» . وعن أبى صالح عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من صلاة أثقل على المنافقين من صلاة العشاء والفجر ، ولو يعلمون ما فيهما

لأتوهما ولو حبوا ، ولقد هممت أن آمر فتيانى فيأخذوا الحطب فأحرق على رجال لم يشهدوا معنا فى بيوتهم » وعن عطاء بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن وركوعهن وسجودهن صلى معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى الليل » . ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع أربعا بعد الزوال يطيلهن ويقول إن أبواب السماء تفتح فى هذه الساعة ، فأحبّ أن يرفع لى عمل فيها قيل : يا رسول الله فيهنّ سلام فاصل ، قال صلى الله عليه وسلم لا » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « رحم الله عبدا صلى أربعا قبل العصر » .

(فصل : فى ذكر صلاة يوم الأحد) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صلى يوم الأحد أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب ، وآمن الرسول مرة ، كتب الله تعالى له بعدد كل نصرانىّ ونصرانية حسنات ، وأعطاه ثواب نبىّ ، وكتب له حجة وعمرة ، وكتب له بكل ركعة ألف صلاة ، ثم أعطاه الله تعالى فى الجنة بكل حرف مدينة من مسك أذفر » . وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « وحدوا الله تعالى بكثرة الصلاة فى يوم الأحد ، فإنه واحد لا شريك له ، فمن صلى يوم الأحد بعد صلاة الظهر أربع ركعات بعد الفريضة والسنة يقرأ فى الركعة الأولى فاتحة الكتاب والم السجدة ، وفى الثانية فاتحة الكتاب وتبارك الملك ، ثم يتشهد ويسلم ، ثم يقوم فيصلى ركعتين أخريين يقرأ فيهما فاتحة الكتاب وسورة الجمعة ، ويسأل حاجته ، كان حقا على الله تعالى أن يقضى حاجته ويبرئه مما كانت النصارى عليه » .

(فصل : فى ذكر صلاة يوم الإثنين) عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وآية الكرسى مرة وقل هو الله أحد مرة والمعوذتين مرة مرة ، فإذا سلم استغفر الله عشر مرات ، وصلى على النبىّ صلى الله عليه وسلم عشر مرات ، غفر الله له ذنوبه كلها » . وعن ثابت البنانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم الاثنين اثنتى عشرة ركعة يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى مرة ، فإذا فرغ من صلاته قرأ اثنتى عشرة مرة قل هو الله أحد ، واستغفر اثنتى عشرة مرة ، ينادى به يوم القيامة أين فلان بن فلان ، ليقم فليأخذ ثوابه من الله تعالى ، فأول ما يعطى من الثواب ألف حلة ، ويتوّج ويقال له ادخل الجنة ، فيستقبله مائة ألف ملك ، مع كل ملك هدية ، ويشيعونه حتى يدور على ألف قصر من نور يتلألأ » .

(فصل : فى ذكر صلاة يوم الثلاثاء) عن يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف النهار » وفى حديث آخر « عند ارتفاع النهار ، يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرّة وآية الكرسى

مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات ، لم تكتب عليه خطيئة إلى سبعين يوما ، فإن مات إلى سبعين يوما مات شهيدا ، وغفر له ذنوب سبعين سنة » .

(فصل : فى ذكر صلاة يوم الأربعاء) عن أبى إدريس الخولانى ، عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم الأربعاء اثنتى عشرة ركعة عند ارتفاع النهار يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات والمعوذتين ثلاث مرات ، نادى به ملك عند العرش : يا عبد الله استأنف العمل فقد غفر لك ما تقدم من ذنبك ، ورفع الله عنه عذاب القبر وضيقته وظلمته ، ورفع عنه شدائد القيامة ، ورفع له من يومه عمل نبى » .

(فصل : فى ذكر صلاة يوم الخميس) عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم الخميس ما بين الظهر والعصر ركعتين يقرأ فى الركعة الأولى فاتحة الكتاب مرة وآية الكرسى مائة مرة ، وفى الثانية الفاتحة ومائة مرة قل هو الله أحد ، وبعد الفراغ يصلى على مائة مرة ، أعطاه الله تعالى ثوا ب من صام رجب وشعبان ورمضان ، وكان له من الثواب مثل حاج البيت ، وكتب له بعدد كل من آمن بالله تعالى وتوكل عليه حسنات .

(فصل : فى ذكر صلاة يوم الجمعة) عن على بن الحسين عن أبيه عن جده رضوان الله عليهم قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « يوم الجمعة كله صلاة ، ما من عبد مؤمن قام إذا طلعت الشمس وارتفعت قدر رمح أو أكثر من ذلك فتوضأ فأسبغ الوضوء ، وصلى سبحة الضحى ركعتين إيمانا واحتسابا ، كتب الله تعالى له مائتى حسنة ، ومحا عنه مائتى سيئة ، ومن صلى أربع ركعات ، رفع الله تعالى له فى الجنة أربعمائة درجة ؛ ومن صلى ثمان ركعات ، رفع الله تعالى له فى الجنان ثمانمائة درجة ، وغفر له ذنوبه كلها ؛ ومن صلى اثنتى عشرة ركعة ، كتب الله له ألفا ومائتى حسنة ، ومحا عنه ألفا ومائتى سيئة ، ورفع له فى الجنة ألفا ومائتى درجة » .
وعن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى الصبح ، فى يوم الجمعة فى جماعة ثم جلس فى المسجد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ، كان له فى الفردوس سبعون درجة ، بعد ما بين الدرجتين حضر الفرس المضمر سبعين سنة ؛ ومن صلى صلاة الجمعة فى جماعة كان له فى الفردوس خمسون درجة حضر الفرس الجواد خمسين سنة ، ومن صلى العصر فى جماعة فكأنما أعتق ثمانية من ولد إسماعيل كلهم رقيق ؛ ومن صلى المغرب فى جماعة فكأنما حج حجة مبرورة وعمرة متقبلة » . وعن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم الجمعة ما بين الظهر والعصر ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وآية الكرسى مرة وخمسا وعشرين مرة قل أعوذ برب الفلق ، وفى الركعة الثانية يقرأ فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد مرة وقل أعوذ برب الفلق عشرين مرة ، فإذا سلم قال : لاحول ولا قوة إلا بالله خمسين مرة ، فلا يخرج من الدنيا حتى يرى ربه

عزّ وجل فى المنام ، ويرى مكانه فى الجنة ، أو يرى له وروى أن أعرابيا قام إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال « يارسول الله إنا نكون فى البادية بعداء من المدينة ولا نقدر أن نأتيك فى كل جمعة ، فدلنى على عمل إذا رجعت إلى قومى أخبرهم فى سبب الجمعة ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : يا أعرابىّ إذا كان يوم الجمعة فصل ركعتين عند ارتفاع النهار ، فاقرأ فى أول ركعة فاتحة الكتاب وقل أعوذ برب الفلق ، وفى الثانية فاتحة الكتاب وقل أعوذ برب الناس ، ثم تشهد وسلم ، واقرأ سبع مرات آية الكرسى جالسا ، ثم صلّ ثمان ركعات أربعا أربعا ، واقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وإذا جاء نصر الله مرة واحدة وخمسا وعشرين مرة قل هو الله أحد ، فإذا فرغت من صلاتك فقل سبعين مرة لاحول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم ، فوالذى نفس محمد بيده ما من مؤمن ولا مؤمنة صلى يوم الجمعة هذه الصلاة كما أقول إلا وأنا ضامن له الجنة ، ولا يقوم من مقامه حتى يغفر الله له ولوالديه إن كانا مسلمين ، وينادى مناد من تحت العرش : يا عبد الله استأنف العمل ، فقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر » . وذكر لها فضائل كثيرة يطول شرحها ، وقد ذكرنا فيما تقدم فضائل أخرى فى صلاة أخرى بثمانى عشرة مرة قل هوالله أحد فى يوم الجمعة فمن شاء أن يصليها فليصلها .

(فصل : فى ذكر صلاة يوم السبت) روى سعيد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم السبت أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل يا أيها الكافرون ثلاث مرات ، فإذا فرغ من صلاته وسلم قرأ آية الكرسى كتب الله تعالى له بكل حرف حجة وعمرة ، ورفع له بكل حرف أجر سنة صيام نهارها وقيام ليلها ، وأعطاه الله بكلّ حرف ثواب شهيد ، وكان تحت عرشه مع النبيين والشهداء » .

باب فى ذكر صلاة الليالى

(فصل : فى ذكر فضل صلاة ليلة الأحد) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة يقرأ فى كل ركعة الحمد لله مرة وقل هو الله أحد خمسين مرة والمعوّذتين مرة مرة ، واستغفر الله سبحانه مائة مرة ، واستغفر الله لنفسه ولوالديه مائة مرة ، وصلى على النبىّ صلى الله عليه وسلم مائة مرة ، وتبرأ من حوله وقوّته ، والتجأ إلى حول الله وقوّته ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن آدم صفوة الله وفطرته وإبراهيم خليل الله عزّ وجل ، وموسى كليم الله تعالى ، وعيسى روح الله سبحانه ، ومحمد حبيب الله عزّ وجل ، كان له من الأجر والثواب بعدد من دعاء الله عزّ وجل ولدا ، ومن لم يدع له ولدا وبعثه الله تعالى يوم القيامة مع الآمنين ، وكان حقا على الله أن يدخله الجنة مع النبيين » .

(فصل : فى ذكر فضل صلاة ليلة الاثنين) روى عن الأعمش عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى فى ليلة الاثنين أربع ركعات يقرأ فى الركعة الأولى

الحمد لله مرة وقل هو الله أحد عشر مرات ، وفى الركعة الثانية الحمد لله مرة وقل هو الله أحد عشرين مرة ، وفى الركعة الثالثة الحمد لله مرة وقل هو الله أحد ثلاثين مرة ، وفى الركعة الرابعة الحمد لله مرة وقل هو الله أحد أربعين مرة ، ثم تشهد وسلم وقرأ قل هو الله أحد خمسا وسبعين مرة ، واستغفر الله تعالى لنفسه ولوالديه خمسا وسبعين مرة ، وصلى على النبىّ صلى الله عليه وسلم خمسا وسبعين مرة ، ثم سأل حاجته كان حقا على الله تعالى أن يعطيه سؤله » وهى تسمى صلاة الحاجة . وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى ليلة الاثنين ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة ويقرأ بعد التسليم خمس عشر مرة آية الكرسى ، ويستغفر الله سبحانه وتعالى خمس عشرة مرة ، جعل الله تعالى اسمه فى أصحاب الجنة وإن كان من أصحاب النار ، وغفر له ذنوب العلانية ، وكتب له بكل آية قرأها حجة وعمرة ، وإن مات ما بين الاثنين إلى الاثنين مات شهيدا » .

(فصل : فى ذكر فضل صلاة ليلة الثلاثاء) عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « من صلى ليلة الثلاثاء اثنتا عشرة ركعة يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وإذا جاء نصر الله خمس مرات ، بنى الله تعالى له فى الجنة بيتا ، عرضه وطوله وسع الدنيا سبع مرات » .

(فصل : فى ذكر فضل صلاة ليلة الأربعاء) عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ليلة الأربعاء ركعتين ، يقرأ فى أول ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل أعوذ برب الفلق عشر مرات ، وفى الركعة الثانية فاتحة الكتاب مرة وقل أعوذ برب الناس عشر مرات ، ينزل من كل سماء سبعون ألف ملك ، يكتبون له الثواب إلى يوم القيامة » .

(فصل : فى ذكر فضل صلاة ليلة الخميس) عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين ، يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وآية الكرسى خمس مرات وقل هو الله أحد خمس مرات والمعوّذتين خمس مرات ، فإذا فرغ من صلاته استغفر الله تعالى خمس عشرة مرة ، وجعل ثوابها لوالديه ، فقد أدّى حقهما وإن كان عاقا لهما ، وأعطاه الله سبحانه وتعالى ما يعطى الصديقين والشهداء » .

(فصل : فى ذكر صلاة ليلة الجمعة) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة ، يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد عشر مرات ، فكأنما عبد الله تعالى اثنتى عشرة سنة صيام نهارها وقيام ليلها » . وروى عن كثير بن سلمة عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى ليلة الجمعة صلاة العشاء الآخرة فى جماعة وصلى بعدها ركعتى السنة ، ثم صلى بعدها عشر ركعات يقرأ فى كل ركعة الحمد لله مرة وقل هو الله أحد مرة والمعوّذتين مرة مرة ، ثم أوتر بثلاث ركعات ونام على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة ،

فكأنما أحيا ليلة القدر » . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الصلاة علىّ فى الليلة الغراء واليوم الأزهر ، ليلة الجمعة ويوم الجمعة » :

(فصل : فى ذكر فضل صلاة ليلة السبت) عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة، بنى الله تعالى له قصرا فى الجنة ، وكأنما تصدّق على كل مؤمن ومؤمنة ، وتبرأ من اليهودية وكان حقا على الله أن يغفر له » :

(فصل) وقد ذكرنا فى مجلس التوبة فيما تقدم فى أثناء الكتاب ، وإنما يشتغل بالنوافل من الصلاة والصيام والصدقة وأنواع العبادات بعد أحكام الفرائض والسنن، فلا يشتغل بسواها، بل ينوى بجميع عباداته فرائض ما عليه من كل جنس منها ، فينوى بجميع هذه الصلوات التى ذكرناها فى هذه الليالى والأيام قضاء يسقط عنه الفرض ، ويحصل له الفضل ، يجمع الله تعالى بينهما بمنه ورحمته وكرمه ، فإذا تحقق براءة ساحته من الفرائض، فحينئذ ينوى بجميع ذلك نافلة .

(فصل : فى ذكر فضل صلاة التسبيح) حدثنا الشيخ أبو نصر عن والده ، قال : أخبرنا أبو الفتح محمد بن أحمد بن أبى الفوارس وأبو محمد الحسن بن محمد الخلال، قال أخبرنا أبو حفص عمر بن أحمد الواعظ، قال حدثنا عبد الله بن محمد البغوى، قال حدثنا إسحق بن أبى إسرائيل، قال حدثنا موسى بن عبد العزيز ، قال حدثنا الحكم بن أبان ، قال حدثنى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس بن عبد المطلب رضى الله عنه « ياعباس ياعماه ألا أعطيك ألا أمنحك ألا أحبوك ، ألا أجعل لك عشر خصال إذا أنت فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك أوله وآخره ، قديمه وحديثه ، خطأه وعمده ، صغيره وكبيره ، سرّه وعلانيته ؟ أن تصلى أربع ركعات تقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة ، فإذا فرغت من القراءة فى أول ركعة وأنت قائم قلت : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر خمس عشرة مرة ، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشرا ، ثم ترفع رأسك من الركعة فتقولها عشرا، ثم تسجد فتقولها عشرا ، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرا ، ثم تسجد فتقولها عشرا، ثم ترفع رأسك فتقولها عشرا ، فذلك خمس وسبعون فى كل ركعة تفعل ذلك فى أربع ركعات ، فإن استطعت أن تصليها فى كل يوم مرة فافعل فإن لم تفعل ففى كل جمعة مرّة فإن لم تفعل ففى كل شهر مرّة ، فإن لم تفعل ففى كل سنة مرّة ، فإن لم تفعل ففى عمرك مرة » ؛ وفى لفظ آخر « يقرأ فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسبح اسم ربك الأعلى ، وفى الثانية بفاتحة الكتاب وإذا زلزلت ، وفى الثالثة بفاتحة الكتاب وقل يا أيها الكافرون ، وفى الرابعة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد » . وحدثنا أبو نصر عن والده ، بإسناده « أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لجعفر ابن أبى طالب رضى الله عنه : ألا أمنحك ألا أحبوك ألا أعطيك ؟ وساق الحديث إلى آخره » : وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك لعمرو بن العاص رضى الله عنه ، وفيه زيادة عشرة فى حال القيام ، وفى غيره إسقاطها ؛ وفى بعض الألفاظ « فذلك ثلثمائة » يعنى به التسبيح

فى الأربع . وفى لفظ آخر « فذلك ألف ومائتان » يعنى أنواع التسبيح ، وهى أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فإذا ضربت فى ثلثمائة كانت ألفا ومائتين. وقال بعض العلماء بالله عزّ وجل : يستحبّ فعلها فى الجمعة مرتين مرة ليلا ومرة نهارا .

(فصل : فى صلاة الاستخارة ودعائها) عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الأمر كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : إذا همّ أحدكم بأمر أو بإرادة خروج ، فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم يقول : اللهمّ إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهمّ إن كنت تعلم أن هذا الأمر وتسميه بعينه خير لى فى دينى ودنياى وآخرتى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله ، فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه ، وإلا فاصرفه عنى ويسر لى الخير حيث كان ما كنت ، ورضنى بقضائك يا أرحم الراحمين » فينبغى لكل أحد إذا تحقق عزمه على الخروج إلى وجه من سفر التجارة أو حجّ أو زيارة أن يقول عقيب الركعتين : اللهمّ إنى أريد الخروج فى وجهى هذا بلا ثقة منى بغيرك ، ولا رجاء إلا بك ، ولا قوّة أتوكل عليها ، ولا حيلة ألجأ إليها إلا طلب فضلك ، والتعرض لمعروفك ورحمتك ، والسكون إلى حسن عبادتك ، وأنت أعلم بما قد سبق لى فى علمك فى وجهى هـذا مما أحبّ وأكره ؛ اللهمّ فاصرف عنى بقدرتك مقادير كل بلاء ، ونفس عنى كل كرب وداء ، وابسط علىّ كنفا من رحمتك ولطفا من عونك وحرزا من حفظك وجميع معافاتك ، ثم يرفع الأحمال ويأخذ فى السير ويقول : يا ربّ قضاؤك علىّ حقيقة أحسن أملى ، وادفع عنى ما أحذر مما أنت أعلم به منى ، واجعل ذلك خيرا لى فى دينى وآخرتى ، أسألك يا ربّ أن تخلفنى فيما خلفت ورائى من أهلى وولدى وقرابتى بأحسن ما خلفت به غائبا من المؤمنين فى تحصين كل عورة ، وحفظا من كل مضرّة ، وكفاية كل مهم ، وصرف كل مكروه ، وكمال ما تجمع لى به من الرضا والسرور فى الدنيا والآخرة ، ثم ارزقنى فى ذلك كله شكرك وذكرك وحسن عبادتك ، حتى ترضى عنى وتدخلنى جنتك برحمتك بعد الرضا يا أرحم الراحمين : وينبغى أن يكثر فى سفره من هـذا الدعاء ، فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقوله كثيرا وهو : الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئا مذكورا ، اللهمّ أعنى على أهاويل الدنيا وبوائق الدهور ومصائب الليالى والأيام ، واكفنى شرّ ما يعمل الظالمون ؛ اللهمّ فى سفرى فاصحبنى ، وفى أهلى فاخلفنى ، وفيما رزقتنى فبارك لى ، وفى نفسى فذللنى ، وفى أعين الناس فعظمنى ، وفى خلقى فقوّمنى ، وإليك يا ربّ فحببنى ، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت به السموات ، وكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأوّلين والآخرين أن لا تحلّ علىّ غضبك ، ولا تنزل بى سخطك ، لك العتبى فيما استطعت ، ولا حول ولا قوّة إلا بك ، اللهمّ إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، ومن الحور بعد الكور ، ودعوة المظلوم ؛ اللهمّ اطو لنا الأرض وهوّن علينا السفر ، أسألك بلاغا يبلغ خيرا ومغفرة ورضوانا ، أسألك الخير كله ،

إنك على كل شيء قدير . وينبغي أن يقول عند خروجه من منزله : بسم الله توكلت على الله ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله ، فإنه قيل في الخبر إنه «يقال له : وقيت وكفيت وحميت » . وينبغي إذا ركب راحلته أن يكبر ثلاثا ويحمد ثلاثا ويقول «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . سبحانك لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفرلي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » لأنه مرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما «أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سافر وركب يقول : اللهم إني أسألك في سفري هذا التقى ، ومن العمل ما ترضى ؛ اللهمّ هوّن علينا السفر ، واطو لنا بُعْدَ الأرض ؛ اللهمّ أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ؛ اللهمّ اصحبنا في سفرنا ، واخلفنا في أهلنا » . وزاد ابن جريج فقال « إني أعوذ بك من وعثاء السفر ، وسوء المنقلب ، وكآبة المنظر في الأهل والمال » . وينبغي له إذا أراد دخول قرية أو مدينة أن يقول كما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم « اللهمّ ربّ السموات السبع وما أظللن ، وربّ الأرضين السبع وما أقللن ، وربّ الشياطين وما أضللن ، أسألك من خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرّها وشر أهلها وشرّ ما فيها ، أسألك مودّة خيارهم ، وأن تجنبني من شرّ أشرارهم » .

(فصل : في حرز المسافر من كل سارق وسبع ومؤذ) « اللهمّ احرسنا بعينك التي لا تنام ، واكنفنا بركنك الذي لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا ، لا نهلك وأنت رجاؤنا » . وعن عثمان ابن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من قال في أوّل ليله : بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات ، لم تصبه فجأة بلاء حتى يصبح » . وعن أبي يوسف الخراساني عن أبي سعيد بن أبي الروحاء قال : ضللت بطريق مكة في بعض الليالي ، فسمعت حسا خلفي ، فاستوحشت فسمعته يقرأ القرآن ، فلحقني فقال : أحسبك ضالا ؟ فقلت : نعم ، فقال : ألا أعلمك شيئا إذا أنت قلته وأنت ضالّ اهتديت ، أو مستوحش استأنست ، أو أرقت نمت ؟ قلت بلى ، قال قل : بسم الله ذي الشأن ، عظيم البرهان ، شديد السلطان ، كل يوم هو في شأن ، أعوذ بالله من الشيطان ، ما شاء الله كان ، لا حول ولا قوّة إلا بالله ؛ فقلتها فإذا أصحابي قريب ، فطلبت الرجل فلم أجده قال أبو بلال وهو من رواة الحديث : فضللت بمنى من أهلي ، فقلت هذا ، فالتفتّ كذا فإذا أنا بأهلي . وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال كل يوم سبع مرات : إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ، كفاه الله تعالى ما أهمه صادقا كان أو كاذبا إن شاء الله تعالى » . وفي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « من قال عند الكرب : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله ربّ العرش العظيم ، الحمد لله ربّ العالمين ، كشف عنه بإذن الله تعالى » .

(فصل : في ذكر صلاة الكفاية) وهي ركعتان يصليهما أيّ وقت كان ، يقرأ في كل ركعة

فاتحة الكتاب مرة ، (قل هو الله أحد) عشر مرات و(فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) خمسين مرة ، ثم يسلم ، ويدعو بهذا الدعاء وهو : يا ألله يا رحمن يا منان يا حنان ، يا مسبحا بكل لسان ، يا من يداه بالخير مبسوطتان ، ياكافى محمدا صلى الله عليه وسلم الأحزاب ، ويا كافى إبراهيم عليه السلام النيران ، يا كافى موسى فرعون ، ويا كافى عيسى عليه السلام الجبابرة ، ويا كافى نوحا عليه السلام الغرق ، ياكافى لوطا عليه السلام فحش قومه ، ياكافى من كل شىء ولا يكفى منه شىء ، ياكافى عائشة رضى الله عنها وآسية اكفنى عظيم البلاء من كل شىء حتى لا أخاف ولا أخشى مع اسمك العظيم الأعظم شيئا ، فإنه يكفى ويجمع همه وشره عند صلاته :

(فصل : فى ذكر صلاة الحصباء) وهى أربع ركعات بتسليمة واحدة ، يقرأ فى الأولى فاتحة الكتاب و(قل هو الله أحد) إحدى عشرة مرة ، وفى الثانية الفاتحة و(قل هو الله أحد) عشر مرات وثلاث مرات (قل يا أيها الكافرون) وفى الثالثة الفاتحة وعشر مرات (قل هو الله أحد) و(ألهاكم التكاثر) مرة وفى الرابعة الفاتحة وخمس عشرة مرة (قل هو الله أحد) وآية الكرسى مرة ، ثم يجعل ثوابها لحصبائه ، يكفيه الله أمرهم يوم القيامة إن شاء الله تعالى ، يصلى هذه الصلاة فى سبعة أوقات أول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وآخر جمعة من رمضان ، ويومى العيدين ، يوم عرفة ، ويوم عاشوراء .

(فصل : فى صلاة العتقاء فى شوال) حدثنا أبو نصر بن البناء عن والده قال : حدثنا أبو عبد الله الحسين بن عمر العلاف ، قال أخبرنا أبو القاسم القاضى ، قال حدثنا محمد بن أحمد ابن صديق ، قال حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن ، قال أنبأنا أبو بكر أحمد بن جعفر المروزى ، قال حدثنا على بن معروف ، قال حدثنى محمد بن محمود ، قال أخبرنا يحيى بن شبيب ، قال حدثنا حميد عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى فى شوال ثمان ركعات ليلا كان أو نهارا ، يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب وخمس عشرة مرة (قل هو الله أحد) فإذا فرغ من صلاته سبح سبعين مرة ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم سبعين مرة ، والذى بعثنى بالحق نبيا ما من عبد يصلى هذه الصلاة إلا أنبع الله له ينابيع الحكمة فى قلبه ، وأنطق بها لسانه وأراه داء الدنيا ودواءها ، والذى بعثنى بالحق نبيا من صلى هذه الصلاة كما وصفت لا يرفع رأسه من آخر سجوده حتى يغفر الله له ، وإن مات مات شهيدا مغفورا له ، وما من عبد صلى هذه الصلاة فى السفر إلا سهل الله عليه السير والذهاب إلى موضع مراده ، وإن كان مديونا قضى الله دينه ، وإن كان ذا حاجة قضى الله حوائجه ، والذى بعثنى بالحق نبيا ما من عبد يصلى هذه الصلاة إلا أعطاه الله تعالى بكل حرف وبكل آية مخرفة فى الجنة قيل : وما المخرفة يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : بساتين فى الجنة يسير الراكب فى ظل شجرة من أشجارها مائة سنة ثم لا يقطعها » :

(فصل : فى فضل الصلاة لرفع عذاب القبر) عن عبدالله بن الحسن عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى ركعتين يقرأ فى إحداهما آخر الفرقان من (تبارك

الذى جعل فى السماء بروجا) حتى يختم السورة ، ثم يأخذ فى الثانية فيقرأ فيها بعد الفاتحة من أول سورة المؤمنين حتى يبلغ (فتبارك الله أحسن الخالقين) ، فإنه يأمن من مكر الجن والإنس ويعطى كتابه بيمينه يوم القيامة ، ويأمن من عذاب القبر ومن الفزع الأكبر ، ويعلمه الكتاب ، وإن لم يكن حريصا ، وينزع منه الفقر ، ويؤتيه الله الحكم ، ويبصره فى كتابه الذى أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويلقنه حجته يوم القيامة ، ويجعل النور فى قلبه ، ولا يحزن إذا حزن الناس ، ولا يخاف إذا خافوا ، ويجعل النور فى بصره ، وينزع حب الدنيا من قلبه ، ويكتب عند الله من الصديقين » .

(فصل : فى صلاة الحاجة) عن أبى هاشم الايلى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من كان له إلى الله حاجة مهمة ، فليسبغ الوضوء وليصل ركعتين ، يقرأ فى الأولى بفاتحة الكتاب وآية الكرسى ، وفى الثانية بفاتحة الكتاب وآمن الرسول إلى آخره ، ثم يتشهد ويسلم ، ويدعو بهذا الدعاء فإنها تقضى ؛ والدعاء : اللهم يا مؤنس كل وحيد ، ويا صاحب كل فريد ، ويا قريبا غير بعيد ، ويا شاهدا غير غائب ، ويا غالبا غير مغلوب ، أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم ، الحى القيوم ، الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ؛ وأسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم ، الحى القيوم ، الذى عنت له الوجوه ، وخشعت له الأصوات ، ووجلت منه القلوب ، أن تصلى على محمد وعلى آل محمد ، وأن تجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا وتقضى حاجتى » .

(فصل : فى الدعاء لدفع الظلم والاحتراز منه) روى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علم عليا وفاطمة رضى الله عنهما هذا الدعاء ، وقال لهما : إذا نزلت بكما مصيبة ، أو خفتما جور سلطان ، أو ضلت لكما ضالة ، فأحسنا الوضوء وصليا ركعتين وارفعا أيديكما إلى السماء وقولا : يا عالم الغيب والسرائر ، يا مطاع يا عزيز يا عليم ، يا الله يا الله يا الله ، يا هازم الأحزاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، يا كائد فرعون لموسى عليه السلام ، يا منجى عيسى عليه السلام من يد ظلمته ، يا مخلص قوم نوح من الغرق ، يا راحم عبرة يعقوب عليه السلام ، يا كاشف ضر أيوب عليه السلام ، يا منجى ذى النون عليه السلام من الظلمات الثلاث ، يا فاعل كل خير ، يا هاديا إلى كل خير ، يا دالا على كل خير ، يا أهل الخير ، يا خالق الخير ، ويا أهل الخيرات ، أنت الله ، رغبت إليك فيما قد علمت ، وأنت علام الغيوب ، أسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد ، ثم سلا حاجتكما تجابا إن شاء الله تعالى » .

(دعاء آخر) ، وهو دعاء النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ، رواه ابن عمر رضى الله عنهما عنه صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أعوذ بك ، وبنور قدسك ، وعظمة طهارتك ، وبركات جلالك من كل آفة وعاهة وطارق الجن والإنس ، إلا طارقا يطرق منك بخير ، إنك أنت عياذى فبك أعوذ ، وأنت ملاذى فبك ألوذ ، يا من ذلت له رقاب الجبابرة ، وخضعت له مقاليد الرعاية ، أعوذ بجلال وجهك ، وكرم جلالك من خزيك وكشف سترك ، ونسيان

ذكرك والانصراف عن شكرك ، أنا فى كنفك فى ليلى ونهارى ، ونومى وقرارى ، وظعنى وأسفارى ، ذكرك شعارى وثناؤك دثارى ، لا إله إلا أنت تنزيها لاسمك ، وتكريما لسبحات وجهك ، أجرنى من خزيك ومن شرّ عذابك وعبادك ، واضرب علىّ سرادقات حفظك ، وأدخلنى فى حفظ عنايتك ، وقنى سيئات عذابك ، وأغننى بخير منك برحمتك يا أرحم الراحمين » .

(فصل : فى الدعاء لذهاب الهموم وقضاء الديون) عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أصابه همّ أو حزن ، فليدع بهؤلاء الكلمات : اللهمّ أنا عبدك وابن عبدك ، ناصيتى بيدك ، ماض فىّ حكمك عدل فىّ قضاؤك ؛ اللهمّ إنى أسألك بكل اسم هولك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك،أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبى ،ونور صدرى،وجلاء حزنى ،وذهاب غمى وهمى ؛ فقال قائل : يا رسول الله إن المغبون لمن غبن هؤلاء الكلمات ، قال صلى الله عليه وسلم : أجل فقلهن وعلمهن ، فإنه من قالهن التماس ما فيهن ، أذهب الله عزّ وجل حزنه وأطال فرحه » . ويروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه دخل عليها فقال : هل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاء كان يعلمناه ، وذكر أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يعلمه أصحابه ويقول : لو كان على أحدكم مثل جبل أحد دينا قضاه الله عزوجل عنه ؟ فقالت : كان يقول : اللهمّ فارج الهم كاشف الغمّ مجيب دعوة المضطرين رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، أسألك أن ترحمنى رحمة من عندك تغنينى بها عن رحمة من سواك » .

(دعاء آخر فى ذلك) وهو ما روى عن الحسن البصرى رحمه الله أنه جاءه صديق له يكرم عليه ، فقال له : يا أبا سعيد علىّ دين ، وأحبّ أن تعلمنى اسم الله تعالى الأعظم ، فقال إن شئت ذلك فقم وتوضأ ، فقام وتوضأ وقال له : قل يا ألله يا ألله أنت الله ، بلى والله أنت الله ، لا إله إلا أنت ، الله الله الله ، والله إنه لا إله إلا الله ، اقض عنّى الدين ، وارزقنى بعد الدين ، فأصبح الرجل فرأى مائة ألف درهم صحاحا فى مسجده دراهم مختلفة فى جراب ، على رأس الجراب مكتوب : لو سألت أكثر من هذا لأعطيناك ، فكيف لم تسأل الجنة ؟ فجاء الرجل إلى الحسن رحمه الله فأخبره بذلك ، فانطلق معه إلى منزله ، فنظر إلى الدراهم ، فقال الرجل : إنى لمصعقه حيث لم أسأل الله الجنة ، فقال الحسن : إن الذى علمك هذا الاسم لم يعلمك إلا لخير يريدك به ، فاكتم علىّ هذا الاسم لا يسمع به الحجاج فلا ينجو منه أحد :

(دعاء آخر علمه) جبريل عليه السلام لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة المشرّفة يريد جبل حراء ، خوفا من قريش ، وكفاية الهمّ والرزق ؛ روى أبو بكر الصديق رضى الله عنه « أن جبريل عليه السلام قال : يا محمد إن الله تعالى يقرئك السلام ، وقد علمنى دعاء تدعو به فيجعل الله بينك وبينهم سترا ، فأعلّمه لك ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : نعم

يا جبريل ، فقال : قل يا كبير كلّ كبير يا سميع يا بصير ، يا من لا شريك له ولا وزير ، يا خالق الشمس والقمر المنير ، يا عصمة البائس الخائف المستجير ، يا رازق الطفل الصغير ، يا جابر العظم الكسير ، يا قاصم كل جبار عنيد ، أسألك وأدعوك دعاء البائس الفقير ، دعاء المضطرّ الضرير ، أسألك بمعاقد العزّ من عرشك ، ومفاتيح الرحمة من كتابك ، وبالأسماء الثمانية المكتوبة على قرن الشمس ، أن تفعل بى كذا وكذا » .

باب الأدعية التى يدعى بها عقيب الصلوات الفرض

ودعاء الختمة وغير ذلك

أما دعاء صلاة الغداة وصلاة العصر ؛ فهو أن يقول : اللهمّ لك الحمد شكرا، ولك المنّ فضلا، بنعمتك تتم الصالحات ، نسألك اللهمّ فرجا قريبا ، فإنك لم تزل مجيبا ، وصبرا جميلا ، وعافية من جميع البلايا ، والسلامة من طريق الرزايا ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، اللهمّ اجعل اجتماعنا اجتماعا مرحوما ، وتفرّقنا تفرّقا معصوما ، ولا تجعل فينا شقيا ، ولا محروما ، ولا تردّنا بالفاقة إلى غيرك ، ولا تحرمنا سعة خيرك ، وحقيقة التوكل عليك ، وخالص الرغبة فيما لديك ، واملأ قلوبنا منك الغنى ، واكس وجوهنا منك الحياء ، وارزقنا خير الآخرة والدنيا ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، يا رب ؛ اللهمّ ارزقنا خير الصباح وخير المساء ، وخير القضاء وخير القدر ، واصرف عنا شرّ الصباح وشرّ المساء ، وشرّ القضاء وشرّ القدر ؛ اللهمّ وما أنزلت فى هذا اليوم ن خير وعافية وسلامة وغنيمة وسعة رزق ، فاجعل لنا فيه أوفر الحظّ والنصيب ؛ اللهمّ وما أنزلت من سوء وبلاء وشرّ وداء وفتنة ، فاصرفه عنا وعن جميع المسلمين والمسلمات يا أرحم الراحمين .

دعاء آخر : الحمد لله الذى أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا ، لا إله إلا هو أهل الكبرياء والعظمة ، ومنتهى الجبروت والعزّة ، وولىّ الغيث والرحمة ، مالك الدنيا والآخرة ، عظيم الملكوت شديد الجبروت ، لطيف لما يشاء فعال لما يريد ، أول كل شىء ، وخالق كل شىء ورازقه ، سبحانه لا إله إلا هو ؛ اللهمّ اجعل صباحنا صباحا صالحا ، لا مخزيا ولا فاضحا . اللهمّ اكفنا شرّ نوائب الزمان ومكروهه ، ومصارع السوء ومصايد الشيطان ، وموارد صولة السلطان ، ووفقنا فى يومنا هذا وفى سائر الأيام ، لاستعمال الخيرات وهجران السيئات ؛ اللهمّ أصلحنا وأصلح قلوبنا ، وأصلح أخلاقنا وأصلح أفعالنا ، وأصلح آباءنا وأبناءنا وأجدادنا وجدّاتنا ، ودنيانا وأخرانا ؛ اللهمّ كما أمضيت الليلة بالسلامة والعافية فامض علينا النهار بالسلامة والعافية برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ آمين اللهمّ آمين يا الله يا ربّ العالمين .

دعاء آخر : الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ، سبحانه وتعالى عما يشركون ؛ اللهمّ اغفر لنا ذنوبنا ما أظهرنا وما أسررنا ، وما أخفينا وما أعلنا ، وما أنت أعلم به منا ؛ اللهمّ أعطنا رضاك فى الدنيا والآخرة ، واختم لنا بالسعادة والشهادة والمغفرة ؛ اللهمّ اجعل آخر أعمارنا خيرا ، وخواتيم أعمارنا خيرا ، وخير أيامنا يوم نلقاك ؛ اللهمّ إنا نعوذ بك من زوال نعمتك ، ومن فجأة نقمتك ، ومن تحويل عافيتك ؛ اللهمّ إنا نعوذ بك من درك الشقاء ، وجهد البلاء ، وشماتة الأعداء ، وتغير النعماء ، وسوء القضاء ، نعوذ بك من جميع المكاره والأسواء ؛ ونسألك اللهمّ خير العطاء ؛ اللهمّ إنا نسألك أن تكشف سقمنا ، وتبرئ مرضانا ، وترحم موتانا ، وتصحّ أبداننا ، وتخلصها لك ؛ اللهمّ أخلص أدياننا ، وأن تحفظ عياذنا وتشرح صدورنا ، وتدبر أمورنا ، وتجبر أولادنا ، وتستر جرمنا ، وتردّ غيابنا ، وأن تثبتنا على ديننا ، ونسألك خيرا ورشدا ؛ اللهمّ ربنا إنا نسألك أن تؤتينا حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة ، وأن تتوفنا مسلمين برحمتك ، وقنا عذاب النار وعذاب القبر يا أرحم الراحمين يا رب العالمين . فالدعاء مأمور به ، وهو عند الله بمكان ، وقد بينا ذلك فى أثناء الكتاب ، فلا ينبغى للإمام والمأموم أن يخرجا من المسجد من غير دعاء . قال الله تعالى ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ أى إذا فرغت من العبادة انصب فى الدعاء وارغب فيما عند الله واطلبه منه . وقد جاء فى الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا قام الإمام فى محرابه وتواترت الصفوف ، نزلت الرحمة ، فأول ذلك تصيب الإمام ، ثم من عن يمينه ، ثم من عن يساره ، ثم تتفرّق الرحمة على الجماعة ، ثم ينادى ملك ربح فلان وخسر فلان ، فالرابح من يرفع يديه بالدعاء إلى الله تعالى إذا فرغ من صلاته المكتوبة ، والخاسر هو الذى خرج من المسجد بلا دعاء ، فإذا خرج بلا دعاء قالت الملائكة : يا فلان استغنيت عن الله تعالى مالك عند الله حاجة » .

(فصل) فأما دعاء ختمة القرآن فهو : صدق الله العظيم الذى خلق الخلق فابتدعه ، وسنّ الدين وشرعه ، ونوّر النور وشعشعه ، وقدّر الرزق ووسعه ، وضرّ خلقه ونفعه ، وأجرى الماء وأنبعه ، وجعل السماء سقفا محفوظا مرفوعا رفعه ، والأرض بساطا وضعه ، وسير القمر فأطلعه ، سبحانه ما أعلى مكانه وأرفعه ، وأعزّ سلطانه وأبدعه ، لا رادّ لما صنعه ، ولا مغير لما اخترعه ، ولا مذلّ لمن رفعه ، ولا معزّ لمن وضعه ، ولا مفرّق لما جمعه ، ولا شريك له ، ولا إله معه ، صدق الله الذى دبر الدهور ، وقدّر المقدور ، وصرّف الأمور ، وعلم هواجس الصدور ، وتعاقب الديجور ، وسهل المعسور ، وبسر الميسور ، وسخر البحر المسجور ، وأنزل الفرقان والنور ، والتوراة والإنجيل والزبور ، وأقسم بالفرقان والطور ، والكتاب المسطور فى الرقّ المنشور ، والبيت المعمور ، والبعث والنشور ، وجاعل الظلمات والنور ، والولدان والحور ، والجنان والقصور (إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور) صدق الله العظيم ، الذى عزّ فارتفع ، وعلا فامتنع ، وذلّ كل شيء لعظمته وخضع ، وسمك السماء ورفع ، وفرش الأرض

وأوسع ، وفجر الأنهار فانبع ، ومرج البحار فأترع ، وسخر النجوم فأطلع ، وأرسل السحاب فارتفع ، ونوّر النور فلمع ، وأنزل الغيث فهمع ، وكلم موسى عليه السلام فأسمع ، وتجلى للجبل فتقطع ، ووهب ونزع ، وضرّ ونفع ، وأعطى ومنع ، وسنّ وشرع ، وفرّق وجمع ، وأنشأكم من نفس واحدة ، فمستقرّ ومستودع ، صدق الله العظيم ، التوّاب الغفور الوهاب ، الذى خضعت لعظمته الرقاب ، وذلت لجبروته الصعاب ، ولانت له الشداد الصلاب ، واستدلت بصنعته الألباب ، ويسبح بحمده الرعد والسحاب ، والبرق والسراب ، والشجر والدواب ، ربّ الأرباب ، ومسبب الأسباب ، ومنزل الكتاب ، وخالق خلقه من التراب ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ، صدق الله الذى لم يزل جليلا دليلا ، صدق من خسبي به كفيلا ، صدق من اتخذته وكيلا ، صدق الله الهادى إليه سبيلا ، صدق الله ومن أصدق من الله قيلا ، صدق الله وصدق أنباؤه ، وصدق الله وصدقت أنبياؤه ، صدق الله وجلت آلاؤه ، صدق الله وصدقت أرضه وسماؤه ، صدق الله الواحد القديم الماجد الكريم الشاهد العليم الغفور الرحيم الشكور الحليم ، (قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم) صدق الله العظيم الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، الحىّ العليم ، الحىّ الكريم ، الحىّ الباقى الحىّ الذى لا يموت أبدا ، ذو الجلال والإكرام ، والأسماء العظام ، والمنن الجسام ، وبلّغته الرسل الكرام بالحقّ صلى الله على سيدنا محمد وسلم وعليهم السلام ، ونحن على ما قال الله ربنا وسيدنا ومولانا من الشاهدين ، وما أوجب وألزم غير جاحدين ، والحمد لله ربّ العالمين ، وصلواته على سيدنا وسندنا محمد خاتم النبيين ، وعلى أبويه المكرّمين سيدنا آدم والخليل إبراهيم ، وعلى جميع إخوانه من النبيين ، وعلى أهل بيته الطاهرين ، وعلى أصحابه المنتخبين ، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، علينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين ، صدق الله ذو الجلال والإكرام ، والعظمة والسلطان ، جبار لا يرام ، عزيز لا يضام ، قيوم لا ينام ، له الأفعال الكرام ، والمواهب العظام ، والأيادى الجسام ، والأفضال والأنعام ، والكمال والتمام ، تسبح له الملائكة الكرام ، والبهائم والهوامّ ، والرياح والغمام ، والضياء والظلام ، وهو الله الملك القدوس السلام ، ونحن على ما قال الله ربنا جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، وجلت آلاؤه ، وشهدت أرضه وسماؤه ، ونطقت به رسله وأنبياؤه شاهدون (لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الإسلام) ونحن بما شهد الله ربنا والملائكة وأولوا العلم من خلقه من الشاهدين ، شهادة شهد بها العزيز الحميد ، ودان بها المؤمن الغفور الودود ، وأخلص بالشهادة لذى العرش المجيد ، يرفعها بالعمل الصالح الرشيد ، يعطى قائلها الخلود فى جنة ذات سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، يرافق فيها النبيين الشهود ، والركع السجود ، والباذلين فى طاعته غاية المجهود ؛ اللهمّ اجعلنا بهذا التصديق صادقين ، وبهذا الصدق شاهدين ، وبهذه الشهادة مؤمنين ، وبهذا الإيمان موحدين ، وبهذا التوحيد مخلصين ، وبهذا الإخلاص موقنين ، وبهذا الإيقان عارفين ،

وبهذه المعرفة معترفين ، وبهذا الاعتراف منيبين ، وبهذه الإنابة فائزين ، وفيا لديك راغبين ، ولما عندك طالبين ، وباه بنا الملائكة الكرام الكاتبين ، واحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ولا تجعلنا ممن استهوته الشياطين ، فشغلته بالدنيا عن الدين ، فأصبح من النادمين ، وفى الآخرة من الخاسرين ، وأوجب لنا الخلود فى جنات النعيم برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ لك الحمد وأنت للحمد أهل ، وأنت الحقيق بالمنة ثم الفضل ، لك الحمد على تتابع إحسانك ، ولك الحمد على تواتر إنعامك ، ولك الحمد على ترادف امتنانك ؛ اللهمّ إنك عطفت علينا قلوب الآباء والأمهات صغارا ، وضاعفت علينا نعمك كبارا ، وواليت إلينا برّك مدرارا ؛ وجهلنا وما عاجلتنا مرارا ، فلك الحمد ؛ اللهمّ فإنا نحمدك سرّا وجهارا ، ونشكرك محبة واختيارا ، فلك الحمد إذ ألهمتنا من الخطأ استغفارا ، ولك الحمد فارزقنا جنة واحجب عنا بعفوك نارا ، ولا تهلكنا يوم البعث فتجعلنا بين المعاشر عارا ، ولا تفضحنا بسوء أفعالنا يوم لقائك ، فتكسنا ذلة وانكسارا برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ لك الحمد كما هديتنا للإسلام وعلمتنا الحكمة والقرآن ؛ اللهمّ أنت علمتنا قبل رغبتنا فى تعليمه ، ومننت به علينا قبل علمنا بمعرفته ، وخصصتنا به قبل معرفتنا بفضله ؛ اللهمّ فإذا كان ذلك من فضلك لطفا بنا وامتنانا علينا من غير حيلتنا ولا قوّتنا ، فهب لنا اللهم رعاية حقه ، وحفظ آياته ، وعملا بمحكمه ، وإيمانا بمتشابهه ، وهدى فى تدبره ، وتفكرا فى أمثاله ومعجزته ، وتبصرة فى نوره وحكمه ، لاتعارضنا الشكوك فى تصديقه ، ولا يختلجنا الزيغ فى قصد طريقه ؛ اللهمّ انفعنا بالقرآن العظيم ، وبارك لنا فى الآيات والذكر الحكيم ، وتقبل منا إنك أنت السميع العليم ، وتب علينا إنك أنت التوّاب الرحيم برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ اجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وشفاء صدورنا ، وجلاء أحزاننا ، وذهاب همومنا وغمومنا ، وسائقنا وقائدنا ودليلنا إليك وإلى جناتك جنات النعيم برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ اجعل القرآن لقلوبنا ضياء ، ولأبصارنا جلاء ، ولأسقامنا دواء ، ولذنوبنا ممحصا ، ومن النار مخلصا ؛ اللهمّ اكسنا به الحلل ، وأسكنا به الظلل ، وأسبغ علينا به النعم ، وادفع به عنا النقم ، واجعلنا به عند الجزاء من الفائزين ، وعند النعماء من الشاكرين ، وعند البلاء من الصابرين ، ولا تجعلنا ممن استهوته الشياطين ، فشغلته بالدنيا عن الدين ، فأصبح من الخاسرين برحمتك يا أرحم الراحمين : اللهمّ لا تجعل القرآن بنا ماحلا ، ولا الصراط بنا زائلا ، ولا نبينا وسيدنا وسندنا محمدا صلى الله عليه وسلم فى القيامة عنا معرضا ولا موليا ، اجعله يا ربنا خالقنا يا رازقنا لنا شافعا مشفّعا ، وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه مشربا رويا سائغا هنيا لا نظمأ بعده أبدا ، غير خزايا ولا ناكثين ، ولا جاحدين ولا مغضوب علينا ، ولا ضالين برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ انفعنا بالقرآن الذى رفعت مكانه وثبتّ أركانه ، وأيدت سلطانه وبينت بركاته ، وجعلت اللغة العربية الفصيحة لسانه ، وقلت يا عزّ من قائل سبحانه (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه) وهو أحسن كتبك نظاما وأوضحها كلاما وأبينها حلالا وحراما ، محكم البيان ظاهر البرهان محروس من الزيادة والنقصان ، فيه وعد ووعيد

وتخويف وتهديد(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) اللهمّ فأوجب لنا به الشرف والمزيد ، وألحقنا بكل برّ سعيد ، واستعملنا فى العمل الصالح الرشيد ، إنك أنت القريب المجيب برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ فكما جعلتنا به مصدقين ، ولما فيه محققين ، فاجعلنا بتلاوته منتفعين ، وإلى لذيذ خطابه مستمعين ، وبما فيه معتبرين ،ولأحكامه جامعين ، ولأوامره ونواهيه خاضعين ، وعند ختمه من الفائزين ، ولثوابه حائزين ، ولك فى جميع شهودنا ذاكرين ، وإليك فى جميع أمورنا راجعين ، واغفر لنا فى ليلتنا هذه أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ اجعلنا من الذين حفظوا للقرآن حرمته لما حفظوه ، وعظموا منزلته لما سمعوه ، وتأدّبوا بآدابه لما حضروه ، والتزموا حكمه لما فارقوه ، وأحسنوا جواره لما جاوروه ، وأرادوا بتلاوته وجهك الكريم والدار الآخرة ، فوصلوا به إلى المقامات الفاخرة ، واجعلنا به ممن فى درج الجنان يرتقى ،وبنبيه صلى الله عليه وسلم يوم عرضه ، وهو راض عنه يلتقى ،فالمشتفع بالقرآن غير شقىّ برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ اجعلها ختمة مباركة على من قرأها وحضرها وسمعها وأمن على دعائها ، وأنزل اللهمّ من بركاتها على أهل الدور فى دورهم ، وعلى أهل القصور فى قصورهم ، وعلى أهل الثغور فى ثغورهم ، وعلى أهل الحرمين فى حرميهم من المؤمنين ؛ اللهمّ وأهل القبور من أهل ملتنا أنزل عليهم فى قبورهم الضياء والفسحة ، وجازهم بالإحسان إحسانا ، وبالسيئات غفرانا ، وارحمنا إذا صرنا إلى ما صاروا إليه برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ يا سائق القوت ، ويا سامع الصوت ، ويا كاسى العظام بعد الموت ، صلّ على محمد وعلى آل محمد ، ولا تدع لنا فى هذه الليلة الشريفة المباركة ذنبا إلا غفرته ، ولا هما إلا فرجته ، ولا كربا إلا نفسته ، ولا غما إلا كشفته ، ولا سوءا إلا صرفته ،ولا مريضا إلا شفيته، ولا مبتلى إلا عافيته ، ولا ذا إساءة إلا أقلته ، ولا حقا إلا استخرجته ، ولا غائبا إلا رددته ، ولا عاصيا إلا هديته ، ولا ولدا إلا جبرته ، ولا ميتا إلا رحمته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة لك فيها رضا ولنا فيها صلاح إلا أعنتنا على قضائها بيسر منك وعافية مع المغفرة برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ عافنا واعف عنا بعفوك العظيم ، وسترك الجميل ، وإحسانك القديم ، يا دائم المعروف، ياكثير الخير ، وصلّ على سيدنا وسندنا محمد وعلى إخوانه الأنبياء وعلى آله والملائكة وسلم تسليما، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا، ووفقنا لعمل الصالح يرضيك عنا برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ صلّ على محمد كما هديتنا به من الضلالة ؛ اللهمّ صل على محمد كما استنقذتنا به من الجهالة ؛ اللهمّ صل على محمد كما بلغ الرسالة ، اللهمّ صل على محمد شمس البلاد وقمر المهاد وزين الوراد وشفيع المذنبين يوم التناد ؛ اللهمّ صل على محمد وذريته وجميع صحابته ، الذين قاموا بنصرته وجروا على سنته برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ صلّ على محمد الذى بالحق بعثته ، وبالصدق نعته ، وبالحلم وسمته ، وبأحمد سميته ، وفى القيامة فى أمته شفعته ، اللهمّ صلّ على محمد ما أزهرت النجوم ،وصلّ على محمد ما تلاحمت الغيوم ، وصلّ على محمد يا حىّ يا قيوم » اللهم صلّ على محمد ما ذكره الأبرار ، وصلّ على محمد

ما اختلف الليل والنهار ، وصل على محمد وعلى المهاجرين والأنصار برحمتك يا أرحم الراحمين .

الوصية : اعلموا رحمكم الله أن ليلتكم هـذه ليلة الوداع لشهركم الذى شرّفه الله وعظمه ، ورفع قدره وكرّمه بالصيام والقيام وتلاوة القرآن ، ونزول الرحمة فيه عليكم من الله والرضوان جعله الله مصباح العام وواسطة النظام ، وشرف قواعد الإسلام المشرقة بأنوار الصيام والقيام ، أنزل الله تعالى فيه كتابه وفتح فيه للتائبين أبوابه ، فلا دعاء فيه إلا مسموع ، ولا خير إلا مجموع ، ولا ضرّ إلا مدفوع ، ولاعمل إلا مرفوع ، الظافر الميمون من اغتنم أوقاته ، والخاسر المغبون من أهمله ففاته ، شهر جعله الله لذنوبكم تطهيرا ، ولسيئاتكم تكفيرا ، ولمن أحسن منكم صحبته ذخيرة ونورا ، ولمن وفى بشرطه وقام بحقه فرحا وسرورا ، شهر تورّع فيه أهل الفسق والفساد ، وزاد فيـه من الرغبة إلى الله أهل الجدّ والاجتهاد ، شهر عمارات القلوب وكفارات الذنوب واختصاص المساجد بالازدحام والتحاشد ، وهبوط الأملاك بصكاك العتق والفكاك ، شهر فيه المساجد تعمر ، والمصابيح تزهر والآيات تذكر ، والقلوب تجبر والذنوب تغفر ، شهر فيه تشرق المساجد بالأنوار ، وتكثر الملائكة لصوّامه من الاستغفار ، ويعتق فيه الجبار فى كل ليلة عند الإفطار ستمائة ألف عتيق من النار ، وتنزل فيه البركات ، وتعظم فيه الصدقات ، وتكفر فيه السيئات ، وتقال فيه العثرات ، وتدفع فيه النكبات ، وترفع فيه الدرجات ، وترحم فيه العبرات ، وتنادى فيه الحور الحسان من الجنات : هنيئا لكم يا معشر الصائمين والصائمات ، والقائمين والقائمات بما أعدّ الله لكم من الخيرات ، لقد غمرتكم البركات ، واستبشر بكم أهل الأرض والسموات ، فرحم الله امرأ مهد فيه لنفسه قبل حلول رمسه ، واشتغل بيومه عن غداه وأمسه ، وتزوّد من بقية زاده ، فى نفاده نفاد عمره ، وأظهر لفراق شهره جزعه ، وسلم على شهره وودعـه ، وقال : السلام عليك يا شهر رمضان ، السلام عليك ياشهر الصيام والقيام وتلاوة القرآن ، السلام عليك يا شهر التجاوز والغفران ، السلام عليك يا شهر البركة والإحسان ، السلام عليك يا شهر التحف والرضوان ، السلام عليك يا شهر النسك والتعبد السلام عليك يا شهر الصيام والتهجد ، السلام عليك يا شهر التراويح ، السلام عليك يا شهر الأنوار والمصابيح ، السلام عليك يا أنس العارفين ، السلام عليك يا فخر الواصفين ، السلام عليك يا نور الوامقين ، السلام عليك يا روضة العابدين ، فياشهرنا غير مودع ودعناك ، وغير مقلى فارقناك ، كان نهارك صدقة وصياما ، وليلك قراءة وقياما ، فعليك منا تحية وسلاما ، أتراك تعود بعدها علينا أو يدركنا المنون فلا تئول إلينا ، مصابيحنا فيك مشهورة ، ومساجدنا فيك معمورة ، فالآن تنطفى المصابيح ، وتنقطع التراويح ، ونرجع إلى العادة ، ونفارق شهر العبادة فياليت شعرى من المقبول منا فنهنيه بحسن عمله ، أم ليت شعرى من المطرود منا فنعزيه بسوء عمله ، فيا أيها المقبول هنيئا لك بثواب الله عزّ وجل ورضوانه ورحمتـه وغفرانه وقبوله وإحسانه وعفوه وامتنانه وخلوده فى دار أمانه ، ويا أيها المطرود بإصراره وطغيانه وعدوانه وغفلته وخسرانه وتماديه وعصيانه ، لقد عظمت مصيبتك بغضب الله وهـوانه فأين مقلتك الباكية ،

وأين دمعتك الجارية، وأين زفرتك الرائحة الغادية ، لأىّ يوم أخرت توبتك، ولأىّ عام ادّخرت عدتك ، إلى عام قابل وحول حائل ، كلا فما إليك مدة الأعمار ، ولا معرفة المقدار ، فكم من مؤمل أمل بلوغه فلم يبلغه، وكم من مدرك له ولم يختمه ، وكم من أعدّ طيبا لعيده جعل فى تلحيده وثيابا لتزيينه صارت لتكفينه ، ومتأهبا لفطره صار مرتهنا فى قبره ، وكم من لا يصوم بعده سواه وهو يطمع فى غيره أن يراه ، فاحمدوا الله عباد الله على بلوغ اختتامه ، وسلوه قبول صيامه وقيامه ، وراقبوه بأداء حقوقه ، واعتصموا بحبل الله وتوفيقه ، واعلموا رحمكم الله أنكم فارقتم شهرا عظيما متفضلا كريما ؛ أين الصوّام القوّام الموافقون لكم فى سالف الأعوام ، وأين من كان معكم ليالى شهر رمضان شاهدين ، وفى كل حق الله معاملين من الآباء والأمهات والأخوة والأخوات والجيرة والقرابات ، أتاهم والله هادم اللذات وقاطع الشهوات ومفرّق الجماعات ، فأخلى منهم المشاهد ، وعطل منهم المساجد تراهم فى بطون الإلحاد صرعى ، لا يجدون لما هم فيه دفعا ، ولا يملكون لأنفسهم ضرّا ولا نفعا ، ينتظرون يوما الأمم فيه إلى ربهم تدعى ، والخلائق تحشر إلى الموقف وتسعى ، والفرائص ترتعد من هول ذلك اليوم جمعا ، والقلوب تتصدّع من الحساب صدعا ، ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا ، عباد الله من كان منع نفسه من الحرام فى شهر رمضان فليمنعها فيما بعده من الشهور والأعوام ، فإن إله الشهرين واحد ، وهو على الزمانين مطلع شاهد ، جزانا الله وإياكم على فراق شهر البركة ، وأجزل أقسامنا وأقسامكم من رحمته المشتركة ، وبارك لنا ولكم فى بقيته ، وسلك بنا وبكم طريق هدايته برحمته وفضله ومنته ؛ اللهمّ وما قسمت فى هذه الليلة من عتق وغفران ، ورحمة ورضوان ، وعفو وامتنان ، وكرم وإحسان ، ونجاة من النيران ، وخلود فى نعيم الجنان ، فاجعل لنا منه أوفر الحظ وأجزله الأقسام برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ فكما بلغتنا شهر الصيام ، فاجعل عامه علينا من أبرك الأعوام ، وأيامه من أسعد الأيام ، وتقبل منا ما قدمناه فيه من الصيام والقيام ، واغفر لنا ما اقترفنا فيه من الآثام ، وخلصنا من مظالم الأنام يوم لا يرجى فيه سواك يا علام يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ إنا قد تولينا صيام شهرنا وقيامه على تقصير ، وأدينا فيه من حقك قليلا من كثير ، وقد أنخنا ببابك سائلين ، ولمعروفك طالبين ، فلا تردّنا خائبين ، ولا من رحمتك آيسين ، فنحن الفقراء إليك ، الأسرى بين يديك ، إليك توجهنا ، ولمعروفك تعرضنا ، ولبابك قرعنا ، ومن رحمتك سألنا ، فارحم خضوعنا ، واجبر قلوبنا واستر عيوبنا ، واغفر ذنوبنا وأقرّ فى القيامة عيوننا ، ولا تصرف وجهك الكريم عنا ، واجعل عملنا مقبولا ، وسعينا مشكورا وحظنا فى هذه الليلة موفورا ؛ اللهمّ إن كان فى سابق علمك أن تجمعنا فى مثله فبارك لنا فيه ، وإن قضيت بقطع آجالنا وما يحول بيننا وبينه فاحسن الخلافة على باقينا ، وأوسع الرحمة على ما ضينا ، وعمنا جميعا برحمتك وغفرانك ، واجعل الموعد بحبوح جنتك ورضوانك ، (مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ وأهل القبور رهائن ذنوب لا يطلقون ، وأسارى وحشة لا يفكون

وغرباء سفر لاينتظرون ، تحت دارسات الثرى محاسن وجوههم ، وجاورهم هوامّ فى ملاحد قبورهم ؛ فهم جمود لايتكلمون ، وجيران قرب لايتزاورون ، وسكان لحد إلى الحشر لايظعنون وفيهم محسنون ومسيئون ، ومقصرون ومجتهدون ؛ اللهمّ فمن كان منهم مسرورا فزده كرامة وحبورا ، ومن كان منهم ملهوفا فبدّل حزنه فرحا وسرورا ؛ اللهمّ وتعطف على كافة أموات المسلمين الراحلين ، والمقيمين المستسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين ؛ اللهمّ اجعل قبورهم مفايض صلواتك ومقار هباتك وطرق إحسانك ومجارى عفوك وغفرانك ، حتى يكونوا إلى بطون الألحاد مطمئنين ، وبجودك وكرمك واثقين ، وإلى أعلى درجاتك سابقين ، واخصص بذلك الآباء والبنين والأخوة والأقربين ، قبل أن يشتمل الهدم على البناء ، والكدر على الصفاء ، وينقطع من الحياة حبل الرجاء وتصير المنازل تحت أطباق الثرى ، وقبل أن يصير الريح ويلا ، والقطر سيلا ، والصبح ليلا ، ويسحب الموت على أهل السموات والأرض ذيلا ، وقبل أن يقول الشيخ الكبير : واشيباه ، ويقول الكهل الخطير : واخجلتاه ، ويقول المذنب المسىء : واخيبتاه ، ويقول الحدث الصغير : واحسرتاه ، واخجلوا منه وأشفقوا وغشيتهم من الندامة ، وختم على أفواههم فلم ينطقوا ، ووقفوا على عمل نكس الرءوس فأطرقوا ، وعاينوا من الأهوال ما ودّوا معه أنهم لم يخلقوا ؛ اللهمّ يا سائق القوت ويا سامع الصوت ، ويا كاسى العظام بعد الموت ، صلّ على محمد وعلى آل محمد ، ولا تدع لنا فى هذه الليلة المباركة الشريفة ذنبا إلا غفرته ، ولا هما إلا فرّجته ، ولا كربا إلا كشفته ، ولا مبتلى إلا عافيته ، ولا ذا إساءة الا نقلته ، ولا حقا إلا استخلصته ، ولا غائبا إلا رددته ، ولا عاصيا إلا قطعته ، ولا ميتا إلا رحمته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة لك فيها رضا ولنا فيها صلاح إلا أعنتنا على قضائها بتيسير وعافية ، مع المغفرة برحمتك يا أرحم الراحمين ، اغفر لنا ذنوبنا ولآبائنا وأمهاتنا وإخواننا وأخواتنا وذرياتنا وقراباتنا وأصدقائنا ومعلمينا ، ومن قرأنا عليه وقرأ علينا ، وتعلمنا منه وتعلم منا ، ومن سألنا الدعاء وسألناه الدعاء ، ومن أحبنا فيك ، ومن تولانا فيك ومن توليناه فيك ، و من كان منهم حيا ومن كان منهم ميتا برحمتك يا أرحم الراحمين ، اللهمّ يا عالم الخفيات ، ويا دافع البليات ، ويا مجيب الدعوات ويا كاشف الكربات ، صلّ على محمد أفضل البريات ، وانفعنا بما صرفت فى كتابك من الآيات ، وكفر عنا بتلاوته السيئات ، وارفع لنا بصيام شهر رمضان وقيامه عندك الدرجات ، برحمتك يا عالم الخفيات ، صلّ على محمد وعلى آل محمد ، واغفر بالقرآن خطايانا ، وأجزل به عطايانا ، واشف به مرضانا ، وارحم به موتانا ، وأصلح به أمور ديننا ودنيانا ، واحطط به عنا ثقل الأوزار ، وهب لنا حسن شمائل الأبرار ، واغفر لنا الزلل والعثار وطهر لنا القلوب والأسرار ، وطيب لنا به الأذكار وصف لنا به الأفكار ، وأرخص لنا الأسعار ، واصرف عنا شرّ الأشرار وكيد الفجار ، وأحينا على حبّ الصحابة الأخيار ، واجمع بيننا وبينهم فى دار القرار ، واجعلنا من عتقائك من النار ، وآتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة

وقنا عذاب النار ، الحمد لله على سوابغ نعمائه وصلواته على محمد خاتم أنبيائه ، وعلى آله وعلى أصحابه وأزواجه وسلم تسليما كثيرا .

كتاب آداب المريدين

من الفقراء الصادقين سالكي طريق الصوفية الذين صفوا عن الأهوية المضلة، وأمسكوا عن الأخلاق الردية فأدخلوا فى زمرة الأبدال وأهل الولاية ، واتصفوا بالعينية على وجه الاختصار والإقلال ، خشية السآمة والملال

(فصل : فى الإرادة والمريد والمراد) أما الإرادة : فترك ما جرت عليه العادة ، وتحقيقها نهوض القلب فى طلب الحق سبحانه وترك ما سواه ؛ فإذا ترك العبد العادة التى هى حظوظ الدنيا والأخرى فتجرد حينئذ إرادته ، فالإرادة مقدمة على كل أمر ، ثم يعقبها القصد ، ثم الفعل ، فهى بدء طريق كل سالك واسم أول منزلة كل قاصد، قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) فنهى نبيه صلى الله عليه وسلم عن طردهم وإبعادهم ، وقال تعالى فى آية أخرى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه، ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) فأمره صلى الله عليه وسلم بالصبر معهم وملازمتهم وتصبر النفس فى صحبتهم ، ووصفهم بأنهم يريدون وجهه، ثم قال (ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) فبان بذلك أن حقيقة الإرادة إرادة وجه الله فحسب ، ذلك زينة الحياة الدنيا والأخرى . فأما المريد والمراد ، فالمريد : من كانت فيه هذه الجملة واتصف بهذه الصفة ، فهو أبدا مقبل على الله عز وجل وطاعته ، مول عن غيره وإجابته ، يسمع من ربه عز وجل فيعمل بما فى الكتاب والسنة ، ويصم عما سوى ذلك ، ويبصر بنور الله عز وجل فلا يرى إلا فعله فيه ، وفى غيره من سائر الخلائق ، ويعمى عن غيره فلا يرى فاعلا على الحقيقة غيره عز وجل ، بل يرى آلة وسببا محركا مدبرا مسخرا ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « حبك الشىء يعمى ويصم » أى يعميك عن غير محبوبك ، ويصمك عنه لاشتغالك بمحبوبك ؛ فما أحب حتى أراد ، وما أراد حتى تجردت إرادته ، وما تجردت إرادته حتى قذفت فى قلبه جمرة الخشية فأحرقت كل ما هنا لك ، قال الله عز وجل (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) كما قيل : إنها لوعة تهون كل روعة فنومه غلبة وأكله فاقة ، وكلامه ضرورة ، ينصح نفسه أبدا فلا يجيبها إلى محبوبها ولذاتها ، وينصح عباد الله ويأنس بالخلوة مع الله ، ويصبر عن معاصى الله تعالى ويرضى بقضاء الله ويختار أمر الله ، ويستحى من نظر الله ، ويبذل مجهوده فى محاب الله تعالى ، ويتعرض أبدا لكل سبب يوصله إلى عز وجل ويقنع بالخمول والاختفاء، فلا يختار حمد عباد الله ويتحبب إلى ربه بكثرة النوافل ، مخلصا لله حتى يصل إلى الله عز وجل ، ويحصل فى زمرة أحباب الله تعالى ومريدية ، فحينئذ يسمى مرادا ، فتحط عنه أثقال سالكى طريق الله ، ويغسل بماء رحمة الله ورأفته . لطفه ،

فيبنى له بيت فى جوار الله، وتخلع عليه أنواع الخلع ، وهى المعرفة بالله والانس به ، والسكون والطمأنينة إليه ، وينطق بحكمة الله وأسرار الله بعد الإذن الصريح ، بل بالخبر عن الله عزّ وجل ويلقب بألقاب يتميز بها بين أحباب الله تعالى، فيدخل فى خواص الله، ويسمى بأسماء لا يعلمها إلا الله ، ويطلع على أسرار تخصه ، فلا يبوح بها عند غير الله عزّ وجل ، فيسمع من الله ويبصر بالله وينطق بالله ويبطش بقوّة الله ، ويسعى فى طاعة الله ، ويسكن إلى الله ، وينام مع طاعة الله ، وذكر الله فى كلاءة الله ، وحرز الله ، فيكون من أمناء الله وشهدائه ، وأوتاد أرضه ومنجى عباده وبلاده وأحبائه وأخلائه ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم حاكيا عن الله تعالى لايزال عبدى المؤمن يتقرّب إلى بالنوافل حتى أحبه، « فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وفؤاده، فبى يسمع وبى يبصر وبى ينطق وبى يعقل وبى يبطش» الحديث . فهذا عبد حمل عقله العقل الأكبر ، وسكنت حركاته الشهوانية لقبضة الحقّ عزّ وجل، فصار قلبه خزانة الله عزّ وجل فهذا هو مراد الله تعالى إن أردت أن تعرفه يا عبد الله ، وقد قال من تقدم من عباد الله تعالى : إن المريد والمراد واحد، إذ لو لم يكن مراد الله عزّ وجل بأن يريده لم يكن مريدا ، ولا يكان إلا ما أراد ، لأنه إذا أراده الحقّ بالخصوصية وفقه بالإرادة . وقال آخرون: المريد المبتدئ ، والمراد ؛ المنتهى ، المريد : الذى نصب بعين التعب وألقى فى مقاساة المشاق ، والمراد : الذى لقى الأمر من غير مشقة ؛ المريد متعب والمراد : مرفوق به مرفه . فالأغلب فى حق القاصدين المبتدئين فى سنة الله تعالى ما قد تمّ وجرى من توفيق الله تعالى للمجاهدات ؛ ثم إيصالهم إليه وحطّ الأثقال عنهم ، والتخفيف عنهم فى كثير من النوافل وترك الشهوات ، والاقتصار على القيام بالفرائض والسنن من جميع العبادات ، وحفظ القلوب ومحافظة الحدود والمقام ، والانقطاع عما سوى الحقّ عزّ وجل بالقلوب ، فيكون ظواهرهم مع خلق الله تعالى ، وبواطنهم مع الله عزّ وجل ؛ ألسنتهم بحكم الله ، وقلوبهم بعلم الله ؛ فألسنتهم لنصح عباد الله ، وأسرارهم لحفظ ودائع الله ، فعليهم سلام الله وتحياته وبركاته ورحمته وتحيته ما دامت أرضه وسماؤه ، وقام العباد بطاعته وحقه ، وحفظ حدوده . وسئل الجنيد رحمه الله عن المريد والمراد ؛ فقال : المريد : تتولاه سياسة العلم ، والمراد : تتولاه رعاية الحق ، لأن المريد يسير ، والمراد يطير ، فمتى يلحق السائر الطائر ؟ وينكشف ذلك بموسى ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كان موسى عليه السلام مريدا، ونبينا صلى الله عليه وسلم مرادا ، انتهى سير موسى عليه السلام إلى جبل طور سيناء ، وطيران نبينا صلى الله عليه وسلم إلى العرش واللوح المحفوظ ؛ فالمريد طالب ، والمراد مطلوب ؛ عبادة المريد مجاهدة ، وعبادة المراد موهبة ؛ المريد موجود ، والمراد فان ؛ المريد يعمل للعوض ، والمراد لايرى العمل بل يرى التوفيق والمنن؛ المريد يعمل فى سلوك السبيل ، والمراد قائم على مجمع كل سبيل ؛ المريد ينظر بنور الله والمراد ينظر بالله : المريد قائم بأمر الله ، والمراد قائم بفعل الله ؛ المريد يخالف هواه ، والمراد يتبرأ من إرادته ومناه ؛ المريد يتقرّب والمراد يقرب ؛ والمريد يحمى ، والمراد يدلل وينعم ويغذى ويشهى ؛ المريد محفوظ ، والمراد يحفظ به المريد :

فى الترقى ، والمراد قد وصل وبلغ إلى الربّ الذى هو المرقى ، ونال عنده كل طريف ونفيس ولطيف ونبى ، فجاز على كل طائع عابد متقرّب بار تقىّ .

(فصل : ما المتصوف وما الصوفى ؟) أما المتصوّف : فهو الذى يتكلف أن يكون صوفيا ، ويتوصل بجهده إلى أن يكون صوفيا ، فإذا تكلف وتقمص بطريق القوم وأخذ به يسمى متصوّفا كما يقال لمن لبس القميص تقمص ، ولمن لبس الدراعة تدرّع ، ويقال : متقمص ومتدرع ، وكذلك يقال لمن دخل فى الزهد : متزهد ، فإذا انتهى فى زهده وبلغ وبغضت الأشياء إليه وفنى عنها ، فترك كل واحد منهما صاحبه ، سمى حينئذ زاهدا ، ثم تأتيه الأشياء وهو لايريدها ولا يبغضها ، بل يمتثل أمر الله فيها ، وينتظر فعل الله فيها ، فيقال لهذا متصوّف وصوفىّ إذا اتصف بهذا المعنى ، فهو فى الأصل صوفىّ على وزن فوعل ، مأخوذ من المصافاة ، يعنى عبدا صافاه الحقّ عز وجل ، ولهذا قيل : الصوفىّ من كان صافيا من آفات النفس ، خاليا من مذموماتها ، سالكا لحميد مذاهبه ، ملازما للحقائق غير ساكن بقلبه إلى أحد من الخلائق . وقيل : إن التصوّف : الصدق مع الحقّ ، وحسن الخُلق مع الخلق . وأما الفرق بين المتصوّف والصوفىّ ، فالمتصوّف المبتدى ، والصوفى المنتهى ؛ المتصوّف الشارع فى طريق الوصل ، والصوفىّ من قطع الطريق ووصل إلى من إليه القطع والوصل ؛ المتصوّف متحمل ، والصوفىّ محمول ؛ حمل المتصوّف كلّ ثقيل وخفيف ، فحمل حتى ذابت نفسه ، وزال هواه ، وتلاشت إرادته وأمانته فصار صافيا فسمى صوفيا ، فحمل فصار محمول القدر كرة المشيئة ، مربى القدس ، منبع العلوم والحكم ، بيت الأمن والفوز ، كهف الأولياء والأبدال وموئلهم ومرجعهم ومتنفسهم ومستراحهم ومسرّتهم ، إذ هو عين القلادة درّة التاج منظر الربّ ؛ والمريد المتصوف مكابد لنفسه وهواه وشيطانه وخلق ربه ودنياه وأخراه ، متعبد لربه عزّ وجل بمفارقة الجهات الستّ والأشياء وترك العمل لها وموافقتها ، والقبول منها وتصفية باطنه من الميل إليها والاشتغال بها ، فيخالف شيطانه ويترك دنياه ، ويفارق أقرانه وسائر خلق ربه بحكمه عزّ وجل لطالب أخراه ، ثم يجاهد نفسه وهواه بأمر الله عزّ وجل فيفارق أخراه ، وما أعدّ عزّ وجل لأوليائه فيها من جنة لرغبته فى مولاه ، فيخرج من الأكوان فيصفى من الأحداث ويتجوهر لربّ الأنام ، فتنقطع منه العلائق والأسباب والأهل والأولاد ، فتنسدّ عنه الجهات ، وتنفتح فى وجهه جهة الجهات ، وباب الأبواب ، وهو الرضا بقضاء ربّ الأنام ، وربّ الأرباب ، ويفعل فيه فعل العالم بما كان وما هوآت ، والخبير بالسرائر والخفيات ، وما تتحرّك به الجوارح ، وما تضمره القلوب والنيات ، ثم يفتح تجاه هذا الباب باب يسمى باب القربة إلى المليك الديان ، ثم يرفع منه إلى مجالس الأنس ، ثم يجلس على كرسى التوحيد ، ثم يرفع عنه الحجب ويدخل دار الفردانية ، ويكشف عنه الجلال والعظمة ، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقى بلا هو ، فانيا عن نفسه وصفاته ، عن حوله وقوّته وحركته وإرادته ومناه ودنياه وأخراه ، فيصير كإناء بلور مملوء ماء صافيا ، تتبين فيه الأشباح ، فلايحكم عليه غير القدر ، ولا يوجده غير الأمر ،

فهو فانٍ عنه وعن حظه ، موجود لمولاه وأمره ، لايطلب خلوة لأن الخلوة للموجود ، فهو كالطفل لا يأكل حتى يطعم ، ولا يلبس حتى يلبس ، فهو مسترسل مفوّض (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) الآية ، إلا أنه كائن بين الخليقة بالجسم ، بائن عنهم بالأفعال والأعمال والسرائر والظواهر والضمائر والنيات ، فحينئذ يسمى صوفيا ؛ على معنى أنه يصفى من التكدر بالخليقة والبريات ، وإن شئت سميته بدلا من الأبدال ، وعينا من الأعيان ، عارفا بنفسه وربه ، الذي هو محيي الأموات ، المخرج أولياءه من ظلمات النفوس والطباع والأهوية والضلالات إلى ساحة الذكر والمعارف والعلوم والأسرار ونور القربة ، ثم إلى نوره عزّ وجل (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة ـ الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) فالله تعالى تولى إخراجهم من الظلمات إلى النور ، وهو عزّ وجل أطلعهم على ما أضمرت قلوب العباد ، وانطوت عليه النيات ، إذ جعلهم ربى جواسيس القلوب والأمناء على السرائر والخفيات ، وحرسهم من الأعداء فى الخلوات والجلوات ، لا شيطان مضلّ ولا هوى متبَع يميل بهم إلى الزلات ، قال الله عز وجل (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) ولا نفس أمارة بالسوء ، ولا شهوة غالبة متبعة تدعوه إلى اللذات المردية فى الدركات المخرجة من أهل السنة والجماعات ، قال عزّ من قائل (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) فحرسهم ربى ، وقمع رعونات نفوسهم وضراوتها بسلطان الجبروت ، فثبتهم فى مراتبهم ووفقهم للوفاء بشرطه ، بعد أن وفقهم للوفاء بالصدق فى سيرهم ، وبالصبر فى محلّ انقطاعهم واضطرارهم ، فأدوا الفرائض وحفظوا الحدود والأوامر ، وألزموا المراتب حتى قوّموا وهذّبوا ونُقّوا وأدبوا وطهروا وطيبوا ووسعوا وزكوا وشجعوا وعوّذوا ، فتمت لهم ولاية الله وتوليته (الله ولى الذين آمنوا) ، وقوله تعالى (وهو يتولى الصالحين) فنقلوا من مراتبهم إلى مالك الملك ، فرتب لهم ذلك بين يديه ، فصار نجواهم كفاحا يناجونه بقلوبهم وأسرارهم ، فاشتغلوا به عمن سواه ، ونهوا عن نفوسهم ، وعن كل شيء هو ربّ كلّ شيء ومولاه ، فصيرهم فى قبضته ، وقيدهم بعقولهم وجعلهم أمناء ، فهم فى قبضته وحصنه وحراسته ، يتشممون روح القرب ويعيشون فى فسحة التوحيد والرحمة ، فلا يشتغلون بشيء إلا بما أذن لهم من الأعمال ، فإذا جاء وقت عمل أبدانهم دون قلوبهم ، مضوا مع الحرس فى تلك الأعمال ، كى لا تضرّهم شياطينهم ونفوسهم وأهويتهم ، فتسلم أعمالهم من حظّ الشياطين ، وهنات النفوس من الرياء والنفاق والعجب وطلب الأعواض ، والشرك بشيء من الأشياء والحول والقوّة ، بل يرون جميع ذلك فضلا من الله وتوفيقا من الله خلقا ، ومنهم بتوفيقه كسبا ، لئلا يخرجوا بعد هذه العقيدة من سنن الهدى ، ثم يردون بعد أداء تلك الأوامر ، وفراغ تلك الأعمال إلى مراتبهم التى ألزموها ، فوقفوا معها وحفظوها بالقلوب والضمائر ، وقد ينقلون إلى حالة بعد أن جعلوا الأمناء ، وخوطب كل واحد منهم بالانفراد فى حالته (إنك اليوم لدينا مكين أمين) فلا يحتاجون فيها إلى إذن ، لأنهم صاروا كالمفوّض إليهم أمرهم ، فهم فى قبضته حيثما ذهبوا فى شيء من أمورهم يحققه قول النبيّ صلى الله

عليه وسلم فيما يحكيه عن جبريل عليه السلام، عن الله عز وجل أنه قال « ماتقرّب إلى عبدى بمثل أداء فرائضى ، وإنه ليتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وفؤاده ، فبى يسمع وبى يبصر وبى ينطق وبى يعقل وبى يبطش » . فهذا الخبر قد ذكرناه فى مواضع من هذا الكتاب ، لأنه أصل فى هذا المقام ، فيمتلىء قلب هذا العبد بحبّ ربه عزّ وجل ونوره وعلمه والمعرفة به ، فلا يصح غير ذلك ؛ ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم « من أحبّ أن ينظر إلى رجل يحبّ الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم مولى أبى حذيفة رضى الله عنه » ، فظاهره متحرّك متصرّف بفعل الله تعالى ، وباطنه مملوء بالله عزّ وجل ، وقد قال موسى عليه السلام « يا ربّ أين أبغيك قال : ياموسى أىّ بيت يسعنى ، وأىّ مكان يحملنى؟ فإن أردت أن تعلم أين أنا فأنا فى قلب التارك الوادع العفيف ؟ » فالتارك هو الذى يترك بجهد وفيه بقية ، ثم منّ عليه ربه فودعه موتا عنه ثم عفا ، فلا يلتفت إلى شىء سوى مولاه . فإن قيل : فما تلك المنة التى منّ بها ربه عليه ؟ قلنا : هى أنه عزّ وجل أقامه فى المرتبة على شرطية اللزوم لها ليقوم بها ، فلما وفى له بالشرط ولم يبغ عملا وحركة غيرذلك وحفظه ولم يتجاوز نقله منها إلى مُلْك الجبروت ليقوم، فجبر نفسه ثم قمعها بسلطان الجبروت حتى ذلت وخشعت ثم نقله منها إلى الملك السلطان ليهذب ، فذابت تلك الغدد التى فى نفسه ، وهى أصول تلك الشهوات التى قد صارت غدة ثابتة فيها ، ثم نقله منها إلى ملك الجلال فأدّب ، ثم نقله منها إلى ملك الجمال فنقى ، ثم نقله إلى ملك العظمة فطهر ، ثم إلى ملك البهاء فطيب ، ثم إلى ملك البهجة فوسع ، ثم إلى ملك الهيبة فربى ، ثم إلى ملك الرحمة فرطب وقوى وشجع ، ثم إلى ملك الفردية فأفرد ؛ فاللطف يغذيه ، والرأفة تجمعه وتكتنفه ، والمحبة تقوّيه ، والشوق يدنيه ، والمشيئة تؤدّيه إليه ، والجواد العزيز يقلبه فيقربه، ثم يدنيه ثم يمهله ثم يؤدبه ثم يناجيه ثم يبسطه بمنه ثم يقبض عليه ، فأينما صار وفى كل مكان خال وفى كل حال لربه دان فهو فى قبضته ، وأمين من أمنائه على أسراره ، وما يؤديه من ربه إلى خلقه ، فإذا صار إلى هذا المحلّ فقد انقطعت الصفات وانقطع الكلام والعبارات ، فهذا هو منتهى العقول والقلوب ، وغاية ما تبلغ حالات الأولياء إليه وتئول ، وما وراء ذلك مختص بالأنبياء والرسل عليهم السلام ، لأن نهاية الولىّ بداية النبىّ على الجميع صلوات الله وتحياته ورأفته ورحمته ، والفرق بين النبوّة والولاية أن النبوّة كلام ينفصل من الله تعالى ووحى ، معه روح من الله يقضى الوحى ، ويختمه بالروح ، منه تعالى قبوله فيقبله ، هذا هو الذى يلزم تصديقه ، ومن ردّه فهو كافر ، لأنه رادّ لكلام الله عزّ وجل ؛ وأما الولاية فهى لمن تولى الله عزّ وجل حديثه على طريق الإلهام فأوصله إليه فله الحديث ، فينفصل ذلك الحديث من الله على لسان الحق معه السكينة ، فتلقاه السكينة التى فى قلب المجذوب فيقبله ويسكن إليه ؛ فالكلام للأنبياء ، والحديث للأولياء ، فمن ردّ الكلام كفر ، لأنه ردّ على الله كلامه ووحيه ؛ ومن ردّ الحديث لم يكفر ، بل يخيب ويصير وبالا عليه ويبهت قلبه ، لأنه ردّ على الحق ما جاء به محبة الله تعالى ممن علم الله فى نفسه فأودعه الحق ، وجعله مؤدّى

إلى القلب ، لأن الحديث ما ظهر من علمه الذى برز فى وقت المشيئة ، فيصير حديثا فى النفس كالسرّ ، إنما يقع ذلك الحديث بمحبة من الله لهذا العبد ، فيمضى مع الحق إلى قلبه فيقبله القلب بالسكينة .

باب فيما يجب على المبتدئ فى هذه الطريقة أولا

وما يجب عليه من الأدب مع الشيخ ثانيا ، وما يجب على الشيخ فى تأديب المريد

فالذى يجب على المبتدى فى هذه الطريقة الاعتقاد الصحيح الذى هو الأساس ، فيكون على عقيدة السلف الصالح أهل السنة القديمة سنة الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ، والأولياء والصدّيقين على ما تقدم ذكره وشرحه فى أثناء الكتاب ؛ فعليه بالتمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما أمرا ونهيا ، أصلا وفرعا ، فيجعلهما جناحيه يطير بهما فى الطريق الواصل إلى الله عزّ وجل ، ثم الصدق ثم الاجتهاد ، حتى يجد الهداية والإرشاد إليه والدليل ، وقائدا يقوده ، ثم مؤنسا يؤنسه ، ومستراحا يستريح إليه فى حالة إعيائه ونصبه وظلمته عند ثوران شهواته ولذاته وهنات نفسه وهواه المضل ، وطبعه المجبول على التثبط والتوقف عن السير فى الطريق قال الله عزّ وجل (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) : وقال الحكيم : من طلب وجدّ وجد . فبالاعتقاد يحصل له علم الحقيقة ، وبالاجتهاد يتفق له سلوك الحقيقة ، ثم يجب عليه أن يخلص مع الله عزّ وجل عهدا بأن لا يرفع قدما فى طريقه إليه ، ولا يضعها إلا بالله مالم يصل إلى الله ، فلا ينصرف عن قصده بملامة مليم لأن الصادق لايرجع ، ولا بوجود كرامة فلا يقف معها ويرضى بها عن الله عزّ وجل عوضا ، إذ هى حجابه عن ربه مالم يصل إليه عزّ وجل ، فإذا حصل الوصول لا تضرّه الكرامات ، إذ هى من باب القدرة وثمراتها وعلاماتها ، ووصوله إلى الحق عزّ وجل من القدرة ، فلا ينقض الشيء نفسه ، وكيف وقد يصير هو حينئذ قدوة فى الأرض وخرق عادة ، وكلامه حكمة بالغة من بعد جهل وعجمة وبلادة وقصور ، وحركاته وسكناته وتصاريفه عبرة لمن اعتبرها ، وأفعال الله تجرى فيه وعليه مما يبهر العقول ، ثم قد يؤمر حينئذ بطلب الكرامة ويجبر عليه ، وتحقق عنده أن دماره وهلاكه فى ترك الطلب ومخالفة هذا الأمر ، وثباته وبقاؤه وعبادته وقربته ومرضاة ربه ودنوّه منه وزيادة محبة ربه له فى طلبها وامتثال أمره فيها ، فكيف تضرّه الكرامة حينئذ أن يكون ذلك بينه وبين ربه عزّ وجل ، ولايظهره لأحد من العوامّ إلا أن يغلب عليه ظهوره ، لأن من شرط الولاية كتمان الكرامات ، ومن شروط النبوّة والرسالة إظهار المعجزات ، ليقع بذلك الفرق بين النبوّة والولاية . ولا ينبغى له أن يعرج فى أوطان التقصير ، ولا يخالط المقصرين والبطالين أبناء قيل وقال ، أعداء الأعمال والتكاليف ، المدّعين للإسلام والإيمان ، الذين قال الله عزّ وجل فى حقهم (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لاتفعلون) وقال فى أختها (أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) . وينبغى له أن لا يضنّ ببذل الميسور ،

ولا يبخل بالموجود خوفا أن ينال مثله للإفطار والسحور ، ويقطع فى نفسه وبقلبه علما بأن الله لم يخلق وليا له فى سالف الدهور بخيلا ببذل الميسور . وينبغى له أن يرضى بالذلّ الدائم وحرمان النصيب ، والجوع الدائم والخمول ، وذمّ الناس له ، وتقديم أضرابه وأشكاله وأقرانه عليه فى الإكرام والعطاء ، والتقريب عند الشيوخ ومجالس العلماء ، فيجوع هو والجماعة يشبعون ، والكل أعزّاء ، ونصيبه الذلّ ويعزّ الجميع ويكون يستخير لنفسه الذلّ ويجعله نصيبه ، ومن لم يرض بهذا ويوطن نفسه عليه فلا يكاد أن يفتح عليه ويجىء منه شىء ، فالنجاح الكلى والفلاح فيما ذكرنا ، وينبغى له أن لا ينتظر من الله مطلوبا سوى المغفرة لما سلف من الذنوب ، والعصمة فيما يأتى من الدهور ، والتوفيق لما يحبه من الساعات ويوصله إليه من القربات ، ثم الرضا عنه فى الحركات والسكنات والتحبب إلى الشيوخ من الأولياء والأبدال إذ ذاك سبب لدخوله فى زمرة الأحباب ذوى العقول والألباب ، الذين عقلوا من ربّ الأرباب ، واطلعوا على العبر والآيات ، فصفت حينئذ القلوب والضمائر والنيات ، فهذا الذى ذكرته صفة المريد ؛ فلما لم يتجرّد قلبه عن جميع الطلبات والمآرب ، وينتفى عن غيرها ما ذكرنا من الحوائج والمطالب ، لا يكون مريدا على نعت الاستحقاق .

(فصل) وأما آدابه مع الشيخ ، فالواجب عليه ترك مخالفة شيخه فى الظاهر ، وترك الاعتراض عليه فى الباطن ؛ فصاحب العصيان بظاهره تارك لأدبه ، وصاحب الاعتراض بسرّه متعرّض لعطبه ، بل يكون خصما على نفسه لشيخه أبدا ، يكفّ نفسه ويزجرها عن مخالفته ظاهرا وباطنا ويكثر قراءة قوله عزّ وجل (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رءوف رحيم) وإذا ظهر له من الشيخ ما يكره فى الشرع استخبر عن ذلك بضرب المثل والإشارة ، ولا يصرّح به لئلا ينفر به عليه وإن رأى فيه عيبا من العيوب ستره عليه ، ويعود بالتهمة على نفسه ، ويتأوّل للشيخ فى الشرع ، فإن لم يجد له عذرا فى الشرع استغفر للشيخ ودعا له بالتوفيق والعلم والتيقظ والعصمة والحمية ، ولا يعتقد فيه العصمة ؛ ولا يخبر أحدا به ، وإذا رجع إليه يوما آخر أو ساعة أخرى يعتقد أن ذلك قد زال ، وأن الشيخ قد نقل إلى ما هو أعلى رتبة ولم يقرّ عليه ، وإنما كان ذلك غفلة وحدثا وفصلا بين الحالين ، لأن لكل حالين فصلا ورجوعا إلى رخص الشرع وإباحته وترك العزيمة والأشد ، كالدهليز بين الدارين ، والمنزلة بين المنزلتين ، انتهاء للحالة الأولى ، وقياما على عتبة الحالة الثانية ، وانتقالا من ولاية إلى أخرى ، وخلع خلعة ولاية ، ولبس خلعة ولاية أخرى ، التى هى الأعلى والأشرف لأنهم كل يوم فى مزيد قرب من الله عزّ وجل ؛ وإذا غضب الشيخ وعبس فى وجهه أو ظهر منه نوع إعراض عنه لم ينقطع عنه ، بل يفتش باطنه وما جرى منه من سوء الأدب فى حقّ الشيخ أو التفريط فيما يعود إلى أمر الله عزّ وجل ، من ترك امتثال الأمر وارتكاب النهى ، فليستغفر ربه عزّ وجل وليتب إليه ، ويعزم على ترك المعاودة إليه ، ثم يعتذر إلى الشيخ ويتذلل له ويتملقه ، ويتحبب إليه بترك المخالفة له فى المستقبل ، ويداوم على المرافقة له ، ويواظب عليها ، فيجعله

وسيلة وواسطة بينه وبين ربه عزّ وجل ، وطريقا وسببا يتوصل به إليه ، كمن يريد الدخول على ملك ولا معرفة له به ، فإنه لابدّ له من أن يصادف حاجبا من حجابه ، أو واحدا من حواشيه وخواصه ، ليبصره بسياسة الملك ودأبه وعادته ، ويتعلم الأدب بين يديه والمخاطبة له ، وما يصلح له من الهدايا والطرائف مما ليس مثلها فى خزانته ، ومما يؤثر الاستكثار ، فليأت البيت من بابه ولا يتسلق من ورائه من غير بابه ، فيلام ويهان ، ولا يبلغ الغرض من الملك ولا المقصود منه ، ولكل داخل دهشة لا بدّ له من تذكر ومنة ، ومن يأخذ بيده فيقعده موضع مثله ، أو يشير إليه بذلك لئلا تتطرق إليه المهانة ، ولا يشار إليه بسوء الأدب والحماقة ؛ وليتحقق بأن الله عزّ وجل أجرى العادة بأن يكون فى الأرض شيخ ومريد صاحب ومصحوب ، تابع ومتبوع من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة . ألا ترى إلى آدم عليه السلام لما خلقه الله تعالى علمه الأسماء كلها ، وافتتح الأمر به ، فجعله كالتلميذ مع الأستاذ ، والمريد مع الشيخ ، وقال له : يا آدم هذا فرس وهذا بغل وهذا حمار ، حتى علمه قصعة وقصيعة . ثم لما فرغ من تعليمه وتهذيبه جعله أستاذا معلما شيخا حكيما ، وكساه بأنواع الحلل والحلىّ ، وتوجه منطقة وأجلسه على كرسى فى الجنة ، وأقام الملائكة حوله صفوفا فقال (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) بعد أن ظهر عجزهم وعلمه علمهم لك ، وقولهم (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) فصارت الملائكة تلاميذ لآدم وآدم شيخهم ، فأنبأهم بأسماء الأشياء كلها على ما شهد به القرآن . فظهر فضله عليه السلام عليهم ، فصار أفضلهم وأشرفهم عند الله وعندهم ، فصار متبوعهم وهم تابعون مقتدون صلوات الله عليهم ؛ فلما جرى ما جرى من أكل الشجرة والخروج من الجنة ، والانتقال إلى حالة أخرى ومنزل غيره ، لم يعط علمه ولم يستوطنه بعد ، ولا أجرى ذلك فى خلده ، ولا ظنّ أنه سيسار به إليه ؛ فلما وصل إلى المنزل وجال فى الأرض ، استوحش منها ورأى فيها مالم يكن رآه من قبل ، فألقى عليه الجوع والعطش والحرقة والقبض ما لم يعهده من قبل ، احتاج إلى معلم ومرشد وأستاذ ودليل ومؤدب ومنبه ، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام فآنسه ، وعرّفه ما أشكل عليه من أمر المنزل ، وأعطاه الحنطة فأمره فبذرها ، ثم أمره فحصدها ، ثم أمره فذراها ، فطحنها وهيأ له أسبابها ، ثم أمره بالخبز فخبز ، ثم أمره بالأكل فأكل ، ثم لما طلب الطعام الخروج من المعدة تحير ولم يعلم بالصنع احتاج إلى معلم أيضا ، فعلمه كيف يتغوّط وكيف يتطهر وكيف يعبد الله تعالى فى المنزل ، وعلمه كيف يتوصل إلى بياض جسده الذى قد حال لونه من البياض والإشراق إلى السواد والظلمة ، فأمره بصيام أيام البيض من الشهر ثالث عشر ورابع عشر وخامس عشر ، فعاد لونه إلى البياض ، وعلّمه غير ذلك من العلوم والآداب ، فصار آدم عليه السلام تلميذا لجبريل ، وجبريل عليه السلام أستاذه وشيخه ، بعد أن كان آدم شيخه والملائكة أجمع ومتبوعهم ، وأعلمهم كل ذلك لتغير الحال به ، والانتقال من منزل إلى آخر ؛ ثم هلمّ جرا ، تعلّم شيث بن آدم من أبيه آدم ، ثم أولاده منه ، وكذلك نوح النبىّ عليه السلام علم أولاده ، وإبراهيم عليه السلام علم أولاده ، قال الله تعالى (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب)

أى أمرهم وعلمهم ، وكذلك موسى وهارون عليهما السلام علما أولادهما وبنى إسرائيل ، وعيسى عليه السلام علم الحواريين ، ثم إن جبريل عليه السلام علم نبينا صلى الله عليه وسلم الوضوء والصلاة ، ووصاه بالسواك ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم « وصانى جبريل بالسواك حتى كاد أن يفرضه ، وصلى بى جبريل عليه السلام عند البيت مرتين ، فصلى بى الظهر حين زالت الشمس » الحديث إلى آخره ، وقد تقدم ذكره . ثم تعلمت الصحابة رضى الله عنهم منه صلى الله عليه وسلم ، ثم التابعون منهم ، ثم تابعو التابعين منهم قرنا بعد قرن وعصرا بعد عصر ، فما من نبىّ إلا وله صاحب يهتدى بهداه ويقفو أثره ويتبع مذهبه ويهدى هديه ، ثم يخلفه مكانه ويقوم مقامه ، كموسى بن عمران وغلامه وابن أخته يوشع بن نون عليهم السلام ، والحواريين ، مع عيسى عليه السلام ، وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وكذلك عثمان وعلىّ وسائر الصحابة رضى الله عنهم ، وما زالت الأولياء والصدّيقون والأبدال كذلك من بين أستاذ وتلميذ كالحسن البصرى وتلميذه عتبة الغلام ، وسرىّ السقطى وغلامه وابن أخته أبى القاسم الجنيد وغيرهم مما يطول شرحه . فالمشايخ هم الطريق إلى الله عزّ وجل والأدلاء عليه والباب الذى يُدخل منه إليه ، فلا بدّ لكل مريد لله عزّ وجل من شيخ على ما بينا ، إلا على الندور والشذوذ ، فيجوز أن يصطفى الله عبدا من عباده ، فيتولى تربيته وحراسته عن الشيطان وهنات النفس والهوى ، كإبراهيم النبىّ ونبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهما ، وأويس القرنى من الأولياء وغيرهم رحمهم الله فلا ينكر ، إلا أنا بينا ما هو الأغلب والأكثر والأسلم والأحسن ؛ فلا ينبغى له أن ينقطع عن الشيخ حتى يستغنى عنه بالوصول إلى ربه عزّ وجل ، فيتولى تبارك وتعالى تربيته وتهذيبه ، ويوقفه على معانى أشياء خفيت على الشيخ ، ويستعمله مما يشاء من الأعمال ويأمره وينهاه ويبسطه ويقبضه ويغنيه ويفقره ويلقّنه ويطلعه على أقسامه وما سيئول أمره إليه ، ؛ فيستغنى بربه عن غيره ، بل لا يتفرّغ لغيره ولا يسعه إلا مراعاة الأدب لربه ، ومحافظة خدمته وحرمته وتوقيره ، فحينئذ يقطع عن الشيخ قطعا وربما حرم عليه المرور إلى الشيخ ، إلا عن صريح وخبر بيّن ، إلا ما يتفق مجىء الشيخ إليه ، أو الملاقاة له فى طريق أو جامع قدرا ولا يكون قصدا ، كل ذلك حفظا للحال ، واستغناء بالربّ وغيرة على الحال وملازمة لها ، وخيفة من الزلة والمفارقة لها والعقوبة بذلك ، وذلك أن الحكم يجمع المريد والشيخ ويسعهما والأحوال تفرّق بينهما لأنها قدَر والقدر غيب ، فهى فعل الربّ عزّ وجل ، والله تعالى فى كل يوم هو فى شأن فى تقديم وتأخير ، وتبديل وتغيير ، وولاية وعزل ، وإغناء وإفقار ، وإعزاز وإذلال ، يسوق المقادير إلى المواقيت ، لا يدرك ذلك ولا ينضبط لأحد من الخلق ، ليل مظلم وبحر لجىّ ، وبرّ شاسع لا يحيط بشىء من ذلك إلا الله عزّ وجل ، ومن يطلعه الله تعالى عليه من رسله وأنبيائه وخوّاصّ أوليائه ، فالاثنان من الأولياء لا يتفقان فى طريق بعد دخولهما التى هى القدر والفعل ، فما يصنع المريد بالشيخ وطريقهما مختلفة ، فالشيخ يسير به إلى جهة ، والمريد إلى أخرى ، فقد خولف بين ظهورهما ووجوههما ، فأنى لهما والصحبة والاجتماع والإيقاع

يبعد ذلك جداً ، فإن اتفق فهو نادر شاذّ لا التفات إليه ولا معوّل عليه ، إذ الأغلب ما قد انكشف وظهر وبان ، فصلوات الله على الشيخ ، وعلى المريد الصادق الذى إذا بلغ به إلى حالة استغنى فيها بربه تبارك وتعالى عن الشيخ إلا فى الوقت .

ومن آداب المريد : أن لايتكلم بين يدى شيخه إلا فى حالة الضرورة ، وأن لايظهر شيئا من مناقب نفسه بين يديه ، ولا ينبغى له أن يبسط سجادته يدى الشيخ إلا فى وقت أداء الصلاة ، فإذا فرغ من صلاته طوى سجادته فى الحال ، ويكون متهيئا لخدمة شيخه ومن هو قاعد على بساطه ، مبسوطا مستوطنا مستريحا ، لاكلفة عليه لغيره ، وهذه حالة الشيوخ لاحالة المريدين ، ويجتهد فى اجتناب بسط سجادته وفوق سجادته من هو فوقه فى الرتبة ، وإدناء سجادته من سجادته إلا بأمره ، فإن ذلك عندهم سوء الأدب . وينبغى للمريد إذا جرت مسألة بين يدى الشيخ أن يسكت ، وإن كان عنده فصل وإشباع جواب فيها ، بل يغتنم ما يفتح الله على لسان شيخه فيقبله ويعمل به ، وإن رأى فى جوابه نقصانا وقصورا فلا يردّ عليه ، بل يشكر الله تعالى على ما خصه من فضل وعلم ونور ، ويخفى جميع ذلك فى نفسه ، ولا يكثر حديثه ولا يقول أخطأ الشيخ فى المسألة ، ولا يناقض كلامه إلا أن يغلب عليه ذلك ، فيبتدر منه الكلمة فليتداركه بالسكوت والتوبة ، والعزم على ترك المعاودة على ما قدمنا ذكره فى أثناء الكتاب من فعله فى توبته عن معاصى الله عزّ وجل ، فالخير كله فى حق المريد فى سكوته فيما هذا سبيله . وينبغى للمريد أن لا يتحرّك فى حال السماع بين يدى الشيخ إلا بإشارة منه عليه ، ولا يرى من نفسه البتة حالا إلا أن ترد غلبة تأخذه عن التميز والاختيار ، فإذا سكنت فورته فليعد إلى حال سكونه وأدبه ووقاره وكتمان ما أولاه الله عزّ وجل من سرّه ، وقد ذكرنا هذا وإن كنا لا نرى بالسماع والقول والقصب والرقص ، وقد قدمنا كراهته فيما تقدم ، إلا أنا قد ذكرنا ذلك على ما قد لهج به أهل زماننا فى أربطتهم ومجامعهم ، ولا ينكر أن يكون فيمن يفعل ذلك صادق ، فيكون معنى ما قد سمع مهيجا لثائرة صدقه ومثيرا لها ، فيشتغل بثائرته ويغيب فيها ، فتتحرّك أعضاؤه وجوارحه بين القوم وهو فى معزل عما القول فيه من لذّة الطباع والأهوية ، وتذكار كل واحد قرب من معشوقه ممن قد مات وطال به عهده ، ومن هو حىّ غائب عنه فاشتدّ شوقه . والمريد الصادق ثائرته غير خامدة وشعلته غير هامدة ، ومحبوبه غير غائب ، وأنيسه غير مستوحش فهو أبدا فى زيادة دنوّ وقرب ، ولذّة ونعيم ، فلا يغيره ويهيجه عن حالته غير كلام مراده ، وحديثه الذى هو ربه عزّ وجل ، ففى ذلك عنده مندوحة عن الأشعار والقيانة والأصوات وصراخ المدّعين شركاء الشياطين ، ركاب الأهوية مطايا النفوس والطباع ، أتباع كل ناعق وزاعق . وينبغى للمريد أن لا يعارض أحدا فى حال سماعه ، ولا يزاحم أحدا فى وقته فى التقاضى على الذى ينشد الزهديات المرققات المشوّقات إلى الجنان والحور ، ورؤية الحق تعالى فى الآخرة المزهدات فى الدنيا ولذّاتها وشهواتها وأبنائها ونسوانها ، المشجعات عن الصبر على آفاتها ومحنها وبلائها ، وإدبارها على أبناء الآخرة ، وإقبالها على أبنائها وغير ذلك ، فليكل جميع ذلك إلى الشيخ

الحاضر ، فإن القوم فى ولاية الشيخ ، اللهمّ إلا أن يكون المستمع حينئذ من المستحقين ، فيحفظ الأدب فى الظاهر وينكر عن تكلفه فى الباطن ، فلا شك أن الله عزّ وجل يقيض من يتقاضى عنه ، أو يلهم القائل بذلك التكرار والترداد ، ليقضى الصادق المستمع نهمته ووطره من ذلك .

(فصل آخر : فى أدبه مع شيخه) وينبغى له إذا أراد أن يتأدب بشيخ أن يكون له إيمان وتصديق واعتقاد أن لا أحد فى تلك الديار أولى منه ، حتى ينتفع به فيما هو مرامه ، وأن يقبله الله عزّ وجل ويحفظ سرّه فى خدمته مع الله تعالى فى عقد إرادته ، بحفظه حتى لا يجرى على لسان شيخه إلا ما هو الأولى بشأنه ، ويحذر مخالفته جدا ، لأن مخالفة الشيوخ سمّ قاتل فيها مضرّة عامة ، فلا يخالفه بتصريح ولا بتأويل ، ويجتهد أن لا يكتم من شيخه شيئا من أحواله وأسراره ، ولا يطلع أحدا سواه على ما يأمره شيخه . ولا ينبغى له أن يجتمع إلى طلب الرخصة أو يرجع إلى شىء تركه لله عزّ وجل ، فإنه من الكبائر وفسخ الإرادة عند أهل الطريقة . وقد جاء فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « العائد فى هبته كالكلب يقىء ثم يعود فيه » وعليه الانقياد لالتزام ما يأمر به شيخه من التأديب على مقتضى سوء أدبه ، فإن وقع منه تقصير فى القيام بما أشار إليه شيخه ، فالواجب عليه تعريف ذلك لشيخه ليرى فيه رأيه ، ويدعو له بالتوفيق والتيسير والفلاح .

(فصل) وأما الذى يجب على الشيخ فى تأديب المريد ، فهو أن يقبله لله عزّ وجل لا لنفسه فيعاشره بحكم النصيحة ، ويلاحظه بعين الشفقة ، ويلاينه بالرفق عند عجزه عن احتمال الرياضة فيربيه تربية الوالدة لولدها ، والوالد الشفيق الحكيم اللبيب لولده وغلامه ، فيأخذه بالأسهل ولا يحمّله ما لا طاقة له به . ثم بالأشدّ فيأمره أولا بترك متابعة الطبع فى جميع أموره ، واتباع رخص الشرع حتى يخرج بذلك عن قيد الطبع وحكمه ، ويحصل فى قيد الشرع ورقه ، ثم ينقله من الرخص إلى العزيمة شيئا بعد شىء ، فيمحو خصلة من الرخص ، ويثبت مكانها خصلة من العزيمة ، فإن وجد فى ابتداء أمره فيه صدق المجاهدة والعزيمة وتفرّس فيه ذلك بنور الله عزّ وجل ومكاشفة ، وعلم من قبل الله عزّ وجل على ما قد مضت سنة الله فى عباده المؤمنين من الأولياء والأحباب الأمناء العلماء به ، فحينئذ لا يسامحه فى شىء من ذلك ، بل يأخذه بالأشدّ من الرياضات التى يعلم أنه لا تتقاصر قوّة إرادته عنها ، إذ ثبت عنده أنه مخلوق لذلك وجدير به ، وهو من شأنه فلا يخونه فى التهوين عليه . ولا ينبغى له أن يرتفق من المريد بحال لا بالانتفاع بماله ولا بخدمة ، ولا يأمل من الله عزّ وجل عوضا فى تأديبه ، ولا شيئا ، بل يودّبه ويربيه موافقة لله عزّ وجل أداء لأمره وقبولا لهديته وطرفته ، فإن المريد الذى جاء من غير تخير من الشيخ ولا استجلاب ، بل قدر محض بإرشاد الله تعالى له وهدايته وإنقاذه إليه ، فإنه هدية من الله ، فعليه قبوله والإحسان إليه بحسن تأديبه وتربيته ، فلا يرتفق به ولا بماله إلا بأمر من الله تعالى ، وخير فى استعماله وقبول ما يأتى به من ماله الذى قد جعل الله تعالى صلاح المريد ونجاته به ، وقسم للشيخ فيه ، فحينئذ لا سبيل إلى الإعراض عنه وردّه ، ويحذر جدا أن يختار من المريد

ما يقع له، بل ينتظر فى ذلك فعل الله وقدره ، فمن جاء الله تعالى به من غير تكلف منه وتخير قبله ورباه ، فحينئذ يوفق فى تربيته ويسرع فلاح المريد ونجحه ، فليحذر أن يكون لهوى فيه ، فيعدم التوفيق والحفظ فى حق المريد ، وعليه أن يربيه بهمته وينوب عنه فى سرّه إذا وجد منه خللا أو فترة ، وعليه أن يحفظ سرّ المريدين فلا يطلع غيره على ما يحصل له من الإشراف على أحواله ، إما بطريق علم لدنىّ من مواهب الله عزّ وجل ، أو بإفشاء المريد له واستكتامه إياه ، فلا ينبغى له أن يفشيه لغيره، لأنه أمانة عنده . وقد قيل: صدور الأحرار قبور الأسرار، فينبغى له أن يكون مستراحا للمريدين، وخزانة وحرزا لأسرارهم، وملجأ لهم وكهفا ومشجعا ومقوّيا ومعينا لهم ، ومثبتا لهم فى الطريق ، ولا ينفرهم عن الطريق ومصاحبتهم والقصد إلى الله عز وجل ، وإذا رأى شيئا مما يكره فى الشرع من المريد وعظه فى السر وأدبه ، ونهاه عن المعاودة إلى ذلك إن كان ذلك فى الأصول أوالفروع أو ادعاء حالة ليست له أو إعجاب بعمله و رؤيته ، فيصونه عن محل الإعجاب ، ويصغر فى عينه أحواله وأعماله ، لئلا يهلك ، فان العجب يسقط العبد من عين الله عز وجل ، وإن أراد أن يعم الجماعة بالنصح فليجمعهم وليتكلم عليهم فيقول : بلغنى أن فيكم من يدعى كذا ويقول كذا ويرتكب كذا ، ويذكر ما يتعلق بذلك من المفاسد والمصالح ، ويذكرهم ويحذرهم ، ولا يعين أحدا منهم على ذلك لما فى ذلك من التنفير فإن أخشن الخلق والقول معه ، وأفشى أسرارهم واغتابهم وسلبهم وذكر مساويهم ، نفرت قلوبهم عن قصده ومصاحبته ، وصار ذلك تهمة عندهم فى أهل الطريقة ، وفيما قد غرس فى قلوبهم من حب أولياء الله تعالى ، فليحذر من ذلك جدا ، فان غلب هذا عليه ولا يمكنه تداركه فليعزل نفسه عن هذه المنصبة والولاية ، ولينفرد عن المريدين، ويشتغل بمجاهدة نفسه ورياضتها وطلب شيخ يؤدبه ويقومه ويهذبه ، فلا يصلح أن يكون شيخا مع هذه الدواهى ، فلا يقطع على المريدين طريقهم إلى الله عز وجل .

باب فى صحبة الإخوان والصحبة مع الأجانب

وكيف الصحبة مع الأغنياء والفقراء

أما الصحبة مع الإخوان فبالإيثار والفتوة والصفح عنهم والقيام معهم بشرط الخدمة ، لايرى لنفسه على أحد حقا ، ولا يطالب أحدا بحق ، ويرى لكلّ أحد عليه حقا ولايقصر فى القيام بحقهم ، ومن الصحبة بهم إظهار الموافقة لهم فى جميع ما يقولون أو يفعلون ، ويكون أبدا معهم على نفسه ويتأول لهم ويعتذر عنهم ، ويترك مخالفتهم ومنافرتهم ومجادلتهم ومشاددتهم ، ويتعامى عن عيوبهم ، فان خالفه أحد منهم فى شيء سلم له ما يقول فى الظاهر ، وإن كان الأمر عنده بخلاف ما يقوله . ينبغى أن يحفظ أبدا قلوب الإخوان ، ويجتنب فعل ما يكرهونه وإن علم فيه صلاحهم، فلا ينطوى لأحد منهم على حقد وإن خامر قلب واحد منهم كراهة له تخلق

معه بشيء حتى يزول ذلك ، فان لم يزل زاد فى الإنسان والتخلق حتى يزول ، وإن وجد هو فى قلبه من أحد منهم استيحاشا وأذية بغيبة أو غيرها فلا يظهر ذلك من نفسه ويرى من نفسه خلاف ذلك .

(فصل) وأما الصحبة مع الأجانب فيحفظ السر عنهم ، وينظر إليهم بعين الشفقة والرحمة ، وأن يسلم أموالهم إليهم ، ويستر عليهم أحكام الطريقة ، ويصبر على سوء أخلاقهم وترك معاشرتهم ما أمكنه ، وأن لا يعتقد لنفسه عليهم فضيلة ويقول : إنهم من أهل السلامة فيتجاوز الله عنهم ، ويقول لنفسه : أنت من أهل المضايقة ، فتطالبين بالنقير والقطمير والحقير والكبير ، وتحاسبين على الكبير والصغير ، وإن الله تعالى يتجاوز للجاهل مالا يتجاوز بمثله من العالم والعوام لايبالى بهم والخواص على الخطر .

(فصل) وأما الصحبة مع الأغنياء فالتعزز عليهم ، وترك الطمع فيهم ، وقطع الأمل مما فى أيديهم ، وإخراج جميعهم من قلبك ، وحفظ دينك من التضعضع لهم لنوالهم ، كما جاء فى الحديث ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم « من تضعضع لغنى لأجل مافى يديه ذهب ثلثا دينه » فنعوذ بالله من فعل ينقص به الدين ، وصحبة أقوام ينثلم بهم الدين ، وتنقطع عراه ، ويطفىء نور الإيمان شعاع أموالهم وبريق دنياهم كما جاء فى الحديث ، غير أنك إذا ابتليت بصحبتهم فى سير أو سفر أو مسجد أو رباط مجمع فحسن الخلق أولى مايستعمل ، وهو حكم عام شامل فى صحبة الأغنياء والفقراء فلا ينبغى لك أن تعتقد لنفسك فضيلة عليهم ، بل تعتقد أن جميع الخلق خير منك لتتخلص من الكبر ، ولا تطلب لنفسك فضيلة الفقر ولا تعتقد لها خطرا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا ترى لها قدرا ولا وزنا كما قيل : من جعل لنفسه قدرا فلا قدر له ومن جعل له وزنا فلا وزن له ؛ فأدب الغنى بالإحسان إلى الفقير ، وهو إخراج المال من كيسه إليه ، ويكون فارغا من ماله مستخلفا فيه غير متملك له ؛ وأدب الفقير إخراج الغنى من قلبه ، ويكون قلبه فارغا من الغنى وماله ، بل من الدنيا والآخرة أجمع ، ولا يجعل لشيء من الأشياء فى قلبه موطنا ومحلا ومدخلا ، بل يتصفى من ذلك كله ويخلو منه ، ثم يترقب امتلاءه بربه عز وجل ، فلا يكون لغيره وجود ولا له حول ولا قوة ، فيأتيه عند ذلك فضل الله عز وجل فحينئذ يحصل الغنى به عز وجل من غير تعب ولاهم .

(فصل) وأما الصحبة مع الفقراء فبإيثارهم وتقديمهم على نفسك فى المأكول والمشروب والملبوس والمنلبوذ والمجالس وكل شيء نفيس ، وترى نفسك دونهم ، ولا ترى لها عليهم فضلا فى شيء من الأشياء البتة ، عن أبى سعد بن أحمد بن عيسى قال : صحبت الفقراء ثلاثين سنة ولم يجر بينى وبينهم كلام قط تأذوا به ، ولا جرى بينى وبينهم منافرة استوحشوا منها . قيل له : كيف ذلك ؟ قال : لأنى كنت معهم على نفسى أبدا ، وإذا دخلت عليهم أدخلت عليهم سرورا ورفقا ، واستعملت معهم خلقا هدية وأدبا وسببا من الأسباب ، فلا ترى بذلك لك عليهم فضلا ، بل تتقلد منهم منه فى قبولهم ذلك منك ؛ واحذر أن تمن عليهم بذلك أو تراه

منك بل اشكر الله عز وجل على ماأولاك من توفيقه على تيسير ذلك ، وجعلك له أهلا لخدمة أهله وخاصته وأحبابه ، فإن الفقراء الصالحين هم أهل الله وخاصته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « أهل القرآن هم أهل الله وخاصته » فأهل القرآن من يعمل بالقرآن ، وأما من يقرأ بلا عمل فليس من أهله ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه» فالمنة لمن يقبل منك العطية لا لك .

(ومن آداب) الصحبة مع الفقراء أن لا تحوجهم إلى مسألتك ، وإن اتفق فاستقرض الفقير منك شيئا فتقرضه فى الظاهر ، ثم تبرئه منه فى الباطن ، وتخبره عن قريب بذلك ، ولا تبدأه بالعطاء على وجه الصلة لئلا يتحشم بحمل المنة منك بذلك . (ومن الأدب معهم) مراعاة قلبه بتعجيل مراده دون تنغيص الوقت عليه بطول الا نتظار ، لأن الفقير ابن وقته كما ورد : ابن آدم ابن يومه وليس له وقت لانتظار المستقبل . (ومن الأدب معهم) أنك إذا علمت أنه ذو عيال وصبيان فلا تفرده بالارتفاق معه ، بل تتخلق معه بقدر ما يتسع له ولمن يشتغل به قلبه . (ومن الأدب معهم) الصبر على ما يذكر الفقير من حاله ،وأن تتلقاه فى حال ما يخاطبك بوجه طلق مستبشر ، ولا تلقاه بالعبوس ولا بالنظر الشزر ولا بالكلام الوحشى ، وإذا طالبك بما لا يحضر فى الوقت فاصرفه بالوجه الجميل إلى مساعدة الإمكان ، ولا توحشه بيأس الردّ على الجزم لئلا يعود بحشمة الإخفاق وعدم الإصابة بحاجته عندك ، والندم على إفشاء سرّه إليك حسيرا ، وربما يغلب عليه طبعه ، وتستولى عليه نفسه ، فيظهر ، عليه الجهل بحاله والسخط عليك والاعتراض على الربّ عزّ وجل فيما قسم له من الفاقة إلى الخلق والتبذّل لهم ، فيعمى قلبه وينطفىء نور إيمانه ، فكنت أنت مؤاخذا بذلك كله ، إذا كنت سببا لثوران ذلك من قلبه ، بترك الأدب فى ردّه ، وربما حجب أيضا عن الثواب والمعارف والعلوم والمصالح المدفونة فى سؤاله للخلق ، التى لو صبر وأحسن الأدب ظهرت وارتحل السؤال للخلق وحصل غنى اليد والقلب والبيت ، وجاءته عساكر فضل الله وآلائه ونعمائه ودلته يد الرأفة والرحمة والراحة والرعاية ، وتحقق فيه قوله عزّ وجل (وهو يتولى الصالحين) وجعل مصانا مغارا عليه ، وهو غنىّ عن الأشياء بخالقها وتأتيه الأشياء وهو لايأتيها ، يقصده القاصدون فينا لون من أنواره وسرّه ، ويطيبون بطيبه ، وهو لايشعر بهم فى غيب عنهم ، مشغول بمولاه وجاذبه الذى جذبه إليه ، وأنقذه من ظلمات مخالطة الخلق وموافقة النفس ومتابعة الهوى ،والتقيد بإرادة الأشياء دنيا وأخرى (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون) أهل الجنة لما باعوا فى الدنيا أنفسهم وأموالهم لربهم عزّ وجل بالجنة ، كما قال جل وعلا (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) وصبروا على الإفلاس فى الدنيا وردّوا التصرّف فى الأنفس والأموال والأولاد إلى ربهم عزّ وجل ، وسلموا الكلّ إليه جلّ جلاله سوى الأوامر والنواهى ، وامتثلوا الأوامر وانتهوا عن النواهى وسلموا فى المقدور ، وتحرّزوا من الخليقة ، وتجوهروا عن الإرادة والأمانى ، وألهمم فى الجملة أدخلهم الجنة فشغلهم بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كما قال

جلّ وعلا (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون) فهكذا الفقير إذا فعل ذلك فى الدنيا وتحقق بظاهر القرآن حصول الجنة له، باع حينئذ الجنة بربه عزّ وجل، وطلب الجار قبل الدار، كما قالت رابعة العدوية رحمها الله: الجار قبل الدار، وكما قال الله عز وجل، (يريدون وجهه) وكما قال الله عزّ وجل فى بعض كتبه السالفة: أود الأوداء إلىّ عبد عبدنى لغير نوال ليعطى الربوبية حقها. قال النبىّ صلى الله عليه وسلم «لو لم يخلق الله تعالى الجنة والنار ما كان أحد يعبده». وقول علىّ رضى الله عنه: لو لم يخلق الله الجنة ولا النار ما كان أهلا أن يعبد. قال عزّ وجل (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) فإذا اتصف الفقير بهذه الصفة، وتحقق إفلاسه عن سوى مولاه، وتنظف قلبه عن التعلق بالأشياء وفنى عنها، وصار مريدا حقا، وغاب عما سوى ربه عزّ وجل، كان حقيقا على كرم الله أن يتولاه ويدلله وينعمه فى الدنيا إلى حين اللقاء، ثم يزيده على ذلك، ويجدّد عليه أنواع الخلع والأنوار والنعيم والحياة الطيبة، والقرب على ما أعد وأخبر لأوليائه وأحبابه، بقوله عزّ وجل (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون)، وقول النبىّ صلى الله عليه وسلم «يقول الله عزّ وجل: أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه: اقرءوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) الآية، فإن رددت الفقير اليد الغنى القلب الممثل لأمر مولاه فى إخباره لك عن حاله لأجل عياله أو نفسه طائعا لربه عزّ وجل فى ذلك خائفا له، ولم يترك سؤالك إذ كلفه الله ذلك وابتلاه به، قال الله عز وجل (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون) وهى حالة لاتدوم، بل تنقضى عن قريب وينقل إلى ما قسم له من الغنى والعزّ الدائم بقرب مولاه، وإعطائه عاقبك الله يا غنىّ اليد فقير القلب، الجاهل بنفسه وبربه، ومنشئه ومنتهاه، بأن يسلب الغنى عن يدك، فتصير فقير اليد كما كنت فقيرا لقلب، فتكون أبدا فقيرا إلى الأشياء، فلاتشبع منها حريصا عليها، طالبا لها معذبا فى إرادتها وتحصيلها، وهى غير مقسومة لك، كما قيل: إن من أشد العقوبات طلب ما لا يقسم إلا أن يتغمدك الله برحمته، فينبهك لذنبك فتستغفره، وتتوب إليه من ذلك وتعترف بتفريطك ويتوب عليك ويغفر لك ذلك، فتب إلى الله وهو أرحم الراحمين غفور رحيم.

(فصل: فى آداب الفقير فى فقره) فينبغى للفقير أن تكون شفقته على فقره كشفقة الغنىّ على غناه، فكما أن الغنىّ يفعل كل شيء ويجتهد حتى لا يزول غناه، فكذلك ينبغى للفقير أن يفعل مثل ذلك حتى لا يزول فقره، فلا يسأل الله عزّ وجل زوال فقره إلى غناه، أو يتعرّض بالمعايش والاكتساب والأسباب للاستغناء، والتكثر بالمال لا لعيال، وعفة النفس عند الضيقة. ومن شرط الفقير أن يقف مع كفايته ولا يأخذ فوقها، ويكون أخذه لذلك القدر امتثالا لأمر الله تعالى، وخوفا من الوقوع فى إثم قتل النفس، قال الله عزّ وجل (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) لأن منعه لنفسه حقها حرام، وهو القوت من الطعام والشراب والكسوة والقدر الذى تقوم به البنية، ولا يضعف عن أداء الأوامر من الإتيان بشرائط

الصلاة وأركانها وواجباتها وكل واجب ، ويترك ما هو حظها ، فإن كانت قسمته فتساق إليه من غير أن يكون هو فيه بل بفعل الله عزّ وجل ، فلا يتعرّض للحظ أبدا إلا أن يكون مريضا ، فيوصف له شيء من الحظوظ ، فيتناوله على وجه التداوى ، فيصير الحظّ حينئذ حقا فى حال مرضه ، كالقوت فى حال صحته . وينبغى أن يكون استلذاذه بفقره أكثر من استلذاذ الغنىّ بوجود غناه ، وينبغى له أن يؤثر ذله وخموله وعدم قبول الناس له وقصدهم إليه وازدحامهم لديه ؛ ومن شرطه أن يكون قلبه أقوى بصفاء الحال عند خلوّ يده من المال ، فكلما قلّ الفتوح كثر طيب قلبه وقوته ونوره ، وازداد فرحه بشعار الصالحين . وأما إذا أظلم ذلك قلبه وأوحشه وأسخطه على ربه ، فليعلم أنه مفتون قد أحدث فى فقره ذنبا عظيما ، فليتب إلى الله عزّ وجل ويستغفره ، ويخلد إلى التفتيش والتنقير ولوم النفس ، ومن حق الفقير أن يكون كلما كثر عياله كان قلبه فى باب أمر الرزق أسكن وبربه أوثق ، يمتثل أمر ربه فى الكسب لهم فى الظاهر ، ويسكن إلى وعد ربه فى الباطن ، ويقطع بأن لهم رزقا عند الله قد وعد به وقدره ، وهو سائقه إليهم على يده أو يد غيره ، فليتنحّ من الوسط ولا يكون فضوليا ، فيدخل بين الخلق وخالقهم بل يمتثل الأمر فيهم ، ولا يعترض ولا يسخط ولا يتهم الربّ ، ولا يشكّ فى وعده ، ولا يشكو إلى أحد ، بل يكون شكواه إلى ربه وإنزال حاجته به عزّ وجل ، وكلامه وسؤاله له عزّ وجل فى توفيقه بالصبر وأداء الأمر فى حقهم ، والرضا بما قضى عليهم بإضافتهم ، وإلزامه له مؤنتهم ويسأله تسهيل رزقهم وتيسيره ، فهو قريب مجيب ، إنما يبتلى عبده ليرده بالبلية إليه عزّ وجل ، لأنه يحبّ الملحين له بالسؤال ، لأن بالسؤال يتميز الربّ من المربوب والسيد من العبد والغنىّ من الفقير ، ويخرج العبد من الكبر والاستنكاف والتعظم والنخوة إلى التواضع والذلة والافتقار فإذا تحقق ذلك من العبد تحققت الإجابة سريعا عاجلا مع ما يدّخر له من الثواب فى العقبى .

ومن آدابه : أن لا يكون له همّ فى الوقت المستقبل ، بل يكون بحكم وقته لا يتطلع للوقت الثانى ، بل يحفظ الحال وحدودها وشرائطها وآدابها مطرقا غاضا عما سواها ، لا أعلى منها ولا دونها ، ولا يشره إلى حال غيره ، وربما كان هلاكه فيها وهى لأهلها سلامة ونعمة كالأغذية فمن الأغذية ما يزيد لشخص عافية ولآخر سقما وبلاء ، فلا ينبغى للمريض أن يتناول شيئا منها إلا بأمر الطبيب ، فكذلك ينبغى للفقير أن لا يختار حالة لنفسه حتى يدخل فيها من غير أن يكون هو فيها ، بل يفعل للمولى عزّ وجل قدرا محضا وإرادة مجردة ، لا يحلّ نفسه فى شيء من الحالات والمقامات وينزلها به فيضلّ ويردى ، حتى يأتيه أمر الذى أمات وأحيا ، وينقله منها فعل الذى منع وأعطى ، وأفقر وأغنى ، وأضحك وأبكى ، لأن ذلك أليق به وإلى ربه أقرب وأدنى ، هكذا تقدم ومضى أمر من سلف من أولى العلم من أهل الطريقة ، فيما خلا فيهم الاقتداء ، وإلى ربّ الخليقة المنتهى .

ومن أدب الفقير : أن يكون مستعدا لورود الموت متهيأ له منتظرا مترقبا فى الساعات كلها ليكون ذلك عونا له على الرضا بفقره وحمل ما حلّ به من الأذى ، لأن به يقصر الأمل وتنكسر

النفس ويزول منها وهج شهوات الدنيا ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم « أكثروا من ذكر هاذم اللذّات أعنى الموت » .

ومن آدابه : أن يخرج من قلبه ذكر المخلوقين . ومن أدابه : أن يتخلق مع الغنىّ إذا دخل عليه بما تصل يديه إليه من القوت أو فاكهة وإن كان شيئا يسيرا ، لأنه بقلبه محترز عن الأسباب فهو بالإيثار أولى من الغنى الذى هو فى أسر غناه إلا أن يكون ذا عيال فى ضيقة ، فلا يضيق على عياله بإيثاره ذلك للغنى ، إلا أن يكون يعلم من عياله الإيثار وطيب النفس بذلك والموافقة والصبر والرضا والمعرفة واليقين ، والأنوار تظهر من قلوبهم على ألسنتهم وجوارحهم وأنفسهم فحينئذ لا يبالى فى البذل والمنع والإيثار والإمساك .

ومن أدب الفقير : أن لا يترك الاحتياط فى الورع فى حال ضيق اليد ، فلا يخرج إلى ما لا يحلّ فى الشرع لفقره ، فيخرج من العزيمة إلى الرخص ، فإن الورع ملاك الدين ، والطمع هلاكه ، وتناول الشبهات فساده ، كما قال بعض الصالحين : من لم يصحبه الورع فى فقره أكل الحرام وهو لا يدرى ، فعليه أن لا يخلد إلى التأويلات فى دينه فى حالة فقره ، بل يرتكب الأشقّ والأحوط الذى هو العزيمة .

(فصل : فى سؤال الفقير) فمن أدب الفقير ترك السؤال للخلق ما دام يجد عنده ما يكفيه ، فإن ألجأته الضرورة والحاجة المحوجة ، فيسأل بقدر الحاجة فتكون حاجته كفارته ، فحينئذ يسلم له السؤال ، وينبغى أن لا يسأل لأجل نفسه ما أمكنه بل لعياله على ما قدمناه ، فإن كان بيده دانق وهو محتاج إلى درهم لم يسلم له السؤال حتى يصرف الدانق ويخلو عن المعلوم جدا كما قيل : لا يظهر من الغيب شىء ما دام فى الجيب شىء؛ ومن شرط سؤاله للخلق أن لا يراهم بل تكون إشارته إلى الله عزّ وجل ، ويرى الخلق كالوكلاء والأمناء المتصرّف فيهم المفعول فيهم فلا يتخذهم أربابا من دون الله عزّ وجل ، فيكون معنى سؤاله لهم إخبارا بحاله وعياله لا شكوى من ربه ، ويكون سؤاله استخبارا فيقول : هل دفع لنا إليك شىء ، هل أحيل عليك ، هل أذن لك يا وكيل يا خازن يا أمين يا مملوك يا فقير ، يا من أنا وهو سواء فيما يدنا المالك له غيرنا كلنا فى عياله ، فإذا سأل على هذا الوجه جاز له السؤال وإلاّ فلا ، ولا كرامة لكل مشرك دجال مراء عابد الأصنام ، خارج عن أهل الطريقة مدّع كذاب منافق زنديق ، ثم إن أعطى شكر وإن منع صبر ، هكذا تكون صفات الفقير الصادق ، ولا يستوحش بالردّ ولا يتغير فيسخط ويعترض ويذمّ الراد له فيظلمه ، لأنه مأمور ووكيل ، والوكيل هو الذى يتصرّف فيما فى يده بإذن آمره وموكله المعطى ، وهو الله عزّ وجل ، بل يرجع إليه عزّ وجل ، فيسأله التيسير والتسهيل ، ليسخر له القلوب ويذلّ له الصعاب ، ويدر له الأرزاق ويسوق إليه الأقسام ، ويرفع عنه الجوع والعذاب والتبذّل إلى العبيد والأرباب ، ولعله قبض أيدى الخلق عنه بالعطاء ليردّه إليه ، فيلازم الباب ويرفع بدعائه وتضرّعه الحجاب ، فيكون هو المعطى له دون العباد .

(فصل : فى آداب العشرة) وينبغى له أن يحسن العشرة مع إخوانه ، فيكون منبسط الوجه

غير عبوس ، ولا يخالفهم فيما يريد ون عنه بشرط أن لا يكون فيه خرق للشرع ومجاوزة للحد وا رتكاب للإثم ، بل يكون مما أباحه الشرع وأذن فيه الربّ ، ولا يكون مماريا ولا لجوجا ، ويكون أبدا مساعدا للإخوان على الشرط الذى ذكرنا ومتحملا عنهم ما يخالفونه فيه ، ويكون صبورا على أذاهم غير حقود ، لا ينطوى لأحد منهم على سوء وغشّ ومكر غير مغتاب لهم فى حال غيبته ، ولا يكون سيئ المحضر ، ويذبّ عن أخيه فى حال غيبته ، ويستر العيوب على إخوانه ما أمكنه ، وإن مرض أحد منهم عاده ، فإن شغله عن ذلك شاغل مضى إليه فهنأه بالعافية . وإن مرض هو ولم يعده بعض إخوانه اعتذر عنه ، فإذا مرض لم يقابله بذلك ، بل يعوده ويصل من قطعه ، ويعطى من حرمه ، ويعفو عمن ظلمه ، وإذا أساء أحدهم إليه اعتذر عنه عند نفسه ويرجع بالملامة على نفسه ، ولا يرى ملكه ممنوعا عن غيره من الإخوان ، ولا يتحكم فى ملكهم بغير إذنهم ، ولا ينسى الورع فى جميع حركاته وسكناته ، وإن انبسط معه أحد من إخوانه فى شىء من ماله أجابه إلى ذلك مسرعا مستبشرا فرحا مسرورا متقلدا منه فى ذلك منة ، حيث جعله أهلا لمباسطته معه وإنزال حاجته به ، ولا يستعير من أحد شيئا إن أمكنه ، وإن استعار أحد منه شيئا لا يستردّه ما أمكنه ، لأنه ما استعار منه إلا لحاجته ، ولا يليق بالفتوة استرداد المعار ، كما لا يحسن فى الشرع استرجاع الهدية والهبة ، فإن لم يقدر على ذلك فليسرع إعارته ، ولا يمنعه من ذلك ولو كل يوم ، إذ لا يليق بحاله أن ينفرد عن أحد من الناس بماله ، لأنه أمين ليس فى رقّ شىء من الأشياء فلا يملكه شىء ، فكل من ملك شيئا فذلك الشىء يملكه ، لأن المرء عبد لمن زمامه بيده ، بل يرى الأشياء التى فى يده ملكا لله عزّ وجل وهو وبقية الناس عبيدا لله عز وجل والكل متساو فى ملكه عز وجل . وأما ما كان فى يد الغير فيستعمل فيه حكم الشرع والورع وحفظ الحدود ، لئلا يصير فى زمرة الإباحية الزنادقة . وينبغى له إذا مسته محنة أو فاقة أن يستر حاله عن إخوانه ما أمكنه ، لئلا يشغل قلوبهم بسببه ، فيتكلفوا له ؛ وكذلك إن مسه همّ أو أصابه حزن لا يظهر ذلك لإخوانه ، ولا يشوّش عليهم ما هم فيه من الفرح والسرور والراحة ولذّة العيش ، وإن رأى إخوانه نازلا بهم همّ وغمّ وقد أظهروا فرحا وسرورا ، ساعدهم فى الظاهر من إظهار النشاط والاستبشار ، ويكتم عنهم ما هم فيه من الاستيحاش والحزن والهمّ ، فلا يقابلهم بما يكرهون ، ولا يختلف عنهم فى شىء من ذلك . وينبغى له فى أدب حسن العشرة إذا استوحش من شىء أن يتكلم فى حسن الخلق ، ويردّ قلبه إليه لنزول وحشته . وينبغى له أن يعاشر كل أحد من حيث هو لا يكلفه مجاوزة حدّه وموافقته ، بل يتابعه هو فيما عليه ذلك الإنسان ما لم يكن فيه خرق للشرع ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « أمرنا معاشر الأنبياء أن نحدّث الناس على قدر عقولهم » . وينبغى له أن يعاشر من دونه بالشفقة عليه ومن فوقه بالإجلال ومن هو مثله بالإفضال والإيثار والإحسان .

(فصل : فى آداب الفقراء عند الأكل) من ذلك أن لا يأكلوا بالشره ولا على الغفلة ، بل يذكروا الله عزّ وجل بقلوبهم عند الأكل ولا ينسونه ، ومن ذلك أن لا يمدّوا أيديهم عند الطعام

قبلى من هو فوقهم ، ومن ذلك أن لا يقولوا لغيرهم كل ، ولا يضعوا مما بين أيديهم شيئا بين يدى غيرهم ، لا على طريق الخدمة ولا على طريق الانبساط إلا صاحب الطعام ؛ فإنه مسلم له ذلك لأنه نوع خدمة منه ، ولا يقولوا لصاحب الطعام كل معنا ، وإذا أقعد موضعا فلا يختار غيره ويقعد حيث يؤمر ، ولا يرفع يده من الطعام ما دام يأكل من معه لئلا يحتشم صاحبه فيحمله على الامتناع . ولا ينبغى أن يرفع الطعام من بين يدى الفقير ما دام يأكل وما دام عينه عليه ؛ ويساعد الأصحاب على الأكل بقدر ما لايكون مخالفة وإن لم يكن به شهوة . ولا ينبغى أن يلقم على المائدة أحدا ، وإن عرض عليه الماء لا يرد الساقى ولو بقطرة واحدة ، ولو قام صاحب الطعام بالخدمة لا يمنع ، ولو أراد صبّ الماء على يده فلا يمنعه . وينبغى أن يأكل مع الأغنياء بالتعزّز ، ومع الفقراء بالإيثار ، ومع الإخوان بالانبساط ، ولا يخطر الأكل بباله إلا إذا حضر ، فحينئذ يأكل ولا يساعد نفسه فى اشتهاء شهوة ، ولعلها لم تكن مقسومة له ، فلا ينالها أبدا فيبقى محجوبا بها عن الله تعالى ويشتغل بها عن طاعته ومراقبة حاله ، فإذا أعرض عن ذلك واشتغل بحاله كان سليما ، فإن كانت مقسومة له ، ثم حضرت اشتّهاها وتناولها وشكر الله تعالى ، ولا يجعل الأكل همه ويعلق قلبه به ويجعله حديثه ، بل يمهد مع نفسه بأنها مريضة ، ومن حالها الاحتماء عن الطعام والشراب والشهوات حتى يبرأ عن المرض ، فالمرض هواها وإرادتها ومناها ، والربّ عزّ وجل طبيبها ومداويها ، فإذا بعث الطعام والشراب على يد مملوكه تناولهما وعلم أن دواءها وعافيتها فى ذلك دون غيره ، واشتغل بحفظ الحال والمراقبة وإخراج الأشياء من القلب والارتكان إلى شىء من الأشياء والطمأنينة إليه أبدا فى جميع حركاته وسكناته .

(فصل : فى آدابهم فيما بينهم) من ذلك ألا يمنع شيئا يكون له من أصحابهم من ثيابهم وسجاجيدهم وركوبهم وما يجرى مجراه ، ولو وطئ أحد منهم سجادته بقدمه لايستوحش منه ؛ ولا يضع قدمه على سجادة غيره ، ولا يبسط سجادته على سجادة من هو فوقه فى الرتبة ، ولو مدّ أحد يده إلى كتفه لا يمنعه ، ولا يمدّ هو يده إلى كتف غيره ؛ ولا يستخدم أحدا من الفقراء ، ويخدم هو بنفسه كل أحد ، ولايغمز أرجل الفقراء ، ولو أراد أحد أن يغمز رجله لا يمنعه ؛ وإذا دخلوا الحمام فليس فى أدب الفقراء أن يمكنوا القيم من دلكهم ، ولو أراد بعضهم دلك بعض أمكنه منه ولا يمنعه ، وإذا نظر فقير إلى شىء من خرقته أو سجادته أوغير ذلك فليدفعه إليه فى الوقت وليؤثره به ؛ ولا ينبغى أن يجعل الفقراء فى انتظاره عند الأكل ، وكذلك فى كل شىء لايؤذى قلب أحد بأن ينتظره ما أمكنه ؛ فإن المنتظر مستثقل ، وإذا أراد أن يقدّم إلى فقير طعاما فيجب أن لا يحبسه فى الانتظار ، لأن انتظار المرقة ذلّ ؛ ولا ينبغى أن يدخرشيئا مما يمكنه ، وإذا لم يكن الطعام كثيرا فلا يأكل إلا بعد ما يفضل منهم ، ويجتهد فى تقديم الطعام إلى الفقراء ، أن يكون أنظف ما يمكنه وأوفق لهم ؛ وإن كان فى قوم فلا ينبغى أن ينفرد عنهم بأكل شىء ولا بأخذ شىء ، فإن فتح له بشىء ينبغى أن يطرحه فى الوسط ؛ وإن مرض وهو بين قوم فاحتاج إلى تخصيصه بدواء ، فينبغى له أن يستأذن الجماعة فى ذلك . أما إذا نزل برباط

أو مدرسة وفيها شيخ او خادم ، فينبغى أن يكون بحكم ذلك الشيخ ، ولا يفعل شيئا إلا باستطلاع رأيه ، وإذا ورد على قوم فينبغى أن يوافقهم على ما هم عليه ، ولا ينبغى أن يرفع صوته بين الفقراء بتسبيحه وقراءته ، بل يخفى ذلك عنهم ويستتر به أو ينقل ذلك إلى تفكر واعتبار عبادة باطنة ؛ وإن كان من الخواصّ ذوى الأسرار فلا كلفة عليه فى ذلك ، لأن ربه يتولاه ويهيء له ويأمره وينهاه فى ذلك ، ويسخر له قلوب الجماعة ويعطفها عليه ويملؤها من حبه تارة وهيبته واحترامه أخرى ؛ وكذلك لا ينبغى أن يرفع صوته بغير ذلك من الكلام بينهم ؛ وإذا كان بين قوم فينبغى أن لا يسارّ أحدا دونهم ، ولا يتكلم بين الفقراء بشيء من حديث الدنيا والمأكولات ما أمكنه ومن شرطه أيضا أن لا يكتب بين الفقراء شيئا ما أمكنه ووجد من ذلك بدّا ، بل يشتغل بالعمل المكتوب ومراقبة قلبه وحفظ حاله والفكر فيهما ، ولا يكثر من النوافل بين أيديهم ؛ وإذا صام الجماعة وافقهم فى ذلك ، وكذلك إذا أفطروا وافقهم فى ذلك ، ولا ينفرد عنهم بالصوم ، ولا ينام بين الفقراء وهم أيقاظ ، إلا أن يغلب عليه النوم ، فينفرد عنهم ويضطجع بقدر ما تنكسر فورته . ولا ينبغى له أن يتقدم بمشيئة شيء واختياره على الفقراء إذا أمكنه ، وإن طالبه الفقير بشيء فلا يردّه ولو بقليل ، ولا يؤذى قلبه بطول الانتظار ؛ وإذا شاوره أحد فلا يعجل عليه بالجواب فيقطع عليه كلامه ، بل يمهله حتى ينهى جميع ما فى قلبه ، ولا يجيبه بالردّ والإنكار ، فإذا فرغ من ذلك ورآه غير صواب قابله أولا بالموافقة ، وقال : هذا وجه ، ثم يبين له ما هو أصوب منه عنده برفق لا بمخاشنة ووحشة . ومن آدابهم أن لا يمدحوا الطعام حال الأكل ولا يذموه .

(فصل : فى آدابهم مع الأهل والولد) من ذلك حسن الخلق والإنفاق عليهم بالمعروف بما أمكنه ، وإذا ملك فى اليوم ما يكفيه ليومه فلا يحبس شيئا لغد ، وله إلى ذلك القدر حاجة فى الحال ، فإن فضل من ذلك شيء فليدخره لغد للعيال لا لنفسه ، فلا يأكل إلا تبعا لهم ، بل يكون كالوكيل والخادم لعياله والمملوك مع سيده ، ويعتقد بخدمته عياله والكدّ عليهم والقيام بمصالحهم أداء أمر الله وطاعته ، وليعزل خدمة نفسه من الوسط ، ويؤثر عياله على نفسه ، وإذا أكل أكل بشهوتهم ، ولا يحملهم على متابعة شهوة نفسه ، وإذا كان فى ذات يده شيء يصلح لشتائه وهو فى الصيف محتاج لثمنه صرفه فى وجه حاجته فى الصيف ، وإن وجد كفاية يومه وكان فيه فضل للكسب فى يومه لكفاية غد لعياله لم يشتغل بذلك ، بل يقف مع الكفاية فى يومه ، لأن الوقوف مع الكفايات واجب ، وأخر تدبير غد إلى غد ، فإن كان له قوّة فى التوكل وصبر على مقاساة القلة والجوع والضرّ ؛ وتقصر قوّة عياله عن ذلك ، فلا يجوز له أن يدعوهم إلى حالة نفسه ، بل يتحرّك ويكتسب لأجلهم ، وإن رأى من أهله الطاعة لله عزّ وجل وحسن السيرة والعبادة ، فعليه بكسب الحلال وإطعامهم المباح حتى يثمر ذلك الطاعة والصلاح . ولا يطعمهم الحرام فإنه يثمر العصيان والجناح ، وليجتهد فى ذات نفسه بإصلاح العمل والصدق وطهارة الباطن ، حتى يصلح الله أمره بينه وبين عياله فى حسن الصبر وحسن الطاعة له ولله عزّ وجل

والموافقة له ، وتعود بركة صلاحه على عياله ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم « من أصلح ما بينه وبين الله عزّ وجل ، أصلح الله تعالى ما بينه وبين الناس » وأهله وعياله من جملة الناس ؛ وإذا نزل به ضيف فيجب أن يطعم عياله مما يطعم الضيف إذا كان بذات يده سعة و مكنة فليوفر ذلك بحيث يطعم الجميع ويكفيهم ويفضل عنهم ، فإن كان هناك فقر وقلة وضيق يد وعلم من عياله الإيثار والرضا بذلك ، فحينئذ يؤثر الضيفان ، فإن فضل عنهم شيء تناولوه على وجه التبرّك ، فإن الله تعالى سيخلف عليهم ويوسع ما لديهم ، فإن الضيف ينزل برزقه ويرحل بذنوب أهل البيت ، كما جاء فى الحديث وإذا دعا الفقير إلى دعوة وله عيال وليس له ما يصلح شأنهم ، فليس من الفتوة أن يضيع عياله ويمضى إلى الدعوة ويؤثر شهوته على فاقة عياله ، ولا يستقيم فى الطريقة والشريعة أخذ الذلة والخيبة لأجل العيال من الدعوة ، فليمتنع من الحضور وليصبر مع أهله ، فإن كان فى صاحب الدعوة فتوة وعلم بأن للضيف عيالا ، فينبغى له أن لا يفرده بالاستحضار ، بل يفرغ قلب الضيف عن شغل عياله بأن يكفيه ذلك ، ويحمل إليهم ما يحتاجون إليه ، ويعلم ضيفه بذلك . والواجب على الفقير أن يؤدّب أهله بملازمة ظاهر العلم والشريعة ، ولا يمكنهم من مخالفة العلم فى القليل والكثير ، ولا ينبغى له أن يسلم أولاده إلى السوق وتعلم الحرف ، بل يعلمهم أحكام الدين ويحملهم على ترك طلب الدنيا ، إلا أن يغلب عليه الفقر وقلة الصبر وانكشاف الحال والفضيحة والرجوع إلى الخلق فى القوت وما يسدّ به الخلة ، فليشغل أهله وولده ونفسه بالكسب وتحصيل ما يحصل به الغنى عن الناس ، فهو أفضل من غيره مع حفظ الحدود ، ويعرف أولاده وجوب مراعاة حقّ الوالدين ومجانبة العقوق ، ويعرف أهله مراعاة حق الله وحقه ، وفضيلة الصبر معه وطاعته وغير ذلك على ما بينا فى باب آداب النكاح ؛

(فصل : فى آدابهم فى السفر) وقد ذكرنا فى كتاب الأدب فى أثناء الكتاب أنه يجب أن يكون سفر المؤمن الخروج من أوصافه المذمومة إلى صفاته المحمودة ، فيخرج من هواه إلى طلب رضا مولاه بتصحيح تقواه ، فإذا أراد الفقير أن يسافر من بلده ، فأوّل شيء يجب عليه أن يرضى خصومه ويستأذن والديه أو من هو فى حكمهما فى وجوب الحقّ عليه من العمّ والخال والجدّ والجدّة ، فإذا رضوا بذلك خرج ، فإن كان ذا عيال وفى سفره عنهم مضرّة عليهم وضيعة ، فلا يسلم له السفر إلا بعد إصلاح أمورهم أو يستصحبهم معه ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت » . ومن شرط الفقير إذا سافر أن يكون قلبه معه ، لا يكون قلبه ملتفتا إلى علاقة وراءه ، ولا يكون قلبه متعلقا بمطالبة أمامه ، فحيثما نزل يكون قلبه معه ويكون قلبه فارغا خاليا عن الأشياء . كما قيل عن إبراهيم بن دوحة أنه قال : دخلت مع إبراهيم بن شيبة البادية فقال لى : اطرح ما معك من العلائق ، فطرحت كل شيء إلا دينارا ، فقال : لا تشغل سرّى اطرح ما معك ، فطرحت الدينار ، فقال : اطرح ما معك من العلائق ، فذكرت أن معى شسوعا للنعل فطرحتها ، فوالله ما احتجت فى الطريق إلى شسع إلا وجدته بين يدى . فقال ابن شيبة : هكذا من عامل الله تعالى بالصدق ؛ ولا ينبغى أن يقصر فى سفره من أوراده

التى كان يفعلها فى حضره ، لأن السفر زيادة فى أحوالهم ، فلا ينبغى أن يحصل له خلل فى أعماله وأحواله بسفره ، وإنما الرخص للضعفاء والعوام ، وما للأقوياء والخواص بالرخص ، بل العزيمة شأنهم أبدا فى جميع أحوالهم ، والتوفيق شامل لهم ، والرحمة نازلة عليهم ، والحرس قائم معهم والحفظ دائم لهم . والحبيب جالس معهم ، والأنس به زائد . والغنى به قائم والامداد به متداركة ومتواترة ، والنصر لهم لازم ، والجنود لهم متكاثفة متتابعة ومشتبكة لديهم ، فالسفر أقوى لهم وأليق وأحسن بما هم بصدده ، إذ فيه البعد من الأسباب التى هى الأرباب والخلق الذين هم الأصنام ، وأضلّ من الصلبان وأشدّ من الشيطان . وينبغى للفقير أن يراعى قلبه فى أوّل سفره ، ولا يخرج عن الغفلة ، ويجتهد فى سفره حتى لا ينسى بقلبه ربه فى سفره . ولا ينبغى له أن يكون سفره لغرض من أغراض الدنيا بوجه من الوجوه ، بل يكون سفره لطاعة من الطاعات إما للحجّ أو للقاء شيخ أوزيارة موضع من المواضع المقدسة الشريفة ؛ وإذا سافر الفقير فوجد قلبه بموضع من المواضع ورآه فيه أصفى من الكدورات ، وعيشه أوفى ، فيلزم ذلك الموضع ، ولا يزول عنه إلا بأمر جزم أو فعل محض وقدر ، فليتنحّ حينئذ إلى ما يؤمر به ، أو يحمله القدر إذا كان من المفعولين فيهم الزائل الهوى والإرادات والأمانى ، الفانين عنهم المرادين المحبوبين ؛ وإذا ظهر لفقير جاه وقبول ببعض المواضع . فينبعى له أن يخرج منه ويشوّش على نفسه ذلك القبول ، لئلا ينفى به عن الله ويحجب عنه ، فيكون الخلق نصيبه ، وهذا إنما يكون مع وجود الهوى . وأما مع زواله فلا وجود للخلق ولا لقبولهم أثر ، فهم خارجون عن القلب وبينهما حجب وحرس يحفظون القلب عن دخول الخلق إليه ، لئلا يحصل الشرك فيتشعث التوحيد . وينبغى للفقير أن يعاشر أصحابه فى سفره بحسن الخلق وجميل المداراة ، وترك المخالفة واللجاج فى جميع الأشياء ، ويشتغل بخدمتهم ، ولا يستخدم منهم أحدا . وينبغى أن يكون أبدا فى سفره على الطهارة وإن لم يجد الماء يتيمم ما أمكنه ذلك ، كما يستحبّ له فى حضره أن يكون على الطهارة ، لأن الوضوء سلاح المؤمن ، كما جاء فى الخبر ، وهو أمان له من الشياطين وكل مؤذ . وينبغى أن لا يصحب الأحداث المردان فى السفر على الخصوص ، فإنهم أقرب من مصافاة الشياطين والقبول منها وإلى الشرّ والفتن ومتابعة الهوى وهنات النفس والتهمة وفى صحبتهم خطر عظيم ؛ إلا أن يكون الفقير ممن يقتدى به من الشيوخ والعلماء بالله وأبدال أنبيائه المحفوظين الأئمة الهداة الربانيين معلمى الخير المؤدبين المنذرين للخلق والمهذبين لهم ، السفراء بين الحق والخلق الجهابذة فحينئذ لا يبالى بمن يصحبه من الأحداث والشيوخ إذا دخل بلدا وفيه شيخ ، فينبغى أن يبدأ بسلامه عليه وخدمته له ، وينظر إليه بعين الإكبار والحشمة والتعظيم ، لئلا يحرم فائدته ، وإذا فتح له بشىء فلا يستأثر به دون أصحابه ، وإذا وقع لأحدهم عذر وقف معه ولا يضيعه ، والله الموفق للصواب .

(فصل : فى آدابهم فى السماع) من ذلك أن لا يتكلفوا السماع ولا يستقبلوه بالاختيار ، فإذا اتفق السماع فمن حقّ المستمع أن يقعد بشرط الأدب ذاكرا لربه بقلبه مشتغلا بحفظ قلبه من

طوارق الغفلة والنسيان ، فإذا قرع سمعه شيء يرى القارئ للقرآن كأنه مستنطق من قبل الحق عزّ وجل فيما يرد عليه من تعريفات الغيب إياه ، مما يوجب ترغيبا أوترهيبا أوإيناسا أوعتابا أو زيادة في القيام بعبادته عزّ وجل أو غيره ، فعند ذلك بادر إلى ما يرد عليه ، وقابل الإشارة عليه بالبدار ، وإن كأنّ السماع بحيث يصير كأن لسان القارئ لسانه ، وصار كأنه يخاطب هو الحق بما يقرأ القارئ ، فما يحصل مما يجده في قلبه من ذلك يكون موافقا لحقّ العبودية وآداب الشريعة . وفي الجملة لا يكون في الطريقة ولا في علم الحقيقة شيء يخالف آداب الشريعة ؛ وإذا كان في القوم شيخ حاضر في السماع ، فالواجب على الفقير السكون ما أمكنه ومراعاة حشمة ذلك الشيخ ، فإن ورد عليه أمر غالب فبقدر الغلبة يسلم إليه الحركة ، فإذا سكنت الغلبة فالأولى له السكون مراعاة لحشمة الشيخ . ولاينبغي للفقير أن يتقاضى القارئ ولا القوّال ، إن استبدل القول الذي هو أدنى بالذي هو خير ، يعني الإتيان بالقرآن على ما هو عادة أهل الزمان اليوم ، فلو صدقوا في قصدهم وتجرّدهم وتصرفهم لما انزعجوا في قلوبهم وجوارحهم بغير سماع كلام الله عزّ وجل ، إذ هو كلام محبوبهم وصفته ، وفيه ذكره وذكر الأولياء الأوّابين والآخرين والماضين والغابرين والمحبّ والمحبوب والمريد والمراد ، وعتاب المدّعين لمحبته ولومهم وغير ذلك ، فلما اختلّ صدقهم وقصدهم وظهرت دعواهم من غير بينة ، وزورهم وقيامهم مع الرسم والعادة من غير غريزة باطنة وصدق السريرة والمعرفة والمكاشفة والعلوم الغريبة ، والاطلاع على الأسرار والقرب والأنس ، والوصول إلى المحبوب ، والسماع الحقيقي وهو الحديث ، والكلام الذي هو سنة الله عزّ وجل مع العلماء به والخواصّ من الأولياء والأبدال والأعيان ، وخلت بواطنهم من ذلك كله ، وقفوا مع القوّال والأبيات والأشعارالتي تثير الطباع وتهيج ثائرة العشاق بالطباع لا بالقلوب والأرواح . فينبغي للفقير في الجملة : أعني فقير الحقّ عزّ وجل ، وفقير الخلق : أعني فقير المعنى ، وفقير الصورة : أعني فقيرا من الدنيا وفقيرا من العقبى والأكوان ، أن لا يتقاضى القارئ والقوال بالتكرار والإعادة ، بل يكل ذلك إلى الحقّ سبحانه إن شاء قيض من ينوب عنه في التقاضي ، أو يلهم القوّال بالتكرار إذا كان الفقير المستمع صادقا وله في التكرار ولاء ومصلحة . ولا ينبغي للفقير أن يستعين بغيره في حال السماع ، فإن سأل الفقراء منه المساعدة في الحركة فليساعدهم ، وذلك ضعف في الحال ؛ وإذا سمع الفقير آية أوبيتا فلا يجب أن يزاحمه أحد ، ويجب أن يسلم له وقته ، وإن خولف فزوحم فالأولى للمزاحم له التسليم ، وإذا تحرّك الفقير على آية أو بيت ، فيجب أن يسلم له وقته ، وإن وقع للحاضرين عليه إشراف ورأوا فيه تقصيرا وأ نقصانا فالواجب عليهم الستّر عليه والحمل عنه ، فإن اقتضى الوقت تنبيهه فلينبه بالرفق أو بالقلب لابااللسان ، وهاهنا يحتاج إلى قوّة حال وصفاء باطن وعلم دقيق واطلاع وآداب كاملة ومحافظة شديدة حميدة ، وإذا خرج في حال سماعه من خرقة أو من شيء من ثيابه ، فلا يخلو إما أن يكون قد تخلق به مع القارئ فهو للقارئ على الخصوص ،

أو يطرحه فى الوسط فيكون حكمه إليه ، فيقال له : ما الذى أردت به ؟ فإن قال : قصدت به أن يكون بحكم الفقراء كان ذلك خلقا منه معهم فهو لهم بحكم الفتوح ، وذلك إليهم يرون فيه رأيهم ؛ وإن قال : أردت به موافقة شيخ طرح خرقته ، فهذا ضعيف الحال جدا ركيك الأمر حقا ، لأنه إنما ينبغى أن يوافق الشيخ فى حكم خروجه عن خرقة من قد وافق الشيخ فى وجده وحالته ، وذلك بعيد جدا أن يتفق اثنان منهم فى حال واحد ؛ والذى جرت به العادة بين الفقراء واستمرّ به الرسم بينهم اليوم فى المرافقة فى طرح الخرقة ، فليس له أصل ، ثم إذا جرى منه ذلك مع ضعفه فحكم خرقته المطروحة إلى ذلك الشيخ فى رسم العادة لا فى العلم والشريعة ، أو فى مقتضى الطريقة والحقيقة ؛ وإن قال صاحب الخرقة : أردت موافقة القوم الحاضرين فهذا أيضا أضعف من الأول ، لأنه إنما ينبغى أن يكون الاشتراك فى الفعل عند الاتفاق فى الحال والوجد ، وقلما يتفق ذلك للقوم حتى يستووا فى الشرب والحال ، فيرجع فى ذلك إلى القوم فما يكون حكم خرقهم فله أسوتهم فى ذلك ، فإن قال لم يكن الوقت قصد ولا نية ، يقال فالآن هو بحكمك فاحكم فيه بما شئت ، وليس لأحد من الحاضرين ولا للشيخ إن كان حاضرا فى ذلك حكم ألبتة ، إذ ليس صاحبه فيه محقا ، ولا له قصد ولا لذلك أصل فى الطريقة ، فإن قال : وردت علىّ فى الوقت الإشارة بالخروج من الخرقة من غير قصد إلى شىء على التعيين ، فقد يكون لهذا فى الطريقة أصل لأن من خلع عليه السلطان خلعة ، فالواجب على المخلوع عليه أن ينزع ملبوسه ثم يلبس الخلعة ؛ فهكذا حكم هذا الفقير أن يخرج من خرقته ويلبس ما خلع عليه البارى عزّ وجل من الأنوار والقرب والألطاف ، ثم إن حكم خرقته إلى الشيخ الحاضر إن كان هناك ، وإلا فللحاضرين من الفقراء أن يفردوا القارئ أو القوّال بها ؛ وقد قيل : إن ذلك إلى الفقير ، وهو أولى بحكم خرقته من غيره ؛ فأما معارضة الحاضرين من أرباب الدنيا ليشتروا الخرقة ثم تردّ إلى صاحبها فذلك غير محمود فى الطريق وغير مرضىّ ، اللهمّ إلا أن يكون المشترى فيه فتوّة وإيمان بالقوم يريد أن يتخلق معهم ، وهو نوع من المعاوضة والسؤال بالتلطف ، ولكنه مذموم جدا ، لأنه فى حال خروجه عن الخرقة أظهر الصدق من نفسه فى الحال ، وبرجوعه إلى الخرقة فاضح لنفسه ومكذّب لها ، وذلك غير مرضى . ولا ينبغى لمن خرج من خرقته أن يعود إليها ويقبلها ، فإن كان ذلك بإشارة شيخ بأن أمره بأخذها فإنه يأخذها جهرا امتثالا لأمر الشيخ ، ثم يخرج منها بعد ذلك فيتخلق بها غيره ؛ وإذا وقع شىء فى الوسط للجماعة فالواجب التسوية بينهم ، فإن كان فيهم شيخ ورأى تخصيص قوم أو واحد من الحاضرين ، فحكم ذلك إلى الشيخ يتبع رأيه فيه ، فلو طرح خرقته فردّت عليه فكانت طريقته أن لا يرجع إلى شىء خرج منه ، وعاد الفقراء إلى خرقهم ، فإن كان له شيخ كان له أن لا يرجع إلى خرقته ويلزم طريقته ، فلا يرجع إلى ما خرج منه ، ولا ينقض حالته اتباعا لأحوال الجماعة ؛ وإن كان واحدا من الفقراء فالأظرف من حاله والأليق بها أن يوافق الجماعة فى الحال ، فيعود إلى خرقته لئلا يخجل القوم

ويستحيوا ويمقتوه ، ثم بعد ذلك يخرج منها إلى الحاضرين وهو الأولى ، وإن دفعها إلى غائب عن المجلس جاز .

وهذا آخر ما ألفنا من آداب القوم على وجه الاختصار والإقلال والإمكان فى الوقت ، وأما ما يتعلق بدخول الربط والسقايات ولبس الحذاء وأشياء أحدثوها ووضعوها وسموها بينهم ، فذلك يستفاد من ممارستهم ومخالطتهم والاستخبار والإشارة منهم فلم نسطره فى الكتاب ، وقد ذكرنا معظم ذلك فى كتاب الأدب فى الشرع فى أثناء الكتاب ، ثم نختم الكتاب بذكر باب يشتمل على باب المجاهدة والتوكل وحسن الخلق والشكر والصبر والرضا والصدق ، إذ هذه الأشياء السبعة أساس لهذه الطريقة والكلّ خير .

(فصل) وأما المجاهدة ، فالأصل فيها قول الله عزّ وجل (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وروى أبو نضرة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الجهاد ، قال : كلمة حق عند سلطان جائر » ودمعت عينا أبى سعيد رضى الله عنه . وقال أبو علىّ الدقاق رحمه الله : من زين ظاهره بالمجاهدة حسن الله سرائره بالمشاهدة . قال الله عزّ وجل (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وكل من لم يكن فى بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من الطريقة شمة . وقال أبو عثمان المغربى رحمه الله : من ظن أنه يفتح عليه بشىء من هذه الطريقة أو يكشف له شىء منها بغير لزوم المجاهدة فهو فى غلط . وقال أبو علىّ الدقاق رحمه الله من لم تكن له فى بدايته قومة لم يكن له فى نهايته جلسة . وقال أيضا رحمه الله : الحركة بركة ، حركات الظواهر توجب بركات السرائر . وقال الحسن بن علوية : قال أبو يزيد رحمه الله : كنت ثنتى عشرة سنة حداد نفسى ، وخمس سنين كنت مرآة قلبى ، وسنة أنظر فيما بينهما فإذا فى وسطى زنار ظاهر فعملت فى قطعه ثنتى عشرة سنة ، ثم نظرت فإذا فى باطنى زنار فعملت فى قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطع ، فكشف لى ، فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى ، فكبرت عليهم أربع تكبيرات . وعن الجنيد رحمه الله قال : سمعت السرىّ رحمه الله يقول : يا معشر الشباب جدّوا قبل أن تبلغوا مبلغى فتضعفوا وتقصّروا كما قصّرت وكان فى ذلك الوقت لا يلحقه الشباب فى العبادة . وقال الحسن القزاز رحمه الله : بنى هذا الأمر على ثلاثة أشياء : أن لا يأكل إلا عند الفاقة ، ولا ينام إلا عند الغلبة ، ولا يتكلم إلا عند الضرورة . وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات : الأولى : يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة . والثانية : يغلق باب العزّ ويفتح باب الذل . والثالثة : يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد . والرابعة : يغلق باب النوم ويفتح باب السهر . والخامسة : يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر . والسادسة : يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت . وقال أبو عمرو بن نجيد رحمه الله : من كرمت عليه نفسه هان عليه دينه . وقال أبو علىّ الروذبارى رحمه الله : إذا قال الصوفىّ بعد خمسة أيام : أنا جائع فالزموه السوق وأمروه بالكسب . وقال

ذو النون المصرى رحمه الله : ما أعزّ الله عبداً بعزّ هو أعزّ له من أن يدله على ذلّ نفسه ، وما أذل الله عبدا بذلّ هو أذلّ له من أن يحجبه عن ذل نفسه . وقال إبراهيم الخوّاص رحمه الله : ما هالنى شيء إلا ركبته. وقال لى محمد بن الفضل رحمه الله : الراحة هى الخلاص من أمانى النفس. وقال منصور بن عبد الله رحمه الله : سمعت أبا علىّ الروذبارى رحمه الله يقول : دخلت الآفة من ثلاث : سقم الطبيعة ، وملازمة العادة ، وفساد الصحبة ؛ فسألته ما سقم الطبيعة ؟ فقال : أكل الحرام ، فقلت : وماملازمة العادة ؟ قال : النظر والاستمتاع بالحرام والغيبة . قلت : فما فساد الصحبة ؟ فقال : كلما هاجت فى النفس شهوة يتبعها . وقال النصراباذى رحمه الله : سجنك نفسك إذا خرجت منها وقعت فى راحة الأبد . وقال أبوا لحسن الورّاق رحمه الله : كان أجلّ أحكامنا فى مبادى أمرنا فى مسجد أبى عثمان الإيثار بما يفتح علينا ، وأن لا نبيت على معلوم ، ومن استقبلنا بمكروه لا ننتقم منه لأنفسنا ، بل نعتذر إليه ونتواضع له ، وإذا وقع فى قلوبنا حقارة لأحد قمنا بخدمته . فمجاهدة العوامّ فى توفية الأعمال ، ومجاهدة الخواص فى تصفية الأحوال ، وقد تسهل مقاساة الجوع والعطش والسهر ، ومعالجة الأخلاق الرديئة تعسر وتصعب .

ومن آفات النفس : ركونها إلى استجلاب المدح والذكر الطيب وثناء الخلْق ، وقد تحتمل أثقال العبادات لذلك ، ويستولى عليها الرياء والنفاق ، وعلامة ذلك رجوعها إلى الكسل والفشل عند انقطاع ذلك ، وذمّ الناس لها ، ولا يتبين لك آفات نفسك وشركها ودعواها وكذبها إلا عند الامتحان فى مواطن دعواها وعند الموازنة لها ، لأنها تتكلم بكلام الخائفين ما لم تضطرّ إلى الخوف ، وإذا احتجت إليها فى مواطن الخوف وجدتها آمنة ، وتقول قول الأبرار ما لم تمتحن بالتقوى ، وإذا احتجت إليها وطالبتها بشروط التقوى وجدتها مشركة مرائية معجبة ، وتصف وصف العارفين ما لم تحتج إلى الغاية ، فإذا طلبت منها ذلك وجدتها كذابة ، وتدّعى دعوى الموقنين مما لم تمتحن بالإخلاص ، وتزعم أنها من المتواضعين ما لم يحلّ بها خلاف هواها عند الغضب ؛ وكذلك تدّعى السخاء والكرم والإيثار والبذل والغنى والفتوة وغير ذلك من الأخلاق الحميدة : أخلاق الأولياء والأبدال والأعيان تمنيا ورعونة وحمقا ، وإذا طالبتها بذلك وامتحنتها لم تجدها إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ولو كان ثمّ صدق وإخلاص وصحّ منها القول وصدق بالقول لسانها لما أظهرت التزين للخلق الذين لا يملكون لها ضرّا ولا نفعا ، ولصحت أعمالها عند الامتحان ، فوافق قولها عملها . وقال أبو حفص رحمه الله : النفس ظلمة كلها وسراجها سرّها ، يعنى الإخلاص ، ونور سراجها التوفيق فمن لم يصحبه فى سرّه توفيق من ربه كانت ظلمة كلها . وقال أبوعثمان رحمه الله : لا يرى أحد عيب نفسه وهو يستحسن من نفسه شيئا ، وإنما يراه من يتهمها فى جميع الأحوال . وقال أبو حفص رحمه الله : أسرع الناس هلاكا من لا يعرف عيبه . فإن المعاصى بريد الكفر . وقال أبو سليمان رحمه الله : ما استحسنت من نفسى عملا فاحتسبت به . وقال السرىّ رحمه الله :

إياكم وجيران الأغنياء وقرّاء الأسواق وعلماء الأمراء . وقال ذو النون المصرى رحمه الله : إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء . أولها : ضعف النية بعمل الآخرة . والثانى : صارت أبدانهم رهينة بشهواتهم . والثالث : طول الأمل مع قرب الأجل . والرابع : آثروا رضى المخلوقين على رضا الخالق . والخامس : اتبعوا أهواءهم ، ونبذوا سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم . والسادس : جعلوا قليل زلات السلف حجة أنفسهم ، ودفنوا كثير مناقبهم .

(فصل) والأصل فى المجاهدة مخالفة الهوى ، فيفطم نفسه عن المألوفات والشهوات واللذات ، ويحملها على خلاف ما تهوى فى عموم الأوقات ، فإذا انهمك فى الشهوات ألجمها بلجام التقوى والخوف من الله عزّ وجل ، فإذا حرنت ووقفت عند القيام بالطاعات والموافقات ساقها بسياط الخوف وخلاف الهوى ومنع الحظوظ .

(فصل) ولا تتمّ المجاهدة إلا بالمراقبة ، وهى التى أشار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » لأن المراقبة علم العبد باطلاع الربّ سبحانه عليه ، واستدامته لهذا العلم مراقبة لربه ، وهذا هو أصل كل خير ، وإنما يصل إلى هذه الرتبة بعد المحاسبة وإصلاح حاله فى الوقت ، ولزوم طريق الحقّ وإحسان مراعاة القلب بينه وبين الله تعالى ، وحفظ الأنفاس مع الله عزّ وجل ، فيعلم أن الله تعالى عليه رقيب ، ومن قلبه قريب ، يعلم أحواله ويرى أفعاله ويسمع أقواله ، ولا تتم أيضا إلا بمعرفة خصال أربع : أولها : معرفة الله تعالى . والثانية معرفة عدوّ الله إبليس . والثالثة : معرفة نفسك الأمارة بالسوء . والرابعة : معرفة العمل لله تعالى . ولو عاش إنسان دهرا فى العبادة مجتهدا ولم يعرفها ولم يعمل عليها لم تنفعه عبادته ، وكان على الجهل ومصيره إلى النار ، إلا أن يتفضل الله تعالى عليه برحمته . فأما معرفة الله عزّ وجل فهو أن يلزم العبد قلبه قربه عزّ وجل ، وقيامه عليه وقدرته عليه وشهادته وعلمه به ، وأنه رقيبه حفيظ ، وأنه واجد ما جد ، لا شريك له فى ملكه ، وأنه عند ما وعد صادق ، وعند ما ضمن واف ، وعند ما دعا إليه وندب إليه ملىء ، وله وعد ينجزه ، ووعيد صادق ينفذه ، ومقام تصير إليه الخلائق ، ومصدر يتصرّف من عنده ، وله ثواب وعقاب . ليس له شبه ولا مثيل ، وإنه كاف رحيم ودود سميع عليم ، وأنه كل يوم هو فى شأن ، لا يشغله شأن عن شأن ، يعلم الخفىّ وفوق الخفىّ ، والضمير والخطرات والوسوسة والهمة والإرادة والوسواس والحركة والطرفة والغمزة والهمزة ، وما فوق ذلك وما دون ذلك ، مما دقّ فلا يعرف ، وجلّ فلا يوصف ، مما كان وما يكون ، وأنه عزيز حكيم . وقد استوفينا ذلك فى باب معرفة الصانع من قبل ، فإذا ألزم هذا قلبه فى اليقين الراسخ والعمل النافع ، ولزم ذلك كل عضو منه وكل جارحة وكل مفصل وعرق وعصب وشعر وبشر ، وكذلك يتيقن أن الله تعالى قائم على ذلك عالم به ، أحاط به علما لا تعزب عنه عازبة ، وأنه خلقه فأحسن خلقه ، وصوّره فأحسن صورته ، وثبت جميع ذلك فى قلبه ، وصحّ به عزمه وأكمل عقله ، وثبتت حينئذ فيه المحاسبة ، ووصلت إليه المعرفة وقامت

عليه الحجة ، وكان فى مقام من الله شريف ، والحذر يصحبه فى ذلك كله ، فحفظت جوارحه وقلبه ، ولا ينال شيئا من هذه الجملة إلا أن يقطع الأشغال كلها ، إلا ما دله على هذا ، والفرق لايفارق قلبه حذرا من سطواته ، لقدرته عليه لما قد سلف ، وبما يكون منه ؛ وحياء منه لقربه منه ، ولم تسقط منه إرادة ، ولم تزل منه همة ولا خطرة إلا له فيه علم ، فيكون العالم القائم بما يحبّ الله منه ، والنازل له عما يكرهه منه ، ولا تكون منه خطرة ولا لحظة ولا وسوسة ولا إرادة ولا حركة ظاهرا ولا باطنا ، إلا وعلم الله عنده قائم فى قلبه قبل الخطرات والحركات والوساوس وهو مقام العلماء بالله عزّ وجل ، الخائفين العارفين الأتقياء الورعين . وأما معرفة عدوّ الله إبليس ، فقد أمر الله تعالى بمحاربته ومجاهدته فى السرّ والعلانية ، فى الطاعة والمعصية ، وأعلم العباد بأنه قد عادى الله عزّ وجل فى عبده ونبيه وصفيه وخليفته فى الأرض آدم عليه السلام ، وضارّه فى ذريته ، وأنه لا ينام إذا نام الآدمىّ ، ولا يغفل إذا غفل الآدمىّ ، ولا يسهو إذا سها فى نومه ويقظته ، مجتهد فى عطب الآدمىّ وهلاكه ، لا يألوبه خديعة وحيلة ومكرا ، ومصائده الشهية اللذيذة فى طاعته ومعصيته ، ما يجهله كثير من خلق الله من العابدين المغرورين المخدوعين ، وكثير من الغافلين ، ليست بغيته أن يوقع ابن آدم فى معصية أو رياء أو عجب ، إنما بغيته أن يرده معه حيث يرد جهنم ، حيث قال جل وعلا (إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) فإذا عرفه العبد بهذه الصفة فينبغى له أن يلزم قلبه معرفته فى الحقّ والباطن ، بلا غفلة ولا سهو منه ، فيحاربه بأشدّ المحاربة ، ويجاهده بأشدّ المجاهدة ، سرّا وعلانية ، ظاهرا وباطنا لا يقصر فى ذلك حتى يبذل مجهوده فى محاربته ، ومجاهدته فى كل ما يدعو إليه من الخير والشرّ ولا يدع التضرّع واللجأ إلى الله عزّ وجل والاستعانة به فى حركاته كلها ليعينه عليه ، ويرى الله عزّ وجل من نفسه الفقر والفاقة إليه ، فإنه لا حيلة ولا قوّة إلا به ، ويستغيث بالله عزّ وجل بالبكاء والتضرّع ، ويسأله النصر عليه جاهدا متذللا ، ليلا ونهارا ، سرّا وعلانية ، فى الخلا والملا ، حتى تصغر فى عينه مجاهدته لمعرفته ، بتوفيق الله تعالى إياه ، فإنه عدوّ مولاه ، وهو أول من عصى الله من خلقه ، وأول من مات من خلقه ، يعنى من عصاه ، وكل عاص لله عزّ وجل ميت ، كما جاء فى الحديث « قال الله عزّ وجل : إن أول من مات من خلقى إبليس » وهو الذى عادى أولياء الله من الأنبياء والصديقين وأصفياءه من خلقه أجمعين . وينبغى للعبد أن يعلم أنه فى جهاد عظيم ، وفى قرب من الربّ جل ثناؤه ، ولا يوصف شرف مقامه ؛ فليثبت ولا يعجز فإنه إن عجز أو ملّ فقد عصى ربه عزّ وجل ووقع فى جهنم ، وغضب الله عليه ، ويكون قد أعطى عدوّ الله أمنيته منه ، وقوى عليه لعنة الله ، وليس لإرادته فى العبد غاية وانتهاء إلا الكفر بالله ، فإنه إنما ينقله من حال إلى حال حتى يغضب الله عليه ، فيكله إلى نفسه فيعطب ويقع فى النار مع الشيطان ، فلا خلق أشدّ على العبد منه ، فالحذر الحذر ، فإنما هو الورود على العطب ، أو النجاة بفضل الله ورحمته ؛ أعاذنا الله وجميع المسلمين من شرّ إبليس وجنوده ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم .

وأما معرفة النفس الأمارة بالسوء، فيضعها حيث وضعها الله عزّ وجل ، ويصفها بما وصفها الله تعالى، ويقوم عليها بما أمره الله عزّ وجل فإنها أعدى له من إبليس ، وإنما يقوى عليه إبليس بها وبقبولها منه ، فيعرف أىّ شىء طباعها ، وما إرادتها ، وإلام تدعو، وبم تأمر ، وكيف خلقها خلقة ضعيفة قوى طمعها شرهة مدعية خارجة عن طاعة الله سبحانه ، متملكة متمنية ، خوفها أمن ، ورجاؤها أمانى ، وصدقها كذب ، ودعواها باطلة ، وكل شىء منها غرور ، وليس لها فعل محمود ، ولا دعوى حقّ فلا تغرّنه بما يظهر له منها ، ولا يرجو بما تأمل إن حلّ عنها قيودها شردت ، وإن أطلق وثاقها جمحت ، وإن أعطاها سؤلها هلكت ، وإن غفل عن محاسبتها أدبرت ، وإن عجز عن مخالفتها غرقت ، وإن اتبع هواها تولت إلى النار وفيها هوت ، ليس لها حقيقة ولا رجوع إلى خير ؛ وهى رأس البلاء ومعدن الفضيحة وخزانة إبليس ومأوى كلّ سوء ، ولا يعرفها أحد غير خالقها عزّ وجل ، فهى فى الصفة التى وصفها الله عزّ وجل ، كلما أظهرت خوفا ، فهو أمن ، وكلما ادّعت صدقا فهو كذب ، وكلما ذكرت إخلاصها فهو رياء وإعجاب عند الحقائق ؛ يبين صدقها ويعرف كذبها ، وعند الامتحان ترجع إلى دعواها ، فليس بلاء عظيم إلا وقد حلّ بها ؛ فعلى العبد محاسبتها ومراقبتها ومخالفتها ومجاهدتها فى جميع ما تدعو إليه وتدخل فيه ، فليس لها دعوى حقّ ، وإنما تسعى فى هلاكها ودمارها ، ولا توصف بشىء إلا وهى أكثر مما توصف ، فهى كنز إبليس ومستراحه ومسامرته ومحدّثته وصديقته، فإذا عرف العبد صفتها فقد عرفها وهانت عليه وذلت وقوى عليها بالله عزّ وجل ، فإذا اجتمعت فى العبد هذه الخصال الثلاث ، فليستعن بالله عزّ وجل عليهن ، ولا يغفل ولا يطيع نفسه ، لأنه إذا قوى على أدب نفسه ومخالفتها عما تهوى قوى على الخصال كلها إن شاء الله تعالى ، فعليه ببذل التقدّم بالعزم بالله عزّ وجل وحده لا شريك له ، ولايميلنّ فى هذا كله إلى أحد غير الله عزّ وجل ، فإنه إن فعل ذلك فلا يوفق لخير ويكله الله عزّ وجل إلى نفسه ، فينبغى له أن يستعين بالله تعالى فى هذا كله ويتبع مرضاته فى جميع ما أمره الله به ونهاه ، لايريد بذلك أحدا غير الله عزّ وجل ، فإذا فعل ذلك أرشده الله ووفقه وأحبه وجنبه مكارهه وستره بستر الأصفياء العلماء بالله ، الذين بذلك نالوا العلم بالله عزّ وجل . وأما معرفة العمل لله عزّ وجل ، فأن يعلم العبد أن الله عزّ وجل أمره بأمور ونهاه عن أمور ، فالذى أمره به هو الطاعة ، والذى نهاه عنه هو المعصية له عزّ وجل وأمره بالإخلاص فيهما والقصد إلى سبيل الهدى على نهج الكتاب والسنة ، ولا يكون فى ضميره فى فعله كل شىء غير الله عزّ وجل ، ولا يكن ممن ترك المعاصى الظاهرة ، وأعرض عن ترك المعاصى الباطنة التى هى أمهات الذنوب وأصولها ، لأن الله تعالى ليس على هذا وعد بالمغفرة ، ولا على هذا ضمن الثواب فى دار الجزاء ، فلا يجهدنّ العبد فى العبادة بالظاهر بفساد النية وسقم الإرادة ، فتعود إذ ذاك طاعاته معاصى كلها ، فتحلّ به عقوبات الدنيا والآخرة مع تعب البدن وقلة المرادبه وترك الشهوة

واللذة ، فيخسر الدنيا والآخرة ، ولكن يزين طاعته بالإخلاص والتقوى والورع ونيته بالصدق ، ويحفظ إرادته بالمحاسبة ، وليكن همه طلب النية الصادقة ، وعزمه طلب الإخلاص والتوحيد فى أقواله وأفعاله وأحواله أجمع عند أخذه فى الطاعة ، وإعراضه عن المعصية ، حتى يثبت معرفة النية ، كما يثبت معرفة العمل . وينبغى له أن يحترز من أن يخدعه إبليس اللعين بغوائله ، ويصرعه بمصائده ، ويوقعه فى فخوخه ، ويذهب به بمكره وخدعه ، فان له مصائد مسجلات فى القلوب ، وغوائل شهية وظرائف لذيذة ، يحسبه الجاهل نورا ويقينا ، وهو شك وظلمة ، يفتح له مائة باب من الطاعة ، يريد بذلك أن يدخله فى أدنى منزلة يستغرق عمله بها ، فإياه ثم إياه الحذر الحذر ، فإن قدر أن يتعلم خدعه كما يتعلم القرآن فليفعل ، فبهذا أمره الله جل ثناؤه ، فليحذره العبد فى طاعته ، كما يحذره فى معاصيه ، فإن خطر بباله أمر أودعته نفسه إلى شىء أو تحرك بحركة فلا يعجلن دون المعرفة والعلم ، وليرفق بنفسه ويترسل بترسل العلماء ، وبمجالس الفقهاء العالمين بالله وبأمره ونهيه ، حتى يدلوه على طريق الله عز وجل ، ويعرفوه ذلك ويدلوه على دوائه ودائه على ما قدمناه فى مجلس التوبة . ولا ينبغى له أن يغتر بطول القيام وكثرة الصيام والنوافل الظاهرة بلا معرفة منه بعمله ؛ فإذا كان كذلك ورأى فعله مع معرفته بنفسه وبربه وبعدوه صح فعله ، فعندها يورث العلم والفقه ، فما كان من علم ظاهر أو باطن نظر إن كان لله خالصا صادقا قبله الله منه وأثابه عليه ، وإن كان غير ذلك رده عليه فلم يسقط له عند ذلك فعل ولا يخفى عليه أمر ؛ فإذا كان فقد كذلك أعطى كل خلق حسن وصح عقله وثبت عمله وزاد حلمه ، وكان من أولياء الله وأصفيائه الذين بالله ينظرون ، وبالله يتكلمون ، وبه يأخذون ، وبه يعطون ، ومع ذلك اتهم نفسه واتهم هواه على نفسه ودينه ، واتهم إبليس ، فحينئذ اتهم مع ذلك معرفته بنفسه على معرفته بها .

(فصل) ولأهل المجاهدة والمحاسبة وأولى العزم عشر خصال جربوها لأنفسهم ، فإذا أقاموها وأحكموها بإذن الله تعالى وصلوا إلى المنازل الشريفة .

أولها : أن لا يحلف العبد بالله عز وجل صادقا ولا كاذبا ، عامدا ولا ساهيا ، لأنه إذا أحكم ذلك من نفسه وعود لسانه رفعه ذلك أن يترك الحلف ساهيا وعامدا ، فإذا اعتاد ذلك فتح الله له بابا من أنواره يعرف منفعة ذلك فى قلبه ، وزيادة فى بدنه ، ورفعة فى درجته ، وقوة فى عزمه وفى بصره ، والثناء عند الإخوان وكرامة عند الجيران حتى يأتمر به من يعرفه ويهابه من يراه .

والثانية : أن يجتنب الكذب هازلا وجادا ، لأنه إذا فعل ذلك وأحكمه من نفسه واعتاده لسانه : شرح الله به صدره وصفى به علمه ، حتى كأنه لا يعرف الكذب ، وإذا سمعه من غيره عاب ذلك عليه وعيره به فى نفسه ، وإن دعا له بزوال ذلك كان له ثوابا .

والثالثة : أن يحذر أن يعد أحدا شيئا فيخلفه إياه ، وهو يقدر عليه إلا من عذر بين ، أو يقطع العدة البتة ، فإنه أقوى لأمره وأقصد لطريقه ، لأن الخلف من الكذب ، فإذا فعل ذلك

فتح له باب السخاء ودرجة الحياء ، وأعطى مودّة فى الصادقين ، ورفعة عند الله جلّ ثناؤه :

والرابعة : يجتنب أن يلعن شيئا من الخلق ، أو يؤذى ذرّة فما فوقها ، لأنها من أخلاق الأبرار والصادقين ، وله عاقبة حسنة فى حفظ الله إياه فى الدنيا ، مع ما يدّخر له عنده من الدرجات ، ويستنقذه من مصارع الهلكة ، ويسلمه من الخلق ، ويرزقه رحمة العباد والقرب منه عزّ وجل .

والخامسة : يجتنب أن يدعو على أحد من الخلق وإن ظلمه ، فلايقطعه بلسانه ولا يكافئه بفعاله ، ويحتمل ذلك لله تبارك وتعالى ، ولا يكافئه بقول ولا فعل ، فإن هذه الخصال ترفع صاحبها فى الدرجات العلا ، إذا تأدّب بها ينال بها منزلة شريفة فى الدنيا والآخرة ، والحبّ والمودة فى قلوب الخلق أجمعين من قريب وبعيد ، وإجابة الدعوة والعلوّ فى الخير ، والعزّ فى الدنيا فى قلوب المؤمنين .

والسادسة : أن لا يقطع الشهادة على أحد من أهل القبلة بشرك ولا كفر ولا نفاق ، فإنه أقرب للرحمة وأعلى فى الدرجة ، وهى تمام السنة وأبعد عن الدخول فى علم الله سبحانه وتعالى ، وأبعد من مقت الله عزّ وجل ، وأقرب إلى رضا الله تعالى ورحمته ، فإنه باب شريف كريم على الله ، يورث العبد الرحمة للخلق أجمعين .

والسابعة : يجتنب النظر والهمّ إلى شىء من المعاصى ظاهرا وباطنا ، ويكف عنها جوارحه ، فإن ذلك من أسرع الأعمال ثوابا للقلب والجوارح فى عاجل الدنيا ، مع ما يدّخر الله تعالى له من خير الآخرة ، نسأل الله تعالى أن يمنّ علينا أجمعين بالعمل بهذه الخصال ، وأن يخرج شهواتنا من قلوبنا .

والثامنة : يجتنب أن يجعل على أحد من الخلق منه مؤنة صغيرة ولا كبيرة ، بل يرفع مؤنته عن الخلق أجمعين ، مما احتاج إليه واستغنى عنه ، فإن ذلك تمام عزّة العابدين وشرف المتقين ، وبه يقوى على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ ويكون الخلق عنده أجمعون بمنزلة واحدة فى الحقّ سواء ، فإذا كان كذلك نقله الله تعالى إلى الفناء واليقين والثقة به عزّ وجل ، ولا يرفع أحدا بهواه ؛ ويكون الناس عنده فى الحقّ سواء ، ويقطع بأن هذا الباب عزّ المؤمنين وشرف المتقين ، وهو أقرب باب إلى الإخلاص .

والتاسعة : ينبغى له أن يقطع طمعه من الآدميين لا يطمع نفسه فى شىء مما فى أيديهم ، فإنه العزّ الأكبر ، والغنى الخالص ، والملك العظيم ، والفخر الجليل ، واليقين الصادق ، والتوكل الشافى الصحيح ، وهو باب من أبواب الثقة بالله عزّ وجل ، وهو باب من أبواب الزهد ، وبه ينال الورع ويكمل نسكه ، وهو من علامات المنقطعين إلى الله تبارك وتعالى .

الخصلة العاشرة : التواضع لأنه بذلك يشيد مجد درجته وتعلو منزلته ، ويستكمل العزّ والرفعة عند الله تعالى وعند الخلق ، ويقدر على ما يريد من أمر الدنيا والآخرة ، وهذه الخصلة أصل

الطاعات كلها وفرعها وكمالها ؛ وبها يدرك العبد منازل الصالحين الراضين عن الله تعالى فى الضراء والسراء ، وهى كمال التقوى والتواضع ، هو أن لا يلقى العبد أحدا من الناس ، إلا رأى له الفضل عليه ، ويقول عسى أن يكون عند الله خيرا منى وأرفع درجة ، فإن كان صغيرا قال : هذا لم يعص الله وأنا قد عصيت ، فلا أشك أنه خير منى ، وإن كان كبيرا قال : هذا عَبَدَ الله قبلى ؛ وإن كان عالما قال : هذا أعطى ما لم أبلغ ونال مالم أنل ، وعلم ما جهلت وهو يعمل بعلم ، وإن كان جاهلا قال : هـذا عصى الله بجهل ، وأنا عصيته بعلم ، ولا أدرى بم يختم له ، وبما يختم لى وإن كان كافرا قال : لا أدرى عسى يسلم هـذا فيختم له بخير العمل ؛ وعسى أكفر أنا فيختم لى بشرّ العمل ، وهذا باب الشفقة والوجل ، وأوّل ما يصحب وآخر ما يبقى على العباد ، فإذا كان العبد كذلك سلمه الله من الغوائل ، وبلغ به منازل النصيحة لله عزّ وجل ، وكان من أصفياء الرحمن وأحبابه ، وكان من أعداء إبليس عدوّ الله لعنه الله وهو باب الرحمة ، ومع ذلك يكون قد قطع طريق الكبر وحبال العجب ، ورفض درجة العلوّ وجانب درجة التعزّز فى نفسه فى الدين والدنيا والآخرة ، وهو مخ العبادة وغاية شرف الزاهدين وسيما الناسكين ، فلا شىء أفضل منه ، ومع ذلك يقطع لسانه عن ذكر العالمين ، فلا يتمّ له عمل إلا به ، ويخرج الغلّ والبغى والكبر من قلبه فى جميع أحواله ، وكان لسانه فى السرّ والعلانية واحدا ومشيئته فى السرّ والعلانية واحدا وكلامه كذلك ، والخلق عنده فى النصيحة واحدا ، ولا يكون من الناصحين ، وهو يذكر أحدا من خلق الله بسوء أو يعيره بفعل ، أو يحبّ أن يذكر عنـده بسوء ، أو يرتاح قلبه إذا ذكر عنده بسوء ، وهذا آفة العابدين وعطَب النساك وهلاك الزاهدين ، إلا من أعانه الله عز وجل على حفظ لسانه وقلبه برحمته .

(فصل) وأما التوكل ، فالأصل فيه قوله عزّ وجل (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقوله تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رأيت الأمم بالموسم ، فرأيت أمتى قد ملأت السهل والجبل فأعجبتنى كثرتهم وهيئتهم ، فقيل لى : أرضيت ؟ قلت نعم ، قيل : ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة بن محصن الأسدى فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهمّ اجعله منهم ، فقام آخر فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : سبقك بها عكاشة » وحقيقة التوكل : تفويض الأمور إلى الله عزّ وجل والتنقى عن ظلمات الاختيار والتدبير والترقى إلى ساحات شهود الأحكام والتقدير ، فيقطع العبد أن لا تبديل للقسمة ، فما قسم له لايفوته ، وما لم يقدر له لاينالُه ، فيسكن قلبه إلى ذلك ، ويطمئن إلى وعد مولاه ، فيأخذ من مولاه . والتوكل ثلاث درجات : وهى التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض . فالمتوكل يسكن إلى وعد ربه ، وصاحب التسليم يكتفى بعلمه ، وصاحب التفويض

يرضى بحكمه . وقيل : التوكل بداية ، والتسليم وسط ، والتفويض نهاية . وقيل : التوكل صفة المؤمنين ، والتسليم صفة الأولياء ، والتفويض صفة الموحدين . وقيل : التوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خواصِ الخواص . وقيل : التوكل صفة الأنبياء ، والتسليم صفة إبراهيم ، والتفويض صفة نبينا صلوات الله عليهم أجمعين . فالتوكل على كمال الحقيقة وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام : فى الوقت الذى فيه قال لجبريل عليه السلام : أما إليك فلا ، لأنه غابت نفسه حتى لم يبق لها أثر ، فلم ير مع الله تعالى غير الله عزّ وجل . وقال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى : أول مقام فى التوكل أن يكون العبد بين يدى الله عزّ وجل كالميت بين يدىٰ الغاسل يقلبه كيف أراد ، لا يكون له حركة ولا تدبير ؛ فالمتوكل على الله سبحانه وتعالى يكون لا يسأل ولا يريد ولا يرد ولا يحبس . وقيل أيضا : التوكل هو الاسترسال . وقال حمدون رحمه الله تعالى : هو الاعتصام بالله عز وجل. وقال إبراهيم الخوّاص رحمه الله تعالى : حقيقة التوكل إسقاط الخوف والرجاء مما سوى الله عزّ وجل وقيل : التوكل ردّ العيش إلى يوم واحد ، وإسقاط هم غد . وقال أبو علىّ الروذبارى رحمه الله تعالى : مراعاة التوكل ثلاث درجات . الأولى منها : إذا أعطى شكر ، وإذا منع صبر ؛ والثانية : أن يكون العبد المنع والعطاء عنده واحد . والثالثة : المنع مع الشكر أحبّ إليه لعلمه باختيار الله تعالى له ذلك . وروى عن جعفر الخلدى قال : قال إبراهيم الخوّاص رحمه الله تعالى : كنت فى طريق مكة مارّا ، فرأيت شخصا وحشيا ، فجئت إليه فقلت : أجنىّ أم أنسىّ؟ فقال : بل جنىّ فقلت : إلى أين ؟ فقال : إلى مكة ، فقلت له : بلا زاد ولا راحلة ؟ قال : نعم إن فينا أيضا من يسافر على التوكل ، فقلت له : ما التوكل ؟ قال : الأخذ من الله . وقال سهل رحمه الله تعالى : هو معرفة معطى أرزاق المخلوقين ، ولا يصحّ لأحد التوكل حتى يكون عنده السماء كالصفر والأرض كالحديد ، لا ينزل من السماء مطر ، ولا يخرج من الأرض نبات ، ويعلم أن الله لا ينسى له ما ضمن له من رزقه بين هذين . وقيل : هو أن لا تعصى الله تعالى من أجل رزقك . وقال بعضهم : حسبك من التوكل أن لا تطلب لنفسك ناصرا غير الله تعالى، ولا لرزقك خازنا غيره ، ولا لعملك شاهدا غيره . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : التوكل أن تقبل بالكلية على ربك وتعرض عمن دونه . وقال النورى رحمه الله تعالى : هو أن تفنى تدبيرك فى تدبيره ، وترضى بالله وكيلا ومدبرا ونصيرا . قال الله تعالى (وكفى بالله وكيلا) . وقيل : هو اكتفاء العبد الذليل بالربّ الجليل ، كاكتفاء الخليل بالجليل حين لم ينظر إلى عناية جبريل عليه السلام. وقيل: هو السكون عن الحركات اعتمادا على خالق الأرض والسموات . وقيل لبهلول المجنون رحمه الله تعالى : متى يكون العبد متوكلا ؟ قال : إذا كان بالنفس غريبا بين الخلق ، وبالقلب قريبا إلى الحق . وقيل لحاتم الأصمّ رحمه الله تعالى : علام بنيت أمرك هذا من التوكل؟قال : على أربع خلال علمت أن رزقى ليس يأكله غيرى فلست أشتغل به ، وعلمت أن عملى لا يعمله غيرى فأنا

مشغول به ، وعلمت أن الموت يأتى بغتة فأبادره ، وعلمت أنى بعين الله تعالى فى كل حال فأنا مستح منه . وعن أبى موسى الدبيلى قال : سألت عبد الرحمن بن يحيى عن التوكل فقال لى : لو أدخلت يدك فى فم التنين حتى تبلغ إلى الرسغ لم تخف مع الله شيئا ، فقال أبو موسى رحمه الله تعالى فخرجت إلى أبى يزيد البسطامى رحمه الله تعالى أسأله عن التوكل ، فدققت عليه الباب فقال لى : يا أبا موسى ما كان لك فى جواب عبد الرحمن من القناعة حتى تجيء وتسألنى ؟ فقلت : يا سيدى افتح الباب ، فقال : لو جئتنى زائرا لفتحت لك الباب ، خذ الجواب من الباب ، فانصرفت ، فلو أن الحية التى هى مطوقة بالعرش همت بك لم تخف مع الله شيئا . قال أبو موسى رحمه الله تعالى : فانصرفت حتى جئت إلى دبيل ، فأقمت بها سنة ، ثم اعتقدت الزيارة ، فخرجت إلى أبى يزيد ، فلما وصلت إليه قال لى : الآن جئتنى زائرا مرحبا بالزائر ادخل ، فأقمت عنده شهرا لا يقع لى شيء إلا أخبرنى به قبل أن أسأله ، فقلت له : يا أبا يزيد أريد الخروج فأطلب منك فائدة فقال اعلم أن فائدة المخلوقين ليست بفائدة ، فانصرف ، فجعلتها فائدة وانصرفت . وعن ابن طاوس اليمانى رحمه الله تعالى عن أبيه طاوس رحمه الله تعالى قال : إن أعرابيا جاء براحلة له فبركها وعقلها ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، فقال اللهمّ إن هذه الراحلة وما عليها فى ضمانك ، حتى أخرج إليها ومضى ، ثم دخل المسجد الحرام ، فخرج الأعرابىّ من المسجد الحرام ، وقد أخذت الراحلة وما عليها ، فرفع رأسه إلى السماء وقال : اللهمّ ما سرق منى شيء وما سرق إلا منك . قال طاوس : فبينا نحن كذلك مع الأعرابى إذ رأينا رجلا نازلا من رأس جبل أبى قبيس يقود الراحلة بيده اليسرى ، ويده اليمنى مقطوعة معلقة فى عنقه ، حتى جاء إلى الأعرابى فقال : خذ راحلتك وما عليها ؛ فسألته عن حاله ، فقال : استقبلنى فارس على فرس أشهب فى رأس أبى قبيس ، فقال لى : يا سارق مدّ يدك ، قال : فمددتها فوضعها على حجر ثم أخذ حجرا آخر فبتلها وعلقها فى عنقى ، وقال : انزل وردّ الراحلة وما عليها إلى الأعرابىّ . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا » . وروى محمد بن كعب عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتقّ الله ، ومن سرّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق منه مما فى يديه » . وكان عمر رضى الله عنه يتمثل بهذين البيتين :

هوّن عليك فإن الأمور ... بأمر الإله مقاديرها

فليس بآتيك مصروفها ... ولا هارب عنك مقدورها

وسئل يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى : متى يكون الرجل متوكلا ؟ فقال : إذا رضى بالله وكيلا وقال بشر رحمه الله تعالى : يقول أحدهم : توكلت على الله وهو كاذب ، والله فإنه لو توكل على الله رضى بما يفعل الله به . وقال أبو تراب النخشبى رحمه الله تعالى : هو طرح البدن فى العبودية ،

وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية ، فإن أعطى شكر ، وإن منع صبر . وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى : التوكل : ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوّة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى أيضا لرجل سأله عن التوكل فقال : هو خلع الأرباب ، وقطع الأسباب ؛ فقال له السائل : زدنى ، فقال : إلقاء النفس فى العبودية وإخراجها من الربوبية . وقال أيضا : هو انقطاع المطامع . وأما الحركة بالظاهر التى هى الكسب بالسنة فلا تنافى توكل القلب بعد ما يتحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى فى قلبه ، لأن محل التوكل القلب وهو تحقيق الإيمان ؛ فمن أنكر الكسب فقد أنكر السنة ، ومن أنكر التوكل فقد أنكر الإيمان ، فإن تعسر شىء من الأسباب فبتقدير الله عزّ وجل ، وإن تيسر شىء منها فبتيسيره عزّ وجل ، فتكون جوارحه وظواهره متحركة فى السبب بأمر الله عزّ وجل ، وباطنه ساكن لوعد الله عز وجل . وقد روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال « جاء رجل على ناقة له فقال : يارسول الله أدعها وأتوكل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : اعقلها وتوكل » . وقيل : المتوكل كالطفل لايعرف شيئا يأوى إليـه إلا ثدى أمه ، كذلك المتوكل لا يهتدى إلا إلى ربه عزّ وجل . وقيل : التوكل نفى الشكوك والتفويض إلى مالك الملوك . وقيل : التوكل الثقة بما فى يد الله عزّ وجل ، واليأس مما فى أيدى الناس . وقيل : التوكل إفراغ السرّ عن التفكر للتقاضى فى طلب الرزق .

(فصل) وأما حسن الخلق فالأصل فيه قول الله عزّ وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم فى كتابه المنزل عليه (وإنك لعلى خلق عظيم) وما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال « قيل يا رسول الله : أىّ المؤمنين أفضل إيمانا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أحسنهم خلقا » الخلق الحسن أفضل مناقب العبد وبه تظهر جواهر الرجال ، والإنسان مستور بخلقه مشهور بخلقه . وقيل : إن الله عز وجل خصّ نبيه ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بما خصّ به من المعجزات والكرامات والفضائل ، ثم لم يثن عليه بشىء من خصاله بمثل ما أثنى عليه بخلقه ، فقال عزّ من قائل (وإنك لعلى خلق عظيم) وقيل : إنما وصفه الله تعالى بالخلق لأنه جاد بالكونين ، واكتفى بالله عزّ وجل . وقيل : الخلق العظيم أن لا يخاصِم ولا يخاصَم من شدة معرفته بالله تعالى . وقيل : معناه لم يؤثر فيه جفاء الخلق بعد مطالعته للحقّ . وقال أبو سعيد الخرّاز رحمه الله تعالى هو أن لا تكون له همة غير الله عزّ وجل . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : سمعت الحارث المحاسبى يقول : فقدنا ثلاثة أشياء : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الأمانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء . وقيل : الخلق الحسن استصغار ما منك واستعظام ما إلىك ، وقيل : علامة حسن الخلق كفّ الأذى ، واحتمال المؤن ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضى الله عنهم : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق » .

(فصل) وحسن الخلق مع الله عزو جل أن تؤدى أوامره ، وتترك نواهيه ، وتطيعه فى الأحوال كلها من غير اعتقاد استحقاق العوض عليه ، وتسلم جميع المقدور إليه من غير تهمة ، وتوحده من غير شرك ، وتصدقه فى وعده من غير شك . وقيل لذى النون المصرى رحمه الله تعالى

من أكثر الناس هما ؟ قال : أسوأهم خلقا . وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى فى قوله عزّ وجل (وثيابك فطهر) : أى خُلُقك فحسن . وقيل فى قوله تعالى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) قيل : الظاهرة : تسوية الخلق ، والباطنة : تصفية الخلق . وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى : هل فرحت فى الدنيا قط ؟ فقال : نعم ، مرتين ، إحداهما : كنت قاعدا ذات يوم فجاء كلب وبال علىّ ؛ والثانية كنت قاعدا فجاء إنسان وصفعنى . وقيل : كان أويس القرنى رحمه الله تعالى إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة ، فيقول : إن كان لا بدّ فارمونى بالصغار لئلا تدموا ساقى وتمنعونى عن الصلاة . وقيل : شتم رجل أحنف بن قيس رحمه الله تعالى وكان يتبعه ، فلما قرب من الحىّ وقف وقال : يافتى إن كان بقى فى قلبك شىء فقله كيلا يسمعك بعض سفهاء القوم فيجيبوك . وقيل لحاتم الأصمّ رحمه الله تعالى : يحتمل الرجل من كل أحد ، قال : نعم ، إلا من نفسه . وروى أن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه دعا غلاما فلم يجبه ، فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه ، فقام إليه فرآه مضطجعا ، فقال : أما تسمع يا غلام ؟ قال : نعم ، قال : ما حملك على ترك جوابى ؟ قال : أمنت عقوبتك فتكاسلت ، فقال : امض فأنت حرّ لوجه الله عزّ وجل . وقيل : الخلق الحسن أن تكون من الناس قريبا وفيما بينهم غريبا . وقيل : الخلق الحسن قبول ما يرد عليك من جفاء الخَلْق وقضاء الحق بلا ضجر ولا قلق . وقيل : مكتوب فى الإنجيل : عبدى اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب . وقالت امرأة لمالك ابن دينار رحمه الله تعالى : يا مرائى ، فقال : ياهذه قد وجدت اسمى الذى أضلّه أهل البصرة . وقال لقمان لابنه : يابنىّ لا تعرف ثلاثا إلا عند ثلاث : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الحرب ، والأخ عند الحاجة إليه . وقال موسى عليه السلام : يا إلهى أسألك أن لا يقال لى ماليس فىّ ، فأوحى الله تعالى إليه : ما فعلت ذلك لنفسى ، فكيف أفعله لك ؟ ؟

(فصل) وأما الشكر فالأصل فيه قوله عزّ وجل (لئن شكرتم لأزيدنكم) وما روى عن عطاء رحمه الله تعالى قال : « دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت : أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكت ثم قالت : وأىّ شىء من شأنه لم يكن عجبا ؟ ! إنه أتانى فى ليلة فدخل معى فى فراشى ، أو قالت : فى لحافى ، حتى مسّ جلدى جلده ، ثم قال : يابنت أبى بكر ذرينى أتعبد لربى ، قالت : فقلت : إنى أحبّ قربك ، ولكنى أوثر هواك ، فأذنت له صلى الله عليه وسلم فقام إلى قربة من ماء ، فتوضأ وأكثر صب الماء ، ثم قام فصلى ، فبكى حتى سالت دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم كذلك حتى جاء بلال رضى الله عنه فأخبره بالصلاة ، فقلت : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ ولم لا أفعل ، وقد أنزل الله عزّ وجل علىّ : إن فى خلق السموات والأرض » الآية . وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق : الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع وعلى هذا المعنى وصف الله تعالى نفسه بأنه الشكور توسعا ، معناه أنه يجازى العباد على الشكر ،

فسمى جزاء الشكر شكرا ، كما قال الله عزّ وجل (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وقيل : حقيقة الشكر الثناء على المحسن بذكر إحسانه ، فشكر العبد لله تعالى ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه ، وشكر الحق سبحانه للعبد ثناؤه عليه بذكر إحسانه له ، ثم إن إحسان العبد طاعته لله ، وإحسان الحق سبحانه إنعامه على العبد، وشكر العبد على الحقيقة إنما هو نطق اللسان وإقرار القلب بإنعام الربّ ؛ ثم الشكر ينقسم أقساما : إلى شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة ، وشكر بالبدن والأركان وهو اتصاف بالوفاء والخدمة ، وشكر بالقلب وهو انعكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة . وقيل : شكر العينين أن تستّر عيبا تراه لصاحبك ، وشكر الأذنين أن تستّر عيبا تسمعه فيه . وفى الجملة الشكر أن لا تعصى الله تعالى بنعمه ، ويقال : شكر هو شكر العالمين فيكون من جملة أقوالهم : وشكر هو شكر العابدين ، فيكون نوعا من أفعالهم ، وشكر هو شكر العارفين ، يكون باستقامتهم له عزّ وجل فى عموم أحوالهم ، واعتقادهم أن جميع ما هم فيه من الخير وما يظهر منهم من الطاعة والعبودية والذكر له عزّ وجل بتوفيقه وإنعامه ، وعونه وحوله وقوّته عز وجل ؛ وانعزالهم عن جميع ذلك والفناء فيه والاعتراف بالعجز والقصور والجهل ، ثم الاستكانة إليه عزّ وجل فى جميع الأحوال . وقال أبو بكر الورّاق رحمه الله تعالى : شكر النعمة مشاهدة المنة وحفظ الحرمة . وقيل : شكر النعمة أن ترى نفسك فيه طفيليا . وقال أبو عثمان رحمه الله تعالى : الشكر معرفة العجز عن الشكر . وقيل : الشكر على الشكر أتمّ من الشكر ، وذلك أن ترى شكرك بتوفيقه ، ويكون ذلك التوفيق من أجل النعم عليك فتشكره على الشكر ، ثم تشكره على شكر الشكر إلى ما لا يتنا هى . وقيل : الشكر إضافة النعم إلى مولاها بنعت الاستكانة له . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة . وقيل : الشاكر الذى يشكر على الموجود ، والشكور الذى يشكر على المفقود ، و يقال : الشاكر الذى يشكر على النفع ، والشكور الذى يشكر على المنع ، ويقال : الشاكر الذى يشكر على العطاء ، والشكور الذى يشكر على البلاء ، ويقال : الشاكر الذى يشكر عند البذل ، والشكور الذى يشكر عند المطل ؛ وقال الشبلى رحمه الله تعالى : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة . وقيل : الشكر قيد الموجود وصيد المفقود ؛ وقال أبو عثمان رحمه الله تعالى : شكر العامة على المطعم والمشرب والملبس وشكر الخواصّ على ما يرد على قلوبهم من المعانى قال الله عزّ وجل (وقليل من عبادى الشكور) وقال داود عليه السلام : إلهى كيف أشكرك وشكرى لك نعمة من نعمك ؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه : الآن قد شكرتنى . وقيل : إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر ؛ وقيل : لما بُشر إدريس عليه السلام بالمغفرة سأل الحياة ، فقيل له ، لم ؟ فقال : لأشكره ، فإنى كنت أعمل قبله للمغفرة ، فبسط الملك جناحه وحمله إلى السماء . وقيل : مرّ بعض الأنبياء عليه السلام بحجر صغير يخرج منه الماء الكثير ، فتعجب منه ، فأنطقه الله له ، فسأله عن ذلك ، فقال : منذ سمعت الله عزّ وجل يقول (نارا وقودها الناس والحجارة) فأنا أبكى من خوفه ، فدعا ذلك النبيّ عليه السلام أن يجير ذلك الحجر من النار ، فأوحى الله عزّ وجل إليه . إنى قد

أجرته من النار ، فمرّ ذلك النبيّ ، فلما عاد وجد الماء ينفجر منه أوفر مما كان قبل ذلك ؛ فعجب ، فأنطق الله تعالى الحجر له ، فقال له : لم تبكي وقد غفر الله لك ؟ فقال : ذلك كان بكاء الحزن والخوف ، وهذا بكاء الشكر والسرور . وقيل : الشاكر مع المزيد، لأنه فى شهود النعمة ، قال الله تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم) ، والصابر مع الله لائذ به تعالى لأنه فى شهود البلاء ، قال الله تعالى (إن الله مع الصابرين) . وقيل : الحمد على الأنفاس ، والشكر على نعم الحواس . وقيل فى الخبر الصحيح : « أوّل من يدعى إلى الجنة الحمادون لله » . وقيل : الحمد على ما دفع ، والشكر على ما صنع . وحكي عن بعضهم أنه قال : رأيت فى بعض الأسفار شيخا كبيرا قد طعن فى السن ، فسألته عن حاله ، فقال : إنى كنت فى ابتداء عمرى أهوى ابنة عم لى ، وهى كذلك كانت تهوانى ، فاتفق أنى تزوجت بها ، فليلة زفافها قلت لها : تعالى حتى نحيي هذه الليلة شكرا لله عزّ وجل على ما جمعنا ، فصلينا تلك الليلة ولم يفرغ أحدنا إلى الآخر ، فلما كانت الليلة الثانية بتنا كذلك، و استمرّ بنا هكذا ، فمنذ سبعين سنة أو ثمانين سنة ونحن على تلك الحالة كل ليلة ، وكانت زوجته معه فسألها وقال لها : أليس كذلك يا فلانة ؟ فقالت العجوز : هو كما قال الشيخ .

(فصل) وأما الصبر فالأصل فيه قول الله عزّ وجل (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) ، وقوله عزّ وجل (واصبر وما صبرك إلا بالله) . وماروى عن عائشة رضى الله عنها ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الصبر عند الصدمة الأولى » وما روى « أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالى وسقم جسمى ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لاخير فى عبد لا يذهب ماله و لايسقم جسمه ، إن الله تعالى إذا أحبّ عبدا ابتلاه ، وإذا ابتلاه صبره » وما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله عزّ وجل لا يبلغها بعمله حتى يبتلى ببلاء فى جسمه فيبلغها بذلك » . وما جاء فى الخبر « أنه لما نزل قوله تبارك وتعالى (ومن يعمل سوءا يجز به) ، قال أبوبكر الصديق رضى الله عنه : يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : غفر الله لك يا أبا بكر أليس تمرض ؟ أليس يصيبك البلاء ؟ أليس تصبر ؟ أليس تحزن ؟ فهذا ما تجزون به » يعنى أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك . فالصبر على ثلاثة أضرب : أحدها : صبر لله عزّ وجل ، وهو على أداء أمره وانتهاء نهيه . وصبر مع الله عزّ وجل ، وهو الصبر تحت جريان قضائه وأفعاله فيك من سائر الشدائد والبلايا . وصبر على الله عزّ وجل ، وهو الصبر على ما وعد من الرزق والفرج والكفاية والنصر والثواب فى دار الآخرة . وقيل : الصبر على قسمين : أحدهما صبر على ما هو كسب للعبد ، وصبر على ما ليس بكسب له ، فالصبر على الكسب ينقسم على قسمين : أحدهما : على ما أمر الله به عزّ وجل . والثانى : على ما نهاه عزّ وجل عنه . وأما الصبر على ما ليس بكسب للعبد : فصبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله وقضائه فيما له فيه مشقة وألم فى القلب والجسد . وقيل : الصابرون ثلاثة : متصبر ، وصابر ، وصبار . وقيل : وقف

وجل على الشبلى رحمه الله تعالى فقال له : أى الصبر أشدّ على الصابرين ؟ قال : الصبر فى الله ، فقال : لا ، فقال : الصبر لله ، قال : لا ، قال : الصبر مع الله ، قال : لا ، قال فايش؟ قال : الصبر عن الله ، فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه تتلف . وقال الجنيد رحمه الله تعالى السير من الدنيا إلى الآخرة سهم هين على المؤمن ، وهجران الخلق فى جنب الحقّ شديد ، والسير من النفس إلى الله صعب شديد ، والصبر مع الله أشدّ . وسئل رحمه الله تعالى عن الصبر ؟ فقال تجرّع المرارة من غير تعبيس . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد . وقيل ذلك عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى : الصبر التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحة المعيشة . وقيل : الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب . وقيل : هو الفناء فى البلوى بلا ظهور شكوى . وقيل : الصبر هو المقام مع البلاء بحسن الصحبة ، كالمقام مع العافية ، وقيل : أحسن الجزاء على العبادة الجزاء على الصبر ، ولا جزاء فوقه ، قال الله تعالى : (ولنجزينّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) . وقال عزّ وجل (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) . وقيل : الصبر هو الثبات مع الله عزّ وجل ، وتلقى أذية بلائه بالرحب والسعة . وقال الخوّاص رحمه الله تعالى : الصبر الثبات مع الله تعالى على أحكام الكتاب والسنة . وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله تعالى : صبر المحبين أشدّ من صبر الزاهدين ، واعجبا كيف يصبرون ؟ وأنشد :

الصبر يحمل فى المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمل

وقيل : الصبر ترك الشكوى . وقيل : هو الاستكانة والاستعاذة بالله عزّ وجل . وقيل : هو الاستعانة بالله . وقيل : الصبر كاسمه هو أن لا يفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما ، والتصبر هو السكون مع البلاء مع وجدان أثقال المحنة .

(فصل) وأما الرضا فالأصل فيه قول الله عزّ وجل (رضى الله عنهم ورضوا عنه) ، وقوله تبارك وتعالى (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان) الآية . وروى عن ابن عباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله عزّ وجل ربا » وقيل : كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما : أما بعد ، فإن الخير كله فى الرضا ، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر . وروى عن قتادة رحمه الله تعالى فى قوله عزّ وجل (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودا) الآية ، هذا صنيع مشركى العرب ، أخبرنا الله عزّ وجل بخبث صنيعهم . فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له ، وقضاء الله عزّ وجل خير من قضاء المرء لنفسه ؛ وما قضاء الله لك يا ابن آدم فيما تكره خير لك مما قضى الله عزّ وجل لك فيما تحبّ ، فاتق الله تعالى وارض بقضائه . قال الله تبارك وتعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرّ لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون) يعنى ما فيه صلاح دينكم ودنياكم ، فالله عزّ وجل طوى عن الخلق مصالحهم ؛

وكلفهم عبوديته من اداء الأوامر وانتهاء المناهى ، والتسليم فى المقدور والرضا بالقضاء فيا لهم وعليهم فى الجملة ، واستأثر هو عزّ وجل بالعواقب والمصالح ، فينبغى للعبد أن يديم الطاعة لمولاه ، ويرضى بما قسم الله له ولا يتهمه .

واعلم أن تعب كل واحد من الخلق على قدر منازعتـه المقدور للقدر ، وموافقته لهواه وترك رضـاه بالقضاء ، فكل من رضى بالقضاء استراح ، وكل من لم يرض به طالت شقاوته وتعبه ولا ينال من الدنيا إلا ماقسم له ، فما دام هـواه متبعا قاضيا عليه فهو غـير راض بالقضاء ، لأن الهوى منازع للحق عز وجل ، فتعبه متكاثف متزايد ؛ فاستجلاب الراحـة فى مخالفة الهوى ، لأن فيه الرضا بالقضاء بلا بد واستجلاب التعب والنصب فى موافقة الهوى ، لأن فيه منازعة الحقّ عزوجل بلا بد ، فلا كان الهوى ، وإذا كان فلا كنا .

واختلف أهل العلم والطريقة فى الرضا هل هو من الأحوال ، أو من المقامات ؟ فقال أهل العراق : هو من جملة الأحوال ، وليس هو كسبا للعبد ، بل هو نازلة تحلّ بالقلب كسائر الأحوال ، ثم تحول وتزول ويأتى غيرها . وقال الخراسانيون : الرضا من جملة المقامات ، وهو نهاية التوكل حتى يئول إلى غاية ما يتوصل إليه العبد باكتسابه ، والجمع بينهما ممكن بأن يقال : بداية الرضا مكتسبة للعبد وهى من المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال وهى ليست بمكتسبة . وفى الجملة الراضى هو الذى لا يعترض على تقدير الله عزّ وجل . وقال أبو علىّ الدقاق رحمه الله تعالى : ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء ، إنما الرضا أن لا تعترض على الحكم والقضاء . وقد قالت المشايخ رحمهم الله تعالى : الرضا بالقضاء باب الله الأعظم وجنة الدنيا : أى من أكرم بالرضا فقد لقى بالرحب الأوفى ، وأكـرم بالقرب الأعلى . وقيل إن تلميذا قال لأستاذه : هـل يعرف العبد أن الله تبارك وتعالى راض عنـه ؟ قال : لا ، كيف يعلم ذلك ورضاه غيب ، فقال التلميذ : يعلم ذلك ، فقال كيف ؟ قال : إذا وجدت قلبى راضيا عن الله تعالى علمت أنه راض عنى ، فقال الأستاذ : لقد أحسنت يا غلام ، ولا يرضى العبد عن الله حتى يرضى الحقّ جل جلاله عنه ، قال الله عزّ وجل (رضى الله عنهم ورضوا عنه) أى برضاه عنهم رضوا عنه . وقيل : سأل موسى عليه السلام ربه عزّ وجل فقال : إلهى دلنى على عمل إذا عملته رضيت عنى فقال : إنك لا تطيق ذلك ، فخرّ موسى عليـه السلام ساجدا متضرّعا ، فأوحى الله عزّ و جل إليه : يا بن عمران إن رضائى فى رضاك بقضائى . وقيل : من أراد أن يبلغ محلّ الرضا فليلزم ما جعل الله عزّ وجل رضاه فيه . وقيل : الرضا على قسمين : رضا به ، ورضا عنه ؛ فالرضا به مدبرا والرضا عنه فيا يقتضى حاكما وفاصلا . وقيل : الراضى أن لو جعلت جهنم عن يمينه ما سأل أن يحولها إلى يساره . وقيل : الرضا إخراج الكراهية من القلب حتى لا يبقى إلا فرح وسرور ؛ وسئلت رابعة العدوية رحمها الله تعالى متى يكون العبد راضيا بالقضاء ؟ فقالت رحمها الله تعالى : إذا سرّ بالمصيبة كما يسرّ بالنعمة . وقيل : قال الشبلى رحمـه الله تعالى بين يدى الجنيد رحمه الله تعالى : لا حول ولا قوّة إلا بالله ، فقال الجنيد رحمه الله : قولك ذا لضيق صدر ، وضيق الصدر

لترك الرضا بالقضاء . وقال أبو سليمان رحمه الله تعالى : الرضا أن لا تسأل الجنة من الله ، ولا تستعيذ به من النار . وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى : ثلاثة من علامات الرضا : ترك الاختيار قبل القضاء ، وفقدان المرارة بعد القضاء ، وهيجان الحبّ فى حشو البلاء . وقال أيضا رحمه الله تعالى : هو سرور القلب بمرّ القضاء . وسئل أبو عثمان رحمه الله تعالى عن قول النبيّ صلى الله عليه وسلم « أسألك الرضا بعد القضاء » قال : لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا ، والرضا بعد القضاء هو الرضا . وروى أنه قيل للحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما : أن أبا ذرّ رضى الله عنه يقول : الفقر أحبّ إلىّ من الغنى ، والسقم أحبّ إلىّ من الصحة ، والموت أحبّ إلىّ من الحياة ، فقال : رحم الله أبا ذرّ أما أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله لم يتمن غير ما اختار الله له . وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافى رحمهما الله تعالى : الرضا أفضل من الزهد فى الدنيا ، لأن الراضى لا يتمنى فوق منزلته ، والذى قال الفضيل هو الصحيح ، لأن فيه الرضا بالحال ، وكل خير فى الرضا بالحال . قال الله عزّ وجل لموسى عليه السلام (إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) أى ارض بما أعطيتك ولا تطلب منزلة غيره ، وكن من الشاكرين : يعنى بحفظ الحال ؛ وكذلك لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم (لا تمدّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه) فأدّب نبيه عليه الصلاة والسلام وأمره بحفظ الحال والرضا بالقضاء والعطاء بقوله تعالى (ورزق ربك خير وأبقى) أى ما أعطيتك من النبوّة والعلم والقناعة والصبر وولاية الدين والقدوة فيه أولى مما أعطيت غيرك وأحرى ، فالخير كله فى حفظ الحال والرضا به ، وترك الالتفات إلى ما سواه ، لأنه لا يخلو إما أن يكون ذلك قسمك أو قسم غيرك ، أو أنه لا قسم لأحد ، بل أوجده الله تعالى فتنة ، فإن كان قسمك فهو واصل إليك شئت أم أبيت . فلا ينبغى أن يظهر منك سوء الأدب والشره فى طلبه ، فإن ذلك غير محمود فى قضية العقل والعلم ، وإن كان قسم غيرك فلا تتعب فيما لا تناله ولا يصل إليك أبدا ، وإن كان ليس بقسم لأحد بل هو فتنة ، فكيف يرضى العاقل ويستحسن اللبيب أن يطلب لنفسه فتنة ويستجلبها . وقال قوم : الرضا بالقضاء هو أن يستوى عندك ما تحبّ وما تكره من قضائه عزّ وجل . وقال بعضهم : هو الصبر على مرّ القضاء . وقال آخر : هو طرح الكفّ بين يدى الله عزّ وجل والتسليم لأحكامه . وقال آخر : هو إسقاط التخير على المدبر . وقال آخر : هو ترك الاختيار . وقال بعضهم : أهل الرضا هم الذين قطعوا عن قلوبهم فى الأصل الاختيار ، فهم لا يختارون شيئا من الأشياء مما تريد أنفسهم ، ولا شيئا مما يريدون به الله ، ولا يسألونه ولا يطالعون حكما قبل نزوله ، فإذا وقع حكم من الله حيث لا يتشوّقون إليه ولم يطالعوه ، رضوا به فأحبوه وسرّوا به ، وقال : إن لله عبادا إذا وقع بهم الحكم من البلوى رأوه نعمة من الله عليهم ، فشكروه عليها وسرّوا بها ، ثم رأوا بعد سرورهم بالنعم أن اشتغالهم بالنعمة عن المنعم نقص ، فاشتغلت قلوبهم بالمنعم عن النعم فكان البلاء جاريا عليهم وقلوبهم غائبة عنه ؛ فلما استوطنوا هذا المقام وداوموا عليه نقلهم

مولاهم إلى ما هو أعلىٰ لهم وأسمى من ذلك ، لأن مواهبه عزّ وجل لا غاية لها ولا نهاية . وأقل ما فى الرضا أن ينقطع طمعه عما سوى الله عزّ وجل ، وقد ذمّ الله عزّ وجل الطمع فى غيره عزّ وجل ، فروى عن يحيى بن كثير أنه قال : قرأت التوراة فرأيت فيها أن الله سبحانه وتعالى يقول : ملعون من كان ثقته بمخلوق مثله . وروى فى بعض الأخبار أن الله سبحانه يقول : وعزّتى وجلالى وجودى ومجدى لأقطعنّ أمل كل مؤمل أمل غيرى باليأس ، ولألبسنه ثوب المذلة بين الناس ، ولأبعدنه من قربى ، ولأقطعنه من وصلى ، أيؤمل غيرى فى الشدائد والشدائد بيدى وأنا الحىّ ، ويرجى غيرى ويطرق بالفكر أبواب غيرى وهى مغلقة ومفاتيحها بيدى . وروى فى خبر آخر أن الله عزّ وجل يقول : ما من عبد يعتصم بى دون خلقى أعلم ذلك من قلبه ونيته ، فتكيده السموات والأرض ومن فيهنّ ، إلا جعلت له من ذلك مخرجا ؛ وما من عبد يعتصم بمخلوق دونى ، إلا قطعت أسباب السماء من فوقه ، وأسخت الأرض من تحت قدميه ، ثم أهلكه فى الدنيا وأتعبه فيها . وروى عن بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من تعزّز بالناس ذلّ » وقيل : من اتكل على مخلوق مثله ذلّ ، فكفاه الطمع بما يناله من اطلاع قلبه ، وتشتت همه وذله ومسكنته ، فقد اجتمع عليه أمران : ذلّ فى الدنيا ، وبعد من الله عزّ وجل بلا ازدياد فى رزقه ذرّة واحدة . وقال بعضهم : لا أعرف شيئا أضرّ على المريدين والطالبين من الطمع ، ولا أخرب لقلوبهم ولا أذلّ لهم ولا أظلم لقلوبهم ولا أبعد لهم ولا أشد تشتيتا لهمهم ، إنما كان ذلك كذلك لأنه شرك ، أينما كانوا ، لأن الرجل منهم أشرك بالله عزّ وجل حيث طمع فى مخلوق مثله لا يملك ضرّا ولا نفعا ولا عطاء ولا منعا ، فجعل ملك الملك لمملوكه ، فأنى يكون له ورع ، فلا يتحقق ورعه حتى ينسب الأشياء إلى مالكها عزّ وجل ، فيطلبها منه ولا يطلبها من غيره . وقيل : الطمع له أصل وفرع ، فأصله الغفلة وفرعه الرياء والسمعة والتزين والتصنع وحبّ إقامة الجاه عند الناس . وقال عيسى عليه السلام للحواريين : الطمع القتول الوحى . وعن بعضهم أنه قال : طمعت يوما مرّة فى شىء من أمر الدنيا ، فهتف بى هاتف وهو يقول : يا هذا إنه لا يحمد بالحرّ المريد اذا كان يجد عند الله كل ما يريد أن يركن بقلبه إلى العبيد . واعلم أن لله عبادا يخفى عليهم الطمع فيمن يملك لهم ما فيه ، يطمعون حتى تكون البركة داخلة عليهم من حيث لا يطمعون ، ويرون أن حالة الطمع . نقص فى الأحوال ، وهو أدنى درجة من درجات العارفين من أهل التوكل ، ولا يخطر على قلب مريد شىء من الطمع ويساكنه ، إلا لأجل كمال البعد من الله عزّ وجل ، حيث طمع فى مخلوق مثله ، وهو يرى أن مولاه مطلع عليه ، ثم لم يحجزه الخوف من ذلك .

(فصل) وأما الصدق فالأصل فيه قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وما روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يزال العبد يصدق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، ولا يزال يكذب

ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذّابا » : وقيل : إن الله أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود من صدّقنى فى سريرته صدّقته عند المخلوقين فى علانيته :

واعلم أن الصدق عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه ، وهو ثانى درجة النبوّة ، وهو قوله عزّ وجل (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين) والصادق هو الاسم اللازم من الصدق ، والصدّيق هو المبالغة منه ، وهو من تكرّر منه الصدق فصار دأبه وسجيته ، وصار الصدق غالبه ، فالصدق استواء السرّ والعلانية ؛ فالصادق هو الذى صدق فى أقواله ، والصدّيق من صدق فى أقواله وجميع أفعاله وأحواله . وقيل : من أراد أن يكون الله معه فليلزم الصدق ، فإن الله مع الصادقين . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : الصادق ينقلب فى اليوم أربعين مرة ، والمرائى يثبت على حالة واحدة أربعين سنة . وقيل : الصدق هو القول بالحقّ فى مواطن الهلكة . وقيل : الصدق موافقة السرّ بالنطق . وقيل : الصدق منع الحرام من الشدق . وقيل : الصدق الوفاء لله بالعمل . وقال سهل بن عبد الله : لا يشمّ رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره . وقال أبو سعيد القرشى رحمه الله تعالى : الصادق الذى يتهيأ أن يموت ولا يستحى من سرّه لو كشف قال الله تعالى (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) . وقيل : الصدق صحة التوحيد مع القصد . وقيل : حقيقة الصدق أن تصدق فى موطن لاينجيك منه إلا الكذب . وقيل : ثلاثة لا تخطىء الصادق : الحلاوة ، والهيبة ، والملاحة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى : الصدق سيف الله ما وضع على شىء إلا قطعه . وقال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى : أول جناية الصدّيقين حديثهم مع أنفسهم . وسئل فتح الموصلى رحمه الله تعالى عن الصدق ، فأدخل يده فى كانون الحداد وأخرج الحديد وهى تشتعل نارا ووضعها على كفه حتى بردت وقال : هذا هو الصدق . وسئل الحارث المحاسبى عن علامة الصدق ، فقال : الصادق هو الذى لايبالى لو خرج كل قدر له فى قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ، ولايحبّ اطلاع الناس على مثاقيل الذرّ من حسن عمله ، ولا يكره أن يطلع الناس على السيىء من عمله . فإن كراهته ذلك دليل على أنه يحبّ الزيادة عندهم ، وليس هذا من أخلاق الصديقين . وقال بعضهم : من لم يؤدّ الفرض الدائم لايقبل منه الفرض المؤقت . قيل : ما الفرض الدائم ؟ قال : الصدق . وقيل : إذا طلبت الله بالصدق أعطاك مرآة تنظر فيها كل شى من عجائب الدنيا والآخرة .